كتاب

البدء والتاريخ

تأليف

أبي زيد أحمد بن سهل البلخي

المتوفى سنة ٣٢٢ هـ

وضع حواشيه

خليل عمران المنصور

الجزء الأول

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن كتاب البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي يتحدث فيه المؤلف عن بدء الخليقة وكيفية تشكل الأمم ونشوء الدول وظهور الديانات السماوية وتطور الانسان منذ القدم ويستشهد بذلك بنصوص من التوراة والانجيل وآيات من القرآن الكريم وقد استعرض الفترات الزمنية للديانات وتناول أهم الأحداث التي كان لها الأثر الكبير في حياة الانسانية جمعاء والاعلام الذين ساهموا في ارساء دعائم الحضارة الانسانية كالاسكندر ذي القرنين وغيره كما تعرض للدول العظمى في العصور القديمة كالفرس والروم والاغريق وصراع هذه الدول لزعامة العالم القديم.ولم ينس مساهمة الاغريق وفلاسفة اليونان في وضع أسس الفلسفة والمنطق ومبادىء العلوم كافة فقد برعوا في كثير منها لا سيما الطب والفلسفة والفن وبحق فقد كانت حضارة الاغريق واليونان من أفضل الحضارات القديمة التي أرست أسس الحضارة الانسانية في جميع جوانب الحياة كما ساهم الفرس والروم بذلك وجاء الاسلام ليرفع راية الحق ولينشر العدالة في أرجاء العالم وليبث تعاليمه السمحة بين البشر وكان الرسول الكريم (ﷺ) المثل الأعلى للانسانية كافة فقد جاء بالفرقان الكريم كلام الله عزّ وجلّ ليضع القوانين الإلٰهية العادلة مستوعبة الحياة بجوانبها المتعددة كما استعرض الكتاب سيرة الرسول العربي الأمين محمد (ﷺ) قاصداً بذلك جعله المثل الأعلى في قيادة الدولة والمجتمع من خلال الآيات القرآنية وأحاديث النبي (ﷺ) ومن خلال المعارك التي خاضها الرسول وفتح مكة وأثر هذا الفتح على المسلمين وعلى شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة وامتداد الفتوحات بعد وفاة النبي (ﷺ) لتشمل بلاد الفرس وتحرير البلاد العربية الأخرى من سيطرة الروم لتصبح دولة الإسلام رافعة راية الحق وراية سيادة العالم القديم كاملاً.

لهذا فقد قمنا بتقديم وبعث هذا الكتاب القيم للقراء الأعزاء بأجمل عباراته وأبهى صوره ونرجو أن نكون وفقنا بتوضيح ما يشكل على القارىء والله من وراء القصد.

خليل عمران المنصور

ترجمة المصنف[1]

هو أحمد بن سهل أبو زيد البلخي الشامستياني[2]. توفي سنة ٣٢٢ هـ. من مصنفاته: أجوبة أبي القاسم الكنعي، أجوبة أبي القاسم المؤدب، أجوبة أبي علي بن المظفر، أجوبة أهل فارس، أجوبة مسائل أبي الفضل السكري، اختيارات السير، أسامي الأشياء، أسماء الله وصفاته، الأسماء والكنى والألقاب، أقسام العلوم، إنشاء علوم الفلسفة، البحث عن التأويلات، تفسير صور كتاب السماء والعالم، جواب رسالة ابن منير الزيادي، الردّ على عبدة الأصنام، رسالة السالفة إلى العاتب عليه، رسالة في حدود الفلسفة، رسالة الوراقة، السياسة الصغيرة، السياسة الكبيرة، شرائع الأديان، الشطرنج، صناعة الشعر، الصورة والمصور، الفتّاك والنسّاك، عصمة الأنبياء، فضل صناعة الكتابة، فضل مكة على سائر البقاع، فضيلة علم الأخبار، فضيلة علوم الرياضيات، القرابين والذبائح، قوارع القرآن، كتاب كمال الدين، ما غاب من غريب القرآن، ما يصحّ من أحوال النجوم، المصادر، مصالح الأبدان والأنفس، منية الكتاب، النحو والصرف، نظم القرآن، النوادر، كتاب الوصية، كتاب في سورة الحمد، كتاب البدء والتاريخ وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وغير ذلك.

---

(١) هدية العارفين (١/ ٥٩).

(٢) نسبة إلى شامستيان (بكسر الميم والتاء): من قرى بلخ.

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه الحول والقوّة

تسلّقَ الزائغون[١] عن المحجّة في التلبيس على الضعفاء وتعلّق المنحرفون، عن نهج الحقّ في إفساد عقيدة الأغبياء من طريق مبادىء الخلق، ومبانيه، وما إليه معادُه ومآله، تعلقاً به، ينبّهون غِرّة الغافل، ويُحيرون فطنة العاقل، وذلك من أنكى مكايدهم للدّين، وأثخن لبلوغهم في انتقاض الموحّدين، وَيَأْبَى ٱللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ ويُعلي كلمته ويفلج حجّته وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ وإنّ من عظيم الآفة على عوامّ[٢] الأُمّةِ تصدّيهم لمناظرة مَنْ ناظرهم بما تخيّل في أوهامهم، وانتصبَ في نفوسهم من غير ارتياضٍ[٣] بطرق العلم، ولا معرفة بأوضاع القول، ولا تحكُّك بأدب الجدل، ولا بصيرة بحقائق الكلام ثم القاؤهم بأيديهم عندَ أوّل صاكّةٍ[٤] تصكُّ أفهامَهم، وقارعةٍ تقرعُ أسماعَهم ضَرِعين خاشعين مُسْتَجْدِين مُستقلّين إلى ما لاح لهم بلا إجالة رويّة، ولا تعير عن خبيئةٍ[٥]؛ وعلى أهل الطَرَف والشَرَف منهم التخصيص بالنادر الغريب والرغبة عن الظاهر المستفيض والإيجابِ بغوامض الألفاظ الرائقة والكَلم الرائعة وإنْ كانت ناحلةَ المعاني نحيفةَ المغاني ضعيفةَ الضمائر واهيةَ القواعد؛ فقُصارَى نظرهم الاستخفاف بالشرائع والأديان التي هي وثاقُ الله تعالى في سياسة خلقه، وملاك أمره، ونظامُ الألفةِ بين عباده، وقوام معاشهم والمنبّهُ على معادهم الرادع لهم

---

(١) الزائغون: جمع زائغ: وهو مَنْ يميل عن الحقّ.

(٢) عوامّ الأمّة: عوام: جمع عامّة، وعامّة الأمّة: خلاف خاصتهم.

(٣) ارتياض: مصدر ارتاض، يُقال ارتاض المُهر: صار مُرُوضاً أي ذُلّل وطوّع (القاموس المحيط/ جـ ٢).

(٤) صاكّة: اسم فاعل من صكَّ: ويُقال صكّه: ضربه شديداً أو لطمه.

(٥) خبيئة: ما خُبّىءَ.

عن التباغي والتظالم، والمهيبُ بهم إلى التعاطف والتواصل، والباعثُ لهم على اعتقاد الذخائر من مشكور صنائع العاجل ومحمود ثواب الآجل. فتعرّض إلى ما هو منهّى عنه في حكمة العقلِ التعرضَ له من الاستهداف بقدح القادح، واستدعاءِ مقت الماقتِ، والسعي في إفسادِ ذاتِ البين[١]، والاستشرافِ للفتنة، وتلبيسِ الحقِّ على الضَعَفَة، وأكثر ما يعتري هذه البليّة طبقةُ أهلِ اللّسان والبيان؛ يظنّون ظنوناً كاذبةً، ويسمّون بهممٍ قاصرة إلى حيث يحجم همه البارز النقّاب[٢] عن التطلّع إلى أدناه. ويحقّ ما ذكره العُتبي في كتابه وإن كان دخيلاً في صناعته، متكلّفاً ما ليس من بزّته، حيثُ قالَ في صفة هذه الطبقةِ قد رضِي من الله ومن عباده عِوضاً أن يقالَ فلانٌ دقيقٌ وفلانٌ لطيفٌ يذهب إلى أنّ لطفَ النظرِ قد أخرجه عن جملة الناس، وبلغ به علمَ ما جهلوه، فهو يدعوهم الرَّعاعَ والغُثاء[٣] والغُثْر[٤]، وهو لعَمرِ الله بهذه الصفات أولى، وهي به أليقُ في أخواتٍ لهذه كثيرة، ويا لها من فضيحةٍ إذا أُخِذَتْ الحُجّةُ يكظُمُ أحدهُم وأَسبَلَ الحقُّ جَناحَه عليه بقي مبهوتاً منقطعاً قد خانته معرفتهُ وكذّبته أمنيتُه، وبدتْ عورتُه، وظهرتْ حيرتُه، وصار ضُحْكَةً للناظرين، ومثلاً سائراً في السّامعين بعدَ أن كان يظنّ ضُحْكَةَ لفضل علمٍ أو بيان. وكفى ذُلاً وحُزناً ودناءةً ونقصاً لراضٍ بهذه المنزلة ومعتزّ بتفريط السّفلةِ مقبلاً على لحمِه وعظمِه مضيّعاً أيامَ أَدَبه وَعلْمه؛ ومن كانت هذه حاله فحُقّ له النّكال[٥] والنكيرُ[٦] في العاجل مع ما يبوءُ به من ناهض الإثم وعظيمِ الإصْر في الآجل. ومن أعظم ذلك على أرباب القلانس[٧] وأصحابِ المجالسِ الذين طلبهم العلم لا لله، ولا لأنفسهم، ولكن للتصدّر والتقدّم، فهم يأخذونه من غير مظانّه، ويترشحون له بلاد واعية مقدّماته مستحلبين أَفْئدةَ العامّة بإطراء مذاهبهم مُفسدين عليهم أذهانهم بما يقصّون من غرائب العجائب التي رَوَوْها مستأكلة القُصّاص عن أحدوثةٍ في العقل مردودةٍ وأعجوبةٍ عن الفهم محجوبةٍ حتى شحنوا صدورَهم بتُرَّهات الأباطيل؛ وضيّعوا نفوسَهم بالأسمار[٨] والأساطير، فَهُمْ إلى كلّ

---

(١) ذات البين: الأحوال.
(٢) النّقاب: النافذ في الأمور.
(٣) الغُثاءُ: البالي من ورق الشّجر المخالط زبد السيل.
(٤) الغُثْرُ: سفلةُ النّاس.
(٥) النّكال: ما نكلت به غيرك كائناً ما كان، والنكال: اسم ما يجعل عبرة للغير.
(٦) النّكير: اسم من الإنكار الذي معناه التغيّر، ويُقال: أمرٌ نكير: أي شديد صعب.
(٧) القَلانس: جمع قلنسوة: وهي نوع من ملابس الرّأس.
(٨) الأسمار: جمع سَمر: وهو الحديث في الليل.

ناعقٍ سِراعٌ، وعن كلِّ ذي حقٍّ بطاءٌ، وللمتّبع متعرضون، وعن الواجب مُتعرضون: المحقّ فيهم مبطلٌ، والمُدقّ مُلحدٌ، والمخالفُ لهم مقهورٌ، والناظرُ مهجورٌ، والحديثُ لهم عن جَملٍ طارَ أشهى إليهم من الحديثِ عن جَملٍ سارَ، ورؤيا مَرِيّةٌ[1] وآثرُ عندهم من روايةٍ فهذه الخُطةُ كانت سبب حرمانِ العلم وتهجين أهله، وفوتِ الحظِّ، واستحقاق الخِذْلان، والتوسيع للطّاعن في اللِّين، وتسهيلِ القادحينَ بالصَخَبِ والشَغْبِ والشُنعةِ، وردِّ العيانِ، وجُحد البُرهان؛ ويأبى العلمُ أنْ يضعَ كَنَفه، أو يخفضَ جناحَه، أو يُسفرَ عن وجهٍ إلاّ لمتجرّد له بكلّيته ومتوفّر عليه بأينيته، مُعانٍ بالقريحة الثاقبة والرويّة الصافية، مقترناً به التأييدُ والتسديدُ قد شمّر ذيلَه، وأسهر ليلَه حليفُ النَصبِ ضجيعُ التعبِ يأخذ مأخَذه متدرّجاً، ويتلقّاهُ متطرّفاً لا يظلمُ العلمَ بالتعسّف والاقتحام، ولا يخبطُ فيه خبطَ العشواءِ[2] في الظلام. ومع هجران عادةِ الشرّ والنزوع[3] عن نزاع الطبع ومجانبة الإلف ونبذِ المحاكلةِ[4] واللجاجةِ وأجالةِ الرّاعي عن غموض الحقِّ والتأتّي بلطيفِ المأتى وتوفيقه النظر حقّه من التمييز بين المشتبه والمتضح والتفريقِ بين التمويه والتحقيق والوقوف عند مبلغ العقول: فعند ذلك إصابةُ المُراد ومصادفةُ المرتاد[5] وبالله التوفيق والرشاد، ولمّا نظرَ فلانٌ أطال الله في طاعته بَقاهُ وبلغَ من العلوم مُناهُ إلى أحوالِ هذه الطبقةِ وما قد يقسمهم من الهمم، وتوزّعهم من أنواع النِّحل، وتَصفَّح مذاهبَهم اشتاقتْ نفسهُ إلى تحصيلِ الأصحّ من مقالاتهم وتمييزِ الأصوب من إشاداتهم، فأمرني - لا زال أمرهُ عالياً وجدّه صاعداً - أنْ أجمعَ له كتاباً في هذا الباب منحطًّا عن درجةِ العلوّ خارجاً عن حدِّ التقصير مهذباً من شوائب التزيُّد مُصفًّى عن سِقاط الغسالات وخرافاتِ العجائز وتزاويرِ القُصّاص وموضوعاتِ المتّهمين من المحدّثين رغبةً منه في الحبر الذي طبعه الله عليه، وامتعاظاً للحقِّ ومناضلةً عن الدّين، واحتياطاً له، وذَبًّا عن بيضةِ الإسلام وردًّا لكيدِ مُناوئه، وارغاماً لأنف فاشخيه[6]،

---

(١) المَرِيّة: الناقة الغزيرة الدرّ.
(٢) ضبط عَشواء: أي يتصرف في الأمور على غير بصيرة.
(٣) النزوع: الكفّ والانتهاء عن الشيء.
(٤) المحاكلة: العناد والنقاش عن غير علم.
(٥) المرتاد: المطلوب، يُقال: ارتاد الشيء أي طلبه.
(٦) فاشخيه: الفاشخ: الظالم، من فشخه: ظلمه.

وتحرّزاً عن أن يُصيبَ الحَنَق[١] الموتُور[٢] يلدغ نارَه، أو يجلدَ الطاعن مطعناً؛ فتسارعتُ إلى امتثال ما مثّل وارتسام ما رسم، وتتبّعت صحاحَ الأسانيدِ ومتضمّنات التصانيف، وجمعتُ ما وجدتُ في ذكرِ مبتدأ الخلقِ ومنتهاه، ثم ما يتبعه من قصص الأنبياء عليهم السلام وأخبار الأُمم والأجيال وتواريخ الملوك ذوي الأخطار من العرب والعَجم وما رُوي من أمر الخلفاء من لدُنِ قيام الساعة إلى زماننا هذا وهو سنة ثلثمائة وخمس وخمسين من هجرة نبيّنا محمد ﷺ، وما حُكي أنّه واقعٌ بعدُ من الكوائن والفتن والعجائب بين يدي الساعة على نحوِ ما بُيّن وفُصّل في الكتب المتقدّمة والأخبار المؤرّخة من الخلق والخلائق وأديان أصناف الأُمم ومعاملتهم ورسومهم وذكر العمران من الأرض وكيفيةِ صفاتِ الأقاليم والممالك، ثم ما جرى في الإسلام من المغازي والفتوح وغير ذلك ممّا يمرّ بك في تفصيل الفصول. وإنّما نبهّنا على ما أردنا قول الحكماء أوّل العمل آخر التفكر وذاك إنّا لما جمعنا جمع ابتداء الخلق، ثم لم نجد بُدًّا من تصحيح الحِجاج في إيجاب ابتدائه، ولم يصحّ لنا تثبيت ذلك إلاّ باثبات مُبديه سابقاً بخلقه، ولا أمكن إثباته إلاّ بعد بيان طرقِ التوصّل إليه، فابتدأنا بذكر ذَرْوٍ من حدود النظر والجدل ثم إيجاب إثبات القديم المُبدىء المعيد، ثمّ ابتداء الخلق، ثمّ ما يتلو ذلك فصلاً فصلاً وباباً باباً حتّى أتينا على آخر ما كان الغرضُ والمقصودُ به. ولم يزل أهلُ الفضلِ والتحصيلِ من العلماء والعظماء والملوك في قديم الزمان وحديثِهِ يرغبون في تخليد ذكرهم، ويتنافسون في إبقاء رسمهم، ويحرصون أن يورثوا من بعدهم ما يؤثرُ عنهم من منقبةٍ حميدةٍ وحكمةٍ بليغةٍ ترغّباً في اقتناء الفضلِ واعتقاد الذخائر، توخّياً منهم لعموم نفع الخير، وتحرّياً لشمولِ الصلاحِ والرشدِ؛ وذلك ثمرة الإنسانيّة وغايةُ ما يؤمّله العقل، وتطمح إليه النّفس حتّى أنّ فيهم مَنْ اقتحم الممالكَ آنِفاً لذكرِ شجاعته، ومنهم مَنْ خرقَ بمضنون النفائس، ومنهم مَنْ تكلّف لطائفَ النوادرِ بالأثارة[٣] والاستنباط ومنهم مَنْ رفع مناراً أو بنى بِناءً أو أنبط ماءً؛ كلٌّ يجري على فدر الهمم[٤] والإرادات؛ لم يوجدْ واحدٌ منهم خالياً عن خصلة من الخصال وإن عميتْ الأبناء دونَها، فهذا الذي دعا فلاناً أدام الله تمكينَه إلى الاقتداء بهم والارتياح إلى الأخذ بأخذهم

---

(١) الحنق: شدة الاغتياظ.

(٢) الموتور: من قُتِل له قتيل فلم يدرك بدمه.

(٣) الأثارة: النّقل.

(٤) فدر الهمم: برودة الهمم.

والتأسّي[1] بأسوتهم لما خصّه اللّهُ به من كريم الطّبع وشرف الهمّة وبُعدِ الغور وبغيةِ الصلاح وحُبّ الخير، ثم ما يرجوه من حسنِ الثواب وكريمِ المآب بما عسى الله أن يبصّرَ به مستبصراً أو يُرشدَ مسترشداً، ويهديَ ضالاً، ويرُدَّ غاوياً، وقد وَسَمتُ هذا الكتابَ بكتابِ (البدء والتّأريخ) وهو مشتمل على اثنين وعشرين فصلاً يجمع كلُّ فصل أبواباً وأذكاراً من جنس ما يدلّ عليه.

الفصل الأوّل في تثبيت النّظر وتهذيبِ الجدل؛ وهو يجمع القولَ في معنى العلم وَالجهل، والقولَ على كمية العلوم ومراتبها وأقسامها، والقولَ في العقل والمعقول، والقولَ في الحسّ والمحسوس والقولَ في درجات المعلومات، والقولَ في الحدِّ والدليلِ والعلّة والمعارضة والقياس والنظر والاجتهاد، والقولَ في الفرق بين الدليل والعلّة، والقولَ في الحدود، والقولَ في الأضداد، والقولَ في حدث الأغراض، والقولَ على أهل العنود ومبطلي النظر والقولَ في مراتب النّظر وحدوده، والقولَ في علامات الانقطاع.

الفصلُ الثاني في إثبات البارىء وتوحيد الصّانع؛ وهو يجمع الدّلائلَ البرهانيّةَ والحِججَ الاضطراريّة، والقولَ في جواب من يقول ما هو ومن هو وكيف هو، والقولَ بأنّ البارىء واحد وفرد لا غير، والقولَ بابطال التشبيه.

الفصل الثالث في صفات البارىء وأسمائه: وهو يجمع القولَ في الصفات، والقول، في الأسامي. وما يجوز أنْ يُوصَف به وما لا يجوز واختلاف الناس فيه.

الفصل الرابع في تثبيتِ الرسالةِ وايجاب النبوّة: وهو يجمعُ اختلافَ الناسِ فيه وايجابه بحجّة العقل، والقولَ في كيفيّة الوحي والرّسالة على ما جاء في الأخبار.

الفصل الخامس في ذكر ابتداء الخلق: وهو يجمعُ إيجابَ حدث الخلقِ وإيجابَ ابتدائه بالدلائل والحججِ، وقولَ القدماءِ في إيجاب الخلق وابتدائه، وذكر حكايات أهل الإسلام عنهم، وذكر مقالات الثنوية والحرّانية والمجوس، وذكر مقالات أهل الكتاب فيه، وذكر قول أهل الإسلام في المبادىء، وذكر ترجيح أَصْوَبِ المذاهب، وذكر ما خُلق في العالم العُلوّي من الروحانيّات، وأوّل ما خُلق في العالم السُفْلي من الجسمانيّات، وسؤال السائل ممَّ خُلق الخَلْق؟ وفيمَ خُلق؟ وكيف خُلق؟ ومتى خُلق؟ ولِمَ خُلق؟

---

(١) التّاسي: يُقال: أسّاهُ فتأسّى: أي عزّاه فتعزّى.

الفصل السادس في ذكر اللوّح والقلم والعرشِ والكرسيّ وحملةِ العرش والملائكةِ وصفاتها واختلاف الناس فيها، والقولِ في الملائكة أمكلّفون هُمْ أَمْ مجبورون؟ وأنهم أفضل من صالح، وذكر ما جاء في الحُجب وما جاء في سدرة المنتهى، وذكر الجنّة والنّار، وذكر صفة النّارِ، وذكر اختلاف الناس في الجنة والنار، وذكر صفة أهلِ النّار، وذكر اختلاف النّاس في بقاء الجنّة والنارَ وفنائهما، وذكر اختلاف النّاس في هذا الفصل، وذكر الصراطِ والميزانِ والحوضِ والصورِ والأعراف وغيرها.

الفصل السابع في خلق السماء والأرضِ: وهو يجمع صفةَ السموات وصفةَ الفَلك وصفةَ ما فوق الفَلك وصفةَ ما في الأفلاك والسّموات كما جاء في الخبرِ وصفةَ الكواكبِ والنجومِ وصفةَ صورةِ الشّمس والقمرِ والنجومِ وما بينهما واختلاف النّاس في أجرامها وأشكالها، وذكرَ طلوع الشّمس والقمر وغروبهما وكسوفهما وانقضاض الكواكب وغير ذلك ممّا يُعرضُ في السماء، وذكر الرياح والسّحاب والأنداء والرّعد والبرقِ وغيرِ ذلك ممّا يحدثُ في الجوِّ، وذكر مقالةِ الشّمس والقمرِ والكواكب والشُهبان وَقوس قُزح والزّوبعة والزلازل وذكر اللّيل والنّهار، وذكر الأرض وما فيها واختلافهم فيما تحتَ الأرض، وذكر قوله تعالى: ﴿الله ٱلَّذي خَلَقَ ٱلسَّمَوَات والأرض وما بينهما في سِتَّة أَيَّام﴾ [السجدة: ٤] وذكرِ ما حكي في المدّة قبل خلقِ الخلق وذكر مُدَّةِ الدّنيا قبل آدم عليه السلام، وذكر خلق الجنّ والشياطين وذكر ما وصفوا من عددِ العوالم.

الفصل الثامن في ظهور آدم وانتشار ولده: وهو يجمع اختلاف الفلاسفةِ في تأليفِ الحيواناتِ واختلافَ المنجّمين وسائر النّاسِ في ذلك، وذكر خلقِ آدم، وذكر اختلاف أين خُلق آدم؟ وذكر قولهم كيف نفخ الروحَ في آدم وذكر سجودِ الملائكةِ لآدَم وذكر قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١] وذكر دخول آدم الجنّة وخروجه منها، وذكر أخذ الذريّة من ظهر آدم، وذكر اختلاف النّاس في آدم وقصّته، وذكر صورة آدم وخبر وفاته، وذكر الرّوح والنّفس والحياة واختلاف النّاس فيها وفي الحواسّ من القدماء وأهلِ الكتاب، وما جاء في القرآن من ذكرها وفي الأخبار ومناظرات النّاس فيها.

الفصل التاسع في ذكر الفتنِ والكوائِن إلى قيام السّاعة وما ذُكر من أمر الآخرة: وهو يجمع القولَ بوجوب فناء العالم وانتهائه، وذكرَ قول مَنْ قال من القدماءِ بِفِنَاء العالم، وذكر قول أهل الكتابِ في هذا البابِ، وذكرَ ما جاء في مُدّة الدّنيا وكم مضى منها وكم بقي منها، وذكرَ التّاريخ من لدُن آدمَ إلى يومِنا هذا على ما وجدناه في كتب أهل الأخبار، وذكرَ ما بقي من العالم وكم مُدّة أُمّة محمّد ﷺ فيما رواه أهل الأخبارِ وذكرَ ما جاء في أشراط السّاعة

وعلاماتها، وذكرَ الفتن والكوائن إلى آخر الزّمان وخروج التُرك والهَدّة في رمضان والهاشمي الذي يخرج من خراسان مع الرّايات السّود وخروج السُفيانيّ وخروج القحطاني وخروج المهدي وفتح قسطنطينيّة وخروج الدّجال ونزولِ عيسى بنِ مريَم عليه السلام وطلوع الشّمس من مغربِها وخروج دابّةِ الأرض، وذكرَ الدّخان وخروجِ ياجوج وماجوج وخروج الحبشة، وذكرَ فقدان الكعبة، وذكرَ الرّيح التي تقبضُ أرواحَ أهلِ الإيمان، وذكرَ ارتفاع القرآن، وذكرَ النّار التي تخرج من قعر عدن تسوق النّاسَ إلى المَحْشر، وذكرَ نفخات الصّور الثلاث، وذكرَ صفةِ الصّور واختلاف أهلِ الكتاب في صفةِ مَلَك الموتِ، وذكرَ ما بين النفختين، وذكرَ اختلافهم في قوله تعالى: ﴿إلاّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وذكرَ المطرة التي تُنبت أجساد الموتى، وذكرَ الحشرِ، وذكرَ اختلاف النّاس في كيفيّة الحشر، وذكرَ الموقفِ، وذكرَ تبديل الأرضِ، وذكرَ طيّ السماء، وذكرَ يوم القيامةِ، وذكرَ ما قيل ممّا هو كائن بعد ذلك، وذكرَ ما حُكي عن القدماء في خراب العالم، وذكرَ ما يجبُ على المرءِ اعتقاده في هذا الباب.

الفصل العاشر في ذكرِ الأنبياء والرّسل عليهم السلام ومدّة أعمارهم وقصص أُممهم وأخبارهم: على نهايةِ الإيجاز والاختصار.

الفصل الحادي عشر في ذكر ملوكِ العجمِ وما كان من مشهور أيّامهم إلى مبعثِ نبيّنا محمّد ﷺ.

الفصل الثّاني عشر في ذكرِ أديان أهلِ الأرضِ ونِحَلِهم ومذاهبِهم وآرائهم من أهل الكتاب وغيرهم: وهو يجمع ذكرَ المُعطّلة، وذكرَ أصنافِ الهندِ وشرائعهم ومِللهم وأهوائهم، وذكرَ أهلِ الصّين، وذكرَ ما حكى من شرائع التّرك، وذكرَ شرائع الحرانيّين، وذكرَ أديان الثنويّة، وذكرَ عَبدة الأوثان، وذكرَ مذاهب المجوس، وذكرَ مذاهبِ الخرميّة، وذكرَ شرائعِ أهل الجاهليّة، وذكرَ شرائع اليهودِ والنّصارى.

الفصلُ الثالث عشر في ذكرِ أقسام الأرض ومبلغِ أقاليمها: وهو يجمعُ ذكرَ الأقاليم السبعةِ، وذكرَ المعروفِ من البحارِ والأوديةِ والأنهار، وذكرَ الممالك المعروفةِ من الهندِ وتبت وياجوج وماجوج والتّرك والرّوم وبربر والحبشة، وذكرَ بلادِ الإسلام من الحجازِ والشّام واليمنِ والمغربِ والعراق والجزيرةِ والسواد وأذربيجان وأرمينية والأهواز وفارس وكرمان وسجستان ومكران والجبلِ وخُراسان وما وراء النّهر، وذكرَ المساجدِ والبقاعِ الفاضلة مثلِ مكّة والعراق، وذكرَ الثّغورِ والرّباطات، وذكرَ ما حكى من عجائب الأرض

وعجائبِ أصناف النّاس، وذكرَ ما بلغنا من المُدن والقُرى ومَنْ بَناها وأنشأها، وذكرَ ما جاء في خراب البُلدان.

الفصلُ الرابع عشر في أنسابِ العربِ وأيّامها المشهورة.

الفصلُ الخامس عشر في مولدِ النّبي ومنشأه ومبعثه إلى هجرته ﷺ.

الفصلُ السادس عشر في ذكرِ مَقْدَمِ رسول الله ﷺ إلى المدينة وعددِ سراياه وغزواته إلى يوم وفاته.

الفصلُ السابع عشر في صفةِ خَلق رسول الله ﷺ وخُلقه وسيرتِهِ وخصائصِهِ وشرائعه ومدّة عمره، وذكرِ أزواجه وأولاده وقراباته وخبرِ وفاته، وذكر معجزاته.

الفصلُ الثّامن عشر في ذكرِ أفاضِل الصّحابة وأُولى الأمر منهم من المهاجرين والأنصار، وذكرِ حُلاهم ومُدّة أعمارهم وابتداء إسلامهم، وذكرِ أولادهم ومَنْ أَعْقب منهم ومَنْ لم يُعقِبْ.

الفصلُ التّاسع عشرَ في اختلاف مقالات أهل الإسلام: وهو يجمعُ ذكرَ فُرق الشّيعة وفُرق الخوارج وفُرق المشبّهة وفُرق المعتزلة وفُرق المرجيّة وفُرق الصوفيّة وفُرق أصحاب الحديث رضي الله عنهم.

الفصلُ العشرون في مُدّة خِلافة الصّحابة وما جرى فيها من الفتوح والحوادثِ إلى زمن بني أُميّةَ: وهو يجمع خِلافةَ أبي بكر رضي الله عنه وما كان في أيّامه من الرِدّة والتنبّي والفتوح وخلافة عُمر رضي الله عنه وما كان في أيّامه من الفتوح وخِلافة عثمان وما كان في أيّامه من الفتوح والفتن وخلافة عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه وما كان في أيامه من الفتن، وذكر الجمل وصِفّين والنهروان وخروج الخوارج عليه، وذكر الحَكَمين وخلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى أَنْ غلبَ معاوية على الأمر.

الفصلُ الحادي والعشرون في ذكرِ ولاية بني أُميّة على الإيجاز والاختصار وما كان منها من الفتن من فتن ابن الزبير والمختار بن أبي عُبيد: وهو يجمع قِصّةَ زياد وموتِ المغيرة وعمرو ابن العاص ووفاة الحسن بن علي رضي الله عنهما وأخذ معاوية البيعة ليزيد وولاية يزيد بن معاوية ومقتلِ الحسين بن علي رضي الله عنهما وقصّة عبد الله بن الزبير وذكرِ وقعة الحرّة وموتِ يزيد بن معاوية وولاية معاوية بن يزيد، وذكرِ فتنة ابن الزبير إلى أنْ قتله الحجّاجُ في ولاية عبد الملك ابن مروان إلى آخر أيّامهم.

الفصل الثاني والعشرون في عدد خلفاء بني العبّاس من سنة اثنتين وثلاثين ومائة إلى سنة خمسين وثلثمائة.

فالنّاظرُ في هذا الكتابِ كالمشرفِ المطّلع على العالم مشاهداً حركاتّه وعجيبَ أفعاله والسابقَ له قبل تركيبه وحدوثِه الباقي بعد انجلائه ودثوره وفيه لطرق العلمِ توطئةٌ ولأهلِ الدّين قوةٌ وللمبتدى رياضةٌ وللمستأنس به سلوةٌ وللمتفكّر فيه تبصرةٌ وعِبرةٌ! وهو إلى مكارم الأخلاق داعٍ وعن الدّناءَة ناهٍ. واللهَ نسألُ أن ينفَعنا ومَنْ نظر فيه بما ضُمّن وأُودِع وأنْ ينبّهنا عن سِنَة الغفلة ويوفّقنا توفيقاً بحسنِ الإصابة ﴿إنّه سميعٌ قريب﴾ [سبأ: ٥٠].

الفصلُ الأوّلُ

«في تثبيت النظر وتهذيب الجدل»

أَقولُ وبالله التوفيق وَمَن عندَهُ العصمةُ والتسديدُ إنّ معرفةَ هذا الفصلِ من أعوانِ الأسبابِ على دركِ الحقِّ والتمييز بينه وبين ما يضادّه، لاغناءَ بأحدٍ عن مطالعته والإشرافِ عليه ليعرفَ الصدقَ من نفسه ومن غيره، إذْ قد يعترض من الفكر والتخايلِ والأوهام الفاسدةِ والخَطرات الرّدئة ما يلتبسُ معها الحقّ، ويتغلّب عندها الظنُّ والشكُّ وليس ما يميّز بينها ويدلّ على صحّةِ الصحيح وبُطلان الباطلِ منها إلاّ النظرُ وبه يُعتَرف السّؤالُ الساقطُ من السّؤال اللازمِ والجوابُ الجائزُ من الجوابِ العادلِ فلنذكر الآن منه لُمعاً[1] لهامٌ ما نحن قاصدوه يكون عُدّةً للنّاظر وقوةً للمناظر ثمّ من بعد يستقصيه إن شاء الله في كتاب استسناه على هذا النوعِ وسمّيناه كتابَ العلم والتعليم ومن عندِ الله العصمةُ والتوفيقُ، أقولُ: إنّ العلمَ اعتقادُ الشيء على ما هو به إن كانَ محسوساً فبالحسّ وإن كان معقولاً فبالعقل والحسّ والعقل أَصلُ ما تردّ إليه العلوم كلّها فما قَضَيَا بإثباته ثبتَ، وما قضيا بنَفْيه انتفى. هذا إذا كانا سليمَيْن من الآفاتِ بريئيْن من العاهاتِ وعوارضِ النقص غسيلين من عشقٍ عادة الإلف[2] والنشو[3]؛ لا يكادُ يقع حينئذٍ في محسوسهِ ومعقولهِ اختلافٌ إلاّ من مخالفٍ أو من معاندٍ؛ لأنّهما على ضرورةٍ لا يعترضُ للحاسّ شكٌّ في هيئةِ المحسوسِ وصورته، ولا يقدرُ المضطرُّ ببديهةِ عقلهِ أن لا يعلم ما يعلمه، ويتيقّنه ولا يُصدّق مَنْ يدّعي خلافَه، ولو كان مضطرًّا إلى دعواه كما اضطّر في حواسّه لما ظَهر من أحد خلافٌ، ولا احتيجَ إلى كسر قولهِ والكشف عن عُوارِ كلامه إلا ترى أنّه يستحيل أن تجدَ الحاسّةَ النارَ باردةً والثلج حارًّا في الظاهر كما

---

(١) لُمعاً: جمع لُمعة: وهي اللون.

(٢) الإلف: الصداقة والمؤانسة.

(٣) النشو: مصدر نشيء، ويُقال نشي نشواً: سكر.

يستحيلُ أن يكونَ المعلومُ متحرّكاً ويعلمُ ساكناً، أو يكونَ في نفسه أبيضَ ويقعُ العلمُ بأنّه أسودُ ولو جازَ هذا لبطلتِ العلوم كلّها رأساً، وفسدتْ الاعتقاداتُ فساغَ لكل قائلٍ ما أراد من دّعاءِ السمع البصر والبصر السمع والحيّ ميّتاً والميّتُ حيًّا، وهذا محالٌ لأنّ العلمَ إذا كانَ إدراكَ الشيء على ما هو به من حدّ وحقّه ثم لم يُدرك ذاتَه كما هو لم يكنْ معلوماً، وكذلكَ الحسُّ إذا لم يدرك طبعَه طبعَ ما يقعُ تحته لم يكن محسوساً، وهذا لا خلاف فيه بين المتميّزين العاقلينَ قاطبةً إلاّ رجلَيْن اثنَيْن: أحدهما: العاميُّ الذي لا نظرَ له لإغفاله آخذاً له استعماله ومتى لاحَ له الحقُّ اتبعه وانقطعَ خلافَه لأنّ قولَه ذاك عن حَدْس وظنّ وسماع وتقليدٍ، فإذا قرعَ سمعَه ما يشهدُ بتصديقهِ قلبُه مَالَ إليه وقبَله، والثاني: الجاحدُ المعاندُ الذي يسمّيه القدماءُ السوفسطائي[1]، وسنذكرُ فسادَ مذهبِهم في موضعِه إن شاءَ الله تعالى.

[معنى الجهل في نظر الكاتب]

ضدُّ العلم الجهلُ ومعناه اعتقادُ الشيء على خلافِ ما هو به وليسَ كلّ من لا يعلمُ جاهلاً بالاطلاق، ولكنّ الجاهلَ في الحقيقةِ التاركُ طلبَ حدِّ الشيء وحقّه المعتقدُ له على غير ما هو به، ولولا ذاك لما استحقّ اللائمةَ والمذمّةَ على جهله.

[كمية العلوم ومراتبها وأقسامها]:

أقولُ أنَّ اسمَ العلم قد يُطلق في الحملةِ على الفهمِ والوهم والذهنِ والفطنة واليقين والخطرة والمعرفةِ وكلّ ما يحصل منه إدراك شيء ظاهراً أو باطناً ببديهة عقلٍ، أو مباشرةِ حاسّةٍ، أو استعمالِ آلةٍ كالاستدلال والفكرةِ والبحثِ، والتمييز والقياس، والاجتهادِ لأنّ هذه الخصالَ كلّها آلاتُ إدراك العلم، وطُرُقِ التوصّلِ إليه، وممّا يصابُ من هذه الجهة فروع بالإضافة إلى علمِ البدايةِ والحواسّ ألا ترى أنّ الإنسانَ العاقلَ المميّزَ مضطرٌّ إلى شواهدَ عقلهِ وحسّه غيرُ مضطرٍّ إلى استدلاله وبحثه، أو لا ترى أنَّ لا سبيلَ إلى البحثِ والاستدلالِ لمن عُرِيَّ من عقلهِ أو أُصيبَ بحسّه، فأوّل العلمِ الخَطرةُ الصادقةُ: وهو كالبديهة مثلاً بَلْ بقوة البديهة؛ وآخرهُ: اليقينُ: وهو استقرارُ الحقّ وانتفاءُ الشكّ والشبهةُ عنه وإنّما اشترطنا في الخَطرة الصدقَ لأنّه قد يُخطر النفسَ والهوى والطَبْعَ والعَادة بما لا حقيقةَ له، فلا يجوزُ أنْ يُعدَّ من آخر العلم اليقينُ الذي يُحيط بالأشياء على وجهها، ويدركها بكنهها.

---

(١) السوفسطائي: نسبة إلى السفسطة، ومعناها القياس الباطل الذي يقصد به تمويه الحقائق (يونانية).

[معنى المعرفة في نظر الكاتب]:

المعرفة إدراك أينية الشيء وذاتِهِ فمن قائلٍ أنّها ضرورةٌ، وآخر أنّها مكتسبةٌ والفرقُ بينها وبينَ العلم أنّ العلمَ الإحاطةُ بذاتِ الشيء عينه وحدِّه، والمعرفة إدراكُ ذاته وثباته، وإنْ لم يدركْ حدَّه وحقيقتَه، فالعلمُ أعمُّ وأبلغُ لأنّ كلَّ معلومٍ معروفٌ، وليس كلُّ معروفٍ معلوماً ألا ترى أنّ الموحّدين يعرفُون ربّهم ولا يعلمونه إلاّ بالإثباتِ لأنّ الكيفيّة والكميّةِ عنه منفيتانِ. والوَهْم اعتقادُ صورة شيء محسوسٍ أو مظنون وإن كان منفياً وجودُه في الظّاهر لأنّ قوّةَ الوهم في انبساطها تضعُفُ فلذلك ترى ما لا تراه العيُون، وكذلك العينُ إذا امتدّتْ قوّةُ بصرها، وبعُدت مسافةُ المرءِ عنها رَأَتْه على خِلافِ ما هو به من الصغَرِ والعِظمِ والصورة واللونِ وغيرِ ذلك من الهيئاتِ، وما خلا عن الهيئاتِ والصفاتِ والحدودِ كلّها فلا يمسُّها الوهمُ، ولا يتصوّرُ في النفس؛ والفهمُ: هو المعرفة، وقوّةُ الذهن قريبةٌ من قوّةِ العقلِ غير أنّ الذهنَ والفهمَ تطبّعٌ. والفطنةُ قريبةُ المعنى من الذّهن وإنّما احتجنا إلى هذا لأنّ كثيراً من النّاس يولعون بالبحثِ عن هذه الأسامي، ويستفرقون[1] بينها، وأمّا الأسبابُ التي يتوصّل بها إلى ما خفي من العلم فالفكرة: وهي البحثُ عن عِلّة الشّيء وحدّه، الرأي والرويّة والاستنباط: انتزاعُ ما في طيّ المعقولِ والمحسوسِ والاستدلالُ والاجتهاد، وقد عُدّ قومٌ ميلَ العادة والطّبع إلاّ ما يميلان إليه أو ينفران منه علماً، فهذه جملةُ أُصولِ العلم وطُرقها ومحصولها راجع إلى ثلاثة أصنافٍ إلى المعقول بديهةً والمحسوس ضرورةً لأنّ ما يُدرك بهما يُدركُ بلا واسطةٍ ومقدّمات، والثالثُ المستدلُّ عليه المستنبط بالبحثِ والإمارة فهذه يقعُ فيها الاختلافُ والاضطرابُ لخروجِهِ عن حيّزِ الحاسّة والبديهة وتفاوتِ قُوى المستدلّين والناظرين وتفاوت آرائهم وعقولهم، وهذا يكثرُ جدًّا وفيه صُنّفت الكتب، ودُوّنت الدواوينُ من علمي الحكمةِ والملّة مُذْ قامتِ الدنيا على ساقها، ولا يزالُ كذلك إلى انقضاءِ الدهورِ وتحرُّم الأيّامِ، وكثيرٌ من النّاس أَبَوْا أن يسمّوا علمَ البديهة والحسِّ علماً على الحقيقة لاشتراكِ الناس كلّهم فيه واستواءِ درجاتهم في ذلك، ثم هو غيرُ مستفاد ولا مُكتسب بَلْ أوجبه الطّبعُ العزيز وقوّةُ التمييز والخلقة.

[العقل والمعقول]:

أقولُ أنّ العقلَ قوّةٌ إلٰهيّة مميِّزةٌ بين الحقِّ والباطلِ والحسنِ والقبيحِ وأُمّ العلوم وباعثُ

---

(١) يستفرقون بينها: يَفْصِلون بينها (القاموس المحيط/ جـ ٣).

الخَطرات الفاضلةِ وقابلُ اليقين، وقد قيل إنّما سمّي عقلاً لأنّه عقالٌ للمرء عن التخطّي إلى ما خُطر عليه.

وقد أكثرت الفلاسفةُ الاختلافَ في ذكره ووصفه، قال أرسطاطاليس[1]: في كتاب البرهان: إنّ العقلَ هو القوةُ التي بها يقدّرُ الإنسانُ على الفكرة والتمييزِ وبها يلتقطُ المقدّماتِ من الأشياءِ الجزئيّة[2] يؤلّفُ منها القياسات، وقال في كتاب الأخلاق: إنّ العقلَ هو ما يحصلُ في الإنسان بطريقِ الاعتيادِ من أنواع الفضائلِ حتّى يصيرَ له ذلك خُلقاً ومَلكةً متمكنةً في النّاس، وقال في كتابِ النفس بخلاف هذا وقسّمه على ثلاثةِ أقسام إلى العقلِ الهيولانيّ، والعقلِ الفعّال، والعقل المستفاد، وفسّره الإسكندر[3] فقال: إنّ العقلَ الهيولانيّ[4] هو ما يوجد في شخصِ الإنسان من إمكان التهيّؤ لتأثير العقلِ الفعّال، وإنَّ العقلَ المستفادَ هو المصوَّر، والعقلَ الهيولانيّ بمنزلةِ العنصرِ، وإنَّ العقل الفعّالَ هو المخرجُ للعقلِ المستفادِ على الوجوه بالفعل.

وزعم بعضُهم أنّ العقلَ هو النفس، وبعضهُم يقولُ هو الباريءُ جلّ جلاله مع تخليطِ كثير منهم في هذا الباب.

ممّا توارثناه عن عن الأسلافِ قولَهم العقلُ مولودٌ والأدبُ مستفادٌ وإنّما سمّاهُ بعضُهم باسم أفعاله فلا يضايقه بعد أن أتى المعنى المطلوبُ منه، ألا ترى أنّه يُقَالُ لكتبِ المتصفين[5] أخبارَ الأوائلِ والأشعارَ أنّها عقولهُم، والمعنى نتائج عقولِهم وأذهانهم، وقيل: ظنُّ الرجلِ قطعةٌ من عقلِه، فكلٌّ هذا على التمثيلِ والاستعارةِ ولا يختلفُ قولُ القدماء في أنّ العقلَ الهيولانيّ أصفى جوهرِ النفس، وحسُّه فوقَ حسِّ النفْس، ورتبتُه أعلى رُتَبِ الجواهرِ ودُون رتبةِ الباريء جلّ جلاله، وهو أقربُ الأشياءِ منه؛ المسلمون لا يعلمون من العقلِ إلاّ ما هو مركّبٌ في الإنسانِ خاصّةً دونَ سائرِ الحيوان في العالمِ السُفليّ، فأمّا ما

---

(١) فيلسوف يوناني من كِبار مفكري البشرية، مؤسس مذهب (فلسفة المشّائين)، مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق وأهمها: «الجدل» و«النفس» عاش من (٣٨٤ إلى ٣٢٢ ق.م.). «منجد الأعلام».

(٢) الأشياء الجزؤية: أي المجزأة، المقسمة.

(٣) الإسكندر الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م.)، الملقب بذي القرنين، ولد في مقدونية، تعلم على أرسطو، خلف أباه فيلبس، أسس الإسكندرية في مصر، يعتبر من أعظم الغزاة وأشجعهم. «منجد الأعلام».

(٤) الهيولاني: نسبة إلى الهيولي: وهي المادة الأولى.

(٥) المتّصف: المتتبع.

يُحكى عن غيرهِم فموقوفٌ على الجوازِ ما لم يردّه العقلُ أو كتاب الشريعة؛ وقد ذهبَ قومٌ أنَّ حجّةَ الطّبع فيما يوجبه ويسلبُه أولى من حجّة العقلِ، وادّعوا ذلك من جهةِ اشتياقٍ إلى ما وافقَه ويلائمه وانقباضه عمّا يعافه[1] وينافره، وأنَّ الله عزّ وجلّ خلقَه إذ خلقَه كذلك ولا يجُوز أن يخلقَ شيئاً عبثاً أو لغيرِ حكمةٍ وفائدة، والعقلُ مُستحسنٌ، وهو يستحسنُ الشيء ثم يستقبحهُ ويستصوبُه ثمّ يستخطئه، والطّبعُ لا يستحلي مُرًّا، ولا يستمرّ[2] حلواً ولا يجدُ الشيءَ عن خلافِ ما هو به؛ فأجابهم مخالفوهم: أنّ الطباعَ لا تعرفُ إلاّ ما يحسّ ويُباشر، وقد تغيّرها العاداتُ والعوارضُ عن أصل جبلّتِها فتميلُ في بعض الأوقاتِ إلى ما كانتْ تنفرُ عنه وتنفرُ عمّا كانت تميلُ إليه، وليسَ من قوّتها التمييز بين الحسنِ والقبيحِ بالاستدلال كما في قوّةِ العقل، وقدْ صحّتْ طبائعُ البهائمِ وسلمتِ أخلاطُها[3]، ثُمّ لم يحسُنْ خطابُها؛ وامتناعُ الطبعِ عن استحسانِ الحسنِ واستقباحِ القبيحِ غيرُ مُحلّى له من الحكمةِ ولا موجب العبثِ في خلقه كما أنّ المواتَ لا تحسُّ بشيء من الأعراض، ثُمّ لم يخلُ من الحكمةِ بَلْ دلالته وما تحويه من المنافعِ والمضارّ الذي خُصّ به جنسُه فائدته وحكمته فدلّنا أنَّ موجبَ العقلِ هو المعوّلُ عليه في الاعتبارِ والاستدلالِ لإسقاط التكليف، ووضعِ الامتحان على البهائمِ التي سلمت طباعُها وأخلاطها، فإن قِيل: بمَ عرفتمُ العقل؟ قيل: بنفسِ العقلِ لأنّه الأصلُ والبديهةُ وأُمُّ علومِ الاستدلال، كما عرفنا الحسّ نفس الحسّ لأنّه الطبعُ ولو كُنّا عرفنا العقلَ بعقلٍ لأفضى الأمرُ إلى ما لا نهاية له، ولمّا كان العقلُ أصلَ العلومِ ورأسَه فإنْ قيل: فَبِمَ يفرقون بين دلالةِ العقلِ ودلالةِ الهوى والعادة؟ قيلَ: بالردِّ إلى الأصلِ لأنّ الفرعَ يشاكلُ الأصلَ، ولو لم يشاكلهُ لم يكنْ فرعاً له؛ ومن الدليلِ على وجوب حجّةِ الطبعِ تعظيمُ النّاس كلّهم العقلَ وتبجيلهم إيّاه وتفضيلهم مراتبَ العقلاء، ورفعهَم أقدارَهم واستنامتهم[4] إلى آرائهم واعتمادِهم على إشارتهم وتمنّيهم درجاتِهم والاستخفافِ بمن ذلّ عقله، وبدا سخفُه، ولم يفعلوا ذلك بمن استقامتْ طباعُه، وكملتُ أخلاطُه فعلمنا أنّه معنى غير معنى الطبعِ وهو العقل.

---

(١) يعافه: يكرهه (القاموس المحيط/ جـ ٣).

(٢) يستمرُّ: يجده مُرّاً.

(٣) أخلاطُها: أصنافها.

(٤) استنامتهم: مصدر استنام، ويُقال: استنام إلى الشيء أي استأنس به.

[الحسّ والمحسوس]:

أقولُ أنّ الحواسّ طُرُق وآلاتٌ مُهيّأةٌ لقبولِ التأثيراتِ كما وضعها الله عزّ وجلّ عليه، فإذا باشرتْ الحاسّةُ المحسوسَ أثّرتْ فيه بقدرِ قبوله، وقبلتْ منه بقدرِ تأثيره، فبدرتْ به النفس، وأدّته إلى القلبِ، واستقرّ فيه، ثم تنازعته أنواعُ العلم من الفهمِ والوهمِ والظنّ والمعرفة، وبحثَ عنه العقلَ وميّزه، فما حقّقه صارَ يقيناً، وما نفاه صار باطلاً، والحواسّ الخمسُ أولاً يوجدُ شيء لا يمكنُ وجودهُ بشيء من الحواسّ فيحتاجُ إلى حاسّة سادسة، ويزعمُ قومٌ أنّها أربعٌ، ويجعلون الذوقَ ضرباً من اللمس، وبعضٌ يقول ستّ، ويعدّون فعلَ القلبِ حاسّةً سادسةً، وهذا سهل واسعٌ بعد أن أقروا بصحّةِ وجودِ فعل الحواسّ لأن من النّاسِ مَنْ ينكرُ حقيقةَ فعلها بتغيّر أحوالُها، ويحتجُ برؤية من يرى وجهه في السيفِ طويلاً وقامَته في الماء الذي لا يكون مساحة عمقه كمساحةِ قامتهِ منكسّةً، ويرى الصغيرَ كبيراً والكبيرَ صغيراً والواقف سائراً، وهذا مِن رأْيِ المعاندين والمموّهين إذْ لا توجدُ هذه التغيّراتُ في غيرِ حاسّة البصر وذلك للعللِ العارضة من بُعد المسافةِ وتكاثفِ الهواء، فيقع الغلطُ من جهةِ الكيفيّة والكميّةِ لأنّ الحاسّة لا تضبطُ الهيأة إذا بُعدت، فأمّا الأينية فلا يقعُ فيها غلطٌ ما لم يفرطْ بُعدها فلا تحصرُ شَخْصهَا الحاسّة، وأما سائرُ الحواسّ التي فعلها بالمضامّة[1] والمباشرةِ فلا يقع فيها اختلافٌ ما صحّتْ وسلِمتْ، وأهونُ ما يقابلُ به صاحب الرأي إنكار الحواسّ نفسها عروضاً لإنكار فعل الحواسّ، وما أعلم أنا عقلاً يشتغلُ بردّ هذا الرأي وإنكارهِ ولظهورِ فسادهِ وفُحش خطابه.

[درجات العلوم]:

أقول إنّ الأشياءَ كلّها في العقولِ على ثلاثةِ أضرُب: واجبٌ وسالبٌ ومُمكنٌ؛ فالواجبُ في العقلِ بنفسِ العقلِ واستدلالهِ كعِلْمنا بأنّ البناء يقتضي بانياً والكتابةَ تقتضي كاتباً، ولا بدّ لكلّ صنعةٍ من صانع، وأنّ الواحدَ والواحدَ اثنانِ، أنّ الشيخَ كان شَاباً والصغيرَ كان رضيعاً وما أشبه ذلك؛ والسالبُ الممتنعُ المستحيلُ في العقلِ بنفسِ العقلِ واستدلالهِ وهو أنْ يوجدَ كتابٌ بغيرِ كاتب وصنعةٌ من غير صانع، فإنّ هذا لا يوجبهُ العقلُ، ولا يتصوّره الوَهْمُ، ولا يستقرُّ عليه الطبعَ، والممكنُ الجائزُ الموهومُ في العقلِ بنفسِ العقل كما حكى عن القرونِ السالفةِ والبُلدانِ النائية، وما يذكر أنّـهُ سيكونُ بعدُ فإنّ ذلكَ ممّا يجوزُ في العقلِ

(١) المضامّة: الجمع (القاموس المحيط/ جـ ٤).

أنّه كذلك، ويجوزُ أنّه ليس كذلك لأنّه لا يدلُّ خاطر على تحقيق شيء من ذلك إلاّ ويجوزُ أنْ يدلَّ خاطرُ على إبطاله لدخولهِ في حَدّ الجوازِ والامكانِ، فلمّا تكافأَت الأدلّة به قُصر على حَدّ الوقوفِ فلا شيء إلاّ وهو معقولٌ معلومٌ أو معروفٌ أو موهُومٌ أو محسوسٌ.

[الحدّ والدليل والمعارضة]:

أقولُ إنَّ الحدَّ ما دلَّ على عينِ الشيء وغرضه بإحاطةٍ وإيجازٍ كحدودِ الدارِ والأرضين التي تميّز حصّةَ كلِّ مالك من حصّةِ صاحبه فيُعرَفُ به دارُه فأرضُه، والزيادةُ في الحدِّ نقصانٌ والنقصانُ منه زيادةٌ، يبطل الحدُّ المطلوبَ كقولك الإنسانُ حيٌّ ميّت ناطقٌ هذا حدّه فإنْ زِيد فيه شيءٌ أو نقصَ انتقضَ لأنّ الاعتبارَ صحّةُ الحدودِ في الاطّراد[1] بالعكس والقلبِ فمتى لم ينعكسْ لم يستقِمْ هذا الّذي اختارَه في الحدود وإنْ كان للناسِ فيه أقوالٌ ومذاهبٌ لأنّ من رأْي بعضهم أنّ حدَّ الشيء وصفهُ في ذاته كالعلّة، وعندَ بعضهم حدُّ الشيء من ذاتِهِ واسمه، واعتبَر بعضهُم طردَه من جانبين كما قُلْنا، وبعضهُم اقتصرَ في جانب واحد إذا صحَّ الطردُ وهذا لا يستقيمُ إلاّ في بابِ الشّرعِ والإلزامِ التي حجَب عن الناسِ عللهَا الموجبةَ كقولِ مَنْ زَعمَ مثلاً أنّ حدَّ الصلاةِ أنّها طاعةٌ، ثم يقولُ وليسَ كلُّ طاعةٍ صلاةً فالأَوْلى في هذا أنْ نسمّيه صفةً لا حدًّا لأنه لو كانَ حدًّا لسلم في الطرفَيْن كما قالَ أنَّ حدّ الإنسانِ أنْ يكونَ حيًّا ميّتًا ناطقاً، فكلّ حيّ ميّت ناطق إنسانٌ، وكلّ إنسانٍ حيٌّ ميّتٌ ناطقٌ، وقد قِيل الحدُّ جامعٌ لما يفرّقهُ التفصيل، وأقولُ إنَّ الدليلَ ما دلَّ على المطلوبِ ونبّه على المقصود كائناً ما كانَ من جميع المعاني. التي تتوصّل بها إلى المدلول عليه، وقد يدلُّ الدليلُ على فسادِ الشيء كما يدل على صحته، فإذا دلَّ على صحةِ شيءٍ فهو دليلٌ على فسادِ شيء، والدليلُ على فسادِ الشيء فهو دليلٌ على صحّةِ ضدّه، وتدلُّ الدلائلُ الكثيرةُ المختلفةُ على العين الواحدة كالطُرُقِ المؤدّيةِ إلى مكانٍ واحدٍ وكلُّ ما هدى إلى شيء فهو دليلٌ عليه، فالباريء سبحانه وتعالى دليلُ خلقِه، والرسولُ عليه السلام دليلُ أُمّته، والكتابُ دليلٌ، والخبرُ دليلٌ، والأثرُ دليلٌ، والحركةُ والصوابُ دليلٌ، وما أشبَه ذلك؛ هذا الذي اختارَه في الدليل الذي يستدلّ أهلُ النظرِ به، وقد زَعَم بعضُ النّاس أنَّ الدليلَ هو المستدلُّ نفسهُ فناقضه مخالفهُ بأنّه لو كانَ كذلك لجازَ للمدّعي إذا طُولب بالدليلِ أنْ يقولَ أنا الدليلُ، وهذا سهلٌ قريبٌ التفاوتِ لمن تأمّلَ أنَّ اللغةَ لا تمنعُ أنْ يكونَ الدليلُ فاعلَ الدّلالة

---

(١) الأطّراد: مصدر اطّرد، يُقال: اطّرد الأمر: بلغ بعضه بعضاً واستقام وتماثلت أحكامه.

كالشّريب[١] والسّمير[٢] وأنْ يكونَ عينَ الدّلالةِ والمدلولِ عليه كالصّريع والقتيلِ يقولُ المُدّعي: أنا الدليلُ إذا أرادَ فاعلَ الدلالة غَير خطاءٍ[٣] وإنّما يستحيلُ إذا أرادَ به عينَ الدلالة على ما يطالبُ به، وقد يكونُ عينَه دليلاً على الصّانع إذا سُئل لأنّه ما مِنْ مدلولٍ عليه إلاّ وهو دليلٌ على شيء آخر، وإنْ لم يكنْ دليلاً على نفسه.

وأقولُ أنَّ العِلّة السببُ الموجبُ وهي ضربان: عقليّةٌ وشرعيّةٌ، فالعقليّةُ الموجبة بذاتها غيرُ سابقة لمعلولاتها كحركة المتحرّك وسكونُ الساكن، فالشرعيةَ التي تطرى على الشيء فتغيّر حكمَه ويكونَ مقدّماً لها معلولاً بعلّةٍ قبلها وشرطُ صحّة العلّة جريانُها في معلولها، فمتى ما تقاعستْ عن الاطّرادِ تهافتَ[٤] ذلك كوجودِ عينٍ أو حكمٍ لعلّةٍ من العللِ ثم وجودِ تلك العين والحكم مع زوالِ تلك العلّة، أو زوال العين والحكم مع بقاء العلّة، وصحّةُ العلّة كصحّة الحدِّ سواء مع أنّ كثيراً من النّاس يسمّون العلّةَ الحدَّ وليسَ ببعيدٍ لاتّفاق المعنى، وقِيلَ إنَّ العلةَ ذاتُ وصفٍ واحدٍ وذاتُ وصفين وذاتُ أوصافٍ كثيرةٍ، ولا يصحُّ الحكمُ بها إلاّ باجتمّاع أوصافِها كقولنا في الإنسان إنّه حيّ ميّت ناطقٌ، لو اخْتُزِلتْ صفةٌ من هذه الصفاتِ لبَطُلتْ أنْ تكونَ حدًّا للإنسان وعلّةً له. وأقولُ: إنَّ المعارضةَ تصحيحُ ما رام خصمُك إفسادَه من مذهبِك بمثلِ مذهبه، ومعنى المعارضة والمقابلةِ على السواء والمماثلة، فإذا وقعتْ على خلافِ ما يذهبُ الخصمُ إليه فهي ساقطةٌ فاسدةٌ وقد أنكرَ قومٌ هذا البابَ، وأبطلوه، وزعموا أنّه خارجٌ عن حدِّ الجوابِ والسؤالِ فأجابهم مخالفوهم بأنّه ضربٌ من السؤالِ أو زيادةٌ فيه، واستدلّوا بأنّ المعارضَ مجيبٌ أو مرئيٌّ مناقصه، ولو جازَ أنْ تمسّك المعارضُ له عن جوابِ ما عورض فيه لجازَ أنْ تمسّك المسؤول عن جوابِ ما سُئل إذا السائلُ مستجيرٌ والمعارضُ مجيرٌ، ثم نُزّلَ المعارضةَ مَنْ صحّحها أربَع منازل يصحُّ منها ثلاثٌ وتبطلُ واحدةٌ وهي معارضةُ السؤال بالسؤال كسائلٍ رجلاً ما قولك في كذا؟ فَيكُرُّ[٥] عليه وما قولك أنتَ في كذا؟ فهذا لأنّه ليس فيه شيء من جوابِ ما سئلَ والثانية: معارضةُ الدّعوى بالدّعوى كقائلٍ: إنَّ العالمَ قديمٌ، فيقولُ لهُ الخصمُ: ما الفرق بينك وبين

---

(١) الشريب: مَنْ يشاركك في الشرب.
(٢) السّمير: المُسامر: المحدّث في الليل.
(٣) خَطاءٍ: الذّنب، وقيل ما لم يتعمّد منه.
(٤) تهافتَ: تساقط.
(٥) يكُرُّ: يعطفُ ويعيد.

من يدّعي أنّه مُحدَثٌ؟ فيلزم مدّعي القِدَم إقامةَ البُرهان والتفريق بني المدّعيين ومتى بُطل قولُ من ادّعى أنّه مُحَدثٌ صحّتْ له دعواه في القِدَم لأنّ في صحّة الشيء فسادُ غيره. والثالثة: معارضةُ العلّةِ بالعلّةِ كقولِ الموحّد للمجسِّم إذا قلتَ أنّ الباريءَ جسمٌ لأنّك لا تعقلُ فاعلاً إلاّ جسماً فَلِمَ لم تقلْ مركّبٌ مؤلّفٌ لأنك لَمْ تَرَ إلاّ جسماً مركّباً مؤلّفاً؟ والرابعة: معارضةُ الدليلِ بالدليلِ فهو أنْ يُقالَ إذا كان دليلُك كيتَ وكيتَ فما الفرقُ أنّك لا تقابلُ علّةً بعلةٍ ومطالبتك بالفرقِ مطالبة بتصحيح الدليل. وأقول إنّ القياسَ ردُّ الشيء إلى نظيرهِ بالعلّةِ المشاركةِ، ويُقالُ: القياسُ معرفةُ المجهولِ بالمعروفِ، وقيل: كلُّ ما عُلم بالاستدلالِ من غير بديهةٍ ولا حاسّة فهو قياسٌ، وقِيلَ: القياسُ التقديرُ، واحتجّ قائلوه بقولِ الفرزدق[1]

[وافر]

ونحن إلى زفوفٍ[2] مغوّرات[3] نقيسُ على الحصا نطقاً يقينا

وهذه الأقوالُ قريبةُ المعاني كأنّها في مِشكاةٍ[4] واحدةٍ، وقدْ أجازَ بعضُ القائسين القياسَ على الإسمِ كما أجازوه على المعنى، والقياسُ الصحيحُ الذي يوافقُ المقيسَ عليه من جميع معانيه أو أكثرِها، وتسمّى القياسُ البرهانيّ لدخولِهِ في حيّز علوم الإمكانِ، وقد أنكر بعضُ النّاس القياسَ فلزمه أنْ ينكرَ ما فاتَ حواسّه وبداثهه[5]، ويُقرَّ بصحّةِ كلّ ما جاء من حقّ وباطلٍ. وقضيّةُ العقول توجبُ أنْ تكونَ كلّ مشتبهَيْن واحداً من حيث اشتبها وإلاّ فلا معنى للاشتباهِ ألا ترى أنّه مستحيلٌ أن توجدَ ناراً حارّةً باردةً لاشتراك النيرانِ في طبعِ الحرارةِ وهو المعنى الموجبُ لهما في القضيّة. وأقولُ: إنَّ الاجتهادَ هو إمعانَ الفكرة والاستقصاءُ في البحث عن وجه الحقِّ الذي لا يُصَابُ بالبديهةِ ولا بالحسِّ لكن بالطلبِ والاستدلالِ، وهو مقدّمةُ القياسِ وكان القياسُ القضاء بالشيء على التمثيل والاجتهادِ طلب وجه ذلك القضاءِ من أصحّ وجوهه والتحرّزِ[6] من وقوعِ الغلطِ فيه لأنّ القياسَ من غيرِ

---

(١) همّام بن غالب بن صعصعة بن مجاشع التميمي، من شعراء العهد الأموي، اشتهر بالهجاء، له ديوان شعر مطبوع، ولد بالبصرة حوالى سنة (٦٤١ هـ) وتوفي سنة (٧٣٢ هـ)، «منجد الأعلام».

(٢) زفوف: يُقال (زفت الريح زفوفاً): هبّت هبوباً غير شديد.

(٣) مغوّرات: مسرعات.

(٤) مِشكاة: كل كوّة غير نافذة.

(٥) بداثهه: جمع بديهة: عدم طول التفكرّ.

(٦) التحرّز: الاتقاء من الشيء، يُقال: تحرّز منه: أي توقّاه.

اجتهادٍ كالقولِ بالظنّ من غيرِ استدلالٍ. وأقولُ: إنّ النظَر فعلُ الناظرِ بقلبهِ ليرى ما خفي عليه فكما أنّ العينَ قد تقعُ على الشيء ولا يتبيّنه إلاّ بُعْدُ النظر والتفكّرِ فكذلك القلبُ قد تعرضُ له الخَطرةُ فلا يثبتُها إلاّ بُعْدَ النظرِ والتفكرِ والمناظرةِ المفاعلةُ منه وقد تكونُ من تشبيه النظيرِ بالنظيرِ فيكونُ معناه القياس المحض.

[الفرق بين الدليل والعلّة]:

أقولُ: إنّ الدليلَ ما هدى إلى الشيء وأشارَ إليه، والعلّةَ ما أوجبه وأوجدَه ويُوصَل إلى الشيء بدليلِهِ لا بعلّتِهِ لأنّ علّته أيضاً مما يوصل إليها، وتُعلم بدليلٍ لأنّ الذي يدلُّ على العالمِ وقد يزولُ الدليلُ ولا يزولُ عينه، ومتى زالتْ العلّةُ زالتْ العينُ، وتختلفُ الأدلّةُ على العينِ الواحدةِ، ولا تختلفُ العلةُ ومحالٌ وجودِ ما يفوتُ الحواسَّ والبداهةَ بغير دليلٍ، وغيرُ وجودِ ما لا علّة له.

القول في الدليل:

أقولُ: إنَّ من الدّليل ما يوافقُ المدلولَ عليه بوجهٍ أو وجوهٍ كثيرةٍ كرؤيتنا بعضِ الجسمِ، والبعض يدلُّ على الكل متصلاً كان أو منفصلاً، ومنها ما لا يوافق المدلول عليه بوجه من الوجوه وسبب من الأسباب كالصوت ويلزمُ مَنْ يزعمُ أنّ الدّليل لا بُدّ أَنْ يوافقَ المدلولَ عليه بجهةٍ من جهاته وإنْ خالفه في أكثرهَا؛ فأمّا إذا لم يكنْ بينهما مناسبةٌ وارتفعَ الاشتباه ارتفعَ التعلّقُ، وإذا سقط تعلّقُ الدليل بالمدلولِ عليه بطُل أنْ يكونَ دليلاً إلاّ أَنَّ لا شيء في الغائبِ إلاّ جسمٌ أو عَرَضٌ[1] لأنّه لا يرى في الشاهد غير حدث وإنْ يُنكرُ ما في العالم الأعلى لأنّ ما في العالمِ الأسفل مخالفٌ له فلا يكونُ دليلاً عليه؛ فإنْ زَعَم زاعمٌ أنّه كذلك لا شيء في جسم أو عَرَض أو حدث غير أنّه مخالفٌ لما في الشاهدِ طُولب بالفرقِ لأنّ المخالفة تقطع التعلّق والاشتباه؛ والزم معارضه عن عارضَه بأنّ لا شيء في الغائبِ إلاّ وهو حادثٌ ولا في الشاهدِ إلاّ غير حادث.

القول في الحدود:

أقولُ: إنَّ الشيءَ اسمٌ عامٌّ يُطلقُ على الجوهرِ والعَرضِ وما يدرك بالبديهةِ والحاسّةِ والاستدلالِ من جميعِ ما مضى وانقضى وما هو ثابتٌ في الحالِ وما سيكون فيما بعد؛ وحدُّ

---

(١) عَرَضٌ: العارض، الزّائل.

الشيء ما يصحّ أنْ يُعلَم أو يُذكَر أو يوجَد أو يخبَر عنه، فإذا كان هذا حدُّ الشيء فقد ثُبتَ أنّ المعدومَ شيء لأنّه يصحّ الخبرُ عنه؛ وأنكرَ قومٌ أنْ يكونَ المعدومُ شَيْئاً؛ وجعلوا حدَّ الشيء أنْ يكونَ مثبتاً موجوداً لأنّ الموجودَ والمثبتَ يعمّان الأشياءَ كما يعمُّ الشيء ولا نقيضَ لهما، قالوا: فلو كان حدُّ الشيء المعلومِ لوجد له نقيضٌ وهو المجهولُ، وزعم بعضهم: أنّ حدَّ الشيء المُثبتُ لا غير ولا شيء منفى، والمعدوم غير مُثبَت، واحتجّ بعضهُم بكتابِ الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ ٱلْإِنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شيئًا﴾ [مريم: ٦٧] فنفى أنْ يكونَ الإنسانُ قبل أنْ يُخلقَ شيئاً وبقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنسانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١] والشيء يذكرُ قبلَ الوجودِ ولو لم يكن شَيْئاً غير المثبت الموجود أوجَب أنْ يكونَ ما يخبر عنه من أخبار العالم والقرون مُذْ قامت الدنيا باطلاً هذراً[١]. فإنْ قِيلَ: إنَّ ذلك قد خرجَ مرة إلى الوجود قِيل: وما يدريك أنّ ما هو كائنٌ بعد غير خارج إلى الوجود؟ وقِيل: إذا خرجَ إلى الوجود فهو شيء، قيل: فما خرّج عن الوجودِ فلا شيء؛ فإنْ قيل: مُحالٌ تقدّم الاسم على المسمّى قِيل: ذلك في الخواصّ، فأمّا العامُّ فغيرُ ممتنعٍ لأنّا نقولُ سيكون في الدنيا أُمور وأسباب وحيوانٌ فتقدّم اسماءها قبلَ وجود شخصِها. وقد كان أبو الهذيل[٢] يغايظهم بقوله في المعدومِ: أنّه جسمٌ خيّاطٍ على رأسه قلنسوة يرقصُ، ونقيضُ الموجودِ المعدومُ، ونقيضُ المثبت المنفيُّ، وليسَ نقيضُ الشيء لا شيء لأنّ المنفيَّ والمعدومَ شيئان قد نفى وعُدم، ولا شيء لا يوصف بالعدم النفي، فإنْ قيل: فجسمٌ هو أم عَرض أم حركة أم سكون؟ قِيلَ: هو شيءٌ معلومٌ مقدورٌ عليه لا غير، وحدُّ الجسم أنْ يكونَ طويلاً عريضاً عميقاً مؤلّفاً مركّباً من أجزاء وأبعاض شاغلاً للمكان حاملاً للأعراض، ولا يوجد بتةً خالياً منها أو من بعضها فإن أنكر مُنكرٌ أنْ يكونَ الموصوفُ بهذه الصفات جسماً سُلّم له وسُوهل في التسمية بما شاءَ وطُولب بالفرقِ بينه وبينَ ما لا يوجدُ بهذه الصفاتِ. وكان هشامُ بن الحكم[٣] يزعمُ في حدِّ الجسم أنّه ما قام بنفسه، لأنَّه كان يقول الباريء جلّ وعزّ عن قوله جسم، فالجسمُ في اللغة ما غلُظ وكثُف، وكذلك يقولون للجثّةِ العظيمةِ جسيمة وإنّما أُطلق هذا الإسم على ما الموصوف به معناه، فإنْ غُيّر اسمه لم

---

(١) هذراً: الكثير الرديء ويعني أيضاً: سقط الكلام الذي لا يعبأ به.

(٢) هو محمّد أبو الهذيل العلاّف، متكلمٌ ومفكر معتزلي، ولد بالبصرة، ودرس فيها ثم في بغداد، وهو ينفي الصفات عن الله (ت ٢٣٥ هـ). «منجد الأعلام».

(٣) كوفي: من كبار أصحاب الإمام جعفر الصادق، أبرع في المناظرة والجدل، وتقدم بذلك، وهو من أوائل المؤلفين في الإسلام، له كتاب «الألفاظ» في أصول الفقه (ت ١٩٠ هـ). «منجد الأعلام».

يتغيّر معناه، وإنما يتبيّنُ الفرقُ عند تفصيلِ الأسماء والأشخاصِ. وحدُّ العرض أنْ لا يقومُ بنفسه ولا يوجدُ إلاّ في جسم، فإن أنكَره منكرٌ قُوبل بما يُقابلُ به منكرُ الجسمِ وطُولب بالفرقِ بينه وبين غيره، ثم كُلّم على ما أشار إليه من المعنى.

وقد زعم قومٌ أنَّ لا عرضَ في العالم وأنّ الأشياءَ كلَّها أعراضٌ مجتمعةٌ متفرقةٌ وحدُّ الجوهرِ حدٌّ بعينه لأنّه جسمٌ ولأنّ ما خلا عن حدود الجسمِ والعَرض والجزء لم يضبطْه الوهمُ ولا يتصوّرُ في الظنّ الّذي هو أضعفُ أجزاء العلوم، ودخلَ في خبرِ الامتناع، وقد يسمّى الجوهرُ الطينةَ والمادّةُ والهيولي والجُزْء والعنصر والاسطقس[1]، واختلفَ الناسُ في الجزء الّذي لا يتجزّأُ من الأجسامِ، فقال كثيرٌ من النّاس: إنّه لا يزالُ مجزّأً حتّى يصيرَ في الصغَرِ إلى حيثُ لا يجوزُ أنْ يتجزّأ، ولا يكونُ له ثُلثٌ ولا رُبع ولا نِصْف، قالوا: ولولا ذلك لمَا كانَ للأجسامِ تناهٍ ولما كان شيءٌ أكبرَ من شيء ولا أصغرَ منه ولما جاز لقائلٍ أنْ يقولَ: إنّ اللهُ قادرٌ على أن يرفَع من الجسمِ كلَّ اجتماع خلقه فيه فأقلّ الاجتماع بين جزئَيْن. قال ابن بشّار النظام وهشام بن الحكم: إنّه يتجزّأ تجزّأً بلا نهايةٍ ولم يتهيأْ بالفعلِ فإنّه موهُوم، واحتجّوا بأنّه كما لا يجوزُ أنْ يخلقَ الله شيئاً لا شيء أكبرَ منه فكذلك لا يجوز أنْ يخلقَ شيئاً لا شيء أصغر منه، وقالوا: لو كان قولُ مَنْ قالَ إنّ الجزّء لا يتجزّأ صحيحاً كان في نفسه لا طول له ولا عَرض فإذا حدث له ثانٍ حدثَ لهما طولٌ فلن يعدّوا الطولَ أنْ يكَون لأحدهما دونَ الآخر أو لَهما معاً، فلمّا ثُبتَ أنّه لهما علم أنّه يتجزّأُ. وقال الحسين النجار[2] الجزءُ يتجزأ حتّى يعودَ إلى جزءٍ لا يقبلُه الوهُم فيبطلُ حينئذٍ؛ وقال قومٌ: لا ندري كيف القولُ فيه، واختلفوا في جوازِ الرؤيةِ عليه وحلول الأعراضِ فيه من اللونِ والحركة والسكون وغير ذلك، فأجازه قومٌ ونفاه آخرون؛ والقدماءُ مختلفون في هذا الفصلِ على خلافِ قولِ أهلِ الإسلام فيزعمُ بعضهُم أنّه يُرى قبلَ الاسطقسات الأربعة اسطقساتٌ آخر صاغر الأجزاء غير متجزّئة في غاية الصغرِ منها تركيبُ الاسطقسات التي منها تركيب العالم، وأمّا ارسطاطاليس يقول: إمّا التجزئة بالقوة فإنّها بلا نهاية وأمّا بالفعلِ فلها نهاية وقال بعضهُم: لا يتجزّأ لا يقبل الانفعال مع اختلافِ كثيرٍ بينهم.

وحدُّ الزمان حركةُ الفلك ومدى ما بين الأفعال، هذا قولُ المسلمين؛ وحكي عن

---

(١) الأسطقس: الأصل والعنصر، وهي الماء والأرض والهواء والنّار على زعم الأقدمين (يونانية).

(٢) أبو عبد الله الحسين بن محمد، متكلم من الكبار، خالف المعتزلة، في أشياء، ووافق المرجئة والسنية في أشياء إليه تنسب الحلة النجارية، له «إثبات الرسل» (ت حوالى ٢٢٠ هـ). «منجد الأعلام».

أفلاطن[1] أنّه يرى الزمانُ كوناً في الوهم، وحكى أرسطاطاليس في كتابِ السماع الطبيعي أنّ جميعَ القدماء كانوا يقولون بسرمديّة[2] الزمان إلاّ رجلاً واحداً يعني افلاطن وروى عنه افلوطرخس[3] أنّه قال: جوهر الزمانِ هو حركةُ السماء، هذا وفاقُ قول المسلمين، وبعضهُم يقولُ إنّ الزمانَ ليس بشيء مع اختلافِ كثيرٍ بينهم، وإنّما ذكر ما ذكر من مذاهبهم لتطمئنّ نفسُ الناظرِ إلى خلافِ القائلين بالعقل والتمييز، وليستفيدَ يقيناً بما يعضدَه من وفاق قولهم لأنّ في الإجماع قوةً وهو من أوكد أسبابُ الاستظهار عليهم. وحدُّ المكان ما اعتمد عليه الجسمُ أو أحاطَ به أو حلَّة العَرَضُ، وهذا أراده أرسطاطاليس حيث قالَ: (المكانُ نهايةُ المحتوى الذي يماسّ ما يحتوي عليه) واختلفوا في الخلاء والفضاء، فقال قومٌ: العالمُ لا خلاء فيه وإنّ الهواءَ جسمٌ منتشرٌ بسيطٌ ويُمْتَحنُ بالآلة الّتي هي على هيئَةِ الرّطل في أسفلها نقبٌ فإذا شُدّ أعلاها لم يخرج الماء من أسفلها، وإذا فتح سَال فعُقل أنّ الماءَ دفعَه دافعٌ وهو الهواء الدّاخل في الكور[4]، وقال آخرون: لا تخلو الأجسام من خلاء وهو الفُرجُ بين الأجزاء، واستدلّوا بالماء الذي يُصبّ على الأرض فيغوصُ فيها. وفرّقَ قومٌ بين الفضاءِ والخلاء فقالوا: الخلاءُ هو الفراغُ من الجسّم والفضاءُ هو المحتوي على الخلاء بِلا نهاية، ويزعُم قومٌ أنّ الخلاء والفضاءَ شيء واحدٌ، ويقول آخرون: إنّه ليسَ بشيء وحدُّ المتعايرين ما جاز وجودَ أحدهما مع عدمِ الآخر؛ وقالَ بعضهُم حدُّهما ما اختلفَ أوصافهُما وحدُّ الضدّين ما لا يجوز وجودَ أحدهما إلاّ مع عدمِ الآخر وحدُّ الموجود ما ثبتُ عِلماً أو حِسًّا أو وهماً وهو معنى الشيء وحدُّ الاسم ما دلّ على المسمّى بالتمييز من جنسه، والصفّةُ كالاسم في بعض الأحوال إلاّ أنّ خاصّيّةَ حدِّها الإخبارُ عمّا في الشيء كالعلمِ في العالمِ؛ وقد يفرقُ قومٌ بين الوصفِ والصّفةِ فيجعلونَ الصّفةَ ما هو ملازمٌ للموصوفِ، والوصفُ قولُ الواصفِ ذلك، وحدُّ الإرادة ما يضمره الإنسان في قلبه من فعلٍ أو قولٍ أو حركةٍ، وحدُّ القولِ ما يُبديه القائلُ بلسانه وقد يُقال للإشارة قولٌ على المجاز، وحدُّ المعنى عقدُ القلب على ما أبدى بلفظه. فزعم ابن كلاب: أنّ معنى القول نفسُ القولِ ولو كان كذلك ما سأل السّامعُ

---

(١) من مشاهير فلاسفة اليونان، تلميذ سقراط ومعلم أرسطاطاليس، أساس فلسفة «نظرية الأفكار» أسمى هذه الأفكار «فكرة الخير» من مؤلفاته «الجمهورية» و«الشرائع» (ت ٣٤٧ ق. م) «منجد الأعلام».

(٢) سرمديّة: السرمديّ: ما لا أول له ولا آخر.

(٣) زاهد وصوفي وفيلسوف، تأثر بأفلاطون، مؤسس الأفلاطونية الحديثة، جمعت تعاليمه تحت عنوان «التاسوعات» وكان لانتشارها الوقع الخطير على الفلسفة والتصوّف، (ت ٢٧٠ م) «منجد الأعلام».

(٤) الكوْز: إناءٌ كالإبريق لكنه أصغر منه (آرامية).

القائلَ ما معنى قولك؟، وحدُّ الحركةِ زوالٌ وانتقالٌ وهي على ضروبٍ فمنها الحركةُ الذاتيّةُ والمكانيّة، وقد قِيل الحركةُ اختلاف وتغييرٌ، وحدُّ السّكون لَبْثُ[1] واستقرارٌ، وزعم بعضهُم أنّ السكونَ ليسَ بشيء، وحدُّ الجنس ما يجمعُ أشياءَ مختلفةَ الصُّورِ كالحيوانِ والنّبات وقد قِيل الجنسُ ما استوعب الأنواعَ، وحدُّ النّوع تخصيصُ النظائر من الجنسِ والشخص تمييز الذاتِ من النوع والشخص تحتَ النّوع والنّوعُ تحتَ الجنسِ وهذا المقدارُ من هذا الباب لإغناء لأحدٍ عن مطالعتهِ فإنّه كالمادّةِ للنظرِ والآلةِ للجدل.

[الأضـداد]:

أقولُ إنّ قولَ مَنْ يزعمُ أنّ الشيء لا يُعرَف إلاّ بضدّه محالٌ لأنّ معرفَة الشيء بحدوده ودلائله بل شكلِه ونظيرِه أسكنُ من معرفتهِ بضدّه ونديده[2] لِأنّ الشّيء يدلُّ على جنسهِ ونوعهِ ما لا يدلُّ على ضدِّه؛ ولكن الضدّين لا يجتمعان وعند صحّة الشيء فسادُ ضدّه ولا يقع التضادُّ إلاّ بين الموجودات، فبطُل قولُ القائل: إنّ ضدَّ الجسم لا جسم وضدَّ العَرَض لا عَرَض وضدَّ الزّمان لا زمانٌ وضدَّ المكانِ لا مكان وضدَّ الشيء لا شيء، لأنّ الأضدّاد أشياء متنافية؛ وقولُ القائلِ لا جسم ولا عَرَض لا شيء في الحقيقة فكيف يُضادّ الشّيء بلا شيء ولكنّ الأجسامَ والأعراضَ أشياءُ مضادّة كالأسودِ ضدُّ الأبيضِ والقديمِ ضدُّ المُحْدَث لأنَّ القديمَ الموجود لا إلى أوّل والحادثَ ما يوجد بعدَ إن لم يكن.

حدث الأعراض:

أقولُ: إنّ معرفةَ حدثِ الأعراض منِ أوائل العلوم القائمة في النّفس البديهةِ وما المنكرُ لها إلاّ بمنزلة المنكر للظّاهر المحسوس لمعايننتنا تعاقبَ الألوان المتضادّة على الأجسامِ كالسّواد بعد البَياض والبَياض بعدَ السّواد وكذلك الروائح المتضادّة كالكريهة والطّيّبة وسائرِ الحالات الّتي لا يخلو الجوهر منها كالحرِّ والبردِ والرّطوبةِ واليُبُوسةِ واللّين والخُشونة والحركة والسّكون والاجتماع والاقتران والافتراق والطعوم الملاذّ والمكاره، وما نجده من أنفسنا من الحبِّ والبغضِ والإرادةِ والكراهيةِ والشوق والملامة والجُبْنِ والشّجاعة والقوّةِ والضّعف والشبيبةِ والمشيبِ والنومِ واليقظةِ والجوعِ والشّبعِ، وما نراه من حالِ القيام

---

(١) لبثٌ: مكْثٌ، إقامة.

(٢) نديده: نظيره.

والقعودِ والقُربِ والبُعدِ والحياةِ والموتِ والفرحِ والحزن والرّضا والغضبِ وسائرِ العوارض التي تطرأُ على الأجسام وبعد أن لم تكن وتزول بعد أن كانت. وهذا بابٌ يستكملُ جميعَ أوصاف العالم وما فيه لو تكلّفه متكلّفٌ لأنّه الدليلُ على الحدثِ والكونِ وقليلُ الشيء يدلّ على كثيره، فإنْ زَعَم زاعمٌ أنّ هذهِ الأعراضَ أجسامٌ طُولب بالفصلِ بين الحاملِ والمحمول ولا بُدَّ من التفصيلِ بينهما ثمّ من الدّليل على أنّ العَرَضَ غيرُ الجسّم جواز الاختلاف عليه وعينُ الجسم باقيةٌ كالبُسْرة[1] الخضراء مثلاً تراها تصفرُّ فتُبطل خُضرَتُها ثم تحمرُّ بعد صُفرتها وعينها قائمةٌ، وكالّراضي يغضبُ فيختلفُ حالهُ وعينهُ لا تختلف والشابُّ يشيبُ والحيّ يموت؛ فلما لم يجز أن يُقالَ لمن قد شاب إنّه ليس بذاك الشابّ ولمن مات إنه ليس بذاك الحيّ مع ورود حالٍ وارتفاع حالٍ أُخرى عُقِلَ أنَّ العَرَض ليسَ بجسم ولا بعضِ الجسمِ لأنّه لو كان كذلك لتغيَّر الجسمَ كما تغيرّ الأعرَاض الحادثةُ، فإذا ثُبتَ أَنَّ الأعراضَ غيرَ الأجسام وجَبَ أَنْ ننظرَ أحادثة هي أم قديمة؟

فلمّا رأيناها كائنة بعد أن لم تكن وزائلة بعد أن كانت دلّنا ذلك على حدوثها وكونها كوجودنا، الجواهر متفرقةٌ بعد أنْ كانت مجتمعةً ومجتمعة بعدَ أنْ كانتْ متفرّقةً ولن يخلو أنّ تكونَ مجتمعة بأنفسها أو باجتماعٍ فيها فإنْ كانت مجتمِعةٌ بأنفسهم لم يَجُزْ وجوده متفرقة ما دامت أنفسها قائمة فعلمنا أنّها مجتمعةٌ باجتماع ثم نظرنا أذلك الاجتماعُ جو عَرَض؟ فدلّنا أنّه لو كان جوهراً لكان مجتمعاً باجتماع آخر ثم كذلك إلى ما لا نهاية فلم ما قلنا علِمنا أنّه مجتمعٌ باجتماع هو عَرَض لا جوهرَ، وكذلك القولُ في الحركةِ والسّكونِ فإنّ قِيل إنّ الأعراض كانت كامنةً في الجسّم ثمّ ظهرت بعد ظهورها حادث أم غير حادث مع استحالة أن يكونَ الاجتماعُ والافتراقُ والحركةُ والسكونُ كامنةً في الجسّم فيكونُ الجسمُ في حالٍ واحدةٍ ووقتٍ واحدٍ ساكنا» متحرّكاً ومجتمعاً متفرّقاً، فإن التجأوا إلى مذهبِ مَنْ يقولُ بالهيولي وإنّه كان جوهراً قديماً لم يزلْ خالياً من الأعرَاض ثُمّ حدثَتْ فيه الأعراضُ فحدثَ فيه هذا العالمُ بما فيه، قِيل لا يخلو حدوثُ الأعراضِ فيه من أَنْ يكونَ كانت كامنة فظهرتْ، أو كانت في جوهر آخر فانتقلتْ، أو لم تكُنْ بتّة فأُحدِثت.

فلما استحالَ كمون[2] الأعراض في الجوهر الذي يزعمونه خالياً من الأعراض أَن يكونَ مثلَ أجسام العالمِ أو دونها أو أعظم منها أو يكونَ جُزْءاً لا يتجزّأ أو كيفَ ما كان فإنَّ

---

(١) البسْرة: حبة التّمر إذا لوّنت ولم تنضجْ.

(٢) كمون: مصدر كمَنَ بمعنى: توارى واختفى.

القصدُ للحقِّ وتعريف السّائل وجهَ سؤال من إصابةٍ وإحالة ولا عليه أنْ يجيبَه عن مسألةٍ هي فرعٌ لمسألة يخالفه فيها حتّى يقرّرَه بإيجابها وتأخذَ ميثاقه على القول بها، لأنّ الخلافَ إذا كان واقعاً في الأصل لم يطّرد القياسُ في الفرعِ وذلك في التمثيل كسائلٍ عن الرّسالة منكرٍ للتوحيد، وإنّما تصحُّ النبوّةُ بصحّةِ التوحيد لأنّه الموجبُ لها وكلُّ سؤالٍ يرجِع إلى السائل بمثل ما يريدُ أن يلزِّمه المسؤول فغيرُ لازم، لأنّ المعارضةَ فيه قائمةٌ فطلبُ الدّليل على الدليل والعلّة على العلّة إلى ما لا نهاية له فاسدٌ لأنّ محصولَ الظواهرِ المحسوسَ ومحصولَ البواطن المعقولَ وما لا نهايةَ له غيرُ موجودٍ ولا معلومٍ ولا موهومٍ، وقد يُستحسنُ لابن الهذيل قولُه: (إنّ صحّةَ الصّحيح وانتقاضَ المنقوض في جميع ما اختلف فيه المختلفون يُعلَم في ثلاثةِ أوْجه أحدهما: إجراء العلّةِ في المعلولِ. والثّاني: نقضُ العلّة بالتفسيرِ. والثالث: جُحد الاضطرارِ، فإمّا تركُ إجراء العلّة في المعلول فكقولِ الرّجل فرسي هذا جوادٌ فيُقَالُ له أكلُّ ولِمَ قلت ذلك؟ قال لأنّي أجريته كذا فرسخاً، فيُقَالُ له أكلُّ فرسٍ جرى في اليوم كذا فرسخاً فهو جواد؟ فإن قالَ نعم أجرى علّته وإنْ قال لا فقد نقضَها، وهو يحتاجُ إلى علّةٍ أخرى. وأمّا نقضُ الجملةِ بالتّفسيرِ فكقول القائل: إذا اشتدّ حرُّ الصيفةِ اشتدّ بردُ الشتوة التي تليها، وإذا اشتدَّ بردُ الشتوةِ اشتدَّ حرّ الصيفةِ التي تليها، ثم يقول: وقد يشتدُّ حرُّ الصيفِ ولا يشتدُّ بردُ الشتاء الذي يليه فيكونُ قد نقضَ بهذا التفسيرِ الجُملةَ الّتي تقدّمت لأنّها لو صحّتْ لم يشتدَّ حرُّ الصّيف ولا يشتدُّ بردُ الشتاء الذي يليه فيكونُ قد نقضَ بهذا التفسيرِ الجُملةَ الّتي تقدّمت لأنّها لو صحّتْ لم يشتدَّ حرُّ الصّيف إلاّ باشتداد بردِ الشتاء أبداً.

وأمّا جُحد الاضطرارِ ففي البداهة والحواسّ وذلك كسؤالنا الدّهريةِ عن شيخٍ رأيْناه على كرسيٍّ في هيئته وخِضابه[1]، أيزعمون أنّه لم يزلْ هكذا قاعداً في مكانهِ بحاله الّتي هو عليها من الكسوة والخضاب؟ فإن قالوا: نعم جحدوا الاضطرار بشهادة العقول بإبطالهم، واعلم أنَّ السكوتَ بعد استقرارِ الحقّ أبلغُ من الكلام في الذبّ عنه وزيادةَ البيان هُجنةٌ[2] ورُبّما أورثتْ فرصةً لأنّ الإفراطَ نقصٌ وعلمٌ بفلج الحُجّة[3] ودحوضِها[4] أبلغُ من إفصاحك بها لأنّ الشاهدَ شاهدُ القلبِ لا شاهدَ اللّسان، وليس كلُّ مَنْ لزِمه قولُ مناظرِهِ أو

(١) الخضاب: ما يُخضب به.
(٢) هجنة: إضاعه، وتعني العيب والقبح من الكلام.
(٣) فلجُ الحجّةَ: إثباتها.
(٤) دحوضها: إبطالُها.

عجز عن جوابه في الوقت وجب عليه المصيرُ إلى مذهب خصمهِ ولكن بعد التبيّن والتثبت واستبراءِ[1] الحال والرّجوع إلى الأُصولِ الموطودة والأعلام المنصوبةِ، فإذا انكشفَ الغِطاءَ عن وجهه وصرّحَ المحضُ[2] عن زُبْدِه[3] وأومضَ الحقُّ سيرّه فلا يسع حينئذٍ غيرُ الإقرار والانقياد له وليسَ من الحقِّ تكليفُ الخصْم إظهارَ ما هو خفيّ في نفسه لأنّه غيرُ ممكنٍ كما يمكنه اخفاءُ ما هو ظاهرٌ في نفسه، ولأنّ ذلك إزالةُ الشيء عن وجهه.

فبهذه مقدّمات قدّمناها نظراً للنّاظر في كتابنا ونُصحاً لمن احتاط لدينه وتحرّزَ من تمويه الملحدين وتلبيسِ الممخرقين وخَطرات المجانّ[4] ووساوس الخلعاءِ الّذين أفسد الفراغُ فكرَهم، وأخمدتْ الكفايةُ قرائحَهم، وحلّتْ عن الدقائق عقولهُم، وعاشتْ بصنوفِ الشهوات نفوسهُم، وملكهَم الهَزلُ، وركبَهم الجهلُ، واسترقّهم الباطلُ، وهجرتْهم الفِكرُ، وعميَتْ عليهمِ مواقعُ النّظر، فاحتالوا في إسقاطَ التكليفِ عنهم ليمرحوا في ميادين الشهوات، وليركبوا ما يَهْوونه من اللذّات بإنكارِ علوم الأُصول من البديهة والحواسّ والله المتسعان وهو خيرٌ معينٌ.

وبعد فإنّ لأهلِ الإسلامِ أُصولاً من الكتابِ والسُنّةِ والاجماعِ والقياسِ عليها ما يقومُ لهم الحجّة بها بينهم ويقنعون بشهادتِها ودلائلها وكذلك أهلُ كلِّ مِلّة ودِيْنٍ وكِتابٍ غيرَ أنَّ ذلك لتصحيحِ فروعِ دينهم وشرائعِ مِلّتهم فلذلك أضربنا عن ذكره صفحاً.

---

(١) استبراء: مصدر استبرأ، يُقال: استبرأ: طلب الإبراء من الدّين والذنب.

(٢) المَحْضَ: المحضُ من اللبن: الخالص الذي لم يخالطهُ غيره.

(٣) الزُبدُ: ما يستخرج بالمخضّ من لبن البقر والغنم.

(٤) المجانّ: جمع مجِنّ: يُقال: قلب مجِنّه: أي سقط الحياء وفعل ما شاء.

الفصل الثاني

في إثبات البارىء وتوحيد الصّانع بالدّلائل البرهانيّة والحججِ الإضطراريّة

أقولُ: إنّ الدّلائل الّتي تدلّ على إثبات الله عزّ وجلّ غيرُ مُحصاة ولا مُتناهية في أوهام الخلائقِ لأنّها بعددِ أجزاء أعيان[١] الموجودات من الحيوان والنّبات وغير ذلك ممّا خُفي من الأبصارِ، لأنّه ما من شَيْءٍ وإن صغُر جسمُه ولطُف شَخصُه إلاّ وفيه عدّةُ دلائل تعبّر عن ربوبيّته، وتصرّح عن إلاهيّته تصريحاً تنتفي مع أدناها الشبهةُ، وتُزاح العلّةُ؛ وإلى هذا المعنى نظَر بعضُ المحدّثين وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحدُ؛ ولن يجوزَ غيرُ ما قُلْنا لأنّه لما كان هو خالقُ الخلقِ وصانعُ الصُّنع ومُخترعُ الأعيان ومُخرجُها من العدم إلى الوجود لم نخلُ من آثار خلقه واختراعه، فهي اللّائل المقترنة بها الشاهدة على صانعها ومُنشِئها، فمن الّدليل على إثبات البارىء سبحانه وتعالى أنّه خلافٌ بين الأوائل والأواخر إنّ الأرض منها عامرٌ مسكونٌ معلومٌ، وعامرٌ مسكونٌ غير معلوم، وخرابٌ مجهول غير مسكون، وإن عظّمَ المسكونَ المعلومَ منها العربُ وفارسُ والرّومُ والهندُ وهم ذوو الآداب والأخلاق من سائرِ أهلِ الأرضِ، لم السِّيَر والسُّنَن والآيين[٢] والحكمةِ والهمّةِ والنظرِ والخصالِ المحمودةِ والعلومِ المأثورة من الطبِّ والتنجيمِ والحسابِ والخطّ والهندسةِ والفِراسة والكهانة والأديانِ والكتب وغير ذلك ممّا يستعملونها في معاملاتهم وموضوعاتهم: وما سواهم رَعاعٌ[٣] وهمجٌ سافلوا الرتبة عن رتب من قدّمنا ذكرهم، وناقصوا الحظّ من

---

(١) أعيان: جماعة، والأعيان: خيار الشيء.

(٢) الآيين: العادة، العُرف المتبع في جماعة من الناس.

(٣) رَعاع: رعاع النّاس: غوغاؤهم وسفلتهم وأخلاطهم.

حظوظهم؛ إمّا بهيميّ الطبع في قلّة التمييز والفِطنة، وإمّا سَبُعيّة[1] في الجفَوة والغِلْظة، حتّى أنّ منهم مَنْ ينزو بعضُهم على بعضٍ ومنهم مَنْ يأكُلُ بعضهُم بعضاً لعللٍ قد ذكرها القدماءُ ليس هذا موضعُ شرحها بقول الله سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. [النحل: ٨].

ثمّ إنَّ هذه الأُممَ المحمودَة أخلاقهم مع اختلافِ أصنافهم وافتراق ديارِهِم وتفاوتِ »آرائهم في المذاهب الّتي ابتجلوا والأديان الّتي اعتقدوا لم يختلفوا في وجودِ آثارِ الصّانع الحكيمِ في هذا العالم وما يشاهدونه في أجزائه وأبعاضِهِ واختلافِ طِباعه وتعاقُبِ أعراضه.

فإذا صحّ وجودُ البارىء الأزليّ القديمِ الأوّل السّابق ببدائهِ العقول وشهادةِ النفوس واضطرارِ الفِطرة وإلجاء[2] الخلقة بذلك بُني تأسيسهُم، وعليه بُني تركيبهُم إلاّ مَنْ شذَّ مِنْ جاهل أو جاحد مؤوفٍ[3] في نفسه أو مغلوبٍ على عقله؛ إذ غيرُ مفهومٍ ولا موهومٍ أثرٌ من غيرِ مؤثرٍ، ولا صُنْعٌ من غيرِ صانعٍ، ولا حركةٌ من غيرِ محرّكٍ، كما تجحدُ الضرورةُ وجودَ كتاب بلا كاتب، وبناءٍ بلا بانٍ، وصورةٍ بلا مصوّر.

فسبحانَ مَنْ لا انتهاءَ لهُ إذ لا ابتداءَ له منه البدايةُ وإليه النهايةُ، مُبدعِ القوى وممدِّ الموادّ وسابقِ العللِ ومنشىءِ البسائط ومركّبِ العناصر وحافظِ النظام ومدبّرِ الأفلاك ومُحدثِ الزّمان والمكان ومحيلِ الأركان الحكيمِ العَدْلِ القائمِ بالقسط الناظرِ للخلق البريء من المعائب الغنيّ عن اجتلاب المنافع مدبّرِ الأُمور ومدهّرِ الدّهور، أرخى على الأوهام ستورَ ربوبيّته، وضربَ على مطالعِ العقول حُجبَ إلاهيّته؛ فليسَ يُعْرّف إلاّ بما عَرّف به الخلقُ نفسه، ولا يُدرِكُ أحدٌ من صفاته؛ كهنةُ الأبصارِ عن بدائع صنعه خاسئةٌ[4]، والبصائرُ عن ملاحظتها نابئةٌ[5]، والقلوبُ في آثار الدلائل عليه حائرةٌ، والنّفوسُ مع حيرةِ القلوب إليه والهةٌ، والعقول عند محافظة الاشرافِ عليه مضمحلّة متلاشية؛ معبودٌ في كلّ زمان معروفٌ بكلّ لسان مذكورٌ بكلّ اللغات موصوفٌ بتضادّ الصفات ليس كمثلِه شيءٌ ﴿وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] نحمدهُ على ما هدانا ولدينه اجتبانا، ونشهد أَن لا إله إلاّ

---

(١) سَبُعيّة: نسبة إلى السَّبُع: وهو كلّ ما له مخلب.
(٢) إلجاء: مصدر ألجأ: يُقال ألجأ أمره إلى الله: أي أسنده.
(٣) مؤوف: مصاب بالآفة، والآفة: العاهة أو كلّ ما يصيب شيئاً فيفسده.
(٤) خاسئة: يُقال: خسأ البصرُ: كَلَّ وأعيا.
(٥) نابئة: النابىء: الطارىء من حيث لا يُدرى.

الله نتميّز به عن المشركين، ونتزيّل[1] عددَ الجاحدين، ونشهدُ أن محمّداً عبدهُ ورسوله أرسلَه بالهُدى ودينِ الحقّ غيرَ حادسٍ ولا ساحرٍ ولا كاهن ولا شاعر ولا محتال ولا متنبٍّ كذّاب ولا مريدٍ دنيا ولا قائل بالهوى؛ فأبلغَ وأدّى وأنذر وأهدى وصدع بأمر الله حتى أتاه اليقينُ؛ فصلواتُ الله على روحهِ غاديةً وبرداتُ رحمته مترادفةٌ على آلِهِ أجمعين.

هذا التحميدُ الذي وجب أن نصدّرَ به كتابنا أخّرناه إلى حيثُ قدّرنا أنه أولى به وأَلْيقُ.

ومن الدّليل على إثبات الباريء سبحانه وَلَهُ النّفوسِ وفزعُ القلوبِ إذا حَزبتْ الحوادثُ إليه اضطراراً إذْ لا يوجد مضطّر وقد عضّتْهُ نائبةٌ ولدغتْهُ ناكبةٌ يفزعُ إلى حجرٍ أو شجرٍ أو مدرٍ أو شيء من الخلائق إلاّ إليه، ويدعوه بما هو معروفُ عندَه من اسم أو صفة هذا مشاهد عياناً، كما تفزع النفسَ عندَ المكاره المخوفةِ إلى طلبِ المهرب والنجاة، وكما يفزعُ الطفلُ إلى ثدي أُمّه ضرورةً وخلقةً؛ كذاك الله في معرفة خلقهِ إياه لأنّ أثرَ الدّلالة في الخلق عليه أعظمُ من أثرِ الطبعِ إلى ما لا يلائمه وينافره.

ولا يمكن الملحدُ المنكرُ وإن غلا وتعمّق في الإلحاد الامتناعَ في معرفة الله وإجراء ذكرهِ واسمه على لسانه شاءَ أَمْ أبى في حال عمدهِ ونسيانه، لأنّ قلبَه ولسانَه على ذلك الخُلق كما أنّ طبعَه على الميل إلى المحبوب والازورار عن المكروه جُبِلَ.

ومن الدّليل على إثبات الباريء جلّ وعزّ أنّه لا يخلو لسانُ أُمّةٍ من الأُمم في أقطار الأرض وآفاقها إلاّ وهم يسمّونه بخواصّ من أسمائه عندهم، ومستحيلٌ وجودِ اسمٍ لا مسمّى له كاستحالة وجودِ دليلٍ على غير مدلول عليه بل المدلول موجب لدليل كذلك المسمّى موجب الاسم؛ وما هو في التمثيل إلاّ بمنزلة الحامل والعرض المحمول، فكما يستحيل وجود عرض إلاّ في جوهرٍ، كذلك يستحيلُ وجودُ اسمٍ إلاّ لمسمىً؛ فمن ذلك قولُ العرب له الله مفرداً من غير أن يشاركوه في هذا الاسم بأحدً من معبوداتهم لأنّه خاص لهم عندهم؛ وكانوا يُطلقون على غيره على التنكير، وأمّا الربّ بالتعريف والرحمن فلم يكونوا يجيزونه إلاّ لله تعالى، وإنّما تسمّى مسيلمةُ الكذاب[2] بالرحمٰن مضادّةً لله جلّ وعزّ ومعاندةً لرسوله عليه السلام ذلك مشهورٌ مستفيضٌ في قوافي أوائلهم قبلَ قيام الإسلام، فمن ذلك قولُ

---

(١) نتزيّل: يُقال: تزيّل القومُ: تباينوا أو تفرّقوا.

(٢) رجلٌ من بني حنيفة في اليمامة، ادّعى النبوة، هزم الجيش الإسلامي بقيادة عكرمة انتصر عليه المسلمون في معركة عقرباء التي عرفت بـ «حديقة الموت» (ت ١٢ هـ) «منجد الأعلام».

بعضهم في الجاهليّة: [الطويل]

أَلاَ ضَـرَبَـتْ تِلْـكَ ٱلْفَتَـاةُ هَجِينَهَـا أَلاَ قَطَـعَ ٱلـرَّحْمٰـنُ مِنْهَـا يَمِينَهَـا

فأضافَ فعل القطع إلى الرحمٰن لأنّه أرادَ به الدعاء، وعلم أنّه لا يجيبُ الدعاءَ إلاّ اللهُ، وقولُ أميّة بن أبي الصَلْت[1]: [بسيط]

وَٱلْحَيَّـةُ ٱلحَتْفَـةُ الـرَّقْشَـاءُ أخـرجَهـا مِـنْ حُجـرِهَـا آمِنـاتُ اللهِ وٱلْقَسَـمُ

إذا دَعَـا بـِٱسْمِـهِ ٱلإِنْسَـان أَوْ سَمِعَـتْ ذَاتَ ٱلإِلَـهِ يُـرَى فِـي سَعْيِهَـا زرَمُ[2]

وإنّما أتينا بهذا البيت حجّة لإثبات اسم الإلاهيّة لا لرُقْيَة الحيّة وقول زيد بن عمرو[3]: [طويل]

إلَـى ٱللهِ أُهْـدي مِـدحَتـي وثنـايـايـا وَقَـوْلاً رَصِيناً لابنـي الـدهـر بـاقيـا

إِلَى المَلِكِ الأَعْلَى الّذي ليس فوقَهُ إِلَـــهُ ولا ربٌّ ســـواه مُـــدَانِيـــا

وقول فارس هرمز وايزد ويزدان[4]: ويزعمون أنّ عبادتَهم النار تقرّب إلى الباريء عزّ وجلّ لأنّها أقوى الإسطقسات وأعظمُ الأركان، كما قال مشركوا العرب في عبادتهم الأوثان ما نعبدُهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى[5]؛ ولا يجوز أن يكونَ غير هذا حالة مَنْ يعبدُ شَيْئاً من دونِ اللهِ لأنّه يعلمُ أنّ معبودَه من خشبٍ أو حجرٍ أو نحاسٍ أو ذهبٍ أو شيء من الجواهر غيرُ خالقِه ولا صانعِه ولا مدّبرِ أمره ولا محوّله.

ولقد دخلتُ بيتَ نار خُوزَ وهي كورة من كُورِ فارس قديمةُ البناءِ، وسألتهُم عن ذكرِ الباريء في كتابهِم، فأخرجوا إليَّ صُحفاً زعموا أنّها الابسطا وهو الكتابُ الذي جاءَهم به زرادشت[6]، فقرؤوا عليَّ بلسانهم، وفسّروه عليّ بمفهومهم الفارسيّةَ فيكمازهم بهستة

---

(١) شاعر جاهلي من رؤساء ثقيف وفُصحائهم، قيل أنّه كان من النُسّاك، قال بالتوحيد، ونبذ الأوثان، ووصف الكمالات الإلهية، وأشاد بدين الحنيفة (ت ٦٣٠ م) «منجد الأعلام».

(٢) الزَرَمُ: الانقطاع، يُقال: زرم الشيء: انقطع.

(٣) أحد حكماء قريش في الجّاهلية، وهو ابن عمّ عمر بن الخطاب، كان يكره عبادة الأوثان وحارب عادة وأد البنات (ت ٦٠٦ م).

(٤) كلمات فارسية.

(٥) زُلفى: منزلة ودرجة وقُربى.

(٦) نبيّ الفرس الأقدمين، ومصلح ديانتهم الأولىٰ، أصله من أذربيجان، ظهر حوالى منتصف القرن =

هرمز وبشتاسبندان فيكمازهم وستخيز قالوا: وهرمز هوَ الباريءُ بلسانهم، وبشتاسبندان الملائكةُ ومعنى رستخيز فَنِي فَقُمْ، وقولَ الأعاجم بلسانِ الدريّة خذاي وخذاوند وخذايكان، وقدْ سمعتُ غيرَ واحدٍ قال في تأويله خذست وخوذبوذ معناه أنّه هو بذاته لم يكوّنه مكوّنٌ، ولا يُحدثه مُحْدثٌ؛ وقول الهند والسند شيتاوابت ومهاديو وأسماء كثيرة غير هذه يصفونه بخواصّ أفعاله؛ وقول الزّنوج ملكوى وجَلوِى قالوا: معناه الربّ الأعظم؛ وقول التُرك بير تنكرى يعنونَ الربُّ واحدٌ، وزعمَ بعضهُم أنّ تنكرى اسم لخضرةِ السماء، فإن كانَ كما ذكروا فإنّهم قد آمنوا بالمعنى المطلوبِ من الإلهيّةِ وإنّما شكّوا في الصفةِ، وقال بعضهُم تنكرى هو السماء، واسم الباريء عندهم بالغ بآيات معناها الغني الأعظم؛ وقول الرومِ والقبطِ والحبشةِ وما يدانيها من البُلدانِ بالسُريانيّة لأنّ عامّتهم نَصارى لها ربا قدّوساً ولا فرقَ بينَ السُريانيّة والعربيّة إلاّ في أحرُفٍ يسيرةٍ فكأنّ السريانيّة سُلِخَتْ من العربيّة، والعربيةُ سُلِخَتْ من السريانيّةِ؛ وقول اليهودِ بالعبرانيّةِ ايلوهيم ادناي اهيا شراهيا ومعنى ايلوهيم الله وأوّل التوراة برشيت بارا ايلوهيم[1] يقول أوّل شيء خلقَه الله هذا الذي عليه معظمُ الأممِ والأجيال من أهل الكتاب وغيرهم.

فأمّا أقاطيعُ النّاس في مجاهيلِ الأقاليمِ فمَنْ يحيطُ بلغاتهم إلاّ الّذي خلقَهم وقَسّم بينهم ألسنتَهم، وسمعتُ قوماً من برجان يسمونه ادفوا، فسألتهُم عن اسم الصّنم فقالوا: فع، وسألتُ القبطَ من صعيدِ مِصرَ عن اسم الباريء بلغتهم فزعموا أحد شنق كذا ظنّي واللهُ أعلمُ.

ومن الدّليلِ على إثبات الباريء سبحانَه هذا العالم بما فيه من عجيبِ النظمِ وبديعِ الترتيبِ ومحكمِ الصّنع ولطيفِ التدبير والاتّساق والاتقان، فلا يخلو من ثلاثة أوجه: إمّا أنّه كوّنه مكوّنٌ هو غيرُه؛ فلمّا استحالَ أنْ يكونَ قديماً لم يزلْ لمقارنة الحوادثِ إيّاها وإن لم يخلُ من حادثٍ فحادثٌ مثله، واستحال أن يكوّن الشيء نفسَه لاستحالة الكائن أنْ يبقى نفسه، فكيف يجوز توهّم المعدومِ من أنْ يتركّبَ فيصيرَ عالِماً، لم يبقَ غير الوجه الثالث: وهو أنّ كوّنه مكوّنٌ هو غيرهُ غيرُ معدومٍ ولا مُحدثٍ، وهو الباريء جلَّ جلالَه، واعلم أنَّ الباريءَ عزّ وجلّ ليس بمحسوس فتحُصُره الحواسُّ، ولا معلومٍ بالإحاطةِ فيدرك كيفيّته

= السابع قبل الميلاد، انتشرت دعوته في فارس وأصبحت ديانة السلالة الأخمينيّة (ت حوالى ٥٨٣ ق.م.). «منجد الأعلام».

(١) ألفاظ عبريّة.

وكميته وأينيّته، ولا مقيّسٍ بنظير له أو شبيه فيُعلم بأكثرَ الظنّ والحزرِ، ولا موهومٍ بصورةٍ من الصُورَ، لكنّه معروفٌ بدلائل أفعاله وآياتِ آثاره، موجودٌ في العقولِ لا غير، ولا تُوجَدُ آثارهُ وأفعالُه إلاّ في خَلْقه.

ومن الدّليل على إثبات البارىء سبحانه تفاضلُ الخلق في الدرجاتِ والطّباع والهمم والإراداتِ والصُورِ والأخلاقِ وتمايز الأشخاص والأنواعِ من أجناس الحيوان والنباتِ، فلو أنها مكونةٌ بالطباع لاستوتْ أحوالُها، وتكافأتْ أسبابُها، وكانت تكون في أنفسها مختارةً، ولما يُوجَدُ فيها ناقصٌ ولا عاجزٌ ولا مذمومٌ ولا متأخّر عن درجةِ صاحبه؛ فلمّا وجدنا الأمرَ بخلافه علِمنا أنّ مدبّراً دبّره ومرتّباً رتّبه وهو البارىء سبحانه.

وقد قلنا في صدرِ هذه المقالةِ: إنّ عددَ الدلائل عليه تعالى وتقدّسَ غيرُ مُحصاة ولا متقصّاه لأنّك لو عمدتَ إلى أصغرِ شخصٍ من أشخاص الحيوان وأعملتَ فكرَك في تعداد ما يوجدك من آثار صُنع الصانع فيه لرجعتَ حسيراً عَيِيًّا، وأعجزتْكَ حُجَجُ البارىءِ جلّ وعزّ، وحيّرتْكَ آثارُ صُنعه، وذلك في المثلِ كناظر في بَعُوضةٍ أو نملةٍ أو ذُباب كيف بنى البارىء جلّ وعزّ جسمَه في لطفه وصغرِ أجزائه، وكيف أطلقَ له القوائمَ والأجنحةَ، وكيف ركّب فيه من الأعضاء ما لو فُرِقّتْ لما كان الطَرْفُ يدركها ولا الوهمُ يمسّها ولا الحاسّة تحدُّها، وكيف ركّب فيه من الطبائع مع تمّ به قوامُ أركانِهِ واستواءُ نظامِهِ، وكيف أودعَه معرفةَ ما فيه صلاحُه من طلبِ منافعِهِ واجتناب مضارّه، وكيف سلك في جوفه مداخلَ غذائه ومنافذَ طعامِهِ ومع خفّةِ جسمه وقلّة ذاتِهِ، وكيف حَملَ عليه اعراضَ وصبغه بألوانِ الصِبْغ، وكيف ركّب الحركةَ والسكونَ والاجتماع والافتراق والصوت والصورةَ، وكيف ركّب فيه العينَ بل كيف ركّب في عينه البصرَ؛ هذا في صغار هوامّ ما يتولّد وإن كان طبع الزمان علّةً لبعثه وإثارته فإنه لم يتركبْ هذا التركيبِ العجيبِ والنضيدِ الأنيق إلاّ من تدبير قادرٍ حكيمٍ؛ وكذلك لو نُظِرَ إلى أدون نبتٍ من النباتِ وما جُمع فيه من اختلاف ألوانِهِ من نَوْرِهِ[1] وورقه وفرقه وجذعه وعرقه واختلافِ طعوم أجزائه ورائحتها ومنافعها ومضارها لدلّ ذلك على تدبيرِ قادرٍ حكيمٍ، وكيف لو رجع إلى نفسِهِ فنظرَ إلى كمالِ صورته وحُسنِ هيئته واعتدالِ بنيته مع ما خُصَّ به من الحكمةِ والعلمِ والفطنةِ والبحث والفكرة بلطيفِ الأمورِ وجليلها وحذقه بأنواع الصناعات وحسن اهتدائه إليها وخبرته بالأمورِ الغامضة واستيلائه على جميعِ

(١) نوره: زهره.

الحيوانِ بفضلِ عقلِهِ وزيادةِ فطنته، ثم هو مع ما وصفناه بِهِ من الكمال والتمام مبنيٌّ على الضعفِ والحاجةِ إلى ما صغير ما في العالمِ وكبيره، مضمنٌ بالنَّصَب والتعبِ، عاجزٌ عن دفعِ ما يحلّ به من الآفاتِ، جاهلٌ بأسبابِ كونهِ وتصرفه في نشوه ونمائهِ وزيادته ونقصانه، محتاجٌ إلى ما يقيمهُ ويعينُه لدلّه ذلك على تدبير قادرٍ حكيمٍ؛ وكذلك إذا نظر إلى هذا العالمِ وما يُرى فيه من شواهد التدبير وآثارِ التركيب في الهيئة والشكلِ والصُور مع اتّصال بعضهِ في بعضٍ وحاجةِ بعضه إلى بعضٍ من اعتقابِ الحرّ والبرد واختلاف الليل والنهار واتفاقِ الأركان وتقاوِمِها على تضادّها وتباينها علم أنّه من تدبير قادرٍ حكيمٍ؛ ولو جاز لمتوهّم أن يتوهّم حدوثَ هذا العالم من غيرِ مُحْدِثٍ لجازَ لغيرهِ أن يتوهّمَ وجودَ بناءٍ من غير بانٍ وكتابةٍ من غير كاتبٍ ونقشٍ من غير نقّاش وصورةٍ من غيرِ مصوّر، ولساغَ له إذا نظَر إلى قصرٍ مشيّد وبناء وثيقٍ أن يظنّ أنّه انسابَ إلى كومة من الترب مجتمعةٍ لم يجمعْها جامعٌ، فاختلط بها من غيرِ خالطٍ حتّى التفّتْ ونديتْ، ثم انسبكت لبناً على أكمل التدير وآنق التربيع من غير سابقٍ ولا ضارب، ثم تأسّسَ أساسُ القصرِ، وتمكنتْ قواعدُه، وارتفعتْ ساقاتُه وأعراقه حتّى إذا تطاولتْ حيطانُه، وتكاملتْ أركانُه وتطايرتْ اللبنُ، وتراكمت على حواشيها وتناضدت أحسنَ التراكم والتناضد، ثم تساقطتْ الجذوعُ والجوائز[1] من أشجارها على قدر البيوت والخطط والمحتطّة للأبنية بلا حاصدٍ لها ولا عاضدٍ، ثم انتجرت بلا ناجر، وانتشرت بلا ناشر، واسفنت[2] بلا سافنٍ فلما تهيّأ منهُ الكمالُ واستقامَ المائلُ ترفّعت بأنفسها فانغرزت في مغارزها، وتسقفت فوق بيوتها، وفاقت أساطينها[3] تحتّها، ثم انطبقت عليها صفائحُها، وانتصبت أبوابها، فانغلقت بذاتها، ثم تكلّس القصرُ وتسيّع وتبلّط وتجصّص وتنقّش بأنواعِ التزاويق والنقوش، واستوى أمرُه، وشادَ بناؤه واجتمعَ متفرّقةُ على أحسن التقدير وأكملِ التدبيرِ حتّى لا تُعرّى منه ناحيةٌ ولا لِبنةٌ ولا قصبةٌ إلاّ ومفهومٌ للناظر إليه موضعُ الحكمةِ والحاجة إليه من غير فاعلٍ فعله ولا صانع صنعه ولا ساع سعى فيه ولا مدبّر دبّره.

وكذلك لو نظَر إلى سفينةٍ مشحونة موقَّرة بألوانِ الحمولاتِ وأصنافِ السِلَع راكدةٍ في

---

(١) الجوائز: جمع جائزة وهي الخشبة المعترضة بين حائطين.

(٢) اسفنت: تقشّرت.

(٣) أساطين: أعمده.

لُجّة البحرِ أو سائرة أنّها تركّبتْ ألواحُها وأعضادُها، وتسمّرتْ مساميرُها ودُسُرها[1]، وانضمّت حتّى أسفنتْ بذاتها، ثم نُقِلتْ الحمولةُ إلى نفسها حتّى امتلأتْ، ثم ركدَتْ في الماءِ فسافرت عند الحاجة.

وكذلك لو نَظَر إلى ثوبٍ منسوجٍ أو ديباجٍ منقوشٍ أنّه انحلج قطنُه، وخلصَ قزُّه، ثم انعزلَ وانفتل وانصبغ والتأمتْ الوشائعُ، وامتدّت الاشراعُ والتفّتْ إلى منوالها، وانضمّت الخيوطُ بعضُها إلى بعضٍ فانتسجَ وانتقشَ فإذا لم يجُزْ هذا المتوهّمُ فكيفَ يتوهّمُه على هذا العالم العجيبِ النظمِ الباهرِ التركيبِ؛ فإن ذهبَ ذاهبٌ إلى الفرقِ بين تركيبِ العالم وتركيبِ ما يركبُه الإنسانَ بأنّ العادَة لم تجوّز بابتناءِ الدورِ وانتساج الأثوابِ وانصباغ الأواني، ولم يوجدْ مثلُ ذلك في الامتحان والطبائعِ قِيل: فكيفَ جوّزتمُ ما هو أعجبُ ممّا ذكرنا وأعظمُ من غيرِ فاعل مختار ولا حكيمٍ قادرٍ، فإن زعمَ أنّ تركيبَ هذا العالمِ على هذا النظم والتركيب من فعل الطبائعِ فالطبائعُ إذاً احياءٌ قادرةٌ حكيمةٌ عالمةٌ ولم يبقَ بيننا وبينَه من الخلاف إلاّ تحويل الاسمِ وتغييرِ الصفة، وإن أنكَرَ حياةَ الطبعة وحكمتها وقدرَتها فكيف يجوزُ وجودُ فعلٍ محكمٍ متقنٍ من غير حكيمٍ حيٍّ قادرٍ، فإن زعمَ بالحدّ والاتّفاقِ على هذا الاتّساق غيرُ موهومٍ وإنّما وقوعُه في النوادر ولو جاز ذلك لجاز أنَّ مَنْ له ساحةٌ ولا بناء فيها ولا عمارةٌ يتّفقُ اتّفاق ليلةٍ فتُصبح مبنيّةً دوراً مغروسةً أشجاراً على أحسن الأبنية وأعجبِ التركيبَ.

ولا محيصَ للمحدِ من حجج الله وآياته فكيفَ وهو حجّة بنفسه ولغيرِهِ وليسَ نوردُ من هذا الباب هاهنَا إلاّ ما يضاهي الفصلَ وما يصحُّ ويجلُّ دونَ ما يغمضُ ويدقّ لأنّ من عزمنا أنْ نبالغُ في الاستقصاء والإيضاحِ لهذه المسائل في كتابٍ سمّيناه بالدّيانة والأمانة شكراً لمن أنعم علينا بالتوحيدِ ومناضلةً عن الدّين وتبصّراً للمستبصرين ومن عند الله التوفيق.

واعلم أنّه لو جازَ أَنْ يُوجَدَ شيءٌ من الأجسامِ لا من خلقِ الله لجاز أن يوجدَ عارياً من دلالةٍ عليه، فإذا لم يوجدْ إلاّ من خلقه لم يخلُ من دلالةٍ عليه فإن قِيل: وكيفَ يعلمُ أنّه مصنوعٌ مخلوقٌ؟ قِيل: بآثارِ الحدثِ فيه، فإنْ قِيل: فما آثارُ الحدث؟ قِيلّ الأعراضُ الّتي لا تُعري الجواهرُ منها من الاجتماع والافتراق والحركة والسكون واللون والطعم والرائحة وغير ذلك، فإن أنكر الأعراضَ وحدوثَها كُلّم بما ذكرناه في موضعه من الفصلِ الأوّل

---

(١) دُسُرها: جمع دسار: وهو المسمار أو خيط من ليف تشدّ به ألواح السفينة.

فبحدوث الأعراضِ يصحُّ حدوثُ الأجسامِ وبحدوثِ الأجسامِ يصح وجودُ المحدثِ البارىء لها سبحانَه.

ولقد قرأتُ في بعض كتب القدماء أنّ ملِكاً من ملوكهم سألَ حكيماً من الحكماء ما أدلُّ الأمور على الله؟ فقالَ له: الدلائل كثيرةٌ وأوّلُها مسألتك عنه لأنّ السؤالَ لا يقعُ على لا شيءٍ، قال الملك: ثم ماذا؟ قال: شكُّ الشاكّين فيه فإنّما يشكُّ فيما هو لا فيما لا هو، قال الملك: ثم ماذا؟ قال: وله الفطَن إليه الذي لا يستطيعَ الامتناعَ منه، قال الملك: زدني قال: حدوثُ الأشياء وتنقّلُها على غير مشيئتها، قال: زدني قال: الحياة والموتُ اللّذان يسمّيهما الفلاسفةُ النشوءَ والبِلَى فلستَ واجداً أحداً أحيا نفسه ولا حيًّا إلاّ كارهاً للموتِ ولن ينلْ منهم يعني لا ينجو، قال: زدني قال: الثوابُ والعقابُ على الحسنة والسيئة الجاريان على ألسنةِ النّاس، قال: زدني قال: أجدُ مزيداً.

وجاء في الأخبار أنّ بني إسرائيل اختلفوا في هذا الباب، ففزعوا إلى عالمٍ، فسألوه بِمَ عرفتَ البارىء؟ قالَ: بفسخِ العزمِ ونقض الهمّةِ، وكُتُبُ اللهِ المنزّلةُ مملوءةٌ بدلائلِ الاثباتِ والتوحيد تأكيداً للحجّة لأنّه موضوعَ بدلائلِ الاثباتِ والتوحيد تأكيداً للحجّة لأنّه موضوعٌ في نفس الفطرة وخاصّةً القرآن وقال الله لرسوله حيث سُئِل عن الدلالة عليه: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المُسخَّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾** [البقرة: ١٦٤] فدلّ على نفسِه بخواصِ أفعالِه ومعجزاتِ آثارِه التي لا سعي لغيره في شيءٍ منها، وقال: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ثُمَّ جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين﴾** [المؤمنون: ١٣] إلى قوله: **﴿فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلخَالِقِينَ﴾** [المؤمنون: ١٤] هل ترى أحداً يدّعي فعلَ شيء من ذلك، وقال: **﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ والأرض وأَنزَلَ لكم مِنَ السَّماءِ مَاءٍ فانبتنا به حدائقَ ذاتَ بَهْجةٍ ما كان لكم أَنَ تُنْبِتُوا شَجَرها أَإِلهٌ مع ٱللهِ بَلْ هُمْ قومٌ يَعدِلُون، أَمَّنْ جعلَ الأرضَ قرَاراً وجعلَ خِلالَها أنْهاراً وجعل لها رواسِيَ وجعل بَيْنَ البحرَيْن حاجِزاً أَإِلَهٌ مع الله﴾** [النمل: ٦١] إلى آخر الآي الخمس، وقوله: **﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمَنُوْن، أَأَنْتُم تَخلُقُونَهُ أَمْ نَحنُ ٱلْخَلِقُونَ﴾** [الواقعة: ٥٩]، دلّهم على نفسِه بصُنعهِ بإعجازهم في آخر الآيات: **﴿فَلَوْلاَ إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [الواقعة: ٨٧] وتكلّفَ غيرَ ما في كتاب الله فضلٌ لأنّه معرِض ممكن لمن تدبّره وتأمّله، وقال: **﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفلاَ تُبْصِرُون﴾** إنكّم توجدوها ولم تحدثوها

ولستم تملكون شيئاً من أمرها من الصحّة والسقم والشباب وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ يعني بما ضمّنّها من آثارِ الصّنعِ وشواهدِ التدبير ودلائل الحدث.

ورُوينا في حديثٍ أنَّ رجلاً سألَ محمّدبن عليّ أو ابنه جعفر بن محمّد يا أبن رسول الله هل رأيتَ ربّك حين عبدتَه، فقال: ما كنتُ لا أعبدُ ربًا لم أرَه، فقال الرجل: وكيف رَأيته؟ قال: لمْ تَرَه العيونُ بمشاهدةِ العيانِ ولكن رأته القلوبُ بحقائقِ الإيمانِ، لا يُدركُ بالحواسّ ولا يُقاسُ بالقياسِ، معروفٌ بالدلالاتِ، موصوفٌ بالصفاتِ، لهُ الخلقُ والأمر يُعزّ بالحقّ، ويُذلّ بالعدلِ، وهو على كلّ شيءٍ قدير، وسُئِل عليّ بن الحسين رضي الله عنهما متى كان ربّك؟ قال: ومتى لم يكن ربّنا؟ وحُكي عن بعضِ الحكماءِ أنّه كان يقصّر الناس على هذا القدر من التوحيدِ، ولم يرخصْ لهم الخوضَ في أكثر منه فيقولُ التوحيدُ: أربعة أشياء: معرفةُ الوحدانيّةِ، والإقرارُ بالربوبيّةِ، وإخلاصُ الآلهة، والاجتهادُ في العبوديّةِ، وكانتْ حكماءُ العربِ في كفرِها وجاهليّتها يُشيرون إليه في أشعارهم ويمدحونَه بآلائِه ونعمائِه فمن ذلك قولُ زيد بن عمرو بن نفيل: [طويل]

وأَنْتَ الّذي من فضلٍ منٍّ ورحمةٍ ... بعثْتَ إلى مُوسَى رسولاً مناديا
فقلتَ له فأذهبْ وهارونَ فادعو ... إلى الله فرعونَ ألّذي كان طاغيا
وَقولا له أأنت سمّكْتَ هذه ... بلا عَمَدٍ حتّى أستقرّت كما هي ا
وقُولا له أأنت سَوَّيْتَ هذه ... بلا وَتَدٍ حتّى أستقرّت كما هيا
وقُولا له مَنْ يُرسِل الشمسَ غُدوةً ... فتصبحَ ما مسّت من الأرضِ صاحيا
وقُولا له من ينبتُ الحيّ والثرى ... فتصبحَ منه البقلُ يهتزّ راسيا

وكان يقولُ: [متقارب]

وأَسْلَمتُ وجهي لمن اسلمَتْ ... له الأرضُ تحملُ صخراً ثقالا
دحاها فلمّا رآها أستوَتْ ... على الماءِ أرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن اسلمَتْ ... له المُزنُ تحمل عذبا زلالا
إذا هي سُوقت إلى بلدةٍ ... اطاعت فصبَّت عليها سجالا

فجعلَ يصفُه بالصفاتِ الّتي يعجزُ عنها المخلوقون معرفةً منه باستحالةِ فعلٍ لا من فاعل.

وأذكرُ أنّي سألتُ بعضَ الأعاجم بنواحي سِنجار[1] على نواحي المُزاح والمهازلة إذْ كنتُ أراهُ جلفَ الجثّةِ ثقيلَ اللهجةِ ما الدليل على أنّ لك خالقاً؟ قال: عجزي عن خلق نفسي، فكأنّما أُلقمتُ حجراً وما شبّهتُه إلاّ بخبر عامر بن عبد قيس إذ خرجَ عليه عثمان بن عفّان رضي الله عنه وهو في شملّة أشعثَ أغبرَ في زيِّ الأعاريبِ فقال أين ربّك يا أعرابي؟ قال: بالمرصاد، فهالك ذلك عثمانَ فارعد له؛ ومن ذلك قولُ صرمة بن أنس بن قيس[2] قبل الإسلام: [خفيف]

ولــه الــراهــبُ الحبيــس تــراه ... رَهْـن يُـونُـسٍ وكـان نـاعـم بـال
ولــه هــوِّدت يهــودٌ وكــانــت ... كــلّ ديــن وكــلّ أمــر عُضــال
ولــه شمّــس النصــارى وقــامــوا ... كــلّ عيــدٍ لهــم وكــلّ احتفــال
ولــه الــوَحْـشُ فـي الجبـال تـراه ... فـي حِقـاف وفـي ظِـلال الـرمـال

يعني أنّ من مخافتهِ هُوِّدت اليهودُ وحَبستْ الرهبانُ أنفسَها في الصوامع ومن دلائله عرفْت الوحوشُ منافعَها ومناكحها وليستْ بذات عقولٍ مميزّةٍ وإنّما يعرفُه كلٌّ واحد بمقدارِ فهمه وكيفيّة استدلالهِ وأنشدني النهريبندي في جامع البَصْرة: [طويل]

وَلَــوْ حَــلَّ اقطــارَ السمــاوات عــاقــلٌ ... أو احتَــلّ فــي أقْصَــى بــلادٍ تُبــاعِــدُ
ولــم يــرَ مخلــوقــاً يــدُلّ علــى هُــدىً ... ولــم يَــأْتِــهِ وَحْــيٌ مــن الله قــاصِــدُ
ولــم يــرَ إلاّ نفسَــهُ كــان خَلْقُهــا ... دليــلاً علــى بــارٍ لــه لا يُعــانِــدُ
دليــلاً علــى إبــداعهــا وٱختــراعهــا ... مُنيــراً علــى مرّ الــدهــور يُشــاهِــدُ

وفي هذا المقدارِ مَقنَعٌ وبَلاغٌ لِمِن ناصَح نفسَه وأعطى النَصفةَ وجانبَ الجحودَ والعنودَ ومن لم يجعلّ اللهُ له نوراً فما له من نورٍ وإذا صحّ اثباتُ الباري ووجودُ الصانع فلنقُل الآن في صفاته.

[صفات الباريء]:

القول في جواب من يقول مَنْ هو؟ وما هو؟ وكيف هو؟

---

(١) سِنجار: بلدة في العراق، وهي سنجار القديمة، مركز قضاء سِنجار محافظة نينوي.
(٢) يكنّى أبا روى الكلبيّ، يعود بنسبه إلى قيس الأنصاري الأوسي الخطمي، قيل أن ابن عباس أخذ عنه الشعر. (أسد الغابة ٢/ ٣٩٩).

أقولُ: إنّ السؤالَ عن الماثيّةِ والمنيّةِ والهويّةِ محالٌ من وجه التفتيش عن ذاتِهِ لأنَّ الإشارةَ إلى هذهِ الأشياءِ تصوّرُها في الوهم؛ ولا يتصوّر في الوهمِ غير محدود أو نظير محسوس وهذه من صفات الحدث، فإمّا أن أرادَ السؤالَ عن إثباته وإثباتِ صفاتِهِ فلا، وذلك كقائلٍ يزعمُ أنّه قد ثبتَ عندي وجودُ الباريء سبحانه فما هو؟ فالجواب الصواب: إنّه هو الأوّلُ والآخر والظاهرُ والباطنُ القديمُ الخالقُ حتى يُعدَّ جميع أسمائه وصفاته، فإن زعَم أنه سألَ عن هويّة ذاتِه قِيل: غير محسوسةٍ ولا موهومةٍ ولا معلومةٍ بالإدراك والإحاطةِ، فإنْ زَعمَ أنّ هذا من صفاته اللاّشيّةِ والبطلانِ فهذا من وساوسِ الجهل وهذيان الخَطل[1]، ويكلّم في ايجاب الصنعةِ الصانع والفعلِ الفاعلَ بما قد سبق ذكره، فإن طلب نظيراً أو شبيهاً بهذه الصفاتِ فهذا يكلّفنا أنْ نتخذَ إلٰهَيْن اثنين محسوساً وغيرَ محسوس ثمّ نشبّه الغائبَ بالشاهدِ ليتحقّقه وما من إلٰهٍ إلاّ إلله واحدٌ وليسَ يجب علمُ ما تيقّنّاه لجهل ما جهلنا ألا ترى أنّا إذا آنَسْنا شخصاً في السواد ولم نعلمْ ما هو ومن هو لم يجبْ أنْ نُبطِلَ علمنا في ذات الشّخص بما خفي علينا من بعضِ هيئاته، كَذلك لمّا قامتْ الدلالةُ أن يستحيلَ وجودُ فعلٍ لا من فاعلٍ، ثم وجدنا فعلاً لم نشاهدْ فاعلَه لم يجبْ أن نُبطلَ علمنا البديهيّ بجهلنا وقد سُئل رسول الله ﷺ عن هويّته فنزل الجواب في صفاته: ﴿قُلْ هُوَ الله أحد اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كفوًاً أحد﴾ [الإخلاص: ٢] فأخبر أنّه أحدٌ لا كأحدٍ وصَمَدٌ لا كصمدٍ لم يلدْ ولم يولدْ يعني الملائكة وسائر الناس من الخلائق الروحانيّين بقوله ولم يكن له كفوًاً أحد فنفى النظيرَ والشبيهَ عنه، وقال الرسولُ عليه السلام فيما رُوِيَ لرجل من الأعراب سأله عنه: «هو الذي إذا مسَّكَ ضرٌ فدعوتَه أجابكَ وإذا أصابتْكَ سنةٌ فدعوتَه أمطر السحابَ وأنبتَ النباتَ، وإذا ضلَّتْ راحلتُك بفلاةٍ من الأرضِ فدعوتَه ردَّها إليك» فجعل يدلُّ على ربّه بدلالة فعلِهِ وشهادةِ الكتابِ تُغْنِي عن طلب الأسانيد لمثل هذه الأخبارِ بقول الله تعالى: ﴿أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء﴾ [النمل: ٦٢] وفي رواية المَقْبريّ[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنّ الشيطانَ يأتي أحدَكم فلا يزالُ يقولُ له مَنْ خَلَقَ هذا فتقولُ: الله حتّى يقولَ فمن خلق اللهَ فإذا سمعتم ذلك فافزعوا إلى سورة الإخلاص» فقالَ أبو

---

(١) الخَطَل: الكلام الفاسد الكثير المضطرب.

(٢) المقبري: كيسان أبو سعيد، صاحب العباس مولى أمّ شريك من بين ليث ثم من بني جُذع، كان منزله عند المقابر فقيل له المقبري، روى عن علي بن أبي طالب وأبي هريرة، وروى عنه ثابت بن قيس المدني «تهذيب الكمال ١٥/٤٢٨».

هريرة رضي الله عنه: فبينا أنا قاعدٌ إذ أتاني آتٍ فقال مَنَ خلق السماء؟ فقلتُ: الله، قال فمن خلق الأرض؟ قلتُ الله، قال فمن خلق الخلق؟ قلتُ الله، قال فمن خلق الله؟ فقُمْتُ وقلتُ صدقَ رسول الله ﷺ، ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد﴾ [الإخلاص: ٢] ولهذا نهى عن التفكّرِ فيه إذْ لا مَطْلَع للوهمِ والفكرِ عليه مَنْ طلب ما لا سبيلَ إليه رجعَ بأحد الأمرَيْن إمّا شاكًّا وإمّا جاحداً والجحودُ والشكُ فيه كُفر، وقدقيل تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالقِ لأنّ الخلقَ يدلّ عليه والخالق لا يُدْرَك، ولا أَعلمُ أحداً من أصنافِ الخلقِ والأمم إلاّ وهو مُقِرٌّ بوجود شيء في الغائب خلافَ الحاضر، فمن ذلك قولُ الفلاسفة: الهيولي وإنه خلافُ الأجرام العُلويّة والسُّفْليّة، ومنهم مَنْ يقول: بحيّ ناطق لا يجوز عليه الموتَ وهو لم يشاهدهُ حيًّا ناطقًا إلاّ ميتاً، ومنهم مَنْ قالَ: بأنّ جوهرِ الأفلاكِ من غيرِ الطبائع الأربعِ وهو لم يشاهد شيئاً من عِين الطبائع، ومَنْ قال: بمواضعِ من الأرض يبلغ طولَ النهار بها أربعة وعشرين ساعة، ومواضع يغيب الشمسُ عنها ستّة أشهر، وهو لم يشاهدها، ومَنْ قال: بأنّ النطفةَ تنقلبُ علقةً، والعلقةُ تنقلبُ مُضغةً ولم يشاهدها عَياناً، ومَنْ قال: من الثنويّة[1] بنورٍ خالصٍ في الغائب وظلمةٍ خالصة غير مماسَّيْن ولا ممتزجَيْن، وهو لم يشاهدْ جسماً إلاّ مؤلّفاً مركّباً في أشْباهٍ.

لهذا يطول الكلامُ بذكرِها حتّى تعلم أنّ قولَ القائل لا شيء غيرَ ما يعاينه ولا شيء غاب عنه إلاّ كما يشاهدهُ محالَ باطلٌ وبعدُ فإنّا نجدُ الحركةَ والسكونَ والاجتماعَ والافتراقَ والفَرَح والحُزْن واللذّة والكراهية والحبّ والبُغضَ وغيرَ ذلك من كثير من الأعراض ولا يمكنُ صفتها بطول ولا لون ولا عَرْضٍ ولا ريح ولا طعم أو صفة من الصفات، ثمّ لم يجب إبطالُها لعدمِ صفاتِها وكذلك العقلُ والفهمُ والنفسُ والروحُ والنومَ لا شكّ أنّها أشياءٌ ثابتةٌ ولها ذواتٌ قائمةٌ من الأعراض، ثم لا يُحاط بكميتها ولا بكيفيتها غير وجودها، فإذا كانتْ هذه الأشياءُ قُربَها منّا وتمكّنَها فينا ونعجز عن الإحاطة بها ولم يجز إنكارَها لوجوهها وكيف بمُبْدِعها ومُنْشئها ومُقيمها على مراتبها؛ وكلُّ صانع لا شكّ أعْلى رتبةً من مصنوعاته وأرفعُ درجةً.

فإنْ قالَ قائلٌ سَوَّيْتَ بين صفاتِ العقل والروح والنفس وسائر ما ذكرتُ وبينَ الباريء الذي يدعونا إليه، وتساوي الصفات يوجب تساوي الموصوفات، فما ينكر ممّن يزعمُ أنّه

---

(١) الثنويّة: هم أصحاب الاثنين الأزليين: النور والظلمة، ويؤمنون بتساويهما في القِدَم، واختلافهم في الجوهر والطبّع والفعل والخير والأبدان والأرواح. «الملل والنحل».

هو النفسُ أو العقلُ لا من النّاسِ مَنْ يقول: هو نفس الخلائقِ، ومنهم مَنْ يقولُ: هو عقولهُم قِيل: إنّما يجبُ تساوي الموصوفات إذا تساوتْ حدودُ الصفاتِ فأمّا الألفاظُ فمشتركةٌ، والمعاني مختلفةٌ ألا ترى أنّا نقول له هو ولغيره هو، ونقولُ هو واحدٌ ولغيره ممّا يتميّز من الأعداد واحدٌ، ونقول ذاته ولغيره من الحيوان والنبات ذواتها، ونقول قال اللهَ وفعلَ الله فقال فلانٌ وفعل فلان لأنّ الألفاظَ سِمَاتٌ للمعاني لا يمكن العبارة إلاّ بها؛ فإذا جئْنا إلى التفصيل قلنا فِعْلُ الإنسان بجارحةٍ وفِعْلهُ ليس بجارحة، وفِعْلُ الإنسان بآلةٍ وفِعْلهُ ليس بآلةٍ، وفعلُ الإنسان في زمان ومكان وفعلُ الله قبلَ الزّمان والمكان فهَلْ بقي بين الفعلَيْن من التشابه غيرُ سمة اللفظِ وهكذا سائر الأوصاف.

ثمّ من الدّلائل على أنّ البارئَ جلَّ جلالهُ ليسَ بالنفس ولا بالعقل ولا بالروح كما ذهبَ إليه مَنْ ذهب أن الأنفسَ متجزّئةٌ قد فرّقتْ بينها الهياكلُ والأشخاصُ والتجزّيء تفرّق والتفرّق عارِضٌ ولا متفرّقٌ إلاّ ومتوهّم تجمعهُ والتجمّع عارِض، وقد يعيش عائشٌ ويموت مائتٌ، ولا يخلُو من أن تبطُلَ نفسٌ بموتِ صاحبِها، أو ترجعَ إلى كلّيتِها، أو تنتقلَ إلى غيره، والبطلانُ والرجوع كلُّها أعراض، وقد أوضَحْنا الدلالة على حدث الأعراضِ؛ وهكذا القولُ في الأرواح على السواء وكذلك تفاوتُ العقولِ واختلافُها وما يعرِضُ فيها من الخللِ والنقصِ والسهو والغلطِ كلّها من دليل الحدثِ وما العقلُ في قصورَ المعرفةِ إلاّ بمنزلةِ سَمْعِ الأذن وبصر العين وشمّ الأنفِ كلّها موجودة غير معلومة الكيفيّة والكميّة.

فإن قيل: أَلَهُ هُويّةٌ؟ وإن لم نعلمها قيل الهويّةُ إضافةٌ هو إلى معناه، وهو إشارة فأمّا معنى الهويّة فالذاتُ وأي لعمري له ذاتٌ عالمةٌ بصيرةٌ قادرة حيّة غيرُ معلومة كيفيّتها، فإن قِيل: فهو عالم بذاتهِ قِيل له: ليس هو غيرُ ذاته فتكونُ معلومة له غير علمه ويكون له من ذاته علم ومعلوم؛ وقد قال قوم أنه هو الطبائعُ ومنه حَدَثُ العالمِ وتركّبه فالطبائعُ أشياءٌ متنافرةٌ متضادّةٌ مقهورة مجبورة وهذه هي علاماتُ الحدث ثمّ هي غير حيّة ولا عالمة ولا مختارة ولا قادرةً فيصحّ منها هذه الأفعالُ المحكمةُ المُتْقَنَة، فإن أطلقوا عليها هذه الصفات فهي البارئُ بزعمهم وإنّما غلطوا في التسمية وإن أبَوْا في الفعل لا يصحّ إلاّ ممّن هذه صفاتُه.

واختلف أهلُ الإسلام في أشياءِ من هذا البابِ فأنكرَ كثيرٌ منهم القول بالأيْنيّة والمائيّة ولا يخلوان من أن يكونا إياه أو غيرَه أو بعضَه فإن كانا غيرَه أو بعضَه انتقض التوحيدُ وإن كانا إيّاه فهو إذاً أشياء كثيرة وقال ضرار بن عمرو وأبو حنيفة[1] رضي الله عنهما له أَينيّةٌ

---

(١) نعمان بن ثابت، إمام المذهب الحنفي، ولد بالكوفة، عاصر بعض معمّري الصحابة، هو أول مَنْ=

ومائيّةٌ لأنّه لا يكونُ شيء موجود إلاّ وله أينيّة ومائيّة وعلّة الأينية غيرِ علّة المائيةّ وذلك أنّك تسمعُ الصَوت فتعلم أنّ له مُصوّتاً، وتجهل ما هو، ثمّ تراه بعد ذلك فتعلم ما هو، فعِلْمُك ما هو غيرُ علمك بأينيّته ومعنى المائيّة عندهما أنه يعلم نفسّه بالمشاهدة لا بدليل كما يعلمه.

واختلف المُشبّهة[1] فزعمت النصارى أنّه جوهرٌ قديمٌ وزعَم هشام بن الحكم وأبو جعفر الأول الملقّب بشيطانِ الطاق أنّه جسمٌ محدود متناهٍ وقال هشامٌ هو جسم مُصْمَتٌ له قدر من الأقدار من العَرْض كأنه سبيكةٌ تلألأ كالدُرّة من جميع أطرافها واحدة ليس بمجوَّف ولا متخلخل.

وحُكي عن مُقاتل[2] أنّه قال على صورة إنسان لحمٍ ودمٍ وسُئل هشام كيف معبودُك؟ فأوقد سراجاً وقال هكذا إلاّ أنّه لا ذُبالة له، وقال قومٌ جسم فضاء مكان الأشياء كلها وأكبر من كلّ شيء، وقال قومٌ جسم فضاء مكان الأشياء كلّها وأكبر من كلّ شيء، وقال قومٌ هو الشمسُ بعينها، وزعمَ قومٌ أنّه المسيحُ وقال قومٌ هو علي بن أبي طالب، وذهب قومٌ إلى أشياء كثيرة متبعّضة مختلفة القُوَى والفعل إلاّ أنّ بعضَها مُتّصلٌ ببعض. وبعضَها أعلى من بعض، فأعلاها البارىء سبحانه ويزعمون أنّه لا جسم له ولا صفة ولا يُعرف ولا يُعلم ولا يجوزُ أن يُذْكرَ ودونَه العقلُ ودونَ العقلِ النفسُ ودونَ النفس الهيولي ودونَ الهيولي الأثير ثم الطبائع، ويرون كلَّ حركة أو قُوّة حسّاسة أو نَامية منه؛ وسيمرّ بك النقض عليهم مجملاً في باب التوحيد إن شاء الله، وأحسنُ ما أختاره في هذا الفصل ألاّ يخوض الإنسان في شيء منه إلاّ باثبات الذات بدلائل الصفات فإمّا ما سِوَى ذلك فيسكت عنه وليتقَد نبيّ الله موسى حيثُ قال له الكافر وما ربّ العالمين ﴿قال ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مُوقنين﴾ [الشعراء: ٢٤] هذا طريقُ السلامةِ فإنْ سألَ بعضُ مَنْ لا يعلم كيف هو وأين هو وكم هو فإنّ كيف يوجب التشبيه ولا شبه له وكم استخبار عن العدد وهو واحد وأين طلب المكان وليس بجسم فيُشغل الأماكن.

= فصّل الفقه إلى أبواب وأقسام وصاحب الاجتهاد في الفقه والفرائض بالقياس والرأي له: «مسند أبي حنيفة» (ت ١٥٠ هـ). «منجد الأعلام».

(١) المشبّهة: فرقة دينية نشأت ردّاً على توغّل المعتزلة في علم الكلام، ومخالفتهم للسنة، منهم: مشبهة الشيعة، ومشبهة الحشوية، التي ترىٰ إجازة المصافحة والملامسة للرب «الملل والنحل».

(٢) مقاتل بن سليمان، أبو الحسن البلخي، مفسّر كبير، دخل بغداد، وأقام في البصرة وفيها توفي له «التفسير الكبير» (ت ١٥٠ هـ). «منجد الأعلام».

[وحدانية الباريء]:

أقولُ أنّه لما صحّ وجودُ الباريء بالدلائل العقليّة وجب أن يُنظرَ أَواحدٌ هو أم أكثر لأنّ الفعلَ قد يفعله الواحد والاثنان وقد يشترك الجماعة في بناء دارٍ ورفع منار، ونظرنا فإذا الدلائل على وحدانيّته بإذاء الدلائل على إثباته وذلك أنّه لو كانا اثنَيْن لم يخلُ من أن يكونا متساوِيَيْن في القوّة والقُدرة والعِلم والإرادة والقِدَم والمشيَّة حتّى لا يُفرقُ بينهما بصفةٍ من الصفات فإن كانا كذلك فهذه صفةُ الواحد لا يثبت في العُقول غيرهُ، أو يكونَ أحدُهما أقْدم من الآخر وأَقدرُ فالْإِلَهُ إذاً القديمُ القادر إذ العاجز الحادثُ لا يستحقّ الإلهيّة أو يكونا معاً مُتقاومَيْن مُتضادَّيْن فإذَنْ لا يجوز وجود خَلْقٍ ولا أمرٍ لأنّه لو كانا كذلك لم يخلُقْ أَحدُهما خَلْقاً إلاّ أَفناه الآخر ولم يُحْيِ حيًّا إلا أماته الآخرُ فلمّا وجدْنَا الآمرَ بخلافِهِ علمنا أنّه واحد قدير وهذا ضمْنُ قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقال قُلْ: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢] ولو كانا اثنين لكانا قادرَيْن على التمانع والتقاوم أو عاجزَيْن عن ذلك، فإن كانا قادرَيْن لم يتّصل تدبيرٌ ولم يتمّ وجودُ خَلْقٍ، وإنْ كانا عاجزَيْن فوجودُ الخَلْق عن العاجز مُحالٌ، أو أحدهُما عاجزاً والآخرُ قادراً فهو كما قلناه آنِفاً، ولو جاز القولَ باثنين لوجودِ الشيء وضدّه لجاز القول بعدد أعيان الموجودات لاختلاف أجناسِها وأنواعِها وإنّها تمام القُدرة جوازها على الشيء وضدّه ففاعل الشيء إذا كان عاجزاً عن ضدّه غير كامل القُدرة والباريء عزّ وجلّ دلّ على كمال قُدرته بإيجاد الشيء وضدّه ومن هاهنا تفرّقت المجوس[1] والثنويّة والدَهْرية[2] وسائر فِرَق الضلالةِ، فزعمتْ المجوسُ بأنّ فاعل الخيرِ لا يفعل الشرّ وأنّ الشرّيرَ لا يفعل الخيرَ لأنّ الجنس الواحدَ لا يَقَعُ منه إلاّ الفعلُ الواحدُ كالنّار لا يكونُ منها إلاّ التسخين والثلج لا يكون منه إلاّ التبريد فسمّوا الإله الخيرَ هرمز والشرّير الخبيث آهرمَن، وأضافوا كلّ حُسْنٍ وجميل وفعل حميد إلى الخير وكلّ قبيح وذميم إلى الشرّير الخبيث المضادّ له ثمّ اختلفوا بعد إجماعهم على أن الخيرُ منهما قديم لم يزلْ وزعمَ

(١) المجوس: من المجوسية، يقال لها الدين الأكبر والملّة العظمى، يزعمون أن النّور أزليّ، والظلمة محدثة، تدور مسائلهُم حول قاعدتينْ أساسيتين الأولى: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة والثانية: سبب خلاص النور من الظلمة. «الملل والنّحل».

(٢) الدّهرية: فرقة انتشرت في العهد العبّاسي، تأثّرت بالفلسفة اليونانية، كان أتباعها ينكرون الخالق ولا يؤمنون بعقيدةٍ دينية. «الملل والنّحل».

بعضهُم أنّ الشرّير قديم أيضاً كقول الثنويّة بقدم الكونين من النور والظلمة؛ وزعمت طائفةٌ أُخرى أنّه حادث ثم اختلفَ اللذين قالوا بحدوثِ الشرير الخبيث كيف كان حدوثه فزعمت فرقةٌ منهم أنّ القديمَ الخيرَ تفكّر فكرةً ردئة فاسدةً فحدث من فكرتِه هذا الخبيثُ الشريرُ وهذا نقضٌ أصلهم بأنّ جوهرَ القديم جوهرٌ خيرٌ لا يشوبه شيء من الشرور والآفات، وزعم آخرون أنّ الخير هفا هَفْوةً فحدثَ منه هذا الضدُّ بلا إرادةَ منه ولا مشّيئةٍ، فجعلوا الخير كالوغد الجاهل الذي لا يملكُ نفسَه وأمرَه، وقد أقرّ هذان الصنفان بوقوع الشرّ من الخيرِ المحمودِ ووجود جنسَيْن مختلفَيْن منه فما حاجتهما إلى إثبات فاعلَيْن مختلفَيْن فإذا جاز وقوع الشرّ من هذا الخير المحمود فما يؤمنهم وقوعُ الخيرِ من هذا الشرّير المذموم، وزعمْت فرقةٌ ثالثة منهم أنّه لا يدري كيف حدثَ هذا الشريرُ المنازِعُ للخيرِ القديمِ، فأفصحوا بالحَيْرة ونادَوْا على أنفسهم بالشبهة وبِمَ ينفصلون ممّن يعارضهُم إذا جازَ حدوثُ شرير فاعل للشرّ لِمَ لَمْ يجزْ حدوثُ خيرٍ فاعلٍ للخير حتّى يكونَ خالقهُم اثنين حادثَيْن، وقد زعموا جميعاً أنّ هذا الشرّير كابدَ الخيرَ ونازعَه الأمرَ وجمعَ الخيرُ جنودَه من النورِ والشرّيرُ جنودَه من أبعاضِ الظلمة، فاقتتلا مدّةً من الدّهر طويلةً، ثم توسّطت الملائكةُ بينهما ودَعوْهما إلى الهُدْنة والموادعةِ إلى أن يضعَ بينهما مدّةُ سبعة آلاف سنة وهي مدّة قوام العالمِ فاصطلحا على أنْ يكونَ أكثرَ الأمرِ والحكم والغلبة في هذه المدّةِ المضروبةِ للجوهرِ الشِرّير، فإذا انقضتْ المدّةُ أفضى الأمرُ إلى القديمِ الخيرِ، فأخذ الشرّيرُ يستوثقُ منه إلى أن ينقضي عالمُ الشرّ والفتنةِ والفساد، ويصيرَ الحكمُ إلى الخيرِ المحن؛ وهذا ظاهرُ الانتقاضِ والاختلافِ؛ وكيف تطمئنّ النفسُ إلى عبادةِ عاجزٍ مغلوبٍ على أمره؟ وكيف يؤمَنُ الشريرُ الخبيثُ على الوفاء بالعهودِ والمواثيق؟ وهل هي منه إلاّ أفضل الخير وأتمّ الاحسان فقد وُجد من جوهرِه الخير وهو من غير جنسِه كما وُجد من جوهر الخير العجز والغلبة وهو شرٌّ وليس من جنسه.

واختلفت الثنويّة فزعمَ ماني[1] وابن أبي العوجاء[2] أنّ النورَ خالقُ الخيرِ والظلمةَ خالقُ الشرِّ وأنّهما قديمان حيّان حسّاسان وأنّ فعلَهما في الخلقِ اجتماعهما وامتزاجهما بعد

---

(١) مؤسس مذهباً المانوية القائل بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشرّ، النور والظلام، وإليه مرجع اليزيدية، أدخل ماني في التصوير الفارسي نقد التصوير الصيني ورسم الملائكة والشياطين. «منجد الأعلام».

(٢) جاء في سيرة ابن هشام: «أبو العوجاء» وقد ذكر ابن إسحق أنه ابن أبي العوجاء السلّمي نسبة إلى بني سليم «أسد الغابة ٥/ ٢٣٤».

أن لم يكونا ممتزجَيْن، فحدث هذا العالم من نفس الامتزاج، فأقرّا بحادثٍ حَدَثَ في القديم من غير سبب أوجبه ولا إرادة منه، فضاهيا المجوسَ في قولهم أنّ الخيرَ حدَثَ منه الشرُّ بلا إرادةٍ منه ولا مشيّئةٍ، وزعم ديصان[1] أنّ النورَ حيٌّ والظلمةَ مواتٌ فأحالَ أشدَّ الإحالة إذْ أجاز من الموات الفعلَ في خلقِ الشرور والآفات، فناقضوا بأجمعهم في نفس الامتزاج لأنّه لو كان بدأبه النور فقد أساءَ في مخالطةِ الظلام وإن كان بدوه من الظلام فقد غلبَ النورَ وأفسده، وعندهم أنّ النورَ لا يكونُ منه إلاّ الخيرُ والظلمة لا يكونُ منها إلاّ الشرُّ فكلُّ خيرٍ منسوبٌ إلى النور وكلُّ شرّ منسوبٌ إلى الظلمة، واكتفي من جوابهم بما يومض عن مناقضاتهم كفاءَ ما يشاكل كتابنا هذا بعد أن نستقصيه في كتاب المعدلة، ونُشبعُ القولَ فيه بمشّيئة الله.

وقدْ سألَهم جعفر بن حَربْ عن مسألة قليلة الحروفِ عظيمةِ الخطَر فقال لهم: أخبرونا عن رجُل قتلَ رجلاً ظُلماً فسُئل أقتلتَهُ؟ قال: نعم، مَنْ القائل نعم؟ قالوا: النورُ. قال فقد كذبَ النورُ والنورُ عندكم لا يفعل الشرّ؛ قالوا: فهو الظلمةُ قال فقد صدقتْ والظلمةُ لا تفعل الخير، وقال: هلْ اعتذر أحدٌ من شيء قطّ؟ قالوا نعم، والاعتذار حَسَنٌ جميلٌ، قال: فمَنْ المُعتذر؟ قالوا: النورُ قال: فصنع شيئاً يجب الاعتذار منه، قالوا: فالظلمةُ قال: فقد أحسنَتْ إذا اعتذرَتْ فقطعهم.

واستعظمَ قومُ القولَ بايجادِ أعيانٍ لا من سابقٍ، فقالوا بقِدمِ الباريء وشيء قديم معه أمُّ الأشيآء وآخرُ الهويّات ومادّةُ العالمِ والأصل الذي حدثتْ منه الأجسامُ والأشخاصُ فإنّه جوهرٌ بسيطٌ عارٍ من الأعراضِ، ثم أحدث الصانعُ فيه أعراضاً من الحركةِ والسكون والاجتماع والافتراق، فتركّبَ من حركاته العالمُ بأجزآئه، فهولاء قد أوجبوا شيئيْن قديمين مختلفين إلى الذّات والصفة: أحدهما حيٌّ والآخرُ ميتٌ، ودخلوا في مذاهب الثنويّة، وناقضوا أصلَهم بأنَّ الباريءَ لم يزلْ يصنعُ فيه فأبطلوا قولهَم بأنّه علّةٌ والعلَّة لا تفارقُ المعلول.

وجملةُ القولِ في الاعتقاد في المعدوم والموجودِ أنَّ الموجودَ ما يُعقل أو يعلمُ أو يُحسّ أو يُعرف أو يصحّ منه تأثيرٌ أو فيه أو معه أو به، فإذا خلا من هذه المعاني فهو المعدوم، ولولا ذلك لكانَ كيف يعتقدُ المعتقدُ المعدومَ من الموجود فإن قِيل: فقَد اعتقدْتُم

---

(١) ديصان: مؤسس مذهب الديصانية من الفرق الثنوية. «الملل والنّحل».

القديمَ أفعدم هو، وأنتم لا تصفونه بشيء من الحدوثِ والأعراض قِيل: افتُسوُّونَ وأنتم بينه وبين الهيولي في المعنى أم لا، وأنتم لا تصفونها بشيء من الحدودِ والأعراض، ونحن إنّما نعتقد وجودَ الباريء بدلائل صُنعه وآثاره وليسَ يصحّ الهيولي أثر، ويوجبُ اعتقاده موجوداً، بل لو وصفتموه بأفعال خاصيَّة وجَبَ اعتقادُه، وسنزيد أيضاحاً لهذه المسألة في فصلِ ابتداء الخلقِ إن شاء الله تعالى.

[إبطال التشبيه]:

أقولُ: إنّ التشبيةَ يوجبُ الاتفاقَ في الحُكم والمعنى على قدر المواقع من الاشتباه، وذلك يزعمُ أنَّ حدَّ الجسمِ أنّه طويلٌ عريضٌ عميقٌ يُلْزِمُه أن يقتضي على كلِّ ذي طولٍ وعرضٍ وعُمقٍ بالتجسيم لأنّ الاشتباهَ بينهما واقعٌ في جميع الوجوده، فإذا قال: جسمٌ لا كالأجسام وأراد أنْ يُبطِلَ الحدودَ المضروبةَ فيه فكأنّه يقولُ جسمٌ لا جسمَ، ويلزمه أنْ يحكمَ على كلِّ ذي طولٍ بحدٍّ من حدودِ الجسم لأنّه من حيثُ استحقَّ بعضَ أوصافِهِ استحقَّ الحكومةَ به كما أنّه إذا حدّ العرضَ بأنه لا يقومُ بنفسه لَزِمَه القولُ بأنّ كلَّ ما لا يقوم بنفسِه فهو عَرَضٌ، فإنْ قِيلَ: أليس قلتُم إنّهُ شيءٌ لا كالأشياء فما تنكرون مَنْ يقولُ إنّه جسمٌ لا كالأجسام أو له وجهٌ لا كالوجوه وجارحةٌ لا كالجوارح، فإنّ الشيء اسمٌ عامّ للموجود والمعدومِ والقديمِ والمحْدَثِ وحدُّه ما قد ذكرناه في موضعهِ، فإذا سمع السامعُ به لم يذهبْ به إلى جسمٍ دونَ عرض ولا إلى قديمٍ دونَ مُحدَث حتى يفرق به إلى التفسير ما يدلّ على المُراد، فإذا سمع بالجسم لم يعقلْ منه إلاّ المؤلّفَ المركّبَ فلذلك لم يجُزْ ءطلاقَ أسماء المُحْدَثات عليه لأنّ استواءَ أحكام المِثلين من حيث تماثلا وإلى هذا المعنى ذهب الناشيء[1] في قوله: [بسيط]

لـو كـان للهِ شِبْـهٌ مـن خليقتـه ... كـانـت دلائلـه مـن خَلْقـه فيـه
قـد كـان مُقتضياً مـن نشـو صـانعه ... مـا يقتضـي النشـو مـن آثـار نـاشيـه
لكنّـه جـلّ عـن أوهـام واصفـه ... فـالحس يُعـدِمُـه والعَقْـلُ يُبْـديـه

---

(١) الناشيء الأصغر: علي بن عبد الله بن وصيف من شعراء الشيعة، ولد في بغداد، كثر شعره في أهل البيت مدحاف ورثاءً (ت ٩٧٥ هـ)، «منجد الأعلام».

الفصل الثالث

في صفاته وأسمائه وكيف يجب أن يُعْتَقَد القول والفعل منه سبحانه

أقولُ: إنّه إذا ثبُتَ وجودُ الباريء عزّ وجلّ وثُبتْ وحدانيّته بالدلائل التي قامت وَجبَ أنْ يُنظَر في صفاته وما يليقُ به أن يضافَ إليه ويُعرَّفَ به، فنظرنا، فإذا من صفاته خاصٌّ وعامٌّ، فالخاصُّ ما لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بضدّه كالحياة والعلمِ والقدرة ولا أنْ يوصفَ بالقدرةِ عليها ألا ترى أنّه لا يصحُ القولُ بأنّه يقدرُ أنْ يحيا أو يقدر أن يعلَم أو يقدر أن يقدر ولا القولُ بأنّه يعلَم كذا ولا يعلمُ كذا أو يقدرُ على كذا ولا يقدر على كذا لأن ما كان موصوفاً بنفسه ثمّ وُصِفَ بضدّها كان الضدُّ راجعاً إلى نفسه، ولا تستقيم الإلٰهيّة بغير حياة وقدرةٍ وعلمٍ وهذه تسمّى صفاتُ الذات؛ والعامُّ ما يجوزُ أنْ يُوصَفَ بضدّها ويوصفَ بالقدرة عليها كالإرادة والرزق والخلق والحمة، وهي صفاتُ الفعل.

وللمسلمين ومَنْ قبلهم في هذا الفصل تشاجرٌ كثيرٌ واختلافٌ يدعو إلى ضلالِ مَنْ خالفَ صاحبَه في ذلك، فقال بعضُ النّاس: لا اسمَ للباريء ولا صفةَ ولا ذكرَ وإنما ينبغي أنْ يُنسبَ كلُّ عدلٍ ورحمةٍ وفضلٍ وَجُودٍ إليه بمعرفةِ القلوبِ أنّه مِنه؛ وقالتْ المعتزلة[1]: إنّ صفاتَ اللهِ أقوالٌ وكناياتٌ وهي كلُّها من قولِ القائلين ووصفِ الواصفين: وقال قومٌ: لا معنى لصفاتِ الفعلِ وإنّما المعنى لصفاتِ الذات، والصفةُ مع عدمِها قالوا فلَمْ يزلْ اللهُ خالقاً بارئاً رازقاً مريداً متكلّماً رحيماً حتى أَتَوْا على آخرِ صفاته؛ وفرّق ناسٌ منهم بين الوصفِ والصفةِ، فجعلوا الصفةَ ما يلاصق الموصوفَ كالعرض للجوهر، والوصفَ قولَ الواصفِ تلك الصفة، فصفاتُ اللهِ غيرُ مخلوقة لأنّه بها موصوفٌ وهو غيرُ مخلوق وهو واحدٌ بصفاته

---

(١) المعتزلة: جماعة من المسلمين اعتمدوا على المنطق والقياس في مناقشة القضايا الكلامية، ومن أشهر المعتزلة (واصل بن العطاء، وعمرو بن عبيد) «الملل والنّحل».

كلّها وصفاتُه لا هو ولا بعضه ولا غيرَه، واحتجّوا بأنّها ليستْ هو، ولو كانتْ هو لكانَ صفةً، وَلَدُعِي فقيل: يا عِلْم يا قُدرة يا سمع يا بصر، ولمّا قامَ بذاتِه، كما أنّ الصفاتِ لا تقومُ بأنفسِها، ولا هي غيرهُ لأنَّ حدَّ المتغايرَيْن جوازُ وجود أحدهما مع عدم الآخر فلو كان علمُه وقدرتُه وسمعُه وبصرُه غيرَه لجازَ عدمُ العلم والقدرة وغيرها مع وجودِ الباريء فيحصلُ بلا علم ولا قدرة، ولا هي بعضُه لأنّ التبعيضَ من دلائل الحدث واللهُ لا يُوصف بالابعاض والأجزاء، وقالتْ المعتزلةُ في صفات الذات: إنها ليستْ من غيرِ الذات شيئاً فذاتُ الباريء عالمةٌ حكيمة قادرة سميعة بصيرة، وهو عالمٌ بذاتِهِ قادر بذاته سميع بذاته بصير بذاته، وإنّما الصفاتُ ما وَصف اللهُ به نفسَهُ، أو وصفَه العبادُ بها، قالوا: ولا يجوزُ أنْ يكونَ علمهُ وقدرته هو ولا غيره، لأنّها لو كانت هو لكانَ أشياءَ كثيرةً مختلفةً، ولعُبِدَتْ ودُعِيَتْ فلو كانتْ غيرَه لكانتْ قدماءَ كثيرةً وإن لم يزلْ مع الباريء، وإن كانتْ محدثةً فكانَ قبلَ إحداث العلم غيرَ عالم وقبل إحداث القدرة غيرَ قادر، وكذلك سائر الصفات فثبت أنّ ذاته عالمةٌ قادرة إن كان له علم به يعلم وقدرة بها يقدر، ولم يخلُ من أنْ يكونَ هي هو أو غيره؛ وقالوا: لا فَضْل بين مَنْ زعم أنّه هو أو غيره أو بعضه، قالوا: وقول القائل لا هو هو نفيٌ، وقولُه لا غيرَه رجوعٌ عن ذلك النفي وإثباتٌ له؛ فهؤلاء يزعمونَ أنّه لو كان له علم لكان معه غيره؛ ومخالفوهم يزعمون أنْ لو لم يكنْ له علمٌ لكان جاهلاً، قالوا: وهو موصوفٌ بالقِدَم والقدرة والعلم فلو كان عالماً بنفسه قديماً لما جاز أن يُوصَف بنفسِهِ كما لا يُصوّر المصوّرُ بنفسِه، ولا يُكتَبُ المكتوبُ بنفسه، ولا يُشْتَم المشتومُ بنفسه، وإنّما يُشتم المشتوم بشتمٍ ويُصوّر المصوَّر بصورةٍ فصحّ أنّه موصوفٌ بصفات، والصفاتُ يشتقّ منها الأسامي فالقديمُ من القِدَم والقديرُ من القدرة والعالم من العلم كما أنّ الحمرة للأحمر والصُفْرةَ صفة للأصفر؛ ثم هُوَ لاَ هِيَ ولا غيرها، قالوا: ولو لم يُشاهدْ عالماً إلاّ بعلم ولا قادراً إلاّ بقدرة فكذلك ما غاب عنّا؛ فقالَ لهم مخالفوهم: أليس الحُمرة والصُفرة عَرضان في الأحمر والأصفر؟ أو ليس العالم منّا بعلمٍ علمه عارض فيه؟ فهل إلى تمثيل الباريء بجسم ذي عرض؟ وبِمَ ينفصلون ممّن يزعمُ أنّه جسم أو عَرض لوجودِ الفعل منه؟ لأنّه لا يظهر الفعل فيما يشاهده إلاّ من جسم حدَثٍ، فهل يجب علينا القضاء بأنّه جسمٌ ذو أعراض وأبعاضٍ إذا لم نشاهد الفعل إلاّ من جسم ذي أعراض وأبعاض؟ كذلك لا يجب القضاءُ بأنّه عالمٌ بعلم إذا لم نشاهدْ عالماً إلاّ بعلم؟ فإن قيل: إذا أجزتَ عالماً لا يعلمُ فأَجِزْ جسماً لا بصفاتِ الجسم، قِيل: لو لزمَ ذا للزمَك هو بعينه في إجازتك عالماً بعلم لا هو ولا غيره ولا

بعضه؛ وأمّا قولهم إنّ المصوّرَ لا يصوّر بنفسهِ والمكتوبَ لا يُكتَبُ بنفسه وإنّما يُصوّر بصورةٍ ويُكتب بكتابةٍ، والصورةُ والكتابةُ لا شكّ غيرهما، وقولهم من الصفات يشتقّ الأسامي فالصفات هي الأسامي بعينها ليستْ أنّها أشياء كامنة فيه كالأعراضِ في الجواهر ولكنّه إذا أبدى فعلاً من أفعاله تسمّى به، أو سمّاه العبادُ به؛ والكلام يطول في هذا ويمتدّ ومتى أعمل الناظرُ فكرَه في هذا المقدار تبيّنَ له وجهُ الصواب بحولِ الله وقوّته.

[أسماء الله]:

أقولُ: إنّ اختلافَهم في الأسامي كاختلافهم في الصفاتِ، وعامّةُ المعتزلة على أنّ الأسامي هي الصفات، وأنّ الاسم غيرُ المسمّى، وهو قولُ المسمّى وحدّ الاسم ما دلّ على المعنى، وقالت فرقة: إنّ الاسمَ والمسمّى واحدٌ واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، فلو كان الاسمُ غيرَه لكان قدْ أمرَ بعبادة غيره وقد قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] فدلّ على أنّ اسمَ الله هو الله وقال: ﴿ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٤١] ثمّ قال في موضع: ﴿وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦] وناقضَهم مخالفوهم بأنّ الاسمَ لو كان المسمّى لكان إذا غُيِّرَ تَغيَّر المسمّى، وإذا أُحْرِق أو خُرّق أو غُرّق أثّر ذلك كلُّه في المسمّى، وكلُّ مسمّى سابقٌ اسمه وجائز تبدُّل الاسم عليه، والأسماءُ مختلفةٌ كثيرةٌ، والمسمّى واحدٌ غيرُ مختلفٍ وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨] وما هو له فهو به يُدْعَى وهو غيرُه لا شكّ، وأجمعتْ الأُمّةُ أنّه غيرُ جائزٍ أن يُقالَ له يا حَسَن على أن يكون حُسْنه في ذاته وإنّما يُوصفُ بحسنِ القولِ والفعل، وقد أخبرَ أنّ له أسماءً حسنةً في غاية الحُسنِ ونهايته، فعُقِل أنّه غيرُ أسمائه، وأسماؤه معلومةٌ محدودةٌ معدودةُ الحروفِ ولا يجوز اطلاقُ شيء من ذلك على الباريء سبحانه وتعالى، وأسماؤه تختلفُ باختلاف اللُغاتِ فكما أنّ لغةَ الفرس هي غيرُ لغة العرب، ولغةُ العربِ غيرُ لغة الحبشِ لقول الله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢] كذلك التسميةُ بها مختلفةٌ فإذا اختلفَ الاسمُ وهو، واسمه واحد، فذاك الاختلافُ شائعٌ فيه لا شكّ اللهمّ إلاّ أن يُنكرَ أنْ لا يكونُ له غيرُ اسم واحدٍ وأنْ لا يختلفُ ذلك الاسمُ باختلاف اللغاتِ فهذا جاحدٌ ضرورة لا غير، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] أي اذكره باسمه وصفته لأنّه غيرُ ممكنٍ ذكر شيء إلاّ باسمه، ثمّ قوله سبّح لله واذكروا الله واذكر ربّك على ما يتعارفهُ الناسُ أنّ الشيء إذا لم يكن ذِكراً في نفسهِ لم يكنْ ذكرُه إلاّ باسمه، وقول القائل: اللهُ معلومٌ إنّه اسم عربيّ لمعرفةِ معناه واشتقاقه، وغيرُ جائز القولُ بأنّ

اللهِ عربيّ أو عجميُّ، فإن قال قائلٌ: إذا كانتْ الأسماءُ والصفاتُ من أقوال العبادِ وكناياتهم فلَمْ يكنْ له اسمٌ ولا صفةٌ قبلَ الخلق، وكان عُطلاً غفلاً إلى أن سمّاه العبادُ قيل: قد قُلنا: إنّ صفاتِه على وجهَيْن: صفةُ ذاتٍ وصفةُ فعلٍ فما كانَ من صفاتِ الذّات لم يزلْ بها موصوفاً وإن لم يصفهْ بها واصفهُ كما أنّه لم يزلْ بها موصوفاً وإن لم يصفهْ بها واصفهُ كما أنه لم يزلْ واحداً فرداً وإن لم يكنْ خلقٌ يوحّده، وعالماً وإن لم يكنْ المعلومُ موجوداً، وقادراً وقديماً، فأمّا القولُ: بأنّه لم يزلْ مَدْعوًّا أو معبوداً أو مشكوراً فالشاكرُ والعابدُ والدّاعي ليسوا لم يزالوا، وكذلك القولُ بأنّه لم يزلْ خالقاً رازقاً يقتضي أزليّة المخلوقِ والمرزوق اللهمّ إلاّ على جهةِ القدرة على الخلق والرزقِ، فإنه يستقيمُ له ذلك، وكذلك لو قالَ: لَم يزلْ سميعاً بصيراً على معنى سَيُبْصر وسيَسْمَع، وأجمعَ المسلمون أنّ الله حيّ قادرٌ قديمٌ سميعٌ بصيرٌ واحدٌ فردٌ عالمٌ حكيمٌ متكلّمٌ جوادٌ فاعلٌ مختارٌ موجودٌ رحيمٌ عدْلٌ متفضّلٌ غنيٌّ، واختلفوا في تفصيل هذه الصفاتِ وعِلَلها؛ فزعمت طائفة أنّه عالمٌ لأنّ له علماً، وزعمَ آخرون أنّه عالمٌ بذاتِهِ لأنّه يُدركُ الأشياءَ كما هي، وقد تقدّم حُججُ الفريقين مجملاً، وكذلك قولهم في القِدَم والقدرةِ فمن أبى القولَ بأنّ حدَّ القديمِ والقادرِ أن يكونَ له قِدَمٌ وقُدرةٌ قال: حدّ القديم الموجود لا إلى أوّل وحدّ القادر الذي لا يمتنع الفعل عليه باختياره، وأجمع هؤلاء أنّه موجودٌ بعينه وذاتِهِ ولا يُوجدُ لأنّه لو كان موجوداً بوجُودٍ لم يخلُ ذلك الوجودُ مِنْ أنْ يكونَ موجوداً، أو ليس بموجودٍ، فإن كان غيرُ موجودٍ فقد دخلَ في باب العَدَم، وإن كان موجوداً فقد وَجبَ أن يُوجدَ بوجودٍ آخر إلى ما لا نهاية، والقول بما ليس له نهاية يؤدّي إلى قولِ أهل الدّهر [يّة]، وقالتْ طائفةٌ أنّه حيٌّ بحياةٍ عالمٌ بعلمٍ، وزعم آخرون أنّ معنى الحيّ وجود الأفعالِ منه على اتّفاق واتّساق، واختلفوا في ذاته أَلَها نهاية أم لا؟ فقال أكثرهُم: إنّه غيرُ متناهٍ لأنّه لا بجسمٍ ولا عرضٍ ولا حدّ له فيتقضي النهاية، وهو مبدعُ النهايات والحدود، وزعم هشامُ بن حكم أنّه متناهٍ، وكذلك يلزم كلّ مجسّم وقدْ قَالَ أصحاب القضاء: إنّهُ غيرُ متناهي الذاتِ، واختلفوا أذاته مرئيّة أم غير مرئيّة؟ فمَنْ قَالَ بالتشبيه أو رأى الرُؤية العلم قال: هو مرئيّ كما هو غيرُ محسوس ولا ملموسٍ، بقي الاختلاف في التوفيق بين الرُؤيةِ والعلمَ واللمّسِ والتفريق بينهما، واختلفوا في الكلامِ فمَنْ قال هو من صفات الذّاتِ قال: غير مُحدَث ولا مخلوق لأنّ اللهَ لم يزلْ متكلماً بكلامٍ لا هو هو ولا هو غيرهُ ولا بعضهُ، ومَنْ قال من صفات الفعلِ قالَ: هو مُحدَث لأنّ الكلامَ يقتضي متكلّماً، واختلفوا في الإرادة بحسب اختلافهم في الكلامِ، واختلفوا في المكانِ فقالَ أكثرهُم إنّه بكلّ مكان حافظاً مدبّراً

وعالماً وقادراً وليستْ ذاتهُ بجسمٍ فيشغل الأماكنَ ولا بعرض فيحلّ الأجسام، ومن كان بهذه الصفةِ فغيرُ محتاجٍ إلى المكان، وقال هشام بن الحكم: والمشيئة أنّه في كلّ مكان ذو مكان وذلك مُطّردٌ على أصله لما يراه جسماً، وقال قومٌ: إنّه في السماء فوقَ العرشِ بذاتِهِ بلا نهاية لا ككون الشيء على الشيء بالمماسّة والاظلالِ، وزعم ابن كُلّاب أنّه على العرشِ لا في مكان، وإذا أجازوا إن يخلقَ الله جسماً لا في مكان، وأن يُقيمَ العالمَ لا في مكانٍ فما ينكرون من كونهِ لا في مكان وليس هو بجسمٍ ولا عرض، واختلفوا في العلم فقال قوم: عالمٌ بما كان قبل أنْ كان، وبما يكونُ قبل أن يكونَ ولا يجوزُ أن يخفي عليه شيءٌ إلاّ بأنّه استفاد علماً أو أحدثه لنفسهِ بل ذاته متنبّهة عالمةٌ، وزعم قوم من الإماميّة[1]: أنّ الله لا يعلمُ ما هو كائن حتى يكونَ، قالوا: ولو كان يعلمُ أنّ مَنْ يخلقهُ يكفر به ويعصيه ويؤذيه لمَا خلقَه، وأجازوا فسخ الخبر والبداء، وأوّلُ مَنْ أبدعَ هذا الرأي في هذه الأُمّة المختار بن أبي عُبَيْد[2] كان يزعمُ أنّه يعلمُ ما يحدثُ من جهة الوحي فيخبر أصحابَه بكوائن فإنّ اتّفقتْ فهو ما أراد، وإنّ خالفَ قد أبدأ لربّكم، وكان جهم بن صفوان[3] ينفي الصفاتِ كلّها عن اللهِ سبحانَه، ويُنكر القولَ بأنّه شيء زعم فراراً من التشبيه، ويقول عِلْمُ الله محدثٌ.

وجملةُ الردّ على هؤلاء أنّ الجاهل منقوص ومستحقٌ المذمّة لا يستحقُّ الإلاهيّة، وأجاز المعتزلة كون ما علم الله أنّه لا يكونُ لأنّ عِلْم اللهِ ليس بعلّةٍ ككون الشيءِ ولا حامل للمعلوم على الكونِ كما أنّه لم يزلْ عالِماً بخلقهِ العالم قبلَ خلقِه، ثمّ لم يجُزْ القولَ بأنّ علمَه عِلّةُ الخلق وحامل له على إيجاده، قالوا وممّا علم الله أنّه لا يكونُ أُمور علم أنّها لا يكون لاستحالة كونها ككون إله معه أو كون شريك أو كون غالب يغلبه أو كون نهاية وانقضاء له، ومنها أُمورٌ عُلِمَ أنّها لا تكونُ لاستحالة كونِها، فلا يجوزُ كونها بحال، قالوا: وغير جائز أنْ يأمرَ عبداً بما يعلم أنّه لا يكونُ منه ما يأمرهُ به، ولا يقدرُ عليه لاستحالته أو لعجزه، وإنّما يجوزُ الأمرُ لمن علِم أنّه قادر على الفعل لأن القُدرَة هي التي تقتضي التكليفَ لا العلمَ، وقال مخالفوهم: لا يجوزُ كونُ خلافِ ما علم الله، ويجوزُ الأمرُ بخلاف ما علم

---

(١) الإمامية: هم القائلون بإمامة علي (رضه) نصّاً ظاهراً وتعييناً صادقاً، من غير تعريضٍ بالوصف بل إشارة إليه بالعين. «الملل والنّحل».

(٢) الملقّب بالمختار الثقفي، من زعماء الثائرين على بني أميّة، اشترك في ثورة مسلم بن عقيل، فسجنه عبيد الله بن زياد ونفاه، ثم ثار بالكوفة طلباً بثأر الحُسين (ت ٦٧ هـ) «منجد الأعلام».

(٣) هو رأس الفرقة التي عرفت بإسمه «الجهميّة» أو «الجبرية»، وهي تقول: إنّ الإنسان مسيّر، وتنفي الصفات، (ت ١٢٨ هـ) قتلاً على شطّ نهر بلخ بمرو. «منجد الأعلام».

لأنّه لو جاز كونُ خلاف ما علم كان عاجزاً جاهلاً.

وهذه هي مناظرة بين الفريقين مليحة مُفيدةٌ قالوا لهم: أليس في قولكم إنّ الله لم يزلْ عالماً بأنّ فرعونَ لا يؤمن قالوا: بلى، قالوا: فكان فرعونُ يقدرُ أن يؤمن، وقد علم اللهُ أنّه لا يؤمن، قالوا: نعم، قالوا فكان فرعون يقدرُ على إبطال علم الله وتجهيله قالوا: لو علم الله إنّ فرعونَ لا يقدر أن يؤمن كما علم أنّه لا يؤمن، ثمّ قلنا إنه آمنَ أو يؤمن لكنا مُبطلين مجهلين ولكنّا قلنا علمَ الله أنّه لا يؤمن، وعلم أنّه يقدرُ أن لا يؤمن ولم يؤمن، فلم نكن مُبطلين ولا مجهلين، ثم قلبوا عليهم السؤالَ فقالوا: أليس الله عالماً بأنّه يقيم القيامةَ في وقتها وهو القادرُ على أن لا يقيمها؟ قالوا: بلى، قالوا: فهل يجوزُ القولُ بأن اللهَ قادرٌ على إبطال علمه وتجهيل نفسِه إذا كان قادراً على أن لا يفعل ما علم أنّه يفعله، وأن أنّ يفعل ما علم أنّه لا يفعله، قالوا: وليس علمُ الله أن فرعونَ لا يؤمن وأَمرَه بأن يؤمنَ فهلْ أمرَه بتجهيل علم الله فيه؟، واختلفوا في جواز وصفِ الله بالقدرةِ على المحالِ كإدخال العالمِ في حوزةٍ أو بيضةٍ، فقال الجمهور من أهل العلم: لا يجوزُ ذلك لأنّه يقتضي العلمُ مقدوراً كمام يقتضي العلمُ معلوماً، فكلّ ما هو غيرُ مقدورٍ عليه محالٌ إجازة القدرة عليه، وزعم بعضهُم أنّه قادرٌ عليه، واختلفوا في وصفِ الله تعالى بالقدرة على الظلم والجور، فأحاله قومٌ لأنّ ذلك مذمومٌ لا يفعل إلاّ عن نقصٍ أو حاجة، ولو جاز ذلك لم يكنْ مأموماً أن يقعَ، ولجاز وصفه بالقدرةِ على الجهل والعجز، وكان أبو هُذيل يقول: هو قادرٌ على ذلك ولكن لا يفعلُه لرحمته وحكمتِه وليس يفعلُ الظلمَ والكذبَ غير مقدور عليه فيكون محالاً، واختلفوا في قدرةِ الله تعالى هل هي علم الله أم غيره؟ وكذلك الحيرة فالقِدم وسائر صفات الذات، وزعمت طائفةٌ أنّ علمَ الله ليس قدرتُه ولا غيرُها لأنّه لو كان العلمُ والقدرةُ لكان ما علم فقد قدر عليه، وهو يعلم نفسَه، ولا يصلح القولُ بأنّه يقدرُ على نفسِه ولو كان علمُه غيرَ قدرتِهِ لكن يجوز وجودُ أحدهما مع عدم الآخر ولو جاز هذا لجاز أن يكونَ الباريءُ في حالٍ عالماً غيرَ قادرٍ أو قادراً غيرَ عالمٍ، وزعم داود بن علي أنّ علمَه غيرُ قدرته، وأمّا المعتزلة فليس من قولهم أنّ له علماً وقدرةً حتى يلزمهَم التفصيلُ بينهما، واختلفوا فيه التعديلِ والتجويز من خلقهِ أفعالُ العباد وما هم يكتسبوه من المعاصي والمآثم وقضائه إيّاها عليهم وإرادته منهم وعقوبته لهم عليها بعدَ أَنْ أوجدَها منهم، فقال قوم: كلّ ذلك منهُ وفعله وعو عَدْلٌ وحكمةٌ لأنّ الخلقَ خلقهُ والأمرَ أمرهُ لا يكون منه ظلمٌ ولا جورٌ، ولو جازَ حدوثُ حادثٍ بغير مُراده أو مشيئته وإيجادِه لكان عاجزاً مغلوباً، وقال آخرون: لو كان كما يزعمون لما

كان الخلقُ ملومين ولا معاقَبين ولا مَنْ يفعل بهم هذا حكيماً ولا عالماً ولا رحيماً، وهذا من باب الحيَرْ والقدر. والاختلاف فيه قائمٌ مُذْ وُجِد في العالمِ حيّان ناطقان، ولا يجوزُ غيرُ ذلك لتكافيء الدلالة، وأعدلُ الأُمور أوساطُها، فقد قِيل: الناظر في القَدَر كالناظرِ في عين الشمس لا يزدادُ على طولِ النظر ألاّ حيرةً ودهشاً، ومَنْ طاوعَتْه نفسُه بالإمساك عن الخوض فيه والاقتصار على ما في الكتاب رجوت أن يكون من الفائزين.

الفصل الرابع

في تثبيت الرسالة وإيجاب النبوّة

أقولُ إنّ منكري الرُسُلِ صنفان: أحدهما: المُعطّلةُ[1] الذين ينكرونَ إثباتَ الباريء سبحانَه فلا وجهٌ للكلام معهم إلاّ بعد إقرارهم بالتوحيد، والثاني: البراهمة[2] أقرّوا بالصانعِ، وأنكروا الرسالةَ، واحتجّوا بأنّ الرسولَ لا يأتي إلاّ بما في العقل أو بخلافه فإنْ كان يأتي بموجب العقلِ فما في العقلِ كافٍ مما يجب لله تعالى على العباد من معرفته وتوحيده وشكره وعبادته واستعمالِ الحُسْن واستقباحِ القبيح، وإنْ كان يأتي بخلافه فلا وجهٌ لقبوله لأنّ الخطابَ وقَع على نوى العقولِ والقضيّة لها والتمييز أودعتاها، فأجابهم المسلمون: بأن الرسولَ أبداً لا يأتي إلاّ بما في العقول إيجابه أو تجويزه وحاشا لله ولرسوله أن يأتوا بخلاف ما في العقول، ولكن من الأشياء مما يغمضُ ويلطفُ حتى يخطئه العقلُ أو يخفى ويحتجبُ حتى يقصرُ دونَه العقلُ كانتفاع الإنسانِ بما ينزعُ إليه نفسه ويشتاق إليه طبعهُ من ملاذّ الأغذية والملاهي المقويّة فإنه حَسَنٌ في العقل الأخذُ منها بقدرِ الحاجة بل واجبٌ وغيرُ حسن إذا كان لا يملكها الانتفاع بشيء منها إلاّ بعد الإذْن من مالِكها، فصار فعل العقل في حال خلاف فعله في حال فدلّ أنّ العقلَ لا يستغني بنفسه ولم يضامّه شيء من السّمع مع أنّ العقلَ محتاجٌ إلى الرياضة والتمييزِ والسمعِ والتجاربِ لا غير موهومٍ لو أنّ أكملَ الخلق عقلاً وأوفاهم فِطنةً غُيّب عن الناس وليداً حتّى لم يسمعْ شيئاً إلى أن بلغَ فأدرك أنّه يمكنه استخراجَ علمَ الفلسفة والهندسةِ والطبّ والتنجّم وغير ذلك، فدلّ هذا كلُّه أنّ العقلَ غيرُ مكتفٍ به ولا بدّ من معلّم ومعرّف وهادٍ ومذكّرٍ، ولا يجوز أنْ يَقع العلمُ بهذه

---

(١) المعطّلة: أصناف متعددة ينكرون الخالق والبعث والاعادة والرّسل. «الملل والنّحل».

(٢) البراهمة: ينتسبون إلى رجُل يُقال له «بُرهام» وقد مهّد لهم نفي النبوات، وقرّر استحالة ذلك في العقول بوجوهٍ. «الملل والنّحل».

الأشياء إلهاماً ضروريًا لأنّا ليس نشاهدُ ذلك في أجناسها وأمثالها، وأنّ لا يكون كلّها بالاستخراج والاستنباط من غير مقدّمة وأصلٍ سابق، فإنْ قيل: إذا كان الباريءُ مريداً لصلاحِ خلقِه غيرَ بخيلٍ ولا عاجزٍ ولا يمسّه تكلّفٌ ولا علاجٌ فيما يفعلُه فهلاّ جَعلَ خلقَه رُسلاً وألهمهُم من العلم ما استغنوا به على الرسّل، أو حبس طباعهم عن التخطي إلى محظور، قيل: لو فعلَ ذلك لم ينزلهم دارَ البلوى والامتحانِ، ولا عرّضهم لشرف الثواب وما هو إلاّ كقول مَنْ يزعم لِمَ خلقَ اللهُ الخلقَ وأسقطَ عنهم التكليفَ وابتدأهم في الجنة، وهذا باب التجويز والتعديل، وليس كتابنا هذا بنَيْنَا له ولكن لو فعلَ كان له ما فعلَ فإذا لم يفعلْ فنقول أساءَ أو جهلَ أو عجز، وهذا الظنّ نقضُ التوحيد وإبطالُ الدين فيعادُ الكلامُ فيه وتقرّر بأنه عادلٌ حكيم لا يفعلَ إلاّ الأصلحَ بخلقهِ والاعود عليهم، ولو جعلهم كلّهم رُسُلاً لوجَبَ أنْ يسوّى بينهم في الفضلِ والعقل والجاه والمال والقوّة، ولو فعَلَ لما عرف فاضلُ فعلَه ولا قويٌّ قوّته، ولما شُكِرَ وحُمِد في إسقاط موجباتِ الشكر والحمد وإباحة الفكر والذمّ، وهذا قبيحٌ في العقلِ فدلّ أنّه لم يجزْ التسوية بين الخلق لا في الحال ولا في المال ولا في الرسالة، فإنّ طعنوا في الرسالة بما يوجد فيها من سفك الدماءِ وذبحِ البهائم وإيلامِ الناس فإنّ العقلَ لا يردُّ شيئاً من ذلك إذا كان فيه ضربٌ من الصلاح كما يُكْرَهُ الإنسانُ على شرب الأدويةِ الكريهةِ وعلى الفَصْد[1] والحِجامة[2] وقطع بعض الجوارح عند انتظار مخوفةٍ وتأديب الأطفالِ وغير ذلك فيوجب عليه أن لا يردعَ ظالماً ولا يفتصّ[3] من جارحةٍ، وهذا قبيحٌ وترخيصٌ في الفساد؛ ومِنْ أعظمِ الدلائل على وجوب الرُسُل هذه اللُغاتُ المختلفةُ التي يتلفّظَ الناسُ بها، ويتعارفون بها ما يحتاجون إلى معرفته، ولا بُدّ من معرّف ومعلّم لها أسماء المسمّيات باختلاف اللغات وكذلك الصناعات والآلات التي يتوصّلَ بها ءليها وليس في وُسْع الناس استخراج لغةٍ ووضع لفظٍ يتّفقون عليه إلاّ بكلام سابقٍ به يتداعون ويتواضعون ما يريدون، وليس في المعقول معرفة ذلك ولا بدّ من معلّم قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] ثمّ إذا صحّت النبوّة، ووجبتْ الرسالة بقي أن يُعلم الفرق بين النّبي وبين المتنبّي لأنّ الأشخاصَ متساويةٌ متماثلة، ففرّق الله تعالى لما أراد من أقامهِ حجّتِه

---

(١) الفصد: شقُّ العرق.

(٢) الحِجامة: المداواة والمعالجة بالمِحجم: وهو شيء كالكأس يفرّغ من الهواء ويوضع على الجلد فيُحدث تهيجاً ويجذب الدّم.

(٣) يفتصّ: يُقال: افتصّ كذا من كذا: أي انتزعه وافترزه.

وإظهار دعوتِه بين الصادقِ والكاذبِ منهم بما خصّه به من الآياتِ الباهرةِ والعلاماتِ المعجزةِ الخارجة عن العادةِ والحسّ وذلك معروفٌ معدودٌ كما يُحكى عن موسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

[كيفية الوحي والرسالة]:

أقولُ: إنّ المسلمينَ ومَنْ قبلهم اختلفوا في هذا الباب اختلافاً كثيراً، فزعمتْ طائفةٌ أنّ الوحي إلهامٌ وتوفيقٌ، وزعم آخرون أنّه قوّةُ الروحِ القُدسيّ، وعندَ الفلاسفة النبوّةُ علمٌ وعملٌ، والمسلمون يقولون: الوحي على وجوه فمنه الإلهامُ ومنه الرؤيا ومنه تلقينٌ ومنه تنزيل، وهذه مسألةٌ من فصل الصفاتِ أغفلناها في موضعها فحرّرناها في هذا الفصل؛ وهي كيفيّة القول والفعلِ من الله لأنّ أهلَ الإسلام في ذلك مختلفون، فزعم بعضهُم: أنّ كلامَ الله فعلٌ منه فهو به متكلّم وكذلك إرادته ومشيئته وحُبّه وبُغضه وقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨] تكوين منه للشيء والقول زيادة. قالوا: لأنّ هذه الأشياء أعراضٌ تحلّ في مواضعَ لها معلومةٍ وليسَ هو بمحلّ الأعراض، وقال عامّتهُم: إنّ الفعلَ تكوينٌ وإيجادٌ من غيرِ معالجة بجارحةٍ إلاّ مَنْ شَذّ فزعم أنّه يخلقُ بيدَيْه، والأفعال على وجوهٍ كثيرةٍ فمنه: الفعل بالقصد والاختيار، ومنه الفعالُ من غيرِ قصد على السَهْو، ومنه الفعل بالاتّفاق والبحثِ وكلّها حركاتٌ، ومنه فعل التولّدِ كما ينفعلُ الشيءُ بطبعهِ، وفعل الله تعالى غيرُ مُشبّه بشيء ممّا ذكرنا، وزعم قومٌ: كلامَه ليس من أفعالِهِ، وفرقوا بينَ القولِ والفعلِ، ولقد امتدّ بنا القول إلى هذه وما كان قصدُنا أن نبلغَ كلّه ولكن لما رجونا من الخير وأمّلناه من هُدَاتِهِ الناظر في كتابنا واهتدائه به، ولمّا نرى من فسادِ الزمان وأهلِهِ وتحرم طالعِ الإلحادِ والنفاقِ وإعجاب كلّ ذي حرفين بنفسه لإنتقاض العلماء ودروس آثارهم وما قدّمتُ من عمل هو أَوْكَدُ في نفسي أم لا، وأوثق عُدّة من جميعِ هذا الكلام والاجتهاد في شرحه، أسأل الله الذي منّ وأعانَ أنْ يعصمَ من نزعاتِ الشيطانِ، وينفعَ به الناظرين والمستفيدين، وأن يرحمَ من عذرنا في تقصيرٍ إن كان منّا وقام بتقويم أَوَدِهِ[1] وإصلاح غلطِه مشاركاً لنا في ثوابه وأجره فلم يتعمّد فيه خَطأً وتحريفاً، ولا حملتنا الحميّةُ والتعصُّبُ على تزيّد أو إبطال أو تغييرِ رواية أو حكايةٍ، بل سُقناها على وجهها، وأدّيناها بأوجز لفظها لعلمنا بعموم الحاجةِ إليه من الأعاجم وأُمّيّين مبتدىء المتعلّمين.

---

(١) الأود: الاعوجاج.

الفصل الخامس

في ذكرِ ابتداءِ الخلقِ

قالَ: إنّ الموحّدين في معنى إيجادِ الخلقِ مختلفون لأنّ اللهَ خلقَ الخلقَ لا لاجتلاب منفعةٍ ولا لدفعِ مضرّةٍ، وكلُّ فاعل من غير نفعٍ ولا ضرّ فسفيهٌ غيرُ حكيمٍ، قال المسلمون: هذا إذا كانَ الفاعلُ يلحقُه المنافع والمضار، فأمّا إذا كان غنيًّا من احترازِ منفعةٍ ممتنعاً من لحوقِ ضررٍ فغيرُ سفيه ولا عابثٍ، وقد قامتِ الدّلالة على أنّ الباریء كذلك حكيمٌ غيرُ سفيهٍ ومحالٌ وجودُ العَبَثِ من الحكيمِ فلا يخلو خلقُه من الحكمةِ وإن خفي علينا وجهه لعلمنا بأنّ الحكيمَ لا يفعلُ ما هو غيرُ حكمةٍ، واختلفتْ آراء الناسِ في ما لاح لهُمْ من الحكمةِ في خلقهِ وإنْ كانَ لا يجوزُ القطعُ على شيء منه لظنّه معظم علمهِ عنهم، فقال قومٌ: خلقَ الله الخلقَ لجودهِ ولرحمتهِ إذِ ٱلجّوادُ بإفاضة الجودُ على المجودِ عليه يُظهِرُ جودَه، والقادرُ بإظهارِ المقدورِ يُظهِرُ قدرتَه، وقال قوم: خلقَهم لينفعهَم وينفعَ بهم يعنون لتعبر المتكلّفون بالمخلوقِ غيرِ المكلّفِ وقال قوم: ليأمرَهم وينهاهَم، وقال قوم: خلقَهم لاستدعاء الشّكرِ والثناء، وقيل: لعِلم عِلمَهُ أنّه يخلقهم، وقال قوم: لا نقولُ شيئاً من ذكل خلقهم لما شاء ولا علم لنا بمشيئته.

هذا قولُ مَنْ أقرّ بحدوثِ العالمِ وأنّ له مُحدثاً سابقاً له فأمّا مَنْ أقرّ بحدوثِ العالمِ وأنّ له مُحدثاً سابقاً له، فأمّا مَنْ أنكَر ذلك فإنّه احتجّ للقِدَم والإهمالِ بأنّه لو كانَ للعالمَ صانعٌ أو مدبّرٌ ناظرٌ لما كان فيه تفاوتُ خلقٍ ولا تعادي سباعٍ ولا شمولَ بوار[1] ولا وقوعَ فسادٍ ولا اعتراضَ أسقامٍ وأوجاعٍ ولا هَرَمَ ولا موتَ ولا حزنَ ولا فاقةَ، وأتت حكمةٌ في إنشاء صورةٍ حيوانيّة ناميّةٍ ثمّ في إفنائها، ولما استوى حالُ المعاندِ والمجيبِ ولما فضل العالِمَ الجاهلُ بالجاه والمالِ والمنزلةِ وهل لا أُخبرُ الخلقَ إنْ كان له خالقٌ على التناصفِ

(١) البوار: الكساد، والبوار: الهلاك.

والتواصلِ؟ ولِمَ خُلّي بينهم وبين التعادي والتظالم والتباغي والتهارجِ؟ وهذا كلُّه مضمحلٌّ متلاشٍ بشهادةِ آثارِ الخلقِ على تفاوتِهِ واختلافِهِ في الظّاهر من الاجتماعِ والافتراقِ والحركةِ والسكونِ والأعراضِ، والمقارنةِ له بمعرفةِ كمالِ القدرةِ ووجوبِ العبرةِ في خلقِ الأضداد والمكارهِ وإعطاء الخلقِ القوّةَ والقُدرةَ والاختيارَ ليستحقّوا بأعمالهم أشرفَ الثّوابِ، وليرتدعوا بالاعتبارِ عن الظلمِ والفسادِ ولو كانوا مجبورين كما يزعمون أو مجبولين على فعلٍ واحدٍ دونَ ضدّه لكانوا جَماداً موّاتاً، ولو كانوا على طبعٍ واحدٍ لما عرفوا بحواسّهم، ولا وجدوا بعقولهم إلاّ الشيء الواحد الذي يلائم طبعهم، فلم يصلحْ حينئذٍ تكليفٌ ولا وقعَ منهم تمييزٌ، وتركُ إلحادِهم على هذه الصورةِ أنفعُ لهم وأبلغ في الحكمة، ولا يفعلُ اللهُ إلاّ الأصلحَ الأحكمْ، وأمّا فضلُ الجاهل العالم بالمالِ والجاهِ فالعلمُ أفضلُ من المالِ لأنّه السعادةُ اللازمةُ، والمالُ من السعادة المفارقةِ؛ فلو أنصفَ هذا الزاعم في القضيّة لفضلِ الجاهلِ بالمال على العالمِ لفضّلَ العالمَ على الجاهلِ بأضعافِ علمِهِ لتساوي حالَيْهما.

وقد سُئِلَ جعفرُ بن محمّد الصادق[1] رضي الله عنه عن هذه القضيّةِ قال: ليعلمِ العاقلُ أنّ ليسَ إليه من أمرِه شيء وأي لعمري هو من أدلّ دليل على مُدبّرٍ قديرٍ قاهرٍ، وهؤلاء المعطلةُ أقلُّ الناسِ عدداً وأوهنُهم عُدّةً وأفيلُهم رأياً[2] وأوهاهُم عزماً وأنقصهُم حجّةً وأخسُّهم دعوىً وأدناهُم منزلةً وأغربهُم ذهناً، لا يظهرُ واحدٌ في أمةٍ وجيلٍ إلاّ في الدّهر والحينُ لأنّه رأيٍ مشرذلٌ وعقيدةٌ مهجورةٌ وعزمٌ مدحولٌ لا يبدو إلاّ من فَدْمٍ[3] جاهلٍ أو معاندٍ، وما أراهُ انتشر في أمّة من الأمم وزَمَنٍ من الأزمنةِ انتشارَه في زماننا هذا وأمّتنا هذه لتستُّر أهلِهِ بالإسلام وتحليّهم تحليةَ شرائعهم ودخولِهم في غِمار أهلِه، واحتالَ مَنْ احتالَ لهم بلطيفِ التمويهِ في تسليمِ الأُصولِ الظاهرةِ والمصيرِ به إلى التأويلات الباطنة، فهم يُرقّقون عن صَبُوحٍ[4]، ويحتسون في إرتغاء[5]، وذلك الذي حقنَ دماءَهم وغمدَ سيفَ

---

(١) هو الإمام السادس للشيعة، وإليه ينسب المذهب الجعفري، ولد وتوفي بالمدينة، كانت مدرسته امتداداً لمدرسة أبيه الباقر، ونجحت نجاحاً كبيراً في نشر الثقافة الإسلامية (ت ١٤٨ هـ) «منجد الأعلام».

(٢) افيلهم رأياً: اضعفهم رأياً، أو أخطاهم رأياً.

(٣) الفَدْم: العييُّ عن الكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطينة.

(٤) الصبوح: شراب الصباح.

(٥) ارتغاء: مصدر ارتغى، يقال: ارتفى الرّغوة: أخذها واحتساها، ورغوة اللبن: زبدُه الذي يعلوه عند غليانه.

الحقّ عنهم نابغٌ في قديم الدهرِ وحديثِهِ، وأبدا صفحَته إلا عوجل بالاستئصال واحتثّ منه الأوصال، واستنجَر العدّة فيهم سنّة اللهِ في الدين خلَو من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، زعموا أنّ هذه الدنيا قديمةٌ لم تزلْ على ما هي عليه ولا تزالُ كذلك من صيفةٍ بعد شتوةٍ وشتوةٍ بعد صيفة وليلٍ بعد نهار ونهارٍ بعد ليلٍ ونطفةٍ من إنسان وإنسان من نطفةٍ ووالدٍ من ولدٍ وولد من والدٍ وبيضٍ من طيرٍ وطيرٍ من بيض، وكذلك جميع الأشياء الحسّاسة والنامية بعضُها من بعضٍ بلا صانع ولا مدبّر لا أوّل لها ولا آخر، فإنّ هذه دعوى جائزة ومقالة باطلة، ولو كان هذا المُدَّعي لم يزلْ مع أزليّة العالمِ بزعمِهِ لما ساغتْ له دعواه أن لم يقُمْ له دليلٌ من غيره على أزليّته، فكيفَ وليس هو ممّن هو لم يزلْ ولا هو ممّن لا يزال وإنْ اعتمدَ فيه خبرَ مَنْ كان قبله، وإنَّ مَنْ أخبرَه لهو في حاله وحدوثه لم يشاهدْ من ذلك إلاّ ما شاهدَ مَنْ كان قبله مع معارضة الخصمِ له في الكون والحدوثِ لأنّ الدّعاوى تصحّ بالحجج لا بالصفات، وإنْ زعمَ أنّه قاسَ ما مضى منه بما هو مُستقبَل فيما بعدُ وأنّه غيرُ مُنْتَقضٍ فهذا القضاء أجودُ من الأوّل وأضعفُ مدّة بل هو نفسُ دعواه التي خولف فيها، والمعارضة قائمة، فإن زعمَ الحالَ والوقت الذي هو فيه فإنّ هذا رأيُ مَنْ قَصُرِ عِلْمه، وسَخُفَتْ معرفته وأوجبَ أن يكونَ هو بنفسِه لم يزلْ على ما هو عليه في الحال والوقتِ لم يكن قطّ نطفةً ولا علقةً ولا مُضْغةً ولا جنيناً ولا رضيعاً، ولا يتغيّر فيما بعدُ فيكتهلُ ويشيبُ ويهرَمُ وتجري عليه الحوادثُ، وتنتقلُ به الأحوالُ، ومعاينة هذه يضطرّه إلى الإقرارِ ويبيّن عنه وجهَ العِناد، وإنّ زَعَم أنّ حكمَه في نفسه خلافُ حكم العالمِ قيل: ولِمَ زعمتَ ذلك؟ وهل أنت إلاّ جُزْءٌ من العالم؟ بل قد شبّهت في جميع معانيه فسُمّيّتَ العالم الأصغر، وكذلك كلّ ما يعاينُ من الأشخاصِ والأنواع العُلويّة والسُفلية من الحيوان والنباتِ ألا ترى أنّك لو عمدتَ إلى كلّ جزء من أجزاء العالم فاختصصتَه باسم لحصلَ العالم لا شيء كما أنّك لو فرقْتَ الجوارحَ والأعضاء لحصلَ الإنسان لا شيء، فهذا يدُلّك أنّ الكلّ اجتماع الجزء لا غير، فإن قال: لا يقومُ في الوهم ولا يتصوّر في النفس حدوثُ هذا العالم ولا فناؤُه وانقضاؤُه عُورض بأنّه لا يقوم في الوهمِ ولا يتصوّر في النفس قِدمُ العالم ولا بقاؤُه مع أنّ القضاء عليه بالحدثِ والانقضاءِ أقربُ إلى الأوهام وأشدُّ ارتباطاً للنفوسِ لقيام الدلائلِ الواضحةِ والبراهين الشافيةِ، فإن قال: كيفَ يمكن اعتقادُ حدوثِ هذا العالم لا من شيء ولا في زمان ولا مكان فإنّ هذا اشتطاطٌ في المطالبة وجَوْرٌ في القضية لأنّه تكليفٌ تمثيل ما لا مَثَل له وإحساس شيء غير محسوس، وليس نعلمُ كالدنيا دُنياً غيرَها فنشبّه هذه بهذه وإنّما نحكُم بحدوثِها

لشهادة أَثَر الحدوثِ بها، والعامّي الذي لا رأْي له ولا نظرَ عندَه يطلبُ الدلائلَ الظاهرَة على الأشياء الخفيّة وذلك مُحالٌ بمنزلة مَنْ يجب أن يَرى ما لا يُرى، وأن يَسمع ما لا يُسمع أو يسمع ما يُرى ويَرى ما هو مسموع، ومَنْ أنصفَ نفسَه أنزل المعلوماتِ منَازلها واكتفى من الموهومِ بالوهمِ ومن المحسوسِ بالحسِّ ومن المدلولِ عليه بالدلالةِ وقد لعمري لا يتصوّرُ في الوهمِ إحداثَ هذه الجواهر والأعراضِ لا من غير سابق، ثمّ لا يتصوّر وجودَ حدثٍ لا من مُحدثٍ، فإذا تكافأَتْ الصورتان لَزم المصيرَ إلى أشيعهما دلالةً وأدناها إلى الحقّ درجةٍ، فإنّ الدلائلَ شاهدةٌ بآثارِ الحدثِ والقِدمُ موهومٌ، وقضيّة الدلالة عليه من قضيّة الوهمِ والدّليلُ على أنّ العالمَ حادثٌ غيرُ قديمٍ كما يزعمونَ وأنّه لا أوّلَ له ولا حركةَ إلاّ وقبلها حادثة لو كان كذلك لما جاز وجودُ ما هو حاضرٌ في الحالِ من حركة أو ليل أو نهار أو شخصٍ ما، لأنّ ما لا نهاية له في وجوده وعدمِهِ فمحال أن يوصفَ بأنّه قد تناهى وانقضى حدوثُه وفُرِغ منه، ولأنّ ما لا أوّل له فغيرُ جائزٍ وجود ثانيه ولا وجود ثالثٍ ما لا ثانيَ له ولا وجود رابع ما لا ثالثَ له على هذا القياس كما أنّ ما لا غايةَ له ولا نهاية في المستقبل محالٌ أنْ يُوصَفَ بأنّه ينقضي أو ينقطع يوماً، كذلك مَنْ زعم من الحوادثِ لم يزلْ يحدُثُ بلا أوّل فهذا الحادثُ في الحالِ والوقت المشاهد لا يخلو من وجود ثلاثة: إمّا أنْ يكونَ هو الأوّلُ، أو بعد الأوّل، ولا أوّل ولا بعد الأوّل فإنْ كان هو الأوّلُ وإنْ كان بعد الأوّل فقد ثبتَ الأوّلُ، وإنْ كان لا أوّلَ ولا بعدَ الأوّل فهذا فسادة ظاهرة فكأنّه قال: شيء لا شيء ولو جاز وجودُ ما لا أوّلَ له لجازَ وجودُ العشراتِ من غيرِ تقدّم الآحادِ ووجودِ المئين من غير تقدّم العشرات ووجود الأُلوف من غير تقدّم المئَين لأنّ بالأحد يتمّ الاثنان وبالاثنين يتم الثلاثةُ، ألا ترى أنّ قائلاً لو قال: لا تُنبِتُ الأرضُ حتّى تمطَر السمار، ولا تمطرُ السماء حتى تتغيّم، ولا تتغيّم حتّى يثورِ البُخارُ، ولا يثورُ البخار حتى تهبَّ الرياحُ، ولا تهبُّ الرياح حتّى يحرّكها الفلك، ولا يحركُها الفلكَ حتى تكونَ كذا، ويمدّ في هذا الاشتراطِ شيئاً قبلَ شيء أبداً إلى غير نهايةٍ ولا غاية، لم يجزْ وجودُ نبتٍ ولا مطرَ ولا غيمَ ولا ريحَ لأنّه مُعلّقٌ بشرطِ ما قبله غير جائز وجوده لأنّه غير متناهٍ؛ وكذلك مَنْ زَعمَ أنّه لم يكنْ حركةَ إلاّ وقبلها حركة ولا إنسان إلاّ وقبله أنسانٌ ولا نَبْت إلاّ وقبلَه نبتٌ إلى ما لا غاية ولا نهاية، فمحالٌ وجودُ هذا الإنسانِ والنبتِ لأنّ وجودَه كان مُعلّقاً بشرائطِ لا أوّلَ لها وما لا غاية له لا يُوجدُ ولا يُعلمُ ولا يُوهمُ، وكذلك لو قال قائل: لا أدخلُ هذه الدارَ حتّى يدخلَها زيدٌ ولا يدخلُ زيدٌ حتّى يدخلَ عمرو ولا يدخلُها عمرو حتى يدخلَها فلان ثم كذلك إلى غير غايةٍ، لم يجزْ دخولَ زيدٍ ولا غيره

أبداً، وكذلك لو قالَ: لا آكلُ تفّاحاً حتى آكلَ قبلَها تفّاحةً لم يصحّ له أكلُ تفاحةٍ أبداً لأنّه كلّما ضرب يدَه إلى تفّاحة يأكلها منعه شرطُ أكل تفاحة قبلها.

ومن الدّليل على حدثِ العالمِ أو أنّ له أوّلاً أنّا لو توهّمنا عندَ كلِّ حركةٍ مضَتْ من حركاتِ الجسم حدوثَ حَدَثٍ أو ظهورَ شخصٍ لكان ذلك أجساماً حاضرةً يحضرُها العَدَدُ، ويأتي عليها الحسابُ، وكذلك لو توهّمنا هذا العالمَ حيًّا عالماً لجازَ أن تُعِدَّ حركاتُه وسكَناتُه فيكونَ ذلك عدداً قائماً معروفاً لمبلغٍ وما له مبلغ، وأتى الحسابُ عليه فمتناهٍ، وكلّ متناهٍ له أوّلٌ وإنْ لم يتناهَ، ومن الدليلِ على حدثِ العالم وأنّ له أوّلاً أنّ ما مضى من حركاتِ الفَلَكِ لا يخلو من أن يكونَ مُثلُ سكناتِها متساويةً أو أكثر منها أو أقلّ، فإن كانتْ مثلَها فالمثلُ كالنصفِ وما له نصفٌ فمتناهٍ، والأكثر والأقلّ تدلُّ الكثرةُ على تضاعُفِ أجزاءِ الأكثرِ على الأقلّ، فإذا ثبتَ تقدُّم إحدى الحركاتِ على الأخرى وما له تقدّم فمتناهٍ وله أوّل؛ وهذا من الحججِ الواضحةِ التي يفهمها كلُّ سامعٍ، وللموحّدين في هذا الباب من دقائق النظرِ بما ألهمهم اللهُ من توفيقه ما لا يظهرُ عليها إلاّ اللقن[1] الفَطِنُ ولها موضعَها من كتابه، فإن قِيلَ: أليس الحوادثُ عندَكم في المستقبل لا تزالُ إلى الآخر وإن كانَ لها أوّل؟ يريدون قولَ أهلِ التوحيدِ ببقاء الآخرة على الأبدِ فما أنكرتُم أن ما مضى من الحوادثِ لا أوّلَ لها وإن كان لها آخرُ قِيل: إنّا لا نزعمُ أنّ ما له أوّلُ لا يجوزُ أنْ يكونَ له آخر وأنّ الحوادثَ غيرُ متناهية ولكنّا نقولُ: إنّ الحوادثَ لا يزالُ يحدُثُ منها حادثٌ بعد حادثٍ لا إلى غاية، ولا يخرجُ كلُّها إلى الوجودِ حتى يُرى موجوداً لم يبقَ منه شيء لم يُوجَد، وليس أوّلُ الشيء بموقوفٍ على صحّةِ وقوعِ آخرهِ موقوفٌ على صحّةِ وقوعِ أوّلهِ لأنّه يستحيلُ وقوعُ آخرٍ لا أوّلَ له، ولا يستحيلُ وقوعُ آخر بعد آخر أبداً كما يستحيلُ وقوعُ فعلٍ لا من فاعلٍ متقدّمٍ، ثمّ لا يجبُ وجودُ الفاعلِ بعدَ فعلِه باقياً أبداً أو كما أنّ الأعدادَ مفتقرةٌ أبداً إلى أوّل تنشؤُ منه وتبتدىءُ، ثمّ لم يجبْ وجودُ تناهيها لتناهي أوّلها، ومن الفرق بين المستقبل والمستدير أنّه يجوزُ وجودُ ما لا يزالُ يتحرّك، ولا يجوزُ وجودُ ما لم يزلْ يتحرّكُ، كما أنه يجوزُ وجودُ من لا يزالُ يعتذرُ من ذنبٍ، ولا يجوزُ وجودُ مَنْ لم يزلْ معتذراً لأنّ الاعتذاراتِ لا بُدّ لها من أوّلٍ وقد يجوزُ أن يكونَ لا آخرُ لها، كذلك الأفعالُ لا بُدّ أنّ لها أوّلاً ولا يجبُ أنْ يكونَ لها آخرُ ومن هاهنا التزمَ بعضُ الموحدّين بأنّ الحوادثَ لها آخرُ، آخرُ العلة الحدثُ، وإن زعمَ أنّ هذا العالمَ وما فيه من فعلِ الطبائع وما أوجبتْه ذواتُها فالطبائعُ مركّبةٌ من البسائطِ والتركيبِ عَرَض،

---

(١) اللقّن: السريع الفهم.

وهو دلالة الحَدَث فالطبائعُ إذاً مُحدثةٌ ثمّ هي جمادٌ ومواتٌ كالحجرِ والشجرِ ثمّ هي مسخّرةٌ مقهورةٌ بدلالة أنّ مِنْ شأنها التنافر والتضادّ فلمّا رأيناها متواطئةً متوافقةً علمنا أنّه بقهرِ قاهرٍ وضبطِ ضابطٍ، ثمّ هي غير عالمةٍ ولا مميّزةٍ وإذا كان هذا هكذا استحالَ وجودُ هذه الصَنْعَةِ المحكمةِ المتقنةِ العجيبةِ البديعةِ من مُسخّرٍ غير عالمٍ، وليس نُنكرُ فعلَ الطبائعِ وتأثيراتِها في المطبوعاتِ من الحرّ والبردِ في الفصولِ الأرباعِ، لأنّ الله تعالى وضَعها على ذلك وركّب فيها تلكَ القوّةَ، وسخّرَها لما أرادَ أنْ يصرّفها عليه، وجعلها سبباً لتلك المُسبَّباتِ ومتى شاءَ سلبَها تلكَ القوّة، وأبطلَ فعلَها كما جعل الطعامَ مُشبِعاً والماء مُروياً؛ وكثيرٌ من الناسِ يأتون القول بما أطلقناهُ تحرّزاً لمذهبِهم وإنْ يصحُّ فعلُ من حيٍّ قادرٍ، فأمّا الاختيارُ والتدبيرُ فغيرُ جائزٍ إلاّ من قادرٍ حكيمٍ، وكذلك على مَنْ يزعم أنّ هذا العالَم وما فيه من فعلِ الفلكِ والنجومِ وغيرِها، فإنْ قِيلَ: إذا لم تَرُوا حيًّا قادراً فعلَ إنساناً وصورةً وركّب فيه العقلَ والقوّةَ، والسمعَ والبصرَ، ثم قضيتُمْ بأنّ في الغائبِ حيًّا قادراً يفعلُ ذلك ما أنكرتُم أنْ تكونَ الطبائعُ تصوّرُ مثلَ هذا الإنسان وإنْ لم تروا مثلَ هذا في الشاهد، قِيل: وما سوا لأنّا وإنْ لم نشاهدْ حيًّا قادراً فعلَ إنساناً فقدْ شاهدنا حيًّا قادراً فعلَ شيئاً وأبدعه، فدلّنا أنّه لا يجوزُ فعلٌ في الغائب إلاّ من حيٍّ، وليستْ الطبائعُ بحيّةٍ ولا قادرةٍ، فإنْ قَيل: أليس النارُ تُحرقُ والماءُ يرطّب؟ قِيلَ: فقد يقولون فلانٌ يحرقُ ويبرّدُ، ويضيفون الفعلَ إلى المختار الحيُّ والمواتِ المضطرّ ولو كانتِ الطّبائعُ بذاتِها لما جازَ عليها الاتّفاق مع تضادّها، فإنْ قِيلَ: شيء تعلمونه خالياً من الطبائعِ أو غير متولّد منها قِيلَ: الطباع نفسُها متولّدةٌ منها؛ وأكثرُ القدماءِ على أنّ الأفلاكَ ليستْ من جنسِ الطبائعِ وهلْ يصحُّ القولُ بأنّ الحركةَ والسكونَ والصوتَ والعجزَ والقدرةَ والعلمَ والجهلَ والحبّ والبغضَ والألمَ واللذّة والكراهة والإرادة وغيرَ ذلك من الأضداد والأشكال من الطبائع، أو أنّها ليست بشيء لخروجِها من أنواع الطبائع.

وأمّا احتجاجُهم بازستحالةِ فذلك محالٌ إلا بمحيلٌ لأنّه لو جازَ أنْ يستحيلَ الشيء بنفسِهِ لجازَ أنْ يتلاشى بنفسه، ولو جازَ أنْ يتلاشى بنفسِهِ لجازَ أن يتركّبَ ويخرجَ إلى الوجودِ من العدم وهو عدمٌ، فلمّا لم يجزْ هذا لم يجزْ ذاك وبالله التوفيق.

ومن الدليلِ على حدثِ العالمِ أنّهُ لا يخلُو من أحدِ الأمرَيْن: إمّا أنْ قد كان، وإمّا أنْ لم يكنْ فكان فإن كان قد كان فهذه الحوادثُ المقارنة له شاهدةٌ بأنّه ماكان فدلّ أنّه لم يكن فكان، ثمّ لم يخلُ هذا من أحد الأمرين: إمّا أنّه كان بنفسه وإمّا أنّه كان بمكوّن غيره فإن كان بنفسه فمحالٌ أن يكوّن العدم وجوداً لعجزِ الكائنِ عن تكوين مثلِهِ فكيفَ يقدرُ على تكوين

ذاته وهي معدومٌ، بقي الوجه الآخر: وهو أنّه كوّنه مُكوّنٌ.

ومن الدليل على حدث العالم أنّه لا يخلو أن يكون قديماً أو حادثاً أو قديماً حادثاً أو لا قديماً ولا حادثاً، فاستحال القولُ بأنّه لا قديمٌ ولا حادث لمشاهدتنا إيّاه، فاستحال أن يكون قديماً حادثاً لاستحالة اجتماع الضدّين، بقي القولُ بالقديم والحدث والدعوى يتساوى فيه لأنّه ليس قولُ منْ زعمَ أنّ العالم كان أولى من قول منْ زعم بأنّه لم يكن، ولا جواب من قال لم لمْ يكن بأسعد من قول منْ قال لِم كان، فنظرناه، فإذا دلائلُ الحدث يشهدُ بما لا يشهدُ دلائلُ القدم، ومتى أراد المُلحدُ فإن أعطاك فقد أقرّ بالمعنى، وبقي الخلافُ في التسمية.

وهذه مناظرةٌ جرتْ بين الموحّد والملحد من أوضح المسائل، وأنفعها لا بُدّ لكلّ مُسلم من تحفّظها: إن سأل سائلٌ فقال: ما الدليلُ على حدث العالم؟ قيل: الدليلُ على حدثه أنّه جواهرُ وأعراض، والجواهرُ لا تخلو من أن تكون مجتمعةً أو متفرّقة أو ساكنة أو متحركة إلاّ في حال واحدة، ولن يجتمع المجتمع بالاجتماع ولا يفترق المفترق بالافتراق، وكذلك المتحرّكُ والساكن والاجتماع والافتراق والحركة محدثة، وهو إذا كان كذلك ولم تخلُ الجواهرُ منها فهي محدثة لأنّ ما لم يسبق الحوادث ولم يتقدمها فحادثٌ مثلها، مثالُ ذلك: أنّ فلاناً لو قال: إنّ عمرّوا لم يوجدْ قطّ في هذه الدار إلاّ وزيد معه، ثم قال: وإنّما وجد فيها زيدٌ أمس فوجب أنّ عمرّوا إنّما أوجد فيها أمس، فإن قيل: ليس قد وجدتُم الباقي الذي ليس بمنتقض لا يخلو ممّا لا يبقى وينقضي، ولا يوجدُ بعده متعرياً منه فما أنكرتُم أنّ القديم الذي لم يزلْ لا يخلو من حادث ولا يوجد سابقاً له متعرّياً منه، قيل: المعارضة فاسدةٌ من قبل أنّه ليس ممّا لا يبقى وينقضي عروضاً للحدث أو المحدث، وإنّما عروضُ ذلك لم يبقَ وانقضى، وذلك أنّ قولك لا يبقى وينقضي الحالة على وقتٍ يأتي به يستحقّ الحكم بأنّه مُنقضٍ غيرُ باقٍ فلم يكن منكراً لأنّ يقارب الباقي حتّى لا يخلو منه إذ لم يُسبق الوصف المضادّ لوصفه، وقولك: قد حدث حكم قد وجب له في وقته لا ينتظرُ وجوبُه في وقتٍ، فاستحال أن يقارن القديمُ حتّى لا يكونُ القديمُ سابقاً له، فإن قيل: فأوجبوا أن يكون الباقي متغرّباً ممن لم يبقَ وانقضى كما أوجبتُم أن يكون القديمُ سابقاً للمحدثات موجوداً قبلها، قيل: ذلك يفعلُ وهو الواجبُ كما أنّه سابقٌ للحوادث فكذلك يجبُ أن يكون باقياً متأخراً عنها، ومتى ما لم يكن كذلك لم يكن باقياً كما أنّه لو لم يسبقْها لم يكنْ قديماً، فإن قال: إذا زعمتُم أنّ المقارنَ للحوادث حوادثٌ فما ينكرون أن يكون المقارنُ للحوادث أمس حادثاً

أمس؛ قِيلَ: لأنّا نقول: إنّ الذي يقارنُ للحوادث حادث بالإطلاق، ولكن نقولُ: ما لم يسبقها فحادثٌ مثلها، والجسم فإن قارن الحوادثَ أمسِ كان موجوداً قبلَه فلذلك لم يجبْ أنْ يكونَ حادثاً معه، وهذه تؤكد ما قلنا له كما وجب أنْ يكونَ ما لم يسبقِ الحادث أمسِ حادثاً أمسِ، فكذلك يجبُ أن يكونَ ما لم يسبق الحوادث بإطلاق حادثاً بالإطلاق، فإنْ قِيلَ: أليسَ لم نشاهد والأجسام مقارنة لحوادث إلاّ وقد كانتْ موجودةَ قبلَها مقارنة لحوادث غيرها، فهلاّ زعمتُم أنّ ذلك سبيلُها، وأنّها لم تزلْ كذلك قبلُ، هذا غيرُ واجبٍ لأنّا وإن كُنّا حكمنَا بأنّ الأجسامَ التي شاهدْناها كانتْ متقدّمةً للحوادثِ المقارنةِ لها مقارنةٌ لغيرِها، فلم نحكمْ بذلك من طريقِ الوجوب ولا لأنّ الجسمَ إنّما كان جسماً موجوداً لأنّه لا بُدّ من أن يكونَ متقدماً للحوادث المقارنة لها مقارناً لغيره، لأنّ هذا حدُّ الجسم وحقيقتهُ بل إنّما حكمْنا بذلك لأنّا لم نشاهدْ جسماً حدثَ في وقتٍ مشاهدتنا له، ولأنّه صحّ عندَنا بالخبر والدليل أنّ هذه الأجسامَ التي شاهدناها قد كانتْ موجودةً قبلَ مشاهدتنا لها، وصحّ أنّ الجسمَ لا يخلو من حادثٍ، ولو أنّا شاهدنا جسماً في وقتٍ لم نشاهده قبلَه، ثمّ لم يَقُمْ لنا دليلٌ على أنّه كان موجوداً قبلَ تلكَ الحالِ ولا خبرٌ صادقٌ بذلك لما حكمنا بأنّه قد كان موجوداً قبلَ الحوادث المقارنةِ له مقارناً لغيرها بل كنّا نخبرُ ذلك، ونخبرُ أنْ لا يكونَ سبقَ ما هو موجودٌ معه منها؛ فإن قِيلَ: ولِمَ جوّزتم هذا؟ وهلاّ قضيتمُ على كلِّ جسمٍ غابَ أو حضرَ، ورَدّ فيه خبراً ولم يردّ، قام على تقدّمه دليل، أو لم يقُمْ بمثلِ ما شاهدتُم عليه هذهِ الأجسامَ، وقضيتُم بها عليها من تقدّمها الحوادثِ الموجودةِ منها ومقارنتِها لغيرها وإلاّ فكيفَ تزعمون أنّكم تقضون بالشاهدِ على الغائب؟ قِيلَ: ليس القضايا بالشاهدِ على الغائبِ على ما ظننتموه لأنّه ليسَ يجبُ إذا شاهدنا جسماً على صفةٍ من الصفات أن تقضى كلُّ جسم غاب عنّا كذلك، إنّما يجبُ إذا شاهدناه على صفةٍ ما أن يُنظرَ هلْ هو عليها من جهة الوجوب الذي هو حدّه وحقيقته أم لا؟ فإن كان كذلكَ قضينا على كلِّ جسمَ في الشاهد إلاّ مركّباً من الطبائعِ الأربعِ ولا مركّباً من الطبائعِ إلاّ جسماً، ثم قلتُم إنّ الأفلاكَ من طبيعةٍ خامسة، ولم يشاهدوا ذلك؛ فكذلك لم نرَ إنساناً إلاّ أبيضَ لم يجبْ القضاءُ بأنّ كلّ إنسانٍ أبيضَ، أو لم نَرَ رُمّاناً إلاّ حلواً لم يلزمْ أن لا يكون رُمّاناً إلاّ حُلْوٌ، وكذلك إذا لم نَرَ جسماً مقارناً لحادثٍ إلاّ وقد كان عندنا متقدّماً له مقارناً لحادثٍ غيره فلم يكنْ جسماً لأنّه كذلك، ولا ذلك حدّه بل حدُّه أنْ يكونَ طويلاً عريضاً عميقاً، فلمّا لم يكنْ جسماً لأنّه يسبقُ الحوادثَ فيوُجد مع غيرها لم يجبْ أن يكونَ ذلك حالَ كلِّ جسمٍ في كلّ وقتٍ، وهذا أيضاً

جوابُ قولهم: إذا لم يَرَوا أرْضاً إلاّ ومِن ورائها أرض ولا بيضةَ إلاّ من دجاجةٍ ولا دجاجةَ إلاّ من بيضة فكيف قضيتُم بخلافِ ما شاهدتُم، فيُقالُ: ليس حدُّ البيضة أنْ تكونَ من الدجاجةِ، ولا حدُّ الدجاجة أن تكونَ من البيضةِ وإنّما الدلائلُ قامتْ على حدثِها، فإنْ قالَ: ولِمَ زعمتُم أنّ الجواهرَ لا تخلو من أن تكونَ مجتمعةً أو متفرّقة، قِيلَ: هذا من أوائلِ العلوم التي تُعرف بالبديهة ولا يعترضُ عليها بالشبهِ، فإن قالَ: ما الدليل على المجتمع اجتماعاً به كان مجتمعاً وللمفترق افتراقاً دونَ أن يكون مفترقاً ومجتمعاً بنفسِه؟ قِيلَ: لو كان مجتمعاً بنفسه لما جاز وجودُه مفترقاً ما دام نفسه موجودة، وكذلك المفترق فدلَّ أنّ المجتمعَ مجتمع باجتماع وكذلك الافتراق، فإن قيلَ وما الدليل على الاجتماع والافتراق مُحدَثان؟ قِيلَ: الدليلُ على ذلك أنّا نقصدُ الجسمَ المجتمعَ مفترقاً فيوُجد فيه افتراقٌ فلا يخلو ذلكَ الافتراقُ من أن كان موجوداً فيه قبلَ ذلك، أو لم يكن فحدثَ، فإن كان موجوداً فيه فقدْ كان مجتمعاً مفترقاً وهذا محال، فثبتَ أنّه حدثَ عند الافتراقِ وبطلَ أنْ يكونَ الاجتماعُ والافتراقُ كامنين في الجسمِ، فإن قالَ: ما أنكرتم أن تكونَ الاجتماعاتِ والافتراقاتِ لا نهايةَ لها وأنّه لا اجتماعَ إلاّ وقبلَه اجتماعٌ ولا افتراقَ إلاّ وقبلَه افتراقٌ، قِيلَ: هذا فاسدٌ لأنّه لو كان كذلك لما جازَ أن يوجَد واحدٌ منهما؛ كما أنّ قاصداً لو قصدَ إلى جماعة فقالَ: لا يدخُلنّ هذا البيتَ أحدٌ منكم حتى يدخلَه قبلَه آخرُ ما جاز أن يوجدَ واحدٌ منهم في ذلك البيتِ، ولو وجد كان في ذلك انتقاضُ الشرطِ، فإنْ قِيلَ: فما تنكرون أنْ يكونَ الاجتماعُ والإفتراقُ خمسين، قِيلَ: لو كانا كذلك لم يخلُ من أن يكونا مجتمَعيْن أو مفترقَيْن باجتماعٍ وافتراقٍ، هما هما أو غيرهما، فإنّ كانا مجتمعين باجتماعٍ هو هما استحالَ وجودُ الافتراقِ فيهما ما دامتْ أعيانهما قائمةً، وإن كانا مجتمعين باجتماع هو غيرهما احتاج ذلك الاجتماعُ إلى اجتماع إلى ما لا نهايةَ له ولا غايةَ، وكلُّ ما لا نهايةَ له ولا غايةَ فغيرُ جائزٍ وجود ما في الحال منه، وهذه مسألةٌ جاريةٌ منذُ قديمِ الزمانِ، ولقد رأيتُ أهلَ النظر يقحّمون أمرَها، ويرفعون من شأنها، ووجدتُها في عدّة كتبٍ بألفاظ مختلفةٍ فلم أجدْها أكملَ وأتمّ من قول أبي القاسم الكعبي[1] في كتابِ أوائل الأدلّة فانبتُّ بها على وجهها وقد ثبتَ حدثُ العالم كما ترى فيجبُ أن يُنظرَ أأحْدَثَ جملةً واحدةً وضربةً واحدةً أم شيئاً بعدَ شيءٍ لأنّ ذلك كلَّه مجوزٌ في العقلِ، فإن أوجد كما هو فابتداؤه حدوثهُ، وإن أوجد منه شيء بعد شيء فابتداؤه

---

(١) عبد الله به أحمد: معتزلي من الكبار تنسب إليه الكعبية من فرق المعتزلة، ولد وتوفي ببلخ (أفغانستان) له «المقالات» و«التفسير» (ت ٣١٩ هـ). «منجد الأعلام».

ما أوجد منه، وليس ذلك إلى العقل فيُعتمد ولكن سبيلهُ السمعُ والخبرُ، والناسُ مختلفون فيه: القدماء ومَنْ بعدهَم من أهلِ الكتاب والمسلمون وأنا ذاكرٌ من ذلك ما رُوي ومُرجّح ما وافق الحقّ إن شاء الله عزّ وجلّ.

[ابتداء الخلقِ]:

قرأتُ في كتابٍ منسوبٍ إلى رجل من القدماء يُقال له افلوطرخُس ذكرَ فيه اختلافَ مقالات الفلاسفة ووسمه بكتاب ما يرضاهُ الفلاسفةُ من الآراء الطبيعيّة، حُكي عن تاليس الملطي[1] أنّه كان يرى مبدأ الموجودات الماء منه بدأ وإليه ينحلُّ، وإنّما دعاه إلى توهّم هذا الرأي أنّه وجَدَ جميعَ الحيوان من الجوهر الرّطْب الذي هو المنيّ، فأوجب أن يكونَ مبدأ جميعِ الأشياءِ من الرطوبةِ، ومتى ما عُدِمَت الرطوبةُ جفّتْ وبطُلتْ، وحُكي أنّ فيثاغورس[2] من أهلِ شاميا[3] وهو أوّلُ ما سمّى الفلسفةَ بهذا الإسمِ، وتاليس أوّلُ مَنْ ابتدأ الفلسفةَ: أنّه كان يرى المبادىء هي الأعداد المتعادلاتُ، وكان يسمّيها تأليفاتٍ وهندسيّاتٍ، ويسمّي من جملةِ ذلك اسطقساتٍ، ويقولُ الواحدةُ والثانيةُ لا حدَّ لهما في المبادىء، ويرى أنّ أحدَ هذه المبادىء: هي العلّة الفاعلةُ الخاصّةُ، وهي الله عزّ وجلّ، والثاني: العقلُ، والثالثُ العنصرُ وهو الجوهر القابلُ للانتقالِ وعنه كان العالمُ المدركُ بحسّ البصرِ، وأنّ طبيعةَ العددِ تنتهي إلى العشرةِ، وإذا بلغَها رجع إلى الواحدِ، وأنّ العشرةَ بالقوّة في الأربعةِ وذلك إذا اجتمَعتِ الأعدادُ من الواحد إلى الأربعةِ استكملتْ عددَ العشرةِ؛ وقد ذكرَ ابنُ رزام هذا الفصلَ في كتاب النقض على الباطنيّة[4]، قال افلوطرخس وكذلك كان الفيثافوريون يقولون في الأربعة قسماً عظيماً، ويأتون في ذلك بشهادةِ الشِعْر إذْ يقولون: لا وحقّ الرباعية التي تدبرُ أنفسنا التي هي أصلٌ لكلّ طبيعة التي تسيل دائماً؛ كذلك النفسُ التي فينا مركّبة من أربعة أشياء:

---

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد، فقيه شافعي، متكلم جدلي، وله مشاركة في القراءات، أصله من ملطيّة، نزل بعسقلان حيث توفي فيها حوالى (٣٧٧ هـ) له «التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع». «منجد الأعلام».

(٢) فيلسوف ورياض يوناني، تفرّغ لدرس الحكمة وعاش مع أتباعه حياة مشتركة في الزّهد، قال: بتناسخ الأرواح وبقيام حركة الكون على الأرقام (عاش في القرن السادس قبل الميلاد). «منجد الأعلام».

(٣) شاميا: وردت في معجم البلدان (شانيا): رستاق من نواحي الكوفة من طوج سوراً من السيب الأعلى، «معجم البلدان ٣/ ٣٥٧».

(٤) الباطنية: لقب يعود لحكم أصحابه بأنّ لكل ظاهرٍ باطناً ولكلِّ تنزيلٍ تأويلاً، ولهم ألقابٌ كثيرة «المزدكية، القرامطة، الملحدة، الإسماعيلية...»، «الملل والنّحل».

وهي العقلُ والعلمُ والرأيُ والحواسُّ، ومنها تكون كلُّ صناعةٍ وكلُّ مِهْنَة، وبها كنّا نحسُ أنفسَنا، فالعقلُ: هو الواحدة وذلك أنّ العقلَ إنّما يجري وحدَه، وأمّا الثانيةُ التي ليستْ بمحمودة: فالعلم وذلك أنّ كلّ برهانٍ وكلَّ اقناع فمنه، وأمّا الثالثة: فالرأيُ لأنّ الرأيَ لجماعةٍ، والرابعة: الحواسُّ؛ وحُكي عن برافليطس[1] أنّه كان يرى مبدأ كلِّ شيء النارَ، وإليها انتهاؤُها، وإذا انطفأتِ النارُ يشكّلُ به العالمُ، وأوّلُ ذلك: أنّ الغليظَ منه إذا تكاثفَ واجتمعَ بعضُه إلى بعضٍ صار أرضاً، وإذا تحلّلت الأرضُ وتفرّقتْ أجزاؤها بالنارُ صارتْ ماءً، والنارُ تحلّل الأجسامَ وتثيرها؛ وحُكي عن انغماسُ أنّه كان يرى الهواءَ أوّلَ الموجوداتِ منه كانَ الكلُّ وإليه تنحلُّ الموجوداتُ مثلُ النَفْسِ التي فينا، وأنّ الهواءُ هو الذي يحفظُ فينا، الروحُ والهواءُ يُمسكان العالم كلّه، والروحُ والهواءُ يقالان جميعاً لأنّ على معنى واحد قولاً متواطئاً؛ وحُكي عن فيثاغورس أنّه كان يرى أنّ مبدأ الموجوداتِ هو المتشابهُ الأجزاءُ وأنّ الكائناتِ تكونُ بالغذاء الذي تغتذى به، ومن هذه الكائناتِ يكونُ معنى المتشابه الأجزاء، وعندَه أنّ الأشياء تدركُ بالعقلِ لا بالحسّ وهي أجزاء الغذاءِ، وإنّما سُمّيتْ متشابهُ الأجزاءِ من أجلِ أنّ هذه الأعضاءَ المكوّنةَ من الغذاءِ متشابهةٌ بعضها يشبهُ بعضاً فسمّيت متشابهةُ الأجزاءِ، وجعلها مبادىء الموجوداتِ، وصيّر المتشابهَ الأجزاء عنصراً؛ وحُكي عن ارسلاوس أنّه يرى مبدأ العالم ما لا نهايةَ له، وقد يعترضُ فيه التكاثفُ والتخلخل، فمنه ما يصيرُ ماءً ومنه يصير ناراً؛ وحُكي عن أبيقورس[2] أنّه كان يرى الموجوداتِ أجساماً مدركةً عقولاً لا خلاءَ فيها ولا كونَ، سرمديَّةً غيرَ فاسدةٍ لا تحتمل التكسُّر والتهشّم، ولا يعترضُ في أجزائها خلافٌ ولا استحالةٌ، وهي مدركةٌ بالعقل لا بالحواسِّ، وهي لا تتجزّأ، وليس معنى قوله لا تتجزّأ أنّها في غاية الصغر لكن لا تقبلُ الانفعالَ والاستحالة؛ وحُكي عن انبادقليس[3] أنّه لا يرى الاسطقسات الأربع التي هي: الماء والنارُ والهواءُ والأرضُ، وأنّ المبدأَ مبدآن، وهما: المحبّةُ والغلبةُ، واحدهما يفعلُ الإتحاد، والآخرُ يفعلُ التفرقةَ؛ وحُكي عن سُقراط بن سقريقس[4] وأفلاطون بن آرسطو

---

(١) هو فيلسوف يوناني، «انظر الموسوعة الفلسفية».

(٢) خالف الأوائل في الأوائل، قال: المبادىء إثنان: الخلاء والصورة، من الصورة أُبدعت الموجودات وكلّ ما كوّن منها ينحلّ إليها، فمنها المبدأ وإليها المعاد. «الملل والنحَل».

(٣) عاش في زمن داود، واقتبس من لقمان الحكمة، وعاد إلى اليونان وقال: إنّ الباريء تعالى لم تزلْ هويته فقط وهو العلم المحض. «منجد الأعلام».

(٤) فيلسوف يوناني، ولد في أثينا، أحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره، جعل محور الفلسفة معرفة =

الإلاهيّ أنّهما يريان المبادىءَ ثلاثةً: اللهَ والعنصرَ والصورةَ؛ زعم المفسّرون أنّ معنى قولِهم الله: هو العقلُ العالمُ، ومعنى العنصر: هو الموضوعُ الأوّلُ للكونِ والفسادِ، ومعنى الصورة: جوهرٌ لا جسم في التخييلات؛ وحُكي عن ارسطاطاليس بن تيوماجس صاحبِ المنطق أنّه يرى المبادىءَ: الصورةَ والعنصرَ والعدمَ والاسطقساتِ الأربعَ وجسماً خامساً هو الأمرُ غيرُ المستحيلِ؛ وحُكي عن دنوهرماوس أنّه يرى المبادىءَ هي: اللهُ تعالى وهي العلّةُ الفاعلةُ والعنصرُ المنفعلُ والاسطقساتُ الأربعُ، فهذا جملةُ ما حكاهُ افلوطرخس من أقاويل الفلاسفة في المبادىء؛ وزعم أيوب الرهاوي في كتاب التفسير أنّ المبادىء هي العناصرُ المفردةُ يعني الحرَّ والبردَ والبلّةَ واليُبْسَ فكُوِّنت النارُ من تركيبِ الحرّ مع اليبسِ، وكُوِّن الهواء من تركيبِ البردِ مع البلّة، وكُوِّن الماءُ من تركيب البرد مع البلّة، وكُوِّنت الأرض من تركيبِ البرد مع اليبس، فصارت هذه العناصر المركبّة، ثم كُوِّن من تركيبِ هذه العناصر المركّبة الحيوانُ والنباتُ.

[حكايات أهل الإسلام في المبادىء]:

حكى زُرقان[1] في كتاب المقالاتِ إنّ أرسطاطاليس قالَ بهيولي قديم وقوة معه لم يزلْ وجوهرٍ قابلٍ للأعراض، وأنّ الهيولي حرّك القوّةَ فحدثَ البردُ، ثم حرّكها فحدثَ الحرُّ ثم قبلهما الجوهر، قال: وشبّه إحداثَ الهيولي الحركة بإحداث الإنسان الفعل بعد أن كان غيرَ فاعلٍ له، والفعلُ عَرَض وهو غيرُ الإنسانِ، فكذلك الهيولي أحدثَ أعراضاً هي غيرُه، ولا يقال: كيفَ أحدثها؟ كما لا يُقالُ: كيفَ حدثتْ هذه الحركة من الإنسان؟؛ وحُكي عن جالينوس[2] أنّه قال: بأربعِ طبائع لم ينفكّ العالمُ منها قال: وقال سائرُ الفلاسفة: بأربع طبائع وخامسٍ معها خلافِها لولا هو لما كان للطبائع ائتلافٌ على تضادّها، قال: وقال هرمس[3]: بمثل مقالة هؤلاء فأثبتَ العالمَ ساكناً ثم تحرّك، والحركةُ معنىً وهو زوالٌ

= الإنسان نفسه، أسس علم الأخلاق، حارب السفسطة وانتقد الحكم (ت ٣٩٩ ق.م.). «منجد الأعلام».

(١) محمّد بن شدّاد، متكلم معتزلي، آخرُ من حدّث عن يحيى بن سعيد القطّان، وروى عنه الحسين بن صفوان والشافعيّ قال الشافعي: توفي سنة ثمانٍ وسبعين ومئتين. «سير أعلام النبلاء ١٣/١٤٨».

(٢) طبيب يوناني، له اكتشافات خطيرة في التشريح، من أكبر مراجع أطباء العرب. (ت ٢٠١ هـ). «منجد الأعلام».

(٣) يُقال إنّه إدريس النبي، وهو الذي وضع أسامى البروج والكواكب السيّارة ورتبها في بيوتها. «الملل=

وانتقالٌ، والسكونُ ليسَ بفعلٍ، قال: وقال بلعم بن باعوراء: العالمُ قديمٌ وله مدبّرٌ يدبّرُه وهو خلافُه من جميع المعاني، وأثبت الحركاتِ فقال: إنّ الحركةَ الأُولى هي الثانية معاودةٌ لأنّ من قولِه أنّ الحركةَ مع أصل العالم، والعالم قديمُ عندَه، قال: وقال أصحاب الاصطرلاب[1]: بمثل مقالةِ بلعم إلاّ أنّهم زعموا أنّ العالمَ لم يزلْ متحركاً بحركاتٍ لا نهاية لها وأنكروا أن تكونَ الحركة لها أوّلٌ وآخرٌ لأنّها ليستْ بمحدثةٍ، قال: وقال أصحابُ الجُثّة: إنّ العالم لم يزلْ مصوّراً قديماً جُثّةً مُصْمتةً فانقلعت الجُثّة وكان الخلقُ كامناً فيها، فظهرَ على نحوِ ما يظهر في النطفةِ والبيضةِ والنواةِ، قال: وقال أصحاب الجوهرةِ إنّ العالمَ جوهرةٌ قديمة وأحاديّةُ الذاتِ وإنما اختلفتْ على قدر التقاء الجوهرة وحركاتِها، فإذا كانا جزءَيْن كان حرًّا وإذا كان ثلاثة أجزاء صارَ برداً، وإذا كانت أربعة صارتْ رطوبةً، وزعمَ أنّ حركةً قبلَ حركةٍ إلى ما لا نهاية وقد جمُع الناشيء مذاهب هؤلاءِ كلّهم بلفظةٍ واحدة فقال: هم أربع طبقات: فطبقةٌ قالتْ: بِقدَم الطينةِ وحَدَثِ الصّبغة، وطبقةٌ قالت: بحدثِ الطينةِ والصّبغة، وطبقةٌ شكّت فلم تدرِ أقديمةٌ هي أم حديثة؟ لتكافىء الأدلّة عندَها، وقد قالَ جالينوس: وما عليّ أنْ لم أدرِ أقديمة هي أم حديثة وما حاجتي إلى ذلك في صناعة للطبّ.

[مقالات الثنوية والحرّانية والمجوس في المبادىء[2]]:

أصلُ اعتقادِ هؤلاء في الجملةِ أنّ المبدأَ شيئّان اثنان: نورٌ وظلمةٌ، وأنّ النورَ كان في أعلى العُلْو وأنّ الظلمةَ كانتْ أسفلَ السُفْل، نوراً خالصاً وظلمةً خالصةً غيرَ مماسّين على مثالِ الظلّ والشمسِ فامتزجا فكان من امتزاجها هذا العالمُ بما فيه هذا الذي يجمعُ أصلَ عقائدهم، ثم اختلفوا بعدَ ذلك فزعم ابن ديصَان أنّ النورَ خالقُ الخير والظلمةَ خالقةُ الشرّ بعد قوله بأنّ النورَ حيٌّ حساسٌ والظلمةَ مواتٌ فكيف يصحُّ الفعلُ من المواتِ، ولما رأى من

= والنّحل».

(١) الاصطرلاب: الاسطرلاب آلة رصد قديمة لقياس مواقع الكواكب وساعات الليل والنهار وحل شتى القضايا الفلكية. (يونانية).

(٢) الحرّانية: وردت في الملل والنّحل باسم «الحرنانية» وهم جماعة من الصابئة، قالوا: إنّ الصانع معبود واحد وكثير، واحد في الذات، وكثير لأنّه يتكثر في الأشخاص في رأي العين. «الملل والنّحل».

فنونِ ما لحق المانويّة[1] والديصانيّة[2] من التناقضِ والفساد أحدثَ مذهباً زعم أنّ الكونين النوريّ والظلاميّ قديمان ومعهما شيء قديم ثالث لم يزلْ خلافها وخارجاً عن خارجهما وهو الذي حمل الكونين على المشابكةِ والامتزاج ولولا ذلك المُعدِّلُ بينهما لما كان من جوهرهما إلاّ التباينُ والتنافرُ، وزعم كنَّان أنّ أصلَ القديم ثلاثة أشياءٍ: الأرضُ والماءُ والنارُ غير أنّ المدبّرَ لها اثنان خيرٌ وشرٌّ.

وأمّا الحرّانيّة فمختلفٌ عندهم في الحكاية زعم أحمد ابن الطيّب[3] في رسالةٍ له يذكرُ فيها مذاهبَهم: أنّ القومَ مُجمعون على أنّ للعالم علّةً لم يزلْ، ويقولون: المدبّراتُ سبعٌ واثنا عشر، ويقولون في الهيولي والعدمِ والصورةِ والزمانِ والمكان والحركةِ والقوّةِ بقولِ أرسطاطاليس في كتاب سمع الكيان، وزعم زرقان أنّهم يقولون مثلَ قول المانويّة، وقال بعضهم: إنّ مذهبَ الحرّانيّة ناموسُ مذهبِ الفلاسفةِ وما لم يكنْ يجسرُ أحدٌ أنْ يُظهرُ خلافَهم.

وأمّا المجوسُ فأصنافُ كثيرةٌ ولهم هَوَسٌ[4] عظيمٌ وترّهات متجاوزة الحدّ والمقدارِ لا يكادُ يوقف عليها، فبعضهم يقول بقول الثنويّة، وبعضهم على مذهبِ الحرّانيّة، والخُرَّميّةُ جنسٌ منهم يتستّرون بالإسلامِ ويقولون مبدأ العالم نور وأنّه نسخ بعضهم فاستحال ظلمةً، وأمّا أهل الصين فعامّتهم الثنويّة إلى كثير ممّن يليهم من التُرك، وفيهم المعطّلةُ الذين يقولون بقدم الأعيانِ وأنّ العالم لا صانعَ له ولا مدبّرَ، والهنود أصناف كثيرة وتجمعهم البراهمة والسمنيّة والمعطّلة الأُخرى يقولون بالتوحيد غير أنّهم يُبطلون الرسالة، ومنهم البهادونية[5] يزعمون أنّ المبدأ ثلاثةُ إخوة: أحدهم بهادون فاحتال أخواه في المكر به فعثرتْ به دابّته فسقطَ ميتاً، فسلخا جلدَه وبسطاه على وجهِ العالم فصارَت من جلدته هذه الأرض ومن

---

(١) المانويّة: مذهب أسسه ماني، ويرى ماني أنّ العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: نور وظلمة أزليين لم يزالا ولن يزالا، قويين حساسين درّاكين، سميعين، بصيرين. «الملل والنّحل».

(٢) الديصانية: وهم أصحاب ديصان، أثبتوا أصلين: نوراً وظلاماً، فالنور يفعل الخير قصداً، والظلام يفعل الخير طبعاً. «الملل والنّحل».

(٣) فيلسوف عربي ولد في سرخس، قرأ على الكندي، وهو مؤلف مُكثر، فُقدت كلُّ كتبه توفي سجيناً في عهد المعتضد (ت ٨٩٩ هـ). «منجد الأعلام».

(٤) هَوَسٌ: الهَوَس: طرف من الجنون وخفّة العقل.

(٥) البهادونية: قالوا: إنّ بهادون كان ملكاً عظيماً أتانا في صورة إنسان، قتلاه أخواه وعملا في جلدته الأرض، ومن عظامه الجبال، ومن دمه البحار. «الملل والنّحل».

عظامه الجبالُ ومن دمائه الأوديةُ والأنهارُ ومن شَعْره الأشجارُ والنباتُ؛ هذا ما بلغنا من مذاهبِ سُكّان الأرض والقدماءِ في هذا الباب، وقد أشرنا إلى فسادِ مذهبهم ومذهب مَنْ يقول بقدم العالم أو شيء مع الله تعالى بما فيه كفاية وغُنية، وهذه الحكاياتُ كلّها إن لم يكن شيء منها زُمراً أو ألغازاً أو تمثيلاً أو روايةً عن كتاب من كتبِ الله عزّ وجلّ أو رسول من رُسلِ الله أو بوفاقِ ما جاء منهم أو بشهادةِ العقول قاطبةً فمردودةٌ غيرُ مقبولةٍ ومحمولةٌ على تمويه واضعِها وتزويرِ مبتدعها، وليس في كثرة التّرْداد والتكرارِ كثيرُ فائدةٍ ومتى مرّنْتَ نفسك على تحفّظِ مسألة إحداثِ العالم استغنيتَ عن كثرةِ الخوض في الفروع التي بُنِيَتْ على أصل القِدم لأنّه إذا وَهِى البناء وضعُف لم يَثْبُت فروعُه ولا قامتْ أركانه.

[مقالات أهل الكتاب في المبادىء]:

قرأتُ في كتاب موسومٍ بشرائعِ اليهود أنّ جماعةً من علمائهم نهَوْا عن التفحّص عن هذا الباب والشروع فيه، وزعموا أنّه لا ينبغي للإنسان أن يبحثَ عمّا يتعجّبُ منه ويخفى عليه، وزعمَ بعضهُم أنّ الشيء الذي خلقَه الله تعالى في الابتداء سبعةَ عشرَ شيئاً خلقَها الله بلا نُطقٍ ولا حركةٍ ولا فكرةٍ ولا زمانٍ ولا مكانٍ وهي المكانُ والزمانُ والريح والهواء والنار والماء والأرض والظلمة والنور والعرش والسموات ورُوح القدس والجنّة وجهنم وصُوَر جميع الخلائق والحكمة، قال: ومخلوقه ذو جهات ستّ وهو محصور بين هذه الجهات التي هي الأمام والخَلْف والعُلْو والسفل واليمين والشمال، وزعم بعضهم: أنّ أوّل ما خلقَ الله سبعةٌ وعشرون شيئاً فذكَر هذه السبعةَ عشرَ، وأضافَ إليها كلام موسى الذي سمعه وجميعَ ما رأتْه الأنبياءُ والمنُ والسلوى والغمامَ والعين التي ظهرتْ لبني إسرائيل والشياطينَ واللباسَ الذي ألبس آدم وحوّاء وكلامَ الجبّار الذي كلّم به بلعام[1] هكذا الحكاية عنهم، والمسطور في أوّل سِفرٍ من التوراة بالعبرانيّة: بريشت بارا ايلوهيم ابث هشومائم وابث هو اورس وهو اورس هو ننو ثوهم وحوشخ على هى تهوم[2] يقول: أوّل شيء خلقه السماء والأرض وكانتْ الأرضُ جزيرةً خاويةً مظلمةً على الغَمْر وريح الله يزفّ على وجه الأرض، كذا فسّره المفسّرون فلا أدري كيف خالفته الحكاية عنهم ضمن التوراة ولعلّ ما ذكروه في

---

(١) عرّاف أرسله ملك مؤاب ليلعن إسرائيل، لكنّ حمايته تحولت عن سيرها، ونجته فبارك ولم يلعن «التوراة». «منجد الأعلام».

(٢) ألفاظ عبرية.

بعض أسفارهم لأنّ التوراة مشتملة على عدّةِ كُتُبٍ من كتبِ الأنبياء واللهُ أعلمُ، وأمّا النصارى فدينهُم في هذا دينُ اليهود لأنّهم يقرأوون التوراة ويقرّون بما فيها، والصابئون[1] محرون في مذهبه فأكثرُ الناس على أنّ دينهم بينُ دينِ اليهود والنصارى، فإنّ كان كذلك فقولهُم قولهُم، وحكى زرقان أنّ الصابئين يقولون بالنور والظلمة على نحو ما يقوله المنانيّة واللهُ أعلم.

[قولُ أهل الإسلامَ في المبادىء]:

حدّثنا الحسنُ ابن هشام ببَلدٍ قالَ: حدّثني إبراهيم بن عبد الله العَبْسيّ حدّثنا وكيع عن الأعمش عن أبي طبيان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أوّلُ ما خلق الله من شيء القلمُ قال: اكتب فقالَ: أي ربّي وما أكتبُ قالَ: القَدَر فجرى القلمُ بما هو كائن من ذلك اليوم إلى يوم القيامةِ، قالَ: ثمّ خلقَ النونَ فدحا الأرضَ عليها، فارتفَع بخارُ الماء ففتقَ منه السمواتِ فاضطربت النونُ فمارتِ الأرضُ فأثبتت بالجبال؛ وإنّ الجبالَ تنفجرُ على الأرض إلى يوم القيامةِ؛ وحدّثنا عبد الرحمن بن أحمد المروزيّ بمرو[2] حدّثنا السرّاجُ محمد بن إسحق حدّثنا قتيبة بن سعد حدّثنا خالدُ بن عبد الله بن عطاء عن أبي الضحا عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: أوّلُ شيء خلق الله تبارك وتعالى القلمُ فقال: له اكتب ما يكونُ إلى يوم القيامةِ، ثم خلق نونَ فكبسَ عليها الأرضَ، يقول الله تعالى: ﴿نون والقلم وما يسطرون﴾ [القلم: ١]؛ وحدّثني محمّد بن سَهْلٍ بإسوار[3] حدّثنا أبو بكر بن زيّان حدّثنا دعيه عيسى بن حمّاد عن اللَيْث بن سَعْد عن أبي هانىءٍ عن أبي عبد الرحمن البجلي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «كتبَ الله تقادِير كلّ شيء قبلَ أن خلقَ السمواتِ والأرض بخمسين ألف عام» وقد اختلفتِ الرواياتُ عن ابن عبّاس رضي الله عنه فوى عنه أوّل ما خلقَ الله القلم، وروى عنه سعيد بن جُبير أوّلُ ما خلقَ الله العرشُ والكرسيّ، وروي أوّلُ ما خلقَ اللهُ النورُ والظلمةُ، وروينا خلافَ ذلك كلّه عن الحسن أنّه قال: أوّلُ ما خلق من شيء العقلُ، ورُوي عنه أوّلُ ما خلقَ الله الأرواحُ، وفي رواية أبي الوليد عن أبي عوانه عن أبي بشرٍ عن مجاهد قال: بدءُ الخلق العرشُ والماءُ والهواءُ، وخُلقت الأرض من الماءِ؛ وحدّثني حاتم بن السنديّ بتكريت[4] حدّثنا أحمد بن منصور الرماديّ عن عبد الرزّاق عن معمر عن الزُهري

---

(١) الصابئون: اللذين يخرجون من دينٍ إلى دينٍ آخر.

(٢) مرو: مدينة في الاتحاد السوفياتي هي اليوم ماري، فتحها العرب سنة (٦٥١ هـ).

(٣) إسوار: الاسوارية: قرية من قرى أصبهان تشتهر بنهر الأسوارة «معجم البلدان ١/ ٢٢٦».

(٤) تكريت: مدينة في العراق على شاطىء دجلة الأيمن، مركز قضاء تكريت (محافظة بغداد). «منجد=

عن عُروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلقتِ الملائكةُ من نورٍ وخُلق الجانُّ من مَارجٍ من نار وخُلق آدمُ كما وصف لكم» وأمّا حديثُ حماد بن سلمة عن يعْلى بن عطا عن وكيع بن حُرس، عن عمّه أبي رَزين العُقيلي أنّه قال: قلتُ يا رسول الله أين كان ربّنا قبل أنْ خلق السموات والأرض؟ قال: «كان في عماءٍ[1] ما تحتهُ هواء ولا فوقَه هواء، ثم خلقَ عرشه على الماء»؛ فإنه إنْ صحّ، وصحّ تأويلُ من تأوّل العماء السّحاب والغمام دلّ أنّ خلقَ الغمام المذكور في الخبر والقرآنِ كان قبلُ خلقِ السمواتِ والأرض.

وقد رُوي أنّ النبي ﷺ قال: «كتب الله كتاباً قبل أنْ يخلقَ الخلقَ بألفَيْ عام ووضعَه على العرشِ» فإن صحّت الروايةُ دلّ أنّ خلقَ العرشِ كان قبل سائر الخلق، وفي كتاب أبي حُذَيْفة عن جبير عن الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ الله لما أرادَ أن يخلقَ الماءَ خلقَ من النورِ ياقوتةً خضراءَ ووصفَ في طولها وعرضِها وسمكها ما اللهُ به عليمٌ، قال: فلحظها الجبّارُ لحظةً فصارتْ ماءً يترقرقُ لا يثبت في ضحضاحٍ[2] ولا غيرِ ضحضاحٍ يرتعدُ من مخافةُ الله، ثم خلقَ الريحَ فوضعَ الماء على متنِ الريحِ، ثم خلقَ العرشَ فوضعَه على متن الماءِ فذلك قوله تعالى: ﴿**وكان عرشه على الماء**﴾ [هود: ٧] ورَوى عبد الرزّاق عن معمر عن الأعمش عن ابن حُبير قال: سألتُ ابن عبّاس رضي الله عنه عن قوله تعالى: على متنِ الريح، فإن صحّت الروايةُ عن الضحّاك دلّ أنّ النونَ قبل خلقِ الماءِ، وأمّا محمّد بن إسحق فإنّه يقول في كتابه وهو أوّلُ كتاب عُمِلَ في بدءِ الخلق لقول الله تعالى: ﴿**وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستّة أيّامٍ وكانَ عرشُه على الماء**﴾ [هود: ٧] فكان كما وصفَ نفسَه تبارك وتعالى إذْ ليس إلاّ الماء عليه العرشُ ذو الجلالِ والإكرام والعزّةِ والسلطانِ فكانَ أوّلُ ما خلقَ النور والظلمة ميّز بينهما، فجعل الظلمةَ ليلاً أَسْوَدَ مظلماً، وجعل النورَ نهاراً مُضيئاً مبصراً، ثم سمكَ السمواتِ السبعَ من دخانِ الماءِ حتّى استقلّلْنَ، ثم دحا الأرضَ وأرساها بالجبالِ، وقدّر فيها الأقواتَ، ثم استوى إلى السماءِ وهي دخانٌ؛ لا يختلفَ أحدٌ من المسلمين ومَنْ يدين الله بالكتابِ والرسالةِ أنّ ما دونَ اللهِ تعالى مخلوقٌ مُحدَثٌ وإن لم يذكرْ خلقَه وإحداثَه وإنّما مُرادُنا أن نعرفَ أوّلُ ما خلقَ الله منه إن كان ذلك ممكناً منه، اختلف الرُّواة عن وهب بن منبّه وغيره من منى أهلِ الكتاب فروى عن عبد الله بن سلام أنّه قالَ:

= الأعلام».

(١) العَماء: السَّحاب المرتفع.

(٢) الضحضاح: الماء اليسير أو القريب القعر.

خلقَ اللهُ نوراً، وخلقَ من ذلك النورِ ظلمةً، وخلق من تلكَ الظلمةِ نوراً، وخلق من ذلك النورِ ماءً يخلقُ من ذلك الماءِ الأشياءَ كلَّها؛ وعن وهب بن منبّه قال: وجدتُ فيما أنزلَ اللهُ على موسى بن عمران عليه السلام أنّ الله لمّا أرادَ خَلْقَ الخلقِ خلقَ الروحَ، ثم خلقَ من النورِ الماءَ، ثم خلقَ النارَ والريحَ، وكان عرشُه على الماءِ؛ وسمعتُ بعضَ الشيعة يزعمون أنّ أوّلَ ما خلقَ الله نورَ محمّد وعليّ، ويروون فيه روايةٌ والله أعلم بحقّها، وقد ذكرتْ حكماءُ العربِ ومن كان يدين الله منهم بدين الأنبياء في أشعارها وخطبِها: كيف كان مبدأُ الخلقِ فمنه قولُ عدي بن زيد العباديّ[1] وكان نصرانيًا يقرأ الكتبَ: [بسيط]

اسمعْ حديثاً لكي يوماً تجاوبُه ... عن ظهر غيب إذا ما سائلُ سألا
إن كيف أبدى إلٰهُ الخلق نعمتَه ... فينا وعرّفنا آياتِهِ الأولا
كانت رياحاً وماءاً ذا عُرانيةٍ ... وظلمةً لم يدع فتقاف ولا خللا
فأمر الظلمةَ السَوْداءَ فانكفشت ... وعزلَ الماء عمّا كان قد شغلا
وبسطَ الأرضَ بسطاً ثمّ قدّرها ... تحتَ السماء سواءاً مثل ما فعلا
وجعل الشمسَ مصيراً لا خفاء به ... بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستّة أيّام خلائقَه ... وكان آخرُ شيءٍ صوّر الرجُلا

وقد حكى الفُرسُ عن علماءِ دينهم وموبذيهم أوّلَ ما خلق الله السمواتُ والأرضُ ثم النباتُ ثم الإنسانُ.

[ترجيح أصوب المذاهب]:

أقول إنَّ رأيَ من رأى تقديم أحَدِ الأركان على غيره هو مُحتلّ واهٍ لأنّهم يختلفون في الاستحالة والفسادِ وكيفَ يصحُّ على رأْي تاليس الماءُ؟ وهو عندَه مستحيل في الأرضِ وعلى رأْي براقليطس النار وهي مستحيلة عنده من اهواء وكذلك سائر الأركانِ أم كيف يجوزُ عندّهم تولّد حيوانٍ أو تركّب نباتٍ من غيرِ اجتماع هذه الأخلاطِ الأربع فيها؟ لأنّ ما تفرّد بطبعٍ واحدٍ لا يوجد منه غيرُ حركتهِ الطبيعيّةِ، أو مَنْ زعم بابتداء البسائط ثم العناصرِ المركّبة فإنّه يفحش قوله لأنّ البسائطَ أعراضٌ ثم العناصرِ المركّبة فإنّه يفحش قوله لأنّ البسائطَ

---

(١) شاعر من شعراء الجاهلية، نشأ في الحيرة، وتولىّ الكتابة في ديوان ملك الفرس هرمز، يمتاز شعره بعمق الثقافة وبُعد النظر (ت ٥٨٧ هـ). «منجد الأعلام».

أعراضٌ لا تقوم بذواتها ولا بُدَّ لها من حاملٍ فكيف يصحُّ وجودُها بلا حامل؟ وكذلك مَنْ زعم النور والظلمة لأنهما عرضان لا جسمان، والأصحّ على مذهبِ هؤلاء ما رأى اثمادقليس من تقدّم الاسطقساتِ الأربعِ وفسادِ هذا ظاهرٌ عند المسلمين بأن الاسطقساتِ لا تخلو أن تكونَ أعراضاً فإن كانت أعراضاً فالعرضُ لا يقومُ بنفسه أو يكونُ لا أجساماً ولا أعراضاً فهذا غير معقول عند المسلمين إلاّ البارىء جلّ جلاله فأنّه خلافُ خلقه من جميع الوجودِ، وإذا لم تكن أجساماً ولا أعراضاً عندهم فلا بُدّ أن يكونَ هو الهيولي الموهومُ في مذهبِه، وهذا شيء لو كان موهوماً لما جاز وقوعُ الاختلاف فيه إلاّ مِنْ مُعاندٍ، كما لا يجوزُ وقوع الاختلافِ في المعقول إلاّ من معاندٍ مع أن الوهمَ لا يحصرُ ما لا حدّ له ولا صفةَ من لَوْن أو مقدار أو شيء من الأعراض لمحسوسةٍ، وجملة هذا القول في هذا الباب مراعاة أثر الحدث فيما سوى البارىء جلّ جلاله، فإذا ثبتَ ذلك عُلمَ أن ما كان مُحدثاً فلا بُدّ له من ابتداءٍ، وإذا كان لا يقول بحدثِ العالم إلاّ الموحّدون لم يوجد ابتداء ذلك إلاّ من جهتهم، وهم يختلفون في الرواية عن علمائهم في الظاهر ومتّفقون في المعنى إذا أنعموا النظر، فأمّا أهل الكتابِ وما حُكي عنهم فمحتمل غيرَ أنّه لا يجوزُ القطعُ به ما لم يصدّقه كتابنا أو خبرُ نبيّنا ﷺ لما وقع فيهم من التحريف والتبديلِ ولأنّه خلافُ ما ذُكر في أوّل التوراة في ابتداء الخلق، فالذي يوجبه العقلُ أن يكونَ مكانَ كلّ متمكّن سابق له وأنْ لا يحلُ حركة إلاّ في جسم ولا يوجد إلاّ في زمان وأنْ لا يصحّ فعلُ اختيار وتدبير إلاّ من حيّ عالم وأن لا يحدث شيء إلاّ من شيء، وأنّ الأركانَ الأربعَ سابقةٌ للأجسام فمَنْ قال: بقدم هذه المذكورات دخلَ في جملة المخالفين، ونقضتْ عليه آثارُ الحدث فيها ومذهبَه، ومَنْ قال: بحدثها فما حاجتُه إلى تقديم ما قدّم منها وقد أقرّ بأنّ اللهَ أحدثَ الزمانَ من غير زمانٍ والمكانَ في غير مكانٍ والأركانَ من غيرُ أركانٍ اللهمّ إلاّ أنْ يُعمدَ فيه شيئاً من كتبِ الله فليس يجدُ في كتاب أوّلِ ما خلق ما هو فيقضي على ما خالفَه بالردّ والإنكارِ، ولا بُدّ لكلّ حادثٍ من غايةٍ ينتهي إليها كقولنا الساعةُ من اليوم واليومُ من الأسبوعِ والأسبوعُ من الشهرِ والشهرُ من السنةِ والسنةُ من الزمان والزمانُ من الدهرِ فقد انتهى إلى الزمان والزمانُ غايته وكما نقولُ: فلانٌ من فلانٍ وفلانٌ من فلانٍ كما ترفع من نسبَ رسولِ الله ﷺ إلى آدم، ثم يُقالُ وآدم من ترابٍ، فالتراب آخرهُ، وكذلك سائرُ الأشياءِ الحادثة لا بُدّ لها من غاية هذا ما يعاينه ويشاهده فلذلك وضعنا ما روينا عن أهلِ الكتاب على وجه الاحتمال، فقد ذهب بعضُ أهلِ الإسلام إلى أنّ أوّلَ ما أُحدثُ الزمنُ العلويّ، وهو وقتُ يظهرُ فيه الفعلُ ليس السُفلي الذي هو من حركاتِ

الفلك ثم المكانُ اذي هو غيرُ متجزّىء ولا متماسك وهو فضاءٌ وبسيطٌ ذاهب خلاء مُحيطٌ بالعالم، قال: وليس الهواء من الفضاءِ في شيء لأنّ الهواء جسمٌ متجزّىء ومنتشرٌ، وليس الخلاءُ بمتجزّىءٍ ولا محسوسٍ، ومعنى قوله لتجزّىء أنّ الخلاء لا يدخلُ العالمَ منه شيء إلاّ يتحلّلله بتّةً، والهواءُ ما بين السماء والأرضِ ولا يخلو منه شيء، والخلاءُ ما فيه السماء والأرض والهواء ثم الأجسامُ بأعراضِها كذا رأيتُ في بعض كتبهِم واللهُ أعلم، فإذا سأل سائلٌ: عن ابتداء الخلق فجوابُه أنّ ما دونَ الله مخلوقٌ نِعْمَ سؤالك عن العالم العُلويّ أم العالم السُّفْليّ أم عن الآخرةِ الموعودةِ أم عن الدنيا الفانيةِ لأنّ كلّ شيء من هذه الأشياء ابتدأ منه ابتداءٌ ونشوٌ فإنْ قيل: هل غيرُ الدنيا والآخرة شيء؟ قِيلَ: العرشُ والكرسيُّ والملائكةُ واللوحُ والقلمُ وسدرةُ المنتهى مخلوقةٌ كلّها ولا تعدّ من الدنيا ولا من الآخرة، وكذلك الجنّةُ والنارُ والصراطُ والميزانُ والصُورُ والأعرافُ والرحمةُ والعذابُ مخلوقةٌ عندَ كثيرٍ من الأمّة، ثمّ مِنْ بعدهم من أهل الكتاب ولا يُعدّ من الدنيا ولا من الآخرة فإن قيل فقد قال الله تعالى: ﴿فللّه الآخرة والأولى﴾ [النجم: ٢٥] ولم يذكر شيئاً غيرَهما قِيلَ: ولِمَ يذكرُ الأشياء غيرهما؟ مع أكثر أهل التفسير يقولون: معناه لله الحكمُ في الآخرة والأُولى وقد قال رسول الله ﷺ «ما بعد الموتِ مستعتبٌ ولا بعد الدنيا إلاّ الجنّة والنار لأنّه لا شيء غيرهما» وإنّما يصحُّ هذا إذا عُرفت الدنيا والآخرةُ ما هما على أنّه لا عتب على من عدّ ما ذكرناه من أمرِ الآخرةِ ولا مضايقة فيه بعدَ أن اعتقدَها كما جاءتْ به كتبُ اللهِ وينبغي أن يعلم أنّ كلّما دونَ الدنيا روحانيّ حيوانيّ خُلق للبقاء والخلودِ على الأبدِ لا يجوز عليه الانحلالُ والدثورُ بقول الله تعالى: ﴿وإنَّ الدار الآخرة لهي الحيَوَان لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ذكرُ أول ما خُلق في العالم العلويّ من الحيوانات يدلّ على أنّ أوّلَ ما أوجدَه الله تعالى القلمُ واللوحُ على روايةِ أبي ظبيان عن ابن عبّاس ثم العرضُ والكرسيُّ على روايةِ مجاهدٍ، وقد قال قائلٌ: أنّ أوّلَ ما خُلق الروحُ والعقلُ على رواية الحسن لأنّ في رواية ابن عبّاس أنه قال للقلم: اكتبْ فقالَ: أي ربِّ وما أكتبُ والأمر في الحقيقةِ والجوابِ لا يصحّ إلاّ من حيّ عاقلٍ، قال: ثم الحجبُ ومنها الغُمام والنورُ والملائكةُ ثم الرحمةُ والعذابُ يعني الجنّة والنار والصراط والميزان وغير ذلك ممّا ذُكر، وأوّلُ ما خلق في العالم السفليّ من الحيوانات الماءُ والهواءُ كما قال مجاهد، وخُلقتِ الأرضُ من الماء فهذه أركانُ العالم ثم النور والظلمة ومن النا..ِ مَنْ يفرقُ بين النور العلوي والنور السفلي بأنّ هذا جسمٌ لطيفٌ وذلك روحٌ خالص مع اختلافِهم في الروح أجسمٌ هو أم غير جسم؟ وسيمرُّ بك في بابِه

مشروحاً مفسّراً إن شاء الله عزّ وجلّ، فإذا سأل سائلٌ: مِمَّ خُلق الخلقُ؟ قِيلَ: إنّ الخلقَ أجزاءٌ مختلفةٌ فعن أيّ جزء من أجزاء الخلقِ سؤالك؟ ولنْ يجابَ حتّى يشيرَ إلى ما أردنا فإن سألَ عن الأرضِ قِيلَ: من زبدِ الماء كما جاء في الحديث والخبرِ، وإن سألَ سائلٌ: عن السماء قِيلَ: من دخانِ الماءِ، وإنْ سألَ: عن الكواكبِ قِيلَ: من ضوء النهار، وإن سألَ: عن البسائط قِيلَ: يمكنُ أن يكون خُلقتْ ممّا خُلقَ قبلَها ويمكن أن يكون خلقتْ لا من شيء لأنّا نرى الله يخلقُ الشيء من الشيء، ويخلقُ من لا شيء، وقد دلّلنا على أن لا شيء غير الله تعالى إلاّ مخلوق، وإنّ اللهَ ابتدعَه بَدِئاً لا من شيء كما شاءَ ما لا حاجة إلى إعادة القول فيه بقول الله تعالى: ﴿بديع السموات والأرض﴾ [البقرة: ١١٧] وقال الله: ﴿خلق كلّ دابة من ماءٍ﴾ [النور: ٤٥] وقال الله: ﴿خلقكم من نفسٍ واحدة﴾ وقال: ﴿خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخار وخلق الجانّ من مارج من نار﴾ [النور: ١٤] مع سائر ما وصفْتُ أنه خلقَه من خلقٍ خَلَقه قبلَه وكذلك يفعلُ الشيء بسببٍ ويفعله بلا سببٍ موجب قال الله تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمراتِ رزقاً لكم﴾ [البقرة: ٢٢] فأخبر عزّ وجلّ جعلَ سببَ اخراجِ الثمر والنبات إنزالَ الماء، وكذلك جعلَ سبب كونِ الإنسانِ النطفةَ وسائر ما يوجده ويحدثه، وقد أوجد أُمّهاتِ هذه الأسبابِ بغير سببٍ موجبٍ لها بل بقدرتهِ وحكمتهِ وإن سألَ سائل فَيمَ خُلق؟ قيل فِيمَ سؤالٌ عن المكانِ ولا مكانِ إلاّ وهو مفتقر إلى مكان، وقد سبقت الدلالة على فساد الحلولِ بما ليستْ له نهاية، فلو قالَ القائل: إنّ العالم لا في مكان لكان قولاً لأنّه ليسَ بأعجب من ءقرارهِ بإيجاد الأعيان لا من غير سابقةٍ، وقد قِيلَ إنّه في خلاء وهو مكان له، وزعم آخرون: إن العالمَ بعضهِ مكانٌ لبعضٍ، وفي كتاب وهب بن منّبه أن السمواتِ والجنّةَ والنارَ والدنيا والآخرةَ والريحَ والنارَ كلّها في جوفِ الكرسيّ فإن صحّتِ الروايةُ كان الكرسيّ مكاناً لهذه الأشياء والله أعلم وأحكم.

وإنْ سألَ كيف خُلقَ؟ قِيلَ: كيفَ سؤالٌ يقتضي التشبيه في الجوابِ وليس نعلم للعالم مثلاً غيره فنشبّهه به ولكنّا مشاهدين له عندَ إحداثه ولا فعلَ الله تعالى بحركة ولا معالجة والكيفيّة منتفية عن فعله كما هي منتفية عنه سبحانه، فإن أردْتَ كيف أوجدَه من عدمٍ فكيف تراهُ أجساماً وجواهرَ حاملةً للأعراض، قال له: كن فكان كما أخبرنا عنه، وإن أردْتَ شكلاً وهيئةً لفعلِه فهذه من حالاتِ الأعراض التي تتعاقبُ على المخلوقين؛ فإن سأل سائل: متى خُلق؟ قِيلَ: متى سؤالٌ عن المُدّةِ والوقت من الزمانِ، والمدّةُ عندنا من حركاتِ الفلكِ ومَدَى ما بين الأفعالِ وقد قامتْ الدلالةُ على حدثِ الفلك ولا يُطلق المسلمون القول بأنّ الله

تعالى لم يزلْ يفعلُ لأنّ ذلك يوجبُ أزليّةَ الخلق، ويؤدّي إلى قول من يرى المعلولَ مع العلّةِ حتى يكونَ بين فعلٍ سابق له إلى أنّ فِعْل العالم مُدّةً، وقد زعمَ بعضُ الناسِ أنّه أحدثَ زماناً أوجدَ فيه العالمَ كمن قالَ: إنّه سأل سائلٌ لِمَ خلق؟ قيلَ لِمَ سؤالٌ عن العلّةِ الموجبة للفعلِ وفاعل ذلك مضطرٌ غيرُ مُختار، والمضطرٌ مقهور مغلوبٌ ولا يجوز ذلك في صفة القديمِ فإن أردّت بالعلّةِ الغرضَ المقصودَ في الخلقِ فهو ما ذكرناه في أوّلِ هذا الفصل، أنه خلق الخلقَ لرأفته ورحمتِه وجودهِ وقدرتِه لينفعَهم وليأكلوا من رزقِه وليتقلّبوا في نعمته ويستحقّوا شرفَ الثوابِ بطاعته.

الفصل السادس

في ذكر
اللوح والقلم والعرش والكرسي والملائكةِ والصُورِ والصِراط والميزان والحوض والأعراف والثواب والعقاب والحجب وسدرةِ المنتهى وسائر ما يرويه الموحّدون ممّا يُعدّ من أمورِ الآخرةِ واختلاف مَنْ اختلف فيها

ذكر اللوح والقلم قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿نّ والقلم وما يسطرون﴾ [القلم: ١] وقال: ﴿في كتاب مكنون لا يمسّه إلا المطهّرون﴾ [الواقعة: ٧٩] وقال: ﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يّس: ١٢] وقال: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال: ﴿في لوح محفوظ﴾ [البروج: ٢٢] قال أكثر المفسّرين: إنّه لوحٌ وقلمٌ خلقهما اللهُ كما شاء، وألهم القلمَ أن يجري بما أراد، وجعلَ اللوحَ واسطةً بينه وبين ملائكتِه، كما جعل الملائكةَ واسطةً بينه وبين رسُلِهِ، ورسلَه واسطةً بينه وبينَ خلقِه؛ وهذا لا يختلف فيه موحّدٌ، ولا يسوغُ الاختلاف فيه لظاهر النصّ من الكتاب والسُنّةِ فإن خطرَ خاطرٌ بأنّه أيّةُ فائدة في اللوح والقلمِ فليقل له: بأنّ أسرارَ حكمةِ الله عزّ وجلّ عن العباد محجوبةٌ إلاّ ما أطلعهم عليه وما طوى عنهم فليس إلا التصديق به والاستسلام له لقول الله عزّ وجلّ: ﴿يمحو الله ما يشاءُ ويثبت وعنده أمُّ الكتاب﴾ [الرعد: ٣٩] واعلم أنّ الكلامَ في هذا الفصلِ مع مَنْ يؤمن بالله وملائكتِه وكُتُبه ورُسُله لأنّ هذا سبيلهُ سبيلُ الخبر والسمع، والمسلمون وأهل الكتاب قاطبةً قد تلقّوه بالقبولِ، وقد قال قائلٌ: إنّ الله تباركَ وتعالَى لمّا أراد أنْ يخلقَ الخلقَ علِمَ ما هو كائن وما هو مكوّنه، فأجرى القلمَ به في اللوح، وروى فيه أخبار مسطّرة في كُتب أهل الحديث رضينا بما صحّ منها، واستسلمنا له، وجاء في ذلك القلم أنّ طولَه ما بين السماء والأرض وأنّه خلقُ من نور، وفي صفة اللوح أنّه لوحٌ محفوظٌ طولُه ما بين

السماء والأرض وعرضهُ ما بين المشرق والمغرب معقودُ بالعرش يصُكّ ما بين عينَيْ إسرافيل، وهو أقربُ الملائكة إلى العرشِ، فإذا أرادَ اللهُ تباركَ وتعالَى أن يحدثَ في خلقه شيئاً قرعَ اللوحَ جبهةَ إسرافيل فإطلع فيه فإذا فيه ما أراد اللهُ تعالَى بقول الله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمُّ الكتاب﴾ [الرعد: ٣٩] فيأمرُ به جبرائيل أو من يليه من الملائكةِ؛ وأكثرُ أهلِ الدين على أنّ الباريءَ لا يُسْمعَ كما أنّه لا يُلْمَس وإنّما يُسْمَع كلامُه كما يلمس خلقُه، هذا قولُ أهلِ الإسلامِ وقد ذهبَ قومٌ من المتسترين بالدين إلى تأويلاتٍ مكروهاتٍ مردوداتٍ، فزعم بعضُهم أنّ معنى القلمِ: العقلُ لأنّه دون الباريء جلّ وعزّ في الرتبة، وجرى بنفسِه لأنّ العقلَ يدركُ الأشياءَ بغيرِ واسطةٍ، قال: ومعنى اللوح المحفوظ: النفسُ لأنّه دونَ العقل في الرتبةِ يدبّرها العقلُ كما جرى القلمُ في اللوح المحفوظِ؛ وزعمَ أنْ القلمَ واللوحَ غيرُ محدَثين ولا مخلوقين، وقد دلّلنا على حَدَث العقلِ والنفسِ في الفصل الثاني بما يجري عليهما من الزيادة والنقصانِ والسهوِ والضعف والثقلة والتجزّي بتفرّق الهياكلِ والأجسام وحاجة العقلِ إلى التجربة والامتحانِ وحاجة النفسِ إلى الغذاءِ والقوامِ ما فيه كفاية وبلاغ وذلك أنّ القديمَ الباريءَ لا يجوزُ عليه شيء من هذه العوارضِ، وزعم آخرون أنّ اللوحَ هو العالمُ السُفليّ، والقلمُ العالمُ العُلويّ يؤثر في السفليّ، وبعضهمُ يزعمُ أنّ القلمَ هو الروحُ واللوحُ الجسدُ وأهْوَن الأمور إنكارُ اللوحِ والقلمِ وسائرِ ما وصف من أمرِ الآخرة والدخولِ في الإلحاد المحضِ حتّى يقعَ الكلامُ معهم من حيثُ ينبغي أن يقعَ لأنّ هذه الأشياءَ من شرائعِ الأنبياء عليهم السلام فكما لم يوجبْها العقلُ فكذلك لا يردُّ تأويلَها إلى العقلِ بل تسلّم كما جاءت؛ وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ الله تعالى خلقَ لوحاً محفوظاً من دُرّة بيضاءَ دفّتاهُ ياقوتةٌ حمراءُ، قلمه نورٌ، وكلامُه برٌّ ينظرُ الله فيه كلّ يومٍ ثلثمائة وستّين نظرة يُحيي بكلّ نظرةٍ ويُميتُ بكلّ نظرةٍ ويرفعُ ويضَعُ ويُعزّ ويُذلّ ويخلق ما يشاء ويحكمُ ما يريد، واللهُ أعلم وأحكم؛ وقد دلّلنا لك أنّ كلّ ما كان من أمر الآخرة فروحانيّ حيوانيّ وإن شارك جسمانيًا في الأسامي فمن ذلك قوله دُرّةٌ بيضاء وياقوتة حمراءُ.

ذكر العرش والكرسيّ وحملة العرش:

قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش﴾ [الزمر: ٧٥] وقال: ﴿ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾ [الحاقة: ١٧] فذكر العرش في غير موضع من كتابه وقال: ﴿وسع كرسيّه السموات والأرضُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلم يجزْ وقوعُ الاختلاف فيه بين المسلمين لظاهرِ شهادةِ الكتاب، وإنّما اختلفوا في التأويل فقال بعضهُم أنّ العرشَ

شبه السرير واستدلّوا على قولهم بقوله: ﴿أيّكم يأتيني بعرشها﴾ وبقوله: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ [يوسف: ١٠٠] وكثر من أهل التشبيه يذهبُ إلى أنّه كالسريرِ له وهو مذهبُ أهلِ الكتابِ ومَنْ كان من العرب بدينهم يدلّ عليه قولُ أُميّة بن أبي الصلت: [كامل]

فشدّ القطوع على المطايا ... رتبنا كلٌّ بنعماء الإله مقيّدُ
فاصحن وافترش الرحائل شَرْجَعٌ[1] ... نُفخ على اثباجهن[2] مؤكّد
بفْصوص ياقوتٍ وكظّ بعرشه ... هولٌ ونارٌ دونه تتوقّد
فعَلاَ طُوالات القوائم فَاستوى ... فوق الجلود ومن أراد مخلّدُ

وقال أيضاً: [خفيف]

مَجِّدُوا اللهَ وَهْوَ للمجْد أهْلُ ... ربُّنا في السماء أمْسَى كبيرا
ذلك المُنشيء الحجارة والمَوْ ... تَى وأحياهُمُ وكان جديرا
بالبناء الأعْلى الّذي سبق النا ... سَ وسوَّى فوق السماءِ سريرا
شرجعاً لا يناله بَصَرُ النا ... س ترى دون الملائك صُورا

وقال لبيد[3]: [كامل]

لله نافلة الأجلَ الأفضل ... وله العُلَى ولبيتِ كلّ مُؤَثَّلِ
سَوَّى فأغلق دون غرفة عرشه ... سبعاً طباقاً دون فَرْع المَعْقِلِ

وقال كثيرٌ من المسلمين أنّ العرشَ شيءٌ خلقَه اللهُ لمنتهى علم عبادهِ وتعبّد الملائكة بتعظيمهِ والطوافِ حَوْلَهُ ومسألتِهِ الحوائج عندَه، كما تعبد الناسُ بتعظيم الكعبةِ واستنجاح الحوائج لديها والصلاة له إليها لا أن يكونَ ذلك مكاناً له أو حاملاً جلّ وتباركَ البارىءُ أنْ يكون محمولاً أو محدوداً أو مُحاطاً؛ وبعضهم يقول العرشُ المُلْك ويتأوّل قولَه الرحمن على العرشِ استوى قال استولى على الملك واحتجّ بقول الشاعر: [طويل]

إذا ما بنومروانَ ثَلَّتْ[4] عُروشُهم ... وأوْدَتْ كما أوْدَتْ إياد وحِمْيرُ

---

(١) شرجع: الشرجع: النعش. «القاموس المحيط/ جـ ٣».
(٢) أثباجهنّ: الأثباج: جمع ثبج: وسط الشيء.
(٣) شاعر مخضرم من بني عامر، وهو من أصحاب المعلقات، اشتهر برثاء أخيه أربد، له معلقة وديوان مطبوع (ت ٦٦١ م). «منجد الأعلام».
(٤) ثَلّتْ: هُدمت أو ذهب عزّها.

وأما الكرسيّ فخلقٌ مثلُ العرشِ وقد رُوينا عن الحسن[1] أنّه قال الكرسيّ هو العرشُ وجاء في بعضِ الروايات أنّ الكرسيّ بين يدي العرشِ كدرّة بأرضٍ فلاةٍ، والسمواتُ السبعُ والأرضون السبعُ وما فيها بجنبِ الكرسي كحلقةٍ من حلق الدّرعِ في أرض فيحاء[2]؛ ومن المسلمين خَلْقٌ كثير يذهبون إلى أنّ الكرسيّ هو العِلْم واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿**وسع كرسيّه السموات والأرض**﴾ [البقرة: ٢٥٥] قالوا معناه أحاط علمُه بها وبما فيها والكراسي العلماء وانشدوا بيتاً: [طويل]

تَحفُّ بهم بيض الوجود وعُصبَةٌ كراسيّ بالأحداث حين تَنُوب

وقد روى أصحاب الحديث أنّ الكرسيّ موضع القَدَمين واللهُ أعلمُ بصدقه وتأويله إن صحّ لأنّ مذهبنَا تسليم ما قصُر عنه علمنا.

وأمّا حملة العرش الملائكة خُلِقوا لذلك فيُوصف من أقادرها وأجسامها ما الله به عليم قالوا: وهم اليومَ أربعةٌ وجهُ أحدهم على صورة وجه النّسر، والثاني كوجه الأسد، والثالث كوجه الثور، والرابع كوجه الرجُل فإذا كان يومَ القِيامة ضُمَّتْ إليهم أربعةٌ أُخرى بقول الله سبحانه: ﴿**ويحملُ عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانيةٌ**﴾ [الحاقة: ١٧] وفي رواية إسحق أنّ رسولَ الله ﷺ أنشد قوله أُميّة بن أبي الصلت: [كامل]

حبس السرافيل الصّوَافيّ تحته لا واهنٌ منهم ولا مُستوغِدُ[3]
رَجُلٌ وثورٌ تحت رِجْل يمينه والنسرُ للأخرس وليثٌ مرصدُ

فقال عليه السلام صدقَ هكذا الرواية واللهُ أعلمُ بصدقها، وقد يستدرج أهل الزيغ[4] الاغمار[5] من الأحداث بالأوّل والثاني والثالثُ والرابعِ، يعنون بالأوّل: القلم، وهو عندهم العقل، وبالثاني: اللوحُ وهو عندهم النفسُ، وبالثالثِ: العرش وهو عندهم الفلكُ المستقيمُ والضابط للأفلاكِ، وبالرابع: الكرسيّ وهو فلكَ البروج عندَ بعضهم لأنّ المنّجمين

---

(١) هو بِكرُ عليٍّ وفاطمة، بويع له بالخلافة بعد مقتل أبيه، فآثر عدم القتال وترك الخلافة (ت ٥٠ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) الفيحاء: فيخان: موضع في بلاد بني سعد، وقيل: واد كما ذكر الرّاعي. «معجم البلدان ٤/٣١٩».

(٣) مستوغِد: ضعيف أو دنيء.

(٤) الانحراف والضّلال.

(٥) الأغمار: جمع غُمْر: وهو الجاهل الذي لم يجرّب الأمور.

مختلفون في هذا التقسيم؛ والملائكة الّذين هم حملة العرشِ الأركان الأربع، وهذه الأشياء عندَهم لم يزلْ ولا يزالُ فكيف يصحّ الخبرُ عنها بالأوّل والثاني والثالث لأنّ كلّها أوائلُ عندَهم كما يزعمون، وما الفرق بينهم وبين من عارضهم من المشبّهةِ بأنّ العرشَ ممهّدٌ والكرسيّ مُسْتَقَرّ القدمَيْن مع وفاق ظاهر اللفْظِ لتأويلهم لبُعده عن تأويل الزائغين، لأنّا لم نجدْ شيئاً في كتب المنجّمين وأهل الطبائع بأنهم سمّوا العقلَ قلماً والنفسَ لوحاً والفلكَ عرشاً يعرفونها بأسمائها المشهورةِ عند سامعيها، ونعوذ باللهِ من الخزلانِ والحرمانِ وسوءِ الاختيارِ والعجزِ عن إتّباع الحقّ.

[الملائكة]:

روى المسلمون أنّ الملائكةَ خُلقت من نورٍ، وذكر ابن إسحق[1] أنّ أهلَ الكتاب يزعمون أنّ الله خلقَ الملائكةَ من نارٍ، والنارُ والنورُ واحدٌ في معنى اللطافة والضوءِ، ويمكن التوفيقُ بين الخبرَيْن بأنّ ملائكةَ الرحمة خُلقوا من نورٍ وملائكة العذابِ خُلقوا من نارٍ، ولا نعلم أحداً ممّن يدين الله بدينٍ إلاّ وهو مُقِرّ بالملائكةِ وإن كانوا مختلفين في قِدمها وحدوثها وهيئاتها فمنه قول أُميّة بن أبي الصلت: [كامل]

يتنــابــه المتنصّفــون بسُجــرةٍ[2]	في ألفِ ألفِ من ملائك يحشدُ
رُسُــلٌ يجــوبــون السمــاء بــأمــره	لا ينظــرون ثــواءَ مَــنْ يتقصّــدُ
فهُــمُ كــأوب الــريــح بينــا أدبــرَتْ	رجعت بوادي وجهها لا تكردُ[3]
حُــذّ منــاكبهــم علــى أكتــافهــم	زُفّ يــزفّ بهــم إذا مــا استنجــدوا
وإذا تــلاميــذ الإلــه تعــاونــوا	غلبــوا ونَشّطهــم جنــاحٌ مُعْتَــدُ
نهضــوا بــأجنحــة فلــم يتــواكلــوا	لا مُبطــيءٌ منهــم ولا مُسْتــوغِــدُ

واختلفَ المسلمون في عدم البصرِ والحواسّ لهم فمن قائلٍ: إنّ البصرَ يفقدُهم اللطافةِ أجسامِهم وأجزائهم لا لونَ لها، البصرُ لا يدركُ إلاّ ذا لونٍ، وكذلك قالوا: أليس نحسُّ بها وهي معنا حَفَظة علينا؟ والهواءُ أغلظُ وأكثفُ من الملائكة فإذا كنّا لا نُحِسّ به

---

(١) أبو بكر محمد، محدّث من أصحاب السيَر والمغازي، نشأ في المدينة، وتوفي في بغداد، من تصانيفه «السيرة النبوية» (ت ١٥١ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) السُجْرة: جمع سُجَر: الماء الذي يسجر أي يملأ النهر.

(٣) تكردُ: تطردُ

حادثاً من حركةٍ واضطرابٍ فكيف بالروحانيّين الذين هم ألطفُ وألطفُ، وقالوا فيما ناقضهم المخالفون به من صفة الله إيّاهم في كتابه بالغلظة والشدّة فقال: ﴿ملائكة غلاظ شداد﴾ [التحريم: ٦] وما جاء من عظمي صفاتهم وعُظم أجسامِهم وأن الملك كان يأتي النبيّ ﷺ وعلى آله في صورة الرجلِ وكذلك سائرُ الأنبياء أنّه غيرُ منكر أن يُحدثَ الله تعالى في الملك شيئاً ومعنىً يُرى ويُشاهَدُ إذا أرادَ ذلك، كما يحدث في الجوّ فيتركّب وينعقدُ غِمامٌ من أجزاء الهباء لا يدركها البصرُ، ثم ينحلُّ ويتفرّقُ حتى لا يُرى كما كان أوّلاً؛ وكذلك حال الجنّة والشياطين وسائرِ الروحانيّين من الخلقِ؛ وأيضاً فإنّ الملك سُمّي هذا الاسم لدُؤوبه في الطاعةِ وانقياده لِما يُراد منه تخصيصاً وتفضيلاً فغير بعيدٍ أنْ يكونَ الملائكةُ أصنافاً روحانيّا وجسمانيّا ونامياً وجامداً، وقد جاء في بعض الأخبارِ أنّ الرعدَ مَلَكٌ والنارُ ملكٌ والملائكةُ يسجدون جنودُ الله ورُسُلُه وسفراؤه وأولياؤه بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ولله جنودُ السموات والأرض﴾ [الفتح: ٤] وقيل: الجرادُ جندٌ من جنودِ الله، والنملُ جندٌ من جنودِ الله؛ ألا ترى أنّه لمّا بلغ معاويةَ إنّ الأشتر[1] قد أُمّر فسُقِي سمّا في سَويق[2] وعَسَل قال ما أبردَها على الفؤادِ إنّ لله جنوداً من عسلٍ، وقيل: الأرضُ ملكٌ، والسماءُ ملكٌ حتّى عدد أكثر أجسام العالم، واحتجّوا بقولِ الله عزّ وجلّ: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١] والقولُ هو الأوّل فإنْ كان جائزاً إطلاقُ اسم الملكِ على هذه الأشياء فيكونُ مجازاً لا حقيقةً.

[اختلاف الناس في الملائكة]:

أمّا المسلمون وأهلُ الكتاب فيقولون: هم خلقٌ روحانيّون كما ذكرناه آنفاً، وكان مشركوا العرب يزعمون أنّ الملائكةَ بناتُ الله وأنّه صاهَر الجنَّ فولدتْ له قال الله تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقَهم وجعلوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً﴾ [الزخرف: ١٩] وقالتْ الحرّانيّة: الملائكةُ النجومُ وهي المدبّراتُ للعالمِ، وهو أحدثُ الباطنيّة فزعمتْ أنّها سبعةٌ واثنا عشرة، وتأوّلتْ قولَه: ﴿عليها تسعة عشر﴾ [المدثر: ٣٠]

---

(١) مالك بن حارث النخعي، ملك العرب، أحد الأشراف والأبطال المذكورين، حدّث عن عُمرَ وخالد بن الوليد، وفقئت عينه في يوم اليرموك، كان ذا فصاحة وبلاغة، (سيرة أعلام النبلاء ٤/ ٣٤).

(٢) سَويق: خمر.

والخُرَّميّة[1] يُسمّون رُسُلَهُمْ الذين يتردّون فيما بينهم ملائكةً؛ وأمّا المجوسُ فلا يُنكرونَ الملائكةَ وأنّهم خلقٌ غائبٌ عنهم ويسمّونهم شتاسبندان في ملّتهم الإقرارُ بهم والتصديقُ؛ وزعم قومٌ أنَّ الملائكةَ هي النفوسُ الصافيةُ، وذلك أنّ الإنسانَ إذا بالغَ في الارتياض بمعرفةِ حقائقِ الأشياءِ، واجتهَد في اقتناء الفضائل واختيارِ المحامدِ اتّصلَ بالعالم العلويّ فصارَ عندَ مفارقةِ الهيكلِ عقلاً خالصاً ونفساً صافيةً فيسمّونه حينئذٍ المَلَكَ، قالوا: وأقصى الدرجاتِ في الأسفل النبوّةُ وهي تُنالُ بالعلمِ والعملِ، وفي الأعلى الملائكةُ وهي ينالها مَن نالَ النبوّةَ في الأسفلِ؛ وزعمت فرقةٌ: أنّ الملائكةَ أبعاضٌ من اللهِ وأجزاءٌ وعندَهم أنّه تباركَ وتعالى شيءٌ بسيط روحانيّ؛ وسمّاهم أُميّةُ في شعرهِ تلاميذَ اللهِ وأعوانَه؛ مع مقالاتٍ كثيرةٍ متباينةٍ وليس هذا البابُ ممّا يُدرك بالعقلِ ولكنّه يُعرَفُ فإذا كان هذا سبيله فلا معنى لردِّ ما سبيله الخبرُ إلى غيرِ الخبر.

[صفات الملائكة]:

روى ابنُ إسحق الواقديّ أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم قال: «ألاَ أُحدّثكُم عن مَلَك من ملائكةِ الله أذنَ لي ربّي في الحديثِ عنه، قالوا: بلى يا رسول اللهِ، قال: إنّ للهِ ملكاً قد نَفَذَ بقدمه الأرضَ السُفْلى، ثمّ خرجَ من هواءِ ما بين ذلك حتّى أنّ هامتَه لتحتِ العرش والذي نفسُ محمّد بيده لو سُخّرتْ الطيرُ فيما بين عُنُقِه إلى شحمةِ أُذنِه لحففتْ فيه سبعمائة عامٍ قبل أنْ يقطعَه» وروى ابن جُريح عن عكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال لجبرائيل: «إنّي أُحبُّ أنْ أراكَ في صورتِك الّتي تكونُ عليها في السماء» قال: لا تقوى على ذلك، قال: «بلى»، قال: فأينَ تُحبُّ أنْ أتخيّلَ لك؟ قالَ: في الأبطح[2]، قالَ: لا يسَعُني، قال: «بعرفات»[3] قالَ: ذلك بالحرَاي[4]، فواعده ذلكَ، وخرجَ النبيّ

---

(١) الخرّمية: بدعة نشأت في خُراسان، اشتد نفوذها بعد مقتل أبي مُسلم الخُراساني، وثار زعيمها بابك الخرّمي على الدولة العباسية، قضى عليها الأفشين في عهد المعتصم «الملل والنّحل».

(٢) الأبطح: الابطح: مكان يضاف إلى مكة وإلى منى، وهو أقرب إلى منى ويسمّى المحصّب «معجم البلدان ١/ ٩٥».

(٣) عَرفات: من مَناسك الحج، ينضر إليه الحجاج يلبّون ويحمدون ويقفون داعين بين يدي الله قبل عيد الأضحى بيوم، ومن ذا سمي هذا اليوم يوم الوقفة «منجد الأعلام».

(٤) الحَرَاي: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال منها فيه غار حرّاء مهبط الوحي كما ورد في «معجم البلدان ٢/ ٢٦٩».

صلّى الله عليه وعى آله وسلم للوقتِ فإذا هو بجبرائيل قد أقبلَ من جبالِ عرفاتَ، وقدْ ملأ بينَ المشرقِ والمغرب وسدّ الخافقين، رأسُه في السماء ورجلاه في الأرض، وله كذا ألفِ جناحٍ ينتثرُ منها التهاويل[1]، فلمّا رآه النبيّ ﷺ خرَّ مغشيًّا عليه، فتحوّلَ جبرائيل عن صورته إلى صورةِ التي كان يأتيه فيها، وهي صورةُ دِحْية الكلبيّ، وهو ابن خليفة بن فروة الكلبيّ، فضمّه إلى صدره، فلمّا أفاقَ قال: «ما ظننتُ أنّ لله تعالى خلقاً يشبهُك، قالَ: يا محمدُ فكيفَ لو رأيتَ إسرافيلَ رأسُه من تحتِ العرشِ ورجلاه في تخومِ الأرضِ السابعةِ، وأنّ العرشَ لعلى كاهلِه وأنّه ليتضالّ أحياناً من مخافةُ الله تعالى حتّى يصيرَ كالصعوةِ وما يحملُ عرشَ ربّك إلاّ عظمتُه.

وعن ابن مسعود[2] رضي الله عنه قال: إنَّ لله ملكاً البحارُ كلّها في نقرة إبهامِه، وعن كعب الأحبار[3] أنّه قال: إن لله ملكاً السمواتُ على منكبِهِ يدور بها كما تدورُ الرحا، وعن ابن مسعود رضي الله عنه في صفةِ ملائكةِ العذاب قال: ما منهم ملكٌ إلاّ ولو أمرَه اللهُ أن يلتقَم السمواتِ والأرضَ وما فيهما من شيء لهان ذلك عليه لما عظّمَ الله من أجسامِهم؛ وقد جاء في صفة ملائكة الرحمةِ وملائكةِ العذاب وصفةِ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملكِ الموت وغير هؤلاء من الملائكةِ ما يعتقدُ المؤمنُ الإيمانَ به والتسليمَ له، وجاء في صفة حملةِ العرش أنّهم ملائكةٌ قدرُ قَدَم أحدهم مسيرةُ سبعةِ ألف سنةٍ، ولهم قرونٌ كقرون الوعولِ، وقيل: العرش على كواهلهم، وقيل: على مناكبهم ناشيةٌ في العرش، والله أعلمُ وأحكمُ؛ وروى أبو حُذيفة عن مُقاتلٍ عن عَطَاء أنّ الله يبعثُ جبرائيل كلَّ يومٍ إلى جنةِ العدن فيغمسُ بجناحَيْه في نهرها ثمّ يجيءُ الله من كلِّ قطرةٍ ملكاً، قال: وما يقطرُ من السماءِ إلى الأرضِ قطرةً إلاّ ومعها مَلَكٌ ينزلُ إلى الأرضِ، ثم لا يعودُ إليها قالَ: وما في السموات موضعُ شبرٍ إلاّ وفيه مَلَكٌ قائمٌ أو ساجدٌ أو راكعٌ لم يرفعْ رأسَه منذ خُلِقَ فإذا كانَ يوم القيامةِ رفعَ رأسَه فيقولُ: سبحانَك ما عبدناك حقّ عبادتك قال: ولله ملكٌ موكّلٌ بالبحارِ فإذا وضعَ قدمَه في البحر مدّ وإذا رفعهَا جزرَ قالَ: والملائكةُ أربعةٌ جبرائيل ملكُ الرسالةِ، وإسرافيلُ

---

(١) التهاويل: جمع (تهويل): وهو الألوان المختلفة من الأحمر والأصفر والأخضر.

(٢) عبد الله بن مسعود، صحابي، هُذلي، خدم النبي مدة حياته، سادس من أسلم، وأول من جهر بالقرآن في مكة، أحد المُبشرين بالجنة، روى عن النبيّ (ت ٣٢ هـ). «منجد الأعلام».

(٣) أبو إسحق كعب بن مانع، من أقدم رواة الحديث، كان يهودياً يمنياً، فاعتنق الإسلام قدِم المدينة، ثم خرج إلى الشام وتوفي في حمص (٣٢ هـ). «منجد الأعلام»

ملكُ الصُورِ، وعزرائيلُ ملك الموتِ وميكائيلُ ملكُ الرزقِ.

ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قالَ: الرعدُ ملكٌ موكّل بالسّحاب يسوقهُ من بلدٍ إلى بلدٍ معه كذا من حديد كلّما خالفتْ سحابةٌ صاحَ بها، والبرقُ مصعه[1] السَّحاب به.

وروى ابن الأنباريّ[2] في كتاب الزاهر أنّ السّحابَ ملكٌ يتكلّمُ بأحسن الكلامِ ويبكي ويضحكُ، والرعدُ كلامهُ، والبرقُ ضحكهُ، والمطرُ بكاؤه، وعن كعب: لولا أنّ الله وكلّ بطعامِكم وشرابكم في نومكم ويقظتكم مَنْ يذبّ عنكم ليحفظكم بقول الله تعالى: **﴿له مُعَقّباتٌ من بين يدَيْه ومن خلْفه يحفظونه من أمر الله﴾** [الرعد: ١١] وروى هشام ابن عمّار بن عبد الرحيم بن مُطرف عن سعيد بن سَلَمة عن أبان عن أنس رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قالَ: «إنّ لله ملكاً له ألفُ رأس فـ يكلّ رأس ألفُ وجه في كلّ وجه ألفُ فم في كلّ فم ألفُ لسان يُسبّحُ الله ويُقدّسُه كلُّ لسانٍ بألفِ لغةٍ من التسبيح» فهذا وما أشبهه موقوفٌ على صحّة الخبرِ وصدقِ الراوي إذْ ليسَ يمتنعُ عن الباريء سبحانَه وتعالى شيء، وما عسى أن يقولَه قائلٌ، وهو مُصَدق بابتداع الله أعيانَ هذا العالمِ لا من عينٍ سابقةٍ، فمن لم يعجزْ عن هذا فليسَ عن أعجبَ منه بعاجزٍ، وإذا كانتْ أحوالُ الملائكةِ كما وصفنا من إطلاقِ اسمِ الملائكةِ على الجمادِ والمواتِ فغيرُ بديع ما حُكي عنهم وقدْ قِيلَ: الريح ملكٌ، وقيلَ: من نَفَسِ مَلَك؛ وأَذْكُرُ أنّي حاجّني رجلٌ من البهافريدية: وهم صنفٌ من المجوسِ أطلبُهم للخيرِ وآلفهُم عن الأذى في دفننا موتانا ما تعنينا بذلكَ فقالَ: إنّ الأرض مَلَكٌ وأنتم تلقمونه الموتى فكيفَ تستحسنون ذلك؟ وقد يرى بعضُ النّاس أنّ الشياطينَ كلُّ شرّيرٍ داعرٍ[3]، والملكَ كلُّ خيرٍ فاضلٍ، ومذهبُ الدنابير ما حيناه ووصفناه.

الملائكة أمكلّفون أم مجبورون:

وهم أفضلُ أم صالحو المسلمين، قالَ قومٌ: هم مضطّرون إلى أفعالِهم مجبورون عليها ورُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: في قوله: **﴿يُسبّحون الليلَ والنهار لا يفترونَ﴾**

(١) مصعُه: بَرْقُه.

(٢) أبو البركات عبد الرحمن، نحوي، لغوي، درّس في بغداد وله «أسرار العربية» (ت ١١٨١ م). «منجد الأعلام».

(٣) داعر: خبيث، مفسد.

[الأنبياء: ٢٠] إنّ التسبيح لهم بمنزلةِ النفسِ لنا، وقالُ آخرُ: هم مكلّفون مجبورون لأنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿ومَنْ يقُلْ منهم إنّي إلهٌ من دونهِ فذلك نَجْزِيه جهنّم﴾ [الأنبياء: ٢٩] ولا يصحّ الوعيدُ على غير المقدورِ عليه وقدْ قالَ: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً قالوا: أتجعلُ فيها مَنْ يفسدُ فيها ويسفكُ الدماء ونحن نسبّحُ بحمدكَ ونقدّسُ كل، قال: إنّي أعلمُ ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ٣٠] فدلّ هذا القولُ منهم على اختيارهم، وقال: ﴿لا يعصونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم: ٦] ولو لم يكونوا قادرينَ على المعصيةِ لما كان يمدحهُم بتركِ المعصيةِ، ومعنى قولَه يسبحون الليلَ والنهارَ لا يفترون مدحٌ لهم على المواظبةِ على الطاعةِ أو لا يقطعهُم عنها ما يقطعُ الناسَ من الحوائج والأشغالِ؛ وقول ابن عبّاس[1] رضي الله عنه إنّ التسبيحَ سهلٌ عليهم كالنفسِ في سُرعةِ المؤاتاة والمطاوعةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ من تسبيحهم ما هو اضطرارٌ ومنه ما هو اختيارٌ، فإنْ قيلَ: إذا كانتِ الطاعةُ منهم باختيارٍ فهل لهم على ذلك من ثواب؟ فمن قائلٍ: إنَّ ثوابَهم تقريبُ المنزلةِ ورفعُ الدرجةِ، وآخرُ: إنّه زيادةُ القوّةِ على الطّاعةِ وتجديدُ الجِدّ والنشاطِ في العبادةِ، وآخرٌ: إنّه اخدامُهم أهلَ الجنّةِ، وليس الثوابُ كلُّه المطعمُ والمشربُ لإنّهم ليسوا بذوي أجسامٍ مجوّفةٍ فيُلجئهم الحاجةُ إلى ما يحتاجُ إليه ذوو الأجسامِ المجوّفةِ، وقد قيل: إنّ ثوابَهم أنْ يستجيبَ دعاؤهم في الموحّدين وذلك قوله تعالى: ﴿الذين يحملونَ العرشَ ومَنْ حوله يسبّحونَ بحمدِ ربّهم ويؤمنون بهِ ويستغفرون للذين آمنوا ربّنا وسعتَ كلّ شيءٍ رحمةً وعلماً﴾ [غافر: ٧] الآيةَ فطاعتهُم مُذْ خُلقوا أنْ يستجابَ في الموحّدين، ولهم مسألةٌ وتضرّعٌ، وطاعتهم بَعدَ ذلك بشر وبعرفٍ، واختلفوا في الملائكةِ وصالحي المؤمنين: أيُّهم أفضل؟ فذهَب كثيرٌ من المسلمين إلى تفضيلِ الملائكةِ واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿قلْ لا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلمُ الغيبُ ولا أقولُ لكم إنيّ ملكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقوله تعالى فيما يحكى عن الشيطان: ﴿ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرةِ إلاّ أنْ تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ [الأعراف: ٢٠] وقول صواحبُ يوسفَ: وقوله تعالى ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ [يوسف: ٣١] ﴿لا يعصونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ [التحريم: ٦] وقوله تعالى: ﴿يسبّحون الليلَ والنهارَ لا يفترون﴾ [الأنبياء: ٢٠] وقوله: ﴿ولقد كرمنا بني آدمَ وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيباتِ وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلاً﴾ [الإسراء:

---

(١) عبد الله بن عباس ابن عمّ النبيّ، لقّب «حبر الأمة» كان سديد الرّأي، روى الكثير من حديث الرسول، كُفّ بصره في آخر عمره (ت ٦٨ هـ). «منجد الأعلام».

٧٠] فلما لم يقُلْ على مَنْ خلقنا علِمنا أنّ هاهنا مَنْ هو أفضلُ منهم، قالوا: هل يستوي حالُ مَنْ لا يعصي قطّ وحالُ من لا يتعرّى عن معصيته؟ وكيف بفضيلةِ عملِ مَنْ أقصى عُمرَه مائة سنة وفضيلة مَنْ عُمرُه الأبدُ؟ وذهب إلى أنّ صالحي المؤمنين أفضلُ لمكابدتهم مشقّة الطاعةِ مع منازعةِ الشهوةِ وممانعةِ الشيطانِ والعمل بالغيبِ خوفاً وطمعاً، وأنّى تقعُ طاعة من أُصْفِيَ عن شوائبِ الهوى وأُخلِصَ من مزاحمةِ الشهوة وأُمِدَّ بظلِّ العصمةِ وحُرِسَ من الوساوسِ من طاعةِ مجبولٍ على الهوى مطبوعَ على الشهواتِ موكّلٍ به أعداء من نفسهِ وجنسهِ وشيطانهِ، وإنّما يستحّقُ العمل تمامَ الفضيلةِ باحتمال الكدِّ والعناء والمشقّةِ فيه، قالوا: وليس يُنكر أنْ الملائكةَ أفضلُ من النّاس ومن كثيرٍ من أهلِ الإسلامِ حتّى تكرمنا ما تلاه خصمُنا من الآياتِ وإنّما تفضيلُنا فاضلي المؤمنين وصالحيهم وقد أسجدَهم الله لصفيّة آدمَ عام فهلاّ كان ذلك على سَبْقهِ بالفضيلة؟ وقالَ جلّ وعزّ: ﴿وإن تظاهرا عليه فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم: ٤] فقدّم صالحي المؤمنين بالذكرِ لفضيلتهم على كثيرٍ من الملائكةِ وليس في وجوب الإيمانِ بهم أكثرُ فضيلةً من وجوب الإيمان بالمؤمنين، قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿يؤمنُ بالله ويؤمنُ للمؤمنين﴾ [التوبة: ٦١] ثم هم مع ذلك خَوَلٌ[١] لبني آدم وحفظةٌ عليهم وقد رُوي في الحديث أنّ الملائكةَ سألوا الجنّةُ فقالَ الله سبحانَه لا أجعلُ صالحَ من خلقتُ بيديّ كمن قلتُ له كنْ فكان، ورُوينا عن كعبٍ أنّه قال: ركّب الله في الملائكة العقلَ بلا شهوةٍ وفي البهائمِ الشهوةَ بلا عقلٍ وفي ابن آدم كليهما فمَنْ غلبَ عقلُه شهوتَه فهو خيرٌ من الملائكةِ ومَنْ غلبَ شهوتُه عقلَه فهو شرٌّ من البهائمِ، واحتجّ بعضُ المتأخّرين بقول شاعر يمدحُ ابن موسى الرِّضا ويقال هي لأبي نواس[٢]: [خفيف]

قِيلَ لي أَنْتَ أَوْحَدُ النَّاس في كُلِّ مقالٍ من الكلام النَّبِيهِ
لك من جيّد الكلام نظامٌ ... يُجتَنَى الدُّرُّ من يَدَي مُجتَنِيهِ
فلماذا تركتَ مَدْحَ ابن موسى ... والخصالَ الّتي يجمعْنَ فيهِ
قُلْتُ لا أهتدي لمدحِ إمامٍ ... كان جبرائيلُ خادماً لأبِيهِ

---

(١) خَوَل: عبيد وإماء.
(٢) الحسن بن هانيء، من كبار شعراء العصر العباسي، لُقّب بشاعر الخمرة، تلقن الحديث عن كثير من العلماء جعله الأمين شاعره، عاقر الخمرة وأسرف في اللّهو ثم تاب في آخر أيّامه، له ديوان (ت ٨١٤ هـ). «منجد الأعلام».

[الحجـــب]:

إعلم أنّ الحجابَ لا يوجبُ حدًّا على الارسالِ لأنّ الله محجوبٌ عن خلقِه ولا يطلقُ القولُ بأنّه محدودٌ لأنّ الحجابَ يحتملُ وجوهاً من المعاني، وروى وهب بن أبي سلّام سألَ رسول الله ﷺ: هل احتجب اللهُ بشيء عن خلقه غيرِ السمواتِ؟ فقال: «نَعَمْ بينَه وبينَ الملائكةِ الذين هم حملةُ العرشِ سبعون حجاباً من نورٍ وسبعون حجاباً من نارٍ وسبعون حجاباً من ظلمةٍ حتّى عدّ خمسة عشرة» وفي حديث المعراجِ فانتهيتُ إلى بحرٍ من بحرٍ أخضر فنُودي أنْ أرخ محمّداً في النّور رجا، وذكر عدّةَ بحارٍ من أنوارٍ، ومن المسلمين مَنْ يستعظمُ القولَ بالحجابِ كيف وقدْ روى حمّادُ بن سلمة عن عمران الحرّاني عن زُرارة بن أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «يا جبرائيل هلْ رأيتَ ربَّك، قال: يا محمّدُ بيني وبينه سبعون حجاباً من نورٍ لو دَنَوْتُ من أدناها لاحترقتُ» وفي حديث أبي موسى الأشعريّ لو انكشفتْ سُبُحاتُ وجهه لاحترقَ ما عليها من شيء، ويسيرُ هذا كلّه ما روى عن الحسن أنّه قال: ليس شيءٌ أقربَ إلى الله تعالى من إسرافيل وبينَه وبينَ ربّ العزّة سَبْعُ حجبٍ من حجاب العزّة وحجاب الجبروت والعظمةِ، وليستْ ممّا يوجبُ الحدَ في الاحتجابِ لأنّها ليستْ بأجسامٍ حاملةٍ بين الحاجبِ والمحجوبِ ولكنّه يمتثلُ في بُعد ووقوعِ الحواسِّ وقطعِ الأطماعِ في الإحاطة به والاختصاصِ بالعظمة والسلطانِ دونَ خلقه، ومثلُ هذا أبلغُ عند العبّاد وتعظيم الباريء وتفخيم قدرهِ للرغبة إليه والرهبةِ منه إذ أكثرهُم يرون ما لا يُدركُه حواسُّهم، ولا يتصوّر في أوهامِهم باطلاق لا شيء، ويدلُّ على هذا التأويل ما روى في الخبر العظمةُ إزارى والكبرياءُ ركابى فمن نازعنيهما ألقَيْتُه في النارِ ولا أُبالي فهل يعرضُ لسامعٍ شكٌ في أنّ العظمَة لا يتّزر[1] بها والكبرياءُ لا يتردّى بها ولكنْ الوجهُ ما ذهبنا إليه واللهُ أعلمُ، وصفة الحُجب موجودةٌ في أشعارهم قال بعضهم: [طويل]

لك الحمدُ والنعماءُ والشكرُ رَبَّنا	فلا شيء أَعْلَى مِنْكَ حَدًّا وأَمْجَدُ
مليكٌ على عرضِ السماءِ مُهيمنٌ	لِعِـزّتـه تَعْنُـوا الـوجـوهُ وتسجُـدُ
فــلا بَشَــرٌ يسمــو إليــه بطَـرْفـه	ودُونَ حجاب النور خَلْقٌ مُؤَيَّدُ

(١) يتّزر: يأثم.

[سدرة المنتهى]:

وهي مذكورةٌ في كتابِ الله عزّ وجلّ روى أنها على هيئة شجرةٍ يمرّ الراكبُ في ظلّ فَنَنٍ منها سنةً قبل أنْ يقطعَها، ثمرها كالقلالِ؛ وورقُها كآذانِ الفيلةِ يأوي إليها أرواحُ الشُهداء والصِدِّيقين في صورة فراشٍ من ذهبٍ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿**عند سِدرةِ المنتهى عندها جنّة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى**﴾ [النجم: ١٦] وقد ذكرها حَسَّانُ[1] في شِعْره:

مقـــامٌ لـــدى سِـــدْرة المُنْتهـــى   لأحمـــدَ لاَ شَـــكَّ للمُـــرْتضـــى

وقوله تعالى عندَها جنّةُ المأوى يرُدُّ قولَ مَنْ يزعمُ أنَّ السدرةَ الشجرةُ التي كان النبيّ ﷺ تحتها بحراء إذ نزل عليه جبرائيل بالوحي اللّهمّ إلاّ أن يشبهه بقوله: إنّ منبري هذا نزعة من نُزعِ الجنّة، وقوله عام بين قبري ومنبري روضةٌ من رياض الجنّةِ فيكونُ مذهباً، وكذلك قولُ عام الجنّةُ تحتَ ظلالِ السيوفِ غير أنّ الأخذَ بالظاهرِ على القولِ الأوّلِ أعرفُ وأشهرُ والإخبار به أكثرُ، قالوا: وإنّما سُمّيت سِدرة المنتهى لأنّها منتهى علمِ العلماءِ، فلا يعلمُ أحدٌ من الملائكةِ والأنبياءِ ما وراءَها إلاّ اللهُ وحدَهُ وسمعتُ بعضَ القرامطة[2] يتأوّلها تعلم بحراء محمّد ﷺ ما علّمه وأفشاه السرّ إليه لما رأى فيه من الاماراتِ وتوسُّمه فيه فضَّ الله أفواهَهم وخيَّب آمالَهم.

[الجنة والنار]:

لا أعلم أحداً من أهلِ الأديان يُنكر الجزاءَ من الثوابِ والعقابِ وإنْ اختلفوا في صفتِهِ واسمِهِ ومكانِهِ ووقتِهِ لأنّ في إبطال الجزاء إبطالُ الأمرِ والنهي والوعدِ والوعيدِ وإجازةُ إهمالِ الخلقِ وارسالِهم، ويؤدّي ذلك إلى تسفيه اصانع وتجهيلِهِ أو الإلحادِ والتعطيلِ، وهذه المسألة مُعَلّقةٌ بأصل التوحيدِ وذلك أنَّه لمّا قامتِ الدّلالةُ على إثبات الباريء جلّ وعزّ وقدرتِهِ وحكمتِهِ لم يجزْ أنْ يكونَ شيء من أفعالِهِ غيرُ حكمةٍ وصوابٍ، فعلمنا أنّ الحكيمَ لم يخلقْ هذا الخلقَ عبثاً ولا لِعباً ولا سهواً، ولم يأمرهم ولم ينهَهم إلاّ للثوابِ الذي عرضهَم له

---

(١) حسان بن ثابت، شاعر مخضرم، أسلم وغدا من أنصار النبي، هجا القرشيين، ولقب «شاعر النبيّ» له ديوان مطبوع (ت ٦٧٤ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) القرامطة: حركة دينيّة سياسية، اجتماعية تنسب إلى داعيها الأول حمدان قرمط في العراق، سيطرت على كثير من البلاد الإسلامية، انتهى أمرهم على أيدي أمراء العيونيين في البحرين سنة (١٠٢٧ هـ) وقد كانت ذات نزعة اشتراكية. «منجد الأعلام».

والعقابِ الذي حذّرهم، وحاشى لله سبحانَه وتعالى على أن نظنّ به غيرَ الحقّ، فالجزاءُ يوجبَه مُوجبُ التوحيدِ وحجّتهُ حجته ثم لطباق أكثرِ أهلِ الأرضِ على الإقرارِ به من أعظمِ الحججِ إذا كانت العارضةُ يكشفها حجّةُ العقلِ واجتماعُ الخلقِ فأيُّ عذرٍ بعدَها لمتخلّف عنها أو مائلٍ إلى ضدّها؟ وإنْ أحسَّ من نفسهِ بنفرةٍ فأولى به أنْ يتّهمَ عقلَه دونَ عقلِ المؤمنين والأُممِ والأجيالِ، فإمّا القولُ في أينيّة الجزاءِ وماهيّته أجنّة ونارٌ أم غيرهما؟ فشيءٌ يتبعُ فيه الاخيارُ، ولو شاء اللهُ يجزىء بغيرهما كما شاءَ ولكن المعلومَ من الثوابِ النعمةُ والاغتباطُ، والمعلومَ من العقابِ المكروهُ والنكالُ، ولا نعمةَ أعظمُ من دوام البقاءِ ولا عقوبةَ أبلغُ من النّار التي هي آكلةُ الأضدادِ.

[اختلاف الناس في الجنة والنار]:

قرأتُ في شرائع الحرّانيّة أنّ البارىء عزّ وجلّ وعدَ مَنْ أطاعَ نعيماً لا يزولُ وأوعدَ من عصى العذابَ بقدرِ استحقاقِه، وهذا ناموسُ أكثرِ القدماءِ ومنهم مَنْ يزعمُ أنَّ النفسَ الشِرّيرةَ الّتي عاثت في هذا العالم وأفسدتْ وآذتْ إذا فارقتْ هيكلَها حُبست في الأثير وهي نارٌ في أعلى عُلوِ العالمِ، والنفسُ الخيّرةَ التي استفادتِ أفضائلَ تعودُ إلى عنصرِها الأزليّ؛ ومنهم مَنْ زعمَ أنّ الفاضلَ يعلو في العُلو والراذلَ يتسافلُ فيبقى في الظلمةِ والخمودِ، وقد قالَ أرسطاطاليس إنّ العُلُوَّ الأعلى محلُّ الخلودِ، وإنّ السفل الأسفلَ محلُّ الموتِ.

وعامةُ أهلِ الهندِ يُقرّونَ بالجزاء والذين يهلكون أنفسَهم بأنواعِ العذابِ من القتلِ والحرق والغرقِ يزعمون أنَّ جواريَ الجنّةِ يختطَفْنَه قبلَ زهوق نفسِه؛ وإنّما أثبتُّ هذا الأبيِّن لك إقرارَهم بالجنّةِ في كفرِهم وجهلِهم؛ وأهلُ الكتابِ مُجمعون على الإقرارِ به لأنّ ذكرَ الجنّةِ والنارِ في غيرِ موضعٍ من كتابِهم، إلاّ أنّهم مختلفون في صفاتِها بالجنّةِ فتسمّى بالعبرانيّة برديسا وبالعبريّة كنعاذن.

ويزعمُ طائفةٌ من اليهود أنّه إذا كانَ يومُ القيامةِ أظهرتْ جهنّمُ من وادي وأُحْرِثتْ[1] ناراً في الوادي ونُصِب عليه جسرٌ، وأُظهرتْ الجنّةُ من ناحيةِ بيتِ المَقْدِس وأُمرُ الخلقُ أن يسيروا عليه فمَنْ كان منهم بريئاً جرى مثلَ الريح، ومَنْ كان منهم آثماً تهافتَ في النار؛ وزعمت فرقةٌ منهم: أنّ الجنّةَ والنارَ يفنيان، وذلك بعد ألفَ سنة من وقت أن صارَ

(١) احرثت ناراً: حُركت النارُ بها.

الناسُ إليهما، ثمّ يصيرُ أهلُ الجنّةِ ملائكةً وأهلُ النارِ رميماً؛ وزعم آخرون: أنّهما لا يفنيان أبداً.

وأمّا المتناسخة وإنّهم يرَوْن الجزاءَ في النسخِ والمسخِ ويزعمون أنّ من استمرّ على طبعٍ من طباعِ السباعِ والبهائمِ حُوّلَ إلى صورته عقوبةً له، ومن تعاطى الحقَّ وكفَّ عن الأذى وتجمّل بالجميلِ حُوّل في صورةِ مَلَكٍ أو قائدٍ أو رئيسٍ، وهذا مذهبُ كثيرٍ من القدماء.

ومن المعطّلةِ مَنْ لا يُنكرُ الجزاءَ في الدنيا بالفقرِ والفاقةِ والآلامِ والأحزانِ ما ارتكبه من قبيحٍ، والسَّعَةَ في الدنيا والراحّةَ والفرحَ واللذّةَ جزاءَ ما عمله من جميلٍ، ويزعمُ السمنيّة من الهنود أنّ مَنْ كان قليلَ الخيرِ يصيرُ كاسفَ البالِ[1] رثَّ الهيئة يأتي لأبوابَ فلا يتصدّقُ عليه، ومَنْ كان كثيرُ الخيرِ يصيرُ مَلِكاً عظيماً عزيزاً، فمَنْ أطعمَ الطعامَ أصابَ القوّةَ لأنّ البدنَ تقوّى بالطعام، ومن كسا الثيابَ أصاب الجمالَ، ومن أوقدَ في الظُّلُم أصابَ حُسْنَ العيشِ لأنّ الصباحَ يَطْرُد الظلمات.

[اختلاف المسلمين في الجنة والنار]:

اعلمُ أنّهم فيها على ثلاث فِرَق: فزعمتِ المعتزلةُ إلاّ أبا الهُذَيْلِ وبشر بن المعتمر[2] أنّهما لم يُخلقا بعدُ وأنّهما يخلقان يومَ القيامة، وأجازَ النجّارُ أن يكونا خُلقتا وأن لم يخلقا بعدُ وأنهما يخلقان يومَ القيامةِ، وقال سائرُ المسلمين: أنّهما مخلوقتان مفروغٌ منهما، واحتجّوا بآي من القرن وأحاديثَ من السُنّة فمنها قِيل ادخل الجنّةَ قال: يا ليت قومي يعلمون وقوله تعالى: **﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون﴾** [آل عمران: ١٦٩] وقوله تعالى: **﴿وجنّة عرضَها السمواتُ والأرضُ أُعدّت للمتّقين﴾** [آل عمران: ١٣٣]، فهل يجوزُ أن يُعدّ غير مخلوقٍ، وجاء في الحديث أنّ الله خلق الجنّة كذا وكذا بصفات مضبوطة في الكتب، وقال: **﴿واتّقوا النارَ التي أُعدّت للكافرين﴾** [البقرة: ٢٤]، وقال: **﴿النارُ يعرُضون عليها غُدوًّا وعشيًّا﴾** [غافر: ٤٦] وقال: **﴿ويا آدم اسكنْ أنت وزوجك الجنّة﴾** [البقرة: ٣٥] وقال مخالفوهم: إنّ الجنّةَ والنارَ ثوابٌ وعقابٌ، والثوابُ والعقابُ لا يستحقّان إلاّ بعدَ وجود الأعمالِ الموجبة لهما، قالوا: ولو

---

(١) كاسف البال: سيء الحال.

(٢) أبو سهل البغدادي، معتزلي من الكبار، إليه تنسب البشرية في الاعتزال، عاش في عهد الرشيد وتوفي في بغداد سنة (٢١٠ هـ). «منجد الأعلام».

كانتِ الجنّة مخلوقةً فأين مكانُها وهي لا تسعُها السمواتُ والأرضُ؟ لقوله: ﴿عرضُها السمواتُ والأرضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وتأوّلوا كلّ ما في القررن والسُنّة في ذكرهما على العِدّة المنتظرة، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنّ الأبرارَ لفي نعيمٍ وإنّ الفجار لفي جحيمٍ﴾ [الإنفطار: ١٤] فأخبر عنهم وليسوا في الوقت، قالوا: وغير ممتنع على الله تعالى أن يخلقَ كلَّ يوم جناناً ويفنيها أو يبقيها كما يشاءُ وأن ينعمَ أرواحَ الظالمين في نارٍ أو في غير نارٍ، وقالوا: وقد سبقَت عدتُه في افناء ما خلقَ، وثوابه وعقابه غيرُ فانيَيْن أبداً فإن كانا موجودَيْن فلا بُدَّ من فنائهما، وذلك خلافُ وعدِه فلا مبدّل لكلماتِه، قال خصماؤهم: ليستِ الجنّةُ والنارُ ثواباً ولا عقاباً إنّما هما مقرُّ الثوابِ والعقابِ فيهما يُثابُ ويُعاقبُ، والاستثناءُ قد تناولهما من الفَناء والهلاكِ لقوله: ﴿إلاّ ما شاءَ ربُّك﴾ [هود: ١٠٧] ولحكمِه عليها بالسرمديّةِ والأبديّةِ وكما أنّه وَعد أنْ يُفنى الخلق فكذلك وَعدَ أن لا يفنيهما، ثم اختلفَ هؤلاء في مكانِ الجنّةِ فقال بعضهمُ: هي في الآخرةِ والآخرةُ مخلوقةٌ، وقال بعضهم: بل هي في عالم لها ولله عوالم الخلقِ ما يشاء، وقال بعضهم: بل هي في السماءِ السابعةِ سقفُها عرشُ الرحمن، وروي خبراً، وزعم بعضهم: أنّها مخلوقةٌ ولا يُدْرَى أين هي وليسَ بعجبٍ أنْ يمسكها اللهُ في مكانٍ كما أمسكَ العالَم لا في مكانٍ، قالوا: والنارُ تحتَ الأرضِ السابعةِ السُفْلَى وروى فيه خبراً.

[صفة الجنة والنار]:

أجمَعُ ما في القرآن لوصفِها قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذّ الأعيُن وأنتم فيها خالدوُن﴾ [الزخرف: ٧١] وأجمعَ خبرٌ فيها خبرُ أبي هُرَيْرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ فيما يحكى عن ربّه عزّ وجلّ: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأَتْ ولا أُذن سمعتْ ولا خطَر على قلبِ بشرٍ وبَلْهَ ما اطلعتم عليه» قال أبو هريرة رضي الله عنه: ومصداقُ هذا في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرّةِ أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧] ورواه حمزةُ بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن محمّد بن الحنفيّة أنّ النبيّ ﷺ قال: «حدّثوا عن الجنّةِ بما شئتم فلن تحدّثوا عنها بشيء إلاّ وهي أشدّ منه» فمن هاهنا استجازَ مَنْ استجازَ صفةَ الجنّة والنارِ بما لم يأتِ في الرواية لأنّ الواصفَ وإن أفرطَ في الوصفِ لم يَعدُ مَدَى خاطرِ همّته وغايةِ معرفتِه لا بلغ كُنه[1] ما فيها ولا بعضَه لأن نعَم الله

(١) الكنه: جوهر الشيء وأصله.

ونقمَه فوقَ ما يُحصيه المُحصون إذ لا غايةَ لها ولا نهايةَ أبداً، وقد سُئل رسولُ الله ﷺ عن أهل الجنّة فقال: «جُرْدٌ[1] مُرْدٌ[2] مكحلون من أبناء ثلاث وثلاثين سنة على سنٍّ عيسى وصورةِ يوسف وقلبِ إبراهيم وطول آدم وصوتِ داود ولسانِ محمّد صلّى الله عليه وعليهم أجمعين» وقال أبو هريرة: إنّ أهلَ الجنّةِ ليزدادون جمالاً وحُسناً كما يزدادون في الدنيا قباحةً وهرماً؛ وأنكرَ قومٌ من أهلِ الكتابِ الأكلَ والوطىء في الجنّةِ وذلك أنّ منهم مَنْ لا يرى البعثَ إلاّ للأرواح، فكذّبهم اللهُ في القرآنِ بذكر الطعامِ الحُوَّارَي التي وصفَها في الجنّة، وروى عن النبيّ ﷺ لما يذكر الجنّةَ قال: «إنّ الرجلُ منهم يُعْطى قوّةَ ألفِ رجُلٍ في الطعامِ والجماعِ، قالوا: وكيف المسّ يا رسول الله؟ قالَ: دحماً[3] دحماً إذا قام عنها رجعتْ مطهرةً بِكراً بذكرٍ لا يملّ وفرجٍ لا يخفى وشهوةٍ لا تنقطع» فقال يهود مَنْ أكلَ يغوطْ، فقال النبيّ ﷺ «ولا يتغوّطون وإنّما هو عرقٌ يفيضُ من أعراضِهم مثلَ المِسْك فتُضْمرَ له بطونُهم» وسُئل عن النومِ فقال ﷺ: «النومُ أخو الموتِ وأهلُ الجنّة لا يموتون» وسُئل عن الولدِ قال: «فتنة» ورُوي أنّه قال: «لو أرادوا لكانَ حملةُ ووضْعهُ ونشوه في ساعةٍ واحدةٍ» وسئل عن المرأة التي يكون لها زوجان لمن تكونُ في الجنّة ففي روايةِ حذيفة[4] أنّه قال: «تكون لآخر زوجَيْها» ولذلك حُرّم أزواج النبيّ صلّى الله عليه من بعده ليكُنَّ أزواجه في الجنّة، رُوي عن الحسن أنّه قال تخيّر المرأة فتختار أحسنَهما خُلقاً، وسُئل ضمرة بن حبيب أيدخلُ الجنّةَ؟ فقالَ: نعم، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿لم يطمثهنّ أنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ فللأنس أنسيّات وللجنّ جِنّيّات﴾ [الرحمن: ٧٤] وسئل أبو العالية[5] عن أوقات الجنّة قالَ: كمثل ما بين طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، لا شمسَ فيها ولا قمَر ولا ليلَ ولا نهارَ، وهم في نورٍ أبداً وإنّما يعرفون مقاديرَ الليلِ والنهارِ بارخاء الحُجب وفتحِ الأبوابِ؛ وسُئل الحسنُ

---

(١) مُرْدٌ: جمع أمرد: وهو الشاب طرّ شاربه ولم تنبت لحيته.

(٢) جُرْدٌ: جمع أجرد: وهو ما لا شعر عليه.

(٣) دَحْماً: اي دفقاً شديداً.

(٤) حذيفة بن اليمان، صحابي من الولاة الفاتحين، ولاّه عمر على المدائن، فتغلّب على الفرس في نهاوند (٣٦٤٢) توفي في المدائن (٣٦ هـ). «منجد الأعلام».

(٥) رفيع بن مهران، الإمام المقرىء الحافظ المفسّر، أحد الأعلام، أدرك زمان النبيّ (ﷺ) وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه، سمع من عُمرَ وعليّ، وحفظ القرآن. (سير أعلام النبلاء ٤/٢٠٧).

عن الحورِ العينِ، فقال: عجائزكم هؤلاء العُمْش[1] الرُمْص[2] وتلا: ﴿إنّا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهنّ أبكاراً﴾ [الواقعة: ٣٦] الآيةَ فقال: ويعطون أزواجاً غيرَهنّ من الحورِ العينِ، وفي حديث ابن المبارك عن رشيد بن سعد عن ابن أنعم أنّ مَنْ دخلَ من نساء أهلِ الدنيا الجنّةَ فضّلْنَ على الحورِ العينِ بما عملنَ في دارِ الدنيا، وهذه الأخبار أتينا بها لشهرتِها عند عوامّ الأمّة واستغنائها عن الأسانيد، وسُئل عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذّ الأعينُ﴾ [الزخرف: ٧١] فلو اشتهتْ ما تستقبحُه العقولُ كالقتلِ والغصبِ والظلمِ ونكاحِ الأخواتِ والبناتِ، فأجابهم المسلمون: بأنّ هذا وما أشبهَه ممّا لا يشتهون في الجنّة لأنّها ليس فيها كما لا يشتهون الموتَ والمرضَ والذُلَّ والفاقةَ لأنّها ليستْ فيهاه فتُحبسُ طباعهُم عن التشوّقِ »إلى ما يُستقبحُ في العقولِ، وينسون ذكرَها، واعلم ـ هداكَ الله ـ أنّ كلَّ ما وُصفَ به من ذهبِها وفضّتها وجواهرِها وطيبِها وطعامِها وسائرِ ما وُصف منها كلُّها على الحقيقةِ في الأسماء الكثيفةِ كما خُلقتْ جواهرُ الأرضِ وثمارُها بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وإنّ الدارَ الآخرةِ لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤] ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه عن أُسامة بن زيد عن النبيّ ﷺ أنّه سُئل عن الجنّة فقال: «نورٌ يتلألأ» وحدّثنا الحسنُ بن هشام العبسيّ عن وكيع عن الأعمش عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال ليس في الجنّة شيءٌ ممّا في الدنيا إلاّ الأسماء.

[صفة النار وأهلها]:

أجمعُ آيةٍ في وصفِ النّارِ قوله: ﴿والذين كفروا لهُم نارُ جهنّم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخففُ عنهم من عذابِها﴾ [فاطر: ٣٦] وأجمعُ خبرٍ فيها خبرُ محمد بن الحنفية[3] وإن كان مُرْسَلاً «حدثوا عن النار بما شئتم فلن تحدّثوا عنها بشيء إلاّ وهي أشدّ منه» والذي يوجبُ القياسَ الشديدَ لتيكون كلُّ ما وصفِ به النار من أغلالِها وأنكالها وحيّاتها وعقاربها وأوديتها ومقامعها وسائرِ ما ذُكر في القرآن والأخبارِ خلافُ ما هو في الدنيا كما قلنا في صفة الجنّةِ وأن يكونُ الجمعُ بينهما من جهةِ الاسمِ لا من جهةِ المعنى لأنّ النارَ دارُ خلودٍ كما أنّ

---

(١) العمْش: جمع أعمش: وهو الذي ضعف بصر عينه وسال دمعها.

(٢) رمص: جمع أرمص: وهو الذي يسيل من عينه وسخ أبيض يكون في مجرى الدمع من العينين.

(٣) محمد بن علي بن أبي طالب، من زوجه خولة، رأى بعض الشيعة إمامته بعد مقتل الحسين، وعرفوا باسم الكيسانية ثم انقرضوا، عاش في المدينة وتوفي فيها (٨١ هـ). «منجد الأعلام».

الجنةَ دارُ خلودٍ وسئل إبراهيم النخعيّ[1] عن صفةِ نارِ جهنّم فقال: نارُكم هذه جزءٌ من سبعين جزءٍ من نارِ جهنّم، ولقد ضربَ بها البحرَ مرّتين ولولا ذلك لما انتفعتم بها؛ وسُئل الحسنُ عن النارِ فقال: يصيرُ البحرُ ناراً ثم تلا: ﴿وإذا البحارُ سُجرت﴾ [التكوير: ٦] فقال: يُفجرُ بعضُها من بعضٍ ثم يُرسلُ عليها من الجنوبِ ريحاً ويُسلّط عليها الشمسَ حتى يسجرَها فتصيرَ ناراً فجعلَها اللهُ محبساً لأهلِ المعاصي؛ وزعم قوم: أنّ النارَ مخلوقةٌ اليومَ وأنّها تحتَ تخومِ الأرضين السُّفْلىَ، والبحارُ هي الحاجزةُ عن الخلقِ، وأنّ حرارةَ الشمسِ وحمى الصيف مآخرها؛ ورووا: أنّ النارَ اشتكتْ فقالت: أكلَ بعضي بعضاً فأذِنَ لها في نفسين: نفسٍ في الصيف ونفسٍ في الشتاء، وأراك أشدَّ ما يكون في الحرِّ والبردِ وفي الصحاحِ من الحديثِ ابردوا بالظُهر فإنّ في شدّة الحرّ من فيح[2] جهنّم، واستعظَم قومٌ بقاء ذي روحٍ في النارِ وذلك لقصورِ علمهم لأنّ النارَ ضروبٌ كالأثيرِ الذي يزعمون في علو الهواء وكالنار الكامنةِ في الحجر والشجرِ؛ وقد سُئل ابن عبّاس رضي الله عنه فيما رووا فقال: النيرانُ أربعٌ نارٌ تأكلُ وتشربُ وهي نارُكم هذه، ونارٌ لا تأكلُ ولا تشربُ وهي النّارُ في الحجر، ونارٌ تشربُ ولا تأكلُ وهي نارُ الشجرِ، ونارُ تأكلُ ولا تشربُ وهي نارُ جهنّم: تأكلُ لحومَهم ولا تشربُ دماءَهم فلذلك تبقى أرواحُهم، فأخبر أنّ نار جهنّم خلافُ النيرانِ التي ذكرها بقول الله تعالى: ﴿كلّما نضجَتْ جلودُهم بدّلناهم جلوداً غيرَها﴾ [النساء: ٥٦] فأخبر سبحانَه أنّه يُبدّل لهمْ الجلودَ لتبقى لهم الأرواحُ لا تأتي عليهم النارُ فتُفنيهم، وقد أرانا اللهُ من قدرته فيما ركّب عليه طباعَ بعضِ الحيواناتِ ما دلّنا به على جوازِ بقاء ذي روحٍ بالنار كالنعامِ التي تأكلُ النار ولا يضرُّها والطائرِ الذي يدخلُ النارَ فلا تُحرقه وما أراه جعل ذلك إلاّ عبرةً فدلّنا على جوازِ بقاء الحياةِ في أهل النارِ وإلاّ فما جازَ في طباع الحيوانِ الاغتذاء بالنارِ والحديدةِ المُحماةِ؛ وجاء في صفةِ أهلِ النارِ بالعجيب الفظيع فمن ذلك ما روى أنّه سُئل أبو هريرة رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ومَنْ يَغْلُلْ يأتِ بما غلّ يوم القيامة﴾ [آل عمران: ١٦١] وكيف يأتي من غَلّ مائةَ بعيرٍ ومائتي شاةٍ فقال: أرأيت من كان ضرسُه مثلَ الأُحُد وفخذهُ مثلَ ورقانٍ وساقهُ مثلَ البيضاءَ ومجلسهُ ما بين المدينةِ إلى الربذةِ[3]؛ وعن الربيع بن

---

(١) الإمام، الحافظ، فقيه العراق، أحد الأعلام، وهو ابن ملكية أخت الأسود بن يزيد، روى عن همام بن الحارث وروى عنه الحكم بن عتبة، كان مفتي أهل الكوفة. (سير أعلام النبلاء ٤/٥٢١).

(٢) فيحُ جهنّم: غليان نارها.

(٣) الرّبذة: بلدة شمال المدنية نفي إليها أبو ذر الغفاري.

أنس قال: مكتوب في الكتابِ الأوّلِ أنّ جلدَ أحدِهم أربعون ذراعاً وبطنَه لو وُضِع فيه جبلُ لوسعه وأنّه ليبكي حتى يصيرَ في وجهه أخاديدُ من الدّمع لو طُرِح فيها السُفنُ لجرَتْ كذا الرواية والله أعلم؛ وأعلم أنّ كلَّ ما يُوصَف من الجنّةِ والنارِ فسبيلهُ السمعُ والخبرُ وما وجبُ العقلِ فالأصلُ الذي هو الجزاءُ فلا تشتغل بجوابِ السائلِ عن الصفاتِ إذا كان مُنكراً للأصلِ حتّى يُقرَّ به.

[اختلاف الناس في بقاء الجنة والنار وفنائهما]:

قرأتُ في شرائعِ الحرّانيّين أنّ للعالمِ علّةً لم يزلْ، وأنّه واحدٌ لم يتكثّرْ ولا يلحقهُ وصفُ شيء من المعلوماتِ كُلّفَ أهلُ التمييزِ الإقرارَ بربوبيّته وبعثَ الرسلَ للدلالةِ وتثبيتِ الحجّة فوعدوا مَنْ أطاع نعيماً لا يزولُ، وأوعدوا من عَصى عذاباً بقدرِ استحقاقه ثم ينقطعُ، وقال بعض أوايله أنّه يعذبُ سبعةَ آلاف دَوْرٍ ثم ينقطعُ العذابُ ويصيرُ إلى رحمةِ الله تعالى، والهندُ على كثرةِ اختلافها يجمعُها نحلتان السمنيّة المعطلةُ والبراهمةُ الموحّدةُ وكلّهم مُقرّون بالجزاءِ وأنَّ العذابَ سينقطعُ يوماً، والسمنيّة تقولُ: إنَّ الثوابَ والعقابَ موجودان في هذا العالم بالحواسِّ جزاءَ ما اكتسبتْه النفوسُ باقيةٌ خالدةٌ فاعلةٌ وفعلُها الإيجادُ بالأجسادِ، وإنّها لا تزالُ ساكنةَ الأبدان فإذا فارقتْ جسداً لم تَعُدْ فيه أبداً، وإنّها تتناسخُ على فعالِها لا يأتي أمراً إلاّ على قدرِ هواها وهمّتها فإذا اجترحتْ السيئَات أثّرت تلك الأفعالُ في جوهرِها، وصارَ غرضاً لازماً لها، فإذا فارقتْ الجسدَ ذهبتْ بذلك التأثيرِ إلى الجنسِ الذي لا يلائم همّتها فتلابسَه فيصيرَ بذلك السببِ إلى المكروه وهو التناسخُ في أجسادِ الحيوان كلّه من الهوام والأنعامِ والآنامِ والطيرِ في البرّ والبحرِ، قالوا: وأشدّ ذلك كلّه إذا حُوِّلَتْ في جسدِ حيوانٍ تحتَ الأرض حيث لا ماءَ ولا معمورةَ ويطولُ عذابُها بالجوعِ والعطشِ والحرِّ والبردِ ثمّ تَجُوء[1] إلى جهنّم وعذابِها وذلك نهايةُ العذابِ وأُخراه، ثمّ يعودُ من جهنّم القهقري[2] إلى وجه الأرضِ للعمل، قالوا: والّتي عملتْ الصالحاتِ والأفعالَ الفاضلةَ بالضدّ ممّا وصفنا فيلابسُ الجمال والكمال والصحّة والأمن والقوةّ والإنس والنشاط والمُلك والعزّ وطيب النَفْس ويصيرُ آخِرُ ذلك كلِّه إلى الجنّةِ فيمكثُ فيها بقدرِ استحقاقها، ثمّ يرجعُ إلى الدنيا للعملِ، قالوا: والجنّةُ اثنتان وثلاثون مرتبة، ويمكثُ أهلُها في أدْنى

---

(١) تجوء: تأتي.

(٢) القهقري: الرجوع إلى الوراء.

مرتبةٍ منها أربعَ مائة ألف سنة وثلاث وثلاثين ألف سنة وستّمائة وعشرين سنة، وكلٌّ مرتبة اضعافُ ما دونها بحسابٍ يطولُ عددُه، قالوا: والنّارُ اثنتان وثلاثون مرتبة، ثم وصفوها بعجابِ الصفاتِ من الحريقِ والزمهريرِ، وزعموا أنّ مَنْ قَتَل شيئاً من الحيوان دونَ الناس قُتل به مائة مرّة ومرّة، ومَنْ قتلَ إنساناً قُتل به ألفَ مرّة ومرّة، قالوا: وليس عُضْوٌ من الأعضاء قُبح أو سُمج[1] خلقتُه إلاّ وقد أتى صاحبُه بذلك العُضو داهيةً من الدّواهي، هذا أصلُ التناسخِ ومنهم انتشرَ في سائرِ الأممِ، وليس من أمّةٍ من الأممِ إلاّ وهي مُقرّةٌ بالجزاء كما ذكرنا، إمّا التناسخُ وإمّا الذخرُ في الآخرةِ؛ واجمعوا: أنّ العذابَ بقدرِ الاستحقاقِ، ثم ينقطعُ؛ وزعمَ كثيرٌ من اليهود: أنّه إذا أتى على الجنّة والنارِ ألفُ سنة بعدَ ما صار إليهما أهلُهما فنِيَتا وتعطّلتا، وصارَ أهلُ الجنّة ملائكة وأهلُ النار رميماً، واحتجّوا بقول الأنبياء الاثني عشرَ أنّه مكتوبٌ في سِفْرِ يهوشوع[2] أنّ اللهَ يقولُ: إنْ تمسكتَ أمري وأتممتَ ميثاقي أعطيتُك موضعاً وَسْطَ هؤلاء الواقفين قدّامي، وقال في أهل النار: يصيرون رميماً تحتَ أرجُل معاشرِ أهلِ الجنّة؛ وسمعتُ رجلاً من يهود عليهم اللعنة يزعمون أنّ منهم مَنْ يقول أنّ العالمَ ينقضي في كلّ ستّة ألف سنة ويجدّدُ، وأنّ يومَ السبتِ يومَ الحسابِ ومقدارُه ألفُ سنةٍ، ويومَ الأحد يوم الابتداء والله أعلم بما قال؛ وكثيرٌ منهم يقول: ببقاءِ الجنّة والنار على الأبد، ويحتجّون بقول أشعياء[3] في سفره إنّ أهل الجنّة يخرجون ويرون أجسادَ الذين عصوني لا تموتُ أرواحهُم ولا تخمدُ نارُهم؛ والمجوسُ يزعم: أنّ المُسيء يجازى بقدرِ استحقاقِهِ بعد موته بثلاثة أيّام كفاءَ ما فعل سواءً لا زيادة ولا نقصان، ومنهم مَنْ يزعم: أن الجنّةُ والنّارَ في الدنيا بأرضِ الهندِ مع هوسٍ كبيرٍ وتخليطٍ ظاهرٍ.

في ذكر اختلاف الناس:

زعمتْ طائفةٌ منهم أنّه لا بدّ من فناء النّار وانقضائها يوماً ما، رَوَوْا فيه رواياتٍ فرروا عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قَالَ: يأتي على جهنّم زمانٌ تخفق أبوابُها ليسَ فيها أحدٌ وذلك بعد ما لبثوا أحقاباً، وعن الشعبي[4] جهنّمُ أسرعُ الدارين خراباً، وعن عمر رضي الله

---

(١) سَمُج: قَبُح.

(٢) جاء في الكتاب المقدّس صفحة (٣٣٧) سفر يشوع، وجاء أيضاً في صفحة (١٢٨٦) سفر هوشع.

(٣) جاء في الكتاب المقدّس صفحة (٩٩٢) أنّ شعيا هو أشعياء ابن آموص، وله رؤيا مشهودة على يهوذا واورشليم.

(٤) عامر بن شراحيل، تابعي، محدث، راوية، حافظ ثقة، ولد ونشأ في الكوفة، كان رسول عبد الملك =

عنه وأرضاه لو لبثَ أهلُ النّار في عددِ رملٍ عالِجٍ[1] لكان لهم يرجون، واحتجّوا بأشياءَ من بابِ التعديلِ، ولم يختلفوا في بقاء الجنّةِ على الأبدِ، وقال آخرون: إنّهما مؤبّدتان دائمتان لا تفنيان ولا تزولان، واحتجّوا بأنّه لم يكنّ لنعم الله انتهاءٌ وجب إن لا يكون لنقمِه انقضاءٌ؛ ورووا عن الأوزاعي[2] أنّه ذكرَ هذه الرواياتِ التي احتجّ بها الأوّلون وقال قدْ كان الناس يرجون لأهلِ النارِ الخروجَ عند قوله: ﴿خالدين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ إلاّ ما شاء ربّك﴾ [هود: ١٠٧] وقوله: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ [النبأ: ٢٣] فلما نزلتْ في المائدة وهي آخر ما نزل في القرآن: ﴿يريدون أن يخرجوا من النّار وما هم بخارجين منها ولهم عذابٌ مقيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] علموا أنّها لا تفنى أبداً، فإنْ قِيل: كيف يجوزُ على الحكم العدل أنْ يعاقبُ على جُرمٍ منقضٍ بعقوبةٍ غير منقضيةٍ؟ قِيلَ: هو الجزاءُ على السواءِ، وكما أنّه لم تقتصّر مدّةَ عمرِه على الكفرِ في دار الدنيا وجبَ أنْ لا يقصرَ عنه العذابُ مدّةَ عمرِه في الآخرة وأيضاً فإنّ نعمةً ما لم تكن منتهية وَجبَ أنْ لا تكونَ نقمةٌ منتهية، وقدْ كانتِ العربُ في جاهليتها تؤمنُ بالجزاءِ، ومَنْ نَظرَ منهم في الكتبِ كان مُقرّا بالجنّةِ والنّار فمنه قوله أميّة: [وافر]

جهنّمُ تلك لا تبغي بقيا ... وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ
إذا جهنّم ثم فارَتْ ... وأغْرَضَ عن قوابسِها الجحيمُ
يحسب بصندلٍ صمٌّ صلابِ ... كأنّ الصاحياتِ لها قضيمُ
فتسموا ما يعنيها ضواء ... ولا يحبو فيبردها السمومُ
فهم يطفونَ كالاقذاءِ فيها ... لئن لم يغفر الربُّ الرحيمُ
بدانيةٍ من الآفاتِ نزهٍ ... براءٍ لا يُرى فيه سقيمُ
سواعدُها تحلّب لا تصرّى ... بها الأيدي محلّلةٌ تحومُ
يغيضُ حلابُها من غير ضَرْعِ ... ولا بَشَمٍ ولا فيها جُزومُ
فيحرمُ عنهُمُ ولكلّ عرقٍ ... عجيج لا أخذٌ ولا يتيمُ
فذا عسلٌ وذا لبنٌ وخمرٌ ... وقمحٌ في منابتهِ صريمُ
ونخلٌ ساقطُ الأكتافِ عد ... خلال أصوله رُطَب قميمُ

= بن مروان (ت ١٠٣ هـ). «منجد الأعلام».

(١) عالِجُ: مجتمعُ.

(٢) عبد الرحمن من أئمة الفقهاء في الإسلام، ولد في بعلبك وترك مذهباً معروفاً، له كتاب (السنن) توفي في بيروت (١٥٧ هـ)، «منجد الأعلام».

وتفـــاحٌ ورمّـــانٌ ومـــوزٌ | ومـــاءُ بـــاردٌ عـــذبٌ سليـــمُ
وفيهـــا لحـــمُ شـــاهـــدةٍ ونحـــرٍ | ومـــا فـــاهـــوا لهـــم فيهـــا مقيـــمُ
وحـــورٌ لا يـــريـــن الشمـــسَ فيهـــا | علـــى صُـــورَ الـــدُمـــى فيهـــا سُهـــومُ
نـــواعـــمُ فـــي الأرائـــك قـــاصـــراتٌ | فهُـــنّ عقـــائـــلٌ وَهُـــمُ قـــرومُ
علـــى سُـــرُرٍ تُـــرى متقـــابـــلاتٍ | الاثـــمّ النضـــارةُ والنعيـــمُ
عليهـــم سنـــدسٌ وجنـــابُ رَيّـــطٍ | وديبـــاجٌ يـــرى فيهـــا فيـــومُ
وحُلّـــوا مَـــن أســـاورَ مـــن لُجَيْـــن | ومِـــن ذهـــبٍ وعسجـــدةٍ كـــريـــمُ
ولا لغـــوٌ ولا تـــأثيـــمُ فيهـــا | ولا غـــولٌ ولا فيهـــا مُليـــمُ
وكـــأسٌ لا يصـــدَع شـــاربيهـــا | يلـــذُّ بحســـنِ رويتهـــا النـــديـــمُ
يصفّـــوا فـــي صحـــافٍ مـــن لجيـــنٍ | ومـــن ذهـــبٍ مبـــاركـــةٍ رذومُ
إذا بلغـــوا الّتـــي اجـــرَوْا إليهـــا | تقبّلهـــم وحلـــل مَـــنْ يصـــومُ
وخفقـــتْ البـــدورُ وأردفتهـــم | فضـــولُ الله وانتهـــتِ القُسُـــومُ

إعلم أنّ هذه الأشياءَ جاءتْ به الروايةُ والخبرُ فمنها ما هو ثوابٌ، ومنها ما هو عقابٌ، ومنها ما هو تمييزٌ وتفريقٌ؛ والمسلمون لا يختلفون في أساميها وإنّما الخلافُ في معانيها فأمّا الصراطُ فقد جاء في الحديثِ أنه يُنصَبُ جسرٌ على ظهرِ جهنّم ويُحمل الخلقُ عليه فمَنْ كان من أهلِ الجنّةِ جازه، ومَنْ كان من أهلِ النارِ تهافتَ فيها، وقِيلَ: في صفته أنّه أحدُّ من السيفِ وأدقُّ من الشعرةِ دحْض[1] مزلّةٌ وفيه كلاليبُ وخطاطيفُ وسَعْدانٌ مصرّسةٌ وحسَكٌ مُفلطحةٌ مَسيَّرةٌ كذا سنةً صعوداً وهكذا هبوطاً وكذا وطأً؛ والناسُ يجوزونه بقدرِ أعمالهم فمنهم مَنْ يمرُّ كالبرقِ الخاطفِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالجوادِ المضمَّر، ومنهم مَنْ يمرّ عدواً، ومنهم مَنْ يمرُّ هرولةً، ومنهم مَنْ يمشي مشياً، ومنهم مَنْ يزحفُ زحفاً، ومنهم مَنْ يحبوا حَبْواً، ومنهم مَنْ يحتضنُه بكشحِه[2] وصدرِه، والزالّون والزالاّتُ كثيرٌ، وقد أُجيبَ مَنْ يزعمُ أيّ ظلمٍ أعظمَ مَنْ حملِ النّاسِ على ما هذه صورته أنّه جعَلَ تمييزاً بين أهلِ الطاعةِ وأهلِ المعصية وعلامةٍ للحقّ على هلاكِ مَنْ هلك ونجاةِ مَنْ نجا، وقدْ جاء في بعض الأخبار أنّ أهلَ الطاعةِ يجوزونه ولا يشعرون به، وقيل ينزوي[3] تحتَ أقدامهم كما تنزوي الجلدة

(١) دحْض: الدحْض من الأمكنة: الزَلِق.
(٢) كشحه: الكشح من الجسم: ما بين السرة ووسط الظهر.
(٣) ينزوي: ينقبض.

من النارِ فإذا استقرّوا في الجنّة قالوا: ما بالنا لم نجزْ الصراطَ ولم نردْ النارِ التي وعدنا فيُقال: إنكّم جُزتم الصراطَ في الدنيا بأعمالِكم، ووردتمُ النّارَ وهي خامدةٌ؛ ومن هاهنا ذهبَ مَنْ ذهبَ إلى تأويل الصراطِ وما ألزم الإنسان وكلّف من مشقّة الطاعة ومجاهدة النَّفْسِ فيما ينزعُ إليه وعلى هذا فسّر بعضهم: ﴿فلا اقتحمَ العقبةَ وما أدراكَ ما العقبةُ فكُّ رقبةٍ﴾ [البلد: ١٣] الآية.

وأمّا المعتزلةُ وأهلُ النظرِ فإنّهم يذهبون إلى أنّ الصراطَ هو الدينُ الذي أمرَ الله بلزومهِ والتمسكِ به، وكان أبو الهُذيل من بينهم يجيزُ ما جاء في الخبرِ كما جاءَ ويحتجُّ بما ذكرناه بدئاً، وأمّا الميزانُ فروي كثيرٌ من المسلمين: أنّه خلقَ على هيئةِ الميزان التي يتعاطاه الناسُ بينهم في معاملاتهم ومبايعاتهم توزنُ به أعمال العبادِ، والأعمالُ عندهم مخلوقةٌ، وفي كتابِ وَهْبٍ عن ابن عبّاس أنّ له كفّتين وعموداً كلُّ كفّةٍ طباقُ الأرضِ إحداهما من ظلمة،ع والأخرى من نورٍ وعمودُه ما بينَ المشرقِ والمغربِ وهو مُعلّقٌ بالعرشِ وله لسانٌ فصيحٌ ينادي الأسعد فلانٌ والأشقى فلانٌ، فإن صحّتِ الروايةُ فالمعنى فيه ما ذكرناه في الصراطِ أنّه جعلَ مميّزاً فارقاً وهو قول أبي الهُذيل يجوزُ أن يُنصبَ ميزان يجعلُ رُجحانُه علامةً لِمَنْ نجا وخفّتُه علامةً لمَنْ هلكَ، وقالت المعتزلة: غيرهُ، وكثيرٌ من الأمّة أنّ الميزانَ مثلٌ لتسويةِ الجزاء وتحقيقِ العدل، وهو قولُ مجاهد[1] والضحّاك الشعبيّ، واحتجّوا بقولِ النّاسِ للرجلِ الأمينِ العدلِ ما إلاّ كالميزانِ المستقيمِ إلا ترى إلى ما يرثى به عمر بن عبد العزيز[2] رحمه الله:

[بسيط]

قـد غيّـبَ الـدانـون التـربَ إذ دفنـوا ... بـديرِ سمعـانَ[3] قسطـاسَ المـوازيـن

وأنشد الفرّاءُ[4] بيتاً:

[كامل]

قـد كنـتُ قبـل لقـائكـم ذا مِـرّة ... عنـدي لكـلّ مخـاصـمٍ ميـزان

---

(١) أبو بكر أحمد موسى، مقرىء، محدّث، نحوي، من أهل بغداد، إمام القرّاء في عصره، له مصنفات في القرارات منها «قراءة النبيّ» (ت ٣٢٤ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) الخليفة الأموي الثامن، اشتهر بتقواه وتمسكه بالسُنّة، انصرف إلى الإصلاح الدّاخلي والمالي (ت ١٠١ هـ).

(٣) دير سمعان: دير بنواحي دمشق، في موضع نُزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور وعنده قبر عمر بن عبد العزيز. (معجم البلدان ٢/ ٥٨٦).

(٤) يحيى أبو زكرياء الديلمي، إمام لغويي الكوفة، مؤدب ابني المأمون، ولد في الكوفة وتوفي وهو سائر إلى الكوفة، له «معاني القرآن» (ت ٨٤٢ هـ). «منجد الأعلام».

ويسمّى الحجّة ميزاناً والله أعلم وأحكم؛ واختلفوا في الموزونِ فقال قوم: يُوزَن عينَ الأعمالِ فتخفُ السيّئةُ لأنّه يأتيها الإنسانُ بخفّة ونشاطٍ، وتثقلُ الحسنةُ لأنّه يأتيها بعناءٍ وكلفةٍ، وقالتْ طائفةٌ: بل يوزنُ صُحفُ الأعمالِ وهو قولُ ابن عبّاس رضي الله عنه ويعضد رواية عبد الله بن عمر عن النبيّ ﷺ: «يُؤتى برجل يوم القيامة ويُؤتي بتسعة وتسعين سجلاً كلُّ سجلّ مَدُّ البصرِ فيها ذنوبُه وخطاياه فيوضعُ في كفّة ثم يخرجُ له قرطاسٌ مثلُ وأشد بطرف سبابته على بعضِ إبهامه فيه شهادةُ أن لا إله إلاّ الله فيوضعُ في الكفّة الأُخرى فيرجحَ به» وقال قوم: يوزنُ ثوابُ الأعمالِ وذلك أنّ الله يظهرهُ في صورةٍ ويُحدث عند الوزنِ ثقلاً في الطاعة وخفّةٌ في المعصيةِ، وكلّ ما حكى وروى ممكنٌ والله أعلم بالحقّ وأحكم؛ وأمّا الأعرافُ فذكر أنّه كسورٌ بين الجنّةِ والنارِ يوقَفُ عليها قومٌ إلى أن يقضي اللهُ تعالى بين خلقهِ مع اختلافٍ كثيرٍ في مَنْ يقامُ عليه ويدلّ على أنّه من الجنة قوله عزّ وعلا: ﴿ونادى أصحابُ النارِ أصحاب الجنّة أنْ أفيضوا علينا من الماءِ أو ممّا رزقكم الله﴾ [الأعراف: ٥٠] وفيه يقول أُميّة بن أبي الصلت: [بسيط]

وآخرون على الأعرافِ قد طمعوا ... بجنّـة حَفَّهـا الـرُمّـان والخَضَـرُ
منهم رجالٌ على الرحمٰن رزقهم ... مكفّـر عنهُـمُ الاخبـاثُ والـوَزَرُ

وأمّا الصُورُ فإنّ الرُواة مختلفةٌ فيه فروى أنّه كهيئةِ القرنِ تُجمع فيه الأوراحُ ثمّ يُنفَخُ منه في الأجسادِ عندَ العبثِ وقال قوم يخلق الصور يوم القيامة وتأوّلوا قوله: ﴿وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرضِ بالحقِّ ويوم يقول كن فيكونَ﴾ [الأنعام: ٧٣] قال يقول للسمواتِ كوني صوراً يُنفخَ فيه، وقال بعضهم: الصورُ جمعُ الصورةِ وإنْ صحّ الخبرُ كيفَ أنعَم وصاحبُ الصورِ قد التقمه وحنا جبهتَه ينظرُ متى يؤمرُ فينفخُ، لزمَ التسليمُ والقول به؛ وأمّا الحوضُ جاء في الحديثِ بروايات مختلفة وقال كثيرٌ من أهلِ التفسيرِ أن الكوثَر اسمُ حوضِ النبيّ ﷺ وروى: «ما بين جنبَي حوضي كما بين صنعاء وإيلة وآنيته في عدد نجومِ السماءِ ماءُه أحلى من العسل وأبردُ من الثلجِ وأشدُّ بياضاً من اللبنِ مَن شربَ منه شربةً لا يظمأ بعدَها أبداً» وقالَ قومٌ في تأويل الحوضِ: إنّه عملُه ودينُه وطريقتُه والله أعلم.

الفصل السابع

في خلقِ السماءِ والأرضِ وما فيها

قد بيّنّا مقالاتِ الأُممِ في حَدَث العالمِ وقِدَمه وقد ذكرنا آراءَهم في المبادىء وكشفنا عن عُوارِ كلٍّ مَنْ خالفَ الحقَّ ودلّلنا على أنّ مأخذَ هذا العالم لا يصحُّ إلاّ من جهةِ الوَحْي والنبوةِ بما لا مزيد عليه في مقدارِ الشريطةِ التي نَصَبْناها في كتابنا هذا واللهُ أعلمُ والموفّق والمُعِين؛ وقد اختلفت الرواياتُ في هذا البابِ عن ابن عبّاسٍ ومجاهدٍ وابن اسحقَ والضحّاكِ وكعبٍ ووهبٍ وابنِ سّلامٍ والسنديّ[1] والكلبيّ[2] ومُقاتل وغيرِهم ممّن يتحرّى هذا العلمَ وينحو نحوَه، فلنذكرِ الأصحّ من رواياتهم والأقسطَ للحقِّ والأشبَه بالصوابِ، ونَسُوقُ ما يحكيه أهلِ الكتابِ ولا يكذبهُم إلاّ فيما يتيقّنه من وفاقِ كتابنا أو خبرِ نبيّنا ﷺ وروى أبو حذيفة عن رجال أسماهم: أنّ الله تعالى لما أرادَ أن يخلقَ السماءَ والأرضَ سلّطَ الريحَ على الماءِ حتى خربْته فصارَ موجاً ودهناً ودُخاناً، فأجمدَ الزَبَدُ فجعلَه أرضاً، وأحمدَ الموجَ فجعلَه جبالاً، وأجمدَ الدخانَ فجعله سماءً وربّما يقعُ تغييرٌ في العبارةِ لزيادةِ بيان فَلْيُراعِ الناظرُ المعنى لا اللفظ: وزعمَ محمد بن إسحق أنّ أوّل ما خلقَ اللهُ النورُ والظلمةُ فجعلَ الظلمةَ ليلاً، وجعل النورَ نهاراً ثم سَمَكَ السماواتِ السبعَ من الدخانِ دخانِ الماءِ

---

(١) محمد، فقيه حنفي، ولد في تته (السند) من تصانيفه «إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد» توفي في المدينة (١١٦٣ هـ) «منجد الأعلام».

(٢) محمد بن السائب، نسّابه، راوية لغوي، عالم بأخبار العرب، من أهل الكوفة، درس فيها وأقام زمناً طويلاً (ت ٧٦٣ هـ)، «منجد الأعلام».

حتى استقللْنَ ولم يحبكهنّ، وقد أغطشَ[1] في السماء الدنيا ليلُها، وأخرج ضحاها فجرى منها الليلُ والنهارُ وليس فيها شمسٌ ولا قمرٌ ولا نجومٌ، ثم دحا الأرضَ وأرساها بالجباله وقدّرَ فيها الأوقاتَ. ثم استوى إلى السماءِ وهي دخانٌ قال فحبكهنّ، وجعل في السماءِ الدنيا شمسَها وقمرَها ونجومَها، وأوحى في كلّ سماءٍ أمرَها؛ وقريبٌ من هذا ما رُوِي عن عبد الله بن سلام أنّه حكى عن التوراة أنْ خَلَق النجارَ الذي خرجَ من الماءِ والجبالَ والأرضَ من الأمواجِ ودحا الأرضَ من تحت موضعِ الكعبة؛ عن الكلبيّ والسنديّ أنّ الأرضَ كانتْ تُكْفَأُ[2] كما تُكفأُ السفينةُ، فأشمخ اللهُ جبالَها وأرساها بالأوتادِ حتّى استقرّتْ وتوطّدتْ لقولِ الله تعالى: ﴿أَلْقَى في الأرضِ رواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] وفي صدرِ التوراة التي في أيدي أهلِ الكتابِ أنّ أوّلَ ما خلقَ اللهُ السماءُ والأرضُ، وكانتْ الأرضُ خَرِبةً خاويةً، وكانت الظلمةُ على الأرض، وريحُ الله تعالى يزفّ على وجه الماءِ فقال اللهُ: ليكنِ النورَ فكان النورُ، فرأى الله حسناً فميّزه من الظلمةِ وسمّاه نهاراً، وسمّى الظلمةَ ليلاً، وقال: ليكنْ رفيعاً وسطَ السماءِ فَلْيَحُلْ بينَ الماءُ والسماءِ فكانَ سقْفاً يميّزُ بينَ الماء الذي أسفل وبين الماءِ الذي هو أعلى، وسمَّاه سماءً، وقال اللهُ: ليجمعِ الماء الذي تحتَ السماءِ وليكنْ اليُبْسُ فكان كذلك فسمَّى مجتمعَ الماءِ البحارَ، وسمَّى اليبسَ الأرضَ، وقال الله: لتُخرجِ الأرضَ الزهرَ والعُشبَ والشجرَ ذا الحَمْلِ فأخرجتِ الأرضُ ذلك، ثم قال الله تعالى: ليكنْ نوران في سَقْفِ السماءِ ليميّزا بينَ الليلِ والنهارِ وليكونا آيتَيْن للأيّامِ والشهورِ والسنين فكان نوران الأكبرُ والأصغرُ، فالأكبرُ لسلطانُ النهارِ، والأصغرُ والنجومُ لسلطان الليلِ فرآهُ اللهُ حسناً، وقال الله تعالى: ليّحركِ الماءُ كلَّ نفسٍ حيّةٍ وليطرِ الطيرُ في جوفِ السقفِ، وخلقَ الله ثمانين عظاماً وحرّك الماءُ كلَّ نفسٍ حيّةٍ لجنسها وكلَّ طائرٍ لجنسه فرأى الله ذلك حسناً، فقال: انموا واكثروا واملأوا الأرض، وقال الله تعالى: نخلقُ بشراً كصورتنا وشَبَهِنا ومثالِنا ويكونُ مُسلّطاً على سمكِ البحارِ وطيرِ السماءِ ودوابِّ الأرضِ، فخلق آدمَ على صورتِهِ ومثالِه وشَبَهِهِ.

وأمّا الفرسُ فإنهم يحكونَ عن علمائهم وموبذيهم أنّ الله خلقَ في ثلثمائة وخمسة وستّين يوماً ووضعَ ذلك على أزمنة كاه أنبار دين ماه[3] وأنّ أوّل ما خَلق اللهُ السماءُ في

---

(١) أغطش: أظلمَ.
(٢) تُكفأ: تميلُ.
(٣) ألفاظ فارسية.

خمسة وأربعين يوماً وهو كاره أنبار دَيْ ماه، وخلق الماء في ستّين يوماً وهو كاه أنبار اردبيهشت ماه، وخلقَ النباتَ في ثلاثين يوماً وهو كاه أنبار ابان ماه، هذا ما عليه عامّة من يعرفهم من أَهلِ الأَرضِ بحدَثِ العالمِ، والأَصدقُ من ذلك ما نطقَتْ به كُتُبُ الله أَو جاءَتْ به رُسُلهُ لأَنّه لم يشاهِدِ الخلق أَحدٌ فيخبرُ عنه ولا العقلَ موجبُ كيفيّة ذلك ثُمّ لا شيء أحمل للزيادةُ وأخلط في الرواية وأكثرَ تشويشاً واضطراباً من هذا البابِ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿خلق السماواتِ﴾ [النحل: ٣] فبدأ بذكرِ السماءِ على الأرض في غير موضعِ من كتابه ثمّ قال: ﴿أَئِنَّكم لتكفرون بالذي خلقَ الأرضَ في يومَيْن وتجعلون له أنداداً﴾ [فصلت: ٩] الآية إلى قوله: ﴿ثم استوى إلى السماءِ وهي دخانٌ﴾ [فصلت: ١١] وقال: ﴿أَأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها. رفَعَ سَمْكها فسوَّاها﴾ [النازعات: ٢٨] إلى قوله: ﴿والأرضُ بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات: ٣٠] فأخبرَ أنّ خَلْقَ السماءِ كانَ قبلَ خَلْقِ الأَرضِ وبَسْطَ الأَرض كان قبلَ تسويةِ السماءِ وما فيها كما ذكره ابن إسحق.

صفة السماوات:

قال اللهُ تعالى: ﴿خلق سبعَ سماواتٍ طباقاً﴾ [الملك: ٣] فأخبرَ أنَّ بعضها فوقَ بعضٍ، وزعمَ الكلبي أنّ السماواتِ فوقَ الأرضِ كهيأَةِ القبّةِ الملتصقِ منها أطرافها، وقول الله أحقّ أنْ يُتبَع ما لم يَرِدْ تخصيصٌ صادقٌ أو تبيينٌ، وروى وهب عن سلمان الفارسي[1] رحمه الله أنّ اللهَ خلَق السماءَ الدنيا من زمرّدةٍ خضراءَ وسمّاها برْقِعَ، وخلق السماءَ الثانيةَ من فضّةٍ بيضاءَ وسمّاها كذا، وخلقَ السماءَ الثالثةمن ياقوتةٍ حتّى عدّ سبعَ سماواتٍ بأسمائها وجـ ـها؛ ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال: إنّ السماءَ الدنيا من رُخام أبيضَ وإنّما خضرتُها من خضرةِ جبلِ قاف[2]؛ وروى أنّ السماءَ موجٌ مكفوفٌ، واختلف القدماءُ فيه فزعمَ بعضهُم أنّ جوهرَ السماءِ من حديدٍ، وزعم بعضهُم أنّه جوهرٌ صُلْبٌ وجَمُدَ بالنار حتّى صارَ مثلَ الجليدِ، ومنهم مَنْ يزعمُ أنّه جوهرٌ ناريٌ، وبعضهم يراه جوهراً مركّباً من حارٌ وباردٍ،

---

(١) من خواصّ الصحابة، كان رقيقاً، أسلم بعد الهجرة، قال الرسول عنه (سلمان منّ آل البيت) ولاّه عمر عاملاً على المدائن (ت ٣٥ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) جبل قاف: قاف مذكور في القرآن، ذهب بعض المفسّرين إلى أنّه الجبل المحيط بالأرض، وأن جبل قاف عرقٌ منه. وأصول الجبال كلّها من عرق جبل قاف وذكر بعضهم أنّه بينه وبين السماء مقدار قامة رجل. «معجم البلدان ٤/ ٢٣٣٨».

وبعضهم يقولُ: هو دُخانٌ من بُخارِ الماءِ تكاثفَ وتصلّبَ، وبعضهم يراه جوهراً خارجاً من مزاجِ الطبائعِ، فكلّهم يسمّون السماواتِ الأفلاكَ فالّذي يحبّ أن يعتقدَ منه أنّه جوهرٌ ما آنَ لو لم يكنْ كذلك ما قبلتْ الأعراض التي تراها من سوادِ الليلِ وخضرةٍ، واختلافِ القدماء فيه دليلٌ على قصورِ فهمهِم عنه وروايات أهلِ الإسلامِ لا توجب اعتقاداً ما لم يكن إجماعُ أو شهادةُ نصٍّ من كتابٍ أو خبرِ نبيٍّ صادقٍ مؤيّدٍ بالمُعجزات الباهرةِ اللّهم إلاّ أن يكونَ وفاقٌ في الأسامي لا في المعاني لمخالفةِ أجسامِ السُفْلِ أجسامَ العُلْو وقد شبّه أُميةُ السماءَ بالزجاجِ من جهةِ لونِه ولم يُرْوَ عن أحدٍ من الفلاسفة ولا من أهل الكتاب: [كامل]

فكـأنَّ بـزقِـعَ والمـلائـكَ حـوْلَـهُ سُـدَدٌ تُـواكِلُـهُ القَـوائِـمُ مُجْـردُ
خضـراءُ ثـانيـةٌ تظـلّ رؤوسهُـمْ فوقَ الذوائب فاستوَتْ لا يحصَدُ
كزجاجةِ الغسُّولِ أحْسنَ صُنْعَها لمّــا بنــاهــا ربُّنــا يتجــرّدُ

صفة الفلك:

قال اللهُ تعالى: ﴿**لا الشمسَ ينبغي لها أن تُدركَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارَ وكلٌّ في فَلَكٍ يسبّحون**﴾ [يٰس: ٤٠] قال بعضُ المفسّرين تدورُ كدَوَرانِ الرّحا، وأهلُ النجومِ يزعمونَ أنّه الفلكُ الأعظمُ المحيطُ بالأفلاكِ السبعةِ ولها في كلّ يوم وليلةٍ دورةٌ واحدةٌ من المشرق إلى المغربِ، وسائرُ الأفلاكِ في جوفها تدورُ من المغربِ إلى المشرقِ كمشي النمل على الرحا الدائرةِ بالعكسِ، ومنهم مَنْ يقولُ: هو الفلكُ الثابتُ وهي التاسعةُ من الأفلاكِ الضابطةِ لها، وأكثرُهم على أنّها الثامنةُ وفيها الكواكبُ الثابتةُ، وفي روايةِ المسلمين أنّ من سماءٍ إلى سماءٍ مسيرةَ خمس مائة سنة وما بينَ كلِّ سماءٍ مسيرة خمس مائة سنة، وللقدماء في هذا تقديرٌ فزعمَ الفزاريّ[1] أنّ بين فَلَكٍ وفلكٍ مسيرةَ ثلاثة آلاف سنةٍ، وقد ذكرَ في كتاب المجسطي مقاديرَ أجرام الكواكبِ وأبعادِها من نقطةِ الأرض وبُعد بعضِها من بعضٍ في العُلْو وكم قُطْرُ فلكٍ يدورُ بها وعُظم الأفلاكِ وسِعتها وحال الأرضِ وكميّتها في الطّوْل والعَرْضِ والاستدارةِ ما الله به عليمٌ، فإن كان حقاً فهو الوحي لأنّ قُوى الخلقِ تقصرُ عن أمثاله، وإن كان حَزْزاً وتخميناً فروايةُ أهلِ الإسلام أحقُّ وأصدقُ، وإذا صحّت فهي تحتملُ وجهَيْن من التأويلِ أحدُهما: البُعدُ في المسافة، والثاني العجزُ عن الترقّي إليه ومن العجبِ ضرب من لا

(١) محمد بن إبراهيم، أول فلكي كبير في الإسلام، والده أول من صنع الاسطرلاب، ترجم للخليفة المنصور «رسالة السند هند» في الفلك (ت نحو ٧٩٦ هـ). «منجد الأعلام».

يرى السماواتِ والأفلاكَ أجراماً مركّبةً ولا أجساماً متحرّكةً حدًّا لها في البُعد والقربِ والبسائطِ غير محصورةٍ ولا متناهيةٍ، وٱختلف في ذاتِ الفلكِ الذين زعموا أنّها جِرْم، فزعمتْ منهم أنّها من تركيبِ الطبائعِ الأربع، وقال قومٌ: بل هي طبيعةٌ خامسةٌ خارجةٌ عن هذه الطبائعِ، والطبائع خفيفيّات: النارُ والهواء، وثقليّات: الأرضُ والماءُ، والفلكُ لا خفيفٌ ولا ثقيلٌ، وزعمَ قومٌ أنّه لحمٌ ودمٌ، وقالَ أعظمهُم عندَهم رأياً أنّ الفلكَ حيٌّ ناطقٌ والكواكبُ لها النفسُ الناطقةُ، ورأيتُ في كتبِ بعض المفسّرين ميلاً إلى هذا الرأي واحتجّ له بقول الله تعالى: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١] والنطقُ قد يكون بالعبارةِ والبيانِ وبالدلالة والأثرِ.

صفة ما فوق الفلك:

قال المسلمون: فوقَ الأفلاكِ العرشُ، وفوقَ العرشِ ما الله به عليمٌ، ومنهم مَنْ يقولُ: فوقَ العرشِ البارىءُ عزّ وجلّ، وهذا قولٌ سديدٌ، وهو من شِعارِ الإسلامِ ما لم يوصفْ بالمكان والتمكّنِ لأنّ فوقَ يحتملُ وجوهاً من التأويلِ، ومَنْ قال بوجودِ الجنّةِ في الوقت قال هي في السماء السابعة واحتجّ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وفي السماءِ رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢٢] قال كثيرٌ من أهلِ التفسيرِ أنّه الجنّةُ، وقال قدماءُ في ترتيبِ العوالم بعد ذكرِ الفلكِ المستقيم وأنّه الثامنُ أو التاسعُ على اختلافهم أنّ فوقَ الأفلاكِ كلّها عالمَ النفوسِ محيطٌ بجميعها ثُمّ فوقَه عالمُ العقلِ مسبولٌ على هذه العوالمِ، والبارىءُ سبحانه وتعالى فوقَ ذلك كلّه فإن أرادوا المسافةَ فقريبٌ من قولِ بعضِ المسلمين، وإن أرادوا الرفعة والعظمةَ والعُلُوّ كان أقرب إلى الحقّ والله أعلم وأحكم وفي أخباره أصدق.

في الأفلاك والسماوات كما جاء في الخبر:

وروي في الخبر أنَّ في السماء الدُنيا بيتاً بحذاءِ الكعبةِ يُقالُ له الضُراح يدخلهُ كلَّ يوم سبعون ألفِ مَلَكٍ ثُمّ لا يعودون إليه أبداً، وقالَ: هو البيتُ المعمورُ، ورُوي أنّ أوارحَ الصالحين تصعدُ إليه، قالوا: وتحتَ العرشِ بحرٌ من ماءٍ أخضرُ كمنيّ الرجالِ يُحيي اللهُ به الموتى بين النفختين، وهو الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿صَ والقرآنُ ذي الذِكْر﴾ [صَ: ١] ورُوي عن الضحّاك أنّ في السماءِ جبالاً من بَرَد خلقه الله مقداراً معلوماً لكلّ سنة فإذا فني ذلك قامتِ القيامة، ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قالَ ليستْ سنةٌ بأقلّ مطراً من سنةٍ ولكنّ اللهَ قسّم هذه الأرزاقَ فجعلها من هذا القَطْرِ فإذا عملَ قومٌ بالمعاصي حوّل ذلك

إلى غيرهم وقد فسّر بعضهم: ﴿وفي السماءِ رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢٢] المطر، وزعمَ وهب أنّ الله خلقَ في الهواءِ طيراً أسودَ فهي التي طارتْ بالحجارةِ على لُوطٍ وعلى أصحاب الفيلِ، وروى ابنُ إسحٰقَ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ ممّا خلقَ اللهُ ديكاً براثنه تحتَ الأرضِ السابعةِ وعُرفُه مُنْطوٍ تحتَ العرشِ قد أحاط جناحاه بالأفقَيْن فإذا بقي ثُلثُ الليل الأخيرِ ضربَ بجناحَيْه، ثُمّ قال سبحان ربّنا الملك القدّوس فيسمعها مَنْ بين الخافقين» فترونَ أنَّ الدِيَكَةَ إذا سمعَتْ ذلك، ورُوي أنَّ في السماء موجاً مكفوفاً، وقيلَ دونَ السماءِ بحرٌ مكفوفٌ فيه مجاري الشمسِ والقمرِ والجواري الخُنَّس، وزعم بعضهُم أنّ ذلك قوله: ﴿والبحر المسجور﴾ [الطور: ٦] قالوا: وليس في السماوات السبعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إلاّ وفيه ملكٌ قائمٌ أو راكعٌ أو ساجدٌ، وجاء في حديثِ المعراج بعجيبِ الصفةِ للخلقِ الذين في السماواتِ واللهُ أعلمُ، وهكذا جاءَتْ الأخبار، في غيرِ حديثِ المعراجِ وهكذا كلُّه جائزٌ في حدّ الإمكانِ لأنّا قدْ علمنا أنّ ما تعالى عن وجهِ الأرضِ دخَلَ في حدِّ الروحانيّين، فكلُّ ما ارتفعَ درجةً ازدادَ لطافةً ورَقّةً وليسَ البيتُ كلُّه من طينٍ وخشبٍ ولا البحرُ الماءُ المجتمعَ وقد قلنا هذا أنَّ ما خرجَ عن هذا العالمِ الأسفلِ فقدْ انقطعتِ النسبةُ إلاّ في التسميةِ، ولا يختلفُ مخالفونا أنَّ المطرَ قبلَ أنْ ينزلَ أجزاءٌ متفرّقةٌ لطيفةٌ ومِنْ لُطفِ أجزائه مُمْسِكٌ في السماء، فغيرُ مستنكَر أن يكونَ في السماءِ بحرٌ على هيئةِ أجزاءِ المطرِ، وكذلك البَرَدُ والثلجُ مع هذه روايةُ وهبٍ في الطيرِ والحجرِ وإنّما الاجتماعُ في كونِ الملائكةِ في السماءِ، قد أجازتْ جماعةٌ من القدماء أنَّ يكونَ في العُلو سباعٌ وبهائمٌ غيرُ محسوسةٍ للطافةِ أجسامِها فما ينقمون ممّن أقرّ بصورةِ الملائكة.

[صفة الكواكب والنجوم]:

قال الله تعالى: ﴿إنّا زيّنّا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكبِ وحفظاً من كلِّ شيطانٍ ماردٍ﴾ [الصّافات: ٧] وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكمُ النجومَ لتهتدوا بها في ظلماتِ البرِّ والبحرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] فأخبر أنَّ في النجومِ زينةً وحراسةً وهدايةً، وقال عزّ ذكره: ﴿فلا أقسم بالخُنَّس الجوارِ الكُنَّس﴾ [التكوير: ١٦] وقالَ كثيرٌ من أهلِ التفسيرِ: أنّهنّ الكواكبُ السيَّارةُ المتحيّرةُ فأوّلهنّ: زُحلُ في السماءِ السابعة باردُ الطبيعةِ وهو أبطأُ الكواكبِ سيراً، والثاني: المشتري في السماء السادسةِ معتدلُ الطبعِ، والثالثُ: المرّيخ في السماءِ الخامسةِ حارُّ الطبعِ، والرابعُ: الشمسُ في السماءِ الرابعةِ حارّة الطبعِ، والخامسُ: الزُهرةُ في السماءِ الثالثةِ رطبةُ الطبعِ، والسادسُ: عطاردُ في السماء الثانيةِ ممازجُ الطبعِ، والسابعُ: القمرُ في

السماءِ الدنيا باردُ الطبعِ وهو أسرعُ الكواكبِ سيراً، وكلُّ هذه الكواكبِ سُعُودٌ إلاّ زُحل والمرّيخ وقد تميّزَ عنهنّ الشمسُ والقمرُ، فيُقالُ: سَعْدانِ ونحسانِ وممازجُ، فالسعدان المشتري والزهرة، والنحسان زُحل والمرّيخ، والممازجُ عطاردُ مع النحوسِ نحسٌ ومع السعودِ سَعْدٌ والنّيران الشمسُ والقمرُ، فالشمسُ مثلُ الملكِ، والقمرُ مثل الوزيرِ له، وزُحلُ كالشيخ ذي الرأي السديدِ، والمشتري كالقاضي العادلِ، والمرّيخُ كالشُرْطي المُعذِّب، والزهرةُ كالمرأةِ الحسناءِ، وعُطاردُ كالكاتبِ، ولكلِّ كوكبٍ من هذه الكواكبِ بيْتان من البروجِ الاثني عشر إلاّ النيّرَيْن فإنّ لكلٍّ واحدٍ منهما بيتاً واحداً، ومعنى البيتِ أنّه يحلُّه في فصله ويزيدُ سلطانهُ وشَرَفهُ فيه، فالأسدُ بيتُ الشمسِ، والسرطانُ بيتُ القمرِ، والجدي والدَلْو بيتا زُحل، والقوسُ والحوتُ بيتا المشتري، والحملُ والعقربُ بيتا المريخ، والثورُ والميزانُ بيتا الزهرة، والجوزاءُ والسنبلةُ بيتا عطاردُ، وسنُفرد بمشيئة اللهِ وعونِهِ كتاباً لطيفاً في ذكر النجومِ وما يصحُّ فيها ويوافقُ قولَ أهلِ الحقّ، فإنّي أرى الجُهّالَ قد استخفّوا بها كلَّ الاستخفافِ ووضعوا من شأنِ متعاطيها وصغّروا من أقدارها التحلّي الزّرّاق والكُهّانِ بها وتنزُّعِ أبواعها إلى الأحكامُ التي عيّنها اللهُ عن خلقهِ واستأثر نفسَه بعلمها دونهم، وكيفَ المَدْخل إليها والمأخذُ فإنَّ جَحْدَ البُرهانَ وردّ العيان نقصٌ عظيم عندَ أهل البيانِ وذوي الأديانِ قال الله عزّ وجلّ: ﴿**والسماءِ ذاتِ البروجِ**﴾ [الفرقان: ٦١] وقال تعالى: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماءِ فوقهَم كيفَ بنيناها وزيّنّاها وما لها من فروج**﴾ [قٓ: ٦] وقال: ﴿**سَنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ**﴾ [فصلت: ٥٣] وقال تعالى: ﴿**إنّ في خلقِ السماواتِ والأرضِ واختلاف الليلِ والنهارِ لآيات لأُولي الألباب**﴾ [آل عمران: ١٩٠] مع آيٍ كثيرة ودلالاتٍ ظاهرةٍ، ولقدْ استدلَّ المحقّقون من أهلِ التنجّيمِ على التوحيدِ بدلالةِ ما أعظَم خطرها وأسنى رتبتها، قالوا: لمّا رأينا الفلكَ متحرّكاً فباضطرارٍ علمنا أنّ حركتَه من شيءٍ غيرِ متحرّكٍ لأنّه إنْ كانَ المحرِّكُ له متحرّكاً لزمَ أنْ يكونَ ذلك إلى ما لا نهايةَ له، والفلكُ دائمَ الحركةِ فقوّةُ المحرّكِ له غيرُ ذاتِ نهايةٍ، فليسَ يمكنُ أنْ يكونَ جسماً بلْ يجيبُ أن يكونَ محرّكاً لأجسامٍ وكما لا نهايةَ لقوتهِ فليسَ إذاً هو بزائلٍ ولا فاسدٍ قالوا: فانظروا كيفَ أدركنا الخالقَ الصانعَ المبدىءَ المُبدعَ المحرّكَ للأشياءِ من الأشياءِ الظاهرةِ المعروفةِ المُدرَكةِ بالحواسّ، وأنّه أزليّ ذو قوّةٍ وقدرةٍ غيرِ ذاتِ نهايةٍ ولا متحرّك ولا فاسد ولا متكوّن تباركَ وتعالى عمّا يقول الظالمون علوّا كبيراً.

فالبروجُ اثني عشر تنزلُ الشمسُ كلَّ شهرٍ من شهورِ السنةِ برجاً منها، فأوّلُها الحَملُ ثمّ

الثورُ ثم الجوزاءُ ثم السرطانُ ثم الأسدُ ثم السنبلةُ ثم الميزانُ ثم العقربُ ثم القوسُ ثم الجديُ ثم الدلوُ ثم الحوتُ؛ وهذه البروجُ مقسومةٌ على ثمانية وعشرين جُزْءًا تسمّى منازلُ القمرِ ينزلُ القمرَ منها كلَّ ليلةٍ منزلاً، وهي الشَرَطَانِ والبُطَيْنُ والثُريّا والدَبَران والهقعةُ والهنعةُ والذراعُ والنثرةُ والطَرْفُ والجبهةُ والزُبرةُ والصرفةُ والعوّاءُ والسِماكُ والغَفْرُ والزُباني والإكليلُ والقلبُ والشَوْلةُ والنعائمُ والبَلْدةُ وسعدُ الذابحِ وسعدُ بُلَعَ وسعدُ السَعُودِ وسعدُ الأخبيةِ وفَرْغُ الأوّلُ وفرغُ الثاني وبطنُ الحوتِ، كلُّ برجٍ منها منزلان ثلث منزلٍ فيما تقطعه الشمسُ في السنةِ ويقطعه القمرُ في الشهرِ يقول الله تعالى: ﴿والقمر قدرّناه منالَ حتى عادَ كالعُرْجُون القديم﴾ [الليل: ٣٩] فمن البروج ثلاثة ناريّةٌ: الحملُ والأسدُ والقوسُ، وثلاثة هوائيةٌ: الجوزاءُ والميزانُ والدول، ثلاثة مائيّةٌ: السرطانُ والعقربُ والحوتُ، ثلاثة أرضيّةٌ: الثورُ والسنبلةُ والجديُ، وذلك أنّها خُلقتْ من هذه الطبائعِ واْعلم أنّ إضافةَ الفعلَ الاختياريّ إلى البروجِ والنجومِ من أعظمِ الخطاءِ والخَطَلِ، إنّما هي مخلوقةٌ مسخّرةٌ موضوعةٌ على ما أرادَ الله منها كسائر السمواتِ والجوامدِ المخلوقةِ على طباعها وكما جُعلتِ النارُ محرقةً والماء مُرطبةً قال الله تعالى: ﴿وسخّر لكم الشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخّراتٌ بأمرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقد رُويتْ في النجومِ رواياتٌ ما يحكى بعضُها ويُضيفُ العلمَ إلى الله عزّ وجلّ.

ذكر صورة الشمس والقمر والنجوم وما فيها:

روى أبو حذيفة عن عطاء[١] أنّه قال: بلغني أنّه قالَ: الشمسُ والقمرُ طولهما وعرضهُما تسعُ مائةِ فرسخ في تسعِ مائة فرسخ، قال الضحّاك: فحسبناه فوجدناه تسعَ آلاف فرسخ، والشمسُ أعظمُ من القمرِ، قال: وعُظم الكواكبِ اثنا عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخاً، ورُوينا عن عكرمة[٢] أنّه قال: سعةُ الشمسِ مثلُ الدنيا وثلثُها، وسِعةُ القمرِ مثلُ الدنيا سواء، وعن مُقاتلٍ أنّه قالَ: الكواكبُ معلّقةٌ من السماءِ كالقناديلِ، قالوا: وخُلقتِ الشمسُ والقمرُ والنجومُ من نورِ العرشِ، وهذا قولُ أهلِ الإسلامِ من غير روايةٍ من كتابٍ ولا خبرٍ صادقٍ، واختلفَ القدماءُ في ذلك فحكى افلوطرخس عن بعضِهم أنّه كان يرى الشمسَ

---

(١) عَطاء بن أبي رباح، من مشاهير التابعين، سمع من الصحابة، وروى عنهم حديث الرسول تولّى الافتاء في مكة (ت ١١٤ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) عكرمة بن أبي جهل، صحابي قرشي مخزومي، من رواة الحديث، كان ذا بلاء بفتوح الشام قُتل في اليرموك (١٣ هـ). «منجد الأعلام».

مساويةٌ في عظمِها الأرضَ وأنّ الدائرة الّتي تصيرُ عليها هي مثلُ الأرضِ تسعاً وعشرين مرّةً، وعن بعضهِم أنّه قال: هي تسعةُ أقدامِ الرجلِ، وعن بعضهِم أنّها في المقدارِ الذي يراها، وعامّةُ المنجّمين على أنّ الشمسَ أعظمُ من الأرضِ مائةَ وستّ وستّين مرّة ورُبعَ ثُمنِ مرّة، فانظرْ إلى هذا الاختلافِ الظاهرِ والتفاوتِ البيّنِ، وهلْ يستجيزُ ذو عقلٍ عيبَ المسلمين في روايتهم مع ما يرى من اختلافِ أصحابِهِ واختلاف قولِهم، واختلفوا في جرمِ الشمسِ فحكى عن أرسطاطاليس أنّه كان يرى جُرمَ الشمسِ من العنصرِ الخامسِ، وكذلك جرمُ الفلكِ، وعن أفلاطن أنّه كان يرى أكثر جوهرِ الشمسِ ناراً، وعن الرواقيّين[1] أنّهم يرونَ الشمسَ جوهراً عقليًا يرتفعُ من البحرِ، ومنهم مَنْ يزعمُ أنَّ جُرمَ الشمسِ كالخَضِرة المستنيرة، ومنهم مَنْ يراه كالزجاجِ تقبلُ استنارةَ النارِ التي في أعلى العالمِ، ويبعثُ الضوءَ إلينا فتكونُ الشمسُ على رأيه ثلاثاً إحداها: التي في أعلى العالمِ في السماءِ وهي ناريّةٌ، والثانيةُ: التي تكون على سبيلِ المِرْآة، والثالثةُ: الانعكاسُ الذي ينعكسُ إلينا بضَوْءِه، ومنهم مَنْ يقولُ أنّ جوهرَ الشمسِ أرضيٌ متخلخلٌ كالغيمِ يلتهبُ ناراً، وأمّا المسلمون فأنّهم يقولون إنّما خُلقتْ من نورٍ، ومنهم مَنْ يقولُ: من نارٍ، والنارُ والنورُ قريبٌ في المعنى والله أعلمُ، واختلفوا في شكلِ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ فحكى عن الرواقيّين أنّهم يرون هذه الأشكالَ كُرويّة كمام العالم كُرويّ، وعن بعضهم أنّ شكلها شكلُ السفينةِ المقعّرةِ المملوءةِ ناراً، وقالتْ طائفةٌ منهم: إنّ النجومَ بمنزلةِ المساميرِ المسمَّرةِ في الجوهرِ الجليديّ والفصوصِ المركَّبة، وقالَ قومٌ: هي صفائحُ دُقاقٌ[2] والله أعلمُ؛ واختلفوا في جُرمِ القمرِ فحكى بعضهِم أنّ جرمَ القمرِ سحابٌ مستديرٌ، وافلاطن يقول: الجوهرُ الناريّ في تركيبِ القمرِ جسمٌ صلبٌ مستنيرٌ فيه سطوحٌ وجبالٌ وأوديةٌ، ويحتجُّ ما يرى في وجهه من الأثرِ؛ وأكثرُ المنجّمةِ يزعمون أنّه عينٌ صقليةٌ تقبلُ من ضوءِ الشمسِ ولذلك يتّسقُ في المقابلةِ، وكذلك النجومُ فأخذَ ضوءَها من الشمسِ والله أعلمُ؛ واختلفوا في عظمِ القمرِ والكواكبِ فحُكي عن بعضهم أنّه مثلُ الشمسِ، وعن بعضهِم أنّه أصغرُ منها، وزعم قومٌ: أنّه أعظمُ من الأرضِ، وزعم الآخرون: أنّ الأرضَ أعظمُ منه، والمنجّمةُ منهم مَنْ يزعمُ أنّ أصغرَ كوكبٍ من الكواكبِ الثابتةِ هو أعظمُ من الأرضِ ستّ عشرَ مرّةً، وأكبرها أربعَ مائة وعشرين مرّةً، وأمّا السيّارةُ فالشمسُ أعظمُ

---

(١) الرواقيين: مذهب فلسفي وأخلاقي يوناني يرى أن قدراً محتوما رسمه الله، يسيطر في الكون لذا فإنّ الخليقة تعيش وفقاً للطبيعة أي اللنظام الكوني الإلهي. «معجم علم الأخلاق».

(٢) صفائح دُقاق: أي غير غليظة.

من الأرض مائةَ مرّةٍ وستّين مرّةً ونيفاً كما قلنا، وزُحلُ مثلُ الأرضِ تسعاً وتسعين مرّةً ونيفاً، والمشتري مثلُ الأرضِ إحدى وثمانين مرّةً ونِصفاً ورُبعاً، والمرّيخُ مثلُ الأرض [1] مرّة ونصفاً، والزُهرةُ مثلُ الأرض أربعاً وأربعين مرّةً، وعُطاردُ مثلُ الأرض اثنين وستّين مرّةً، والقمرُ مثلُ الأرض تسعةً وثلثين مرّةً ورُبعاً واللهُ أعلمُ؛ واختلفوا في أجرامِ الكواكبِ وأشكالِها كما اختلفوا في الشمسِ والقمرِ فزُعم أنّها أنوارٌ كُرويّةٌ، وكان أرسطاطاليس يرى الكواكبَ حيّةٌ ولها النَفسُ الناطقةُ قال: فلذلك يدلُّ على اتّفاق النفسِ الناطقةِ الحيوانيّةِ، وزعم بعضُهم: أنّ الكواكبَ لها صُورَ كصُورَ الخلقِ، ومنهم مَنْ يزعمُ أنّها إلهة، وزَعَم آخرون: أنّها ملائكةٌ، وقال قومٌ: إنّ الكواكبَ والشمسَ والقمرَ في فلكٍ واحدٍ لا في أفلاكٍ مختلفةٍ، وقرأتُ في كتابِ الخُرّميّة أنّ الكواكبَ كُرىً وثُقبٌ وأنّها تنزعُ أرواحَ الخلائقِ وتسلّمها إلى القمرِ فذلك زيادةُ القمر حتّى إذا انتهى في الكمالِ والتمامِ غايته سلّمها إلى من فوقَه واستفرغَ، ثم عادَ في تسلّم الأرواحِ من الكواكبِ حتّى يعودَ مُملئاً، فاعتبرْ بهذه العجائب واتّبعْ كتاب الله عزّ وجلّ وما صحّ عن رسول الله ﷺ وعلى آله يقول الله تعالى: ﴿وجعل الشمسَ سِراجاً والقمرَ نوراً﴾ [نوح: ١٦] لأن السراجَ يجمعُها وكذلك خبرُه عن الكواكبِ حيثُ قال: ﴿فأتْبعه شهابٌ ثاقب﴾ [الصافات: ١٠] قال: ﴿وجعل القمرَ فيهنّ نوراً﴾ [نوح: ١٦] وجملةُ القولِ أنّ كلّ ما رُوي في هذا البابِ عن القدماءِ وأصحابِ النجومِ ممّا لم يكنْ نقصاً للتوحيدِ وإبطالاً للشريعةِ أو جحداً للعيانِ فموقوفٌ على سبيلِ الجوازِ والامكانِ قال الله تعالى: ﴿ربُّ المشرقين وربّ المغربين﴾ [الرحمٰن: ١٧] وقال تعالى: ﴿ربّ المشارق والمغارب﴾ [المعارج: ٤٠] على الجميع ﴿وربّ المشرق والمغرب﴾ [الشعراء: ٢٨] على الإرسال، وذلك أنّ للشمس مائةَ وثمانين مشرِقاً ومائةَ وثمانين مغرباً تطلَعُ كلَّ يومٍ من مشرقٍ وتَغْرُب في مغربٍ يقابلهُ، والمشرقان مشرقٌ أطولُ يوم في السنة عندَ حلولِ الشمسِ برأسِ السَرَطان وأقصر يومٍ عندَ حلولها برأسِ الجدي، ومَغرباها مُحاذياً بهما على السواءِ، وقال: ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أنْ تُدركَ القمرَ﴾ [يٓس: ٤٠] فأخبر أنّهما يتقاربان ولا يتداركان، وكلّما دنا من الشمسِ منزلةً انمحق[2] ضوءُه حتّى يستترَ، وكلّما بَعُدَ ازدادَ ضوءًا حتّى إذا قابلَها كمُل واتّسقَ، قال بعضُ المفسّرين في قوله: ﴿فمحَوْنا آيةَ الليل﴾ [الإسراء: ١٢] فهو ما امتهن القمر به من الزيادة والنقصان والله أعلم.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) انمحق: اضمحل وبطلُ، ولم يكدْ يُرى.

ذكر طلوع الشمس والقمر وكسوفهما

ورُوي في الأخبارِ أنّ الشمسَ إذا غُربتْ مرّت حتّى تقطعَ الأرضَ، فتخرُّ ساجدةً بين يَديْ العرشِ، فتُسلبُ ضوءَها، فتكتسى نوراً جديداً، ثُمّ تُؤْمَرُ أنْ ترجعَ فتطلعَ فتأبى ذلك، وتقولُ لا أَطلُع على قومٍ يعبدونني من دونَ اللهِ حتّى ينخسها[1] ثلاث مائة وستّة وستّون ملكاً فإذا طلعتْ خلعَ عليها ثلاثَ حُللٍ حمراً وبيضاً وصفراً، وكذلك ما يُرى من تغيّرِ ألوانِها عند طلوعِها وأنْشِد النبيّ ﷺ فيما روى قول أُميّة: [كامل]

والشَّمسُ تصبحُ كُلَّ آخرِ ليلة ... حمراءَ تضحى لونُها يتوقّدُ
تأبى فما تطلعُ لنا في رِسْلها ... إمّا مُعذَّبةٌ وإمّا تُجلَدُ

فقال النبيّ ﷺ وعلى آله صَدَق، وعند أهلِ النجومِ الشمسُ لا تزالُ طالعةً على قومٍ وغاربةً على قومٍ لأنّها دائرةٌ على كُرَةِ الأرضِ دوراً مستقيماً، وقد ينكرُ كثيرٌ من الناسِ نَخْسَ الشمسِ وإباْها الطلوعَ لأنّها مسخّرةٌ جمادٌ غير مكلّفةٍ ولا مختارةٍ مع أنّ الخبرَ ما أراه يصحُّ فالتأويلُ والتمثيلُ من ورائه لأنّ العرشَ مُحيطٌ بالعالمِ، فحيثُ ما سجدتْ تحتَ العرشِ ولكن رُبّما فضل بعض البقاعِ على بعضٍ، فوصفَ بالتقريبِ كقولنا فلانٌ يعينُ الله وكلُّ شيء يعينه، وكقولنا بيوتُ الله وما أشبه ذلك، وأمّا سجدةُ الشمسِ والقمرِ والنجومِ والشجرِ وغيرِ ذلك ممّا توصفُ به الأرضُ والسماءُ وسائرُ الخلقِ الذي ليس بمُميِّزٍ ولا عاقلٍ، فهو انقيادٌ لما يُرادُ منها وتذلّلها لما وضعتْ عليه من طبعٍ أو حركةٍ وقلّة امتناعها على صانِعها، وقد قِيلَ بل أثَرُ الصُنْعِ فيها يدلُّ ويحملُ الناظرَ على السجودِ لصانِعها فأُضيفَ السجودُ إليها لما كانتْ هي سببه، ومن يرى الشمسَ والقمرَ والكواكبَ أحياءَ ناطقةً فما ينكرُ من سجودها وتسبيحها مع أنّا نُجيزُ أنْ يُحدِثَ اللهُ في الجمادِ معنىً يسجدُ به ويطيعُ لأنّ ذلك على الله غيرُ عزيزٍ، وقد سبقَ ذكرُ هذه الأشياء ومعنى حقائِقها على التقصّي والبيانِ في كتابِ معاني القرآن وإمّا نخسُ الملائكةِ إيّاها فيشبهُ أن يكونَ تمثيلاً ليكونَ كما قال الشاعرُ وهو طرفة بن العبد[2]: [طويل]

ووَجْهٌ كأنّ الشمسَ ألقتْ رِداءَها ... عليه نقيُّ اللون لم يتخدَّدِ

(١) ينخسُها: يحركها أو يضربها فتهيج.

(٢) شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات، ولد في البحرين، كان ثرياً، اتصّل بعمرو بن هند، ملك الحيرة ومدحه ثم غضب عليه الملك وأمر بقتله نحو (٥٦٤ هـ) له ديوان مطبوع ومعلقة. «منجد الأعلام».

فإن كانَ الخبرُ محتملاً للتأويلِ فلا معنى للتسرّعِ إلى التخطئةِ والتكذيبِ، وزعم وهبٌ أنّ الشمسَ على عِجْلةٍ لها ثلثمائة وستّون عُروة قد تعلّق بكلّ عروةٍ مَلَك من الملائكةِ يجرّونها في السماءِ وكذلك القمرُ، وعجلةُ القمرِ من نورِ الشمسِ، قال: وللبحرِ مَوْجٌ مكفوفٌ في الهواء كأنّه جبلٌ ممدودٌ، ولو بدَتِ الشمسُ من ذلك البحرِ لأُفتنِ أَهلُ الأَرضِ حتى يعبدوه من دونَ الله، وروى غيرُه أنّ الله تعالى قد وكّل بعينِ الشمسِ حتّى تغربَ فقال: في نارٍ حاميةٍ لولا ما يزعها من ملائكة الله لأَحرقت ما عليها وقيلَ: إنّ الشمسَ يضيءُ وجهُها لأهلِ السماء وظهرِها لأهلِ الأرض، قالوا: والشمسُ إذا هبطتْ من سماءٍ إلى سماءٍ انفجرَ الصبحُ حتّى إذا انتهَتْ إلى سماءِ الدُنيا أسفرَ، قال وهب فإذا أَرادَ اللهُ أن يُرِيَ العبادَ آيةً يستعتبهُم زالتِ الشمسُ عنِ تلك العجلةِ في ذلك البحرِ، وإذا أرادَ اللهُ أن يُعظِّم الآية وقعتْ كلُّها، وكذلك القمرُ وقد قُلْتُ لك في غير موضعٍ أَنّ الاعتمادَ على شيٍء من هذه الأخبارِ ما لم يكنْ نصّ كتابٍ أو صِدق خبرٍ، ولكن يُوقف، ولا يقطعُ على شيءٍ منه حتّى يصحَّ، والثابتُ عن النبيّ ﷺ أنّه كسُفتِ الشمسُ يومَ ماتَ ابنُه إبراهيم عـم فقالَ الناسَ: إنّما كسفتِ الشمسُ لموتِه، فخطبَ وقال: «إنّ الشمسَ والقمر آيتان من آياتِ الله لا ينكسفان لموت أَحدٍ ولا حياتِه فإذا رأيتمُ ذلك فافزعوا إلى الصلاةِ» والقدماءُ مختلفون في الكسوفاتِ كما حكى افلوطرخس زَعمَ أنّ بعضهَم يرى كسوفَ الشمسِ بمسيرِ القمرِ تحتَها، وبعضهُم يرى ذلك لانقلابِ جسمِ الشمسِ الشبيهِ بالسفينةِ فيصيرَ مُقعّره إلى فوق ومُحدودَبُه إلى أسفلٍ، وبعضهُم يرى الشمسَ شموساً كثيرةً والقمرَ أقماراً كثيرةً في كلِّ أقليمٍ من أقاليمِ الأرضِ وفي كلِّ قطعةٍ ومنطقةٍ وزمانٍ، وزعم بعضهُم أنَّ كسوفَ القمرِ بانسداد القعرِ الذي فقي تقويسه، وأمّا افلاطن وأرسطاطاليس والخلاّف منهم فيرون الكسوفاتِ بدخولها تحتَ ظلِّ الأرضِ وذلك إذا كانتِ الشمسُ تحتَ الأرضِ والقمرُ في مقابلتِها وكانا في طريقةٍ واحدةٍ وقعَ ظلُّ الأرضِ على جرمِهِ، فحالَ بينه وبين الشمسِ المضيئةِ له لأَنّ ضَوْءَه من الشمسِ، وأمّا كسوفُ الشمسِ فبمرورِ القمرِ تحتها، فيعتبرُ مُنْكِرٌ أن يجعلَ اللهُ كسوفَه بظلِّ الأرضِ آيةً للحقِّ يستعتبهُم وإن كانَ سقوطُه عن العجلةِ كما رُوي تمثيلاً لدخوله تحتَ ظلِّ الأرضِ، وقولُه أنّ عجلة القمرِ من نورِ الشمس رمزٌ إلى اقتباسِ القمرِ من نورِ الشمسِ، وقولهُم الشمسُ على عجلةٍ لها ثلاثمائة وستّون عُروة يعني به الفلكَ ودرجاتِه الثلاثمائة والستّين واللهُ أعلمُ، وقوله كلَّما هبطتِ الشمسُ من سماءٍ إلى سماءٍ انفجرَ الصُبحُ يعني بها مسيرَها في درجاتِها وارتفاعِها من منزلةٍ إلى منزلةٍ؛ لأنّ أهلَ التنجيمِ لا يختلفون أنّها في سماءٍ واحدةٍ، واختلفوا

في السوادِ الذي يُرَى في وجهِ القمرِ، فروى المسلمون: أنّه لطخَه ملكٌ، ورووا أنّ القمرَ كان مثلَ الشمسِ فلم يكنْ يُعرَف الليلُ من النهارِ فأمرَ اللهُ المَلَكَ أنْ يمرَّ جناحَه عليه فمحاه فهو ما يُرى من السوادِ في وجهه، وحُكي عن ديمقريطيس[1] أن جسَم القمرِ مستنيرٌ صُلْبٌ فيه سطوحٌ وأوديةٌ وجبالٌ فلذلك ما يُرى في وجهه، وزَعمَ بعضهُم أنّه سحابٌ مستنيرٌ يلتهبُ، وقال قومٌ: إنّه عينٌ صقليةٌ كالمرآةِ يقبلُ ضوءَه من الشمسِ إذا ما قابَلها فذاك الجِبَالُ في وجهه ما قابله من عينِ الشمسِ، والأمرُ في هذا سَهْل وذلك أنّه لو كانَ كما زعمَ القومُ كان يمحو اللهُ إيّاه كما جاء في الخبرِ إمّا لخلق جِبال فيه أو باظهارِ جبالٍ أو بما شاءَ؛ واختلفوا في انقضاضِ الكواكبِ فقالَ المسلمون: هو رجومٌ للشياطين، كما قالَ الله تعالى، وقلّما يُنكرُ الصُورَ الروحانيّةَ في السماءِ إلاّ أهلُ التعطيلِ والإلحادِ، ثُمّ هم مُقرّون بتأثيرِ الفلكِ والكواكبِ وما فيها فلامعنى لإنكارِهم استراقَ مَنْ يسترقُ السمعَ مع من أنكرَ الصُورَ السماويّةَ فهو الأرضيّةُ من الجنّ والشياطين أنكر، فإنْ قِيلَ: لم تزلِ الكواكبُ تنقضّ وأنتم تزعمون أنّ السماءَ حُرستْ عند مبعثِ النبي ﷺ قِيلَ: انقضاضُ الكواكبِ ليسَ كلُّه رجوماً للشياطين ولعلَّ الذي يرجمون به لا يشعرُ به أحدٌ ولا يراه أو تنقضّ الكواكبُ لعلّةٍ من العلل، ، أو يقرن اللهُ إليه عذاباً للشياطين وقد سُئل الزُهْريُّ[2] هل كانت السماءُ تحرُسُ في الجاهليّة؟ قالَ: نعم، فلمّا بُعِث محمّد ﷺ غُلِّظ وشُدِّد؛ ومن المنجمّين مَنْ يزعمُ أنّه يجلد السماء، وحُكي عن بعضهم أنّه قال بمنزلةِ الشرارةِ تسقُطُ من الأثيرِ فيَطْفَأُ على المكانِ، وزعمَ بعضهُم: أنّه برغوثٌ من الشمسِ مع اختلافٍ كثيرةٍ، واختلفوا في المجرَّةِ فحكى أفلوطرخس عن بعضهم أنّه فلكٌ وسحابٌ، وعن بعضِهم أنّه استنارةٌ كواكبٍ كثيرةٍ صغارٍ متّصلةٍ بعضِها ببعضٍ، وعن بعضهِم أنّه تخييلٌ في العينِ، وعن بعضِهم أنّ مسيرَ الشمسِ كان أوّلاً عليه، وقال أرسطاطاليس: إنّه التهابُ بُخارٍ يابسٍ كثيرٍ متّصلٍ في صورةِ النارِ تحتَ الكواكبِ المتحيّرةِ، ومن المسلمين مَنْ يسمّيها بابَ السماءِ ومنهم مَنْ يسمّيها شرجَ السماءِ.

---

(١) فيلسوف يوناني، مؤسس الفلسفة المادية، قال: إنّ كلّ كائن مركبٌ من ذرات لا تحصى وإنّ السعادة تقوم بضبط أهواء النفس (عاش في القرن الخامس قبل الميلاد). «منجد الأعلام».

(٢) الإمام، المحدّث، قاضي الكوفة، أبو إسحاق، ابراهيم بن أسحاق الكوفي، قال الخطيب: كان ثقةً فاضلاً، صالحاً، مات في ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومئتين. (سير أعلام النبلاء ١٣/١٩٨).

[ذكر ما يعترض في الجوّ]:

اختلفوا في الرياح قال الله تعالى: ﴿وهو الذي يُرسلُ الرياحَ بشراً بينَ يدي رحمته﴾ [الأعراف: ٥٧] فأخبر أنّها بُشْرَى المطرِ وقال عزّ ذكره: ﴿الله الذي يرسلُ الرياحَ فتُثيرُ سحاباً﴾ [الروم: ٤٨] فأخبر أنّها باعثةٌ الغيمَ ومُثيرةٌ السُّحَاب، وقَالَ تعالى: ﴿وأرسلنا الرياحَ لواقحَ﴾ [الحجر: ٢٢] فأخبرَ أنّها تُلقحُ الشجَر والأرضَ، قال الله تعالى: ﴿وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريحَ العقيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] فأخبر أنّها ضدُّ الرياحِ اللاقحةِ لأنّها عذابٌ واللاقحةُ رحمةٌ، وصحّ النبي ﷺ أنّه قال: «نُصِرْت بالصبا وأُهْلِك عاداً بالدبورِ وما جَنُوب إلاّ صبّ الله بها غيثاً» وروي لا يَبْسُو الرياحَ فإنّها نَفَسُ الرحمنِ، وقالَ المفسّرون: إ﴿نّ اللهَ تنفّسَ بها عن كمدِ الأرضِ وكربةِ الخلق بما ينزلُ بها من الغيثِ، ويروّحُ من الهواءِ، وقِيلَ: الريحُ نَفَسُ مَلَكٍ، واللهُ أعلمُ.

الرياحُ أربعٌ: الصبا والجَنوبُ والشمالُ والدَّبُور، ويُقالُ: الريحُ واحدةٌ وإنّما يختلفُ في المهبِّ من الجهاتِ، فالصبا: هي القَبول، ومخرجُها بينَ المشرقين مشرقِ الصيفِ ومشرقِ الشتاءِ من مطلعِ الذراعِ إلى مطلعِ سَعْدِ الذابحِ، والدَّبُورُ: يقابلُها، والجنوبُ مخرجُها ما بينَ مشرقِ الشتاءِ إلى مغربِ الشتاءِ من مطلعِ سعدِ الذابحِ إلى مسقطِ العقربِ، والشمالُ: يقابلُها، والمطالعُ مائةٌ وثمانون، والمغاربُ مائةٌ وثمانون لكلِّ مطلعٍ ريحٌ ولكلِّ مغربٍ ريحٌ، وكلُّها داخلةٌ في هذه الأربعِ، والريحُ هي الهواءُ بعينهِ فإذا أحدثَ الله فيه حركةً هبّتْ واضطربتْ، وكذلك يقولُ أكثرُ القدماءِ: إنّ الريحَ سَيَلانُ الهواءِ، ويزعمونَ أنّ هبوبَها مرورُ الشمسِ بالأرضِ، فيرتفعُ منها البُخارُ فإذا كانَ البخارُ رَطْباً كان مادّةَ الأمطارِ، وإنْ كانَ يابساً كان مادّة الرياحِ، وهذا جائزٌ أنْ يجعلَ اللهُ مرورَ الشمسِ علّةً لإثارتِها إذا شاء، كما جعلَ السحابَ للمطر، وقد جاء في بعضِ الأخبارِ أنّ الصبا من الجنّةِ، والدَّبورَ من النارِ؛ ورُوينا عن الحسنِ أنّه قالَ: الجَنوبُ يخرجُ من الجنّةِ فيمرُّ بالنار فمِن ثَمَّ حرُّها، والشِمالُ تخرجُ من النّارِ فتمرُّ بالجنّةِ فمن ثَمّ بَرْدُها، وهذا والله أعلمُ وإنْ صحَّ إضافة التمثيلِ لا من التبعيضِ كما يُقالُ للرجلِ الفاضلِ هو من الملائكةِ، وللشرّيرِ هو من الشياطينِ يُراد به التشبيه بهم لا من جنسهِم وجملتِهم؛ والمنجّمون يزعَمون أنّ حرارة الجنوبِ لمجيئِها من بلادٍ حارّةٍ فترقُ الشمسُ منها، وبردُ الشمالِ لبُعدِ الشمسِ عن تلك النواحي واللهُ أعلم.

فأمّا الغيومُ والسحابُ والانداءُ والضبابُ فهي بخارٌ يرتفعُ من الأرضِ فما غلُظ منها صَارَ سحاباً، وما رقَّ صارَ ضباباً وقِتاماً، قال الله تعالى: ﴿اللهُ الذي يرسلُ الرّياحَ فتثيرُ

سحاباً﴾ [الروم: ٤٨] والمنجمون يزعمونَ أنّ الشمسَ تمرُّ بمواضيعِ نَدِيَّةٍ وبطائح[1] غمْر[2]، فتثيرُ سحاباً بحرارةِ مرورِها فإذا تكاثفَ ذلك النجارُ صارَ غيماً، قالوا: والمطرُ اجتماعُ ذلك النجارِ وانعصارُه فيقطرُ كما يقطرُ طَبَقُ القِدْر لأنّ كلْ شيء نَدٍ إذا حَمِيَ ثارَ منه البخارُ، وذلك أنّ الحرارةَ إذا خالطتِ الرطوبةَ لَطُفَتْ أجزاءُها فصيّرتْها هواءً، فإذا كُثر في ذلك البخارُ يردُ الهواءُ ردّه البردُ إلى الأرضِ فتكاثف وانعصرَ وصارَ ماءً فانحدرَ، فإنْ كانَ ذلك المُنْحدِرُ شيئاً صغيراً يسيراً سُمّي نداً، ولذلك تكونُ الأنداءُ في الشتاءِ وفي الليالي أكثرَ لكثرةِ برودةِ الهواءِ، فإنْ كانَ النجارُ الصاعدُ خفيفاً يسيراً، وكانَ البردُ الذي هجمَ عليه من فوقُ شديداً صَارَ ذلك ثلجاً، وإنْ ألحَّ البردُ على السّحابِ انقبضَ الماءُ الذي فيه. فجَمدَ وصَارَ بَرَداً، وإنّما الاختلافُ في صِغرِه وكبرِه لبُعْدِ مسافةِ الغيمِ من الأرضِ وقُرْبه، فإذا قَرُب نزلَ بسرعةٍ لم يَذُبْ عن جوانبِهِ شيءٌ فبقي كبيرَ الحَبّ والقُطْر وكذلك المطرُ؛ وهذا كلُّه ممكنٌ جائزٌ لا نعلمُ في شيء منه ردًّا للكتابِ ولا إبطالاً للدّين.

وقدْ رُوينا عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ اللهَ تباركَ وتعالى يُرسلُ الرياحَ فتُثير سحاباً وينزلُ عليه المطرَ فتمخضُهُ الريحُ كما تمخض[3] النَّتُوج[4] بولدِها، فإمّا حكايةُ وهبٍ أنّ الأرضَ شكَتْ إلى اللهِ أيّامَ الطوفانِ وأنّه جدّدَها فجعلَ السّحابَ غِرْبالاً للمطرِ فإنْ صحَّ فالمعنى أنّه زِيدَ في كتابةِ السحابِ وغِلَظه كما كان قولُ ذلك، وقوله تعالى: ﴿ويُنزّل من السماءِ من جبالٍ فيها من بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] فأكثرُ أهلِ اللغةِ على أنّ البَرَد في الأرضِ كالجبالِ، إذا نزلَ من السماءِ، والسماءُ السُّحابُ لا يختلف أهلُ اللُغةِ في ذلك، وقال قومٌ: إنَّ الأمطارَ كُلّها من بُخارِ الأرضِ وما البخارُ إلاّ مطرةٌ واحدةٌ يُنزلُها اللهُ من السماءِ في كلِّ سنةٍ فيُحْيي بها الأرضَ والشجرَ والنباتَ وهو قوله: ﴿ونزّلنا من السماءِ ماءً مُباركاً﴾ [قّ: ٩] الآية واللهُ أعلمُ.

[الرعود والبروق]:

فأمّا الرعودُ والبروقُ والصواعقُ والشُبْهانُ وقوسُ قُزَح والهدّاتُ والزلازلُ.

---

(١) بطائح: جمع أبطح، وهو مسيل واسع فيه رمل ودُقاق الحصى.
(٢) غَمرْ: مليئة بالماء.
(٣) تمخض: يقال: تمخض النتوج: يأخذها الطلق.
(٤) النتوج: الحامل من البهائم.

جاء في بعضِ الأخبارِ أنّ الرعدَ مَلَكٌ مُوكَّلٌ بالسّحابِ معه كذا من حديدٍ يسوقُه من بلدٍ إلى بلدٍ كما يسوقُ الرّاعي الإبلَ، كلّما خالفَ سَحابٌ صاحَ به، فصوتهُ زَجْرُهُ، السحابُ والبرقُ مَصْعُه، والصواعقُ شراره، وفي الحديثِ الآخَرِ أنّ السّحابَ مَلَكٌ يتكلّمُ بأحسن الكلامِ، ويضحكُ بأحسنِ الضحْكِ، فالرعدُ كلامهُ، والبرقُ ضحْكهُ، واللهُ أعلمُ بصحّة هذهِ الأخبارِ لأنّ محمّد ابن جريرِ الطبريّ[1] رحِمَه الله روى في كتابِ التفسيرِ: أنّ ابنَ عبّاسٍ رضي الله عنه كتبَ إلى ابن الجلدِ يسألُه على الرّعد والبرقِ فقال: الرعدُ الريحُ، والبرقُ الماءُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يسبّحُ الرعدُ بحمدِه والملائكةُ من خيفتهِ ويرسلُ الصواعقَ فيصيبَ بها مَنْ يشاءُ﴾ [الرعد: ١٣] فأخبرَ عن تسبيحِ الرّعدِ وإرسالِهِ الصواعقِ كما أخبرَ عن قولِ السماواتِ والأرضِ ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١] والقدماءُ مختلفونَ في هذهِ الأشياءِ، وأرضاهُم عندَهم أرسطاطاليس، وهو يزعمُ أنّ الشّمسَ إذا مرّتْ بالأرضِ فأثارتِ البُخارَ اليابسَ والبخارَ الرَطْبَ فانعقدَ غيماً، فإذا اجتمعَ ذلك البخارُ الرطبُ هُناك حصرَ ما فيه من البخارِ اليابسِ في جَوْفِ السماءِ فقرعَ السُّحابَ وحكَّهُ وصدَعَه، فيكونُ من ذلك الصَدْمُ والاحتكاكِ الرعدُ، ويكونُ من ذلك الخرْقِ والصّدْعِ البرقُ، والصّواعقُ في المَثَلِ كما يتطايَرُ من شَرارِ الزندِ، وذلك إذ اجتمعَ إلى ذلك الاحتكاكِ حرارةُ الشّمسِ واليبوسةِ فعندَ ذلك تحدُثُ الصّواعقُ؛ وقد بيّنا فيما مضى أنّ اسمَ الملِ قد يقعُ على الصُورِ الروحانيّةِ وعلى الجمادِ من جهةِ الانقيادِ والاستسلامِ لما وُضَع له، فغيرُ بعيدٍ أن يُسمَّى الرعدُ وهو ريحٌ أو صَدْمُ سحابٍ ملكاً على هذه الوجوهِ واللهُ أعلمُ.

وقد شبّه أرسطاطاليس الصوتَ الذي يكونُ في السحابِ بالحطَبِ الرّطبْ الذي يُستعملُ في النّارِ فيُسمعُ له صوتٌ وقعقعةٌ، ويجوز أنْ يكون اللهُ يخلقُ من اضطرابِ الرّيحِ في السّحابِ مَلَكاً يُسمّيه الرعدَ؛ ونحن نوفقُ بين مقالاتِ أهلِ الإسلامِ وآراء القدماءِ ما لم نجدِ النصَ من كتابِنا والخبرَ الصادقَ عن نبيّنا ﷺ، فمتى وجدْنا شيئاً من ذلكَ بخلافِ آرائهم فذاك الرأيُ منبوذٌ مهجورٌ.

وأمّا هالةُ الشمّسِ والقمرِ والكواكبِ فمن اجتماعِ البُخارِ في الجوِّ وتكاثفهِ، فإذا سطعَ نُورُ الشّمسِ والقمرِ في الهواءِ عطفَ ذلك النورُ راجعاً في الهواءِ على ذلك البخار فترى تلكَ

---

[1] محمد بن جرير، مؤرخ وموسوعي، مفسّر، مقرىء، محدّث، ولد في طبرستان، اختار لنفسه مذهباً في الفقه، أقام أخيراً في بغداد حيث توفي فيها سنة (٣١٠ هـ) له (جامع البيان في تأويل القرآن). «منجد الأعلام».

الداراتِ؛ وقد يقول قومٌ بخلافِ هذا واللهُ أعلمُ.

وأمّا الشُّهبانُ والأعمدةُ فهي من البخارُ اليابسِ إذا علا في الجوّ حتّى قُربَ من فلكِ القمرِ فَلْينحنِ هنالك ويلتهِبْ بحركةِ الفلكِ، فإذا كانَ ذلك البخارُ متّصلاً بعضُه ببعضٍ يُرى كالشّهابِ والعمودِ والكوكبِ ذي الذؤابة، وقال قومٌ: إنّ ذلك تخيُّل في البصرِ لا حقيقةَ له.

وأمّا قوسُ قُزَح فمن شُعاعِ الشّمسِ الراجعِ إلى البخارِ الرّطْبِ كمثل ما يشرقُ الشعاعُ في الماءِ، ثُمّ يرجعُ إلى الحائطِ، وقد يعرضُ مثلُ ذلك لغربةِ رَمِدٍ إذا نَظَر إلى السّراجِ، ويُمكن أن يُمتحنَ ذلك بأنْ يقفَ واقفٌ بحذاءِ الشّمسِ ويأخذَ ماءً فيُريقُه فيما بينهما، ويفعلُ ذلك متّصلاً حتّى إذا كانَ انعكاسٌ وَجدَ من ذلك قوسَ قُزَحٍ؛ وأمّا حُمرتُه وصُفرتُه فمن قبلِ الرطوبةِ واليُبْسِ، وقياسُ ذلك النارُ فإنّها إذا كانتْ من حطبٍ يابسٍ كان لونُها أصفرَ صافياً، والخضرةُ التي فيه بعدَ الصفرةِ فلأنّ الجسمَ الذي ينعكسُ عنه يكونُ أكبرَ كدُورةٍ؛ وزعَمَ بعضهُم أنّ ذلك تخيُّلٌ لا حقيقةَ له كراكبِ السفينةِ يتخّيل إليه أنّ الأرضَ تسيرُ معه؛ ورُوي أنّ ابن عبّاس كان يكرهُ أنْ يقولَ قوسُ قُزَحُ، ويقول: قوسُ قُزَحٍ للشيطان، وحكى وهبٌ أنّ اللهَ أظهرَ ذلك بعدَ الطوفانِ أماناً من الغرقِ واللهُ أعلمُ.

وأمّا الزوبعةُ فهي التقاءُ ريَحيْن مختلفَيْن من جهتَيْهما ومهابّهما فيرتفعُ منها إعصارٌ مستطيلٌ في الهواءِ، وقد يُقالُ: إنّه شيطانٌ واللهُ أعلمُ.

وأمّا الهدّةُ فمن وقفاتِ الرّيح في الهواءِ وفي الأرض.

وأمّا الزّلازلُ فعلى وجوهٍ وذلك أنّ الأرضَ يابسةُ الطبيعةِ فإذا مُطِرتْ رطُبتْ فتعملُ فيها الشمسُ، ويتولّد منها بخارٌ رطبٌ وبخارٌ يابسٌ، فالبخارُ الرطبُ: مادّةُ الأنداء، والبخارُ اليابسُ: مادّةُ الرّياحِ، ومن طبعِ البُخارِ الحركةُ إلى فوق فإذا تحرّكَ وصادفَ أرضاً صُلبةً اضطرّتِ الأرضُ لذلك، وإنْ صادفَ أرضاً رخوةً خرجتْ من غيرِ زلزلةٍ، فإنْ كانتِ الأرضُ حجاريّةً صُلْبةً وتزعزعتِ الريحُ في جوفِها ولم يجدْ منفذاً فرُبّما شَقَّتْهُ وصدّعته، ورُبّما خرجَتْ على أثرِ الزلزلةِ الهدّةُ الهائلةُ والصوتُ الشديدُ، وذلك لاحتقانِ البُخارِ في جوفِ الأرضِ، فإذا انشقّتْ أصابَ مخرجاً، وربّما قُلبتِ الأرضُ فيصيرُ أعلاها أسفلَها، وربّما شقّ عن عيونٍ ومياهٍ فأغرقتْ كثيراً من الأرضِ، وللقدماءِ في علّةِ الزلزلةِ كلامٌ كثيرٌ ومذاهبُ مختلفةٌ، وأمّا المسلمون فيقولون إنّها من فعلُ الله هذه الآيةَ بتحريك الريحِ الأرضَ،

وزلزلتِ الأرضِ بدمشق فخطب أبو الدَّرْداء[1] فقال إنّ اللهَ يستعتبكُم فأَعْتِبوا وأمّا ما رُوي من القصَص أنّ لكلِّ أرضٍ عِرْقاً مُتّصلاً بجبل قافٍ، والملكُ موكَّلٌ به فإذا أرادُ اللهُ أنْ يخسفَ بقومٍ أَوْمَى إليه أَنْ حَرِّكْ ذلك العرق، فإن صحَّ ما أراهُ يصحُّ إلاّ من جهةِ أهلِ الكتابِ وليسوا بأمناءٍ على ما في أيديهم فهوتشبيهٌ وتقريبٌ من أفهامِ الخلقِ وتعليمٌ بأن ذلك كلَّه من فعلِ اللهِ لا من ذاتِ نَفْسها.

[الليل والنهار عند القدماء]:

الليلُ غيبوبةُ الشمّس، والنّهارُ طلوعُها، وكثيرٌ من المسلمين يقولون: والنهارُ خَلْقانِ للهِ غيرُ الشمّسِ والقمرِ، قالوا لأنّا نرى الشمّسَ أشياءً كثيرةً فيها جرمُها ومنها ضوءُها ومنها حرُّها، وقد نشاهدُ حرارةً فلا ضوءٌ وضوءٌ بلا حرارةٍ، فنعلمُ أنَّ كلَّ واحدٍ منها معنىً منفردٌ بذاتِه، وقد قالَ اللهُ تَعالى: ﴿والشمسِ وضُحاها والقمرِ إذا تَلاها والنهارِ وإذا جلاّها والليلِ إذا يغشاها﴾ [الشمس: ٤] قالَ بعضُ المفسّرين: النهارُ يجلي الشمسَ فيكسوها ضوءًا، وفي روايةِ أهلِ الكتابِ أنّ أوّلَ ما خَلقَ اللهُ النورُ والظلمةُ، ثمّ ميّز بينهما فجعلَ الظلمةَ ليلاً والنورَ نهاراً، ثُمّ سَمَكَ السماواتِ السبعَ من دُخانِ الماءِ حتّى استقلَلْنَ وأَغطشَ في السماءِ الدنيا ليلَها وأخرجَ ضُحاها، فجرى فيها الليلُ والنّهارُ وليسَ فيهما شمسٌ ولا قمرٌ ولا نجومٌ، ثمّ دَحا الأرضَ فأرساها بالجبالِ، وهكذا روى محمّدُ بن إسحق في المبدأ فهذا كلُّه يدلُّ على أنّ الليلَ والنّهارَ ضوءًا وحرارةً، بالشمّسِ في شَيْءٍ وإنْ كانتِ الشمسُ تُعطي النهارَ ضوءًا وحرارةً، بالشمّسِ عرفنا حرَّ النّهارِ من حرِّ اللّيلِ؛ ورُوي في بعضِ القَصص أنّ اللهَ خلقَ حِجاباً من ظُلمةٍ ممّا يلي المشرقِ ووكّل به مَلَكاً يُقالُ له شراهيل فإذا غَربتِ الشّمسُ قَبضَ الملكُ قبضةً من تلك الظُّلمةِ، واستقبلَ بها المغربَ فلا يزالُ يُخرجُ الظلمةَ من خِلَلِ[2] أصابعه، ويُرسلها، وهو يُراعي الشَفَقَ، فإذا غَابَ الشفقُ يبسطُ كفّهُ فطبقتِ الدنيا ظلمةٌ، ثم نَشَر جناحَه فساقَ ظلمةَ الليلِ بالتسبيحِ[3] إلى المغربِ فذلك كلّ ليلةٍ حتى تُنقلَ تلك الظلمةُ من الشّرق إلى المغربِ، فإذا نقلَها قامتِ القيامة.

---

(١) عويمر بن مالك، صحابي خزرجي، أنصاري، من علماء القرآن، ورواة الحديث: حديث الرسول إمام وقاضي دمشق (ت ٣٢ هـ). «منجد الأعلام».
(٢) خِللَ أصابعه: ما بين أصابعه.
(٣) التسبيح: التحريك أو الجريان.

وحكى وهبٌ عن سلمان في هذه القصّةِ أنَّ مَلَكَ الليّلِ يُقالُ له شراهيلُ بيده خَرَزَةٌ سوداءُ قد دلاّها من قبل المغربِ، فإذا نظرتِ الشّمسُ إليها وجبتْ، وبذلك أُمِرَتْ، ومَلَكُ النّهارِ يُقالُ له هراميلُ بيدِهِ خرزةٌ بيضاءُ يعلّقُها من قبل المِطْلعِ، فإذا رأْها شراهيل مدّها إلى خرزتِهِ السوداءِ فتنظرُ الشمسُ إلى الخرزةِ البيضاءِ فتطلعُ، وبذلك أُمِرَتْ، فإنْ كان شيءٌ من هذا حقاً آمنّا بِهِ وصدّقنا وإنْ كانَ غيرُ ذلك فاللهُ أعلمُ على التأْويلِ والتمثيلِ.

[صفة الأرض]:

قال الله تعالى: ﴿ألم نجعلِ الأرضَ مَهاداً والجبالَ أوتاداً﴾ [النبأ: ٦]، وقال تعالى: ﴿الذي جَعلَ لكم الأرضَ فِراشاً والسماءَ بناءً﴾ [البقرة: ٢٢] وقالَ اللهُ تعالى: ﴿واللهُ جعَلَ لكمَ الأرضَ بساطاً﴾ [نوح: ١٩] وقالَ قومٌ في معنى المهَادِ والبساطِ القرارُ عليها والتمكّنُ منها والتصرّفُ فيها.

وقد اختلفَ القدماءُ في هيأةِ الأرضِ وشكلِها فذكر بعضهُم أنّها مبسوطةٌ مستويةُ السّطحِ في أربع جهات: المشرقِ والمغربِ والجنوبِ والشمالِ، ومن هؤلاءِ مَنْ زَعمَ أنّها كهيئةِ التّرسِ، ومنهم مَنْ زَعمَ أنّها كهيئةِ المائدةِ، ومنهم مَنْ زَعمَ أنّها كهيئةِ الطَبْلِ، وذكر بعضهُم تشبيهٌ بنصفِ الكُرَةِ كهيئةِ القُبّةِ وأنّ السماءَ مركّنةٌ على أطرافِها، وقال بعضهُم: هي في جانبٍ من الفلكِ الأوسطِ، وقال قومٌ: هي مستيطلةٌ كالأسطوانةِ الحجريّةَ كالعمودِ، وقال قومٌ: إنّ الأرضَ إلى ما لا نهايةَ، وإنّ السماءَ ترتفعُ إلى ما لا نهاية، وقالَ قومٌ: إنّ الذي يُرى من دورانِ الكواكبِ إنّما هو دَوْرَ الفَلكِ؛ والذي يعتمدُه جماهيرُهم أنّ الأرضَ مستديرةٌ كالكُرَةِ، وأنّ السماءَ محيطةٌ بها من كلِّ جانبٍ إحاطةَ البيضةِ بالمُحّةِ، فالصفرةُ بمنزلةِ الأرضِ، وبياضُها بمنزلةِ الهواءِ، وجِلدُها بمنزلةِ السماءِ، غير أنّ خلقَها ليس فيه استطالةٌ كاستطالةِ البيضةِ، بل هي مستديرةٌ كاستدارةِ الكُرةِ المستويةِ الخرطِ، حتّى قالَ مهندسوهم: لو حُفِر في الوهم وجهُ الأرضِ لأدّى إلى الوجهِ الآخرِ، ولو نُقِب مَثَلاً بفوشنج[1] لنفَذَ بأرضِ الصّينِ، قالوا: والنّاسُ على وجهِ الأرضِ كالنمّلِ على البيضةِ، واحتجّوا لقولِهم بحُججٍ كثيرةٍ: منها بُرهانيّ ومنها إقناعيّ فالّذي يجبُ على المسّلم اعتقادُه إجازةُ ذلك على الإمكانِ، لأنّ البسيطَ يحتملُ نشرَ الشيءِ ومدَّة كالثّوبِ وغيرِه، ويحتملُ

(١) فوشنج: بليدة بينها وبين هراة عشرة فراسخ في واد كثير الشجر، والفواكه وأكثر خيرات مدينة هراة مجلوبة منها، خرج منها طائفة كثيرة من أهل العلم. «معجم البلدان ٤/٣١٧».

التمكّنَ منه فإنْ كانَ النّاسُ على الأرضِ كما زعموا فالأرضُ لمَنْ هي تحتَه بساطٌ كمِثْل مَنْ هي فوقها وما نبأ، ولله الحمدُ علينا معاندةُ الحقِّ ومعاداةُ أهلِه ولا الإزراءُ بشيءٍ من العلومِ والآدابِ وإن كانتْ تتخيّله الدّيانةُ بقطعِ وثبتِ الولايةِ، ولا نُصرةَ للدّينِ أعظمُ من تنزيلِ الحقِّ منزلته وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه؛ وزعم بعضُهم: أنّ الأرضَ مُقعّرةٌ وَسَطُها كالجام، واختلفوا في كميّةِ عددِ الأرضين قالَ اللهُ تعالى: ﴿الذي خَلقَ سبعَ سماواتٍ ومن الأرضِ مثلهنّ﴾ [الطلاق: ١٢] فاحتملَ هذا التمثيلُ أنْ يكونَ في العددِ والاطباقِ، فرُوي في بعضِ الأخبارِ أنَّ بعضَها فوقَ بعضٍ غَلَظُ، كُلّ أرضٍ مسيرةُ خمسِ مائة عام، وما بينَ أرضٍ وأرضٍ مسيرةُ خمسِ مائة عام، وحتّى عدّ بعضُهم لكلِّ أرضٍ أهلاً على صفةٍ وهيئَةٍ عجيبةٍ، وسُمّي كلّ أرضٍ باسم خاصٍّ كما سمّا كلَّ سماءٍ باسم خاصٍّ، وزعمَ بعضهمُ: أنّ في الأرضِ الرابعةِ حيّاتِ أهلِ النّارِ، وفي الأرضَ السادسةِ حِجارَ أهلِ النّارِ فمَنْ نازعتْهُ نفسُه إلى الإشرافِ عليه نَظَر في كتبِ وهبٍ وكعبٍ ومُقاتلٍ وطَبِقَةُ هذا العلمُ فاستوفى فيها حظَّهُ فإنّها معرّضةٌ ممكّنةٌ؛ وعن عَطاءِ بن يسارٍ في قولِ الله تعالى: ﴿الذي خَلقَ سبعَ سماواتٍ ومِنْ الأرضِ مثلهنّ﴾ قالَ في كلِّ أرضٍ آدمُ ونُوحُ مِثْل نُوحِكم وإبراهيمُ مثل إبراهيمكم واللهُ أعلمُ وأحكمُ، وليس ذا بأعجبٍ من قولِ الفلاسفةِ إنّ الشموسَ شموسٌ كثيرةٌ، وإنّ القمَر أقمارٌ كثيرةٌ في كلِّ أقليمٍ شمسٌ، وفي كلِّ أقليم قمرٌ ونجومٌ، وقالتِ القدماءُ: إنّ الأرضَ سبعٌ على المجاورةِ والملاصقةِ وافتراقِ الأقاليم لا على المطابقةِ والمكاسبةِ؛ وأهلُ النّظرِ مِنْ المسلمين يميلون إلى هذا القولِ، ومنهم مَنْ يرى أن الأرضين سبعٌ على الانخفاضِ والارتفاعِ كدَرَجِ المَراقي، ويزعمُ بعضهُم: الأرضَ مقسومةٌ بخمسِ مناطقٍ وهي: المنطقة الشماليةُ والجنوبيةُ والمستويةُ والمعتدلةُ والوُسْطى، واختلفوا في مبلغِ الأرضِ وكميّتها، فرُوي عن مكحولٍ[1] أنّه قال: مسيرةُ ما بين أقصى الدُّنيا إلى أدناها خمسُ مائة سنة: مائتان من ذلك البحرِ، ومائتان ليس يسكنُها أحدٌ وثمانون فيه يأجوجٌ ومأجوجٌ[2] وعشرون

(١) يكنّى أبا عبد الله، وقيل أبو أيوب، عالم أهل الشام. وداره بطرف سوق الأحد، أرسل عن النبي (ﷺ) أحاديث وروى عن بعض التابعين، وروى عنه الزهري وغيره، وفاته مختلف فيها ويقال أنّه توفي (١١٢ هـ). «سيرة أعلام النبلاء ٥/ ١٥٩».

(٢) شخصان رمزيان، ورد ذكرهما في الكتاب المقدّس، يمثلان قوى الشرّ، تحارب أبناء الله أما في القرآن فهم أقوام عاثوا في الأرض فساداً. «منجد الأعلام».

فيه سائرُ الخلقِ؛ وعن قتادة[1] قال: الدنيا عشرون وأربعُ آلاف فرسخٍ، فملكُ السودان اثنا عشر ألف فرسخٍ، وملكُ الرّومِ ثمانيةُ آلاف فرسخٍ، وملكُ العجم ثلاثة آلافِ فرسخٍ، وملكُ العربِ ألف فرسخٍ، وعن عبد الله بن عمر[2] قال: ربعٌ من لا يلبسُ الثيابَ من السودانِ أكثرُ من جميع الناسِ وقد أخرجَ بطليموس[3] مقدارَ قطْرِ الأرضِ واستدارتِها في المجسطي بالتقريبِ، قال: استدارةُ الأرضِ مائة ألفٍ وثمانون ألفِ اسطاديوس، وهي أربعة وعشرون ألف ميل، ويكونُ ثمانية آلافِ فرسخٍ بما فيها من البحارِ والجبالِ والفيافي والغياضِ، والفرسخُ ثلاثةُ أميال، والميلُ ثلاثةُ ألف ذراع بذراعِ الملكِ، والذّراعُ ثلاثة أشبارٍ، ثلاثة أشبارٍ ستةٌ وثلاثونَ أصبعاً، والأصبعُ الواحدةُ خمسُ شعيراتٍ مضموماتٍ بطونِ بعضِها إلى بعضٍ، والاسطاديوس: أربعُ مائةِ ذراعٍ، قالَ وغَلَظُ الأرضِ وهي قُطْرُها سبعةُ آلافٍ وستّمائة وثلاثون ميلاً، يكون ألفين وخمس مائةِ فرسخٍ وخمسة وأربعين فرسخاً وثُلثاً، قال فبسيطُ الأرضِ كلِّها مائةُ وإثنان وثلاثون ألف ألف وستّمائة ألف ميلٍ يكون مائتي ألف وثمانية وثمانين فرسخاً فإنْ كان حقًّا فهو وحي من الحقِّ أو إلهامٌ، وإنْ كان قياساً واستدلالاً فقريبٌ أيضاً من الحقِّ، وإنْ كان غير ذلك من تنجيثٍ[4] وتنجيمٍ فاللهُ أعلم؛ وأمّا قول قُتادةٍ ومكحولٌ فلا يوجبُ العلمَ اليقينيَّ الذي يقطعُ على الغيبِ به؛ واختلفوا في البحارِ والمياهِ والأنهارِ، فروى المسلمون أنّ اللهَ خَلقَ البحارَ مُرًّا زُعافاً[5]، وأنْزلَ من السّماءِ الماءَ العذبَ كما قال: ﴿وأنْزلنا من السماءِ ماءً بِقَدَرٍ فأسكنَّاهُ في الأرضِ﴾ [المؤمنون: ١٨] وكلُّ ماءٍ عَذْبٍ من بئْرٍ أو نهرٍ أو غير ذلك فمن ذلك الماءِ، فإذا اقتربتِ السّاعةُ بعَثَ اللهُ مَلَكاً معه طستٌ[6] فَجمعَ تلك المياهَ فردّها إلى الجنّةِ؛ وزعم أهلُ الكتاب: أنّ أربعةَ أنهارٍ تخرجُ من

---

(١) قتادة بن إدريس، جدّ أشراف مكة، من بني قتادة، ولد في ينبع، ملك المدينة ومكة واليمن (ت ٦١٧ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) صحابي تقي، رواية حديث النبي، هاجر إلى المدينة قبل أبيه عمر بن الخطاب، قاتل في حروب الرّدة، توفي بمكة (٧٣ هـ). «منجد الأعلام».

(٣) فلكي وجغرافي يوناني، نشأ في الإسكندرية، أشهر مؤلفاته (المجسطي)، وله نظريته في هيئة الأفلاك، وهي أنّ الأرض لا تتحرك، وأنّ الفلك يدور حولها (ت ١٦٨ م). «منجد الأعلام».

(٤) التخبيث: البحث عن الأمور.

(٥) زعافاً: سريع القتل.

(٦) طسّت: إناءٌ من نحاس لغسل الأيي (فارسية).

الجنّةِ: الفُراتُ[١] وسَيْحان[٢] وجَيْجانُ[٣] ودُجلة[٤]، وذلك أنّهم يزعمون أنَّ الجنّةَ من مشارقِ الأرضِ، ورُوي أنّ الفُراتَ جَزَرَ زَمَنَ معاويةَ فرمى برمّانةٍ مثل البعيرِ البازلِ[٥] فقالَ كعبٌ أنّه من الجنّةِ فإن صَدقوا فليستْ هي بجنّةِ الخُلدِ، ولكنّها من جِنانِ الأرضِ؛ وعَندَ القدماءِ: أنّ المياهَ من الاستحالاتِ فطَعْمُ كلِّ ماءٍ على طعمِ تُربتِهِ، ونحنُ لا ننكرُ قدرةَ اللهِ سبحانَه على إحالةِ الشيءِ على ما يشاءُ، كما يحوّلُ النطْفةَ علقةً، والعلقةَ مُضْغةً، ثُمّ كذلك حالاً بعدَ حالٍ إلى أنْ يَفنيَه كما أنشأَهُ، واختلفوا في ملوحةِ ماءِ البحرِ، فزعَم قومٌ: أنّه لمّا طَالَ مكثُهُ وألحّتِ الشّمسُ عليه بالإحراقِ صار مُرًّا مِلْحاً، واجتذَبَ الهواءُ ما لَطُفَ من أجزائِه، فهو نقيُّه ما صفَتْه الأرض من الرطوبةِ.فغلُظَ؛ وزعم آخرونَ أنَّ في البحرِ عروقاً تُغيّرُ ماءَ البحرِ ولذلك صارَ مُرًّا زُعافاً؛ واختلفوا في المدِّ والجزرِ، فزعمَ أرسطاطاليس: أنّ علّةَ ذلك مِن الشّمسِ، إذا حَرّكَتِ الريحَ، فإذا ازدادتِ الرّياحُ كان منها المدُّ، وإذا نقصتْ كان عنها الجزرُ، وزعم كيماوس أنَّ المدَّ بانصبابِ الأنهارِ في البحرِ، والجزرَ بسكونِها؛ وزعمَ بعضُهم: أنّ ذلك من تحرُّك الأرضِ وسكونِها؛ والمنجّمون منهم مَنْ يزعمُ: أنّ المدَّ بامتلاءِ القمرِ، والجزَر بنقصانِه، وقد رُوي في بعضِ الأخبارِ أنّ لله ملكاً موكَّلاً بالبحارِ فإذا وضَعَ يدَه في البحرِ مدَّ، وإذا رفعَه جَزرَ، فإنْ صحَّ ذلك واللهُ أعلمُ كان اعتقادِه أَوْلَى من المصيرِ إلى ما لا يُفيدُ حقيقةً، ولو ذهَبَ ذاهبٌ إلى أنّ ذلك المَلَكَ يُهِبُّ الرّياحَ التي تكونُ سببَ المدّ، ويزيدُ في الأنهارِ أو يفعلُ ذلك عندَ امتلاءِ القمرِ حتى يكونَ توفيقاً بينَ الرواياتِ والآراءِ لكانَ هذا مذهباً واللهُ أعلمُ، واختلفوا في الجبال قال اللهُ عزَّ وجلَّ: **﴿وألقى في الأرضِ رواسي أنْ تميدَ بكمْ﴾** [النحل: ١٥] وقال تعالى: **﴿ألم نجعلِ الأرضَ مِهاداً والجبالَ أوتاداً﴾** [النبأ: ٦] وقال تعالى: **﴿قَ والقرآنِ المجيدِ﴾** [قَ: ١] قال قومٌ من

---

(١) الفُرات: نهر نبعه في أرمينيا، يجري في تركيا مخترقاً جبال طوروس وسورية والعراق، يلتقي بنهر دجلة عند القرنة فيكوّنان شط العرب الصالح للملاحة، اعتُبر قديماً: أحد أنهر الفردوس الأربعة، ودعي بالنهر الكبير.

(٢) سيحان: نهر في جنوب تركيا الآسيوية، يصب في المتوسط عنده كان الأمويون والبيزنطيون يتبادلون الأسرى.

(٣) جيحان: نهر يجتاز سهول قيليقية، يمرّ بالقرب من مرعش ويصبّ في البحر المتوسط.

(٤) دِجلة: نهر ينبع من تركيا، ثم يجري في العراق مارًّا في الموصل وبغداد، تمتزج مياهه بمياه الفُرات في شط العرب، من روافده الزّاب الكبير والزّاب الصغير.

(٥) البعير البازل: الذي انشقّ وطلع نابه.

المفسّرين: أنّه جبلٌ محيطٌ بالعالمِ مِنْ زُمرّدة خضراء؛ ثُمّ اختلفوا فقال بعضهم: إن منه إلى السماءِ مقدارَ قامةِ رَجُلٍ، وقال آخرون: بل السماءُ مُطبقةٌ عليه؛ وقال قومٌ: وراءَه عوالمٌ وخلائقٌ لا يعلمُها إلاّ اللهُ، ومنهم مَنْ يقولُ: ما وراءَه من حدِّ الآخرةِ ومن حكمِها، وإنّ الشّمسَ تغرُبُ فيه وتطلعُ منه، وهو السّاترُ لها عن الأرضِ. ويسمّيه القدماءُ بالفارسيّةِ كُوهِ البُرْزِ؛ وحكى افلوطرخسُ عن ديمقريطيس أنّ الأرضَ كانتْ في الابتداءِ تكفأُ لصِغَرِها وخِفّتِها على طولِ الزّمانِ فتكاثفتْ وثبتتْ، وهذا قولُ المسلمين بعينِهِ لو أنّه زادَ فيه ثبتَ بالجبالِ، ومنهم مَنْ يزعمُ: أن الجبالَ عظامُ الأرضِ وعروقها.

واختلفوا فيما تحتَ الأرضِ أمّا القدماءُ فأكثرهُم يزعمون أنّ الأرضَ يحيطُ بها الماءُ، والماءُ يحيطُ به الهواءُ، والهواءُ تحيطُ به النّارُ، والنّارُ تحيطُ بها السماءُ الدُنيا ثُمَّ الثانية إلى السبعِ، ثُمَّ فوقَها فلكُ الكواكبِ الثابتةِ محيطٌ بهذه السماواتِ والأركانِ التي ذكرنا، ثُمَّ فوقَها الفلكُ الأعظمُ المستقيمُ، ثُمّ فوقَه عالمُ النفْسِ، وفوقَ عالمِ النفسِ عالمُ العقل، وفوقَ عالمِ العقلِ الباريءُ جلَّ جلالهُ ليس وراءَه شيءٌ، وهو فوقَ كلِّ شيء، فعلى مذهبهِم أنَّ تحتَ الأرضِ سماءً كما فوقَها، وفي كتب قُصّاص المسلمين أشياءٌ يضيقُ الصدرُ عنها، ورُوي أنّ اللهَ تعالى لمّا خلقَ الأرضَ كانتْ تكفأُ السفينة، فبعثَ اللهُ ملكاً فهبطَ حتّى دخَلَ تحتَ الأرضِ، فوضعَ الصخرةَ على عاتقِهِ، ثُمّ أخرجَ يدَيْه إحداهما بالمشرقِ والأُخرى بالمغَربِ، ثُمَّ قَبضَ على الأرضين السبعِ فضبطها فاستقرّت، ولم يكن لقَدَمه قرارٌ فأهبَطَ اللهُ ثوراً من الجنّةِ له أربعون ألفِ قرنٍ وأربعون ألفِ قائمةٍ، فجعلَ قرارَ قدمَي الملكِ على سنامِهِ، فلم تصلْ قدماه إليه فبعثَ اللهُ ياقوتةً خضراءَ من الجنّةِ، غلظُها مسيرةُ كذا ألف عامٍ، فوضعَها على سنامِ الثّورِ فاستقرّت عليها قدماهُ، وقرونُ الثورُ خارجةٌ من أقطارِ الأرضِ مشبكةٌ تحتَ العرشِ، ومنخرُ الثّورِ في ثقبين من ملكِ الصخرةِ تحتَ البحرِ، فهو يتنفّسُ كلَّ يومٍ نَفَسين، فإذا تنفّسَ مدَّ البحرُ، وإذا ردَّ نَفَسه جَزرَ البحرُ، قال: ولما لم يكنْ لقوائمِ الثّورِ قرارٌ، فَخَلقَ الله كمكماً كغِلَظ سبعِ سماواتٍ وسبعِ أرضين فاستقرتْ عليه قوائمُ الثّورِ، ثُمَّ لو لم يكنْ للكمكمِ مستقرٌ فَخلَقَ اللهُ حوتاً يُقالُ له بهموت فوضَعَ الكمكم على وَتَرِ الحوتِ، والوترُ: الجناحُ الذي يكونُ في وسط ظهرِه، وذلكَ الحوتَ على الريحِ العقيمِ، وهو مزمومٌ ـ بسلسلةٍ كغِلَظ السماواتِ والأرضين معقودةٌ، قال: ثُمّ انتهىَ أبليسُ عليه اللعنةُ إلى ذلك الحوتِ، فقال: ما خَلقَ اللهُ خلقاً أعظمَ منك فلِمَ لا تُزيلُ الدنيا؟ فهمَّ بشيء من ذلك، فسلّطَ اللهُ عليه بقَّةٍ في عينه فشغلَتْه؛ وزعم بعضهُم: أنّ اللهَ سلّط عليه سمكةً كالشطبةِ فهو ينظرُ إليها

ويهابُها، قالوا: ثُمّ أنبتَ اللهُ من تلك الياقوتةِ جبلَ قافٍ، وهو من زُمرّدةٍ خضراءَ وله رأسٌ ووجهٌ وأسنانٌ، وأنبتَ من جبلِ قافٍ الشّواهقَ، كما أنبتَ الشجرَ من عروقِ الشّجرِ، وزعَمَ وهبُ: أنّ الثّورَ والحوتَ يبتلعان ما ينصبُّ من مياهِ الأرضِ فإذا امتلأتْ أجوافُهما قامتِ القيامةُ؛ قالوا: والأرضُ على ماءِهِ، والماءُ على الصخرةِ، والصخرةُ على سنامِ ثورٍ، والثّورُ على كمكمٍ من الرّبل متلبدٌ، والكمكمُ على ظهرِ الحوتِ، والحوتُ على الرّيحِ العقيمِ، والريحُ في حجابٍ من الظُّلمةِ، والظُّلمةُ على الثّرى، وإلى الثرى انتهى علمُ الخلائقِ لا يعلمُ أحدٌ ما دون ذلك إلاّ اللهُ بقوله تعالى: **﴿له ما في السمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما وما تحتَ الثّرى﴾** [طـه: ٦] وحكى وهبٌ فيما روي عن عيسى عليه السّلام أنّه سُئل عمّا تحتَ الأرضِ فقال: ظلمةُ الهواءِ، وقيل فما تحتَه، قال: انقطعَ علمُ العلماءِ، فهذه القِصَصُ ما تولُع بها العوامُّ، ويتنافسون فيه، ولعَمري أنّه لِمّا يريدُ المرءُ بصيرةً في دينِهِ وتعظيماً لقدرةِ ربّهِ وتحيُّراً في عجائبِ خلقهِ، فإنْ صحّتْ فما خلقُها على الله بعزيزٍ، وإنْ لم يكنْ من اختراعِ أهلِ الكتابِ وتزويرِ القُصّاصِ فكلُّها تمثيلٌ وتشبيهٌ واللهُ أعلم؛ وقد روى شيبانُ بن عبد الرحمن عن قُتادة عن الحسنِ عن أبي هُريرة قال: بينما النبيّ ﷺ كان جالساً في أصحابِهِ إذْ أتى عليهم سحاب فقال: «هل تدرون ما هذا؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم؛ قال النبيُّ: «اعلموا أنّ هذه زوايا الأرضِ يسوقُها اللهُ إلى قوم لا يشكرونَه ولا يدعونَه» ثُمَّ قال: «هل تدرونَ ما الذي فوقكَم؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ، قال: فإنّها الرفيعُ سَقفٌ محفوظٌ ومَوْجٌ مكفوفٌ» قال: «هل تدرون كم بينكم وبينها؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ، قال: «مسيرة خمسِ مائةِ عام» ثُمَّ قال: «أتدرونَ ما فوقَ ذلك؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ قال: «فوقَه العرشُ وبينَه وبينَ السماءِ بُعدٌ مثْل ما بينَ سماءَيْن» ثُمَّ قال: «أتدرون ما تحتكم؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «فإنّ تحتَها أرضاً أُخرى بينَهما مسيرةُ خمسِ مائةِ عامٍ» ثُمّ قال: «والذي نفسُ محمّدٍ بيده لو أنّكم دُلِّيتُم بَجبْلٍ لهبطتُم على اللهِ» ثمّ قرأ **﴿هو الأوّلُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ﴾** [الحديد: ٣] الآيةَ، فهذا الخبرُ يشهدُ بصدقِ كثيرٍ ممّا يروونَ إنْ صحَّ واللهُ أعلمُ، وليسَ فيه ذكرُ الكمكمِ والصخّرةِ والثّورِ وغيرِ ذلك.

وأمّا أهلُ النّظرِ فمختلفون فيما تحتَ الأرضِ، فزعَم هشامُ بن الحكمِ أنّ تحتَ الأرض جسماً من شأنِهِ الارتفاعُ والعُلو كالنارِ والرّيحِ، وأنّه المانعُ للأرضِ من الانحدارِ، وهو نفسهُ غيرُ محتاجٍ إلى ما يعمدهُ من تحتِهِ لأنّهُ ليسَ ممّا ينحدرُ بَلْ يُطلبُ الارتفاعَ، وزعمَ أبو الهذيل: أنّ اللهَ وقّفها بلا عَمودٍ ولا عِلاقةٍ، وقال بعضهم: إنّ الأرضَ ممزوجةٌ من

جنسَيْن: خفيفٍ وثقيلٍ، فالخفيفُ شأنُهُ الارتفاعُ والصعودُ، والثقيلُ شأنُهُ الهبوطُ، فيمنعُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه من الذّهابِ في جهةٍ لتكافيء تدافعهما، واللهُ أعلمُ؛ واختلفَ القدماءُ في ذلكَ. فزعم قومٌ منهم: أنّ الأرضَ تهوي إلى ما لا نهايةَ، وزعمَ آخرون: أنّ بعضَها يُمسكُ بعضاً، وزعمَ بعضهُم أنّها في خَلاءٍ لا نهايةَ لذلك الخلاءِ، وعامّتهُم أنّ دورانَ الفُلكِ عليها يمسكُها في المركزِ من جميعِ نواحِيها، ويقولُ أرسطاطاليس: إنّ خارجَ العالمِ من الخلاءِ مقدارَ ما يتنفّسُ السماءُ، فالذي ينبغي أن يُعْتقدَ من هذا أنّ العالمَ لو كانَ في مكانٍ احتاجَ ذلك المكانُ إلى مكانٍ آخر، فإذا جَازَ أنْ يخلقَ اللهُ المكانَ لا في مكانٍ، فإيّ عجبٍ أن يخلقَ الأرضَ لا في مكانٍ، ولو كانَ ما فيه الأرضُ من خَلاءٍ أو فضاءٍ شيئاً لوَجبَ أنْ يكونَ مخلوقاً بدلالاتِ أثرِ الخلقِ فيما دونَ الخالقِ سبحانَه وقد سبق ذكرُ هذا فيما قبل.

ذكرُ قوله تعالى: ﴿هو الذي خَلقَ السماواتِ والأرضِ في ستّة أيّامٍ﴾ [هود: ٧]:

فرُوِي عن ابن عبّاسٍ أنّه قال في مقادير ستّة أيّامٍ من أيّامِ الآخرةِ: كلُّ يومٍ ألفُ سنةٍ من أيّامِ الدّنيا، ورُوِي عن الحسن أنّه قال في ستّة أيّام من أيّام الدنيا: ولو شاءَ بساعةٍ، ولو شاءَ بأسرعَ من طُرفةِ عينٍ، ولكنّه أرادَ إظهارَ قدرتهِ لخلقهِ وآياتِ حكمتهِ لملائكتهِ ما يرون من ظهورِ آثارِ صفتهِ شيئاً بَعْد شيءٍ، وقد قِيلَ: إنّ مدّةَ الدُنيا ستّةُ أيّامٍ فلذلك خُلقتْ في ستّة أيّامٍ، وروتْ طائفةٌ من اليهودِ أنّ الدّنيا تنقضي في كلِّ ستّةِ آلافِ سنةٍ، وتُعادُ في السابعةِ؛ قَالَ ابنُ إسحٰقَ: يقولُ أهلُ التوراة: ابتداءُ الخلقِ يومَ الأحدِ، وفُرغَ منه يومَ السبتِ، فجعلَه عيداً لعبادِه وعظمة شرفِه وكرمِهِ، ويقولُ أهلَ الانجيل: الابتداء يومَ الاثنين وكانَ الفراغُ يومَ الأحدِ، ويقولُ المسلمون: ابتداءُ الخلقِ يومَ السّبتِ وكان الفراغُ يومَ الجُمعة، وإنّما سُمّيتْ يومَ الجُمعةِ لاجتماعِ الخلقِ فيه، وكثيرٌ من المسلمين يُنكرون هذه الروايّة ويقولون: ابتداءُ الخلقِ يومَ الأحدِ؛ وأمّا المجوسُ فإنّهم يعظّمون يومَ الاثنين، وهم يزعمون أنّ اللهَ خَلَقَ الخلقَ في ثلثمائة وستّين يوماً، وسمِعْتُ بعضَ أهلِ العلمِ يزعمُ ما مِن يومٍ إلاّ وهو عيدٌ لقومٍ واللهُ أعلمُ، قال الله تعالى: **﴿أئنّكم لتكفرون بالّذي خَلقَ الأرضَ في يومين وتجعلونَ له أنداداً ذلك ربُّ العالمين قال الأحد والاثنين وجعل فيها رواسي من فوقِها وباركَ فيها وقدّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيّامٍ سواءً للسائلين﴾** [فصلت: ١٠] إلى قوله: **﴿فقضاهنّ سبعَ سماواتٍ في يومين الخميسِ والجمعةِ﴾** [فصلت: ١٢] وهكذا روى عَكرمةُ عن ابن عبّاسٍ خَلقَ اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ ويومَ الاثنين، وشقَّ الأنهار، وغرسَ الأشجارَ وقدّرَ الأقواتَ يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخَلقَ السماواتِ وما فيها يومَ الخميسِ ويومَ الجمعة، قال عَدِيّ بنُ

زيدٍ: [بسيط]

قَضَى لِسِتَّةِ أيّامٍ خَلائِقَهُ وَكَانَ آخِرُ شَيْءٍ صَوَّرَ الرَّجُلا

فإن قيلَ: إذا كانَ اليومُ مِنْ لَدُنِ طلُوعِ الشّمسِ إلى غروبِها فكيفَ يجوزُ القولُ بأنّه خَلقَ في اليومِ قبلَ اليومِ؟ قِيلَ: قَدْ بيّنّا قولَ المسلمين أنّ النهارَ والليلَ خُلقا قبلَ الشّمسِ والقمرِ، وأنّهما ليسا من الشّمسِ والقمرِ في شيءٍ، وليستْ أيّامُ الخلقِ كأيّامِ الدنيا، ولكنّها المقاديرُ كانَ يظهرُ الخلقَ فيها، وقد سمّى اللهُ يومَ القيامةِ ولا شمسٌ ثَمَّ ولا قمرٌ يوماً، وقال لهم: ﴿رزقهم فيها بكرةً وعشياً﴾ [مريم: ٦٢] ويُقالُ أنّ اللهَ خَلقَ الشّمسَ يومَ الأحدِ والقمرَ يومَ الاثنين والمرّيخَ يومَ الثلاثاء وعطارد يوم الأربعاء والمشتري يوم الخميس والزُّهرة يوم الجُمعةِ وزُحَلَ يومَ السبتِ فلذلك نُسبتِ الأيّامُ إليها، فيُقالُ: ربُّ يومِ الأحدِ الشمسُ، وربُّ يوم الاثنين القمرُ وربُّ يوم الثلاثاء المريخُ، وربُّ يوم الأربعاءِ عُطاردُ وربُّ يومَ الخميسِ المشتري، وربُّ يومَ الجمعةِ الزهرةُ، وربُّ يومَ السبتِ زُحلُ، ويُستحبُّ ابتداءُ الأعمالِ يومَ الأحدِ لعظمِ قوةِ الشّمسِ وسُلطانها، والسفرُ يومَ الاثنين لسُرعةِ سيرِ القمرِ، والحجامةُ والفصدُ يومَ الثلاثاء لمكانِ المرّيخِ، والدواءُ يومَ الأربعاءِ للمازجةِ عُطاردٍ، والخميسُ قضاءُ الحوائجِ وطلبُها لفضلِ المشتري، واللّهو والفرحُ يومَ الجُمعةِ لأجلِ الزُّهرةِ، والصيدُ يومَ السبْتِ وفيه يقول بعضُ المتأخّرين: [وافر]

لَنِعْمَ اليومُ يومُ السَّبْتِ حَقًّا لِصَيْدٍ إنْ أَرَدْتَ بِلا امْتِراءِ
وفي الأحدِ البِناءُ لأَنَّ فِيهِ تبدّا الرَّبُّ في خَلْقِ السَّماءِ
وفي الاثنين إنْ سافرتَ فَاعْلَمْ سَترجَعُ بالنَّجاحِ وبالثَّراءِ
وإنْ تُرِدِ الحجامةَ فالثلاثا ففي ساعاتِهِ سَفْكُ الدِماءِ
وإنْ تُرِدِ الدَّواءَ فنِعْمَ يوماً لشُرْب المَرءِ يومُ الأرْبَعاءِ
وفي يومِ الخميسِ قضاءُ حَاجٍ وفيهِ اللهُ يأذَنُ بالقضاءِ
وفي الجُمعاتِ تزويجٌ وعُرْسٌ ولذّاتُ الرِّجالِ مَعَ النِّساءِ

[المدة قبلَ خلق الخلق]:

روى حمّادُ بن زيدٍ عن عَمْرو بنِ دينار عن طاووسٍ عن عكرمةَ عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهُ قَالَ: قِيلَ لموسى مُذْ كَمْ خَلقَ اللهُ الدنيا، فقَالَ موسى: يا ربُّ ما تسمعُ ما يقولُ عِبادُك، فأوحى اللهُ إليه إنّي خلقتُ أربعةَ عشرَ ألفِ مدينةً من فضّةٍ، وملأْتُها خَرْدلاً، وخلقتُ لها طيراً وجَعلتُ رزقَه كلَّ يومٍ حبّةً حتّى أفني ذلك، ثُمَّ خَلقتُ الدّنيا، فقِيل لابنِ عبّاسٍ: فأَيْن

كانَ عرشُه؟ قالَ: على الماءِ، قيلَ: فأينَ كانَ الماءُ؟ قال: على مَتنِ الرّيحِ، وُروي مثلُ هذا عن علي بن أبي طالبٍ عليه السلام، فهذا شيءٌ غامضٌ موكل إلى علمِ اللهِ، إذْ ليسَ يُدْرَي ما الذي كانَ قبلَ هذا الخلقِ، مثلُ هذا الخلقِ، أو على خلافِهم، وهل تعيدُ الدّنيا بعدَ فناءِ هذه الدّنيا أم لا؟ لأنّه لم يُخبرْنا في كتابِه ولا على لسانِ نبيّه ﷺ بشيءٍ من ذلك ولا في قوّةِ العقلِ والاستدلالِ عليه، فأمّا الخبرُ فغيرُ معتمدٍ عليه وغيرُ عجيبٍ ما وردَ فيه ولا خارجٌ من القدرةِ ولا مُبطلٌ الحكمةَ، ولو كانَ أضعافَ ذلك، وزَعمَ بعضُ النّاس: أنّه عُدَّ قبلَ آدمَ هذا الذي يُنْسبُ إليه ابتداءُ الشيءِ ألفَ ومائتا آدم واللهُ أعلمُ، وكأنّهُ جائزٌ كونهُ وداخلٌ في حدِّ الإكان، فأمّا الذي لا يسعُ القولُ إلاّ به ويلزمُ اعتقادهُ انفرادُ اللهِ تعالى عن خلقهِ سابقاً من غيرِ شريكٍ ولا جوهرٍ قديمٍ، ثُمَّ أبدَعَ الأشياءَ لا من شيءٍ ولو كانَ بين شيئَيْن من المُدَدِ ما لا يأتي عليه الإحصاءُ والعددُ إلاّ أنّه لا يصحُّ إلاّ من جهةِ خبرٍ صادقٍ لأنّا نخبرُ بقاءَ الحوادثِ على الأبدِ إلى ما لا نهاية، فليس ذكرُ تلك المدّةِ بأعجبٍ من هذا، وكونُ أهلُ الجنّةِ في الجنّةِ، وكونُ أهلِ النّارِ في النارِ.

[اختلاف النّاس في مدة الدنيا]:

قالَ اللهُ تعالى: ﴿خلق السماواتِ والأرضَ في ستّةِ أيّام﴾ [هود: ٧] فزعم قومٌ أنَّ مدّةَ الدّنيا ستّةُ آلافِ سنةٍ مكانُ كلِّ يومِ ألفُ سنةٍ، ورُوي عن كعب أنّ اللهَ وضعَ الدنيا على سبعةِ أيّامٍ، وروي أبو المقوّم الأنصاريّ عن ابن جُبير عن ابنِ عبّاسٍ قال: الدُنيا جُمعةٌ من جُمعِ الآخرةِ، وروى ابنُ نجيحٍ عن مُجاهدٍ وأبانٍ عن عَكرمةَ في قوله تعالى: ﴿في يومٍ كانَ مِقدارهُ خمسين ألفَ سنةٍ﴾ [المعارج: ٤] قالا: هي الدُّنيا من أوّلِها إلى آخرِها، وجاءَ خبرُ آخرُ في أمَدِ الدّنيا أنّه مائةُ ألفِ سنةٍ وخمسون ألفِ سنةٍ.

وخبّرني هربذ المجوسِ[1] بفارسَ: أنّ في كتابٍ لهم أنّ مُدّةَ الدّنيا أربعةُ أرباعٍ فأوّلُها: ثلاث مائةِ ألف سنةٍ وستّون ألفِ سنةٍ: عددُ أيّامِ السنةِ، وقد مضتْ، والثّاني: ثلاثون ألفِ سنةٍ: عددُ أيّامِ الشهرِ وقَدْ مَضتْ، والثّالثُ: إثنا عَشرَ ألفِ سنةٍ: عددُ أيّامِ الأسبوعِ ونحن فيها، وللهِنْدِ وأهلِ الصينِ فيه حسابٌ يطولُ نذكرُه في موضعهِ إن شاءَ اللهُ، ووجدتُ في كتابٍ روايةً عن وهبٍ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه أنّ النبيّ ﷺ سُئلَ مُذْ كَمْ خُلقتِ الدّنيا؟ فقالَ: «أخبرني ربّي أنّهُ خلقَها مُنذُ سبعِ مائةِ ألفِ سنةٍ إلى اليومِ الذي بعثني

---

(١) هربذ المجوس: خدمُ نار المجوس.

فيه رسولاً إلى النّاس» ثُمّ زَعمَ صاحبُ الكتابِ أنّ ممّا يدلُّ على ذلك ما جاءَ في الخبرِ: أنّ إبليسَ عَبَدَ اللهَ خمسة وثمانين ألفِ سنةٍ، وأنّهُ خُلقَ بعد ما خُلق السماواتُ والأرضُ بما شاءَ، وهذا كلُّه ممّرٌ على وجههِ إنْ لا يقومُ يقطع العلمَ به، وما عليَّ إذا علِمتُ أنّ الدّنيا مُحدَثةٌ مكوّنةٌ ولها انتهاءٌ وانقضاءٌ أنْ لا أعلمَ كم مضى منها وكم بقي، فكيف تطمئنُّ النفسُ إلى قولِ مَنْ يزعمُ أنّه قَدْ أحصى سِنِي الدّنيا وشهورَها وأسابيعهَا وعددَ أيّامِها ولياليها وساعاتِها ودقائِقها وثوانيها وهَلْ يقولُ مثلَ هذا عاقلٌ.

[ما هي الدُّنيا]:

وجدتُ في كتابٍ باباً منفرداً في اختلافِ النّاسِ في الدُّنيا، فحُكي عن قومٍ أنّهم يقولون: الدُّنيا العالمُ بأسرهِ وجميعِ أجزائهِ في السماءِ والأرضِ وما فيهما، ومن قومٍ أنّهم يقولونَ: الدُّنيا تَعاقبُ الفُصولِ الأربعةِ وبقاءُ النماءِ والتناسلِ، فإذا بَطُلَ هذا بُطلَتِ الدُّنيا؛ وعن قومٍ أنّهم قال: إنّ الدُّنيا ضوءُ النّهار وظلمةُ اللّيل، وعن قومٍ أنهم قالوا: أنّ الدُّنيا هذا الخَلقُ لا غيرُ، فإذا فَنِيَ فَنِيتِ الدُّنيا، وعن قومٍ أنّهم يقولون: إنّ الدُّنيا سلطانٌ ومالٌ وجاهٌ ودَعةٌ؛ وعن قومٍ: الدُّنيا هي ما بينَ السماءِ والأرضِ، وقال قومٌ: الدُّنيا هي الزّمانُ، فمَنْ قَالَ: إنّ الدنيا هي هذا الجنسُ من الخلقِ، قَالَ: ابتداؤُها عندَ ظهورِ النشوِ ولا بَدَّ ما قبلها الدُّنيا من خَلقِ السماواتِ والأرضين والملائكةِ، وما ذُكر من أصنافِ الخلائقِ ـ قبلَ آدمَ، ومَنْ قَالَ: هو هذا العالمُ بأسرهِ عُدَّ ما وَجَد قبلَ آدمَ من الدُّنيا، وكذلك مَنْ حدَّها بحدٍّ فابتدا من حيثُ حدّ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فلا تغرّنكم الحياة الدُّنيا ولا يغرّنكم باللهِ الغرور﴾ [لقمان: ٣٣] وقَالَ تعالى: ﴿يا ليتني قدّمتُ لحياتي﴾ [الفجر: ٢٤] فأخبر أنّ الدُّنيا حياةٌ والآخرةَ حياةٌ، ثم أضافَ الفانيةَ إلى الدُّنيا لفنائِها، وأضافَ الباقيةَ إلى الأُخرَى لبقائها، وإنّما سُمّيتِ الدُّنيا دنيا لدُنُوها من الخلقِ، والآخرةُ آخرةٌ لتأخُّرِها إلى أن تفنى الدُّنيا، فكلُّ ما هو فانٍ أو سيفنى يوماً من الخَلق والأمرُ كائناً ما كان فهو دنيا، وكلُّ ما هو غيرُ فانٍ فهو من الآخرةِ، ألا تَرى أنّه يُقالُ لمن شابَ وانصرَم شبابُه: ذهبت دنياه، ولِمنْ ذهبَ مالُه وسقطَ جاهُه ذهبتْ دنياه، ولِمَنْ ماتَ هَلكَ دنياه، فلا تسمّى دنيا إلاّ كلّ ما هو فانٍ ذاهبٌ، ومِثالُ دنيا فُعْلَى من الدُنُو كالصُغْرَى والكُبْرَى قال: [وافر]

هَبِ الدُّنيا تُساقُ عليك عفواً ... أَلَيس مَصيرُ ذاك إلى الزَّوالِ
وما دُنياك إلاّ مَثلَ فَيءٍ ... أَظلّك ثُمّ آذن بالزّوالِ

ومن هاهُنا قِيلَ: إنّ الدُّنيا دنيّةٌ كاسمها، وإنّ الدُّنيا دُنىً كثيرةٌ فكلُّ إنسانٍ له دُنيا في نفسهِ على حِدَتِه، فمالُه دُنيا له وجاهُه دنيا له، وأيّامهُ دنيا له، ومكانةُ دنيا له، وكلُّ ما ينالهُ ويسرُّ به ممّا لا يبقى دنيا له، وأنشدني بعضهُم: [رمل]

أنْتَ دُنْيا كيفَ ذمُّكَ لدنيا ... الّتي أنْتَ هِيَ ومُنْتَهاكا

ويدلُّ خبرُ علي بنِ أبي طالبِ عليه السلام أنَّ الأرضَ من الدنيا حيثُ قَالَ للّذي يسمعُه يذمُّ الدّنيا مَهْبَطُ وحي اللهِ ومُصلّى ملائكتهِ ومتجرُ أوليائه، ويدلّ أنّ السماءَ مِنَ الدُّنيا قوله تعالى: ﴿يومَ نطوي السماءَ كطيِّ السجلِ للكتب﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فلو كانتْ من الآخرةِ لِمَ تُطْوَ لأنّ الآخرةَ غيرُ فانيةٍ.

[الخلق قبل آدم]:

رُوِي في الحديثِ أنّ كلَّ شيءٍ خَلقَ اللهُ قبلَ آدم عليه السلام وأنّ آدمَ وُجِدَ بَعدَ إيجادِ الخلْقِ لأنّهُ خُلقَ في الأيّامِ التي خُلِقَ فيها الخلقُ، وقَدْ ذكَرنا ما قِيلَ في خلقِ الملائكةِ فلنقُلْ الآنَ في خلقِ الجانِّ قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿خُلقَ الإنسانُ من صلصالٍ كالفَخّارِ وخُلقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ﴾ [الرحمٰن: ١٥] وجاء أنَّ النبيّ ﷺ قال: «اللهُ تعالى خلقَ الملائكةِ من نورٍ» قَالَ جلَّ ذكرُه: ﴿وأنبتْنا فيها من كلِّ شَيْءٍ موزونَ﴾ [الحجر: ١٩] قَالَ بعضُ أهلِ التفسيرِ: إنّه الجواهرُ التي توزنُ فأخبرَ سبحانَه عن جميعِ خلقهِ ممن خَلقَ من الماءِ والنّارِ والطينِ، وروى بقيّةُ بنُ الوليدِ عن محمد بن نافعٍ عن محمدِ بنِ عبدُ الله بنِ عامرٍ المكّي أنّه قَالَ: خَلقَ اللهُ خَلْقَه من أربعةِ أشياءٍ: الملائكةَ من نورٍ، والجانَّ من نارٍ، والبهائم من ماءٍ وبني آدمَ من طينٍ، فجَعَلَ الطّاعةَ في الملائكةِ والبهائمِ لأنّهما من النّورِ والماءِ، وجَعلَ المعصيةَ في الجنِّ والإنسِ لأنّهما من الطّينِ والنّارِ، ورُوينا عن شهرِ بن حوشب[1] أنّه قالَ: خَلقَ اللهُ في الأرضِ خلقاً، ثم قَالَ لهُمْ: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً فما أنتم صانعون﴾ [البقرة: ٣٠] قالوا: نعصيهُ ولا نطيعهُ، فأرسَلَ اللهُ عليهم ناراً فأحرقتْهم، ثمّ خَلقَ الجنَّ فأمرَهم بعمارةِ الأرضِ فكانوا يعبدونَ اللهَ حتى طَالَ عليهم الأمدُ فعصَوْا، وقتلوا نبيًّا لهُمْ يُقالَ له يوسفَ،

---

(١) من كبار علماء التابعين، أبو سعيد الأشعري الشامي، روى عن أبي هريرة وابن عبّاس وغيرهما، وروى عنه مقاتل وأبو بكر الهُذلي، قال شهر: عرضت القرآن على ابن عبّاس سبع مرّات. «سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٧٢».

وسفكوا الدماءَ فبعثَ عليهم جُنداً من الملائكةِ عليهم إبليس واسمهُ عزازيلُ فأجلوهم عن الأرضِ، وألحقوهم بجزائرِ البحورِ، وسَكَنَ أبليسُ ومَنْ مَعهُ الأرضَ فهانت عليه العبادةُ وأحبّوا المُكْثَ فيها، فقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُم: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً، قالوا أتجعلُ فيها مَنْ يفسدُ فيها، ويسفكُ الدماءَ، ونحنُ نسبّحُ بحمدِكَ، ونقدسُ لكَ، قال: إنيّ أعلمُ ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ٣٠] ورُوي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أنّ الله تعالى لمّا خَلقَ الجنَّ من نارِ سمومٍ جَعلَ منهم الكافرَ والمؤمنَ، ثم بعَثَ إليهم رسولاً من الملائكةِ وذلك قوله تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكةِ رُسلاً ومن النّاس﴾ [الحج: ٧٥] قالَ: فقَاتلَ الملكُ بمؤمني الجُنِّ كفّارَهم، فهزموهم وأسروا أبليسَ، وهو غلامٌ وَضِيءٌ اسمه الحارثُ أبو مُرّة، فصعدتِ الملائكةُ به إلى السّماءِ، ونَشأ بينَ الملائكةِ في الطّاعةِ والعبادةِ، وخَلقَ خَلقاً في الأرضِ فعصَوْه، فبعثَ اللهُ إليهم أبليسَ في جندٍ من الملائكةِ فنفوهم عن الأرضِ، ثمّ خَلقَ آدمَ فأشقى أبليسَ وذريتّه بهِ.

وزَعمَ بعضهُم أنّه كانَ قبلَ آدمَ في الأرضِ خَلقٌ لهُم لحمٌ ودمٌ، واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿قالوا: أتجعلُ فيها من يفسدُ فيها ويسفكُ الدماء﴾ [البقرة: ٣٠] فلمْ يقولوا إلاّ عن معاينةٍ، واحتجّوا أيضاً بقولِ حوبرُ أنّه كَانَ خَلقٌ فبُعثَ اليهم نبيٌ يُقالُ له يُوسفَ، فقتلُوه، هذه ثلاثةُ أُممٍ سكنوا الأرضَ قبلَ آدمَ الّتي أبليسُ من نسلِها، والذين قتلوا نبيّهم، والّذينَ أجلاهم أبليسُ من الأرضِ مع ما قِيلَ أنّهُ كَانَ قبلَ آدَم ألفُ آدمٍ ومائتا ألفِ آدمٍ، ونوحٌ ألفُ آخر، وهو آخِرُ الآدميين، ورُوي أنّ آدمَ لمّا خُلق قالتْ له الأرضُ يا آدمَ جِئتَني بَعد ما ذهبَتْ جِدّتيْ وشبابي، وقد خَلقت قال عديّ بن زيد: [بسيط]

قضـــى لستـــة أســـام خـــلائقـــه   وكـان آخـر شَـيْءٍ صـوّر الـرجـلا

[الجنُّ والشياطين]:

اعلمْ أنَّ أصلَ الخلقِ وقَع في شيئَيْن من لطيفٍ وكثيفٍ، فما خُلِقَ من الكثيفِ كثيفٌ كالجوامدِ والمواتِ والثواني من الجواهرِ والأشجارِ، وما خُلِقَ من اللطيفِ لطيفٌ كالهواءِ والرّياحِ والملائكةِ والجنِّ، وما خُلِق من لطيفٍ وكثيفٍ اجتمعَ فيه المعنيانِ كأجناسِ الحيوانِ، ثُمّ خَصَّ منها البرّوحِ الحقيقيّ والعقلِ المُميِّز والنفّس الناطقةِ كَانَ إنساناً فُضِّلَ على غيره بذلك، وقد ذَكرَ اللهُ تعالَى أنّه خَلقَ الجانَّ من مارجٍ من نارٍ، فزعم قومٌ: أنّه ماءٌ وريحٌ ونارٌ، قالوا: والرّجُ: الضبابُ، فكمُلَ خلقُهم من أربعةِ أشياء: من الماءِ والرّيحِ

والضوءِ والحرارةِ، وأكثرُهم على أن المارجَ الغيرُ المختلطِ من لهبِ النّارِ فما فيهم من خفّةٍ وسُرعةٍ واختطافٍ وتسويلٍ بالشرّ فمن جهةِ طباعهِم الناريّةِ، وما كان فيهم من خيرٍ وفضيلةٍ فمن جهةِ الضوءِ، واختلافِ أبوابهم وتأويلهم في التخييلاتِ والتمثيلاتِ لاختلافِ أجزاءِ عناصرهم، وفاتوا الحواسّ للطافةِ أجسامِهم كما فاتتْهُ الملائكةُ، والعلّةُ في ذلك العلّةُ في الملائكةِ، والهواءُ أغلظُ وأكثفُ من الجنّ فإذا كفا لم يُحسّ به ما لم تحدُثْ به حركةٌ واضطرابٌ، فكيفَ بالّذي هو ألطفُ منه وأخفُّ، وقد قَالَ النبيّ ﷺ: «أنّ الشيطانَ يجري من أحدِكم مجرى الدّم» فما هو إلاّ بمنزلةِ العوارضِ التي تخلصُ إلى أجسامِنا وتباشرُ أنفسنَا من الحرّ والبردِ والحزنِ والفرحِ وغيرِ ذلك فلا نعلمُ كيفَ وصلتْ إلينا، ونعلمُ يقيناً أنّها حادثةٌ فينتا، وجاءَ في بعضِ الأخبارِ: أنّ اسمَ أبي الجنّ سومٌ كما اسم أبي البشر آدمُ، قالوا: وخُلِقَ سومٌ وزوجتُه من نارِ السمّوم فتناسلوا، وكثُر ولدهُ وكانتِ الجنُّ سُكّانَ الأرضِ قبل آدمَ، والملائكةُ سُكّانَ السماءِ، واختلفوا في الشياطينِ، فقال أكثرُ المسلمين: إنّ مَنْ عصى من الجنّ صَار شيطاناً؛ وزعم بعضهُم: أنّ الشيطانَ من ذريّةِ إبليسَ خاصّةً بعد اختلافهِم في إبليس أَمِن الجنّ هو أم من الملائكة؟ وكلُّ ما اجتنّ عن الأبصارِ فهو جنّ ملكاً كان أو جنيًّا أو شيطاناً، والشيطنة: الخبث والنكارة فيقال لعتاة[1] الأنس شياطين، كما يُقالُ لعتاةِ الجنّ شياطينُ، وللفرسِ السريع شيطانٌ، ولكلّ داهيةٍ أو خفيفٍ فطِنٍ شيطانٌ، وجاء في الحديثِ أنّ الكلبَ الأسودَ البيهمَ شيطانٌ، وقَدْ قال الشّاعرُ: ما ليلةُ الفقيرِ إلاّ شيطاناً، فسمّى ما يقاسيه الفقيرُ من الضَعْفِ والشدّةِ شيطاناً، ورُوي عن مُجاهدٍ أنّه قَالَ: مسكنُ الجنّ الهواءُ والبِحارُ وأعماقُ الأرضِ، وطعامهُم روائحُ الطّعامِ، وشرابهُم روائحُ الشّرابِ، قَالَ: ولمّا خَلَقَ اللهُ تعالَى أبا الجنّ قَالَ له: تَمَنَّ، قَالَ: أتمنّى أنْ لا نَرى ولا نُرى وأنّا ندخلُ تحتَ الثرى وأنّ شيخَنا يعودُ فتىً، فأعطي ذلك، ثُمّ لمّا خَلقَ آدمَ قَالَ له: تمنّ، قَالَ: أتمنّى الحَيلَ فأعطي ذلك، قالوا: وللجنّ شياطينٌ كما للإنسِ شياطينٌ، وعلى الملائكةِ حَفظةٌ يُقالُ لهم الرّوحُ كما للنّاسِ حفظةٌ من الملائكةِ؛ وكثير من الفلاسفةِ يُقرّون بالخلقِ الروحانيّ، وإن خالفوا في صفتهِم فمن ذلك ما ذكرَه افلاطن في آخرِ كتابهِ المعروفِ بسُوفطِيقَا: أنّ الشياطينَ هي النفوسُ التي كانتْ ملابسةً لهذه الأبدانِ فتَشَيْطَنتْ لرداءةِ أعمالِها؛ وزعَمَ أنّ السحرةَ يستعينون بهذهُ النفوسِ في الأعمالِ التي يعملونها فيجيبونَهم، ويُظهرون لهُمْ ما أرادوا: وأجاز قومٌ: أن يكونَ في العالمِ سباع وبهائمَ غيرُ محسوسةٍ للطافةِ أبدانِها؛ وزَعمَ بعضهُم أنّ

---

(١) عُتاة: جمع عاتي: وهو المستكبر الجبّار.

صوَرَ العدمِ قائمةٌ بذاتِها فهؤلاءِ قَدْ أقرّوا بالصُوَرِ الروحانيّةِ، واختلفوا في الصفةِ وكُفُوا بعضَ المؤونة.

[عدد العوالم]:

روى جبير عن الضحّاكِ أنّه قالَ: لله في الأرضُ ألفُ عالمٍ منها ستّمائةٌ بالبحرِ وأربعمائةٌ في البرّ، وعن الرّبيعِ بن أنسٍ[1]: لله أربعَ عشرَ ألفِ عالمٍ ثلاثة آلافٍ وخمسمائة في المشرقِ ثلاثةُ آلافٍ وخمسمائةٍ في المغربِ ثلاثةُ آلافٍ وخمسمائةٍ هكذا ثلاثة آلافٍ وخمسمائة هكذا؛ ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قال: لله ثمانيةُ آلافِ عالمٍ: الدُّنيا وما فيها عالمٌ واحدٌ، ورُوي حديثٌ عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ للهِ أرضاً بيضاءَ مسيرةَ الشمسِ فيها ثلاثون يوماً مملوءَةً خلقاً من خلقِ اللهِ لا يَعْصُون اللهَ طرفةَ عينٍ» قِيلَ: فأين إبليسُ عنهم يا رسول الله؟ قال: «وما تدرونَ أنّ اللهَ خلَقَ إبليسَ» ثُمّ قرأ: ﴿**ويخلقُ ما لا تعلمون**﴾ [النحل: ٨] واللهُ أعلمُ بصحّةِ الروايةِ مع ما يُذكرُ من أصنافِ الأُممِ مثلُ ناسكٍ ومتنسّكٍ وتأويلٍ وهاويلٍ ويأجوجٍ ومأجوجٍ وسائرِ الخلقِ في جنبتي الأرضِ اللتين يُسمَّيان جابلقا[2] وجابلسا[3].

---

(١) ابن زياد البكري، الخرساني، المروزي، روى عن أنس بن مالك وغيره، وسمع منه الأعمش وغيره، كان عالم مروٍ في زمانه (ت ١٣٩ هـ). (سير أعلام النبلاء ٦/ ١٧٠).

(٢) جابلقا: وروت في معجم البلدان باسم «جابلق»: وهي مدينة بأقصى المغرب، وأهلها من ولد عاد، وفيها بقايا من ولد موسى عليه السلام. «معجم البلدان ٢/ ١٠٥».

(٣) جابلسا: وردت في معجم البلدان باسم «جابرس»: مدينة بأقصى المشرق، يقول اليهود: أنّ أولاد موسى عليه السلام، هربوا في إحدى الحروب فنزلوا بهذا الموضع. «معجم البلدان ٢/ ١٠٥».

الفصل الثامن:

في ظهورِ آدمَ وانتشارِ ولدِه

إعلمْ أنَّ الناسَ في هذا الفصلِ رجلان إثنان: مُلحدٌ مُنكرٌ للابتداءِ قائلٌ بأزليّةِ المعلولِ مع العلّةِ، وموحّدٌ مُقرٌّ بالابتداءِ قائلٌ ضدَّ صاحبِهِ، ثُمَّ مَنْ أقرّوا بابتداءِ الخلقِ اختلفوا في كيفيّةِ ظهورِ أوّلِه، وأنا ذاكرٌ مقالاتِهم ومُنبّةٌ عن موقعِ منه بمشيئة الله وعونِه فليكنْ مسألة إثباتِ حَدَثِ العالم مِنْ بالِ الناظر في هذا الفصلِ فالّذي يدلُّ على حَدَث آدمَ هو الدليلُ المضطرُّ إلى الإقرارِ بابتدائه.

[اختلاف الفلاسفة في تولّد الحيوانات]:

فأمّا الذين يرونَ أنَّ العالمَ لا كونَ له فإنّ كونَ الحيوانِ عندَهم من استحالةِ بعضِهِ إلى بعضٍ لأنّه أجزاءُ العالمِ، وكذلك يَرى فيثاغورس، وأما القسمند فيرى أنَّ الحيوانَ تولّدَ من الرطوبةِ وإنْ كان يغشاه قِشْرٌ مثلُ قشورِ السمّكِ، ولمّا أتَتْ عليه السنونَ صارتْ إلى الجفافِ واليبسِ، فانقشرَ عنها ذلكَ القِشْرُ، وصَارَ حياتُها زماناً يسيراً، وأما ديمقرطيس فيرى أنَّ الحيواناتِ تولّدتْ وأنّ كونَها من جوهرٍ حارٍّ وأنّ أوّلَ ما أحياها هي الحرارةُ؛ وأمّا انبادقليس فيرى: أنّ لحونَ الحيوانِ والنباتِ لم يكنْ في أوّلِ الأمرِ دفعةً واحدةً لكنّها شيءٌ بعد شيءٍ كأنّها كانتْ أعضاءً غيرَ مؤتلفةٍ ولا متّصلةٍ، ثُمّ صارتْ بَعدَ ذلك متّصلةً في كونٍ ثانٍ في صورةِ التماثيلِ، وفي كونٍ ثالثٍ كان بعضُها في بعضٍ، وفي كونٍ رابعٍ بالاجتماعِ والتكاثفِ وكثرةِ الغذاءِ. ، فهذا جملةُ قولِهم في ظهورِ الحيوانات.

وآدمُ حيوانٌ فعندَ بعضِهم إنّ آدمَ تولّدَ من رطوبةِ الأرضِ كما يتولّدُ سائرُ الهوامّ، وكان جلدُه كقِشرِ السّمكِ، ثُمّ لمّا أتى الزمانُ عليه جفَّ وسقطَ عنه، وعندَ آخرٍ لم يظهرْ بكمالِه وأنّها ظهرَت شيئاً بعدَ شيءٍ، ثُمّ تركّبتْ واتصلتْ على مرورِ الزّمانِ وصَارَ إنساناً تامًّا، واختلفَ المنجّمون في ذلك فمنهم مَنْ يزعمُ أنَّ الفلكَ دارَ كذا وكذا ألفِ سنةٍ، فكلّما دارَ

على استقامةٍ ظَهَرَ نوعٌ من الخلقِ إلى أنْ دارَ على أتمّ الاستقامةِ وأكملِ الاعتدالِ فظَهَرَ هذا الإنسانُ الذي لا شيء أكملَ ولا أفضلَ منه؛ ومنهم مَنْ يزعمُ أنّ الكواكبَ السبعةَ لمّا اجتمعتْ كلُّها في أوّلِ درجةٍ من الحملِ ظَهَرَ جنسُ البهائمِ، ثُمّ لمّا اجتمعتْ في أوّلِ درجةٍ من الجوزاءِ ظَهَرَ جنسُ النّاسِ، ولمّا اجتمعتْ كلُّها في أوّلِ درجةٍ من الثّورِ ظَهَرَ جنسٌ من النّباتِ؛ ومنهم مَنْ يزعمُ أنّ الفلكَ لمّا دارَ على استقامةٍ ظهرَتِ البهائمُ، ثُمّ دارَ على أعدلِ من ذلك فأظهرَ القِرْدَ، وكادَ يكونُ إنساناً ولا شيءَ أشبه به منه، ثمّ دارَ على غايةِ العدلِ فأظهرَ الإنسانَ، واختلفتْ سائرُ الأُممِ في ذلك، فزعمتْ فرقةٌ من الهندِ: أنّ أوّلَ ما كانَ من ظهورِ الإنسانِ أنّ السماءَ ذَكَرٌ والأرضَ أُنثى، وأنّه مطرتِ السماءُ فقبلَتِ الأرضُ ماءَها بمنزلةِ قبولِ المرأة ماءَ الرّجلِ في رَحمِها، وأجَلَها الفلكُ بسرعةِ جَرْيه ودورانِه فبدا أوّلَ ما بدا هذا النبتُ الشبيهَ بالإنسانِ الذي يُسمَّى يبروح الصَنَميُّ، ثُمّ ألحّ عليه الفلكُ بدورانِه حتّى أقلَع من منبتِهِ وأفادَه حركةُ مكانتِه فصَار إنساناً يسعى كما ترى، وفي كتابِ الفُرْسِ: أنّ اللهَ خَلقَ الخلقَ في ثلثمائة وستين يوماً، ووضَعَ ذلك على أزمنةِ الكاهِ أنبارِ فخَلقَ السماءَ في خمسةٍ وأربعين يوماً، والماءَ في ستّين يوماً، والأرضَ في خمسةٍ وستّين يوماً، والنباتَ في ثلاثين يوماً، وخَلقَ الإنسانَ في سبعين يوماً، وسمّاهُ كيُومرّث، وأنّه كَانَ في جبلٍ يسمّى كوشان[1] ولم يزلْ يعملُ الخيرَ والعبادةُ، وكَانَ في سياحتِهِ ثلاثين سنة، ثُمّ طعنَه إبليسُ فقتَله، فسأل من طعنتِه دَمُه وصَارَ ثلاثة أثلاث: فثُلثٌ منه أخذَتْه الشياطينُ، وثُلثٌ أمرَ اللهُ رُوشنكَ الملكَ أن يأخذَه ويصونَه، وثُلثٌ قبلتْه الأرضُ فصَارتْ محفوظةً أربعين سنة، ثُمّ أنبتَ اللهُ منه نباتاً كهيئاتِ الريباسِ[2]، وظَهرَ في وسَطِ ذلك النباتِ صورتان ملتفّان بورقِ ذلك النّبات أحدهُما ذكرٌ، والآخرُ أنثى، واسم الذكرِ منها ميشى، واسمُ الأُنثى ميشانة، ومرتبةُ هذين عندَ الفُرسِ مرتبةُ آدمَ وحوّاءَ عندَ أهلِ الكتابِ وسائرِ الأممِ، قالوا: ثُمّ ألقى اللهُ في قلوبهما شهوةَ المباضعةِ بَعْدَ ما أجرى فيهما روحَ الحياةِ، فاجتمعا وتوالدا، وصَارَ نسلُ النّاسِ منهما؛ وقال قومٌ: إنّ الفلكَ لحركاتِه ابتداءٌ وتوسّطٌ وغايةٌ فَظهرَ من ابتداءِ حركتِهِ النباتُ، وفيه أَدْنى القُوى، ثمّ انضمّتْ إلى القوّتين قوّةُ الغايةِ والتمامِ فظَهرَ الإنسانُ، قالوا: ولا قوّةَ في الفلكِ أتمُّ وأبلغُ من هذه القوّةِ التي أظهرتِ الإنسانَ، ولا صورةَ أتمُّ وأكملُ منه ولذلكَ اجتمعتْ فيه القُوَى كلُّها: قوّةُ النماءِ وقوّةُ الحسِّ والحركةِ وقوّةُ النُطْقِ والتمييزِ، ومن هاهنا قَالوا:

---

(١) كوشان: مدينة في أقصى بلاد الترك. «معجم البلدان ٤/ ٥٥٦».

(٢) الريباس: نبات يشبه السّلق لكن طعمه حامض إلى حلاوة.

الإنسانُ ثمرةُ العالمِ، وقالوا: هو العالمُ الأصغرُ إذْ لا يوجدُ في العالمِ شيءٌ إلاّ وُجِدَ له شبيهٌ في الإنسانِ، لأنّ فيه ظاهراً هو جسمهُ وباطناً هو روحهُ وأربعُ طبائعَ من اسطقسّاتهِ: فالسَّوْداءُ باردةٌ يابسةٌ من طبعِ الأرضِ، والصفراءُ حارّةٌ يابسةٌ من طبعِ النارِ، والبلغمُ باردٌ رطبٌ من طبعِ الماءِ، والدّمُ حارٌّ رطبٌ من طبعِ الهواءِ، ولحمهُ كالأرضِ، وعِظامهُ كالجبالِ، وشعرهُ كنباتِ الأرضِ، وأعضاؤه كالأقاليمِ، وعروقُه كالأنهارِ ومنافذُهِ ومفاوزُ عرقهِ كالعيونِ، ورأسهُ الفلكَ محيطٌ به، وفيه نيّرانُه كنجومِ الفلكِ، وظهرهُ كالبرّ، وبطنهُ كالبحرِ، وفي بطنهِ ألوانٌ مختلفةٌ من المياهِ والحيوانِ كنحوِ ما في بطنِ الأرضِ، وفي يدَيْه الدوابُّ المتولّدةُ كالدوابِّ المتولّدةِ في الأرضِ، وفيه النماءُ كما في النباتِ، والحركةُ كالمنةُ كالبهائمِ، والغضبُ كما في السّباعِ، وفيه عقلُه وحيوتُه كالإلٰهِ المدبرِ له المعرّفِ له، قالوا: ولا متفرّقَ لو جُمع كَانَ منه إنسانٌ إلاّ العالمُ ولا مجتمعَ لو فُرّقَ كانَ منه العالم إلاّ الإنسان، والعالمُ الأكبرُ عالمٌ بالفعلِ إنسانٌ بالقوّةِ، فالإنسانُ إنسانٌ بالفعلِ، وهو العالمُ بالقوّةِ، وفي النباتِ امتزاجٌ ضعيفٌ فلذلك لم يَبْلُغْ درجةَ الحسّاسةِ، وفي البهائمِ امتزاجٌ أقوى من ذلك فلذلك تحرّكتْ وأحسّتْ، وفي الإنسانِ امتزاجٌ على تعديلٍ ونظام، قالوا: وقدْ صحَّ حُكمُ الحكماء أنّ آخرَ العملِ أوّلُ الفكرةِ، وأوّلَ الفكرةُ آخرُ العملِ فلمّا كانَ الإنسانُ آخرَ عملِ الصانعِ صحّ أنّه أوّلُ فكرةِ الصّانعِ، وهذا رأيُ أكثرِ الفلاسفةِ، وقالَ بعضهُم في تفصيلِ الإنسانِ وقسمةُ أجزاءِ الحيوانِ: فالعالمُ فيه يداه جناحاه، وأظفارهُ مخالبهُ، وعيناه شمسُه وقمرُه، ورِجْلاه قوائمه، ورأسهُ سماءُه، ومثانتهُ بحارهُ وأضراسُه وطواحنُه. ومِعْدَتُه خزانتُه حتّى عدّ جميعَ أجزائه وأعضائهِ الظاهرةِ والباطنةِ، وهذا كلّه سهلٌ يسيرٌ لأنّا لا نُنكرُ خلقَ الإنسانِ في هذا العالمِ من العالمِ والكلام، فيه حرفان: إمّا أنْ كانَ هو بنفسهِ من غيرِ مُكوّنٍ فهو مُحالٌ، وإمّا أن كَانَ كوّنه غيرُه مكوّنٌ فهو الّذي يقطعُ الشَّغَبَ بيننا وبينَهم، وإمّا أنْ يكونَ هو لم يزلْ فأثرَ الحدثُ فيه، يردّ هذا اقولَ وقد سبقَ من الحُجّةِ في الفصلِ الأوّلِ ما يدلُّ على فسادِ هذه الدّعوى.

بقي الكلامُ في كيفَ أُوجِد وليسَ ممكنٌ مشاهدةِ الخبرِ في مثلهِ إلاّ عن وحْي أو رسالةٍ فانتصرْ إلى ما في كُتبِ الله وأخبارِ رسُلهِ صلواتُ اللهِ عليهم، وروى ابنُ إسحٰقَ أنّ أهلَ التوراة يدرسون فيها أنّ خَلقَ اللهُ آدمَ على صورته لمّا أرادَ يسلّطهُ على الأرضِ وما فيها وقد روى هذا الحديثَ أنّ النبيّ ﷺ قال: «خَلقَ اللهُ آدمَ على صورته» ثُمّ اختلفوا في التأويلِ؛ وقرأتُ في نسخةٍ زيادةً على ما ذكرَه ابنُ إسحٰقَ فقال: بعدَ ذكرِ خلقِ السماواتِ والأرضِ قال

الله يخلقُ إنساناً بصورتِنا وشبهِنا ومثلِنا فيكونُ مسلّطاً على سمكِ البحارِ والطيرِ والأنعامَ، وكلِّ ماشيةٍ على الأرضِ، فخلقَ آدمَ على صورتِهِ ومثالِهِ، ونفَخَ في وجهِهِ نسمةَ الحياةِ وسلّطَه على ما في الأرضِ وذلك يومَ الجمعةِ، واستراحَ يومَ السابعِ وهو يومُ السبتِ؛ وفسّر لي يهوديٌّ بالبصرةِ[1] فزَعم في خلقِ آدمَ أنّ اللهَ صوّرَه على الأرضِ ثم نَفَخَ فيه واللهُ أعلم؛ وروى ابنُ اسحٰقَ قال: بينا آدمَ يمشي منتصباً ولم يكنْ مشى في الأرضِ حيوانٌ مثلُه إذْ جاءَ النّسرُ إلى البحرِ فقالَ للسمكةِ: إنّي رأيتُ خلقاً يمشي على القَدَمين وله يدانِ يبطشُ بهما في يدِهِ خمسُ أصابعٍ، فقالَتِ السمكةُ: إنّي أراكَ تنعتُ خَلقاً ما أَراهُ يَدَعُك في جوِّ السماءِ ولا يَدَعُني في قعرِ البحارِ؛ وهذا تمثيلٌ واللهُ أعلمُ، وفي كتاب الله الذي لم يلحقه تغييرٌ ولا تحريفٌ: ﴿ولقد خَلقْنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طينٍ ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين﴾ [المؤمنون: ١٣] يعني ولده وقال عزّ ذكرُه: ﴿إنّ مَثَلَ عيسى عندَ اللهِ كمثلِ آدمَ خَلَقَه من ترابٍ ثمّ قال له كنْ فيكونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال تعالى حكايةً عن الشيطان: ﴿خلقتَني من نارٍ وخلقتَه من طينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فأخبر عن ابتداءَ خلقِ آدمَ أنّه كانَ من التُّرابِ ثُمّ ضمّ إليه الماءَ فكان طيناً ثُمّ سلَّ خُلاصَة الطّينِ بدلالةِ قوله تعالى: ﴿وإذْ قَالَ ربُّك للملائكةِ إنّي خالقٌ بشراً من صَلصالٍ من حماءٍ مسنونٍ﴾ [الحجر: ٢٨] ثمّ تُرِكَ حتّى جَفّ، وصلصالُ كما قال خَلقَ الإنسانَ من صلصالٍ كالفَخّارِ، وهذه أحوالٌ كانَ اللهُ تعالى يحوّلها على الإنسانِ تصفيةً لطينتِهِ وإخلاصاً لنيّته إذْ لم يخلقْ كلَّ طينٍ كما يتولّدُ منه الحيوانُ وينبتُ منه النباتُ، ولا جَعلَه في جميعِ الأحوالِ والهيئاتِ كما يُوجَدُ منه ذلك، ولو شاءَ لأَوْجدَه ولكنْ لم يدعْ حكمتَه وتدبيرَه في إظهارِ قدرتِهِ وإبداءَ حكمتِهِ في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ ترتيبِهِ كما يخلقُ تنسلَه من نطفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم من مُضْغةٍ، ولو شاءَ لأَتَمَّ خلقَه من غيرِ النطفةِ مع أنْ أسرارَ حكمتِهِ وعلمِهِ لا مُطّلَعَ عليها للعبادِ، وجاءَ فيها من الأحاديثِ والأخبارِ ما لو تكلّفناها لطَالَ الكتابُ بها، وخَرَجَ عن الغرضِ المقصودِ له ولا من بعضها لما فيه من التقريبِ والتمثيلِ، فزعمَ بعضهُم: أنّه إنّما سُمّي آدمَ لأنّه خُلِقَ من أَديمِ الأَرضِ، وقالَ الضحّاكَ: سُمّي آدمَ لأنّه خُلِق من الأرضِ السادسةِ واسمُها كاماً، والروايةُ الأُولى أشهرُ وأعرفُ، وزعم بعضهُم أنّ الله قبضَ من جميعِ وجهِ الأرضِ من سباخِها وبطائحِها وأسودِها وأحمرِها قبضةً فلذلك جاءَ وَلَدُ آدمَ على تلك الألوانِ أبيضٍ وأَسودَ وأحمرَ، وروى بعضهُم أَنّ اللهَ جمّعَ في

(١) البصرة: مدينة في العراق، على شط العرب، قاعدة محافظة ومركز قضاء البصرة، تأسست في عهد عمر بن الخطاب (٦٣٨ هـ) وأصبحت إحدى أهم المدن في العراق. «منجد الأعلام».

آدمَ المياهَ كلّها فموضعُ العَذْبِ في فمِهِ والمالحُ في عينِهِ، والمُرُّ في أُذُنِهِ، والمُنْتن في خَيْشومِهِ؛ ورُوي في خبرٍ أنّ اللهَ تعالى خمّرَ طينةَ آدمَ وأنّها لتخرجَ من أصابعِهِ واللهُ أعلمُ.

[خلق آدم]:

قالَ ابنُ اسحٰقَ فلمّا أرادَ اللهُ أنْ يخلُقَ آدمَ بقدرتِهِ ليبليه ويبتلي به لعلمِهِ بما في ملائكتِهِ وجميعِ خلقِهِ وكان أوّلُ بلاءٍ أُبْتُلِيَتْ به الملائكةُ مما لها فيه ما تحبُّ وتكرهُ البلاءَ والتمحيصَ بما فيهم ممّا لو تعلّموا أو أحاطَ به علمُ اللهِ منهم جميعَ الملائكةِ من سُكّانِ السماواتِ والأرضِ ثُمّ قال: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾ [البقرة: ٣٠] إلى قوله: ﴿إنّي أعلمُ ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ٣٠] أي أنَّ فيكم ومنكم ولم يبدْها لهُم منه المعصيةَ والفسادَ وسفكَ الدّماء وقال الله تعالى: ﴿قُلْ ما كانَ لي من علمٍ بالملاءِ الأعلى إذ يختصمون﴾ [صٓ: ٦٩] فلما عزم اللهُ تعالى على خَلقِ آدمَ قال للملائكةِ: ﴿إنّي خالقٌ بشراً من طينٍ فإذا سوَّيتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: ٢٩] فحفظتِ الملائكةُ وعدَه ووعَوْا قولَه وأجمعوا لطاعتِهِ إلاّ ما كانَ من عدوِّ اللهِ إبليسَ، فإنّه صمتْ على ما في نفسِهِ من الحسدِ والبغي والتكبُّرِ، وخَلقَ الله آدمَ من أَدَمَةِ الأرضِ من طينٍ لازبٍ من حَماءٍ مسنونٍ بيده تكرمةٌ له وتعظيماً لأمرِهِ، فيُقالُ واللهُ أعلمُ خَلقَه ثم وضَعَه ينظُرُ إليه أربعين عاماً قَبلْ أن ينفُخَ فيه الروحَ حتّى عادَ صلصالاً كالفَخّار، ولم تمسّهْ نارٌ وكان خَلْقُه يومَ الجُمعةِ في آخر ساعةٍ منها وذلك قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ [الإنسان: ١] هذا كلّه قولُ محمدِ بن إسحٰقَ صاحبِ المبتدأ والمغازي وقد خُولف منه في حروفٍ ليس هذا موضعُ شرحها.

[اختلافهم في خلق آدم]:

قالَ كثيرٌ من المسلمين: أنّه خُلقَ في الأرض كما خُلِقَ من الأرضِ وخُلِقتْ منه زوجتُه حَوّاءُ، وفي نسخةِ التوراة: أنّ اللهَ نصبَ الفردوسَ في عدنٍ، وأسكنَها آدم، وأنبتَ فيها من كلِّ شجرةٍ طيّبةٍ، وانطلقَ الربُّ بآدمَ فأنزلَه الفردوسَ ليعمُرَه ويتعاهدَه، وقالَ ولا تأكلُ من شجرة الفقهِ للخيرِ والشرِّ فإنّك يومَ تأكلُ تموتُ موتاً وقال تعالى لا يحسنُ أن يكونَ آدمُ وحيداً فألقى عليه النومَ وأخذ ضلعاً من أضلاعِهِ فجعلَ منه حوّاءَ، وقال بعضُ النّاسِ أنَّ اللهَ خلَق آدمَ في السماءِ، ورُوي عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه أنّ الجنّةَ التي أسكنَها آدمَ بينَ السماءِ والأرضِ، ومن المسلمين مَنْ يقولُ: إنّها خُلقتْ للابتداءِ ثم أُفْنِيَتْ، ومنهم مَنْ

يقولُ: إنّها جنّةُ الخُلدِ واللهُ أعلمُ، قالوا وكَانَ خلقُ آدمَ يومَ الجُمعةِ، وأُسكِنَ الجنّة في ذلك اليوم، وأُخرجَ منها فما لبثَ فيها إلاّ مقدارَ ما بين الصلاتين ويذكرُ هذه القصّةَ ابنُ جهمٍ في قصيدته: [سريع]

يا سائِلِي عَنْ إبتداءِ الخَلْقِ مسألةَ ٱلقاصد قصدَ ٱلحقِّ
أخبرني قومٌ منَ ٱلثِقاتِ أولو علومٍ وأولو هَيْئَاتِ
تفرّغوا في طلبِ الآثارِ وعرفوا مواردَ الأخبارِ
ودرسوا ٱلتّوْراة والإنجيلا وأحكموا ٱلتّأويلَ وٱلتّنْزيلا
أنّ الذي يفعلُ ما يشاءُ ومَنْ له ٱلقُدرةُ وٱلبقاءُ
أنشأ خلقَ آدم إنشاءَ وقدّ منه زوجَةُ حوّاءَ
مبتدياً وذاك يوم ٱلجُمْعَةْ حتّى إذا أكمل فيه ٱلصّنْعَةْ
أسكنه وزوجَةُ ٱلجَنانا فكان مِن أمرهما ما كانا
غَرَّهُما ٱلشيطان فٱغترّا بِهْ كما أبان ٱلله في كتابِهْ
غرّهُما ٱلشيطانُ فيما صنعا فأُهبطا منها إلى ٱلأرضِ معا
فَوَقَعَ ٱلشَيخُ أبونا آدمُ بجبلِ ٱلهند يُدعى واسمُ
لِبئس ما ٱعتاضُ من الجنانِ وٱلضُّعْفُ من جبلّةِ ٱلإنسانِ
فشقيا وورثا ٱلشقاءَ نسلَهما وٱلكدَّ وٱلعناءَ
ولم يزلْ مفتقراً مِنْ ذَنْبِهْ حتّى تلقّى كَلِماتِ ربِّه
فأمن ٱلسُّخْطةَ وٱلعذابا وٱلله توّابٌ على من تابا
ثُمَّ تنسّلا وأحبَّ ٱلنّسْلا فحملَتْ منه حوّاءُ حَمْلا
وولَدتْ إبناً فسُمّي قاينا وعاينا من أمره ما عاينا

وفي الحديثِ أنّ اللهَ تعالى لمّا خَلقَ آدمَ ألقى عليه النومَ فأخذ ضلعاً من أضلاعهِ من شقّه الأيسرِ، ولأَمَ بينهما، وآدمُ نائمٌ، ثُمّ لم يهبّ فخَلقَ زوجتَه، فلمّا هبَّ رآها إلى جنبه، فقال: لحمي ودمي وروحي فسكنَ إليها، قال ابنُ عبّاسٍ إحفظوا نساءَكم فإنّ المرأة خُلقتْ من الرَجلُ فنَهْمتُها[1] في الرجل وإنّ الرجلُ خُلقَ من الطينِ فنهمتُه في الطينِ؛ وفي التوراة أنّ اللهَ أسكنَ آدمَ الجنّةَ قَالَ لا يحسنُ أنْ يكونَ آدمُ وحيداً فلنخلقْ له عوناً يعني امرأةً فخلقَ

---

(١) نهمتُها: النَهْمة: بلوغ الهمّة والهشوة في الشيء.

حوّاءَ، كما جاءَ في الحديث؛ وفي روايةِ الكلبي[1] أنّ اللهَ خلقَ آدمَ من طينٍ فكانَ مطروحاً بين مكةَ والطائفَ[2] أربعين سنة لا يُدْرَى ما يُصنَعُ به وذلك قوله عزّ وجلّ: **﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** [الإنسان: ١].

[كيفية نفخ الروح في آدم]:

قال أهلُ الأخبارُ لمّا خلَقَ اللهُ طينةَ آدمَ، وأتى عليه حينٌ من الدّهر، وصارَتْ صلصالاً كالفَخّارِ أرسلَ إليه روحاً من عندِه على مائدةٍ من موائدِ الجنّةِ فلمّا رأت الرّوح ضَيْقَ مَدْخله وظلمة هيكله كَرِهَتْ الدخولَ فيه فقيلَ أدخلي كرهاً واخرجي كرهاً، فنُفِخَتْ الروحُ في منخرِه، فدارت في رأسِهِ لضيقّ مكانِه، وجرتْ روحُ الحياةِ فيه، ففُتحتْ عينهُ، وانطلقَ لسانُه، وسمعت أُذناه، وعطس، فقَالَ الحمدُ لله فقال له ربّه جلّ ذكرُه: يرحمك ربُّكَ، فكان أوّلُ ما تكلّم به آدمُ التوحيدَ والتحميدَ لربّهِ فعلمتِ الملائكةُ عندَ ذلك أنّ اللهَ لم يخلقْه إلاّ لأمرٍ عظيمٍ، قالوا: وجعلَ الروحَ تمرُّ في جسدِ آدمَ وهو ينظرُ إليه فلا يأتي على شيءٍ منه إلاّ صَار لحماً ودماً وشَعَراًقال سلمانُ الفارسيُّ: ثُمّ وثّب قَبلَ أن يُخلقُ الرِجْلُ منه وذلك قوله تعالى: **﴿وكانَ الإنسانُ عجولا﴾** [الإسراء: ١١].

[سجود الملائكةِ لآدم]:

قال: ولمّا خلقَ اللهُ آدمَ ونفخَ فيه من روحهِ أمرَ الملائكةَ بالسجودِ ليبتليهم ويبتلي إبليس بما في ضميرهِ سجدةَ تحيةٍ لا سجدةَ عبادةٍ، وقيل بل أُمِرُوا بالسجودِ لله إليه كسجودِ المسلمين إلى القُبلةِ، فسجدوا كلُّهم كما قصّ اللهُ علينا في القرآن إلاّ إبليس أبا واستكبر وكان من الكافرين؛ واختلفوا في المعنى الذي أُمروا بالسجودِ من أجلهِ، فقال قومٌ: كانَ اللهُ في سابقِ علمهِ أنْ يستخلفَ آدم ذرّيّته في الأرضِ ليعمروها ويأكلوا من رزقهِ ويعبدوه ويطيعوه، فلمّا أرادَ أن يخلقَ آدمَ قالَ للملائكةِ **﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةٍ، قالوا: أتجعلُ فيها من يفسدُ فيها ويسفكُ الدمارَ ونحن نسبّحُ بحمدِك ونقدّسُ لك قال إني أعلمُ ما لا تعلمون﴾** [البقرة: ٣٠] أنّ في ذرّيّتهِ أنبياءَ وأولياءَ، وأنّه يعصي فاغفرْ له فيُظهِرِ الرحمةَ

---

(١) محمد بن السائب، نسّابة، راوية، لغوي، عالم بأخبار العرب، من أهل الكوفة، انصرف إلى الدراسات اللغوية والتاريخية، درس في الكوفة وأقام زمناً طويلاً (ت ٧٦٣ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) الطّائف: مدينة في الحجاز جنوب شرقي مكّة، سكنها في الجاهلية بنو ثقيف، هي نقطة مواصلات هامة بين الرياض ومكّة. «منجد الأعلام».

والمغفرةَ، وأنّه يأكلُ من رزقِهِ فيُظهرَ الفضلَ والجودَ والقدرةَ، فلمّا نفخَ فيه الروحَ قال الحمدُ لله، وقالِ الله تعالى يا آدمَ أحسنتَ أحسنتَ لهذا خلقتك لكي تحمدني وتمجّدني ثُمّ أمرتِ الملائكةُ بالسجودِ له بحمدهِ، وقال قومٌ: إنّ إبليسَ عبدَ اللهَ خمس وثمانين ألفَ سنةٍ وكان يُدعى بينَ الملائكة خازنَ الجنانِ، فلمّا قَالَ الله عزّ وجلّ ﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾ [البقرة: ٣٠] استعظم ذلك إبليسُ واعتقدَ الخلافَ والمعصيةَ، فلما خَلقَ اللهُ طينةَ آدمَ جَعَلَ إبليسَ يمرُّ بها ويقولُ للملائكةِ أرَأيْتُم هذا الخلقَ الذي لم ترَوْا فيما مضى مثلَه إن أُمرتم بطاعتهِ ما صانعون؟ فقالوا: نطيعُ ونأْتمرُ، فقال في نفسهِ: لَئِنْ فُضّل عليّ لأعصينَّه، ولَئِن فُضّلتُ عليه لأُهلكنّه، فأُمروا بالسجودِ حتّى ظَهَرَ ما أضمر المرءُ في نفسهِ من المعصية؛ وزعَمَ الكلبيُّ: أنّ اللهَ تعالى لمّا قالَ للملائكةِ: ﴿إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾ [البقرة: ٣٠] قالوا أَلَنْ يجعلَ اللهُ خلقاً أعلمَ منّا ولا أكرم عليه منّا فابتلوا بالسجود لآدمَ، وزعم بعضهُم أنّ اللهَ تعالى لمّا خلقَ آدمَ لم يكنْ في خلقِه أحسنَ وأكمل وأتمَّ وأفضلَ منه فأُمرتِ الملائكةَ بالسجودِ له لفضيلتهِ لقولِ اللهِ عزّ وجلّ بعد أقسامٍ أربعة: ﴿لقد خلقنَا الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ﴾ [التين: ٤] وقِيلَ: أُمروا بالسجودِ له لفضلِ علمهِ عليهم، وقدْ قَالَ بعضُ النّاسِ: إنّ الروحَ هو الذين أوجب السجودَ لآدم لأنّها منه، وزُعمَ: أنّ الحيواناتَ كلّها صنفٌ واحدٌ في الحياةِ، والأرواحَ شيءٌ واحدٌ، وإنّما الأشخاصُ والأجسامُ والهياكلُ كلُّها آلاتٌ ومساكنٌ، قالوا: فالحيوانُ مجموعٌ من شيئَيْن خفيفٍ وثقيلٍ، فما كان من ثقيلٍ فإنّه ينحلُّ ويعودُ إلى التُرابِ وما كانَ من خفيفٍ فإنه يصعدُ ويبقى، وهو لا يفسدُ أبداً، وهو نُطقُ الإنسانِ وبصرُ العينَيْن وسمعُ الأُذنين وبطشُ اليدَيْن ومشى القدمينِ وأجناسُ الحواسِّ كلِّها من الشمِّ والذوقِ والطعمِ والرائحةِ، وهو حفظُ القلبِ والمعرفةِ والفهمِ والوهمِ والعقلِ والذكرِ وكلٌّ ما هو موجودٌ غيرُ معلومِ الحدودِ في الكميّةِ والكيفيّةِ، قالوا: فالأشخاصُ والأجسامُ كاللّباسِ وفيها لا يُرى ولا يُحسُّ ولا يُسمعُ وهو يرى ويسمعُ ويحسُّ، قالوا: وإنّما أُمروابالسجودِ له لهذه الحالِ فكفرَ من أبَى واستكبرَ وكَانْ حكمُ هذه المسألة أنْ تكونَ في بابِ مَنْ هو وما هو؟ من الفصل الثاني في إثبات البارىء عزّ وعلا، ولكنّ الإنسانُ مغلوبٌ على أمرهِ دلالةٌ على فسادِ قول هذه الطبقةِ إذ لا كمالَ إلاّ لله وغيرُ جائزٍ وجودُ النقصِ في الكمال.

وحُدِّثْتُ عن رجلٍ في بلاد سابور[1] من حدودِ فارس يجتمعُ إليه قومٌ ويذهبون مذهباً

---

(١) سابور: كورة مشهورة في أرض فارس تنسب إلى الملك سابور لأنّه هو الذي بنى مدينة سابور بالطين=

يخالفونُ عوامَّ النّاسِ فقصدتُهُ متصفّحاً ما عندَه، ولزمتهُ أيّاماً كالمُصْغِي المسترسل لما عندَه متبالهاً متجاهلاً، وكانَ الرجلُ يرجعُ إلى شيءٍ من علمِ اللغةِ ومعرفةِ مذاهبِ القدماءِ إلى أن أَنس بي ووَثِقَ بناحيتي ثمّ أبدى مكتومَ أمرِهِ ودفينَ سرّه، وإذا هو على هذا المذهب الذي ذكرتُه مع طولِ تهجّدٍ وقيامٍ وكثرةِ صلاةٍ وصيامٍ، وأذكرُ ممّا حفظته عنه أنّه كان يوماً يشيرُ إليه بالدلائل فقالَ: وهو الذي تراه في عيني وأراه في عينك ثُمّ أنشد بيتاً: [خفيف]

حَجَبَتْهُ ٱلعيونُ عن كلِّ عينٍ ... وَهُو فيها أنيسُ كلِّ وحيدِ

وحدّثني عن بعضِ مشائخه عن أبي يزيد البسطاميّ[1] أنّه قَالَ طلبتُ اللهَ ستّين سنةً فإذا أنا هو، وعن أرسطاطاليس وُجدَتْ صورةٌ مصوَّرةٌ في بعض المواضعِ وفي يدِهِ كتابٌ مكتوبٌ فيه كُنتُ أشربُ شَراباً، ولا أَرْوَى فلمّا عرفتُ الباريءَ جلَّ وعزَّ رَوِيتُ بلا شُربٍ، ولبعض المتصوّفة مذهبٌ قريبٌ من هذا بل هو بعينِهِ لأنّ منهم مَنْ يقولُ بالحلولِ، وإذا رأَوْا صورةً حسنةً خرُّوا له سجّداً، وكثيرٌ من أهلِ الهندِ يفعلون هذا وأنشدني ابنُ عبد الله للحسين بنِ منصور المعروف بالحلاّج[2] ما يدلُّ على هذا القول: [منسرح]

يا سِرُّ يَدِقُ حتّى ... يخفى على وَهْم كلِّ حيّ
وظاهراً باطناً تجلّى ... لكلّ شيءٍ بكلّ شيءِ
إنَّ ٱعتذاري إليك جَهْلٌ ... وعُظم شكّي وفرط عيّ
يا جملةَ ٱلكلّ لستَ غيري ... فما ٱعتذاري إذاً إليٌّ

وكم للهِ علينا من الفضلِ والمنّة بإلهامِ التوحيدِ وتسهيلِ التعريفِ وأيُّ نَفْسٍ مميّزةٌ تطمئنُّ إلى مثلِ هذه المذاهبِ وأيُّ عقلٍ يسمحُ بقبولها.

[تفسيرُ قوله تعالى: وعَلّمَ آدمَ الأسماءَ كلّها]:

ذكر قوله تعالى: ﴿وعلّم آدمَ الأسماءَ كلَّها ثم عرضَهم على الملائكةِ﴾ [البقرة: ٣١]

= والحجارة والجصّ. «معجم البلدان ٣/ ١٨٨».

(١) طيغور أبو يزيد، صوفي شهير كان جدّه مجوسياً، يُستدلّ مما جاء عنه أنّه أول من قال بمذهب الفناء ووحدة الوجود، توفي في بسطام (٢٦١ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) الحسين بن منصور، فيلسوف صوفي، قضى السنوات في خلوات الصوفيين، ثم طاف البلدان داعياً إلى الزّهد، اتهم بالزندقة والقول بالحلول، فحكم عليه وسجن ثماني سنوات ثم عُذّب وصُلب (ت ٣٠٩ هـ) «منجد الأعلام».

قالوا وكانَ اللهُ خلقَ كلَّ شيء قبلَ آدمَ وكانتِ الملائكةُ ترى الأشجارَ والثِّمارَ والوحوشَ والبهائمَ وسائرَ الحيوانات تمشي ولا تأْكلُ ولا يدرون لمن خُلْقَ ولمن خُلقتْ هذه وما أسماؤها ومنافعُها، فلمّا قَالَ لهم: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾ [البقرة: ٣٠] وبدلاً منكم يفسدون في الأرضِ ويسفكون الدماءَ ليس يردّون على الله، ولكن يستخبرونه ويطلبونَ معرفةَ حكمتهِ وأنّه يخلقُ خلقاً يفسدُ وهو تعالى يكرهُ الفسادَ فقال الله: ﴿إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ٣٠] وهذا ليسَ جوابُ الملائكةِ عن قولِهم وإنّما جوابهُم حيثُ أنبأهُم آدمُ أسماءَ المسمَّيات وقد يكونُ جوابَ القول قولاً وفِعلاً وحركةً، وعلّم آدمَ الأسماءَ كلَّها تعليمَ إلهامٍ، ويُقالُ تلقينٌ، وأمّا الحسنُ فإنّه كَانَ يقولُ تعليمَ استدلالٍ واجتهادٍ خلقَها اللهُ إذْ خلقَه مستنبطاً مُستدِلاً فاستدلَّ بالآثارِ على المُرادِ من المسمَّيات، وانبأَها وأَغفلتِ الملائكةُ ذلك ففضّلَ آدمَ عليهم واستحقَّ شرفَ الرتبةِ باستعمالِ الاجتهادِ، وزعم قومٌ أنّه علَّم آدمَ الأسماءَ ولم يعلّمْها للملائكةِ، ثمّ أعادَهم إلى معارضتِهِ وأجازوا تكليفَ ما لا يُطاقُ بظاهرِ هذه الآيةِ واللهُ أعلمُ وأحكمُ، فأمّا ذكرُ تلك المسمَّياتِ وما اختلفَ أهلُ التأويلِ فمستقصاةٌ في كتابِ معاني القرآنِ مَنْ نَظرَ فيه شفاهُ وكفاهُ.

[دخول آدم إلى الجنة]:

ولمّا أَبى إبليسُ أنْ يسجدَ لآدمَ قال الله تعالى: ﴿يا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُك الجنّةَ وكُلا منها رغداً حيث شئْتما ولا تقرُبا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين﴾ [البقرة: ٣٥] وقَدْ ذكرنا قولَ أهلِ العلمِ في تلك الجنّةِ ما هي وأينَ هي؟ واختلفوا في هذه الشجرةِ فمن قائلٍ أنّها الحنطةُ وآخَرُ أنّها الكرمةُ وآخرُ أنّها الحنظلُ؛ وروى ابنُ إسحٰقَ عن بعضِهِم أنّه قَالَ: الشجرةُ التي يحتكُّ بها الملائكة الخُلدَ، وأنّ آدمَ لمّا دَخلَ الجنّةَ ورأى ما فيها من الكرامةِ والنعيمِ قَالَ: لو أنّ خُلداً فاغتنم منه الشيطانُ ذلك فأتاه من قبلِ الخُلدِ وقال: ما نهاكما عن هذهِ الشجرةِ إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، فقد جَعلَ اللهُ للشيطانِ وأعوانِه سُلطاناً يَتخلصون بها إلى بني آدمَ ونقطهم وهُمْ لا يَرُوْنهم يقولُ اللهُ تعالى: ﴿قلْ أعوذُ بربِّ النّاس ملكِ النّاس﴾ [الناس: ٢] إلى قوله: ﴿يوسوسُ في صدورِ النّاسِ﴾ [الناس: ٥] ورُوي أنّ صفيّةَ بنتَ حُييّ أَتَتِ النّبيّ ﷺ، وهو مجاورٌ في المسجدِ فتحدّثتْ عندَه ساعةً من العَشاءِ وذلك قبلَ أن يُضربَ عليهنّ الحجابَ، فقامَ رسولُ الله ﷺ ليردَّها إلى البيتِ فمرّ بها رجلٌ من الأنصارِ فناداه رسولُ الله ﷺ يا فلانُ إنّها صفيّةُ بنتُ حييّ، فقالَ: يا رسولَ الله إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أظننتَ أني أظنُّ قبيحاً، قال: «إنّ الشيطانَ يجري من آدمَ مجرى الدمِ خَشيتُ

أن تظنّ فتهلك» فهذا الخبرُ دليلٌ على وصولِ الشيطانِ إلى الإنسانِ كوصولِ الأعراضِ من الحرِّ والبردِ وغيرِ ذلك، وزعمَ القُصّاصُ وأهلُ الكتابِ مراجعاتٍ كثيرةً وعجائبَ في هذه القصّةِ، وأنّ إبليسَ عرضَ نفسَه على دوابِّ الأرضِ كلّها تأبى ذلك حتّى كلّمَ الحيّةِ، وقالَ أمنعكِ من ابنِ آدمَ وأنتِ في ذمّتي إنْ ادخلتني الجنّةَ فجعلتْه في فمها أو بين نابَيْها، وكانت الحيّةُ من أحسنِ الدوابِّ وخُزّانِ الجنّةِ فكلّمهما من فيها، وقِيلَ: ناحَ عليهما نوحةً شبحيَّة حتّى افتتنا، قَالَ ابنُ عبّاسٍ: اخفروا ذمّةَ عدوِّ الله فيها واقتلوها حيثُ وجدتموها، قَالَ الله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا مِنها جميعاً﴾ [البقرة: ٣٨] الآيةَ وفيما قصَّ اللهُ تعالى في القرآنِ كفايةٌ عن زيادةِ روايةِ غيرِه، وقَالَ اللهُ تعالى: ﴿وعصى آدمُ ربَّه فغوي ثم اجتباهُ ربّهُ فتابَ عليه وهَدى﴾ [طـه: ١٢٢] وجاء في صفةِ توبتِهِ وما يلقى من كلماتِ ربّه رواياتٌ قَدْ ذكرتُها في كتابِ المعاني، وأحسنُ ذلك ما رُوي عن الحسنِ رحِمَه الله أنّه قوله: ﴿ربّنا ظَلَمنا أنفسنَا وإنْ لم تغفرْ لنا وترحمْنا لنكونَنّ من الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣]

ذرية آدم:

قال اللهُ تعالى: ﴿وإذْ أخذَ ربُّك من بني آدمَ من ظهورِهم ذرّيّتَهم وأشهدَهم على أنفسِهم ألستُ بربّكم، قالوا: بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] أهلُ النظرِ يرون أنّ أَخْذَ هذا الميثاقِ من بني آدمَ عندَ بلوغِهم واستجمامِ عقولِهم فليسَ من بالغٍ إلاّ وتلك الشهادةُ ساطعةٌ عليه بأنّه مخلوقٌ مُحدَثٌ، وأنّ له خالقاً يستحقُّ منهُ العبادةُ لإحداثهِ إيّاهُ وإيجادهِ، فأهلُ الأخبارِ يروون فيه رواياتٍ: أنّه أخرَجَ الذرّيّة من ظَهرٍ واحدٍ وجعلَ لهمُ فهماً وعقلاً ولِساناً ينطقونَ، فَقَالَ: ألستُ بربكم، قالوا: بَلَى شهدنا فاشهدَهم على أنفسِهم وأشهدَ الملائكةَ عليهم، وأعادهم في صُلْبِهْ، واختلف هؤلاءِ أين أخذَ الذرّيّةَ من ظهرهِ؟ ومن هو مولودٌ إلى يومِ القيامةِ؟ فزعم الكلبيّ أنّه مَسَحَ ظهرَه بين مكّة والطائفِ؛ وهذه أشياءُ أكتفي منها بِنُبَذٍ لأنّي قد وفّيتُها حقّها في كتاب المعاني.

[اختلاف الناس في آدم وذرّيّته]:

إعلم أنّ مَنْ أنكرَ حَدَثَ العالمِ وقَالَ بِقدَمِ المَعلولِ مع العلّةِ لم يقُلْ في ابتداء شيءٍ من الخلقِ، وإنّما حدوثُه وكونُه استحالةٌ بعدَ استحالةٍ إلى ما لا نهايةَ؛ وأمّا الفُرْسُ فإنّهم استعظموا وجودَ النسّلِ من ذَكَرٍ دون أُنْثَى، فوضعوا في المبادىء ذكراً وأنثى، وسمّوها ميشى وميشانه، وحُكي عن بعضِ أهلِ الهندِ أنّهم يزعمون أنّ آدمَ خَرَجَ من عندهِم هارباً

فتناسلَ في ناحيةِ الشمالِ، ومن القدماءِ مَن يسمّيه زاوش؛ وحُكي عن علّي بن عبد الله القَسْريّ في كتابِ القراناتُ عن بوداسف الفيلسوفِ من أهلِ بابل[1] العتيقةِ، كان عالماً بالأدوارِ والأكوارِ، واستخراجِ سِني العالمِ التي هي ثلاثمائة وستّون ألف سنةً، فحكى أنّ في نصفِ هذه السنين يقطعُ الطوفانُ فحذّرهم ذلك وإنّ هرمسَ الأوّلَ وهو اخنوخُ ادريسُ النبيّ ﷺ كان قبلَ آدمَ بزمانٍ طويلٍ، وكان يسكنُ الصعيدَ الأعلى المتّصلَ ببلادِ السودانِ إلى الإسكندرية[2]، وحوّل الناسِ إليه وأنقذَهم من الغرقِ، فهذا يزعمُ أنّ بوداسفَ كَانَ قبلَ هرمسٍ، وهرمسُ كَانَ قبلَ آدمَ بزمانٍ طويلٍ وإلى هذا يذهبُ مَنْ يرى آدمَ غيرَ واحده، والفُرس زعموا أنّ ميشى وميشانَه من دَوْرِ كيومرّث، فهذا أقدمُ منهما وجملة الأمرِ أنّ هذا وما يروونَه المسلمونَ كلّه أخبارٌ، والأصحُ من ذلك ما كانَ عن أمينٍ صادقٍ، ولا أصدقُ من كتابِ الله ولا آمنُ من رسولِه ﷺ ولا بُدَّ في العقلِ من ابتداءِ المُحدَثاتِ، وبعضُ هؤلاءِ المحدثةِ المستترةِ بالإسلام يُجرون تأويلَ هذه القصّةِ إلى ما يُؤدّي إلى الإلحادِ فيستغمرونَ الضَعْفَى العقولِ بأنْ كيفَ يخرجُ حيوانٌ من الأرضِ؟ وكيف يخرجُ من الجنّةِ مَنْ دَخلها؟ وكيفَ خلصَ الشيطانُ إليه في الجنّةِ؟ ولِمَ نُهي عن شجرةٍ؟ ولِمَ كان كذا؟ ولِمَ لَمْ؟ فإذا كانتْ مسألةُ حَدَثِ العالمِ من بالِك رَدَدتَّ كلَّ ما أُوردَ عليك من هذهِ التُرهاتُ بحُججٍ بيّنةٍ وبراهينَ نيّرةٍ والجوابُ أنّ النهيَ عن الشجرةِ للابتلاء وأنّ تلك لم تكنْ بدار خُلدٍ، وأنّ خلوصَ الشيطانِ إلى الإنسانِ كخلوصِ الأعراضِ، وأنّ خلقَه من الأرضِ كتولُّد الحيوانِ عياناً، وإيّاكَ والاحتجاجَ بشيءٍ ممّا يروونَه القُصّاصُ فإنّه هو الذي أوجدَ الملحدِ السبيلَ إلى الطعنِ والشُنْعةِ.

[صورة آدم ووفاته]:

رُوينا عن النبيّ ﷺ قَالَ «إنّ أباكم آدمَ كانَ طويلاً كالنخلةِ السحُوقِ ستّين ذراعاً كثيرَ الشَعَرِ مواري العورةِ وإن كان لما أكَلَ الحنطةَ بدتْ عورتُه فخرجَ هارباً من الجنّةِ فتلقَّتْه شجرةٌ فأخذتْ بناصيتِهِ وناداه رَبُّه أفراراً منّي يا آدمَ قال لا يا ربِّ ولكنْ حياءً منك فأهبطَه اللهُ تعالى إلى الأرضِ فلما حضرتْه الوفاةُ بعثَ بحَنوطِهِ[3] وكفنِه من الجنّةِ» رواه ابنُ اسحٰقَ عن

---

(١) بابل: مدينة قديمة في أواسط ما بين النهرين، تقع أنقاضها على الفرات قرب دجلة، على مسافة ٨٠ كلم جنوب شرقي بغداد، تُعتبر من أكبر وأشهر مدن الشرق القديم. «منجد الأعلام».

(٢) الإسكندرية: مدينة عظيمة على شاطىء البحر المتوسط من بلاد مصر. «معجم البلدان ١/ ٢١٧».

(٣) حنوطهُ: الحَنُوط: كلّ طيّب يمنع الفساد تحشى به جثة الميت بعد تجويفه فتحفظه من البلى طويلاً.

الحسنِ عن أُبيِّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ، وأمّا ما قِيلَ أنّ هامتَه كانتْ تمسُّ السماءَ فمن ذلك الصَلَعُ وأنَّ الملائكةَ كانوا يتأذّون مخشاةً فشكَوْه إلى اللهِ تعالى، فبعثَ جبرائيل، فهمزَه همزةً طأطأ منه إلى ستّين ذراعاً، فليسَ ممّا يعتمدُ، وكثيرٌ من المسلمين يُنكرون طولَ ستّين ذراعاً لِخروجه عن العادةِ اللهمّ إلاّ أن نتأوّلَ على وجهٍ آخرَ لأنّ ما تصاعدَ عن وجه الأرضِ فهو من السماءِ، وما أظلّك فهو السماءُ، والصّلعُ عند الأطبّاء من الرّطوبةِ في الدّماغ، وزعم وهبٌ أن آدمَ كانَ أجملَ البريّةِ أمردَ، وإنّما نبتتْ اللحيةُ لولدِه من بعدِه، وروى وهبٌ عن أُبيِّ أنّ آدمَ لمّا احْتُضِرَ اشتهى قِطَفاً من قِطَفِ الجنّةِ، فانطلق بنُوه ليطلبُوه فتلقّاهم الملائكةُ فقالت: ارجعوا فقد كفيتموه، فانتهوا إليه، فقبضوا روحَه وغسلوه وحنّطوه وكفّنوه وصلّى عليه جبرائيل والملائكةُ. خلفَه وبنوه خلفَ الملائكةِ ودفنُوه، وقالوا: هذه سُنّتكم في موتاكم يا بني آدم هكذا الرواية واللهُ أعلمُ.

الروح والنفس والحياة والموت:

إعلمْ أنّ هذا بابٌ مستصعبٌ مستغلقٌ كثيرُ التخبّطِ والاختلافِ، وأنا ذاكرٌ من كلِّ طبقةٍ ذَرْءاً[1]، قال اللهُ تعالى: ﴿يسألونك عن الرّوحِ قلِ الرّوح من أمرِ ربّي﴾ [الإسراء: ٨٥] قال بعضُ أهلِ التأويلِ حجبَ الخلقَ عن الخوضِ فيه ولم يُطْلِعْ أحداً عليه، وقال في بني آدمَ: ﴿ثمّ سوّاهُ ونفخَ فيه من روحِهِ﴾ [السجدة: ٩] وقالَ في مريمَ: ﴿فنفخنا فيها من روحِنا﴾ [الأنبياء: ٩١] وقالَ تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرِنا﴾ [الشورى: ٥٢] وقالَ تعالى: ﴿نزل به الروحُ الأمينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقالَ تعالَى: ﴿تَنزَّل الملائكةُ والروحُ فيها﴾ [القدر: ٤] فذكرَ الروحَ في غيرِ موضعٍ من القرآنِ، ومعنى الرّوحِ المنفوخِ في مريمَ غيرُ معنى الرّوحِ الموحّى إلى النبيّ ﷺ بل لكلٍّ واحدةٍ معنىً على حدةٍ، وقال: ﴿الذي خلقَ الموتَ والحياةَ﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿يقولُ يا ليتني قدّمتُ لحياتي﴾ [الفجر: ٢٤] وقال: ﴿أنّ الدّارَ الآخرةِ لهي الحيوان﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال: ﴿إنّما الحياةُ الدّنيا لعبٌ ولهوٌ﴾ [محمد: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيلِ اللهَ أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم﴾ [آل عمران: ١٦٩] والفرق بينَ حياةِ الدّنيا وحياةِ الآخرةِ بيّنٌ ظاهرٌ وإنّما اجتمعتا في اللفظِ وقال: ﴿يا أيّتها النفسُ المطمئنّةُ ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّةً﴾ [الفجر: ٢٧] وقال حكاية عن قولِ النفّسِ: ﴿أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فَرطتُ في جنبِ الله﴾ [الزمر:

---

(١) ذَرْءاً: شيئاً يسيراً.

٥٦] الآية وقال تعالى: ﴿ونفسٍ وما سوّاها﴾ [الشمس: ٧] وقال تعالى: ﴿الله يتوفّى الأنفسَ حينَ موتِها﴾ [الزمر: ٤٢] الآية وقال: ﴿إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وقال: ﴿ونهى النفسَ عن الهوى﴾ [النازعات: ٤٠] فاثبت هاهنا أشياءَ أُخرَ بنهي النفسِ عن هواها وقال: ﴿وفي أنفسِكم أفلا تبصرونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقالَ: ﴿سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [فصلت: ٥٣] وقال: ﴿ثم أنتمُ هؤلاءِ تقتلون أنفسَكم﴾ [البقرة: ٨٥] وقال: ﴿أو أكننتمُ في أنفسِكم﴾ [البقرة: ٢٣٥] وقال: ﴿بل سوّلتْ لكم أنفسكمُ أمراً﴾ [يوسف: ١٨] يخبرُ بمثلِها عن الرّوحِ والحياةِ، وقال: ﴿وهو الّذي يحيي ويميت﴾ [المؤمنون: ٨٠] وقالَ اللهُ: ﴿يتوفى الأنفسَ حينَ موتها﴾ [الزمر: ٤٢] وقالَ: ﴿فقال لهم الله موتوا ثمّ أحياهم﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقالَ: ﴿قُلْ يتوفّاكم ملكُ الموتِ الذي وَكّلَ بكم﴾ [السجدة: ١١] وقالَ: ﴿ولا تحسبّن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقالَ: ﴿وما محمّدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسلُ أفإن مات أو قُتل انقلبتُم على أعقابِكم﴾ [آل عمران: ١٤٤] فوصفه بالموتِ بعدَ ما نهى عن تسميةِ الشهداءِ أمواتاً وقال في ذكر الحواسّ: ﴿ثُمّ سوّاهُ ونفخَ فيه من روحهِ وجعلَ لكم السمعَ والأبصار والأفئدة﴾ [النحل: ٧٨].

ذكر ما جاء في الأخبار في هذا الباب:

حدّثَنا عبدُ الرحيمِ ابن أحمدَ المروزيّ، حدّثَنا العبّاسُ السرّاجُ عن قتيبة، حدّثَنا خالدُ ابن عبدِ الله عن الهجريّ عن أبي الأحوصِ عن عبدِ الله قال: الأرواحُ جنودٌ مجنّدةٌ فما تعارفَ منها ائتلفَ وما تناكرَ منها اختلفَ، ورَوى سفيانُ الثوري عن حبيبِ بن أبي شابتٍ عن أبي الطفيلِ عن علي مثلَه، وروى هيثمُ عنَ أبي بشرٍ عن مُجاهدٍ عن ابنِ عبّاسٍ قال: الأرواحُ أمرٌ من أمرِ الله وخلقٌ من خلقِ اللهِ صوّرهُم على صورةِ بني آدمَ، وما ينزلُ من السماءِ ملكٌ إلاّ ومعه واحدٌ من الرّوحِ، وروى الثوريّ عن مُسلم عن مُجاهد قال: الرّوحُ يأكلون ويشربون ولهم أيدٍ وأرجُلٌ ورؤوس، وليسوا بملائكةٍ، ورُوى أنّهم حفظةٌ على الملائكةِ، وروى الثوريّ عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالحٍ قال: الأرواح يشتهونَ النّاسَ وليسوا بناسٍ، وروى الثوريّ عن أيّوبٍ عن أبي قلامة: أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ الروحَ إذا خَرجَ اتبعَه البصرُ ألم تروا إلى شخوصِ عينيه» وفي حديثِ صفوان بن سُليم[1] عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

---

(١) الإمام الثقة الحافظ الفقيه، يكنى أبو عبد الله، روى عن أنس، وعَطاء وغيرهما، وروى عنه ابن جريج=

«أرواحُ المؤمنين في حُجراتٍ من حُجراتِ الجّنةِ يأكلونَ طعامَها ويشربون من شرابَها، ويلبسونَ من ثيابِها، ويقولونَ ربَّنا آتِنا ما وعدتَّنا، وألحِقْ بنا إخوانَنا، وأرواحُ الكفّارِ في حُجراتٍ من حُجراتِ النارُ يأكلونَ من طعامِها، ويشربونَ من شرابِها، ويلبسونَ من ثيابها، ويقولون ربّنا لا تؤتنا ما وعدتّنا ولا تلحِق بنا إخواننا» وروى الأعمشُ عن عبدِ الله بن مرّةَ عن مسروقٍ عن عبد الله في قوله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيلِ الله أمواتاً بلْ أحياءٌ عند ربّهم يرزقون فرحين بما آتاهم اللهُ من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفِهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ [آل عمران: ١٧٠] قال: أرواحُ الشهداءِ في طيرٍ تسرحُ في الجنّةِ كيفَ شاءَتْ وتأوي إلى قناديلَ معلّقةٍ بالعرشِ، وقال: فاطّلع عليهم ربُّك اطّلاعَه فقال: هل تستريدون شيئاً فأزديكمُوه قال: ربنا وماذا نستريدُ، ونحنُ في الجنّةِ نسرحُ حيثُ نشاءُ، فاطّلع عليهم فقال لهم مثلَ ذلك، فقالوا أتُعِيدُ أرواحَنا في أجسادِنا حتّى نرجعَ إلى الدّنيا فنُقْتَلُ في سبيلِك مرّةً أخرى، وفي حديث جابرٍ أنّ النبيّ ﷺ ذكرَ الأرواحَ في بيتِ البراءِ بن معرورٍ[1] وهم يأكلون لحماً وتمراً حتى أمسكوا على الطعامِ قال: «أرواحُ المؤمنين طيورٌ خُضْرٌ» وقالَ: «في طَيْرٍ خُضْرٍ في حُجَرٍ من الجنّةِ يأكلونَ ويشربونَ ويتعارفونَ في الجنّةِ كما يتعارفون في الدّنيا وأرواحٌ في حُجَر من النّار» وذكر قصّةً طويلةً وروى كعبُ بنِ مالك[2] أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أرواحَ المؤمنين في طيورٍ خضرٍ تعلّقُ بشجرِ الجنّةِ» وروى مالكُ بن أنَس عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنّ النبيّ ﷺ قالَ: «إنّما نفسُ المؤمنِ طائرٌ تعلّقُ في سجرِ الجنّةِ حتى يرجعَها الله تعالى إلى جسدِهِ يومَ يبعثُه» وعن عبدِ الله بنِ عُمر أنّ أرواحَ المؤمنين في طيرٍ كالزرازيرِ وهو جمع الزُرْزور يتعارفون، يُرزقون من ثِمار الجنّةِ؛ وعن سلمان الفارسيّ قال: الأرواحُ جنودٌ مجنّدةٌ فما كانَ لله ائتلفَ، وما كان لسواهُ اختلفَ، وعن أبي الزُّبيرِ عن جابرٍ قال: كُنّا نحدّثُ أنّه ليسَ أحدٌ يدخلُ النارَ والجنّةَ بجسدِه قبلَ يومَ القيامةِ إنّما هي أرواحٌ في عِلّيِّينَ[3]

= وغيره، قال ابن سعد عنه: كان ثقة، كثير الحديث، عابداً، وقال المفضل بن غسّان: كان يقول بالقدر (ت ١٣٢ هـ) «سير أعلام النبلاء ٥/٣٦٨».

(١) كنيته أبو بشر، أمه الرباب بنت النعمان، كان أحد النقباء من بني سُلمة، أول المبايعين للرسول ليلة العقبة، توفي في صفر قبل قدوم رسول الله المدينة. «أسد الغابة ١/٢٠٧».

(٢) صحابي من أهل المدينة، كان من شعراء الرسول، قاتل في جميع الغزوات عدا بدر وتبوك، شارك بجمع القرآن، رُوي عنه الحديث (ت ٥٠ هـ). «منجد الأعلام».

(٣) عليّين: اسم لأعلى الجنّة.

وسِجّين[1]، فإذا روّحت النفوسُ، وبُعِثَ مَنْ في القبورِ صارتِ الأرواحُ والأجسادُ إلى الجنّةِ والنارِ؛ وعن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه في قوله تعالى: **﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾** [الواقعة: ٦١] قَالَ: في طَيْر سُودٍ من النّارِ، وقَرَأ عليَّ خيثمةُ بن سليمان القرشي باطرابلس[2] عن عبدِ الجبّارِ بنِ العلاءِ عن سفيان الثوري عن فُراتِ بن الفُراتِ عن أبي الطفيلِ عن علي عليه السلام قال: نُشِرَ وادِيَيْن وادي الأحقافِ[3] ووادٍ بحضرموت[4] يقال له برهوتُ يأوي إليه أرواحُ الكُفّارِ، وروى سفيانُ عن أبانِ بن تَغلبٍ عن رجلٍ قال: بِتُّ في برهوتَ وكأنّما حُشرتْ أرواحُ النّاس وهو يقولون يا دُوْمَه يا دوَمه، قال: فحدّثني رجلٌ من أهلِ الكتابِ أنّ دوَمه: هو الملَك الموكَّلُ على أرواحِ الكُفّارِ؛ ورُوي عن أبي أُمامَة[5] أنّه قال: أرواحُ المؤمنين تجتمعُ ببيت المَقْدِسِ، وقد نادى رسولُ الله ﷺ قُتْلَ بَدْرٍ في القَليبِ[6]، فَقِيلَ: أتنادي قوماً قدْ حُتفوا، فقال: «أمّا أنتمُ فلستمُ بأسمعَ منهم ولكن لا يقدرون أن يجيبوني» وقَالَ ﷺ: «كسرُ عَظْمِ المؤمنِ ميتاً ككسرهِ حيًّا» والأخبارُ المتواترةُ عن المسلمين في مغازيهم أنّ كلَّما قتِلَ كافرٌ، قالوا: قَدْ عجّلَ اللهُ بروحهِ إلى النّارِ، وكلَّما اسْتُشهِد مؤمنٌ قالوا: قَدْ عَجلَ اللهُ بروحهِ إلى الجنّةِ؛ وروى أبانُ عن عبّاسٍ عن أَنَس رضي اللهُ عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «إنّ أعمالَكم تعرضُ على أقاربِكم فإنْ كان خيراً استبشروا به، وإنْ كانَ شرًّا كرِهُوه، وتَلْقَى روحُ المؤمنِ أرواحَ المؤمنين فيقولُ اتركوا صاحبَكم حتّى يستريح، فقد خَرجَ من كرْبٍ شديدٍ، ثُمّ يقولون ما فعلَ فلانٌ، ما فعلَتْ فلانةٌ هل نَكَحَ فلانٌ، هل نكحَتْ فلانةٌ، فإن قَالَ إنّ ذاك قد ماتَ قبلي أمّا قَدمَ عليكم فيقولون: **﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾** [البقرة: ١٥٦] ذُهِب به إلى أُمّة الهاويةِ فبئستْ الأُمُّ وبئستْ المربيّةُ» وروى ابنُ عُيَيْنَة عن عَمْرو بن دينارٍ عن عُبيدِ بن عُميرٍ قَالَ: أهلُ القبورِ يتوكّفونَ

---

(١) سِجيين: دائمين.

(٢) طرابُلس: مدينة في شمال لبنان، قاعدة ومحافظة ومركز قضاء (طرابلس)، أسسها الفينيقيون نحو ٨٠٠ قبل الميلاد، أهم معالمها: قلعة سان جيل، والمدرسة الخاتونية. «منجد الأعلام».

(٣) وادي الأحقاب: وادي بين عمّان وأرض مَهْرة، وقيل أنه فيما بين عُمان إلى حضرموت. «معجم البلدان ١/ ١٤٢».

(٤) حضرموت: منطقة جنوبي شبه الجزيرة العربية على خليج عدن وبحر عُمان، يجري فيها وادي حضرموت الذي يصبّ في البحر العربي، أهم مدنها المكلاّ وهي العاصمة. «منجد الأعلام».

(٥) ابن ثعلبة الأنصاري، الحارثي، وقيل اسمه إياس، وهذا الأصحّ، روى عن النبيّ ثلاثة أحاديث. «أسد الغابة ٥/ ١٧».

(٦) القَليبُ: هضب القليب: جبل الشرّبه: موقع قرب أرض معركة بدر. «معركة البلدان ٤/ ٤٤٧».

الأخبارَ[1] فإذا أتاهُم الميّتُ يقولون ما فعلَ فلانٌ وما فعلتْ فلانةٌ، فيقولُ أولم يأتِكم فيقولون: ﴿إنّا لله وأنّا إليه راجعون﴾ [البقرة: ١٥٦] سُلِكَ به غيرَ سبيلنا، وفي روايةِ عبدِ الله بن عُمَر أنّ الأرواحَ ليتلقّون على مسيرةِ يومٍ، وما رأى أحدُهم صاحبَه قطُّ، وروي أنّ الأعمال تُعرَضُ يومَ الاثنين ويومَ الخميسِ على اللهِ، ويُعرضون يومَ الجمعةِ على الأقاربِ، فاتّقوا اللهَ ولا تختروا موتاكم؛ وروى زيدُ بنُ أسلم عن أبي هريرةَ أنّه مرّ هو وصاحبٌ له بقبرٍ فقال أبو هريرة: سلّم، فقالَ الرجل: أتسلمُ على قبرٍ، فقَالَ أبو هريرة: إنْ كان رآك في الدّنيا يوماً قطُّ فإنّه يعرفُكَ الآن؛ وروى أنّه المؤمنَ لا يزالُ يسمعُ الآذانُ في قبرِه ما لم يُطيَّنُ، ومرَّ النبيّ ﷺ بالبَقيعِ فقال: «السلام عليكم أهْلَ ديارِ قومٍ مؤمنين وإنّا إنّ شاءَ اللهُ بكم لاحقون» ولمّا دُفِن عثمانُ بن مظعون[2]: وهو أوّلُ من ماتَ من المهاجرين بالمدينةِ قَالَ ﷺ: «خرجتَ ولم تتلبّس منها بشيء» وما جَاز عليه أنْ يخاطبَ مَنْ لا يفهم، ولمّا ابتدى بشكواهُ التي قُبضَ فيها خَرجَ من اللّيلِ مع أبي مُوَيْهِبة[3] حتّى قَامَ بين ظَهْرَانَي القبورِ فقَالَ: «ليَهْنَئكم ما أصبحتُم فيه مما أصبحَ النّاسُ عليهِ أقبلتِ الغبنُ كقطعِ اللّيلِ المظلم» وفي روايةِ مُجاهد عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه: ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية قال: أرواحُ الشهداءِ على بارقٍ نهرِ الجنّة يأكلون من ثمارِها، ويشربَون من ماءِها، ويستنشقون روائحها، وليسوا فيها؛ وهذه الأخبارُ كلُّها وما شاكلَها عندَ مَنْ يرى الجنّةَ غيرَ مخلوقةٍ اليومَ ولا موجودةً إلاّ على الاستقبالِ فيما بَعْدَ، ومنهم مَنْ يُجيزُ أنْ يحدّث اللهُ الأرواح جنّةً يتنعّمُ فيها غيرَ الجنّةِ الموعودةِ، وكذلك النّار، وهي كلُّها حجّةٌ للقائلين بوجودِ الجنّةِ والنارِ في الحال.

ذكر ما جاء في القرآنِ والنصّ والدلالةِ على أحوالِ الأرواحِ:

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفًّا﴾ [النبأ: ٣٨] قَال الحسنُ: هو الخلقُ ذَوُو الأرواحِ وقيلَ: همُ خلقٌ أكثرُ من الملائكةِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿النار يُعرضونَ عليها غُدوًّا وعشيًّا ويوم تقوم الساعة أَدخِلو آلَ فرعونَ أشدّ العذاب﴾ [غافر: ٤٦] فأخبر أنّ

---

(١) يتوكفون الأخبار: ينتظرون ظهورها.

(٢) صحابي من الشجعان، كان من حكماء العرب في الجاهلية، هاجر إلى الحبشة، قاتل في بدر، توفي بالمدينة (٢ هـ). «منجد الأعلام».

(٣) مولى رسول الله، كان من مولدي مزينة، اشتراه الرسول فأعتقه، شهد المريسية روى عنه عبد الله بن عمر. «أسد الغابة ٥/ ٣٠٩».

أرواحهَم تُعرَضُ على النّارِ قبلَ مصيرهِم إلى نارِ جهنّم وقَالَ في صاحب يسين: ﴿قيلَ ادخلِ الجنّة، قَالَ يا ليتَ قومي يعلمون﴾ [يس: ٢٦] فلم يكنْ بقوله إلاّ روحُه لأنّ جسدَه كان مطروحاً لديهِم وقَالَ: ﴿كلاّ إنّ كتابَ الأبرارِ لفي علّيّين كلاّ إنّ كتابَ الفجّارِ لفي سجّين﴾ [المطففين: ٧] قال بعض المفسّرين يعني أرواحَهم قَالَ: ﴿إنّ الذين كذّبوا بآياتِنا واستكبروا عنها لا تُفتّحُ لهم أبوابُ السماءِ ولا يدخلون الجنّةَ﴾ [الأعراف: ٤٠] وروى السريّ عن البراءِ بن عازبٍ أنّ أرواحَ المؤمنين إذا قبضَتْها الملائكةُ رفَعوها إلى السماء، فلا تمرُّ بملكٍ من الملائكةِ إلاّ قالوا ريحٌ طيّبٌ خَرجَ عن نفسٍ طيّبٍ حتّى ينتهي بها إلى حيثُ يشاءُ اللهُ فيسجدُ، وروحُ الكافرِ إذا قُبضَ رُفِعَ إلى السماء فلا يفتحُ له أبوابُ السماءِ، ويقولونَ: روحٌ خبيثٌ خَرجَ من نفسٍ خبيثة فيردُّ إلى سجّينَ، في قصّةٍ طويلةٍ وقال: ﴿فما بكَتْ عليهم السماءُ والأرضُ﴾ [الدخان: ٢٩] قَالَ لكلِّ مؤمنٍ من السماءِ بابان بابٌ ينزلُ منه رزقُه، وبابٌ يصعدُ فيه عِلْمه وروحُه، فإذا ماتَ انقطعَ ذلك فبكتِ السماءُ والأرضُ عليه وقال اللهُ: ﴿يتوفّى الأنفسَ حينَ موتِها والتي لم تمتْ في منامِها فيُمْسكَ التي قُضيَ عليها الموتَ ويُرسلُ الأُخرى إلى أجلٍ مسمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] وروى الكلبيّ عن أبي صالحٍ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه أنّ الرجل إذا ماتَ قبضَ الله روحَه وبقّي نفسَه لأنّ النفسَ موصولةٌ بالروحِ، فإذا أرادَ اللهُ بعثَه ردّ إليه روحَه، وكانَ النبيّ ﷺ إذا آوى إلى فراشِه قال: «اللّهمّ باسمِك وضعتُ جَنْبي وبكَ أرفعُهُ إن أمسكتَ نفسي فأغفرْ لها وإن أرسلتَها فاحفظْها بما يُحفظُ به الصالحين» وكان إذا استيقظ من نومهِ قَالَ: «الحمدُ لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه المصيرُ» وروى ابنُ جُريج عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه قال في آبنِ آدمَ: نَفْسٌ وروحٌ بينهما مثلُ شعاعِ الشمسَ، والنفْسُ هي التي بها العقلُ والتمييزُ، والروحُ هي التي بها اليقينُ والتحريكُ فإذا نامَ العبدُ قبضَ اللهُ نفسَه وروحَه، وقال مجاهدٌ تجيء الرّوحُ إلى الرّجلِ في منامِه فإذا لم يحضرْ أجلُه استيقظَ وإذا حَضَر أجلهُ ذهَبَ الرُوحَانِ، وروى حصيفٌ عن عكرمة عن ابنِ عبّاسٍ قال: كلُّ نفسٍ لها سببٌ تجري فيه فإذا قَضى عليها الموتَ قامتْ حتّى ينقطعَ السببُ، والتي لم تمتْ يردّ، ورُوى عن عليّ عليه السلام أنّه قَالَ: إذا نَامَ الإنسانُ امتدّ روحُه مثلَ الخيطِ فيكونُ بعضُ أجزائِه في النائمِ وبه يتنفّسُ، وبعضُها مختلطٌ بأرواحِ الأمواتِ مقبوضاً معها إلى وقتِ انتباهِه فترجّع إليه، وروى ابنُ عجلانَ عن سالمٍ عن أبيه أنّ عمرَ رضي الله عنه قال لعليّ: يا أبا الحسن وربّما شهدتَ سَهُدةَ وعَتَباً أسئلُك عن ثلاثة أشياءَ، قال: وما هُنّ؟ قال: الرجلُ يحبُّ الرجلَ وما يرى منه خيراً، والرجلُ يُبْغضُ الرجلَ وما يرى منه سوءًا، قال: نعم، قالَ

رسولُ اللهِ ﷺ: «الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ يلتقي فَيُشام فما تعارفَ منها ائتلفَ وما تناكرَ اختلفَ» قال عمر: والرجلُ يحدّثُ الحديثَ إذ ينساه فبينا هو قَدْ نسيه إذ ذكرَه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «ما من قلبٍ إلاّ ولهُ سحابةٌ كسحابةِ القمرِ بينا القمر يضيءُ إذا غلبتْه السحابةُ فيَنْسى، أو تجلّتْ عنه فذكَره، قَالَ عمرُ والرجلُ يرى الرُّؤيا فمنها ما يصدقُ ومنها ما يكذبُ، قَالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ ولا أَمَةٍ ينامُ فيشتغلُ نوماً إلاّ عَرجَ بروحِهِ إلى العرشِ فالّذي لا يستيقظُ دونَ العرشِ فهي الرؤيا التي تكذب».

[أقوال أهل اللغة في الروح والنفسُ والحياة]:

قد يُسمّى ذاتُ الشيء وعينُه كائناً ما كان من جسمٍ أو عرضٍ أو جوهرٍ أو غيرِ ذلك نَفْساً، فيُقالُ: نفسُ هذا الخشبِ ونفسُ الأرضِ ونفسُ السماءِ ونفسُ الكلامِ ونفسُ الحركةِ، قَالَ الله تعالى: ﴿**واصطنعتُك لنفسي**﴾ [طـه: ٤١] وقَالَ: ﴿**تعلم ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسِكَ**﴾ [المائدة: ١١٦] وسمّى الهمّةُ نفساً، فيُقالُ لفلانٍ نفسٌ وليس لفلانٍ نفسٌ، وسمَتْ نفسُه إلى كذا، كما يُقالُ سمَتْ همّتُه وكذلك يسمَّى الطَّمَع والحِرْصَ والمُراد النفسَ قال: [رجز]

وأكـــذبُ النفـــسَ إذا حـــدَّثْتَهـــا

وقال: [كامل]

والنفـــسُ راغبـــة إذا رغّبتهـــا، وإذا تُـــرَدُّ إلـــى قليـــلٍ تَقْنَـــعُ

وقال: [سريع]

شَـــاوَرَ نَفْسَـــي طَمَـــعِ ورَهْبَـــةٍ تَقُـــولُ هَـــاتِـــي لا وهَـــاتِيـــكَ بَلَـــى
فشجَعَتْـــهُ نَفْـــسُ حِـــرْصٍ طمعَـــتْ وحـــذّرَتْـــهُ نَفْسُـــهُ ٱلأُخْـــرَى ٱلـــرَّدَى

فسمَّى الجُبنَ والشجاعةَ نَفْساً، ويُسمَّى الدّمَ نفساً، وكذلك قِيلَ الهوامُّ لها نفسٌ سائلةٌ ومنه نِفاسُ المرأة لما سَالَ من دمِها، ويُسمَّى أصحابُ العينِ النفسَ، وقِيلَ: سُمّيت النفسُ نفساً لتنفُّسِها ويُعبّرُ عن القلبِ بالنفسِ، كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿**فأسرّها يوسفُ في نفسِهِ**﴾ [يوسف: ٧٧] وقال: ﴿**أو أكنَنْتم في أنفسِكم**﴾ [البقرة: ٢٣٥] هذه الوجوهُ كلُّها خاصّةٌ للنفسِ لا شركةَ بينها وبينَ الرّوح في شيءٍ منها اللّهمّ إلاّ في حالةٍ واحدةٍ، قالوا: خرجتْ

نفسُه، وخرجتْ روحُه، إذا ماتَ وقال الشاعر: [طويل]

سُمِّيتَ عيّاطاً ولستَ بعائطٍ عَدُوا ولكنَّ ٱلصَّديقَ يَعِيطُ
فلا حَفَظَ الرحمنُ روحَك حَيَّةً ولا هي في الأرْواح حين تَغيطُ

وأنشد أبو زيد الأنصاريّ(١): [سريع]

إجْتَمع ٱلنّاسُ وقالوا عُرْسٌ فَفُقِئَتْ عَيْنٌ وفاضتْ نَفْسُ

واختلفوا في الرّوحِ فحكى ابنُ دُرَيْدٍ عن أبي حاتمٍ عن الأصمعيّ قالَ في الحديثِ: لكلِّ إنسانٍ نفسٌ وروحٌ، فأمّا النفسُ فتموتُ وأمّا الروحُ فيُفْعلُ به كذا وكذا، وقد تُسمّي العربُ الريحَ والرَوْحَ والنَفْخَ روحاً قال ذو الرمّة(٢): [طويل]

فقلتُ لَهُ ٱرْفَعَها إليك وأَحْيِها بروحك وَٱقْتِنهُ لها قِتنةً قدْرا

ويُسمَّى الهواءُ الروحَ، والملكُ الروحَ والوحيُ الروحَ وكلٌّ لطيفٍ خفيفٍ متعالٍ روحاً، ويُقال في الحيواناتِ إنّها ذاتُ أرواحٍ وفلانٌ خفيفُ الروحِ، وفلانٌ ثقيلُ الروحِ، إذا كان يخفُّ على القلوبِ أو يثقلُ، ويُقالُ لكلِّ ما ينبتُ وما يشاهَدُ كالملائكةِ والجانِّ الروحانيّون، والأرواحُ تبقى والأنفسُ تموتُ ولا تبقى، وأمّا الحياةُ فهي شيءٌ يضادّ الموتَ حيثُ ما حلتْ ارتفعتْ وهي في الجملةِ على كلِّ تامٍّ حسّاسٍ ومتحرّكٍ من ذوي الأرواحِ وغيرها ألا ترى إلى قولِه تعالى: ﴿فأحيينا بِهِ الأرضَ بعد موتِها﴾ [فاطر: ٩] فجعل الأرضَ حياةً إذا نزّلَ عليها الماءُ، وقال: ﴿وهو الذي أحياكم﴾ [الحج: ٦٦] فجعلنا بما أحيانا به، وقال: ﴿يخرج الحيَّ من الميّتِ﴾ [الروم: ١٩] فمن قائلٍ إنّه الولدُ من النطفةِ والطيرُ من البيضِ والنخلةُ من النواةِ فسمّى النخلةَ لما فيها من قوّةِ الحياةِ حيًّا، ثُمّ وصفَ نفسَه بالحياةِ فقال: ﴿هو الحيّ﴾ [غافر: ٦٥] ولا يجوزُ أنْ يُقالَ هو ذو روحٍ وذو نفسٍ، لأنّ الحياةَ أعمُّ وأعلى فيُقالُ روحٌ حيّ وقَدْ أَحْيَيْتَ روحي بكذا، وكلُّ ما له بقاءٌ ودوامٌ يُدَّعَى حيًّا كما قيل للشعر أنّهُ كلامٌ حيّ لبقائِه ومرورِه على الألْسُنِ.

---

(١) سعيد بن أوس: نحوي ولغوي، كان ثقة من أهل البصرة، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، له «كتاب المطر» (ت ٨٣١ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) لقب عيلان بن عقبة، شاعر أموي، أغرم بحب ميّة، فأكثر من ذكرها في شعره حتى عرف بها. عاصر جرير والفرزدق، له ديوان، توفي ودفن في البادية نحو (٧٣٥ هـ). «منجد الأعلام».

واختلفوا في مكانِ الروحِ والنفسِ والحياةِ من البدنِ أَلِكُلٍّ واحدٍ منها موضعٌ على حِدَتِهِ أو كلُّها متداخلٌ أو متّصلٌ بعضُها ببعضٍ؟ وأيُّها التابعُ للآخرِ وأيُّها المتبوعُ؟ وكيفَ أَنظرُ فلا أَجِدُ بُداً من جمعِ ما يحتاجُ إليه في كتابٍ مُفردٍ أُسمِّيه كتابَ النفسِ والروحِ لأنّي إن أطنبتُ فيه إذ لا يُغني الاختصارُ والإيجازُ نقضتُ ما اشترطتُ في صدرِ الكتابِ وهذا بابٌ لا يصحُّ الكلامُ فيه وإنْ طَالَ، وأمّا الموتُ فسكونٌ دائمٌ وخُمودٌ بانقطاعِ الحياةِ، وذهابُ الروحِ، وقد سمّى اللهُ تعالى الجوامدَ مَواتاً عندَ فَقْدِ النماءِ والحركةِ، وقِيلَ النومُ أخو الموتِ، وقالوا للشّيء الخاملِ المنسيّ: هذا ميّتٌ وأنشدني بعضهُم: [مجتثّ]

نـــومُ اللبيـــب بقَـــدْرٍ رتْبَتِـــــه ذا المَقِيـــــلُ
والنَّـــوْمُ مـــوتٌ قصيـــرٌ والمـــوت نـــومٌ طـــويـــلُ

وفي التوراة الفقرُ الأكبرُ، وفي تأويلِ القرآنِ الكافرُ ميّتٌ والجاهلُ ميّتٌ.

ذكر ما جاء عن أهل الكتاب في الأرواح:

زعمَ بعضُ أهلِ اليهودِ أنّ أرواحَ الخلائقِ متّصلةٌ في الهواءِ على شبهِ نارٍ أو شعاعِ الشّمسِ عندَ غروبِها وطلوعِها، ومع ملَكِ الموتِ سَيْفٌ يقطعُ به أرواحَ من يُريدُ أن يقبضَه، واحتجّوا بقولِ شمويلَ في كتابِهِ أنّ الله بعثَ الموتَ على بني إسرائيلَ فماتَ منهم بشرٌ كثيرٌ فخرج داودُ ومشايخُ بني إسرائيل فرأى داودُ ملكَ الموتِ واقفاً على قربِ أورشليم قدْ اتّكأ على سيفِهِ فسأل ربَّه أن يرفَع السيفَ عنهم، فرأى الملكَ قدْ أدخلَ سيفَه في غِلافِهِ وسكنَ الموتُ؛ وقالتْ فرقةٌ منهم أنّ أرواحَ البَرَرةِ الصِدِّيقين إذا فارقتْ جُثّتَها صارتْ إلى الفردوسِ تحتَ شجرةِ الحياةِ، وأرواحَ الفجرةِ والفسقةِ إلى ظُلمةِ الأرضِ، وأرواحَ ماكان بينَ ذلك إلى الهواءِ؛ وقالتْ فرقةٌ أُخرى إنّ اللهَ لم يوكّلْ أحداً بقبضِ أرواحِ الخلائقِ ولكن إذا ذَبَلَ جسمُ الإنسانِ وضعُفَتْ أعضاؤه فارقتْها، وصارتْ أرواحُ الأبرارِ إلى الموضعِ الّذي جاءتْ منه، وأرواحُ الأشرارِ إلى ظُلمةِ الأرضِ؛ قالوا: فلمّا أنْ صارتْ فيه من غيرِ أن يُدخلَها أحدٌ، كذلك إذا كانتِ الأجسادُ عن قبولِ قُوى النفسِ خرجتْ من غيرِ أن يُخرجَها أحدٌ؛ وكثيرٌ منهم يقولُ: إنّ أرواحَ الصِدِّيقينَ والصالحينَ إذا هي فارقتْ أجسادَها جُعِلتْ في صُرّةٍ، وتُركتْ إلى يومِ القيامةِ، وأرواحَ العاصين والمُسيئين إذا فارقتْ أجسادَها بقيَتْ في ظُلمةِ الأرضِ إلى يومِ القيامةِ، واحتجّوا بقولِ سُليمان بنِ داود في كتابِهِ قُوها أن ترجعَ الأجسادُ إلى التُرابِ والأرواحُ إلى الربِّ الّذي أعطاهُ، وقال فيه أيضاً مَنْ كان مِنكمُ عالِماً

علمَ أنّ أرواحَ ولدِ آدمَ صاعدةٌ إلى الهواءِ والعُلَى، وأنّ أرواحَ الذين يُشبهونَ الدوابَّ تنزلُ إلى أسفلِ الأرضِ؛ واحتجّوا بقولِ ابيغايل النبيّة وهو مكتوبٌ في كتابِ شمويل: إذْ تقول لداود: روحُ سيّدي داود مجتمعٌ في صُرّةَ الحياةِ، وروحُ أعدائه يُرمى بها بالمقاليع، وزَعمَ بعضهُم أنّ الروحَ ممّا خُلق في الابتداءِ؛ وقد رُوينا عن بعضِ علماءِ الأمّةِ أنّ أوّلَ ما خَلَقَ الروحُ؛ ورُوينا أنّ الأرواحَ خُلقتْ من قبلِ الأجسادِ بأربعةِ آلافِ سنة واللهُ أعلمُ؛ وفي روايةِ عَكرمة عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «لا يزالُ الخصومةُ يومَ القيامةِ حتّى يخاصمَ الروحُ الجسدَ فيقولُ الروحُ: يا ربّ إنّما كنتُ بمنزلةِ جِذْعٍ مُلْقىً لولا الروحُ فيضربُ لهما مثلاً أعمى حمل مُقْعداً».

[مقالات سائر الأمم في الروح والجسد]:

كانتِ العربُ تزعمُ أنّ روحَ الميّتِ تخرجُ من قبرهِ فتصيرَ هامةً تزقو وتقولُ اسقوني اسقوني، وفيه يقولُ ذو الأَصْبعَ العَدْوانيُّ[1]: [بسيط]

يـا عَمْـرو إن لـم تَـدَعْ شَتْمي ومنقصتي   اضـرِبْـك حتّـى تقـولُ الهـامـةُ اَسْقُـونـي

وقال: [خفيف]

سلّـط المـوت والمنـون عليهِـم   فَهُـمُ فـي صَـدَى المقـابـرِ هـامُ

وقال أبو الغموص: [وافر]

أتُخبـر يـا الـرسـول بـأن سَنُحْيَ   وكيـف حيـاةُ أصْـداءٍ وهَـامِ

قال النبيّ ﷺ: «لا عَدْوى ولا هامةَ ولا صَفَر» ومن ثَمَّ كانَ يستسقون للأمواتِ.

وأمّا الهند فظاهرٌ فيهم القولُ برجوعِ أرواحِ موتاهم في صدورِهم، ويزعمون أنّهم يكلّمونهم ويسألونَ بهم.

وأمّا الفُرسُ فأيّامُ الفروردجان عندَهم أيّامُ رجوعِ الأرواحِ فيُهيّئُون ألوانَ الطعّامِ، ويبخّرون المباذلَ بالطيبِ، ويفرّشون الرياحين، ويقولون هُمُ لا يُصيبون من الطّعامِ إلاّ الرائحةَ.

---

(١) فرتان بن الحارث، شاعر فارسي من قدماء شعراء الجاهلية، سمّي ذا الأصبع لأنّ حية نهشته باصبعه فتشنجت (ت نحو ٦٠٠ م). «منجد الأعلام».

وروى المسلمون أنّ الميّتَ يسمعُ كلامَ أهلِه وبُكاهُم عليه، وأنّه يسألُ في قبرِه وهو يسمعُ خَفْقَ النّعال، ورُوي عن حذيفة أنّه قَالَ: إنّ الجسدَ ليغسلُ، والروحُ بيدِ ملكٍ فإذا وُضع في لحدِه سُلك الروحُ فيه، ورُوي أنّ الميّتَ إذا حُملَ إلى حُفْرتِه فإن كانَ صالحاً قالَ: عجّلوا بي، وإن كانَ غيرَ ذلك قال: لا تعجلوا بي فإنّكم لا تدرونَ على ما تقدمون بي، ورُوي أنّ النبيّ ﷺ لمّا ماتَ إبراهيم عـم قال: «عصفورٌ من عصافير الجنّةِ» وهذا كلُّه دليلٌ على حياةِ الروحِ وبقائِه بعدَ النفْس؛ والنّاسُ قاطبةً يندبون موتاهم وينادونَهم ويخاطبونَهم ولولا الأصلُ الموثّل[1] في حياة الأرواحِ لما اجتمعوا عليه، وليس ينقصُ هذا مخاطبتهم الديارَ والآثارَ لأنّ هذا خاصٌ في العربِ وذلك عامٌ في الأُمم.

[اختلاف نظّار أهل الإسلام في النفس والروح]:

قالَ بعضهمُ: النفسُ جسمٌ لطيفٌ له مساحةُ البدنِ على طُولِه وعَرْضِه وعُمْقِهْ، وإنّه متداخلٌ بعضُه في بعضٍ وكُلٌّ في كُلٍّ، واستدلّوا على أنّ جميعَ أجزاءِ النفْسِ في جميعِ أجزاءِ البدنِ بأنّك كلّما قطعْتَ جُزْءًا من أجزاءِ البدن وجدتَ له أَلَماً، ولولا النفسُ لم يألمْ؛ وقال معمر: إنّ النفسَ موجودةٌ لا مساحةَ لها وليستْ بجسمٍ ولا طولٍ ولا عرضٍ ولا عمقٍ، وليستْ بحالة في الأمكنةِ ولا يُحيطُ بها المواضعُ، وقد يُقالُ في مجاز اللغةِ: إنّ النفسَ في البدنِ على التدبيرِ والأحداثِ للأفاعيلِ، ولا يُقالُ هي البدنُ على السكونِ والحركةِ، وذلك أنّ السكونَ والحركةَ إنّما تجوزُ على كلِّ ذي مساحةٍ وجسمٍ على ما تحويه الأمكنةُ، ويجوزُ عليه النقلةُ من موضعٍ إلى موضعٍ، ولا تجوزُ النقلةُ على شيءٍ إلاّ بأحدِ أمرينَ: إمّا بجسمٍ يرفعُ الجسمَ من مكانٍ إلى مكانٍ فإذا لم يكنْ جسماً لم يمكنْ منه على الرفعِ والجرِّ، وقال إبراهيم النظّام: الروحُ نورٌ من الأنوارِ، والجسدُ مواتٌ، وقال ابن الروندي[2]: الروحُ هو الجُزْءُ الذي لا يتجزّأُ وهو لا في مكانٍ ثُمّ اختلفَ هؤلاءِ في الإنسانِ المكلّفِ المُثابِ المعاقَبِ مَنْ هو وما هو؟ قال بشر ابن المعتمر وهشام بن الحكم وأبو الهُذَيْل العلاّف وأبو الحسين الخيّاط: هو الروحُ مع هذا الشخصِ المَرْئي، وقال إبراهيم النظّام: الإنسانُ هو

---

(١) الموثّل: المكين.

(٢) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن أسحٰق الريونديّ، صاحب التصانيف في الحطّ على الملّة، قال ابن النجّار عنه: أبو الحسن ابن الراوندي المتكلم من أهل مرو الرّوذ، سكن بغداد، وكان معتزلياً ثم تزندق (ت ٢٩٨ هـ). «سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦١».

الروحُ وهو الحياةُ المشابكةُ لهذا الجسمِ ولأنّه لا شيء غيرُه، وقال أحمد بن يحيى[1]: الإنسانُ مقدارُ ما في القلبِ من الروحِ؛ وقال بعضُهم: الإنسانُ هو الجوهرُ بين الجوهرين، ومحصولُ أمرهم على قولَيْن: أحدُهما: أنّه الروحُ وحْدَه، والآخَر: أنّه الروحُ مع البدنِ؛ واحتجّ مَنْ قال أنّه الروحُ بقوله تعالى: ﴿أن تقولَ نفسٌ يا حسرتَي على ما فرّطتُ في جنب الله﴾ [الزمر: ٥٦] ﴿ويا أيّتها النفسُ المطمئنّة﴾ [الفجر: ٢٧] فكلّ ما وقعَ من الخطابِ فمع النفسِ وهي الروحُ لا غيرُ؛ واحتجّ مخالفوهم: بقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] الآية فأخبرَ أنّ الإنسانَ هو هذا المخلوقُ وأنّه مختصّ مَرْئيٌّ؛ واختلفوا أَهَلْ يُحسُّ الميّت بَعدَ مفارقةِ روحهِ بشيءٍ أم لا؟ ثُمَّ ٱخْتُلِف قالوا: إنّه يحسُّ أو روحُه تُحسُّ بذلك أم جسدُه أم روحُه مع جسدِه، فأنكرَ بعضهُم أن يكونَ الميّتُ يشعرُ بشيءٍ دونَ يومِ القيامةِ، واحتجّ بقولهم يومَ البعث: ﴿يا ويلنا مَنْ بعثَنا من مرقِدنا هذا﴾ [يس: ٥٢] وبقوله: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنتُ تراباً﴾ [النبأ: ٤٠] وقالَ بعضهُم تحسُّ روحُه واحتجّ بقوله: ﴿النار يعرشون عليها غُدوًّا وعشياً﴾ [غافر: ٤٦] وبسائر الآيات التي تلوناها في الشهداءِ والأخبارِ التي رويناها؛ وقال ابنُ الرونديّ: بل يحسُّ الجسدُ، والروحُ عرَضٌ قد بطُل، قال: فالميّتُ يعلمُ ضربين من العلمِ، ويحسُّ بضربٍ من الحسِّ، قال: ولو لم يكنْ هكذا ما عِلم إذا أحسَّ أنّه كان ميّتاً، فاحتجّ بالخبرِ المروي أنّ الميتَ على النعشِ يسمعُ نَوْحَ أهلهِ.

وهذه مناظرةٌ جرتْ بين النظّام وبين هشام بن الحكمِ سأل النظّام هشاماً فقال: لِمَ زعمتَ أنّ الروحَ إذا بطُلَ استعمالُها للجسدِ رجعَتْ ففعلتْ في نفسها إدراك الأشخاصِ والأشكالِ بالقوّةِ الرُوحيّة؟ قال هشام: لأنّها ليستْ بجسمٍ فيدخلُها التضادُّ الذي أحدهُما مُزيلٌ للإدراكِ وهو السكون، قال النظّام: فإذا لم يكنْ جسماً ولم يدخلْها التضادُّ على قولك فما الذي يوجبُ لها إدراكُ ما ليسَ بحضرتِها؟ قال هشام: قوّةُ الانبساطِ وارتفاعهما على السترات وإنّها لم تدركِ الأشياءَ توهّماً وتقديراً على الانفرادِ إذا كانتْ إنّما تدركُها ملامسةً وحِساً على الاجتماع، قال النظّام وهل يوجبُ التوهّمُ والتقديرُ إيجادَ الشيء وحضورَه؟ قال هشام: إن كنتَ تُريدُ ما يُوجب مشاهدةَ إنّهُ وإن وصفتَه إدراكٌ فنعم، قال النظّام: فإن كانَ يوجبُ إنّه وإن وصفتَه إدراكٌ فما حاجتُه إلى الحاسّةِ للإدراكِ؟ قال هشام: ليجتمعَ له إدراكُ

---

(١) من أئمة اليمن الزيديين: اشتهر في الحروب التي خاضها أبوه في سبيل تأسيس دولته، خلف أخاه المرتضى، وحارب القرامطة، توفي في صعدة (٣٢٥ هـ). «منجد الأعلام».

المائيّةِ والصفةِ في الوهمِ والتقديرِ وفي المشاهدةِ والعيانِ، قال النظّام: وما حاجتُه إلى هذا وإنّما الإدراكَ الّذي قد وجدَه بلا حاسّةٍ؟ قال هشامٌ: ليعلمَ ما هيئته في الإعلانِ بالصفةِ والهيئةِ كما علِمها في الضميرِ توهّماً وتقديراً، قال النظّام: وهل يزيدُه علمُه بماهيّتِهِ علمامَ بما في الضميرِ؟ قال هشام: نعَمْ يزيدهُ لأنّ الإدراكَ بالحواسِّ أوّلاً، والإدراكَ بالتوهّم ثانياً، وذلك أنّ مَنْ لم يرَ طولاً قطّ لا يتوهّمه حّى يتصوّرَ في ضميرِهِ، فإذا رآه ثُمّ فقدَه كان مصوَّراً في الضميرِ قائماً لإدراكِ الروحِ إذا تركَ استعمالَ الحاسّةِ.

وهذه مناظرة ثانية جرتْ بينَ مَنْ زعم أنّ الروحَ في البدنِ على معنى التدبيرِ والأحداثِ للأفاعيلِ لا على معنى السكونِ والحلولِ فيه، قالوا لهم: خبّرونا عن البدنِ إذا قُطعتْ منه جارحةٌ هل قُطعَ من الروحِ شيءٌ، قالوا: لا ولكنّ الجزءَ من الروحِ الذي كان ساكناً في اليد إذا قُطعتْ صارَ في الذراعِ بمنزلةِ الشّمسِ في الكوّةِ، إذا سُدَّتِ الكوّةُ عَادَ الشعاعُ النافذُ إلى جنسهِ وشكلِه، قالوا: فينبغي على قولِك إذا قُطعتِ الجوارحُ والأعضاءُ كلُّها أنْ يزدادَ بروحِهِ قوّة ما يبقى من أجزائِه لجمعهِ فيه إذاكانَ الروحُ له مساحةٌ من الطولِ والعرضِ والعُمق في الجسمِ؛ وهو جسمٌ لزَمَ أن يكونَ جسمان في مكانٍ واحد، قالوا: نقول بالمداخلةِ والمجاورةِ.

وهذه مناظرة ثالثة جرتْ بين النّظام وبين مخالفيهِ، قالوا له: أخبرنا عن الإنسانِ هل يَرى؟ قال: نعم قد يرى معقولاً، قِيلَ فهل يُدركُ بالبصرِ؟ قال: نعم يدركُ بالبصرِ مفعولاً كما يقولُ القائلُ قد رأيتُ الحائطَ ولم يرَ غيرَ صفحتِهِ التي تليه، ويقولُ رأيتُ على فلانٍ سيفاً وإنّما رأى غِمْده، ويقولُ رأيتُ ميّتاً وإنّما رأى بدنَه، قِيلَ له: فأخبرنا عن الإنسانِ ما هو؟ قال: لا يخلو هذا السؤالُ من أحدِ أمرَيْن: إمّاَ إنْ أردتمُ عن أسمهِ أو عن خواصِّه التي يُعْرَفُ بها وبها يُفصلُ بينَه وبينَ غيرِه، فإن أردتمُ الإسمَ فهذا إنسانٌ، وإن أردتمُ الخواصَّ فهو الحياةُ والموتُ والنُطقُ والضحكُ، قال: وليس نعني بهذا الكلام أنّه أبداً ميّتٌ أو ضاحكٌ أو ناطقٌ أو حيٌّ، وإنّما نريدُ بِهِ أنّ من شأنِهِ وغريزتِهِ أنّه ممّن يموتُ، وأنّ من شأنِهِ الحياةَ والضحكَ وإن لم يضحكْ، قالوا: فأخبرنا عن هذا الإنسانِ الحيّ الّذي وصفتَه بالحياة أهو هي أم غيره؟ قال: قَدْ وصفتُه بحياةٍ هي غيرهُ وكذلك إذا ماتَ وصفتُه بموتٍ هو غيرُهُ، وحياتهُ وموتُه عَرَضان يتضادّان فبأحدهما كان حيًّا وبالآخرِ كان ميّتاً، قالوا فما الحياة والموت؟ قال: أما الحياةُ فمعنى له أمكنَ أن يكونَ به محرّكاً لما حرّكَ ومُريداً لما أرادَ من أعمالِه التي يجوزُ أنْ يكونَ منه، قِيلَ له: وما الأعمالُ التي يجوزُ أن يكونَ منه؟ قَالَ: أمّا ما

كانَ بالاستطاعةِ فالإدارةُ لاستخراجِ الأشياءِ والعلمُ والفكرةُ وما أشبههما، وكلُّ فعلٍ كان منه على المفاجأة وليسَ قبلَه له فيه إرادةٌ ولا تمثيلٌ، فإنّ ذلك لغريزةٌ، قال والموتُ بخلافِ ذلك، وهو إذا دَخَلَ بالحيّ بطُلَ معه كلُّ ما ذكرناه لأنّه تبطلُ بحلولهِ القدرةُ على ما كانَ تقدرَ عليه قبلَ ذلك، فإذا أحياهُ اللهُ فحيّ بطبعهِ وإذا أماتَه ماتَ وفِعْله بطبعهِ، قال: وليس الموتُ فناءً له، لو كان فناءً لم يُجزْ أن يقومَ الموتُ فيه وهو بشرٌ، وإنّما الموتُ آفةٌ حلّتْ به فحالتْ بينَه وبينَ التدبيرِ.

وهذه مناظرةٌ رابعةٌ جرَتْ بينَ من أثبتَ الرّوحَ جسماً وبينِ من نفى أن يكونَ جسماً، قالوا لهم: ما الدّليلُ على أنّه ليسَ بجسمٍ؟ قالوا: الدّليلُ عليه أن الأجسامَ لا يخلو أن تكونَ ساكنةً أم متحرّكةً ولا يكونُ الساكنُ والمتحرّكُ إلاّ بإسكانٍ وتحريكٍ من غيرهِ، فلو كان الإنسانُ جسماً لكانَ ساكناً أو متحرّكاً، ولو كانَ المُسْكِنُ له والمُحرّكُ في مِثْل حالهِ لزمَه ما يلزمهُ ووجبَ قَوْدُ الكلام فيه إلى مُسكِنٍ له أو مُحرّكٍ ليس بجسمٍ، قالوا: فهل يسكنهُ الأعراضُ؟ قالَ: أمّا الأعراضُ التي هي إراداتٌ وغضبٌ وعلمٌ وشهوةٌ وألمٌ وما أشبَه ذلك فنعم، وأمّا الأعراضُ التي هي ألوانٌ وطعومُ وأراييحُ فلا، لأنّه لو جازَ ذلك لجازَ أن يُدركَ بالمذاقاتِ ويرى بالأبصارِ ولحاذَتْه الأمكنةُ، قالوا: فإذا قلتمْ إنّ الإنسانَ لا تحويه الأمكنةُ وليسَ بجسمٍ ولا يوصفُ بطولٍ ولا عَرْضٍ ولا عُمق قد شبّهتموه بالله تعالى، قال: ليس التشبيهَ في نفي الأعراضِ والصفاتِ، وإنّما التشبيهُ بين الأعيانِ بالأعراضِ المركّبةِ فيها نحو الرَجُلَيْن القائمَيْنِ اللذَيْن يوصفانَ بالقيامِ الذي هو غيرُهما فيكونُ كلُّ واحدٍ منهما مشبَّهاً لصاحبِهِ في قيامِه، أو يكونُ أحدُهما جالساً والآخرُ قائماً فيخالفان بالأعراضِ المركّبةِ فيهما، فالتشابُهِ يقعُ في الإثباتِ لا في النفي، ولو كانَ التشابهُ يكونُ في النفي لكانَ الإنسانُ يكونُ مشبّهاً للحيّزيّة إذا كان الحيّزيّة تنفي عن الكلّية وينفي ذلك عن الإنسان.

[آراء الفلاسفة في النفس والروح]:

زعم أفلاطن أنّه يرى النفسَ جوهراً عقليًّا يتحرّكُ ذاتهُ، وأن أرسطاطاليس يرى النفسَ كمالُ جسمٍ طبيعي إلى حيّ بالقوّة، وإن فيثاغورس يرى النفسَ عدداً تحرّك ذاتُه، ويعني بالعدد: العقلَ، وأنّ تاليسَ يرى النفسَ طبيعةً دائمةَ الحركةِ، وأنّها محرّكةٌ ذاتها؛ قال: وبعضهم يرى النفسَ تأليفَ الأُسطقسات الأربعةِ؛ وأمّا استقلوس الطبيبُ فإنّه كان يَرى النفسَ شَيْئاً يُحدثُ تدرُّبَ الحواسِّ وارتياضَها، ولهم اختلافٌ كثيرٌ في النفسِ: ما هي أجسم

أو جوهر؟ وكم أجزاؤها؟ وأين مسكنها من البدن؟ وما جزءُها الرئيسُ؟ وهل هي باقيةٌ بعد مفارقة البدنِ أم متلاشيةٌ؟ ما يدلّ اختلافهم على قصورِ معرفتهم وعجزِهم عن الإحاطة بها.

[أصوب الآراء في النفس والروح]:

أصوب الوجوهِ فيها يُدلُّ أنَّ الروحَ والنفسَ معانٍ مختلفةٍ الأفعالِ والأعراضِ، فكلُّ ذي نفسٍ ذو روحٍ وحياةٍ، وكلُّ ذي روحٍ ذو حياةٍ، وليسَ كلُّ ذي حياةٍ ذا روحٍ ونفسٍ. لأن الأرضَ تحيا بالنباتِ وليستْ بذاتِ روحٍ، والبهائمُ حيواناتٌ ذواتُ أرواحٍ، وليست بذواتِ أنفسٍ فالإنسانُ له نفسٌ وروحٌ وحياةٌ فتمييزُه وعقلهُ وفطنتُه وفهمهُ من قبلِ نفسهِ وعيشهُ وبقاؤُه ونماؤُه من قبلِ روحهِ وحسُّه وإدراكهُ المحسوساتِ من قبلِ حياتِه، فالّذي يبطلُ بموتهِ حياتُه، والنّفسُ والرّوحُ ينتقلان عنه إلى أن يأذن اللهُ في البعثِ والحشرِ، وقد جرى في هذا البابِ من الأخبارِ ما فيه مَقْنَعٌ وكفاية؛ وقد زعمَ إفلاطن فيما يُحكى عنه لأنّ الروايات عنه مختلفةٌ أنّه قال: إنّ النفوسَ المفارقة لأبدانِ الحيوانِ غير مائتةٍ ولا فاسدةٍ بل لها أحوالٌ تلذّ فيها وتألمُ، وحكى يحيى النحويّ عن افلاطن أنّه قال: النفسُ جوهرٌ قائمٌ بنفسهِ، والنطقُ والحياةُ لها بذاتِها، فإذا فارقتْ بدنَها وكانتْ خَيّرةً بقيتْ مغبوطةً مسرورةً، وإن كانتْ شريرةً بقيتْ تائهةً في الأرضِ متحيّرةً تحولُ حَوْلَ قبرِ صاحبها إلى النشأةِ الأخرى، وهذا قولٌ سديدٌ ورأيٌ صوابٌ يُشبه أن يكونَ من مِشكاةِ النبوّةِ والوحي لأنّه مقاربٌ لقولِ الربّانيّين[1] واللهُ أعلمُ.

[أقوالهم في الحواسّ]:

قال افلاطن أنّ الحواسّ اشتراكُ النفسِ والبدنِ في إدراكِ الشيء الذي من خارجٍ، وإنّ القوّةَ للنفسِ والآلةَ للبدنِ، واختلفوا في البصرِ كيفَ يُبْصرُ فزعم بعضهُم أنّ الشعاعَ يخرجُ من العينِ وينبسطُ في المبصَّراتِ فيكونُ كاليدِ التي تلمسُ ما كان خارجاً عن البدن، ويُؤَدّي ذلك إلى القوّةِ البصريةِ؛ وافلاطن يرى ذلك اجتماعَ الضياءِ ويقول: إنّ البصرَ يكونُ باشتراكِ الضوءِ البصريّ والضوءِ الهوائيّ، وسيلانُه فيه بالمجانسةِ التي بينهما، وإنّ الضوءَ الذي ينعكسُ عن الأجسامِ ينبسطُ في الهواءِ لسيلانهِ وسُرعةِ استحالتِه فيلقى الضياءَ الناريّ

---

[1] الربانيين: (الرباني) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، قال الجوهري وهو المتأله والعارف بالله تعالى. «صبح الأعشى جـ ٦ ص ١٣».

البصريّ.

واختلفوا في السمعِ فزَعمَ بعضهمُ أنّ السمعَ يكونُ بالخلاءِ الذي يكونُ داخلَ الأُذنِ، ومنهم مَنْ يزعمُ أنّ الهواءَ يدخلُ الأُذنَ في صورةِ الصنوبرةِ وتصادُمِها، وافلاطن يرى أنّ الهواءَ الّذي في الرأسِ يَصْدِمُه الهواءُ الخارجُ فينعطفُ إلى العُضوِ الرئيسِ فيكونُ من ذلك حسُّ السمعِ.

واختلفوا في الصوتِ كيفَ هو فزَعمَ بعضهُم أنّ الصوتَ جسمٌ؛ واحتجّوا بأنّ كلَّ فاعلٍ وكلَّ مفعولٍ جسمٌ، وأنّ الصوتَ يفعلُ لأنّا نسمعُه ونُحسُّ به، والحانُ الموسيقى تحرّكُنا، والأصواتُ التي ليستْ على الموسيقى تؤذينا، والصوتُ يتحرّكُ ويصدِمُ المواضعَ الليّنةَ ويرجعُ عنها مثلَ الكرةِ التي يُضرب بها الحائط، وافلاطن يرى أنّ الصوتَ ليس بجسمٍ لأنه يعرِضُ في الهواءِ وينبسطُ، وكلُّ بسيطٍ فغيرُ جسمٍ.

واختلفوا في الشمِّ كيفَ يشمُّ فزعم بعضهُم أنّ العُضوَ الرئيسَ يكونُ في الدّماغِ وأنّه يجذبُ الروائحَ بالنَّفسِ، وزعم آخرون أنّ الشمَّ يكونُ بممازجةِ هواءِ النَّفَسِ ببُخارِ الشيءِ المشموم.

واختلفوا في الذوق كيفَ هو فزعَمَ بعضهُم: أنّ الذوقَ يكونُ بممازجةُ الجوهرِ الرَّطبِ الذي في اللسّانِ بالجوهرِ الرّطبِ الذي في الشيء الذي يُذاقُ، وزعم آخرون أنَّ يكونُ بالتخلخلِ واللِينِ اللذَيْن يكونان في اللّسانِ بالعروقِ التي ينبعثُ إليه من الفمِ بقول الله تعالى: ﴿وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدة﴾ [النحل: ٧٨] فنبهّنا على هذه الحواسِّ، وبعثنا على شكرِها، ولم يبيّن لنا عللَ إدراكِها ولا كيفيّةَ تركيباتِها، وقد تحارُ العقولُ إذا نظرتْ فيها وترتدُّ خاسرةً لِعِظَمِ أمرِها وصعوبةِ شأنها، وما هي إلاّ بمنزلةِ النفسِ والروحِ اللذين يعجزُ الخلقُ عن إدراكِها، فإن كان شيء ممّا قالوا حقًّا فهو الصوابُ، وإنْ كانَ غيرُ ذلك فالله أعلمُ.

الفصل التاسع:

في ذكرِ الفتنِ والكوائنِ وقيامِ السّاعة وانقضاءِ الدّنيا وفناءِ العالمِ ووجوبِ البعثِ

إعلم أنّ النّاسَ مختلفون في هذا الفصلِ بحسبِ اختلافهم في إحداثِهِ وابتدائه، فمَنْ أنكرَ له ابتداءً أنكرَ أنْ يكونَ له انتهاءٌ، وعلّةُ جوازِ الابتداءِ حدوثُ الابتداءِ، وقد دلّلنا على وجوبِ الابتداءِ للحوادثِ فليسَ بواجبِ وجودِ انتهاءٍ لها لكنْ جائزٌ عليه ذلك، ثمّ واجبٌ بورودِ الخبرِ الصادقِ فيه مع أنّ جميعَ مَا دُلّ على حَدثِ العالمِ دالٌّ على تناهي ذاتِهِ ومساحتِهِ لأنّ دليلَ حدثِهِ قَدْ دلَّ على انقطاعِ مَا حدثَ منه إلى هذا الوقتِ، وما انقَطَع حدوثُه فهو متناهي الأجزاءِ لأنّه لو أُضيفَ إليه حادثٌ كبعضِهِ لكانَ زائداً مقدارَ أجزائه، ولكانَ بوجودِ ذلك الزائدِ أكثرَ ممّا كان قبلَ حدوثِهِ، ولو كانَ العالمُ غيرَ متناهي الذاتِ لكانَ السّائرُ منّا من وسطِ الأرضِ ولو سَار تلقاء وجهِه ألفَ فرسخٍ لم يكنْ ما خَلفَ وراءَه من العالمِ أكثرَ مساحةً ممّا تعالَى أجساماً بمقدارِ ألفِ فرسخٍ لم يكنِ العالمُ بَعد زيادةِ ذلك أكثرَ مساحةً منه قبلَ تلك الزيادةِ، ولو كَانَ هذا جائزاً لجَازَ مثلُه في عددِ النّاس والدّوابِّ والشجرِ حتّى لو خَلقَ اللهُ في هذا الوقتِ مائةَ ألفِ إنسانٍ ودابّةٍ وشجرةٍ لم يزدْ بذلك في النّاس أحدٌ ولا في الدوابّ دابةٌ ولا في الشجرِ شجرةٌ، ولكَانَ مَنْ نظرَ إلى جبالٍ يابسةٍ وصحارى مُلْسٍ لا نباتَ فيها ولا شجر، ثُمّ نَظرَ أيّامَ ربيعٍ في عُشبها ولمعِ زهرِها لجَازَ له أنْ يُحكَم بأنّه ما زادَ في هذه الجبالِ والصحارِي شيءٌ البّتةَ، وكذلك لو نَظرَ إلى نخلةٍ تولّدتْ من نواةٍ وإنسانٍ تولّد من نُطفةٍ بأنّه لم يزدْ في النواةِ والنطفةِ شيءٌ، وهذا ظاهرُ الإحالةِ والفسادِ فدلّ وجودُ الزيادةِ على وجودِ النقصانِ، ووجودُ الابتداءِ على وجودِ الانتهاءِ، وانقطاعُ حادثٍ بعدَ حادثٍ على انقطاعِ الحوادثِ، ومَنْ زعم أنّ البارىءَ علّةٌ للعالمِ، والعالمَ معلولٌ لا يجوزُ وجودُ العلّةِ بلا معلولٍ، ولولا البارىءُ جلَّ وعزَّ لم يكنِ العالمُ موجوداً، وليسَ لولا العالمُ لم يكن البارىءُ

موجوداً عُورِض ما الفصلُ بينك وبينَ مَنْ زَعمَ أنّ العالمَ هو العلّةُ، والباريءُ هو المعلولُ، ولولا العالمُ لم يكنِ الباريءُ موجوداً، ولَيسَ لولا الباريءُ لم يكن العالمُ موجوداً، ليعلم أنّ اعتلالهم عندَ أهلِ النظرِ مبهرجٌ ساقطٌ، والقولَ في حدوثِ آخرِ العالمِ، وأنّ الباريء له علّةٌ متناقضٌ لأنّ العلّةَ لا تفارقُ المعلول وكأنْ قَالَ قديمٌ وقديمٌ أحدهما محدٌ وأدنى ما يلزَمه القولُ بحدوثِ العلّةِ كما قَالَ بحدوثِ المعلولِ، وإنْ زَعمَ أنّه لا يُعْقَلُ حدوثُ شيءٍ لا مِنْ شيءٍ، وإنّما هو لكونِ الخاتمِ من الفضّةِ والسريرِ من الخشبةِ وما أشبه ذلك، والحادثُ هيئةٌ وصنعةٌ لم يحدثْ من نفسِ الفضّةِ ولا من نفسِ الخشبةِ، لأنّ نفسَ الفضّةِ والخشبةِ قد كانتْ موجودةٌ والهيئةَ معدومةٌ، وإنّما حدثتْ من فاعِلها الحقيقةِ على معنى أنّه اخترَعها وأوجدَها بعدَ أنْ لم يكنْ من شيءٍ، فإذا جَازَ حدوثُ عرضٍ لا من شيء فلِمَ لا جازَ حدوثُ جسمٍ لا من شيء مع أنّ كثيراً من النّاس يقولون ليسَ الجسمُ غيرَ أعراضٍ مجتمعةٍ، وإنّما النكتةُ في نفس ظهورِ الشيءِ أحادثٌ أم غيرُ حادثٍ؟ فإن كَانَ غيرُ حادثٍ فظهورُه مُحالٌ لأنّ الظهورَ حادثٌ، وإنْ كانَ حادثاً فقدْ تبيّنْتَ المُرادَ وبعد فلم يوجدْ جسمٌ إلاّ من جسمٍ ولا عرضٌ إلاّ من عرضٍ لوجَبَ أن لا يوجدُ جسمٌ ولا عرضٌ البتّةَ ولوجبَ أنْ لا يوجدَ في الرطبِ لونٌ ولا طعمٌ يخالفُ البُسرة، ولا في البسرةِ ما يخالفُ الطلعَ، ولا في الطلعِ ما يخالفُ النخلةَ، ولا في النخلةِ ما يخالفُ النواة، ووجودُ خلافِ ما ذكرنا دليلٌ على حدوثِ تلك الألوانِ والطعومِ وسائرِ الزياداتِ التي ليستْ من النواةِ، وأنّها ليستْ من نفسِ تلك النواةِ وإن أنكروا الأعراضَ لزَمَهم أن ينكروا الصيفَ والشتاءَ والليلَ والنهارَ، وأنْ يكون الليلُ سرمداً، والنهارُ سرمداً، والشتاءُ دائماً، والصيفُ كذلك، فإن زعموا أنّ هذا لا يلزمُهم لأنّ النهارَ ظهورُ الشّمس، والليلَ غيبوبتُها، والشتاءَ نزولُ الشّمسِ بعضِ البروجِ، والصيفَ كذلك. قِيلَ: إذا كنتمْ لا ترجعونَ في ظهورِ الشمسِ وغيبوبتِها وقُربِها وبُعدِها فيلزمكُم أن يكونَ مَن أمَرَ إنساناً أو أرادَه منه فقدْ أمرَه بنفسهِ أو بنفسِ جسمٍ من الأجسامِ، وكذلك إذا حَمِده على شيء أو ذمَّهُ أن يكونَ ذلك نفسهُ من غيرِ سبب أوجبَ فيجبُ أن لا يزالَ حامداً دائماً، أو يكونَ حمدُه وذمُّه لجسمٍ من الأجسامِ، وهذا كلُّه دليلٌ على حدوثِ الأعراضِ وأنّها غيرُ الأجسامِ، وأنّ الأجسامَ لا تعرّى منها، وكلُّ حادثٍ فله ابتداءٌ وانتهاءٌ لا محالةَ، وهذه المسألة قَدْ مرّتْ في صدرِ الكتابِ على الإتقانِ والإحكامِ.

وأمّا قولهُم بجوهرٍ قديمٍ لم يزلْ عارياً من الأعراضِ التي هي الصُورَ والهيئَاتُ والحركةُ والسكونُ وغيرُ ذلك فإنّه كلامٌ فاسدٌ لأنّه لو جَازَ ذلك على الأجسامِ فيما مضى

لجَازَ أنْ يعرّى منها فيما يستقبلُ، وأن يكونَ بحضرتِنا أجسامٌ غير ذاتِ طولٍ ولا عَرْضٍ ولا عُمقٍ ولا تأليفٍ ولا تركيبٍ ولا لونٍ ولا رائحةٍ ولا طعمٍ ولا حركةٍ ولا سكونٍ حتى تكونَ مبنيّةً موجودةً قائمةً بلا عَرَضٍ، ولو جازَ ذلك لجَازَ أن يوجدَ إنسانٌ منّا مخلّى السِرْب[1] غيرُ ممنوعٍ أن يخلوَ من الحركةِ والسكونِ والقيامِ والقعودِ والمَشْي والفعل والإراداتِ والألوانِ والحياةِ والموتِ وغيرِ ذلك، فهذا ظاهرُ الفسادِ، فإن زعَم أنّ ذلك كلّه كامنٌ فيه بالقوّةِ قِيلَ وظهورُ هذا الكامنِ أزليٌ منه، فإن زَعمَ أنّ ذلك كلّه كامنٌ فيه بالقوّةِ قِيلَ وظهورُ هذا الكامنِ أزليّ منه، فإن زَعمَ أنّه فيه لزمَه أنْ تكونَ هذه الكوامنُ فيه ظاهرةٌ لم تزلْ، وإن زَعمَ أنّ ظهورَ الكوامنِ بالقوّةِ فيه كما أنّ هذه الأشياءَ التي عدْدنا بالقوّةِ فيه سُئلَ عن هذه القوّةِ ما هي؟ وكيف هي؟ وأين هي؟ ومِمَّ هي؟ أفيه هذه القوّةُ أم لا؟ فإنْ زَعمَ أنّها فيه لزمَه أن تكونَ العوارضُ التي عددناها كلّها ظاهرةٌ لم تزلْ لأنّ القوّةَ والظهورَ علّةٌ لها، وهي كالمعلولِ والعلّةِ معها والعيان إلا ما ترى في النطفةِ والبيضةِ والنواةِ إذ تراها تحدثُ الشيء بعد الشيء؛ وإن زعَم أنّها ليستْ فيه وإنّما حدثتْ بعدَه وأحدثَها مُحدثٌ فقدْ أقرَّ بالحَدَثِ، وأنّ الجواهرَ لا تخلو من الحوادثِ، ومَنْ أقرّ بالحدثِ فَقدْ أقرَّ بالمُحْدِثِ والسلام، وإنْ زَعمَ أنّ العالمَ حكمةُ باريء وَجُودِهِ وفضلُه وغيرُ جائزٍ أن يُوصَفَ بحلّ حكمتِهِ وإبطالِ جودِهِ وفضلِه لزمَهَ لا يجوزُ على الباريء إحداثَ ضِدّ لشيءٍ من موتٍ بَعدَ حياةٍ وسُقمٍ بعد صحّةٍ وليلٍ بعد نهارٍ وضعفٍ بعد قوّةٍ وقُبحٍ بعد حُسنٍ لأنّ في هذا كلّه إبطالَ الحكمةِ في قولِهم، فإن قَالَ: ليس بكونُ شيءٌ من ذلك حكمةً إلاّ وقتَ وجودِه ضدّهِ قِيلَ: فكذلك يجبُ أن ينكروا أنّ يكونَ العالمُ على ما هو عليه لأنّ حكمَه في وقتِ وجودِهِ دونَ وقتِ فنائِه وانتقالِهِ من حالٍ إلى أخرى، أو ليسَ ينسجُ الإنسانُ الثوبَ ثُمّ يقطعهُ خِرَقاً لضربٍ من المصلحةِ ويُهيّيءُ المائدةَ وينضّدُ عليها الألوانَ من الأطعمةِ ثُمّ يشوّشُها ويُفسدُها بالأكلِ والتكسيرِ، ولا يكونُ ذلك قبيحاً ولا إبطالاً للحكمةِ بل هو من أحسنِ الأشياءِ وأَوْلاها بالحكمةِ فمن أين انكرتُم أن ينقضَ الباريء هذا العالَمَ في الوقتِ الذي يكونُ نقضهِ أَولى بالحكمةِ وأَبْيَنَ في التدبيرِ، وأن يُعيدَ النّاسَ في دارٍ سوى هذه الدارُ ليجازيَهم على أعمالِهم، فإن قِيلَ: إنّ الأجسام باقيةٌ، والباقي لا يجوزُ فناؤُه إلاّ بضِدٍّ يحلُّه، وذلك الضدّ لا يخلُو من أنْ يكونَ جسماً أو عَرَضاً فإنْ كانَ جسماً فحيّزُه غيرُ حيّزِ هذا الجسمِ، وكيفَ يضادُّه؟ وإن كانَ عرَضاً وجبَ أن يقومَ فيه، وكيف يقوم فيه في حالٍ يكونُ الجسمُ فيها فانياً معدوماً؟ قِيلَ لهم: كيف جازَ لكم أنْ

---

(١) السِرْب: القلب.

تتطرّقوا إلى إبطالِ القوّةِ لفناءِ الأجسامِ مع قولِ مَنْ يقولُ من المسلمين أنّ فناءَ الجسمِ عرضٌ لا يحتاجُ إلى محلٍّ، وأنّ في حالِ وجودِه انتقالَ الجسمِ وعَدَمه، ومَنْ يقولُ منهم: إنّ الجسمَ يفنى بفقدِ بقائِه وأنْ لا يحدثُ الله بقاءَ، ومَنْ يقولُ منهم: إنّ فناءَ الجسمِ يوجدُ في الجسم فيصيرُ فائتاً في الحالِ الثانيةِ، وبعد فما معنى إنكارِكم فناءَ الأجسامِ؟ وإنّما ينكرونَ حياةَ الموتى وأمرَ الموتى وخبرَ الجنّةِ والنارِ؛ وهذا كلُّه غيرُ ممتنعٍ كونه مع بقاءِ الأجسامِ وتبديلِ صُوَرِها ونقضِ بِنْيتها إلى بِنْيةٍ أُخرى يكونُ منها جنّةٌ ونارٌ ودارٌ على خلاف سبيلِ هذه الدارِ، وإنْ كنّا نخالفُكم في أشياءَ منها وقَدْ يشاهدون الاستحلالَ والفسادَ في الأركانِ فيما يُؤمنكم إشاعةَ الفسادِ في كلّيّاتها وأجزائِها وأبعاضِها، وأنْ يكونَ طبيعةُ العالمِ موجبةً للإنقاضِ بَعدَ مُدّةٍ من المُدَدِ والتغييرِ في بلوغِه تفرّقتْ عناصرُه ولحَقَ كلُّ نوعٍ من جسدِه بشكلِه، ثمّ تتركّبُ أجزاؤه بَعدَ ذلك على ضربٍ آخرَ فيكون كذلك العالمُ على هذا الترتيبِ إذا بَلغَ أقصى مُدّتهِ انتقض وانقلبَ إلى هيأةٍ أُخرى تكونُ منه جنّةٌ ونارٌ بل يلزمكُم أعظَم من هذا، وهو إجازةُ فناءِ العالمِ وعدمِ ذاتِه، ثمّ عودُه ورجوعُه بَعدَ ذلك وتكوّنُه وتكونُ طبيعتِه هو الّذي يوجبُ له ذلك إذاكانَ ليسَ موجب وجوبِ بقائِه من وجوبِ فنائِه بطبعِهِ، فإن زَعمَوا: أنّ هذا لا يصحُّ لنا على مذهبِنا لأنّا نقولُ بتركيبِ الأجسامِ من هذه الأركانِ وانحلالِها إليها، وكذلك الأركانُ من الأسطقسّاتِ غيرِ المركّبةِ البسائطِ من الهيولي قِيلَ وأجودُ لنا أن يكونَ مناقضتكم من نفسِ مذهبِكم وقد أريناكم فسادَ بحَدَثِ الأجسامِ، وكلُّ حدثٍ غيرِ مستنكرٍ له الانحلالُ والدثورُ والعودُ إلى حالِ التلاشي والبطلانِ، وإذا فنى وبُطلَ فأعادَه خَلْقٌ كابتدائِه بل هو أَهْوَنُ.

[أقوال القدماء بفناء العالم]:

زعم اناشهيدوس الملطي أنّ مبدأَ الموجوداتِ هو الذي لا نهايةَ له وإليه ينتهي الكلُّ ويفسدُ ويرجعُ إلى الذي عنه كان، وإنّ انقمامس يرى مبدأَ الموجوداتِ هو الهواءُ منه كانَ الكلُّ وإليه ينحلُّ، قالَ: الروحُ والهواءُ يمسكانِ العالمَ والروحُ والهواء يُقالان على معنىً واحدٍ قولاً متواطئًا، وإنّ تاليسَ الملطي يرى المبدأَ الماءَ وإليه ينحلُّ، وهؤلاءِ قد أقرّوا بفسادِ العالمِ وإن كانُوا رأوا له صلاحاً يرجعُ إليه، وحُكي عن ايثاغورس أنّه كانَ يَرى العالمَ يكوّنُ، واللهُ يكوّن ذاتَه وأنّه إمّا من قِبَلِ الطبيعةِ ففاسدٌ، وهؤلاءِ قَدْ حكموا علَيه بالفسادِ من قِبَل طبعهِ، وأجازوا أن لا يفسدُه اللهُ؛ وكذلك المسلمون يُجيزونَ ذلك إلاّ أنَّ الخبرَ وردَ بخلافِه، وأمّا أرسطاطاليس فإنّه يرىَ الفسادَ في الحرِّ المنفعلِ الّذي تحتَ فلكِ القمرِ،

وحُكي عن جماعةٍ منهم أنّهم يقولُون بالكونِ والفسادِ، وهذا كلُّه من الدّليلِ على ابتداءِ الحدَثِ وجوازُ انتهائِه من مذهبِهم، وقدْ احتجّ مَنْ احتجَّ منهم في إبطالِ العالمِ أنّه من الاسطقسّات الأربعِ، ولا بُدَّ لها من التمايزِ والانحلالِ كما الإنسانُ مجموعٌ من الطبائعِ الأربعِ، وتمايُزُها سببُ هلاكِهِ وفنائِهِ، وأمّا الثنويّةُ فإنّهم يقولُون ببطلان من امتزاجِ الكونينِ وجوازِ افتراقِهما وتباينِهما بَعدَ امتزاجِهما حتّى تعوُدَ كما كانا بِلا حادثٍ من مزاجٍ، وأمّا الحرّانيّةُ فيقولُونَ بالثوابِ والعقابِ ولا أدري كيفَ قولهُم في فناءِ العالمِ غيرَ أنّهم ينتمونَ إلى اغثاديمون وهرمس[١] وسولون[٢] جدّ إفلاطن لأمّه، ومن هؤلاءِ مَنْ كان يقولُ بفناءِ العالمِ والبعثِ، وكثيرٌ من المجوسِ يُقرّون بالبعثِ والنشورِ، وخبرّني بعضُ مجوسِ فارسَ أنّه إذا انقضى مُلكُ أهرمن وأفضى الأمرُ إلى هُرمزُ ارتفعَ الكدُّ والعناءُ والظلمةُ والموتُ والسّقمُ والكراهةُ، وصَارَ الخلقُ كلُّهم روحانيّين باقين خالدين في ضياءِ دائمٍ وسكونٍ دائمٍ، ولا أعرفُ مذاهبَ فِرَقِهم ولا اختلافَ آرائهم وكلمتِهم، وسمعتُ بعضَهم يقولُ: إذا انقضَتْ للعالمِ تِسعةُ آلاف تساقطتِ النجومُ، وفُتّتتِ الجبالُ، وغاضتِ المياهُ، وصَارَ كذا وكذا بصفاتٍ هائلة.

[أقوال أهل الكتاب بفناء العالم]:

إعلم أنّ قولَهم وقولَ أهلُ الإسلامِ سواءٌ في انقضاءِ الدّنيا وفناءِ العالمِ، وكونِ البعثِ والحسابِ، ووجوبِ الجزاءِ من الثوابِ والعقابِ لا خلافاً في شيءٍ في الصّفاتِ وقَعَ من جهةِ التأويلِ وأجمعتِ اليهودُ أنّ المسيحَ لم يجيءْ بعدُ وأنّه جاءٍ لا محالةَ في زمانُ يأجوجَ ومأجوجَ، واختلفوا بَعدَ ذلك فزعمتْ فرقةٌ منهم أنّ مُلكَ المسيحِ يكونُ ألفَ سنةٍ، ثُمّ يُنفخُ في الصُّورِ، وزعم آخرون: أنّ مُلكَ المسيحِ ألفَ سنةٍ ومائتا سنةٍ وخمسَ وتسعون سنةٍ، وقَدْ كان كثيرٌ من مشركي العربِ يؤمنون بالبعثِ والنشورِ، ويزعمون أنّ من عُقِّرتْ مطيّتهُ على قبرهِ يحشرُ عليها وفيه يقول جُريبةُ بنُ الأشيَم الفقعسّي: [كامل]

يـا سَعْـدُ إمّـا أهْلَكَـنَّ فـإنّنـي ... أُوصيـكَ إنّ أخـا الـوصيّـة أقـرَبُ
لا تتـركـنّ أبـاك يعثـرُ خَلْفَكـم ... تعبـاً يُجَـرُّ علـى اليـدَيْـن ويُنكَـبُ

---

(١) ابن زفس ومايا، إله الفصاحة والتجارة عند اليونان، ورسول الآلهة، سمّاه الرومان مركور.
(٢) مشترع أتيني: أحد حكماء اليونان السبّعة، خفف وطأة الضرائب على الفقراء، سنّ لبلاده قوانين تحررية. (ت ٥٥٠ ق.م) «منجد الأعلام».

وٱحْمِلْ أخاك على بعير صالح ويقِي الخطيئةَ إنّه هو أقربُ
ولعلّ ما قد تركت مطيّةً في الحَشْر أرْكَبُها إذا قيل ٱرْكَبوا

وكان أُميّةُ بن أبي الصلتِ قد قرأ الكتبَ، واتّبعَ أهلَ الكتابِ وهو يقول: [بسيط]

والنّاس راث عليهِمْ أمرُ ساعتهم فكلُّهم قائلٌ للدِين ايّانا
أيّامَ يَلْقَي نصاراهُمْ مسيحَهُمْ والكائنين له وِدًّا وحربانا
هم ساعَدوه كما قالوا إلَههم وأرسلوه كُسوفَ الغيب دُسْقَانا

وهو يقول أيضاً: [بسيط]

ويومَ مَوْعِدِهِمْ أن يُحشَروا زُمَراً يومَ التغابُن إذ لا ينفعُ الحَذَرُ
مستوسقين من الدّاعي تأنّهُمُ رِجْلُ الجرادَ رَقّتْهُ ٱلريحُ تنتشرُ
وأبرزوا بصعيدٍ مستوٍ خَزَر وأُنزِل ٱلعَرْشُ والميزانُ والزُبُرُ
وحُوسبوا بالّذي ما يُحصِه أَحَدٌ منهم وفي مثلِ ذاك اليوم مُعتبر
فمنهُمُ فَرِحٌ راضٍ بمبعثِه وآخَرون عصَوْا مَأْوَاهُمُ ٱلسّقَرُ
يقول خُزّانها ما كان عندكُمُ أَلَمْ يكُنْ جاءَكُمْ من ربّكُمْ نُذُرُ
قالوا بَلى فأطعْنَا سادةً بَطِروا وغَرَّنا طولُ هذا العيشِ وٱلعُمُرُ
قالوا ٱمكثوا في عذابِ الله ما لكُمُ إلاّ ٱلسلاسلُ وٱلأغلالُ وٱلسُّعُرُ
فذاك عيشهُمُ لا يبْرَحون به طولَ المقام وإن ضجّوا وإن ضجروا

[القول في مدة الدنيا]:

مَنْ أنكرَ ابتداءَ العالمِ وانتهاءَه أنكرَ أنْ يكونَ لما مضى عددٌ ويكونُ لما بقي أَمَدٌ، وزعم أنَّ الحركةَ الثانيةَ هي الحركةُ الأُولى مُعادةٌ، وقد مضَى من النقضِ على هذه المقالةِ ما فيه كفايةٌ، رُوي في الخبرِ أنّ اللهَ وضعَ الدّنيا على سبعةِ أيّامٍ من أيّامِ الآخرةِ كلُّ يومٍ ألفُ سنةٍ، ورُوي ثمانيةُ أيّامٍ، ورُوي ستّةُ أيّامٍ، ورُوي خمسون يوماً، ورُوي مائةُ ألفِ سنةٍ وخمسون ألف سنةٍ، وهذاما رواه المسلمون، وأمّا اختلافُ أهلِ الأرضِ في سنيّ العالمِ في الكثرةِ والقلّةِ وكميّةِ ما يقعُ فيه من الاجتماعاتِ والقراناتِ فشيءٌ يطولُ وصفُه، وقد ذكر ابن عبد الله القسْريّ في كتابِ القراناتِ قولَ خمسِ فِرَقٍ: أوّلهم السندُ والهندُ الذين ادّعوا أنْ أصلَ كلِّ فرقةٍ مأخوذٌ من أصلِهم، وأنَّ عددَ سنيّ عالمِهم وأدوارِهم أربعةُ ألف ألف ألف

وثلثمائة وعشرون ألف [ألف] سنة وهذا رسمه ٥٥٥٥٥٥٥ حم حجم عم، والصنّفُ الثاني: أصحابُ الارجبهز جعلوا سِنِيَّ عالمِهم أربعَ مائة ألف وإثنين وثلاثين ألفِ سنة وسنو هذه الفرقةِ جزءٌ من عشرةِ ألفِ جزءٍ من السنّدِ والهندِ، والصنفُ الرابعُ: أهلُ الصينِ جعلوا سني عالمِهم مائة وخمسة وسبعين رِبْوة وثُلثَ ربوةٍ ونصفَ عُشْر ربوةٍ، كلُّ ربوةٍ عشرةُ آلافِ سنةٍ يكونُ سنيّ المدارِ ألفَ ألفَ وسبعِ مائة ألف وثلاثون ألفِ وثماني مائةٍ وثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهرُ، والصنفُ الخامسُ: الفرسُ وأهلُ بابلَ وكثيرٌ من الهندِ والصينِ معهم جعلوا سني عالمِهم ثلاثمائة وستّين ألف سنةٍ، وهذه السنُون مناسبةٌ لدرجِ الفلكِ، وإذا قسمتَها على عشرة خرجَ ستّة وثلاثون ألفَ سنة مقدارَ ما تقطعُ الكواكبُ الثابتةُ جميعَ الفلكِ لأنّ الكواكبَ الثابتةَ تقطعُ كلَّ برجٍ في ثلاثةِ آلافِ سنةٍ، قال: ووقع الطوفان في نصفِ سنة العالمِ في أوّلِ دقيقةٍ من الحملِ فعلمتِ العلماءُ عليه، وجعلوا هذه السنةَ أصلاً محفوظاً عندَهم، وسمّوه سِنّي الألوف المغيرةِ للزمانِ والدهورِ والأديانِ والمللِ والأحداثِ العظيمةِ في العالمِ من خرابٍ وعمارةٍ وزوالِ ملكٍ على ما ذكرَه إفلاطن وأرسطاطاليس ومَنْ قبلهما من اليونانيّين، قال: ويُقالُ: إنّ هذه الأحداثَ لم يزلْ تأثيرهُ قديماً مُذْ أوّلَ خلقِ الله أيّامَ العالمِ إلى وقتِنا هذا وأنّه كان قبل آدم أممٌ كثيرةٌ وخلقٌ وآثارٌ ومساكنٌ وعماراتٌ وأديانٌ ومُلكٌ وأملاكٌ وخلائقٌ على خلافِ هذا الخلقِ في الطباعِ والأخلاقِ والكسبِ والمعاشِ والمعاملاتِ، وأنّه كانَ قدْ يتّصلُ العمارةُ في بعضِ المواضعِ ألوفَ فراسخٍ لا ينقطعُ مع مآكلٍ عجيبةٍ ولغاتٍ غريبةٍ وطولِ القاماتِ وصِغرِها وغيرِ ذلك ما لا يُدرى كيفَ كان، وانّه قَدْ أبادَهم الطوفاناتُ والرّجفاتُ والزلازلُ والهدّاتُ والنيرانُ والعواصفُ، ثُمّ خَلقَ الله آدَمَ الّذي انتشرَ منه أهلُ هذا العالمِ الّذي نحنُ منه وفيه، بَعد تلك الأممِ والأجيالِ التي لا يُعلمُ عددُهم ولا يُحصيهم إلاّ اللهُ، وعلّمهُ العلومَ من الآثارِ العلويّةِ والسُفليةِ وذلك قولُه تعالى: ﴿وعلّم آدَمَ الأسماءَ كلَّها﴾ [البقرة: ٣١] هي أسماءُ الكواكبِ الحائرةِ المؤثّرةِ في العالمِ بتركيبِ اللهِ إيّاها، كذلك فعلّم ما ينالُ ذرّيّته من الشدّةِ والبلاءِ، فحذّرهم وبيّنَ لهم مواضعَ الآفةِ حتّى أوَوْا إليها، وتخلّصوا من البلايا التي تحدثُ في الأركانِ من النّارُ والماءِ وغيرِ ذلك من وجوهِ الفسادِ، قال وقَدْ كانَ هرمسُ الهرامسةِ وهو اخنوخ ادريس النبيّ عليه السلام قبلَ آدمَ بزمانٍ طويلٍ، وكانَ ينزلُ الصعيدَ الأعلى والصعيدَ إلى الإسكندريّة ليعتصموا بها من الغرقِ، وقد أفسدَهم الطوفانُ والنيرانُ والنباتُ والحيوانُ غيرَ مرّةٍ، هكذا وجدتُ في كتابهِ، وكُتُبُ اللهِ تعالى وأخبارُ الرّسلِ أصدقُ وأصحُ شيءٍ ممّا ذكروا، وإن وافقتْه روايةُ أهلِ الإسلامَ وأهلِ

الكتابِ قلنا به وإلاّ لا فهو مضافٌ إلى حدِّ الجوازِ والإمكانِ، قَالَ: وربّما عمَلتِ القراناتُ والاجتماعاتُ في خرابِ العمرانِ وعمارةِ الخرابِ حتّى جُعلتِ البحورَ مفاوزَ والمفاوزَ بحوراً، وربّما غاضتْ قُنِيٌّ وآبارٌ وعيونٌ وأنهارٌ فصارتِ البقاعُ قفراً خلاءً، ورُبّما نبعَ بالقفرِ عيونٌ ومياهٌ فصارتْ مسكونةً مأهولةً، ولا ينبغي أنْ يُحكَم ببطلانِ ما لا يُرى في مدّةِ عُمْرٍ وعُمرَيْن وثلاثةِ أعمارٍ كما يُرى في المفاوزِ بينَ الشّامِ وبلادِ اليونانيين من الآثارِ العاديّةِ والبنيانِ الخرابِ المعدومِ فيه النباتُ والحيوانَ والماءُ، ثُمّ ما نشاهدُه في إقليمنا بالعيانِ قبلَ مفازةِ سجستان[1] وما فيها من آثارِ البنيانِ والمُدُنِ والقُرى والدكاكينِ ورساتيقِ الأسواقِ[2]، قال وقرأ عليَّ بعضُ المجوسِ أنّ هذه المفاوزَ كانتْ عامرةً والماءُ جارياً عليها من سجستان وأنّ افراسيابَ التُّركي غوّرَ تلك العيونَ وكبسَها حتّى انقطعَ الماءُ عنها، وسارَ إلى زرّة قصارَ بُحيرةً، ويبستْ المفازةُ، وذكر ابنُ المُقفّع[3] أنّ باديةَ الحجازِ كانتْ في الزمانِ الأوّلِ كلّها ضياعاً وقُرىً ومساكنَ وعيوناً جاريةً وأنهاراً مطّردةً، ثمّ صارتْ بعد ذلك بحراً طافِحاً تجري فيه السُفنُ ثُمّ صارتْ قفراً يابساً ولا يُدرى كيفَ اختلفَ عليها الأحوالُ ولا كمْ يختلفُ إلاّ اللهُ تعالى.

[التأريخ في كتب أهل الأخبار]:

رُوينا عن وهبِ بن منبّه[4] أنّه قَالَ: اللهُ خلقَ السماواتِ في ستّة أيّام فجعلَ مكانَ كلِّ يومٍ منها ألفَ سنةٍ وقد خلتْ منها ستّةُ ألفِ سنةٍ وستّمائة، وإنّي لأعرفُ كلَّ زمانٍ ما كان فيه من الملوكِ والأنبياءِ، وروى عبدُ الله بنُ مسلم بن قتيبة[5] في كتابِ المعارفِ: أنّ آدمَ عاشَ ألفَ سنةٍ وكانَ بينَ موتِهِ والطوفانِ ألفُ سنةٍ ومائتا سنة وإثنان وأربعون سنةً، وبينَ الطوّفانِ وبينَ موتِ نوحٍ ثلثمائةُ وخمسون سنةٍ، وبين نوحٍ وإبراهيمَ عـم ألفا سنةٍ ومائتا سنةٍ وأربعون

---

(١) سجستان: منطقة في وسط آسيا تتقاسمها إيران وافغانستان، قاعدتها نصرتاباد، فيها نشأ رستم بطل إيران الأسطوري. «منجد الأعلام».

(٢) رساتيق الأسواق: صفوف أو أماكن.

(٣) عبد الله، مؤلف عربي من أصل فارسي، أمر المنصور والي البصرة بقتله لأسباب سياسية، نقل من البهلوية إلى العربية كتاب «كليلة ودمنة» (ت ٧٥٩ هـ) «منجد الأعلام».

(٤) مؤرخ من التابعين، اشتهر بمعرفة أخبار الأقدمين والأنبياء، ولد ومات بصنعاء اليمن فارسي الأصل له «التيجان في ملوك حمير» (ت ١١٤ هـ). «منجد الأعلام».

(٥) فقيه ومؤرخ ومحدث ونحوي وأديب، ولد بالكوفة، عاش زمناً طويلاً في دينور قاضياً، خراساني الأصل، له «الشعر والشعراء» (ت ٨٨٩ هـ). «منجد الأعلام».

سنةً، وبين إبراهيمَ وموسَى تسعُ مائةِ سنةٍ، وبينَ موسى وداودَ خمسُ مائة سنةٍ، وبينَ داودٍ وعيسى ألفُ سنةٍ ومائتا سنةٍ، وبينَ عيسى ومحمّد ﷺ ستمائة سنةٍ وعشرون سنةٍ، فكان من عهدِ آدمِ إلى محمّد ﷺ سبعةَ ألفِ سنةٍ وثمانِ مائةِ عامٍ، وفي كتابِ تأريخِ ابن خُرذاذ[1] به قال: إنّه كانَ من هبوطِ آدمَ إلى الطوفانِ ألفان ومائتا سنةٍ وستُّ وخمسون سنةٍ، ومن الطوفانِ إلى مولدِ إبراهيمَ عتم إثني وثلاثين سنةٍ خلتْ من عُمر موسى وذلك عندَ خروجِ بني إسرائيلَ من مصرَ خمسُ مائة وخمسون سنةٍ، ومن خروجِهم إلى سنةِ أربعٍ من مُلكِ سُليمان، وذلك وقتُ ابتدائِه ببناءِ بيت المَقْدِس ستّمائةُ وستّ وثلاثون سنةً، ومن بناءِ بيتِ المقدسِ إلى مُلكِ الإسكندرِ سبعُ مائة سنة وسبعَ عشرَ سنةٍ، ومن مُلكِ الإسكندر إلى مولدِ المسيحِ ثلاثُ مائة وسبع وستّون سنة، ومن مولدِ المسيحِ إلى هجرة النبيّ ﷺ خمسُ مائةٍ وأربعُ وستّون سنة، ومن الهجرةِ إلى يومِنا هذا وهو سنةُ خمسٍ وخمسين وثلثمائة فذلك سبعةُ آلافٍ وأربعُ مائةٍ وخمسَ عشرَ سنة.

وأصَبْتُ في كتابِ أخبارِ زرنج قالَ: كانَ بينَ آدمَ والطوفانِ ألفا سنةٍ وستّ وخمسون سنةٍ، وكان بينَ نوحٍ وإبراهيمَ تسع مائة سنة وثلاثُ وأربعون سنة، وكان بينَ نوحٍ وإبراهيمَ تسع مائة سنة وثلاثُ وأربعون سنة، وبينَ إبراهيمَ وموسىَ خمسُ مائة وستُّ وسبعون سنة، وبينَ موسى وسليمانَ ستّمائةَ وإحدى وثمانون سنة، وبينَ سُلَيمان وشابيل وفارسَ، وبَينَ سند مائتان وستّون سنة، وبينَ سيذ وعيسى ومحمّد ﷺ خمسُ مائة وثمان وتسعون سنةً، ومن مولدِ النبيّ ﷺ إلى يومنا هذا أربعُ مائة وخمسُ وستّون سنة، وعُمرُ آدمَ ألفُ سنةٍ فذلك سبعةُ آلافٍ وتسعُ مائةٍ وتسعون سنة.

وفي روايةِ محمد بن إسحٰق فيما يرويه عنه يونسُ بنُ بكير[2] قالَ: كانَ من آدمَ إلى نوحٍ ألفُ ومائتا سنة، ومن نوحٍ إلى إبراهيمَ ألفُ ومائة وإثنتان وأربعون سنة، ومن إبراهيمَ إلى موسى خمسُ مائة وخمسُ وستّون سنة، ومن مُوسى إلى داودَ خمسُ مائة وتسعُ وستّون

---

(١) عثمان بن عبد الله بن محمد بن خرزاذ الطبريّ، نزيل انطاكية وعالمها، ولد قبل المئتين، روى عن الطيالسي والحكم بن موسى وغيرهما، وروى عنه النسائي وغيره، وقال أبو يعقوب الأذرعي: توفي عثمان بن خرزاذ بأنطاكية سنة إحدى وثمانين ومئتين. «سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٨١».

(٢) الإمام الحافظ الصدوق، صاحب المغازي والسيّر، يقال له: أبو بكير، حدّث عن الأعمش ومحمد بن أسحٰق وغيرهما وروى عنه يحيى بن معين، وسفيان بن وكيع وغيرهما (ت ١٩٩ هـ) «سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٤٨».

سنة، ومن داودَ إلى عيسى ألفُ وثلثمائة وخمسون سنة، ومن عيسى إلى محمّدٍ ﷺ ستّمائةُ سنة، فذلك خمسُ آلافٍ وأربعُ مائة وستّ وعشرون سنة سِوَى مُدّة عُمر آدمَ وتأريخُ النبيّ ﷺ.

ورأيتُ في كتبِ بعضِ أهل التنجيمِ ذكروا تواريخَ الأنبياءِ إلى أوّلِ سنةِ خمسين وثلثمائة لهجرةِ النبيّ ﷺ، سنةِ ستِّ آلافٍ وسبعِ مائة وستّين لآدمَ عليه السلام، سنةِ خمسةِ آلافٍ وسبعين وثلثمائة لمولدِ نوحٍ عليه السلام، سنةِ أربعةِ آلافٍ وأربعةٍ وستّين وثلثمائة وثلاثة وعشرون يوماً لغرقِ نوحٍ عليه السلام، سنةِ ثلاثة ألفٍ وستٌّ وأربعين وأربع مائة لأبراهيم عليه السلام، سنة ألفين وأربعٍ وتسعين وتسعِ مائة لموسى عليه السلام، سنةِ ألفٍ وثلاث وسبعين ومائتين لذي القرنين، سنةِ ألفٍ وستّين وستّمائة لبخت نصرّ، سنةِ ألفٍ وخمسٍ وثمانين ومائتين لبطليموس، صاحب المجسطي، سنةِ ألفٍ وثمان وستّين وتسعِ مائة لعيسى عليه السلام، ستّةِ آلاف وثلثمائة وثلثين ليزدجرد بن شهريار آخرِ ملوك العجم، سنةِ ثمان وأربعِ مائةٍ للفيلَ، قال: وفيه نبذاً نبذاً النشو، وخرجتْ الكواكبُ من أوّلِ دقيقةٍ في الحملِ إلى أوّلِ يومٍ من هذه السنةِ ألفا ألف ألف وثلثمائة وتسعة وأربعون ألف ألف واحد وعشرون ألفاً وتسع مائة وخمسون سنة وثلثمائة وتسعة وخمسون يوماً وإحدى عشر دقيقة وثوانٍ واللهُ أعلمُ وأحكمُ، لا يعلمُ غيرُه.

وقدْ روى هُمامُ عن قتادة عن عكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنه قالَ: كانَ بين آدمُ وبينَ نوحٍ عشرةُ قرونٍ كلُّهم على شريعةٍ من الحقِّ وتلا: ﴿كان الناس أمّة واحدةً﴾ [البقرة: ٢١٣] الآية، وروى الواقديُّ[1] كان بينَ آدمَ ونوحٍ عشرةُ قرونٍ، والقرنُ مائةُ سنةٍ، وبينَ نوحٍ وإبراهيمَ عشرةُ قرون، وبينَ إبراهيمَ وموسى عشرون قرناً، وروى وهبُ قال كان بين آدمَ ونوحٍ عشرةُ أباً، وبينَ إبراهيمَ ومحمّدٍ ثلاثون أباً، هذا ما رواه المسلمون وأهلُ الكتابِ.

وأمّا الفُرسُ والمجوسُ فإنّ الرواياتِ عنهم مختلفةٌ ففي كتبِ بعضِهم أنّ من انقضاءِ مُلكِ بني ساسان أربعةُ آلاف سنةٍ وأربع وأربعون سنة وعشرةُ أشهُر وخمسةُ أيّام، ومنهم مَنْ يحسبُ هذا الحسابَ عن هوشنكِ بَعدَ الطوفانه، ومنهم مَن يحسبُ من كيومرث[2]، ويزعمُ

---

(١) محمد بن عمر، من أقدم المؤرخين في الإسلام، ولد بالمدينة وأقام ببغداد حيث تولى قضاءها. من مؤلفاته «المغازي» (ت ٨٢٢ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) من المجوس، أثبتوا أصلين: النور أزلي والظمة محدثة، ويقولون: المبدأ الأول من الأشخاص كيومرّث أوزوران الكبير، يقولون أتباعه أنّه آدم عليه السلام، وتفسير كيومرّث: الحي الناطق. «الملل=

أنّه كانَ قبلَ آدمَ وأنّ آدمَ نبتَ من دمِهِ، وبعضهُم يقولُ: هو ابنُ آدمَ، وحُكي عن بعضِ علمائهم أنّه قرأ في عِظةٍ لزردشت ذِكرَ ملوكٍ ملكوا الأرضَ قبلَ هوشنك منهم رتّى ملكَ النّاسَ رقابَهم وأموالَهم، ومنهم رتى، ومنهم أفرهان واللهُ أعلمُ وأحكمُ، فليس لنا في كتابِ الله الذي ل أيدينا ولا في الخبرِ الصادقِ عن نبيّنا ﷺ ما يوجبُ القطعَ عليه ويوجبُ اليقينَ بشيءٍ منه، فليس الاّ الروايةُ كما جاءَتْ وأجازةُ ما هو ممكنٌ منها والسلام.

[رواية أهل الأخبار فيما بقي من العالم]:

روى عبدُ المنعمِ بن إدريسَ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «إنّما عُمرُ هذهِ الأمّةِ عمرُ بني إسرائيلَ ثلثمائة سنةٍ» قَالَ الرّاوي: قَبلَ أن تصيبَهم الفِتَنُ والبلايا، وعبدُ المنعمِ غيرُ ثِقَةٍ، ومع ما فيه من الهمّةِ لم يلقَ ابنُ عبّاسٍ ويُشبه إنَ كانتِ الروايةُ عن ابنِ عبّاسٍ أنْ يكونَ ذكرُ ثلثمائة سنة زيادةٍ ليسَ من نفسِ الروايةِ لإحاطةِ العِلم بأنّ عُمرَ بني إسرائيلَ زادَ على ثلثمائة بأضعافِها؛ ورُوي أيضاً أنّه ﷺ قال: «يكونُ لأمّتي نِصفُ يوم مقدارهُ خمسُ مائة سنةٍ» وهذه الروايةُ في الضَعْفِ والوهمِ ليستْ بدونِ الأولى وروى أبو جعفرُ الرّازي عن أبيه عن الربيعِ بن أنَسٍ أنّه قَال في آلم وآلمر وآلمص وسائر الحروف التي في أوائل السُورِ ما منها حرفٌ إلاّ وهو في مدّةِ قومٍ، وفي روايةِ الكلبّي أنّ حُيَيَ بن أخطب لمّا تلى عليه النبيُّ ﷺ ﴿آلَمَ﴾ [الروم: البداية] قال: إنْ كنتَ صادقاً فإنّي أعلمُ ما أُنحلُ أمّتك من السنينِ، وهو إحدى وسبعون سنةٍ من حسابِ الجُمَّل، فتلا عليه النبيّ ﷺ «آلمر وآلمص وآلر وحروفاً آخر» فقَالَ لهمْ بعضهُم ما يُدريكَ لعلّه يجمعُ له ذلك كلّه فنزلَ: ﴿وما يعلمُ تأويلَه إلاّ الله﴾ [آل عمران: ٧] قَالَ الكلبيُّ: يعني منتهى أجلِ هذه الأمّةِ، فإن صحّتِ الروايةُ فضربُ الحدِّ فيه باطلٌ؛ وحدّثني أبو نصر الحرشيّ[1] بفرجُوط: قريةٍ من الصّعيدِ، وكان يقرأ كُتبَ الأوائلِ في كتابِ دانيالَ مسطوراً: بقاءُ أمّةِ محمّدٍ ﷺ ألفُ سنةٍ، وفناؤُهم بالسّيفِ، وقَالَ بعضهُم: وجدتُ في كتابٍ إنْ أحسنتْ هذه الأمّةُ فبقاؤُها ألفُ سنةٍ، وإنْ أساءتْ فبقاؤُها خمسُ مائةَ سنةٍ وأجمعوا أنّ هذه الأمّةَ آخرُ الأممِ، ولا بُدّ لها من نهايةٍ كما انتهتِ الأمُم قبلَهم، وصحّ الخبرُ عن النبيّ ﷺ أنّه قَالَ «بُعثتُ والساعةُ كهاتين» وأشار

والنّحل».

(١) الإمام الحافظ البارع علي بن سراج الحرشي، مولاهم المصري، صاحب التصانيف، أخذ عن أبي عمير عيسى بن النحاس، وغيره، وحدّث عنه الشافعي والعسّال وغيرهما. قال الدارقطني: كان يحفظ الحديث، (ت ٣٠٨ هـ) «سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٨٣».

بسبَّابتهِ الوُسطَى، قال اللهُ تعالى: ﴿وما يُدريكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ﴾ [الشورى: ١٧] وقَالَ: ﴿لا تأتيكمُ إلاّ بغتةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقَالَ: ﴿لا يعلمُها إلاّ هو﴾ [الأنعام: ٥٩] فأخفاها وقربَها واستأثرَ بعلِمها دونَ علمهِ، ولما سألَ النبيّ ﷺ جبريلُ عليه السلام قال: «ما المسؤول بأعلمَ من السائل»، قال: صدقتَ، فأخبرَ النبيُّ ﷺ عن نفسهِ وجبريل أنهما لا يعلمان شيئاً من ذلك، وصدّقَه في ذلك جبريلُ، فمن ادّعى أنّه يعلمُ كم ما مَضى منها، وكم بقي فقد صرّحَ بعلمِ ما طوَى اللهُ علمَه عنِ العبادِ اللّهمّ إلاّ أنْ يذهبَ في أنْ يجعلَ سبعةَ آلافِ سنةٍ مدّةً من المُدَدِ ابتداؤُها هبوطُ آدمَ وانقضاؤُها ابتداءُ سبعةِ آلاف سنةٍ، ثُمّ اللهُ أعلمُ بما هو كائنٌ بعد، فهذا مذهبٌ إذْ لا يعلمُ أحدٌ ما كانَ قبلَ آدمَ، وما هو كائنٌ بَعدَ انقضاءِ هذا العالمِ إلاّ اللهُ تباركَ وتعالَى، ورُوي عن عبد الله بنِ عُمر قال: يطعمُ هذه الأمّة ثلثمائة سنة وثلاثين سنةً وثلاثين شهراً وثلاثين يوماً ثُمّ ينقضي.

[اشراط السّاعة وعلاماتها]:

حدّثنا محمدُ بن الحسين حدثنا عُمر بنُ موسى العرّازُ حدثنا حمّادُ بن زيدٍ عن عليّ بن زيدٍ عن أبي نصرٍ عن أبي سعيدٍ الخُدْري رضي الله عنه قال: صلّى بنا رسولُ الله ﷺ صلاةِ العصرِ ثمّ قامَ خطيباً فلمْ يدعْ شيئاً يكونُ إلى يوم القيامةِ إلاّ خبّر به حَفِظَهُ مَنْ حفَظِه ونسِيَهُ مَن نسيَهُ في حديثٍ طويلٍ قَالَ في آخرهِ وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيءٌ فقال: «إلاّ أنّه لم يبقَ من الدّنيا إلاّ كما بقي من يومِكم هذا» ورُوينا عنِ الحسنِ أنّ النبيّ ﷺ قَالَ: «إنّما مَثَلي ومَثَلَكم كقومٍ خافُوا عَدُوًّا فبعثُوا رَبِيَّةً لهمُ فلمّا فارقَهم إذا هو بنواصي الخيلِ فخشي أن يسبقه العدوُّ إلى أصحابهِ فلمَع بثوبهِ، وقال: يا صباحاه وإنّ الساعة كادتْ تسقني إليكم» واعلمْ أنّه ليسَ من شريطةِ هذا الكتاب روايةُ الأسانيدِ وتصحيحُ الأخبارِ، لأنّ عامّتها مستغنيةٌ بظهورِها عن السّندِ، قَالَ الله تعالى: ﴿اتّقوا اللهَ ولتنظرْ نفسٌ ما قدّمتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] ومن هذا البابِ حديثُ أبي الطفيلِ عن أبي سُرَيْمة عن حذيفة ابنِ أسيد قَالَ: أشرفَ علينا رسولُ الله ﷺ ونحنُ نتذاكرُ الساعةَ فقال: «أمّا أنّها لا تقومُ حّتى تكون عشرُ أياتٍ» فذكرَ الدخانَ والدجّالَ ويأجوجَ ومأجوجَ ونزولَ عيسى وطلوعَ الشمسِ من مغربِها وثلاثَ خسوفاتٍ: خسفٍ بالمشرقِ وخسفٍ بالمغرب وخسفٍ بجزيرة العربِ وآخرُ ذلك نارٌ من قعرِ عدنٍ تسوقُ النّاسَ إلى المحشرِ، فيُقالُ: غدتِ النّارُ فاغدوا وراحتْ فروحوا، وتغدوا وتروحوا، ولها ما سقَطَ؛ ومنه حديثُ سعيد بن المسيّب عن علي بن أبي طالب عـم أنّ النبيَ ﷺ قال: «فإذا عملَتْ أُمتي خمسَ عشرَ خصلةً حلَّ بها البلاءُ: إذا اتّخذوا المغانمَ

دَوْلاً، والأمانةَ مغنماً، والزكاة مغرماً، والتعلّم لغيرِ الدّينِ، وأطاعَ الرجلُ إمرأتَه، وعصى أُمَّه، وأدنى صَديقَه، وأقصى أباه، وارتفعت الأصواتُ في المساجدِ، وكانَ زعيمُ القومِ أرذلَهم، وأُكرمَ الرجلُ مخافةَ شرّه، وظهرتِ القيانُ والمعازفُ، وشُربتِ الخمورُ، ولُبسَ الحريرُ، ولعنَ آخرُ هذه الأُمّةِ أوّلَها، فتوقّعوا عندَ ذلك ريحاً حمراءَ وخسْفاً ومَسْخاً وقذفاً» وفي حديثِ ابن عُمر عن عُمر رضي الله عنه أنّ جبريل لمّا أتى النبيّ ﷺ يسألُه عن أمرِ الدّينِ فقال: متى الساعة؟ قالَ: «ما المسؤول بأعلَم بها من السائلِ» قال: فما أمَارَاتُها؟ قال: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ ربّتَها، وأن ترى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ ويتطاولونَ في البنيانِ، قال: صدقتَ، وفي حديثِ أبي شجرة الحضرمي[1] عن عمر رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ اللهَ رفعَ إليَّ الدنيا، وأنا أنظرُ إليها وإلى ما هو كائنٌ فيها إلى يومِ القيامةِ كما أنظرُ إلى كفّي» هذه حلتان من اللهِ حلّاه لنبيّه كما حلّى للنبيّين قبلَه، ومنه خبرُ خروجِ الهاشميّ والسُفْيانيّ والقحطانيّ والتركِ والحبشةِ والدجّالِ ويأجوج ومأجوج وخروجِ الدابّةِ والدّخانِ ونفخِ الصُورِ، ثم ما ذُكرَ بَعدَ ذلك من أحوالِ الآخرةِ لَيسَ ينبغي أن يضيقَ صدرُ الإنسانِ بما يُورَدُ عليه من مثلِ هذه الأخبارِ، أو يُروى له لأنّ ذلك كلّه مُمكنٌ جائزٌ، وإذا جَازَ أن يظنّ الرجلُ شيئاً فيصدقُ ظنّه ويركنُ فتصبحُ ركانتُه، ويتكلّم بشيءٍ فَيَقَعُ بوفاقِ كلامِهِ، أو يحكمُ من جهةِ الحسابِ فيصبحُ حكمُه، أو يرى رأياً فيرشدُ في رأيه، أو تخيّلَ إليه أو في منامِه أو يؤيّدُ بقوّةِ الروحِ فيوجدُ له تصديقٌ فيما يحدّثُ له فلا يجوزُ أن يُصيبَ فيما يخبرُ به من جهةِ الوحي والنبوّةِ أيّةَ حالةٍ تُؤَخّرُ درجةَ النبوّةِ عن درجةِ ما ذكرناه مع وجودِ الغلطِ الظّاهرِ المتفاوتِ البيّنِ في كلِّ ما ذكرنا إلاّ النبوّةَ وَحْدَها التي لا يأتيها الباطلُ من بينِ يديها ولا مِن خلفِها اللّهُمّ إلاّ أن يكونَ المستترون بالإسلامِ دسّوا في الأخبارِ مناكيرَ وفواحشَ حدّها تفاد في الحديث وتهذّبُها دلائلُ القرآنِ واللهُ المستعانُ؛ ومِن أعوزِ الأشياءِ على قَوْدِ النفسِ إلى قولِ هذه الرواياتِ وحبسِ القلبِ عليها معرفةُ وجوبِ النبوّةِ وصِدْقِ الأنبياءِ وجوازِ كونِ ما هو ممتنعٌ في العقلِ بوجودِ الدّلالةِ على حَدَثِ العالمِ، وإيجاده لا من غير سابقةٍ فمَنْ تيقّن ما ذكرناه لم يحدسْ قلبُه ما يردُ عليه بعدَ ذلك السلام.

---

(١) قال جعفر: ليس له صحبة ولا أدري، كان من الرواة المُقلين عن الرسول، روى عنه أبو الزاهرية، وقد روى عن ابن عمر. «أسد الغابة ٥/١٦٣».

[الفِتَن والكوائن في آخرِ الزمان]:

في روايةِ الزُهريّ عن أبي إدريس الخولاني عن حذيفة بن اليمانِ قَالَ: أنا أعلمُ النّاسِ بكلِّ فتنةٍ هي كائنةٌ إلى يوم القيامةِ وما لي أنْ يكونَ رسولُ الله ﷺ أسرَّ إليَّ في ذلك شيئاً لم يحدّثْ به غيري، ولكنّه حدّثَ مجلساً أنا فيه عن الفتنِ التي يكون منها صِغار ومنها كِبارٌ، فذهب أُولئِكَ الرَهْطِ كلُّهم غيري؛ وفي حديثِ ابن عُيينة عن الزُهريّ عن عُروة عن كُرْزِ ابن علقمة أنّ النبي ﷺ ذَكَرَ فِتَناً، فقَالَ رجلٌ: كلاّ واللهِ إنْ شاءَ اللهُ، فقَالَ: «والذي نفسُ محمّدٍ بيده لا يعوزنّ فيها أساوِدُ حَيًّا يضرُبُ بعضكُم رقابَ بعض» قال الزُهريّ: الأَسْوَدُ الحيّة إذا نهشتْ ترّت، ثُمّ ترفعُ رأسَها، ثُمّ تنتصبُ، قال حذيفةُ كانَ النّاسُ يسألونَ رسول الله ﷺ عنِ الخيرِ وكنتُ أسألُه عن الشّرِّ مخافةَ أن يُدركني، فقلتُ: يا رسولَ الله إنّا كُنّا في جاهليّةٍ وشرٍّ وقَدْ جاءَ اللهُ بهذا الخيرِ فهلْ بعدَ الخيرِ من شرٍّ؟ قال: «نعم وفيه دخُنٌ من جلدتِنا يتكلّمون بألسِنَتِنا» دعاه على أبوابِ جهنّم، مَنْ أطاعوه أخموه فيما رواه نعيمٌ عن الوليدِ بنِ مُسلمٍ عن أبي جابر عن بُشرِ بنِ عبد الله عن أبي إدريس الخولاني عن حذيفة رضي الله عنه؛ وفي رواية ابن عُيَيْنة عن الزُهريّ عن عُروة عن أُسامة قَالَ: أشرفَ النبيُّ ﷺ على أُطم[1] فقَالَ: «إنّي لأرى مواقعَ الفتنِ خِلالَ بيوتِكم كمواقع القطرِ فهل ترون ما أرى» حدّثنا نعيمُ ابنُ حمّادٍ حدّثنا محمّدُ بن يزيدٍ عن أبي جلدة عن أبي العالية قَالَ: لمّا فُتحتْ تُستر[2] وجَدَنا في بيتِ مالِ الهرمزانِ[3] مُصحفاً عندَ رأسِ ميّتٍ على سريرٍ يُقالُ هو دانيالُ فيما يُحسَبُ، قَالَ: فحملناه إلى عُمر فأنا أوّلُ العربِ قرأتُه، فأرسلَ إلى كعبٍ فنسخهُ بالعربيّةِ؛ فيه ما هو كائنٌ يعني من الفتنِ إلى يومِ القيامَةِ؛ حدّثنا نعيمُ عن عبدِ القدّوسِ عن ارطأةِ بن المنذرِ عن حَمزة بنِ حبيبٍ عن سُلمةَ بن نفيل أنّ النبيّ ﷺ قال: «بين يدَي الساعةَ مُوتانٌ[4] شديدٌ وبَعدَه سنواتُ الزلازلِ» حدّثنا نعيمُ عن بقيّةٍ عن صفوان عن عبدِ الرحمٰن بن جبيرٍ عن عوفِ بن مالكٍ الأشجعي قال: قَالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «اعدُدْ ستًّا بينَ يدي الساعةَ أوّلهنْ موتي» فاستبكيتُ حتّى جَعلَ رسول الله ﷺ يُسكتني، ثُمّ قالَ: «إحدى والثانيةُ: فتحُ بيتِ المَقْدِسِ

---

(١) الأُطُم: كلُّ بناءٍ مرتفع.

(٢) تُستر: مدينة في غربي إيران، ولاية خوزستان، فتحها العرب في عهد عمر بن الخطاب.

(٣) من أمراء الجيش الفارسي، في معركة القادسية (٦٣٧) انهزم إلى خوزستان حيث قاوم العرب مقاومة عنيفة.

(٤) مُوتان: موت يقع في الماشية، ويُقال: هذا مُوتان الفؤاد: أي بليد.

قُلْ اثنتان، والثالثةُ: موتان يكونُ في أُمّتي كعقاص الغنم وقُلْ ثلاثَ، والرابعةُ: فتنةٌ عظيمةٌ تكون في أُمّتي لا تُبقي بيتاً في العربِ إلاّ دخلَتْه، والخامسةُ: هدنةٌ بينَ العربِ وبينَ بني الأصفرِ، ثُمّ يَشِرّون إليكم فيقابلونكم قلِ خمس، والسادسةُ: يَفيضُ المالُ فيكم حتّى يُعطيَ أحدكم المائة الدّينارِ فيتسّخطها». حدّثنا نعيمُ عن أبي عُيينة عن مُجالدٍ عن عامرٍ عن صَلّة عن حُذيفةٍ يقولُ: في الإسلام أربعُ فِتَنٍ تسلُّمهم الرابعةُ إلى الدّنيا: الارفاض الظلمة، حدّثنا نعيمُ حدّثنا يحيى بنُ سعيدٍ القطّانِ عن عبدِ الرحمن بنِ الحسن عن الشعبي عن عبدِ الله قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ «يكونُ في أُمّتي أَربعُ فتنٍ يكونُ في الرابعةِ الفناءُ» وروى أنّه تكونُ فتنةٌ يفرجُ فيها عقولَ الرجال، حدّثنا نعيمُ عن حمزةَ عن إبراهيمَ بن أبي عَبلة قَالَ: بلغني أنَّ الساعةَ تقوم على قومٍ أخلاقُهم أخلاقُ العصافيرِ؛ حدّثنا نعيمُ عن محمّد بنِ الحارثِ عن ابنِ السليماني عن أبيه عن ابنِ عُمر قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ «لا تقومُ الساعةُ حتّى يمرَّ الرجلُ بقبرِ صاحبِهِ فيقولُ لودِدْتُ أنّي مكانَه لما يلقى من الفتن» حدّثنا نعيمُ عنْ أبي إدريس عن أبيه عن أبي هُريرة قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ «أوّلُ النّاسِ هلاكاً فارسٌ، ثم العربُ على أثرهم» وفي روايةِ معاوية بن صالحٍ عن علي بن أبي طالبٍ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: النجومُ أمانٌ لأهلِ السماءِ فإذا طمسَتِ النجومُ أتى أهلُ السماءِ ما يوعدونَ، وأنا أمانٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدونَ، وأصحابي أمانٌ لأمّتي فإذا ذهبتْ أصحابي أتى أُمّتي ما يوعدونَ، والجبالُ أمانٌ للأرضِ فإذا نُسفتِ الجبالُ أتى أهلَ الأرضِ ما يوعدونَ، وقد رواهُ عَطاءٌ عن ابنِ عبّاسٍ وسُلمة بن الأكوع عن النبيّ ﷺ، ورواه عبدُ الله بنُ المباركِ عن محمّد بن سُوقة عن عليّ بن أبي طلحة عن النبيّ ﷺ أنّه قَالَ: «لا تقومُ الساعةُ إلاّ على شِرارِ الخلائقِ يتسافدون[1] على ظَهرِ الطريقِ تسافُدُ البهائمِ» يقولِ أَمثَلَهم لو نحيتمُوه عن الطّريقِ؛ وأخبر أبو العاليةِ: لا تقومُ الساعةُ حتّى يمشي إبليسُ في الطّريقِ والأسواقِ، ويقول: حدّثني فلانٌ عن رسولِ الله ﷺ بكذا وكذا: وقَالَ بعضُ أهلِ التفسيرِ في ﴿حمٓ عسٓقٓ﴾ [الشورى: ١] أنّ الحاء: حَربُ، والميمَ مِلكُ بني أميّة، والعينَ عبّاسيةٌ، والسينَ سفيانيّة، والقاف القيامة فمِنْ هذه الفِتَنِ ما قَد مضى وانقضى ومنها ما هو مُنتظَرٌ.

[خروج التّرك]:

حدّثنا يعقوبُ بنُ يوسفَ قال: حدّثنا أبو العبّاسِ السرّاجِ قال قتيبة بنُ يعقوب بنِ

---

(١) يتسافدون: يتجامعون.

عبدِ الرحمٰن الإسكندريّ عن سُهَيْل عن أبي صالحٍ عن أبيه عن أبي هُريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ حتّى تقاتلَ المسلمونَ التركَ، قومٌ وجوههُم كالمَجَانِّ المُطْرَقةِ، صغائر الأعْيُن خُنْسُ الأنوفِ[1] يلبسونَ الشّعرَ، ويُمسُون في الشّعر» وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: ليكوننّ في ولدي حتّى يغلبَ عزُّهم الحُمر الوجوهِ كالمجانِّ المطرقةِ، واختلفتِ النّاسُ في تأويلِ هذا الخبرِ فزَعمَ قومٌ أنّ هَلاكَ سُلطانِ بني هاشمٍ على أيدي الأتراكِ الإسلاميةِ، وزعم آخرون: أنّه يكونُ على أيدي كفرةِ التُّركِ ويأخذونه عن الأتراكِ الإسلاميّةِ؛ وقَالَ قومٌ: بل هُمْ أهلُ الصّينَ يستولون على هذه الأقاليمِ واللهُ أعلمُ، وسمعتُ مَنْ يَزعمُ أنّه مضى، وكَانَ يقول: مُذ دَخلَ تحكّمُ الماكاني ببغداذ ضَعُفَ سلطانُ بني هاشم.

الهدّة في رمضان:

حدّثنا البيروتي عن الأوزاعي عن عبدِ الله بن لبانة عن فيروزِ الديلميّ عن النبيّ ﷺ أنّه قَالَ: «تكون هدّةٌ في رمضانَ تُوقظُ النائمَ وتُفزِعُ اليقظانَ» هذا في روايةِ قَتادة؛ وفي رواية الأوزاعيّ: يكون صوتٌ في رمضانَ في نصف من الشّهرِ يَصْعَقُ فيه سبعون ألفاً، ويتفلّق[2] له سبعون ألف بكرٍ، قَالَ: ثمّ يتبعهُ صوتٌ آخرُ فالأوّلُ صوتُ جبريل عليه السلام، والثاني: صوتُ إبليس عليه اللعنة، قَالَ: الصوتُ في رمضانَ والمَعْمَعةُ في شوّالَ، وتميّزُ القبائلِ في ذي العقدةِ، ويغارُ على الحاجِّ في ذي الحَجّة، والمحرّمُ أوّلُه بلاءٌ وآخرهُ فرحٌ؛ قالوا: يا رسولَ الله مَنْ يسلمُ منه، قَالَ: مَنْ يلزمُ بيتَه ويتعوّذُ بالسجودِ؛ وفي روايةِ قتادة: تكونُ هدّةٌ في رمضانَ، ثمّ تظهرُ عِصابةٌ في شوّال، ثم تكونُ معمةٌ في ذي القعدة، ثمّ تسلبُ الحاجّ في ذي الحجّةِ، ثم تنتهكُ المحارمُ في المحرّمِ، ثم يكونُ صوتٌ في صَفر، ثم تتنازعُ القبائلُ في شهرِ ربيع الأوّلِ، ثم العجبُ كلُّ العجبِ بينَ جُمادى ورَجب، ثم يا فِئَةٌ مُغْنيةٌ خيرٌ من دسكرةٍ[3] تغلُّ مائةَ ألفٍ.

ذكرُ الهاشمي الذي يخرجُ من خُرَاسان مع الراياتِ السود:

حدّثنا يعقوبُ بنُ يوسفَ السجزيّ، حدّثنا أبو موسى البغويّ، حدّثنا الحسنُ بنُ إبراهيم البياضيّ بمكّة، حدّثنا حمّادُ الثقفي، حدّثنا عبدُ الوهّاب بن عَطاء الخفّاف، حدّثنا

---

(١) خنّس الأنوف: خُنّس: جمع خانس، والخانس: المغيّب.

(٢) يتفلّق: يتشقق.

(٣) الدّسكرة: الأرض المستوية أو القرية العظيمة.

خالدُ الحَذَّاءُ عن أبي قِلابة عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ أنّه قَالَ: «إذا رأيتم الراياتِ السُودَ من قِبَل خُرَاسان فاستقبلوها مشياً على أقدامِكمُ لأنّ فيها خليفةَ الله المهديّ» وفي هذا أخبارٌ كثيرةٌ، هذا أحسنُها وأولاها إنْ صحّتِ الرواية.

وقد رُوي فيه عن ابن العبّاس بن عبدِ المطلب أنّه قَالَ: إذا أقبلتِ الراياتُ السُودُ من المشرقِ تُوطئون للمهديّ سلطانُه؛ واختلفَ النّاسُ في تأويلِ هذه الأخبارِ فقَالَ قومٌ: قد نَجِزتْ هذه؛ وهو خروج أبي مُسلمٍ[1]، وهو أوّلُ مَنْ عقَدَ الراياتِ السُودِ، وسوَّدَ ثيابهَ، وخرج مِن خُراسانَ فوطّأ لبني هاشم سلطانَهم؛ قالوا: وهذا كما يُقال: فَتحُ عُمر السوادَ، وقَطعَ الأميرُ اللصَّ، فيضافُ إليهم مَا كانَ من فعلِ غيرِهم، إذْ كانَ ذلك بأمرهِم؛ وقال آخرون: بل هو لم يأتِ بعدُ وإنّ أوّل انبعاثِ ذلك من قبلِ الصّينِ من ناحيةٍ يُقالُ لها ختن[2] بها طائفةٌ من ولدِ فاطمةَ عليها السلام من ظهر الحُسين ابنِ عليّ، ويكونُ على مُقدِّمتهِ رَجُلٌ كوسج[3] من تميم[4] يُقالُ له شُعيب بنُ صالحٍ مولدُه بالطالَقانِ[5] مع حكاياتٍ وأقاصيصَ فيها العجائب من القتل والأَسْرِ والله أعلمُ.

[خروج السفياني]:

في روايةِ هشام بن الغارِ عن مكحولَ عن أبي عُبيدة بنِ الجرّاحِ عن رسولِ الله ﷺ قال: «لا يزالُ هذا الأمرُ قائماً بالقِسْطِ حتّى يَثلِمه[6] رجلٌ من بني أُميّة» وفي روايةِ أبي قَلابة عن أبي أسماء عن ثوبان أنّ رسولَ الله ﷺ ذكرَ ولد العبّاسِ فقَالَ: «يكونُ هلاكهُم على يدَيْ رجُلٍ من أهلِ بيتِ هذه» وأومى إلى حبيبةِ بنتِ أبي سفيانَ، وفيما خُبّر عن علي بن أبي طالبٍ صلواتُ الله عليه في ذكرِ الفتنِ بالشامِ قال: فإذا كانَ ذلك خرَجَ ابنُ آكلة الأكبادِ على

---

(١) قائد كبير كان أحد أقطاب الحركة الدينية السياسية التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، قتله الخليفة العباسي المنصور سنة (١٣٧ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) ختن: مدينة في تركستان الصينيّة على حدود التبت، كان فيها على ما يقال كنيستان للنصارى في القرن الأول.

(٣) الكوسج: الذي لحيته على ذقنه لا على العارضين، أو الرجل الناقص الأسنان.

(٤) تميم: قبيلة عربية شمالية، أنجبت أعظم شعراء الجاهلية، لغتها العربية حجة بين لغات القبائل. «منجد الأعلام».

(٥) الطالقان: مدينة قرب أصفهان، مسقط رأس الوزير الصاحب بن عبّاد.

(٦) يثلمه: يحدُث فيه خللاً.

أثره ليستولي على منبرِ دمشقَ، فإذا كانَ ذلكَ فانتظروا خروجَ المهديّ؛ وقد قَالَ بعضُ النّاسِ: إنّ هذا قد مَضى وذلك خروجُ زيادِ بن عبد الله بن خالدِ بن يزيدِ بن معاوية بن أبي سُفْيان بحلبَ، وبيّضوا ثيابَهم وأعلامَهم وادّعوا الخِلافةَ، فبعثَ أبو العبّاسِ عبدُ الله بن محمد بنِ علي بنِ عبد الله بنِ عبّاس أبا جعفرٍ إليهم فاصطلموهم[1] عن آخرِهم؛ ويزعمُ آخرون: أنّ لهذا الموعودِ شابًا وصفَه لم يوجدْ لزيادِ بنِ عبد الله، ثُمّ ذكروا: أنّه مع ولد يزيدِ بن معاوية بوجهه آثارُ الجدريّ وبعينهِ نقطة بياضٍ يخرجُ من ناحيةِ دمشقَ ويُثيب خيلَه وسراياه في البرِّ والبحرِ، فيبقون[2] بطونَ الحبالَى، وينشرونَ النّاسَ بالمناشيرِ، ويطبخونهم في القدورِ، ويبعثُ جيشاً له إلى المدينةِ فيقتلون، ويأسرون، ويُحرقون، ثمّ ينبُشون عن قبر النبي ﷺ وقبرِ فاطمةَ رضي الله عنها، ثُمّ يقتلون كلَّ مَنْ اسمه محمّد وفاطمة، ويصلبونهم على بابِ المسجدِ فعندَ ذلك يشتدُّ غَضِبُ الله عليهم، فيَخسِفُ بهم الأرضَ وذلك قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذْ فزِعوا فلا فوتَ وأُخِذُوا من مكانٍ قريبٍ﴾ [سبأ: ٥١] أي من تحت أقدامهم وفي خبرٍ آخَرَ: أنّهم يخربُون المدينةَ حتّى لا يبقى رائحٌ ولا سارحٌ، وُروي أنّ النبيّ ﷺ قَالَ: «ليتركنَ المدينةَ أحسنَ ما كانتْ حتّى يجيءَ الكلبُ فيشغر[3] على ساريةِ المسجدِ» قالوا: فلِمَنْ تكونُ الثمارُ يومئذٍ يا رسولَ الله، قَالَ: «لعوافي السّباعَ والطيرِ» قالوا: في الخبر: ثُمّ تسيرُ خيلُ السُفيانيّ تريدُ مكّةَ تنتهي إلى موضعٍ يُقالُ له بيداء، فينادي مُنادٍ من السماءِ يا بيداءُ بيدي بهم، فيخسفُ بهم فلا ينجو منهم إلاّ رجُلان من كلبٍ يقلبُ وجوهِهما في أقفيتهما يمشيان القهقرَى على أعقابِهما حتّى يأتيا السُفيانيَّ فيُخبرا به، ويأتي البشيرُ المهديَّ وهو بمكّةَ فيخرجُ مع إثنا عشرَ ألفاً فهم: الابدالُ والأعلامُ حتّى يأتيَ المباءَ فيأسرُ السُفيانيَّ، ويُغيرُ على كلبٍ لأنّهم تِباعُهُ ويسبي نساءَهم، قالوا: فالخائبُ يومئذٍ من خاب عن غنائمِ كلبٍ كذا الروايةُ مع حشوٍ كثيرٍ ومُحالاتٍ مردودةٍ واللهُ أعلمُ بما رُوي.

[خروج المهّدي]:

قد رُوي فيه رواياتٍ مختلفةً وأخبارَ عن النبيّ ﷺ وعن عليّ وابن عبّاسٍ وغيرِهم إلاّ أنّ فيها نظراً، وكذلك كلّ ما يروونه من حادثاتِ الكوائنِ إلاّ أنّها نسوقُها كما جاءَت، وأحسنُ ما

---

(١) اصطلوهم: استأصلوهم.

(٢) يبقون: يشقّون.

(٣) يشغر الكلب: يرفع إحدى رجليه ويبول.

جاءَ في هذا البابِ خبرُ أبي بكر بن عياشٍ عن عاصم بن ذرٍّ عن عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قالَ: «لا تذهبُ الدّنيا حتّى يلي أُمّتي رجُلٌ من أهلِ بيتي يواطىءُ اسمهُ اسمي» وفي روايةٍ أُخرى «لو لم يبقَ من الدّنيا إلاّ عصرٌ لبعثَ اللهُ رجلاً من أهلِ بيتي يملأُ الأرضَ عدلاً كما مُلئَت جَوْراً ليس فيه يواطئني اسمه» وللشِيعةِ فيه أشعارٌ كثيرةٌ وأسطارٌ[1] بعيدةٌ، وقد حدّثني أحمدُ بن محمّد بنِ الحجّاجِ المعروفِ بالسجزي[2] بالشيرجان[3] سنةَ خمسة وعشرين وثلثمائة قالَ: حدّثنا محمدُ بن أحمد بنِ راشد الأصفهانيّ، حدّثني يونسُ بنُ عبدَ الله الأعلى الشافعيّ، حدّثني محمّدُ بنُ خالدِ الجُنديُّ عن أبانٍ بنِ صالحٍ عن الحسنِ عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: لا يزدادُ الأمرُ إلاّ شدّةً، ولا الدّنيا إلاّ إدباراً، ولا النّاسُ إلاّ شُحاً، ولا تقومُ النّاسُ إلاّ على شَرارِ النّاسِ، ولا مهديّ إلاّ عيسى بنِ مريم، ثُمّ اختلفَ مَنْ أثبتَ الخبرَ الأوّلَ، فقَالَ بعضهُم: هو كانَ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتأوّلوا عليه قولَه وجدتمُوه هادياً مَهديًا؛ وزَعمَ قومٌ: أنّه كانَ المهديُّ محمّد بن أبي جعفر لقبّه المهديّ، واسمهُ محمّد، وهو مِن أهلَ البيتِ، ولم يَألُ جَهداً في إظهارِ العدلِ ونفي الجَوْرِ، وقِيلَ الطاوُسِ هو المهديّ الذي سمع به يعني عُمر بن عبدِ العزيز، قَالَ: لا إنّ هذا لا يستكملُ العدلَ، وإنّ ذاك يستكملهُ، وأنكرتْ الشيعةُ أنْ يكونَ إلاّ من ولدِ علي بن أبي طالبِ رضي الله عنه، ثمّ اختلفوا فقالوا: هو محمّدُ بنُ الحنفيّة لم يمُتْ، وسَيعُود حتّى يسوقَ العربَ بعصاً واحدةٍ، واحتجّوا بأنّ عَليًا دفَع إليه الرايةَ يومَ الجَملِ[4]؛ وقَالَ قومٌ يكونُ من ولدِ حُسين بن عليّ رضوان الله عليهما من بطنِ فاطمةَ رضي الله عنها لأنّه جَاهدَ في طلبِ الحقّ حتّى استُشْهِدَ؛ وقَالَ آخرون: بل يكونُ من ولد الحَسنِ عـم، ثمّ اختلفوا في حِلْيَتِهِ وهيأتِهِ، فقَالَ بعضهُم: يكون ابنَ أَمَةٍ أسمرَ العينينِ برّاقَ الثنايا في خدّه خَالٌ، وقَالَ قومٌ: مولدُه بالمدينةِ ومخرجهُ بمكّةَ يُبايَعُ بينَ الصفا والمروة[5] وزَعمَ آخرون: أنّه يخرجُ من

---

(١) أسطار: ما يكتب.

(٢) السجزي: أحمد بن محمد بن الحجاج، حسّاب له مؤلفات رياضية كثيرة أهمها «المخروطات» (ت ١٠٢٤ هـ).

(٣) الشيرجان: هي قصبة كرمان (مدينة بين كرمان وفارس). «سيرجان كما جاء في معجم البلدان ٣/٢٣٦».

(٤) يوم الجمل: معركة جرت بين عليّ بن أبي طالب، وطلحة والزبير وعائشة سنة (٣٦ هـ)، سميّت كذلك لأن عائشة كانت تثير حماس المناوئين لعلي وهي على جملها، أسرت ثم أطلق سراحها.

(٥) الصفا والمروة: من شعائر الله في الحج، هما صخرتان اكمتان قرب الكعبة وزمزم، يسعى الحاج =

أَلَمُوتَ[1] ومن ثمَّ سمَّوا بنو إدريس قيروان[2] المهديّة طَمعاً في أن يكونَ منهم، قالوا: ورفعَ الجورَ من أهلِ الأرضِ ويقيضُ المعدلةَ عليهم ويُسوّي بين الضعيفِ والقويّ، ويبلّغُ الإسلامَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، ويفتحُ القسطنطينيّة، ولا يبقَى أحدٌ في الأرضِ إلاّ دخلَ الإسلامَ، أو أدّى الفِدْية، وعندَ ذلك يتمُّ وعدُ اللهِ ليُظهِرَه على الدّين كلِّه؛ واختلفوا في مدّةِ عُمره فقِيلَ: يعيشُ سبعَ سنين، وقِيلَ تسعاً، وقِيلَ عشرين، وقِيلَ أربعين، وقِيلَ سبعين.

[خروج القحطاني]:

في روايةِ عبدِ الرزّاق عن مَعْمر عن أبي قُريب عن أبي سعيدِ المقبريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لا تقومُ الساعةُ حتّى يقفل القافلُ من رُومِيّة[3]، ولا تقومُ الساعةُ حتى يسوقَ النّاسَ رجلٌ من قَحطان[4]، واختلفوا فيه مَنْ هو؟ فرُوي عن ابنِ سيرين[5] أنّه قَالَ: القحطانيُّ رَجلٌ صالحٌ وهو الذي يُصلّي خلفَه عيسى وهو المهديّ، ورُوي عن كعبٍ أنّه قَالَ: يموتُ المهديّ ويُبايعُ بعدَه القحطانيّ، ورُوي عن عبدِ الله بن عُمرَ أنّه قَالَ: رَجلٌ يخرجُ بعدَ ولدِ العبّاسِ، ولمّا خَرجَ عبدُ الرحمٰن بن الأشعثِ على الحجّاج يسمّى بالقحطانيّ، وكتب إلى العُمّالِ من عبدِ الرحمٰن ناصرِ أميرِ المؤمنين فقِيلَ له: إنّ اسمَ القحطانيّ على ثلاثة أحرُف فقال: اسمي عبد، وليسَ الرحمٰنُ من اسمي، فدلّ أنّ هذا القحطانيّ كان مشهوراً عندَهم وقَدْ قَالَ كعبٌ ما هو بدونِ المهديّ في العدل.

[فتح قسطنطينية]:

رُوينا عن اسباطٍ عن السرّي في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لهم في الدّنيا خِزيٌ ولهُمْ في الآخرةِ

= بينهما سبعة أشواط.

(١) الموت: حصن في جبال البُرز شمال غربي قزوين، كان قلعة الإسماعيلية، بناه حسن الواعي للحق سنة (٨٦٠ هـ).

(٢) قيروان: مدينة في تونس مركز ولاية القيروان، أنشأها عقبة بن نافع سنة (٦٧٠ هـ) شهيرة بمسجدها.

(٣) روميّة: أو رما، عاصمة إيطالية، ومقر البابا، تقع على نهر التيبر في وسط البلاد، مدينة أثرية ودينية، لما تتضمنه من ذكريات التاريخ والآثار، والكنائس والمتاحف.

(٤) هو في عُرف العرب أبو القبائل اليمن العربية، انقسم بنو قحطان إلى فرعين: حمير وكهلات. ويُقال: إن قحطان هو أول من لبس التاج من ملوك اليمن. «منجد الأعلام».

(٥) أبو بكر محمد الأنصاري، فقيه، محدّث، مفسّر، ولد وتوفي بالبصرة، روى عن الإمام مالك وأبي هريرة، ينسب إليه «منتخب الكلام في تفسير الأحلام» (ت ١١٠ هـ). «منجد الأعلام».

عذابٌ عظيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤] قال: فتحُ قسطنطينيّة؛ وبعض المفسّرين يفسّرون: ﴿آلم غُلبت الروم﴾ [الروم: ١] على هذا أنّه كائنٌ؛ وذكروا أنّه يُباع الفرسُ من لانها بدرهمٍ؛ ويقتسمون الدّنانير بالجحفِ، قالوا: وبينَ فتحِ قسطنطينيّة وخروجِ الدجّال سبعُ سنين، فبيناهم كذلك إذْ جاء الصريخُ أنّ الدجّال في دارِكم، قَالَ: فيرفضون ما في أيديهم وينفرونَ إليه.

[خروج الدجّال]:

الأخبارُ الصحيحةُ متواترةٌ بخروجهِ بلا شكٍّ، وإنّما الاختلافُ في صفتهِ وهيأتهِ، قَالَ قومٌ: هو صائفُ بنُ صائدِ اليهوديّ عليه اللعنة: وُلِدَ عهدَ رسولِ الله ﷺ فكانَ أحياناً يحبو في مهدهِ، وينتفخُ في بيتهِ حتى يملأ بيتَه، فأخبرَ النبيُّ ﷺ بذلك فأتاه في نَفَرٍ من أصحابهِ، فلمّا نَظرَ إليه عرفَه فدعا اللهَ سبحانَه وتعالى فرفعَه إلى جزيرةٍ من جزائرِ البحرِ إلى وقتِ خروجهِ؛ وفي روايةٍ أخرى أنّ المسيحَ الدجّالَ قد أكلَ الطعامَ ومشى في الأسواقِ؛ ورُوي أنّ اسمَه عبدُ الله، وهو يلعبُ مع الصبيانِ، فقَالَ ابنُ صيّاد: أتشهدُ أنّي رسولُ الله، فقَالَ له النبيّ: «أشهدُ أنّي رسولُ اللهِ» فقَالَ ابنُ صيّاد: أتشهدُ أنّي رسولُ الله، فقَالَ النبيّ ﷺ: «إنّي قد خبأتُ لكَ خَبئاً» قَالَ: ما هو؟ قَالَ: «هو الدَخُّ» يعني الدُخانَ، فقَالَ النبيّ ﷺ: «أخْسَأْ ولنْ تعدو قدرَك» قَالَ عُمر: ائْذَنْ لي فأضرِبْ عُنقَه، فقَالَ رسولُ الله ﷺ؛ «دَعْهُ فإنْ يُكْنِهْ[1] فَلنْ تسلطَ عليه وإلاَّ يكُنْه فلا خير في قتلهِ» ثم دعا النبيّ ﷺ فاختُطِفَ؛ وجاء في الحديثِ: أنّه أغمّ جَفالَ الشعرِ بمكتوبٍ بينَ عينيه ك ف ر يقرأهُ كلُّ أحدٍ كاتبٌ وغيرُ كاتبٍ، واختلفوا في مخرجهِ، فقَالَ قومٌ: يخرجُ من أرضِ كوثى بالكوفةِ، واختلفوا في مَنْ يتبعه، قَالَ قومٌ: يتبعهُ اليهودُ والنساءُ والأعرافُ وأولادُ الموسوماتِ[2]؛ واختلفوا في العجائبِ التي تظهرُ على يديه؛ فقَالَ قومٌ: يسيرُ ـ حيثُ سارَ ـ معَه جنّةٌ ونارٌ، فجنّتُهُ نارٌ ونارُه جنّةٌ، وإنّه يدّعي أنّه ربُّ الخلائقِ فيأمرُ السماءَ فتمطرُ، ويأمرُ الأرضَ فتنبتُ، ويبعثُ الشياطينَ في صورةِ الموتى، ويقتلُ رجلاً ثُمّ يُحييه فيفتتن الناسُ، ويؤمنون به، ويبايعونه، قالوا: ولا يسخّرُ له من الدوابّ إلاّ الحِمار، واختلفوا في هيأةِ حمارِه، فقيلَ: ما بينَ أُذُنَي حمارِه اثني عشرَ شبراً، وقِيلَ: أربعون ذِراعاً تُظِلُّ إحدى أُذنيه سبعينَ ألفاً، وخطوهُ مسيرُ ثلاثة أيّامٍ فيبلغ كلّ

---

(١) يكْنه: يبلغ كنْهَهِ، والكُنْه: جوهر الشيء وأصله وحقيقته وغايته.
(٢) الموسومات: اللواتي جُعلَ لهنّ علامة يعرفْنَ بها.

منهلٍ إلاّ أربعة مساجدِ: مسجد الحرامِ، ومسجدِ الرّسولِ، ومسجدِ الأقصى، ومسجدُ الطُورِ، ويمكثُ أربعين صَباحاً يقصدُ بيتَ المقدسِ؛ وقد اجتمع الناسُ لقتالِهم فتَعمّهم ضَبابةٌ من غَمامٍ، ثُمّ تنكشف عنهم مع الصبحِ فيرونَ عيسى بنَ مريمَ قد نزَلَ على ضرِبٍ من ظِرابِ[1] بيتِ المقدسِ فيقتلُ الدجّالَ.

[نزولُ عيسى عليه السلام]:

المسلمونَ لا يختلفونَ في نزولِ عيسى عليه السلام آخِرَ الزمانِ وقد قِيلَ في قوله تعالى: ﴿وإنّه لَعِلْمٌ للساعةِ لا تمترُنَّ بها﴾ [الزخرف: ٦١] أنّه نزولهُ، وجاءَ أنّ النبيّ ﷺ قَالَ: «إن عيسى نازلٌ فيكم وهو خليفتي عليكم فمَنْ أدركَه فليُقرىء به سلامي فإنّه يقتلُ الخنزيرَ، ويكسرُ الصليبَ، ويحجُّ في سبعين ألفاً فيهم أصحابُ الكهفِ فإنّهم يحجّون، ويتزوجُ إمرأةً من يزد[2]، ويُذهِبُ البغضاءُ والشحناءُ والتحاسدُ، وتعودُ الأرضُ إلى هيأتِها على عهدِ آدمَ حتّى تُتركَ المِقْلاصُ[3] فلا يسعى عليها أحدٌ وترعى الغنمُ مع الذئبِ، ويلعب الصبيانُ مع الحيّاتِ فلا تضرّهُم، ويلقى الأرضَ في زمانه حتّى لا تقرضُ الفأرة جراباً، وحتّى يُدعى الرجلُ إلى المالِ فلا يقبلهُ، وتشبعُ الرمّانةُ السَكْن»، قَالَ: وينزلُ عيسى في يدهِ مِشقَصُ[4] فيقتلُ به الدجّالَ، وقِيلَ: إذا نظرَ إليه الدجّالُ ذابَ كما يذوبُ الرصاصُ، واتبعهم المسلمون يقتلونَهم فيقولُ الحجرُ والشجرُ يا مسلمُ هذا يهوديٌ خلفي إلاّ الغرقد من شجرِ اليهودِ، قَالَ: ويمكثُ عيسى أربعين سنةً ويُقال ثلاثاً وثلاثين، ويُصلّي خلفَ المهديّ ثُمّ يخرجُ يأجوجُ ومأجوجُ.

[بقيّة خبر الدجّال]:

في روايةُ سفيان عن مُجالد عن الشعبيّ عن فاطمة بنتِ قيس قَالَ: خَرجَ علينا رسولُ الله ﷺ في نحرِ الظهيرةِ فخطبنا، فقَالَ: «إنّي لم أجْمعكم لرغبةٍ ولا لرهبةٍ ولكنْ لحديثٍ حدَّثنيه تميمُ الدّاري[5] منعني سرورَه القائلةُ، حدّثني أنّ نفراً من قومهِ أقبلُوا في البحرِ

---

(١) ظِراب: جمع ظَرِب: والظَرِب: ما نتأمن حجر وُحدّ طرفُه.

(٢) يزد: مدينة في إيران شرقي أصفهان، سكّانها زرادشتيون، تشتهر بتجارة الحرير.

(٣) المقلاص: من النوق: التي سمنت في الصيف.

(٤) المِشقص: سهمٌ فيه نصلٌ عريض.

(٥) صحابي أقطعه النبي قرية الخليل، كتب عنه المقريزي «ضوء الشاري في معرفة خبر تميم الدّاري» =

فأصابتْهم ريحٌ عاصفٌ، وألجأتهم إلى جزيرةٍ، فإذا هم بدابّةٍ، قالوا لها: ما أنتِ؟ الجسّاسةُ، قُلنا أخبرينا الخبرَ قَالتْ: إن أردتُم الخبرَ فعليكم بهذا الدير فإنّ فيه رجلاً بالأشواقِ إليكم، قالوا: فأتيناهُ، فقالَ: إنّي بعيم[1]، فأخبرناهُ، فَقَالَ: ما فعلتْ بحيرةُ طبريّة[2]، قُلنا: تدفقُ بين جانبِها، قَالَ: ما فعلتْ نخلُ عَمّان وبَيْسان[3]، قلنا يجتنيها أهلُها، قَالَ: فما فعلتْ عينُ زُغَر[4]، قلنا: يشربُ منها أهلُها، قَالَ فلو يبستْ هذه نُفذتُ مِن وثاقي فوطئتْ قدمي كلَّ منهلٍ إلاّ المدينةُ ومكّة» ورُوي أنّ النبي ﷺ خَطبَ فقَالَ: «ما كانت بينَ خلقِ آدمَ إلى قيامِ الساعةِ فتنةٌ أعظمُ من الدّجّالِ»، وقَالَ: «إنّه لم يكنْ نبيّ إلاّ أنذرَ قومَه بالدجّالِ» ووصفَه فقَالَ: «إنّه قد بيَّنَ لي ما لم يبيّنْ لأحدٍ أنّه أعورُ كيتَ وكيتَ فإن خَرجَ وأنا فيكم فأنا حجّتُكم، وإن لم يخرجْ إلاّ بعدي فاللهُ خليفتي عليكُم، فما اشتبه عليكُم فاعلموا أنّ ربَّكم ليسَ بأعورَ» والدجّالُ يُسمّيه اليهودُ مُوشحُ كوايل، ويزعمون أنّه من نسلِ داودَ وأنّه يملكُ الأرضَ، ويردُّ الملكَ إلى بني إسرائيلَ فيهوّدُ أهلَ الأرضِ كلَّهم؛ وسمعتُ المجوسَ يذكرون واحداً منهم يخرجُ فيردُّ المُلكَ إليهم فقَد صارَ هذا الأمرُ مشتركاً متنازعاً فيه، بقي الاعتمادُ على أصدقِ الأخبارِ وأصحّها وذلك ما رُوي عن كتبِ الله ورُسلِه من غيرِ تحريفٍ ولا تبديلٍ، فالّذي هو مُمكنٌ جائزٌ من هذه الصفةِ خروجُ رجلٍ مخالفٍ للإسلامِ مُفسدٍ فيه، وأمّا سائرُ ما ذُكر فموكولٌ إلى علمِ اللهِ، لأنّه قَدْ جاءَ أنّه قَدْ قَالَ: «إنّ بينَ يدي الساعةَ ثلاثين دجّالاً» فأقلُّ ما في هذا الباب أن يكونَ كأحدِ هؤلاءِ.

[بقيّة خبر عيسى عليه السلام]:

قَالَ بعضُ المفسّرين في قولِه تعالى: ﴿وإنْ من أهلِ الكتابِ إلاّ ليؤمننّ بِهِ قبلَ موتهِ﴾ [النساء: ١٥٩] إنّه عندَ نزولِهِ، وقَدْ قَالَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿بل رفَعه اللهُ إليه وما قتلوه ولا صلبُوهْ ولكن شُبّهَ لهم﴾ [النساء: ١٥٧] ولا يختلفُ أهلُ الكتابِ أنّه جاءَ، احتجّوا بأنّه مكتوبٌ في كتبِ الأنبياءِ للاثني عشرَ: أني موجّهٌ إليكم النبيَّ قَبلَ مجيء الربِّ، وفي كتابِ

= يقول: إنّ خدم حرم الخليل من سلالته (ت ٤٠ هـ). «منجد الأعلام».

(١) بعيم: البعيم: صنم أو تمثال من خشب، والبعيم: المفحم الذي لا يقول الشعر. «القاموس المحيط/ جـ ٤».

(٢) بحيرة طبريّة: بحيرة في فلسطين يجتازها نهر الأردن، طولها ٢٠ كلم، وعرضها ١٠ كلم.

(٣) بيسان: قرية في فلسطين جنوبي طبريّة.

(٤) عين زُعرَ: زُعر: موضع في الحجاز. «معجم البلدان ٣/ ١٥٩».

شعيا يا بيتَ اللحم منكَ يخرجُ الصِدّيقُ المُخْلِصُ يكونُ الصدقُ على همیانهِ[1] والحقُّ على حقوبهِ[2] يَسكنُ الذئبَ مع الخَرُوفِ، ويلعبُ الصبيُ مع الأفاعي الصماءِ، وعيسى عندكم مسيحٌ، والدجّالُ مسيحٌ، وهما مسيحان، وفي زمانهِ يخرجُ يأجوجُ ومأجوجُ، قالوا: ويكونُ من ولدِ شعيا بنِ افرائيم، ثُمّ اختلفَ المتأوّلون لهُ فقَالَ أكثرهُم: هو عيسى عليه السلام بعينِ يَردُ إلى الدّنيا، وقالت فرقةٌ: نزولُ عيسى خروجُ رجلٍ شبيهٍ بعيسى في الفصلِ والشرفِ، كما يُقالُ للرجلِ الخيّرِ هو مَلَكٌ، وللشِرّير هو شَيطانٌ، يُراد به التشبيهَ لا الأعيانَ، وقَالَ قومٌ: يرد روحَه في رجلٍ يُسمَّى عيسى واللهُ أعلم.

[طلوع الشمّس من مغربِها]:

قَالَ بعضُ المفسّرين: في قوله تعالى: ﴿يومَ يأتي بعضُ آيات ربّك لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبل﴾ [الأنعام: ١٥٨] أنّه طلوعُ الشمّسِ من مغربِها، ورُوينا عن أبي هريرة أنّه قال: ثلاثٌ إذا خرجتْ لم ينفع نفساً إيمانُها: طلوعُ الشمّسِ من مغربِها، والدابّةُ، والدجّالُ، قالوا: في صفةِ طلوعِها أنّه إذا كانَتْ الليلةُ التي تطلعُ الشمّسُ في صبحتِها من مغربِها حُبِست، فتكون تلكَ الليلةُ قَدرَ ثلاثِ ليالٍ، قالوا: فيقرأُ الرجُلُ جُزْءَهُ وينام، ويستيقظُ، والنجومَ راكدةٌ، والليلةُ كما هي، فيقول بعضهُم لبعضٍ: هل رأيتمُ مثلَ هذه الليلةِ قط؟ ثُمّ تطلعُ الشمسُ من مغربِها كأنّها عَلَمٌ أَسْوَدُ حتّى تتوسّطُ في السماءِ ثُمّ تعودُ بعد ذلك فتجري في مَجراها الذي كانتْ تجري فيه، وقد أُغلِقَ بابُ التوبةُ إلى يوم القيامةِ؛ ورُوي عن عليّ أنّه قَالَ: فتطلعُ بعدَ ذلك من مشرقِها عشرين ومائة سنة لكنها سنون قصارٌ: السنةُ كالشهر، والشهرُ كالجمعةِ، والجمعةُ كاليوم والیومُ كالساعةِ؛ وكانَ كثيرٌ من الصحابةِ يترصّدونَ الشمّس منهم حذيفة بنُ اليمانِ وبلالُ وعائشةُ رضي الله عنهم.

[خروجُ دابّةِ الأرضِ]:

قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وإذا وقعَ القولُ عليهم أخرجْنَا لهُمْ دابّةً من الأرضِ تُكلّمهُم﴾ [النمل: ٨٢] قَالَ كثيرٌ من أهلِ الأخبارِ: إنّها دابّةٌ ذاتُ وَبَرٍ وريشٍ وزَغَبٍ، وفيها من كلّ لونٍ، ولها أربعُ قوائمٍ: رأسُها رأسُ ثورٍ، وآذانها أُذنُ فيلٍ، وقرنُها قرنُ إيّلٍ[3]، وعُنقُها عُنقُ

---

(١) همیانه: الهميان: كيس تجعل فيه النفقة ويُشد على الوسط. (فارسية).

(٢) حقوبه: جمع حقاب، والحقاب: ما تشدّه المرأة على وسطها تعلّق به الحَلْي.

(٣) إيّل: حيوان من ذوات الظلف، للذكور منه قرون متشعبة لاتجويف فيها.

نعامةٍ، وصدرُها صدرُ أسدٍ، وقوائمُها قوائمُ بعيرٍ، ومعها عَصَى موسى وخاتمُ سُليمان وتُرتفعُ الأسماء، فلا يُعرفُ أحدٌ باسمهِ، وهو يجلو وجهَ المؤمنِ بالعصا فيَبْيَضُّ ويختمُ على أنفِ الكافرِ فيغشو السوادُ فيه، فيُقالَ: يا مؤمنُ ويا كافر؛ ورُوي عن عبدِ الله بن عمر أنّه قالَ: هي الدابّةُ الغلباءُ[1] التي أخبرَ التميمُ الداري عنها، وعن الحسنِ قالَ: سأل موسى عليه السلام ربّه أن يُريَه الدابةَ، فخرجتْ ثلاثَ أيّامٍ لم يُدْرَ أيّ طرفها، فقالَ: يا ربُّ رُدّها رُدّها، ويُقالُ: أنّها تخرجُ بأجنادٍ في عَقبٍ، الحاجّ واللهُ أعلمُ، تسيرُ بالنهارِ، وتَقِف بالليلِ، يراها كلُّ قائمٍ وقاعدٍ، وأنّها لا تدخلُ المسجدَ، وقدْ عاذبَه المنافقون، فتقول: أترون المسجدَ يُنجيكم منّي هَلاّ كان بالأمسِ، هذا قولُ الظّاهرِ ولَعمري ما خروجُ مثلِ هذه الدابّةِ ولا طلوعُ الشمّس من مغربِها أو مِنْ أيّ ناحيةٍ من نواحي السماءِ كانتْ على اللهِ بعزيزٍ، ولا هي أصعبُ وأعسرُ من إبداعِها نفسِها ووضعِها على مَجراها التي تجري فيه، ولا طلُوعها من مغربِها أعجبُ من نقضِ بنيتها ومحو صورتِها واستلابِ ضوءِها وهدمِ مسيرها، وكلُّ ذلك قد قامَتِ الدلائلُ على جوازه بحلولِ هذه الآفاتِ والبلايا مع فَناءِ العالمِ بأسرهِ، وعدمِ عينه بَعدَ وجودِه؛ ويذهبُ قوم ممّن أنكروا حَدَثَ العالمِ وانتقاضَه إلى أنّ طلوعَ الشمّسَ من مغربِها ظهورُ سلطانٍ، ثُمّ يستولي على الأرضِ ويقهرُ كلَّ سلطانٍ دونَهُ، وهذا مُحالٌ لا تُجيزهُ العقولَ لله بوجهٍ من الوجوهِ، وسببٍ من الأسبابِ أنْ يكونَ في قوّةِ أحدٍ من النّاسِ أو عُمره أو مبلغِه أو يتناولَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، ويُعطيَه أهلُها الطاعةَ والانقياد، وينفّذُ فيها أمرَه وحكمَه، إنّ الإنسانَ الواحدَ وإن طالَ عُمرُه وامتدّتْ أيّامهُ لم يقطعِ العالَم كلّه ولا نِصْفَه ولا بعضَه، وإنّ الذي يُذكرُ من الملوكِ الذين أحاطُوا بالأرضِ وهو شيء من جهةِ الخبرِ، وما يُذكرُ من أمرِ سليمان عليه السلام معجزةٌ له لا يخبرُ مثلَها هذا الخصمُ المخالفُ لنا، فإذا بطُلَ ما قلناه وجَبَ أنّ طلوعَها من مغربِها كطلوعِها من مشرقِها أو يُنكرُ ذلك لتكلّمٍ على إثباتِه من جهتِه وطريقهِ، فهذا يقعُ في بابِ صِدْقِ الأنبياء وإن التجأ إلى أنّ هذا وما أشبَهه خارجٌ عن العادةِ اضطرَّ إلى إيجادهِ، وما أشبَهه من غيرِ مجانسةٍ له خارجٌ عن العادةِ حتّى ينكشفَ في الحالِ أمرُه عن التعطيلِ والإلحادِ، ويعودُ القولُ في إثباتِ الباريء وإحداثِ العالمِ، ولهذا ما اشترطَ في غيرِ موضعٍ في هذا الكتابِ التحفّظُ لهذه المسألة والتمرّن عليها لأنّها القاعدةُ الموطودةُ والعُمدةُ الموثوقُ بها، وأمّا الدابّةُ فهو اسمٌ يقعُ على ما دبَّ ودرجَ من أجناسِ الحيوانِ من إنسانٍ وسَبُعٍ وبهيمةٍ وطائرٍ وهامّةٍ، وقال الله تعالى: ﴿والله خلقَ كلّ دابةٍ من

(١) الغلباء: التي غلُظ عنقها.

ماءٍ﴾ [النور: ٤٥] فمنهم من يمشي على بطنِهِ ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربعٍ، وقَالَ: ﴿ما من دابّةٍ في الأرضِ إلاّ على اللهِ رزقُها﴾ [هود: ٦] وقَالَ: ﴿إنّ شرَّ الدوابِ عندَ اللهِ الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون﴾ [الأنفال: ٢٢] فلم يُرِدْ هاهنا إلاّ النّاسَ خاصّةً، فلو قَالَ قائلٌ: إنّها كنايةٌ عن إنسانٍ أو مَلَكٍ لكانَ قولاً محتملاً، هذا إذا لم يصحّ ما رُوي في الخبرِ من صفاتِها ونعوتِها كما ذكرنا، فأمّا إن صحَّ الخبرَ فليسَ إلاّ إتباعَه؛ وقد سمعتُ مَنْ يقولُ: معنى الدابّةِ العلاّمةُ يظهرُ الله كلامَه كيفَ شاءَ، يُعجزُهم بها، ورُوي أنّ عليًا صلواتُ الله عليه وسلامُه قَالَ أنا دابّةُ الأرضِ أنا كذا أنا كذا واللهُ أعلمُ وقِيلَ: عبدُ الله بن الزبير دابّةُ الأرضِ.

[ذكرُ الدُخان]:

قَالَ تعالى: ﴿فارتقبْ يومَ تأتي السماءُ بدخانٍ مبينٍ﴾ [الدخان: ١٠] ورُوي عن الحسنِ قَالَ: يجيءُ دخانٌ فيملأُ ما بينَ السماءِ والأرضِ حتّى لا يُدرى شرقٌ ولا غربٌ، ويأخذُ الكافرُ فيخرجُ من مسامعِه، ويكونُ على المؤمنين، كهيئةِ الزكمةِ[1] ثُمَّ يكشفُ اللهُ عنهم بعد ثلاثةِ أيّامٍ، وذلك قدّامُ الساعةِ؛ وأكثرُ أهلِ التأويلِ على أنّه الجوعُ الّذي أصابَهم في أيّامِ النبيّ ﷺ.

[خروجُ يأجوج ومأجوج]:

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فإذا جاءَ وعدُ ربّي جعلَه دَكّاءَ وكانَ وعدُ ربّي حقًّا﴾ [الكهف: ٩٨] وجاء في الأخبارِ من صِفاتهم وعددِهم ما اللهُ به عليمٌ، ولا يختلفون: أنّهم في مشارقِ الأرضِ، ورُوي عن مَكحول أنّه قَالَ: المسكونُ من الأرضِ مسيرةُ مائةِ عامٍ وثمانون، منها ليأجوج ومأجوج أُمّتان في كلِّ أُمّةٍ أربعُ ألفِ أُمّةٍ لا تُشْبِهُ أُمةً أُخرى؛ وعن الزّهريّ أنّهم ثلاثُ أُممٍ مَنسِكُ وتاويلُ وتدريسُ، فصنفٌ منهم مثالُ الأرْزِ والشجرِ الطوالِ، وصنفٌ منهم عرضُ أحدِهم وطولُه سواءٌ، وصنفٌ منهم يفترشُ إحدى أُذنيه، ويلتحفُ بالأُخرى، ورُوي أنّ طُولَ أحدِهم شِبْرٌ وأكثرُ، ويكون خروجهُم بَعدَ قتلِ عيسى الدجّالَ؛ وإذا جاءَ الوقتُ جَعلَ اللهُ السَدَّ دكًّا كما ذُكرَ فيخرجونَ؛ ورُوي أنّهم تكونُ مقدّمتهُم بالشامِ[2] وساقتهمُ ببلخ[3]،

---

(١) الزَكمَة: الزُّكام: تحلّب الالتهاب غشاء المنخرين.

(٢) الشام: يراد بها سابقاً سورية على العموم.

(٣) بَلَخ: مدينة ذات شأن في العصور القديمة هي اليوم قرية صغيرة في أفغانستان.

قالوا: فيأتي أوّلهُم البحيرةَ ويشربونَ ماءَها، ويأتي أوسطهُم فيلحسونَ ما فيها، ويأتي آخرهُم فيقولُ: لقد كان هُنا مرّةً ماءٌ؛ ويكونُ مكثُهم في الأرضِ سبعَ سنين، ثمّ يقولُون قَدْ قهرَنا أهلَ الأرضِ فَهلْ نقاتل ساكنَ السماءِ؟ فيرمون بنُشّابِهم فيردّها اللهُ مخضّبةً دماً، فيقولون قد فرغْنا من أهلِ السماءِ فيرسلُ الله عليهمِ النقف[1] في رقابِهم، فيُصبحون مَوْتَى، ويَسْكَر عليهم الدوابُّ داخس ما سكرتْ من شيءٍ، ثُمّ يرسلُ اللهُ عليهم السماءَ فتجرفهُم إلى البحرِ؛ وفي رواية كعبٍ أنّهم ينقرونَ السدَّ بمناقيرهِم كلَّ يومٍ فيعودون وقَدْ عادَ كما كَانَ، حتىّ إذا بلغَ الأمرُ الغايةَ أُلقي على لسان أحدِهم إن شاءَ اللهُ فيخرجون حينئذٍ، ورُوي أنّهم يلحسَونها.

وقالُوا في صفاتِهم أنّ منهم مَنْ يفترشُ أُذنَه، ومِنهم مَنْ طولهُ وعرضهُ سواءٌ ومنهم مَنْ كالأرزةِ الطويلةِ، ومنهم مَنْ لهُ أربعُ أَعْيُنٍ: عينان في رأسهِ، وعينان فيْ صدرهِ، ومنهم مَنْ له رِجْلٌ واحدةٌ ينقز[2] نَقْز الظِباء، ومنهم مَنْ هو مُلبّسٌ شَعَراً كالبهائمِ، ومنهم مَنْ يأكلُ النّاسَ، ومنهُم مَنْ لا يشربُ غيرَ الدّم شيئاً، ولا يموت الرجلُ منهم حتى يرى لصُلبهِ ألفَ عينٍ تطرفُ.

وفي التوراةِ مكتوبٌ أنّ يأجوجَ ومأجوجَ يخرجون في أيّامِ المسيحِ ويقولون: إنّ بني إسرائيلَ أصحابُ أموالٍ وأوانٍ كثيرةٍ فيقصدون أورشليم، وينتهبون نصفَ القريةِ، ويسلمُ النصفَ الآخرَ، ويرسلُ اللهُ عليهم صَيْحةً فيموتون عن آخرِهم ويُصيبُ بني إسرائيلَ من أوانيّ عسكرِهم ما يستغنونَ سبعَ سنين عن الحطبِ، هذا المقدارُ من حديثِهم في كتابِ زكرّيا عـم، فأمّا ما رويناهُ واللهُ أعلمُ بحقّها وباطِلها، ولا تختلفُ الناسُ أنّ يأجوجَ ومأجوجَ أممٌ من مشارقِ الأرضِ، وجائزٌ أنْ يَرِثَ أرضَ قومٍ ويستولون عليها دونَهم؛ فروى الربيعُ عن أبي العاليةِ قَالَ: يأجوجُ ومأجوجَ رجلان، وقِيلَ: هو التركُ والديلمُ، فهذا ما لالا ينكرهُ القلوبُ؛ وأمّا سائرُ الصفاتِ فممرّ على وجهِه، قالوا: ويمكثُ الناسُ بعدَ يأجوجِ ومأجوجِ عشرين سنةً يحجّون ويعتمرون.

[خروج الحبشة]:

قَالَ أصحابُ هذا العلمِ: ويمكثُ النّاسَ بَعدَ هلاكِ يأجوجِ ومأجوجِ في الخِصْبِ

(١) النقف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، الواحدة (نقفة).
(٢) ينقز: يثب أو يقفز.

والدَعَةِ ما شاءَ اللهُ، ثُمّ تخرجُ الحبشةُ وعليهم ذو السويفتين فيخرّبون مكّة، ويهدمون الكعبةَ، ثُمّ لا تُعمرُ أبداً، وهم الذي يستخرجون كنوزَ فرعونَ وقارونَ، قَالَ: فيُجمع المسلمون، ويقاتلونهم، فيقتلونهم ويسبونهم حتّى يُباعُ الحبشيُّ بعباءَةٍ، ثُمّ يبعثُ اللهُ عزّ وجلّ ريحاً فتلفت روحَ كلِّ مُسلم.

[فقـــدان مكّـــة]:

ورُوي عن عليّ صلواتُ اللهُ عليه وسلامهُ قَالَ: حجّوا قَبلَ أن لا تحجّوا، فوالّذي خلقَ الحبّةَ، وبرأ النَسَمةَ ليرفعنّ هذا البيتَ من بينِ أظهرِكم حتّى لا يَدري أحدُكم أين كان مكانه بالأمس؟ وقَالَ: كأنّي أنظرُ إلى أسودَ حمش الساقَيْن قد علاها وينقضُها طوبة طوبة.

[الريح التي تقبض أرواحَ المؤمنين]:

رُوي أنّ اللهَ تعالى ابتعث ريحاً يمانيةً ألْيَنَ من الحريرِ وأطْيَبَ نفحةً من المِسْك فلا تَدَعُ أحداً في قلبِهِ مثقالُ ذرَّة من الإيمان إلاّ قبضتْه، ويبقى الناسُ بعدَها مائة عامٍ لا يعرفون ديناً ولا ديانةً، وهم شرارُ خلقِ اللهِ عليهم تقومُ الساعةُ، وهم في أسواقِهم يتبايعون؛ وفي روايةِ عبدِ الله بن يزيد عن أبيه عن النبيّ ﷺ أنّه قَالَ: «لا تقومُ الساعةُ حتّى يعبُدُ اللهُ في الأرضِ مائةُ سنةٍ» وعن عبدِ الله بن عُمر قَالَ: يُؤمَرُ صاحبُ الصُورِ أن ينفخَ فيسمعُ رجُلاً يقولُ لا إلٰهَ إلاّ الله فيُؤخّر مائةَ عام.

[ارتفاع القرآن]:

رُوي عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه قَالَ: القرآنُ أشدُّ بُغْضاً على قلوبِ الرجالِ من النَعَمِ على عُقُلِهِ، قيل يا أبا عبدِ الرحمٰن كيفَ وقد أثبتناه في صدورِنا ومصاحِفِنا؟ قَالَ: يُسرى عليه فلا يُذكرُ ولا يُقرأ.

[النار التي تخرج من قعر عدن]:

روى حذيفةُ بنْ أسيدٍ عن النبيّ ﷺ أنّه قَالَ: «عشر آيات بين يدي الساعةَ هذه هي إحداهنّ» وفي رواية أُخرى: «لا تقومُ الساعةُ حتّى تخرجَ نارٌ من أرضِ الحجازِ تُضيء أعناقَ الإبلِ ببُصرى» وفي روايةٍ أُخرى «لا تقومُ الساعةُ حتّى تخرجَ نارٌ من حضرموت» مع اختلافٍ كثيرٍ في الروايات.

[نفخاتِ الصور]:

هي ثلاثٌ: نَفْثتانِ منها في الدّنيا، والثالثةُ في الآخرةِ، قَالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿ما ينظرون إلاّ صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يَخِصّمون فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ [يَس: ٥٠] وروى الحسنُ عن شيبانَ عن قَتادة عن عكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنه قَالَ: تهيج الساعةُ والرجلان يتبايعان قد نرا ثوبَهما فلا يطويانه، والرجلُ يلوطُ حَوْضه فلا يسقي منه، والرجلُ قد انصرفَ بلبنِ لقحتِهِ فلا يطعمه، والرجلُ قد رفَع أُكْلَته إلى فيه فلا يأكلُها، ثُمّ تلا: ﴿تأخذهم وهم يخصّمون﴾ [يَس: ٤٩] وقَالَ: لا تأتيهم إلاّ بغتةً، النفخةُ الأُولى: يُقالُ أنّ صاحبَ الصُورِ إسرافيلٌ، وهو أقربُ الخلق إلى اللهِ سبحانَه وتعالى، وله جَناحٌ بالمغربِ، والعرش على كاهِلِه، وإنّ قدمَيْه قد مرقت الأرضَ السُفْلَى حتّى بعدتا مسيرةَ مائةِ عامٍ على ما رواه وهب، ومثلُ هذا ممّا يزيدُ في يقينِ العامّيّ ويبلغُ في تجويفه وتعظيمه لأمرِ اللهِ تعالى؛ وقد بيّنّا في صفةِ الملائكةِ أنّهم روحانيّون الروحِ، بسيطٌ لا يضيقُ الصدرِ في صفةِ الأجسامِ المركّبة، قِيلَ صاحبُ الصور عزرائيل، وعن النبيّ ﷺ فيما رُوي كيف أنعم وصاحبُ الصورِ قد التقمَه، وحنى جبهتَه ينظر متى يُؤْمَرُ فينفخ.

[ذكر ما جاء في الصورِ]:

رُوي أنّه كهيأةِ قرنٍ فيه بعددِ كلِّ ذي روحٍ داره، وله ثلاثُ شُعَبٍ: شُعبةٌ تحت الثّرى تخرجُ منها الأرواح، وترجعِ إلى الأجسادِ، وشعبةٌ تحتَ العرشِ منهايُرسلُ اللهُ الأرواحَ إلى الموتَى، وشعبةٌ في فمِ المَلَكِ فيها ينفخُ، قالوا: فإذا مضتّ الآياتُ والعلاماتُ التي ذكرنا أُمِرّ صاحبُ الصورِ أنْ ينفخَ نفخةَ الفَزَعِ ويُديمها ويطوّلها، فلا تَخْتَر كذا عاماً وهي التي يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ما ينظر هَؤُلاءِ إلاّ صيحةً واحدةً ما لها من فواق﴾ [صَ: ١٥] ويقول: ﴿ويومَ ينفخُ في الصورِ ففزعَ مَنْ في السماواتِ ومَنْ في الأرضِ إلاّ مَنْ شاءَ اللهُ﴾ [النمل: ٨٧] قالوا: فإذا بدأتِ الصيحةُ فزعتِ الخلائقُ وتحيّرتْ وتاهتْ، وهو يزدادُ كلَّ يومٍ فظاعةً وشناعةً، فيحارُ أهلُ البوادي والقبائلِ إلى القُرى والمُدْن، ثُمّ تزدادُ الصيحةُ، حتّى ينتقلوا إلى أمهاتِ الأمصارِ، ويعطّلوا الرواعي والسوائم، وجاءت الوحوشُ والسباع من هولِ الصيحةِ فاختلطت بالنّاسِ واستأنستْ بهم وذلك قوله: ﴿وإذا العِشارُ عُطّلتْ وإذا الوحوشُ حُشرت﴾ [التكوير: ٥] ثُمّ تزدادُ الصيحةُ حتّى تسيرَ الجبالُ عن وجه الأرضِ وتصيرُ سراباً جارياً وذلك قولُه تعالى: ﴿وإذا الجبالُ سُيّرتْ﴾ [التكوير: ٣] وقولهُ: ﴿وتكون الجبالُ

كالعِهْن المنفوش﴾ [القارعة: ٥] وتزلزلتِ الأرضُ وانتقضت وذلك قولهُ تعالى: ﴿إذا زُلْزلتِ الأرضُ زِلْزالَها﴾ [الزلزلة: ١] وقولهُ: ﴿إن زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيم﴾ [الحج: ١] ثُمّ تُكوّرُ الشّمسُ وتنكدرُ النجوم، وتُسجّرُ البحارُ، والناسُ أحياءٌ ينظرون إليها، وعندَ ذلك تذهلُ المراضعُ عمّا أرضعت، تضعُ الحوامل حملها، ويشيبُ الولدان، وترى النّاسَ سَكارَى من الفزعِ وما هم بسكارَى، ولكنْ عذاب الله شديدٌ، رُوي عن أبي جعفرٍ الرازيّ عن أبيه عنِ الربيع عن أبي العاليةِ عن أُبيّ ابنِ كعبٍ قَالَ: بينا الناسُ في أسواقهم إذْ ذهبَ ضوءُ الشّمسِ، وبينا همْ كذلك إذ تناثرتِ النجومُ، وبينا همْ كذلك إذ وقعتِ الجبالُ على وجهِ الأرضِ، وبينا همْ كذلك إذ تحركتِ الأرضُ فاضطربتْ لأن اللهَ تعالَى جعلَ الجبالَ أوتادَها، ففزعت الجنُّ إلى الإنسِ، والإنسُ إلى الجنِّ، واختلفت الدوابُّ والطيورُ والوحوشُ فماجَ بعضهُم في بعضٍ، فقالتِ الجِنّ نحنُ نأتيكُم بالخبرِ، فانطلقوا فإذا هي نارٌ تتأجّجُ، فبينا همْ كذلك إذْ جاءتْهم ريحٌ فأهلكتْهم، وهذه كلُّها من نصِّ القرآنِ ظاهرةٌ لا يسعُ لأحدٍ مؤمنٍ ردَّها والتكذيبِ بها، وفي هذه الصيحةِ تكون السماء كالمُهْلِ، وتكونُ الجبالُ كالعِهْن، ولا يسأل حميمُ حميماً، وفيها تنشقُّ السماءُ فتصير أبواباً، وفيها تحيطُ سُرادِقٌ من النّارِ بجافاتِ الأرضِ، فتطيرُ الشياطينُ هاربةً من الفزعِ حتّى تأتي أقطارَ السماواتِ فتتلقّاها يضربون وجوهَها حتى يرجعوا وذلك قولُه: ﴿يا مَعْشر الجنِّ والإنسِ إن استطعتمْ أن تنفُذوا من أقطارِ السماواتِ والأرضِ فأنفذوا﴾ [الرحمٰن: ٣٣] الآية، قالوا: والموتى لا يشعرونَ بشيء من هذا ثُمّ النفخة الثانية.

[النفخة الثانية]:

وهي نفخةُ الصّورِ وذلك قولهُ تعالى في نفخِ الصورِ: ﴿فصعِق مَنْ في السماواتِ ومَنْ في الأرضِ إلا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ [الزمر: ٦٨] قالُوا: فيموتون في هذهِ النفخةِ إلاّ مَنْ تناولتْه ٱلشّاءُ من اللهِ، وهمْ مُخْتَلَفٌ فيهم، فَزَعمَ بعضُ أهلِ الكتابِ: أنّ قبضَ الأرواحِ واللهُ أعلمُ، واختلفَ أهلُ الكتابِ في صفةِ مَلَكِ الموتِ فزعَم بعضهُم: أنّ اللهَ جعلَ قبضَ الأرواحِ إلى فاني، وهو الذي يُسمّى مَلَكُ الموتِ، وقَالَ بعضهُم: إنّ ملكَ الموتِ معه سَيْفٌ إذا شَهرَ سيفَه لم يرَه أحدٌ إلاّ ماتَ على مكانِه، وقَالَ بعضٌ منهم أنّه يقطعُ بذلك السيفِ الأرواحَ من السماءِ، وكثيرٌ منهم خالفوهم وقالوا: إنّ اللهَ لم يوكّلْ أحداً بقبضِ الأرواحِ ولكنْ إذا ذَبلَ جَسدُ الحيوانِ وضعُفتْ أعضاؤه القابلاتُ للفعلِ فارقَها الروحُ، فأمّا المسلمونَ فمنهم مَنْ يقولُ: الدّنيا بين يدي ملكِ الموتِ كالسفرةِ أو كالطَسْتِ أو كالآنيةِ يتناولُ منها حيثُ شاء،

ومنهم مَنْ يقولُ: له أعوانٌ ينتزعون الأرواحَ فإذا بلغَتْ التراقي تولاّها بنَفْسِهِ، ومنهم مَنْ يقولُ بل جُعِلَ طبعهُ ضدًّا للحياة فحيثُ ما حضَرَ بطُلتِ الحياةُ عندَه واللهُ أعلمُ.

[ما بين النفختين]:

يُقالُ: هو أربعون سنةَ تبقى الأرضُ على حالتِها بعدَ ما مرّ لها من الأهوالِ والزلازلِ تمطرُ سماؤُها، وتجري مياهُها، وتُطْعِم أشجارُها، ولا حيَّ على ظهرِها ولا في بطنِها، ثُمّ يُحْييهم اللهُ للبعثِ.

[ذكر اختلافهم في قوله تعالى هو الأوّلُ والآخرُ]:

وقالَ تعالى: ﴿كما بدأنا أوّلَ خلقٍ نُعيدهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقالَ تعالَى: ﴿كلُّ مَنْ عليها فانٍ، ويبقى وجهُ ربّك ذو الجلالِ والإكرامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٧] وقالَ: ﴿كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهُه﴾ [القصص: ٨٨] وقالَ: ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فبُدّلتْ هذه الآياتُ على هلاكِ كلِّ شيء دونَه لما قالَ تعالَى: ﴿ونفخَ في الصّورِ فصَعِق مَنْ في السماواتِ ومَنْ في الأرضِ إلاّ من شاءَ اللهُ﴾ [الزمر: ٦٨] دلّ أنّه لا تعمُّ الصعقةُ جميعَ الخلائقِ فالتمسْنا التوفيقَ بينَ الآياتِ بَعدَ أنْ أمكنَ أنْ تكونَ آيةُ الاستثناءِ مفسّرةٌ لتلك الآي، فقُلْنا الإستثناءُ عندَ نفخةِ الصَعِقِ، وعمومُ الفناءِ بين النفختينِ كما جاءَ في الخبرِ لئلاّ يظنَّ ظانٌّ أن القرانَ متناقضٌ، وروي الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه في قوله: ﴿كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهُه﴾ [القصص: ٨٨] قالَ: كلُّ شيء وجَبَ عليه الفناءُ إلاّ الجنّةُ والنّارَ والعرشَ والكرسيّ والحُورَ العينَ والأعمالَ الصالحة؛ وقِيلَ في قوله: ﴿إلاّ مَنْ شاءَ﴾ [الزمر: ٦٨] الشهداءُ حَوْلَ العرشِ سيوفهُم بأعناقِهم، وقِيلَ: الحورُ العينُ، وقِيلَ: موسى عـم لا صَعِق مرّةً، وقِيلَ: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ وحملةُ العرشِ؛ قالوا: فيأمرُ اللهُ تعالَى ملكُ الموتِ فيقبضُ أرواحهَم، ثُمّ يقول: مُتْ فيموتُ فلا يبقى حيٌّ إلاّ اللهُ تعالى، فعندَ ذلك يقولُ لمِن الملكُ اليومَ؟ فلا يُجيبه أحدٌ، فيقولُ اللهُ الواحدُ القهّارُ؛ هكذا رُوي في الأخبارِ والمسلمون يختلفون منه في أشياءَ.

[المطرة التي تُنبتُ أجسادَ الموتى]:

قالوا: فإذا مضَى بينَ النفختينِ أربعون عاماً أمطرَ اللهُ مِن تحتِ العرشِ ماءً خاثراً كالطّلاء وكمنيّ الرجال، يُقالُ له: ماءُ الحيوانِ، فتنبت أجسامهُم كما ينبتُ البَقْلُ؛ قال كعبٌ

ويأمرُ اللهُ الأرضَ والبحارَ، وتؤمرُ الطَّيْرُ والسِبّاعُ بأن تردّ ما أكلتْ من بني آدمَ حتّى الشعرةِ فما فوقَها حتّى تتكامل أجسامُهم، قالوا: وتأكلُ الأرضُ ابنَ آدمَ إلاّ عَجْبَ الذَنَبِ فإنّه يبقى مثلَ عينِ الجرادِ، لا يُدركه الطَرْفُ، فيُنشىءُ اللهُ الخلقَ منه، وتركّبُ عليه أجزاؤه كالهباءِ في الشّمس، فإذا تمّ وتكاملَ نفخَ فيه الروحَ ثُمّ انشقّ عنه القبرُ ثُمّ قامَ.

[النفخة الثالثة]:

وذلك قولهُ تعالى: ﴿إنْ كانتْ إلاّ صيحةً واحدةً فإذا همْ جميعٌ لدينا مُحْضَرون﴾ [يٰس: ٥٣] ويجمعُ اللهُ أرواحَ الخلائقِ في الصورِ، ثمّ يأمرُ المَلَكَ أن ينفخهَا فيهمْ، ويقول أيّتها العظامُ البالةُ والأوصالُ المنقطعةُ والعشورُ المتمزّقةُ إنَّ اللهَ يأمرُكنّ أن تجتمعْنَ لفصلِ القضاءِ، فيجتمعن، ثُمّ ينادي قوموا للعرضِ على الجبّارِ فيقومون، وذلك قولُه: ﴿يوم يخرجون من الأجداثِ سِراعاً كأنّهم إلى نُصُب يُوفِضون﴾ [المعارج: ٤٣] وقوله: ﴿يومَ تشقّقُ الأرضُ عنهم سِراعاً ذلك حشرٌ علينا يسيرٌ﴾ [قٓ: ٤٤] فإذا خرجوا من قبورِهم يلقى المؤمنُ بمركبٍ من رحمةِ اللهِ كما وعد: ﴿يومَ نحشرُ المتّقين إلى الرحمن وَفْداً﴾ [مريم: ٨٥] والفاسقُ يمشي على قدمهِ ﴿ونسوقُ المُجرمين إلى جهنّم وِرْداً﴾ [مريم: ٨٦] وفي القرآنِ من آثارِ الحشرِ ودلائلِ البعثِ ما لا يُوجَدُ في شيءٍ من كتبِ اللهِ المنزّلةِ لأن القومَ كانوا منكرينَ له.

[بعث الخلق]:

روى الحسنُ رحمَهُ اللهُ أنّ النبيّ ﷺ قال: «يحشر النّاسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً بُهماً غُرْلاً» فقالتْ إحدى نسائه: أمَا يستَحْيُون؟ فقال: «لكلّ أمرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه» وعن سعيد بن جبير[1] في قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ولقدْ جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم أوّل مرّة﴾ [الأنعام: ٩٤] قال يُرَدُّ كلُّ واحدٍ إلى ما انتقضَ منه حتّى الظُفرِ قُصَّ والشعرةِ سقطَتْ، وفي

---

(١) الإمام الحافظ المقرىء المفسّر، أبو محمد، روى عن ابن عباس وغيره، وعن بعض التابعين، وقرأ القرآن على ابن عبّاس. روى عنه حمّاد وغيره، قال ابن مهدي: لقد مات سعيد بن جبير وعلى ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاج إلى علمه. «سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٢١».

روايةِ مُعاذِ بن جبلٍ[1] والمقدامِ بن معد يكربٍ[2] عن النبيِّ ﷺ قال: «يُبعثُ النّاسُ يومَ القيامةِ أوّلهُم وآخرُهم ما بَينَ السِقط إلى الشيخِ الفاني كأنّها ثلاثَ وثلاثين سنة، وهو سنُّ عيسى عـم» وممّا احتجّ اللهُ به على مُنكري البعثِ قولهُ تعالى: ﴿يا أيّها الناسُ إن كنتمُ في ريبٍ من البعثِ فإنّا خلقناكم من تُرابٍ ثم مِن نُطفةٍ ثم مِنْ علقةٍ ثم مِنْ مُضغةٍ﴾ [الحج: ٥] إلى قوله: ﴿وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلْنا عليها الماءَ اهتزّتْ وأنبتتْ مَن كلِّ زوجٍ بهيجٍ﴾ [الحج: ٥] فشبّه حياةَ الخلقِ بعدَ موتِهم ونشورِهم من قبورِهم بحياةِ الأرضِ بعدَ موتِها ونباتِ عُشْبها وشَجَرِها، وقَالَ: ﴿أوَلم يَرَ الإنسانُ أنّا خلقْناه مِنْ نُطفةٍ﴾ [يَس: ٧٧] إلى قوله: ﴿قُل يحييها الذي أنشأها أوّلَ مرّةٍ﴾ [يَس: ٧٩] وقَالَ تعالى ذكرهُ: ﴿وقالوا أئِذا كنّا عظاماً ورُفاتا أئِنّا لمبعوثون خلقاً جديداً قُلْ كونوا حِجارة أو حديداً، فإنّي باعثكُم﴾ [الإسراء: ٥١] وقَالَ تعالى: ﴿ما خَلقكم ولا بَعثكم إلاّ كنفسٍ واحدةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقَالَ: ﴿وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧].

[ذكرُ اختلافِهم في كيفية الحشر]:

لا خلافَ بينَ أهلِ الأديانِ قاطبةً في أصلِ البعثِ والحشرِ، ولا يُنكرُه أحدٌ من أهلِ الأرضِ إلاّ المُلحدُ المُعطّلُ الّذي لا يُعَدُّ قولُه خِلافاً، وإنّما الاختلافُ في أشياءَ من صفاتِه نحنُ ذاكروها إن شاءَ اللهُ تعالى، فإنّ النَّفْسَ على أخذِ أمرِ النَشْأةِ الأُخرى فَلْيَقِسْها على نشأةِ أوّلِ الخلقِ من جمعِ طينٍ وما ضُمَّ إليه من حرارةِ الحياةِ، وحُرّك بمادّةِ الروحِ، وأنطق بالنفسِ المميّزةِ، فصارَ إنساناً يَسْعَى، وقد جاءَ في الخبر: مَنْ نَظرَ إلى الربيعِ فلْيكثِرْ ذكرَ النشورِ ونباتِ أهلِ القبورِ؛ ورُوى ما أشبه الربيعُ بالنشورِ؛ وأكثرُ أهلِ الإسلامِ على أن يحشرَ أصنافُ الخلائقِ من الجنِّ والإنْسِ والبهائمِ للقِصاصِ والانتصافِ؛ وقد رُوينا عن الحسنِ وعَكرمة أنّهما كانا يقولان: حشرُ البهائمِ موتُها، فكانا لا يريان لها بعثاً؛ وزعم قومٌ من أهلِ الكتابِ: أنّه إذا كانَ يومُ القيامةِ أمرَ اللهُ إسرافيلَ أن يجمعَ أرواحَ مَنْ كانَ مستَحِقًّا للثوابِ والعِقابِ من سَفُّودٍ[3]، ثُمّ ينفخُ فيه، وأنكروا بعثَ البهائمِ والأطفالِ والمجانينِ ومَنْ لم

---

(١) صحابي أنصاري خزرجي، شهد المشاهد كلّها مع النبي، اشترك في غزو الشام، مات بطاعون سنة (١٨ هـ). «منجد الأعلام».

(٢) أبو يحيى وهو أحد الوفد الذين وفدوا على رسول الله (ﷺ) من كندة، يعدُّ في أهل الشام. وفي مات، روى عنه سليم بن عامر الخبائري وغيره (ت ٨٧ هـ). «منجد الأعلام».

(٣) السفُّود: حديدة يشوى عليها اللحم.

تبلغه الدعوة؛ وقومٌ منهم ينكرون الصورَ والصراطَ والميزانَ، وقالوا: إذا ماتَ النّاسُ بُعِثَ المسيحُ فأحياهم، وصَارَ أهلُ الجنّةِ إلى الجنّةِ، وأهلُ النّارِ إلى النارِ؛ وقَالَ كثيرٌ من علمائهم: البعثُ للأرواحِ دونَ الأجسادِ على غيرِ هذه الخلقةِ التي تراها، ولكن على خلقةِ الخلودِ البقاءِ الأبَديّ، وليس الإنسانُ جسداً ورُوحاً لا غيرَ، ولكن روحٌ وريحٌ ونَفْسٌ وصورةٌ وعدمٌ وقوّةٌ ونطقٌ وحياةٌ تسعةُ أشياءَ، العاشرُ: وهو هذا الهيكلُ الأرضيّ المظلمُ، وقد نشاهدُ من أحوالِ الجواهرِ وإن كانتْ منبعثةً مِنْ الأرضِ، ثُمّ إذا سُبكتْ وأُذيبتْ وصُفّيتْ تحوّلتْ إلى حالةٍ ألطفَ منها وأكرمَ وأشرفَ، وكذلك الإنسانُ لا يُنكرُ أن يكونَ فناؤُه وبلاؤُه وحشرُه معنىً يزيدُه لطافةً ورقّةً وحالاً غيرَ هذه الحالةِ لأنّه يُخلقُ للخلودِ واللهُ أعلمُ.

[ذكرُ الموقفِ]:

روى المسلمون: أنّ النّاسَ يحشرون إلى بيتِ المقدسِ؛ ورُوي أنّ النبيّ ﷺ قَالَ: «هو المحشرُ والمنشرُ» وكذا يقولُ كثيرٌ من اليهودِ، ورُوي عن كعبٍ أنّ اللهَ نَظرَ إلى الأرضِ فقَالَ: إنّي واطىءٌ على بَعضِكِ فاستبقتِ الجبالُ وتضعضعتِ الصخور، فشكرَ اللهُ لها ذلك فقال هذا مقامي ومحشرُ خلقي، وهذه جنّتي، وهذه ناري، وهذه موضعُ ميزاني وأنا ديّانُ يومَ الدّين؛ وقَالَ بعضهُم فصيّرَ اللهُ الصخرةَ مِن مرجانةٍ طباقَ الأرضِ يحاسبُ عليها الخلق؛ وسمعتُ مَنْ يقولُ هذا مِن موضوعاتِ أهل الشامِ يبعثُ اللهُ الخلقَ إلى حيثُ يشاءُ.

[تبديل الأرضَ]:

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿**يومَ تُبدّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ وبرزوا للهِ الواحدِ القهّار**﴾ [إبراهيم: ٤٨] أي قَدْ برزوا، قَالَ قومٌ: التبديلُ أن يرفَع اللهُ هذه الأرضَ ويبسطُ غيرَها؛ كما جاءَ في الخبرِ: تمدُّ أرضٌ بيضاءُ كالأديمِ العُكاظي[1] لم يُسفك عليها دمٌ حرامٌ، ولم يعملْ بالخطيئةِ، وقيلَ: تُبسطُ أرضٌ من فضّةٍ كنَقِيِّ ٱلْمَلَّةِ يأكلونَ مِنْ تحتِ أقدامِهم؛ ورُوي أنّ عائشةَ رضي الله عنها سألتِ النبيّ ﷺ عن هذهِ الآيةِ، وقالتْ: أين يكونُ النّاسُ؟ قَالَ: «على جسرِ جهنّم» ورُوي أنّه قَالَ: «أضيافُ اللهِ فلنْ يعجزوه» وعن عَكرمة أنّه قال: «تُطوَى هذه الأرضُ وإلى جنبِها أرضٌ يحشرُ الناسُ عليها؛ وقَالَ آخرون: تبديلُ الأرضِ تغييرُ صفاتِها وهيأتِها من تسييرِ جبالِها وتعويرِ مياهِها وذَهَابِ أشجارِها؛ وروى الكلبيّ عن أبي صالح عن

---

(١) الأديم العُكاظي: نسبة إلى عُكاظ: موضع بين نخلة والطائف يبعد عن مكّة ثلاثة أيّام.

ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه أنّه قَالَ: كما يُقالُ للرجلِ تبدّلْتَ وإنّما تبدّلتْ ثيابهُ، واحتجّ بقولِ العباسِ ابن عبد المطّلب[1]: [طويل]

إذا مجلسُ الأنصارُ حُفّ بأهْلِهِ ... وفارَقَها فيها غِفارٌ وأسلمُ
فما النّاسِ الّذين عَهِدتُّهُم ... ولا الدّارُ بالدّار الّتي كُنْتُ أعلمُ

وقَالَ قومٌ: تبدّلُ ثُمّ يرفعُ لقولِ اللهِ الفناءَ عليها وكلٌّ هذا جائزٌ لأنّه أقررْنا بأنّ اللهَ تعالى أوجدَها من عدمٍ لا من غيرِ سابقةٍ لزِمنا أنْ نُجيزَ عليه أن يُعيدَها كما بدأها واللهُ أعلمُ.

[ذكرُ طي السماء]:

قَالَ قومٌ: طيُّها تغييرُ شمسِها وقمرِها ونجومِها وهيأتِها، وهي باقيةٌ، وكذلك الأرضُ، واحتجّوا بقولِ اللهِ تعالى في بقاء الجنّةِ والنّارِ ﴿ما دامتِ السماواتُ والأرضُ﴾ [هود: ١٠٧] قالوا: وليسَ في القولِ ببقائِها نقضٌ للدّينِ، فقد قُلنا ببقاءِ العرشِ والكرسي واللوحِ والقلمِ والجنّةِ والنّارِ والأرواحِ والأعمالِ الصالحةِ، ومَنْ خالفنا ألزمَه أن يكونَ الأرواحَ إذا أُفْنِيتْ فأُعيدتْ غيرَ ما كانتْ لأنّها لو كانتْ هي لَمَا أُفْنِيتْ، وإنْ كانتْ أُفْنِيتْ ثُمّ أُعيدتْ أرواحاً آخَرَ كانَ الثوابُ والعِقابُ واقعَيْن على غيرِ استحقاقٍ منها، وكذلك الأجسادُ قدْ تُعادُ من تُربتِها التي كانتْ خُلِقتْ منها، ثمّ تبقى في الجنّةِ والنّارِ على الأبدِ السرمدِ؛ وزَعمَ قومٌ: أنّ السماءَ ليستْ بجسمٍ ولا يكونُ معنىً طيّها إلاّ ما ذكرنا؛ وقَالَ آخرون: بل هي جسمٌ يُطْوَى كطيّ الكتبِ بظاهرِ قول اللهِ سبحانه: ﴿كطَيّ السِجِلّ للكُتُب كما بدأنا أوّلَ خلقٍ نعيدُه وَعْداً علينا﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقولُه: ﴿الأرضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسماواتُ مَطْوِّيات بيمينه﴾ [الزمر: ٦٧] حتّى روى بعضهُم وأشارَ بكفّه، وقَدْ قبضَها أنّها يفضلُ من هاهنا ومن هاهنا شيءٌ، وتختلفُ أحوالُ السماءِ وتصيرُ كالمُهْلِ وكالوردةِ، وتنشقُّ وتصيرُ أبواباً، ثُمّ تطوى بعدَ ذلك، فهذا مِن القولِ ظاهرٌ وذلك مُمكنٌ، وقد قالَ قومٌ ممّن يذهبُ مذهبَ الطائفةِ الأُولى كما ذكرَ من أمرِ السماءِ والأرضِ وتغييرِ أحوالِهِما فإنّه يُرادُ به أهلَهما وهما مقرّران كما هما واللهُ أعلمُ.

---

(١) أبو الفضل، عمّ النبي، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، إليه ينسب العباسيون توفي في المدينة سنة (٣٢ هـ) «منجد الأعلام».

[يوم القيامة]:

يُقالُ: إنّ طولَ ذلك اليومِ ألفُ سنةٍ من مقاديرِ أيّامِ الدّنيا بقولِ اللهِ تعالى: ﴿وإنّ يوماً عندَ ربّك كألفِ سنة ممّا تَعُدّون﴾ [الحج: ٤٧] فَيصِفُ ذلك اليومَ من حكمِ الدّنيا وهو من النفخةِ الأُولى إلى أن يقضي اللهُ بينَ خلقِهِ، فيدخلُ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ، ثُمّ بَعدَ ذلك من حكم الآخرةِ وكذا سمعتُ بعضَ أهلِ العلم بقوله، وزعمتْ فرقةٌ أنّ قولَه: ﴿في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ﴾ [المعارج: ٤] إنّه يومُ القيامةِ؛ وأكثرهُم على أنّه من التمثيلِ من الشدّةِ والمكروهِ الذي يُصيبُ بعضَ النّاسِ حتى يعدُّه خمسين ألفَ سنةٍ، وقِيلَ ذلك اليومُ خمسون موقفاً يُسْأَلُ العبدُ فيها فإذا جمعَهم الموقفُ رُدّتِ الشّمسُ إليهم وضُوعِفَ حرُّها، وأُذيبتْ من فوقِ رؤوسهم حتّى يُلْجِمَهُم الفَرَقَ[1]، ثُمّ ينزلُ العرشُ بحملةِ الملائكةِ، ثمّ تعلقُ الميزانُ، ويُؤْتَى بالجنّةِ والنّارِ، ويُنصَبُ الصراطُ، ويأتي اللهُ كيفَ شاء بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ويومَ تَشَقّقُ السماءُ بالغَمامِ ونُزّل الملائكةُ تنزيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥] ويقول: ﴿هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم اللهُ في ظُلَلٍ منَ الغَمام والملائكةُ وقضِيَ الأمرُ وإلى الله تُرْجعُ الأمور﴾ [البقرة: ٢١٠]، قَالَ المسلمون: ثُمّ يبقى أهلُ الجنّةِ في الجنّةِ وأهلُ النّارِ في النّارِ خالدين مخلّدين ودائمين أَبَدَ الآبِدِين، ولا يُدْرَى هلْ يُحدثُ اللهُ خلقاً جديداً أو عالماً آخرَ وأرضاً وسماءِ، ويبعثُ إليهم الرُسُلَ، ويكلّفُ بما كلّفَ مَنْ كانَ قَبلهم أم لا؟ وقد رُوي عن بعضِهِم أنّه كانَ يرى فناءَ أهلِ النّارِ بَعدَ ما مضى أَحْقابٌ، ومن أهلِ الكتابِ قومٌ يزعمون أنّه إذا مضى للجنّةِ والنّارِ ألفَ سنة بادتا وفَنِيتا، وصار أهلُ الجنّةِ ملائكةً وأهلُ النّارِ رميماً؛ وحدّثني رجلُ من علماءِ اليهود: أنّ فيهم فرقةً يزعمون أنّ العوالمَ لا يُدرى كم مَضى منها وكم بقي وأن مدّةَ كلِّ عالمٍ ستّةُ ألفِ سنة، ثُمّ يحشرُ الخلائقُ ويحاسبون، وذلك يومَ السّابعِ قَالَ: يومَ السبتِ، فيدخلون الجنّةَ والنّارَ، ثُمّ يصير أهلُ الجنّةِ ملائكةً وأهلُ النّارِ رميماً، ويُعاد خلقٌ آخرُ وأمرٌ آخر لا يزالُ كذلك، وكلُّ سبتٍ عندَهم قيامةٌ كذا، ومِن القدماءِ مَنْ يزعمُ: أنّ خلقَ الخلقِ بفضلٍ وجودٍ وامتنانٍ ولا يجوزُ على الجّوادِ المُفضِّلِ أنْ يظهرَ جُودَه في كلِّ وقتٍ، ولكنّه إذا أفنى هذا العالمَ ابتدعَ عالماً آخر، وكم من عالمٍ قد ابتدعَه وأفناه؛ ومنهم مَنْ يقولُ: بنقلِ الخلقِ إلى الآخرةِ فكلُّ يومِ قيامُ قيامةٍ، وابتداءُ عالَم؛ وسمعتُ منهم مَنْ يحتجّ بالخبرِ المرويّ عن المُغيرةِ بن شُعبة[2]: مَنْ ماتَ فقدْ قامتْ قيامتهُ.

---

(١) العِفار: ميسم يكون على الخدّ.

(٢) الفرق: الطريق في شعر الرّأس.

[أقوال القدماء في خراب العالم]:

حكى جابرُ بن حيانٍ[1] أنّه إذا انتهى مسيرُ الكواكبِ إلى غايةٍ، وتفرّقتْ في أبراجِها، وتشوّشتْ حركاتُ الفلكِ، واضطربتْ كما كانتْ قبلَ اجتماعِ الكواكبِ في أوّل دقيقةٍ من الحملِ، اختلفتْ أحوالُ العالمِ وتفاوتتْ أرباعُ السنةِ وفصولُها، فلا يستقرُّ شتاءٌ ولا صيفٌ وتهبُّ الرياحُ العواصفُ، وتهلكُ الحيوانُ والنباتُ لمجيءِ الأمطارِ في غيرِ وقتِها وشدّةِ الزلازلِ وكثرةِ الرّياح وتعادى الأركانِ، فيغلبُ الماءُ على اليبسِ واليبسُ على الماءِ والنّارُ على النباتِ والحيوانِ، ويفسدُ مزاجُ التركيباتِ، وتقفرُ الأرضُ، ويخلو إلى أنْ تجتمعَ الكواكبُ في حيثُ منه تفرّقتْ، وعندَه بدءُ الخلقِ والنُشُوءُ ثانياً.

وحكى افلاطن في كتابِ سوفسطيقا في ذكرِ النفوسِ وأحوالِها بعد مفارقةِ الأبدانِ قَالَ: وإنّ النفسَ الشِرِّيرةَ إذا تفرّدتْ عن البدنِ بقيتْ تائهةً متحيّرةً في الأرض إلى وقتِ النشأةِ الآخرةِ، قَالَ: وفي هذا الوقتِ تسقطُ الكواكبُ من أفلاكِها ويتّصلُ بعضُها ببعضٍ، فيصيرُ حولَ الأرضِ كدائرةٍ من نارٍ فتُمنعُ تلك النفوسُ من الترقّي إلى محلِّها، وتصيرُ الأرضُ سجناً لها، قَالَ المفسّر عن شرح افلاطن بالقيامةِ والبعثِ والنشأةِ الآخرةِ، وكذا رأيُ أرسطاطاليس في بقاءِ ما فوقَ فلكِ القمرِ وأنّه لا يقبلُ الاستحالة، وإنّه أرادَ به إلى ذلك الوقتِ ولا تِلْتَفِتْ إلى تأويلِ كفّارِ المتفلسفةِ لآرائهم مع شهادةِ الدّلائلِ على ما قُلنا ومعاونةِ كتبِ اللهِ وأخبارِ رُسُله في ذلك، واعلمْ ـ رحمك اللهُ ـ أنَّ كلَّ ذي عقلٍ محجوجٍ بعقلِه مضطرٌّ إلى الإقرارِ بالابتداءِ للخلقِ وابتداعِه وتجويزِ فنائِه وانقضائِه، هذا ما لا بُدّ منه، فأمّا معرفةُ ذلك كيفَ أبغَلَبَةٍ إحدى الطبائعِ أو بشَمُول فاسدٍ أو وقوعِ قَحْطٍ ومُوتانٍ أو قتلٍ أو ما كانَ على نحو ما حكاه أهلُ الإسلامِ وأهلُ الكتابِ أو من دونهم؟ فشيءٌ سبيلُهُ الخبرُ والسمعُ يقعُ فيه الاختلافُ والتفاوتُ ولا يُبطلُ وقوعُ الاختلافِ فيه ما توجبهُ العقولُ، وأمّا الأخبارُ التي رُوينا فهي شعارُ الدّينِ ومحضُ الديانةِ وصريحُ الحقِّ، ومَنْ لم يعتقدْها على وجهِها ظاهراً أو باطناً ولم يعتصمْ بها ولا رأى اليدين بحقيقتِها والنجاةَ فيها، وإن كانَ أكملَ النّاسِ عقلاً وأيقنَهم فهماً وأصوبهَم رأياً وأصلبَهم عُوداً وأكرمَهم خسباً وأسناهم بيتاً وأقدمَهم شرفاً وأغيرَهم غيرةً وأحماهُمن حميّةً وأحمدَهم سِيرةً وأعظمَهم حياءً وأرقَّهم فؤاداً وأسخاهم نفساً وأطلبَهم

---

(١) ثقفي من دُهاة العرب، صحابي ولاّه عمر البصرة والكوفة، شدّدد التنكيل بشيعة علي، كان مزواجاً مطلاقاً (ت ٥٠ هـ). «منجد الأعلام».

للخير وأعمّهم نفعاً وأمْوَتَهم حِقْداً وأحملَهم للضيم وأقنَعهم بالكفاية وأكفَّهم أذىً وأبذلَهم ندىً وأهداهم للفضائلِ وأقدَرهم عليها وأبسطَهم يداً وأجمعَهم لكلِّ خصلةٍ حميدةٍ ومأثرةٍ كريمةٍ مع شدّةِ رغبةٍ في اقتناءِ الخيرِ وابقاءِ الذكرِ الجميلِ وادّخارِ الثناءِ الحَسنَ فهو إلى النقصِ والسَفَهِ وضعفِ العقيدةِ ومخالفةَ الظاهرِ للباطنِ واتّباعِ الهوى وإيثارِ الرياءِ والإلمامِ بالفواحشِ والاستخفافِ بمعتقدي خلافِهم واستجمالِهم ونكْسِ ما عدّدنا من الفضائلِ إلى الرذائلِ وقلبِها إلى الاضدادِ أقربُ وأدنى، وبها أحقُّ وأَوْلَى، لأنّ المُرادَ لم يكنْ له باعثٌ من نفسِهِ وحاقرٌ من ذنبِهِ فهو إلى ما يصطنعهُ وينتزعُ به غيرُ نشطٍ ولا صادقُ الرغبةِ ولا متسارعُ ولا مُتَشَحٌ منافسٍ، ومَنْ كان كذلك لم يكنْ لعلمِه رونقٌ ولا لمذهبِه بهاءٌ ولا عندَ ذوي الصنائعِ قبولٌ وتزكيةٌ، وناهيك من ديّن معتقدِ الديانةِ وإن قَلَّتْ أفعالُه وقصُرَتْ يداه من حُسْنِ هيأتِه وخمودِ شِرَّتِهِ وسكونِ أطرافِهِ وجميلِ تواضُعهِ وحُسنِ بشرهِ وشدّةِ سطوتِه على مَنْ خالفَ دينَه، أو يتأوّل بنيّتَه وبذلَه مالَه ومهمَه دونَه فاحذروا عبادَ الله أنفسَكم وأهواءَكم وأصنافاً من أشباهِكم أنا واصفُها لكم في نِحَل المسلمين إن شاءَ اللهُ، وألْزَموا الدّينَ الذي أحلَّ الله خلقه، ودعاهم إلى التمسّكِ به، وأخذَ عليهم المواثيقَ والعهودَ في المحافظةِ عليه، وأنزلَ به الكتبَ، وأرسلَ الرُسُلَ، ووعدَ مَنْ أجابَ إليه، وأوعدَ من حَاد عنه، فقد وضحَتْ دلائلُ برهانِه وصحّتْ آثارُ حكمتِه، وإيّاكم والاغترارَ بالجُهْلِ والمُجّانِ والخُلَعاءِ ومستنقلي الأمانةِ لغلبةِ حظّ البهيميّة والسُبَعيّة عليهم حتّى صارَ أقصى همّةِ أحدِهم امتلاءُ بطنٍ واكتساءَ ظهرٍ ومنالَ شهوةٍ وإنفاذَ غيظٍ وإنكابةَ في عدوٍّ، فموّهوا أباطيلَ مُزخرفةً وأساطيرَ مزوّرةً: ظاهرُها التشكيكُ والتلبيسُ، وباطنُها الكفرُ والإلحادُ يقتنصون بها الأغمارَ والأحداثَ، ويُحيّرون العوامَّ الذين ليسَ عندَهم فضلُ معرفةٍ ولا كثيرُ تميُّزٍ، ومهما اشتبه عليكُم من أمرِهم شيء فلا تغفلوا عن فعلِ اللهِ بهم مُذ قامتِ الدّنيا على ساقِها لم يطمحْ منه طامحٌ في جاهليّةٍ ولا في الإسلامِ إلاّ وهضّه[1] اللهُ بقارعةٍ، ولا أقاموا رايةً إلاّ وهّلها[2] اللهُ بالنكسِ والخمولِ، ولا نجم ناجمٌ إلاّ سلّط اللهُ عليه أضْعَفَ خلقِهِ، ولا كادَ للدينِ كيداً إلاّ ردّه اللهُ في نحرِهِ ينجزُ وعدَه منه تعالى: ﴿**ليُظهره على الدّينِ كلّه ولو كره المشركون**﴾ [الصف: ٩] فأصلُ ديانةِ كلِّ ذي دينٍ من أهلِ الأرضِ أنّ اللهَ خالقهُ ومُفنيهُ ومُحييهُ، وهو يأمرهُ بالعدلِ والإحسانِ وينهاه عن الفَحشاءِ والمنكرِ والبغي، ويبعثُه بعدَ موتِهِ فيجاوبهُ الثوابَ على

---

(١) هضّه: كسره.
(٢) وهّلها: خوّفها وفزّعها.

إحسانِه والعقابَ على سيّئاتِه، لا يختلفُ فيه مُخْتلِفٌ إلاّ المعطّلةُ الدهريّةُ، وهم شِرْذِمة قليلةٌ، وأمّا أهلُ الكتبِ فلزِمَهم أن يعتقدوا ما ذكرنا أنّ اللهَ سابِقُ خلقهِ، خَلَقَ كلّ شيءٍ دونَه وأنّه واحدٌ لا شريكَ له، ولا شيءٌ قديمٌ معه: أرسلَ الرُسُلَ، وأنزلَ الكُتُبَ بالبشارةِ والإنذارِ، وأنّه يُفني الخلقَ ويُبيدُه، ثُمّ يُعيدُه كما أبدأه إذا شاءَ فمَنْ كان هذا عقيدتهُ رُجي له أن يكونَ من الفائزين الأمِنين: ﴿الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٣٨].

الفصل العاشر

في ذكر الأنبياء ومدّة أعمارهم وقصص أممهم وأخبارهم على نهاية الإيجاز والاختصار

في أخبارِ المسلمينَ أنّه كانَ مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرون ألف نبيّ، والجمُّ الغفيرِ منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر نبياً مُرْسَلاً. ويقال: خمسةَ عشرَ، وقال: وهبٌ منهمْ خمسة عبرانيّون آدمُ وشيثُ وإدريسُ ونوح وإبراهيم وخمسةٌ منَ العربِ هودٌ وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمّد ﷺ.

قال: وكانَ أنبياءُ بني إسرائيل ألف نبيّ، أوّلهم موسى وآخرهم عيسى. قال وقد قال: رسول الله ﷺ يومَ بَدْر لأصحابه «أنتم على عدّة أصحاب طالوت وعلى عدّة الرُسُل» فمن الأنبياء مَنْ يسمع الصوتَ ومنهم مِن يُوحَى إليه في المنام، ومنهم من يُكلّم وفي الحديث «أنّ جبريل ليأتيني كما يأتي الرَّجُلُ صاحبَه في ثيابِ بيض مكفوف باللؤلؤ واليواقيت رأسه كالحبك وشَعْره كالمرجان ولونه كالثلج جناحاه أخضران ورِجْلاه مغموستان في الخضرة وكيت وكيت».

[ذِكرُ عدد ما نزل من الكتب]:

قال وهب: والكُتُب التي أُنزِلَتْ من السماء على جميع الأنبياء، مائة كتابٍ وأربعة كُتُبٍ منها على شيث بن آدم كتاب في خمسين صحيفةٍ، وعلى إدريس كتاب في ثلاثين

صحيفة، وعلى موسى التوراة، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمّد ﷺ القرآن، ورُوينا عن غير وهب: أنّ الله تعالى أنزل على آدم إحدى وعشرينَ صحيفة، فيها تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وقيل لم يكن فيها غيرَ الحروف المقطّعةِ، وهي كلّ حرف يَلْفظ بها اللافظ من العربيّة والعجمّية فيها ألفَ لُغةٍ من أُمهات اللُغات، حدّ الله تعالى عليها الألسنة كلّها والتوراة تجمع كُتباً كثيرةً للأنبياء، وهي خمسة أسفارٍ وأربعة وعشرون. وقد رُوي ثمانية عشر كتيفى يعنون كتب الأنبياء.

وقد قصّ الله تعالى في القرآن ما أوحى إلى نوح وهود ولوط وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام فلا أدري إنهم لم يُؤمروا بنسخها والتحفّظ لها، أو كانت مُثْبَتةً عندهم. فنُسِخَتْ بكتابٍ بعدها، أو كان الوَحْيُ والصوت لا يُعدّ كتاباً، أو كان عِلْمهم وأحكامهم على مُوجب العقل، أو كانوا يتّبعون صحيفة آدم وسُنّته، لأنّ هذا كلّه مُحتمل بقول الله تعالى **﴿كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومُنْذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾** [البقرة: ٢١٣]. فعموم هذه الآية يوجب أن يكون لكلّ نبيّ كتاب يعمل به وراثةً عن مَنْ قبلَهُ وتخصيصاً به وحدَهُ، وقد كانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يعلّمون بالتوراة ويحكمون بها، إلى أن أُنزل الفرقان ومع ذلك يُوحى إليهم ويُنزل الكتب عليهم.

[ذكر عدد الأنبياء جُملةً]:

قال الله تعالى: **﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصُص عليك﴾** [غافر: ٧٨] فممن سمّاهُ لنا القرآن قوله: بعد ذكر إبراهيم عليه السلام **﴿ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ كُلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبلُ ومن ذرّيّته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهٰرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين وإسمعيلَ واليَسَعَ ويونُس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين﴾** [الأنعام: ٨٦]، وسمّى لنا آدم ومحمّداً وهوداً وصالحاً وشعيباً وذا الكِفْل وعُزيراً [ومن] لم يُسمِّه لنا منهم قوله تعالى **﴿ألم تَرَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم أبعثْ لنا مَلكاً نقاتلْ في سبيل الله﴾** [البقرة: ٢٤٦] قال أهل التفسير اسمه اسماويل بن هلقانا وقالوا: في قوله تعالى **﴿ألم تَرَ إلى الذين خرجُوا من ديارِهم وهمُ ألوفٌ حذرَ الموتِ فقال لهمُ اللهُ موتوا ثُمّ أحياهُم﴾** [البقرة: ٢٤٣] أنّ نبيّهم حزقيل بن بُوزِي وقال قوم في قوله تعالى **﴿أو كالّذي مرّ على قرية وهي خاويةٌ على**

عروشها﴾ [البقرة: ٢٥٩] أنّه أرميا وقيل بل هو عُزَيْر وقال في أسماء الأسباط وهم اثنا عشر رجُلاً روبيل وشمعون ولاوى ويهودا ويستاخر وذان ونفتالى وجاد واسترقفا وزبالون، ويوسف وابن يامن، كلّهم أنبياء وزعم بعضهم في قوله تعالى ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالث﴾ [يس: ١٤] إنهم كانوا أنبياء بعد عيسى عليه السلام ومنهم من يزعم أنّهم كانوا رُسُل عيسى، وهم يحيىٰ وتومان وشمعون.

وذكر أهل الأخبار أنّ شيثَ بن آدم كان نبياً وموسى بن ميشى بن يوسف كان نبياً قبل موسى بن عمران، وذو القرنين كان نبياً، وبلعم بن باعوراء كان نبياً، ثمّ ذهبَتْ نبوّتُه ويُوشع ابن نون، وكالب بن يوفنا وبوشاماسن بن كالب وشعْيَا بن آمُوص وجرجيس كانوا أنبياء، وأمّا أهل الكتاب فيزعمون أنّ دانيال وعليّاء ومشيايبل وعيلوق وحبقوق أنبياء، وفي التوراة سِفْر لاثني عشر نبياً، كانوا في زمنٍ واحدٍ عَدَّ اسماءَهم إليَّ رجلٌ من اليهود هو يسع، ويوايل وعاموس وعوديا وميخا، وناحوم وحبقوق وصفنيا وهكاي وزخريا وملاخى. وفي كتب بعض الحَوَاريّين، أنّه كان بعد المسيح بانطاكية أنبياء منهم: برنبا ولوقيوس، وماثانيل واغابوس، ويزعمون أنّ عدّةِ من النساء تَنَبَّتْ منهن مريم المجدلانية، وحنا بنت فانوئل وابيغايل وغيرهنّ ممّن ذكرنا أسماءهنّ.

وذكروا نبياً يقال له شمُسون. وفي كتاب أبي حذيفة أنّ ادرياسين كان نبيّ المجوس، ورُويَّ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ذكر أصحاب الكهف فقال: كان المجوسُ أهلَ كتابٍ ولهم نبيّ، وساق القصّة إلى آخرها. وقد قال بعض المحدّثين: أنّ الخضر كان نبياً، وزعم وهب أنّ الله بعث ثلاثة وعشرين نبياً إلى سبا، فكذّبوهم ورُوي في الأخبار أنّه كان نبيٌّ باليمن يُقالُ له حنظلة بن أفيون الصادق، وكانَ في الفترةِ نبيّ يُقَالُ له خالد بن سِنَان العبسيّ، وروىٰ جبير أنّه: كان قبل خلق آدم نبيّ بعثه الله إلى أرضِ اليمن، ومنهم بنو الجان اسمه: يوسف فهؤلاء ثمانون نبياً على ما حُكي ورُوي عن أهلِ الكتاب، وغيرهم.

والله أعلم، وقد رُوينا عن الحسن أنّه قال: كان العجائب في بني إسرائيل، وكانوا يقتلون مائة نبيّ في غداة واحدة، ثُمّ يقوم يسُوق أهلهم ولا يكترثون وأولو العزم من الرُسُل خمسةٌ نوحٌ وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد عليه الصلاة والسلام. كانوا أهل أُممٍ وكتبٍ بقول الله عزّ وجلّ ﴿وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابنِ مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ [الأحزاب: ٧].

[ذكر أراء المجوس وسائر الملل في الرُسُل]:

اعلم أنّهم يُقرّون بنبوّة جَم شاذ، ونبوّة كيُومرَّث، ونبوّة افريذون، ونبوّة زردشت، وكتابه الابسطا. ومنهم طائفةٌ يُقرّون بنبوّة به افريذ، معناه خير ما خُلق. وفي كتابهم أنّه كان بعد زردشت، ثلاثة من الأنبياء فآمنوا بهم وأتّبعوهم.

وأمّا الحرّانيّة فإنّهم يقولون لَنْ تُحصَى أسماءُ الرُسُلِ الذين دعوا إلى الله وإنّ مشهورهم أراني واغثا ذيمون، وهرمس وسولن جدّ أفلاطن لأُمّه.

ومن القدماء من يقول: بنبوّة افلاطن وسُقراط وارسطاطاليس، وهؤلاء يقولون النبوّة علم وعمل، وأمّا الهند فمن أثبت منهم الرسالة فإنّهم يزعمون أنّ الرُسُلَ ملائكةً فمنهم بهابود، وَتبعةُ البهابودية، وشب وأُمّته الكابليّة، وراماں وأُمّته الرامانيّة، وراون وأُمّته الراونيّة وناشد وأُمّته الناشديّة، وهؤلاء فِرَقُ البَرَاهِمة الذين يثبتون الرسالة. ومنهم مهادر وأُمته المهادرية، مع فِرَق وأهواء كثيرة يمرّ بك في موضعها. وأمّا الثنويّة فإنّهم يقولون بنبوّة ابن ديصان، وابن شاكر وابن أبي العوجاء وبابك الخُرمّي، وعندهم أنّ الأرضَ لا تَخلو من نبيّ قَطُ، ومن المسلمين من يقول: أنَّ في الجنّ أنبياء، كما في الإنس، ويحتج بقوله تعالى ﴿يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وزعم ابن حَائِط أَنَّ في كلٍّ خَلقٍ مِنَ الخلائقِ أنبياء حتّى في الحُمُر والطير والبراغيث، واحتجّ بقوله ﴿وما من دابّةٍ في الأرض ولا طائر يطير بجناحَيه إلاّ أُمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨] وبقوله عزّ وجلّ ﴿وإنْ من أُمّة إلاّ خلا فيها نذيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وكان يقول بالتناسخ وجملة القول في الأنبياء والنبوّة: أنها كُلَّها مِنْ مشكاةٍ واحدةٍ لا يجوزُ عليها أن يُختلف في أصل الديانةِ والتوحيدِ ولا فيما يأتي به من الأخبار وإنْ اختَلفت فروعُهُ وانتَسَختْ شَرَائِعَ بعضهمْ ببعض بقول الله تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً أن أقيموا الدّينَ ولا تتفرقّوا فيه﴾ [الشورى: ١٣] وقال تعالى ﴿واسئل مَنْ ارسلنا قبلكَ من رُسُلنا أجعلنا من دونِ الرحمنِ آلهة يُعبدون﴾ [الزخرف: ٤٥] فما روىٰ قومٌ من شيءٍ يُخالِفُ أَصْلَ الدِّيانةِ والتوحيد، مثل كفرِ النعم والإشراكِ بالله واستحلالِ الظلمِ، والأمر بالمُنْكَرِ والنهي عن المعروفِ، ولا دعوة من قبل نبيّ أو رسول فهم كاذبون في دعواهم أو نبيّهم كاذب متنبىءٌ، لأنّ هذا خلافَ التوحيدِ ومجيزو العقل ما روَوْا من شريعةٍ يجوز أن تعبّد الله بها وبِضدِّها فلم نجدْها في كتابنا ولا فيما في ايدي أهلِ الكتاب أمررناها على وجهها، لأنّهُ ممكن أن يكون

ذلك شريعةَ نبيٍّ، إذْ لم يُبَيِّنْ لنا شرائع جَميعَ الأنبياءِ وأخبارهمْ ولا وقفنا على جميعِ أسماءهم والله أعلم.

[قصّة آدم عليه السلام]:

قد مضَتْ أخباره عليه السلام عند ذكر خلقه يقال له: آدم ابن التراب، وكنيته أبو البشر، وأبو محمّد، وجاء في الحديث أنّه كان نبيًّا مُرسلاً، وكلّمه الله قيلاً وأَسْجَدَ لهُ الملائكةَ وأسكَنَهُ الجنّةَ وخلَقَهُ بيدِهِ ثُمّ هَبَطَ إلى الأرض فتناسلَ وأعقبَ، فلمّا كثروا وأولدوا، وعمّروا الأرض، نبّأَهُ الله إلى ولده بعض مُضِيّ خمس مائة سنة من عمره، وكان يكلّمه من السماء بلا واسطة، وينزل عليه مع ذلك الوَحْي وأَنْزلَ عليه إحدىٰ وعشرينَ صحيفة، فيها تحريم الميتةِ والدّمِ ولحم الخنزيرِ وهو أوّل مَنْ علّمهُ الله الخطّ بالقلمِ، ثُمّ لم يكتب من ولده أحدٌ إلى زمن إدريس عليه السلام، وفرضت الصلاة عليه خمسين ركعة، وفي بعض الروايات أنّه لم يكنْ لهُ شريعةً غير التوحيد والله أعلمُ. وكان من معجزاته، نظره إلى جسده وهو تجري فيه الروحَ، وخَلْقَ زَوْجَتَهُ من ضلعهِ وسجودِ الملائكةِ لَهُ وسكونه الجنّةِ وكلامُ الله له قيلاً، وزعم وَهَبْ أنّ آدم كانَ أجمل خَلْقِ الله وأنّه كَان أمْرَد وإنّما نبتت اللحيَة لولده وأنّه عاشَ ألف سنةٍ وفي التوراة كان عُمر آدم عليه السلام ألف سنة إلاّ سبعين سنة والله أعلم.

[قصّة شيث بن آدم]:

زَعَم أهل الكتاب، أنّ ترجمة شيث: العِوَضُ والهبة، وذلكَ أنّه لمّا قَتَلَ قَابيلُ هابيلَ عَوَّضَ الله آدم من هَابيل شيثَ، وانقرض نسلُ قابيل، وجملة أسباب سائر ولد آدم إلاّ شيثَ، وكان وصّي آدم وولّي عهدِهِ وخليفتَه من بعده.

[قصّة إدريس النبي عليه السلام]:

يزعم أهل هذا العلم أنّه اخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن آدم وأمه بركيا بنت الدر مسيلان بن محويل، بن اخنوخ بن قين بن آدم وإنّما سُمّي إدريسَ لكثرة درسه، وهو أوّل نبيّ أُعطِيّ الرسالةَ بعد آدم، وكان مستخلفاً خلافة نبوّةٍ لا خلافةَ رسالةٍ، وإدريسُ أوّلُ مَنْ خطّ بالقلمِ بعد آدم، وأوّل من خاط الثياب ولبسها وكانَ مِنْ قَبْلِهِ يَلْبسونَ الجلود، وكان ولد آدم حيّ ونبّأه الله بعد وفاة آدم، وأنزل عليه النجومَ والطبَّ، واسمه عند اليونانيّين هُرمُسْ، وكان يَصْعَدُ له من العملِ في كلّ يومٍ مِثل عمل بني آدم كلّهم، فشكرَ اللهُ

ذلك له فرفعه مكاناً عليًّا.

واختلف الناسُ كيفَ رُفِعَ، في كتاب أبي حذيفة، أن الملائكة كانوا يصافحون بني آدم في زمنِ إدريس، ويزورونهم في رحالهم ومجالسهم، لطيب الزمان وصلاح أهله، فاستأذن مَلَكُ الشمس في زيارته، فأَذِن له فسأله إدريس أنْ يرفعهُ إلى السماء ليَعبد الله فيها مع الملائكة، فرفعه الله فهو في السماء الرابعة ورُوِيّ عن عبد الله بن العباس أنّه سأل ملك الشمس، أن يعلّمه الاسم الذي يُصعَد به إلى السماء، فعلّمَهُ فَرِقيَ به إلى السماءِ الرابعة، وبعث الله ملك الموت فقبضه هناك. ورُويَ أنّه رُفِعَ إلى السماءِ الدنيا كما رفُع عيسى.

ورُوي عن زيدٍ بن أرقم خلاف هذا كلّه، أنّهُ رُفع إلى الجنّة، وفي حديث أنّه أذيقَ الموتَ، وأوردَ النارَ، فإن صحّت الرواية فَبِهَا ونعمت لأنّ هذا الخَبر نظائرُ دخولُ آدم وزوجتِهِ الجنّةَ ورُفِع عيسىٰ فإنِ اسْتُعْظِمَ رَفْعُ أجسامٍ إلى السماء، فأعظم منه هذا الغيمُ الراكد في الجوّ، وهذه الأرض في ثِقَلِها وكثافتِها واقفة في السماء كما ترى، ولن يعتلّ بهذا شيءٌ إلاّ أمكنَ صَرْفهُ إلى ذَلِكَ مع أنَّ كثيراً من نُظّارِ المسلمينَ يرَوْنَ الرَفْعَ للأرواحِ دون الأشباح، أو يكون رفع القَدْر، وتعظيم المنزلة، كما قال الله تعالى: ﴿**يرفَع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى في الشهداء عند ربّهم يرزقون وأجسامهم في الأرض جِيَفٌ ورُوي أنّ النبيّ ﷺ: رأى إبراهيم وموسى وعيسى، ونوحاً وآدم ليلة المعراج، وهي ليلةَ عُرِج به إلى السماء، لم يَخْتلفوا أنّهم لم يُرْفَع أجسامُهم فهذا هو الحقّ، وذلك مُمْكِن واللهُ أعلم.

ويدلّ على أنّ هوشنك المَلِك، كان قبل إدريس، أو في زمنه أنّ الفُرس زعمت: أنّه أوّل من أَمَر بقتل السباعِ الضارية، وأنْ يُتخذ من جلودها ملابسُ ومفارش، ويدلُّ أيضاً أنّ طهمورث الملك، كان في زمنِهِ وعهده، وإنْ كَانَ عَاشَ بعده كيومرث الذي هو بمنزلة آدم عند أكثرهم، ويزعمون أنّه أوّلَ من كتبَ الكتابَ، وفطر الناس إليه، كما يَقولُ أهلُ الإسلام: أنّ إدريس أوّل من خط بالقلم، وفي زمانه قصّة هاروت وماروت.

[قصّة هاروت وماروت]:

اختلفوا المسلمون فيه اختلافاً كثيراً فروي بعض أهل الأخبار أنّ الله تعالى، لمّا أراد أن يخلق آدم ﴿**قال للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك**﴾ [البقرة: ٣٠] فلّما خلق آدم، وتعاطت

ذرّيّته الفساد، قالت الملائكة: يا ربّ أهؤلاء الذين استخلفتهم في الأرض، فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة يُنزلهم إلى الأرض، ليحملوا الناس على الحقّ ففعلوا، وقالوا: جاءتهُمُ أمرأةٌ فافتتنوا بها، حتّى شربوا الخمر وقتلوا النفس، وسجدوا لغير الله سبحانه، وعلّموا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء، فصعِدَتْ حتّى إذا كانت في السماء مُسخَتْ كوكباً، وهي هذه الزُهرة قالوا: وخُيّر الملكان من عذاب الدنيا والآخرة فاختاروا عذاب الدنيا فهما معلّقان بشعورهما في بئرٍ بأرض بابل، يأتيهم السَحَرةُ فيتعلّمون منهما السحر، وأهلُ النظر لا يُثبتون كثيراً منْ هذهِ القصّةِ منها أمرُ الزُهرةِ، لأنّها من الكواكب الخُنَّس، الّتي جعلها الله قطباً وقواماً للعالم، ومنها ركوبُ الملائكةِ مثلَ هذهِ الفواحِشَ مع ما وصفهم الله به من طول العبادة وابتغاء الزُلفة، ثُمّ هم ليسوا بذوي أجسامٍ شهوانيةٍ مجوّفةٍ، فيجوز عليهم مثل هذا، وقد قال: قوم أنّهم أُعطوا الشّهوة وجُعلَ لَهمْ مذاكير ومنها تعليمهم الناسَ السِحْرَ وهم في العذاب، والأوْلَى بمن تلك حالته طَلَبُ التوبة والمَخْلَص، ولا توبة للمُذْنِب، ما لم يُقْلع.

فإن كان هاروت وماروت ملكين كما يزعمون، فإنّهما أُنزلا ليُبيّنا للناس وجوه السحرِ ويُحذّراهمْ وبيل عاقبته، لا غير وكَانَ الحسنُ يَقْرأ ﴿وما أنزل على الملِكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. بكسر اللام ويقال: علِجان ببابل وأمّا الزُهرةُ فإن كان من أَمْرِها شيءٌ فإنّها أُفتِن بها أناسٌ يعبدونها، كما افتتنوا بالشمس والقمر وكوكب الشعري، وقد رُوينا عن الربيع بن أنَس، أنّه قال: في هذه القصّةِ، كانت امرأة حسنها في النساء كحسنِ الزهرة، مع أنّه ليس في كتاب الله شيءٌ من هذا وبمثل هذه الأخبار، ينطر المُلحدونَ إلى فسادِ القلوب، والله المستعان. وقد استقصينا هذه القصّة في كتاب المعاني والله وليّ الإعانة ووليّ التسديد والتوفيق.

[قصّة نوح النبيّ]:

يقالُ هو آدم الأخيرُ، واسمه سُكنٌ لأنّ الناس سكنوا إليه بعد آدم، وإنّما سُمّي نُوحاً لكثرة نَوْحِهِ على نفسه وقومه. وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ، وأُمّه قينوش بنت براكيل بن محويل بن قين بن آدم. قال: وهب وكان رجُلاً نجّاراً، دقيقَ الوجهِ طويلَ اللحية، غليظ الفصوص، في رأسه طول. قال جويبر: أنّهُ كَانَ وُلِدَ في حياةِ آدمَ وذلك أنّ آدم لمّا كبُرَ سِنّه وَدقّ عظْمهِ قال يا ربّ: إلى متىٰ أَكُدُّ وأَشْقَى قال يا آدم: حتىٰ يُولَد لكَ ولَدٌ

مختون، فيولد نوح بعد عشرة أبْطُن، وآدم حينئذٍ ابن ألف سنة إلاّ خمسين عاماً.

ثُمّ مات آدم وكثرت الجبابرة، وضّيعوا وَصاة الأنبياء، ونَصَبُوا صُوَر المتوفّين من أبائهم وأخوتهم يسجدون لها ويعبدونها، بعد ما كانوا يتسلّون بالنظر إليها، ويتعزّون بلقائها، فنبّأ الله تعالى نوحاً وأرسلهُ إليهمْ يأمرهُمْ بعبادة الله وحده، والكفّ عن المظالم، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فما آمن معه إلاّ قليلٌ يقال ثمانون إنساناً، أربعون رجُلاً، وأربعون امرأةً.

ورُوينا عن الأعمش[1] أنّهُ قَالَ كانوا سبعةً نوحٌ وثلاثة بنينٍ وثلاثَ كنائن. وأمّا ابن اسحق فإنّه روى: أنّهُ كَانَ نوحُ وحامُ وسامُ ويافثُ وأزواجَهمْ وستّة أُناسٍ، فأمر الله بعدما دعا على قومه باتّخاذ السفينة، فبناها وسوّاها، وحمل فيها من كلّ زوجين اثنين، إلاّ امرأته وابنها ويقال: بل كان ابنه واسمه يام، ويقال: كنعان وأمره أن يركبَ السفينة إذا فارَ التنّور بناحية الكوفة، ويقالُ بأرضِ الهندِ وكانَ ذلك عَلَماً للغرق، ففعل كما أمره الله عزّ وجلّ واغرَقَ الله الظالمين.

قال الضحّاك: إنّ مَنْ غَرِقَ من الوِلْدان مع أبائهم بذنبهم، وليس كذلك، وإنّما هو بمنزلة الطير من البهائم وسائر ما غرق بغير ذَنْب، ولكن بآجالهم وقال قومٌ قبضَ اللهُ أرواح الحيوان، والأطفال قبل الغرق، وأغرق الله الكافرين، عقوبةً لهم. وقال آخرون أعقَم أرحامَ نسائِهمْ فلم يَحمْل منهنّ واحدةً خمس عشرة سنةٍ، حتّى لم يأتِ الغرقُ إلاّ على مستحقّ العذاب، وقد أُسْتُعظم أمرُ الطوّفانِ، وما ذُكِر من طول مُدّة عُمر نُوحٍ وسائر مدّة عمر المعمّرين، وطول ما يروون من قَامةِ آدم، وقاماتِ عادٍ وغيرهم ممّا جاءت به الأخبارُ حتّى أنكرهَ قومٌ رأساً، وصَرَفه قومٌ إل تأويلٍ منحولٍ. والمُوحّد المُصدّق بابتداع هذه الأجسام لا من شيءٍ، واضع ما يرد عليه من مثل هذا، إذا كان من مُخبرٍ صادقٍ على حدّ الإمكانِ والجواز ويزدادُ قوّةً بما يجد له من نظير، أو تمثيل مع أنّ كتاب الله أصدقُ شاهدٍ. وأطباق الأمم أوثَقُ عصمةٍ، وليس يمتنع وقوع الطوفان في العقل، ولا مكث الناس في السفينة، ولا هلاك قرن وابتداء نشو، ولا بعجيب امتداد الحياة ببعض الناس، وإنْ كان خارجاً عن العادة والطبع المعهود.

وقد قالت المنجّمة: أنّ الطوفانَ الذي وَقعَ أيّامَ نوحٍ كان في القرانِ الأعظمِ، وكانت

---

(١) انظر سير النبلاء ٦/ ٢٢٦ و١٩/ ٢٧٦.

الكواكبُ مجتمعةً في دقيقةٍ من الحوتِ، والعدد متناسبة من السنة الألفيّ والقِرانيّ، فأقرّوا بالطوفان، وإن لم يذكروا السبب الموجب له من قِبَل العباد.

وحُكيَ عن ارسطاطاليس وافلاطن: أنّ الطوفانَ قدْ وَقَع دفعاتٍ كثيرة فمنها ما دام يوماً، أو يومَيْن أو أكثر، وزعمتْ طائفةٌ منهمْ أنَّ الطوفانَ لم يعُمَّ الأرض كلّها. ولعمري ليسَ ذَلِكَ في كتابنا، وإنّما يُروىٰ أنّه عمّ الأرض كذا صباحاً، وُحكْمُ العاقل أنْ لا يعُدّ هذا مثل نصّ الكتابِ ومعروفُ الخبرِ في مخاطبةِ المخالفِ لهُ، وما حاجتهُ إلىٰ تمحّل الحججِ لروايةٍ كفاه الله مَؤونتها، وأزال عنه شغلها، فإن الطوفانُ عمَّ الأرضَ وغمرها، والتقى ماءُ الأرض، وماءُ السماء كما رُويَ، فممكن وغير بديعٍ منْ قدرةِ الله عزّ وجلّ، وإن علا بقعةً من البِقاع وأبادَ قوماً من الأقوامِ وكذلك والله أعلم آمنّا بما صحّ منها وصدقنا بقول الله عزّ وجلّ ﴿فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقمّلَ والضفادعَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] وأجمعوا أنّه لم يعم الأرضَ كلّها فإن قال قائلٌ: كيفَ يجوزُ في العقلِ هلاكَ قومٍ على ذنبٍ يسير كما أجازَ العقلُ، بل أوجبَ هلاكُ كلِّ مُفسدٍ وفاسدٍ.

وقد رَوْينا عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال: «ما أهلك الله قوماً على شِرْك ما لم يتظالموا»، بقول الله تعالى ﴿وما كان ربّك ليُهلكَ القُرى بظلمٍ وأهلُها مُصلحون﴾ [هود: ١١٧] وإذا جَازَ أن يَنالهمْ من تأثيرِ الكواكبِ فيهم ما يُغرقَهمْ على مذهبِ قومٍ هلاّ جازَ أن يحملَهم بتأثيرها فيهم على عمل يستحقّون به الغرق والعقوبة!

وأمّا مدّةُ عمر نوحٍ فمختَلَفٌ فيها بقول الله تعالى ﴿فلبث فيهم ألفَ سنة إلاّ خمسين عاماً﴾ [العنكبوت: ١٤] ومعلومٌ أنّه عاشَ بعد الطوفانِ مدّةً، فزعم وَهَب: أنّ نوحاً بُعِثَ وهو ابنَ خمسينَ سنةٍ، وعاشَ بعد الطوفان ثلاثمائةٍ وخمسين سنة؛ وروىٰ ابنُ اسحق عن أهلِ التوراة: أنّهم يزعمون أنّ نوحاً بُعِثَ وهو ابنُ أربَع مائةَ سنةٍ وستّين سنةً وعاشَ بعد الغَرَقِ سبعينَ سنةً، وكثيرٌ من القائلين بالطّباع أجازوا أنْ يكون في الأيّام السالفةِ والزمانِ الماضي أعَمَارَ الناسِ وأشخاصهم، أطولَ وأعظمَ ممّا في زماننا هذا: وزعموا أنّه ما دام الحكمُ الأغلبُ لزُحَلَ، كانت الأعمارُ أطولَ والقاماتُ أتمَّ. ثُمّ لمّا صارَ إلى المُشتري انتقص ذلك لأنّه دُونَه، وكذلك لم يزلْ يتراجعُ درجةً درجةً إلى زمانِنا هذا، وهم يجيزون إنتقاصَ أعمارِ الناس عمّا هي عليهِ اليومَ إذْ صَارَ الحُكْمُ على قولِهم للقمرِ، ثم حار الحُور[1]

---

(١) حار الحُور: رجع النقصُ.

يراجعُ فصيحٌ إلى أقصى غايةِ النقصِ والقِصَرِ، وهذا إن كانَ هكذا فاللهُ فاعلهُ بهذهِ الأسبابِ التي جعلها اللهُ مُؤثِرةً فيه، وإذا جاز أن يسكنَ إلى مثلِ هذا ساكنٌ كان السكونُ إلى ما وردتْ به كتبُ الله عزَّ وجلَّ ورُسُله وشاهدت القرونُ والأمم أجْوَز، ثمّ مع ذلك غيرُ ممتنعٍ أن يختصَّ نوعٌ من أنواعِ الجنسِّ بشيءٍ تباين فيه طبع جنسهِ ويُعمى الناسُ عن معرفةِ علته كالخواصّ المعدودةِ والمعهودةِ التي خفيتْ علّتُها ولم يُوقفْ على أسرارها، أو ليسَ قَدْ قالتْ كثيرٌ من فلاسفتهم في فُشاراتهم[1]: بأنّ الفلكَ حيٌّ ناطقٌ لحمُ ودمٌ فكيفَ أجازَ عليه البقاءَ ولم يُعجِزه على ما هو في حكمه، أو ليسَ الأركانُ أشياء متضادّة ثُمّ ما هي باقيةٌ على اختلافها وتعاديها، وهل الإنسانُ غيرُ الأخلاطِ الأربعة؟ وقد أجمعَ هؤلاءِ أنّه غيرُ جائزٍ في موجبِ الطبّع زيادةُ عُمرٍ ساعةٍ واحدةٍ على مائة وعشرين سنةٍ لعللٍ ذكروها فشاهدنا وشاهد مَنْ قُلنا يُقضَى عليهم بخلاف قولهم، فإذا جازَ وجودُ الزيادةِ القليلةِ فيما يوجبهُ الطبعُ لِمَ لا جازَ وجودُ الزيادةِ الكبيرةِ مع أنّ المسلمينَ يستغنون عن مثل هذه الحججِ بإخبارِ الله وإخبار رسولِهِ، ومعرفتهم بقصورِ علمِهم عن أسرارِ حكمِ الله في خلقهِ ونفاذ قِدرته فيهم.

وكما قُلنا في الأعمارِ فكذلك في الأجسامِ والقاماتِ والأمم وما يُرى من فضلِ ذي طولٍ على ذي قِصَرٍ يجوزُ لنا الحكمُ بأطول مِن كلّ طويلٍ يتوهّمه حتّى يبلغ به المقدارُ الذي وردَ به الخبرُ في آدم، والصحيحُ أنّه كالنخلةِ السَحُوق[2] وكم من نخلةٍ دونَ قامةِ الرّجلِ فإذا زادتْ عليها فهي سحوقٌ، والذي روى ستّون ذراعاً فممكنٌ أنّه تفسيرُ الراوي واللهُ أعلَم؛ وممّا يدلّ على جوازِ هذا تفاضُل هذا النوع في الأشخاص والصُوَر كحوتٍ وحوتٍ كم بينهما في المقدارِ وهو نوعٌ من الجنّسِ، وقد زعمَ زاعمٌ أنّ سفينةَ نوحٍ مَثَلٌ لدينه ولبثَه في قومهِ ألفُ سنة إلاّ خمسين عاماً لبقاء شريعته؛ واحتجّ بما رُوي أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَثَلُ أهلِ بيتي مثلُ سفينةِ نوحٍ مَنْ ركبَ فيها نجا ومن تخلّف عنها هلك» فلزمَه أن يتأوّل جميعَ ما في القرآنِ من قصّةِ نوحٍ وخبرهِ على خلافِ ظاهرهِ مثلَ قوله تعالى ﴿ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنْهَمِر وفجّرنا الأرضَ عيوناً فالتقى الماءُ على أمر قد قُدِر وحملناه على ذات ألواح ودُسُر﴾ [القمر: ١٣] وقوله تعالى ﴿يا بُنيَّ أركبْ معنا ولا تكنْ من الكافرين قال سآوى إلى جبل﴾ [هود: ٤٣] إلى قوله ﴿وحال بينهما السوجُ فكانَ من المُغْرَقين﴾ [هود: ٤٣] وما أشبهَ ذلك وإذا

---

(١) فُشاراتهم: جمع فُشار: وهو الذي تستعمله العامّة بمعنى الهذيان ليس من كلام العرب «القاموس المحيط/ جـ ٢».

(٢) النخلة السَحُوق: النخلة الطويلة.

. جاز لنا أن نتأوّل السفينةَ ديناً جازَ لنا أن نتأوّلَ القصَر والحبَل والسلاحَ والكراعَ والمالَ والطعَام ديناً لأنّ في هذه نجاةٌ ظاهرةٌ كما في السفينة مع أنّ هذه الطبقةَ قلَّ ما يُؤمنون بالكتابِ ولكنّه من دساتين[1] الزنادقة يتلعبّون بالدين ويتقلّبون في التلبيس، ولقد سمعتُ بعضَ النّاسِ يقول معناه: لو لبثَ فيهم ألفَ سنة إلاّ خمسين عاماً لأخذهم الطوفانُ ولا بُدّ أنّ الطوفانَ كان آخذاً لهم لأنّهم كانوا لا يؤمنون وشبّهه بقوله **﴿يَوَدُّ أحدُهم لو يُعمَّر ألفَ سنة وما هو بمزَحْزِحِه من العذابِ أن يُعمَّر﴾** [البقرة: ٩٦] قالوا واستثناءه الخمسينَ من الألفِ لأنّه بُعث على رأسِ خمسين من عُمرهِ ولا يُعلم في لغةِ العربِ إضمارُ حروفِ الشرط وظهارُ فعله وجاء في الخبر أنّ نوحاً عليه السلام لم يَدْعُ بقوله **﴿لا تذر على الأرضِ من الكافرين ديّاراً﴾** [نوح: ٢٦] الآية إلاّ بعد وحي الله إليه أنّه لن يؤمنَ من قومِك إلاّ مَنْ قد آمن، وتدُلّ تواريخُ الفُرسِ أن المَلِكَ في زمنِ نوحٍ كان جم شاذ أخو طهمورث أو طهمورث[2] نفسُه لموافقةِ بعضِ أخباره واللهُ أعلمُ؛ وزعم وهبٌ: أنّ نوحاً خرجَ من السفينةِ يومَ عاشوراء وبنى قريةَ بِقَرْدَا وسمّاها ثمانين[3]، وقد احتجّ أصحابُ هذا العلم بأشعارِ المتقدّمين في هذه القصص فمنها قولُ أُميّة بن أبي الصلت: [طويل].

إلى أن يفوتَ المَرْءُ رحمةَ ربّه	وإن كان تحتَ الأرض سبعين واديا
كرحمة نُوحٍ يومَ حلَّ سفينةُ	لشِيعته كانوا جميعاً ثمانيا
فلمّا استنار الله تَنُّورَ أرْضِهِ	ففار وكان الماءُ في الأرض ساحيا

فهذا يقوّي مذهبَ مَنْ زَعم أنّهم كانوا ثمانيةَ أَنفُسٍ وقولُه أيضاً: [خفيف].

مُنْجِ ذي الخير من سفينة نُوحٍ	يومَ بادتْ لُبنانُ من أُخراها
فار تنّورُه وجاشُ بماءٍ	طمَّ فوق الجبال حتّى علاها
قيل للعبد سِرْ فسار وبالله	على الهَوْل سَيْرُها وسُراها
قيل فأهبطْ فقد تناهَتْ بك	الفُلْكُ على رأسِ شاهقٍ مُرْسَاها

(١) دساتين: جمع دَستان: وهو الوتر من العود أو ما يقابله في سائر الآلات (فارسية).
(٢) ثاني ملوك السلالة البيشدادية المذكورة في الملحمة الإيرانية القومية، شخصية أسطورية قيل إنّه عمرّ قلعة بابل، وعلمّ الناس الحياكة وروّض الخيل والوحوش. «منجد الأعلام/ ٤٣٨».
(٣) ثمانين: بليدة عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر التغلبي فوق الموصل «معجم البلدان ٢/ ٩٨».

وقولُه أيضاً: [وافر]:

وأُرْسِلَتِ الحمامةُ بَعْدَ سَبْعٍ ... تـزِلُّ على المهالك لا تَهابُ

وتلمسُ هلْ ترى في الأرضِ عيناً ... بـه تَيَبّسٌ أو اضطرابُ

فجاءت بعدَ ما ركضتْ بِقِطْفٍ ... عليه الثلطُ[1] والطينُ الكثابُ

فلمّا فرّشوا الآياتِ صاغوا ... لها طَوْقاً كما عُقِدَ السِخاب

إذا ماتَتْ تورّثها بَنُوها ... وإنْ قُتِلَتْ فليسَ لها استلابُ

فجازى اللهُ بالأجلِ المرِ نوحاً ... جزاء البَر ليس لها كِذابُ

بما حملَتْ سفينتُهُ وأنْجَتْ ... غداةَ أتاهمُ الموتُ القُلابُ[2]

وفيها مِنْ أرُومَتِهِ عِيالٌ ... لـديه لا الظَّماءُ ولا السَّغابُ

وإذْ هم لا لَبُوسَ لهم عُراةٌ ... وإذْ صَخْرُ السلامِ لهم رِطابُ

عشيّةَ أرْسِلَ الطُّوفانُ تجري ... وفاضَ الماءُ ليس له جرابُ

على أمواجِ أخضَرَ ذي حبيكٍ[3] ... كأنّ سُعارَ[4] زاخرِه الهِضابُ

بأنّه قامَ ينطِق كلَّ شيءٍ ... وخانَ أمانةَ الدّيكِ الغرابُ

قصّة من كان بعده إلى زمن عاد:

قرأتُ في ترجمةِ التوارة أنّه وُلِد لنوحٍ سامٌ وحامٌ ويافثٌ بعدَ خمسِ مائة سنةٍ مَضَتْ من عُمرِه، وأمّا المتخلّفُ عنه المخالفُ لأمرِهِ فهو يامُ، والنّاسُ من ولدِهِ الثلاثةِ، وسأل عُمَر بنُ الخطّاب رضي الله عنه كعبَ الأحبار[5] لأيّ ابني آدم كان النسلُ قال: ليس لواحدٍ منهما نسلٌ، فأمّا المقتول: فقد دَرَج، وأمّا القاتلُ: فهلك نسلُه في الطوفانِ، والنّاسُ من بني نوحٍ، ونوحٌ من بني شيث بن آدمَ فسكن حامُ الجنوبُ ومنه السودانُ، وسكن يافثُ الشمالُ

---

(١) الثَلْطُ: رقيقُ سَلْحِ الفيل ونحوه. والسَلْحِ: ما يخرج من البطن من ريح أو غائط. (القاموس المحيط/ جـ ٢).

(٢) القُلابُ: داءٌ في القلب.

(٣) ذو حَبيك: ذو طرائق حسنة.

(٤) السُعار: الحرّ، توهجّ العطش، شدة الجوع.

(٥) أبو إسحق كعب بن ماتع، من أقدم رواة الحديث، كان يهودياً يمنياً فاعتنق الإسلام، وقدم المدينة في أيّام عمر، ثم خرج إلى الشام فاستصفاه معاوية وجعله من مستشاريه توفي في حمص (٣٢ هـ) «منجد الأعلام/ ٥٩٠».

ومنه الشُقْران، وسكن سامٌ وَسْطَ الأرضِ ومنه العربُ وفارسُ.

وذكر ابن إسحق فيما حكى عن أهلِ التوراة أنّه نكحَ يافثٌ بن نوحٍ أريسيمه بنتَ مرازيلَ بن الدّرمسيل بنِ اخنوخِ بنِ قينٍ بن آدمَ وولدتْ له سبعةَ رجالٍ وامرأةٍ: جومرَ ومارحَ ووايلَ وحوارَ وتوبلَ وهوشل وترسَ وسبكةَ بنت يافثٍ، فمنهم التُركُ والخَزَرُ والصقالبةُ وبرجانُ واشبانُ وياجوج وماجوجُ ستّةٌ وثلاثون لساناً؛ ونكَح حامٌ بنُ نوحٍ يحلب بنتَ يارب ابنِ الدرّمسيلَ بنِ محويلِ بنِ اخنوخِ بنِ قينٍ بنِ آدم فولدتْ له ثلاثة نفر: كوش وفوط و كنعان، فولدُ كوشُ الحبشةُ والسّندُ والهندُ، ووُلدُ كنعانِ السودانُ ونوبةُ وفزانُ والزنجُ وذغلُ وزغاوةُ وبربرُ، وولدُ فوطٍ القبطُ وفيهم سبعةُ عشَر لساناً؛ ونكحَ سامٌ بن نوحٍ صليبَ بنتَ بثوايل بنِ محويلِ بنِ اخنوخِ بن قينِ بنِ آدم فولدتْ خمسةَ نفرٍ: ارفخشذ وأشور ولاوذَ وأرم وعويلم، وفيهم تسعةَ عشَر لساناً، فمن ولِدِ لاوذِ اجناسُ الفُرسِ كلِّها وجرجان وطبرستان وطسم وجديس وعملاق وأميم، وأمّا عملاقُ فأبُو العمالقةِ تفرّقت منهم الجبابرةُ والعُتاةُ الذين كانوا بأرضِ الشّامِ يُقال لهُمْ الكنعانيُّون، ومنهم فراعنُة مِصَر إلى فرعونَ يوسُفَ وموسى عليهما السلام، ومنهم ملوكُ فارسَ وخُراسانَ وعُظماء المشرقِ، ومنهم أُمّةٌ كانوا بعُمان يُسَمُّون جاسم، ومنهم بالحجاز بنو هيفٍ وبنو مطرٍ وبنو الأزرق، ومنهم بنجدٍ بديلُ وراحلُ وغِفارُ قالوا: وكان نزَلَ عملاقُ بنَ لاوذِ بنِ سامِ بن نوحِ اكنافَ الحرمِ ومصرَ والشامَ، ونزلَ طسمُ وجديسُ جَوّ اليمامةِ[1] وما يليها، ونزَلَ ولدُ ارم بن سام بن نوحٍ الأحقافَ إلى عالج ويبرين والحِجْر بين الحجازِ والشام.

قال ابنُ إسحق: ولدُ آرام بن سامِ بن نوحٍ ثلاثةُ نفرٍ: عوص وغاثر وحويلٌ، فولد عوصٌ: عاداً وعبيلاً، وولد غاثرٌ ثمودَ وجاسمَ وطسَم وجديسَ، فأمّا عادٌ وثمودُ فقدْ ذُكرَ في القرآنِ هلاكُهما؛ وأمّا جُديس فكثرتْ وتربّتْ، ورئيسُها رجلُ منهم يُقالُ له الأسودُ بن غِفار، وكان مَلِكُهم إذ ذاك رَجُلٌ من طَسمٍ يُقالُ له عمليقُ، وكان يبدأُ بالعروسِ قبلَ زوجِها حتّى تزوّجتْ غفيرةُ بنتُ غفارٍ، وأرادَ عَمليقُ أن يُصيبَها فاستصرختْ أخاها الأسودَ بنَ غفارٍ، وخرجتْ حاسرةً وهي تقول: [سريع].

---

(١) ميمون بن قيس، شاعر جاهلي أدرك الإسلام، ولد في منفوحة اليمامة، لقّب الأعشى لضعف بصره، ويعرف بالأعشى الأكبر أجمع الأدباء على تلقيبه «بصناجة العرب» لمتانة شعره وموسيقاه، أشهر قصائده «اللامية» (ت ٦٢٩ هـ) «منجد الأعلام/ ٥١».

لا أحـدٌ أذلُّ مـن جَـديـس، أهكـذا يُفعَـلُ بـالعَـروس

فأحفظ صُراخها جديس، وأزعجهَم فخرجوا مع الأسودِ بن غفارٍ ففتكوا بطسمٍ، فقتلوهم كلّهم ومَلِكَهُم إلاّ رَجُلاً واحداً أفلتَ بخديعةٍ دقيقةٍ حتّى أتى ملكَ اليمن وهو ذو غسّان بن تبّع الحِمْيَريُّ فاستنجَده فوجّه ذو غسان بن تُبّع جيشاً إلى جديسٍ يطلبُ بثأر طسمٍ، وكانتْ في جديسٍ جاريةٌ زرقاءُ يُقالُ لها اليمامةُ وبها سُمِّيت اليمامةُ، وكانت كاهنةً تُبصُر الراكبَ من مسيرةِ يوم ويُقالُ من مسيرةِ ثلاثٍ فخافَ الجيشُ أن تبصرَهم اليمامةُ فتخبر القومَ بهم، فقطعوا الشجرَ وجعلَ كلّ رجلٍ بينَ يديه شجرةً يمشي خلفها يستتُر بها عن اليمامةِ، ونظرت اليمامةُ فرأتْ الشجرَ فنادتْ: يآلَ جديسٍ سارتْ إليكم الشجرُ أوْ أتتكم حميرٌ، قالوا: وما ذاك، قالتْ: أرى رجلاً في يده كِتْفٌ يأكلُها أوْ نعلٌ يخصفُها فكذّبوها فصبّحَتْهم الخيلُ فقتلتْهمُ وأقصَتْهم وانقضى أمرُ جديسٍ وطسمٍ وفيه يقول الأعشى: [بسيط].

قـالـتْ أرى رَجُـلاً فـي كفّـه كِتَـفٌ أو يَخْصِفُ النعـلَ لَهْفِـي أيَـةَ صنعـا
فكـذّبـوهـا بمـا قـالـتْ فصبّحهـم ذُوآلِ غسّـانَ يُـزجـي السُمْـر والسلعـا
فـاْستنـزلـوا أهْـلَ جَـوٍّ مـن مسـاكنِهـم وهـدّمـوا شـاخـصَ البنيـان فـأتّضعـا

قالُوا: وسارَ وبارُ بنُ أميم فنزلَ بأرضِ وبار[1] برمل عالجٍ فهلكوا.

وأمّا ابنُ إسحق فإنّه يزعُم أنّ نبي أميم بن لاوذ بن سام بن نوحٍ نزلوا وبارَ فكثروا وربلوا[2]. وعصَوْا فأصابتْهم من اللهِ نقمةٌ فهلكُوا، وبقيَت منهم بقيّةٌ يُقالُ لهم النسناسُ، للرجلِ منهم يدٌ ورِجْلٌ من شِقّ واحدٍ ينقزون نقزَ الظّباء، ووبارُ بلادٍ لا يطأها أحدٌ من الإنس لما فيها من حسِّ الجنّ، وهي أكثرُ أرضِ الله نخلاً وشجراً فيما يزعمون، وحُكي أنّ رجلاً وقفَ في الجاهليّةِ بُعكاظٍ على بعيرٍ له مثل الشاة وهو يقول: [طويل].

ومَـنْ يُعطنـي ستّـا وستّيـن بكـرةً هِجـانـاً وأُدْمـاً[3] أهْـدِهِ لِـوَبـارِ

---

(١) وبَار: هي البلاد الواقعة بين نجران وحضرموت، ومهرة والشحر، تنسب لها قبائل جنوبية من العرب البائدة، ذكرها العرب بين الشعوب القديمة التي سكنت الجزيرة العربية وباد أثرها كعادة وثمود، فكتنف أخبارهم الأساطير «منجد الأعلام/ ٧٤٠».

(٢) ربلوا: كثُر عددُهم ونمُوا.

(٣) أُدْماً: جمع آدِم: الأسمر.

ثُمّ ضربَ بعيَره فتلمّع به تلمُّع البرقِ وفيه يقولُ الأعشى من بني قيس والله أعلم: [منسرح].

ومــرّ دهــرٌ علــى وبــارِ	فهلكــت جهــرةً وَبــارُ
وحــال علــى جديس يــومٌ	مــن الــدهــر مستطــارُ
وأهــلُ جــوٌ أتــتْ عليهــم	فأفسدَتْ عَيْشَهم فباروا[1]
وقبلَهــم غــالــتُ المنــايــا	طسمــاً ولــم يَنْجِهــم حِــذارُ
بــادوا كمــا بــادَ أوّلُــوهــم	عَفــا علــى إثْــرهــم قُــدارُ

قالُوا: إنّ فارسَ والعربَ والرومَ يمنيها ونزاريِّها من ولدِ سامِ بن نوحٍ غيرُ أنّ فارسَ لم تحفظ أنسابَها إلاّ ما يُذكر من ملوكِهم على اختلافٍ وانقطاعٍ، وأمّا العربُ فإنّهم يسردُونها إلى قحطان بن عابرٍ، فولد فوطٌ جُرهُمَ وجُديل فأقرضوا، وأمّا جُرهمُ فنزلوا مكّة وصاهروا إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

قصّةُ عاد الأولى:

وهم عشْر قبائل، هعادُ بن عوص بن آرام بن سامِ بن نوحٍ وكانوا قدماءَ أُعطوا بسطةً في الخلق وقوّةً في البسطِ والبطشِ، نزلوا بهذا الرّمل من عُمان إلى حضرموتَ، وهي إذ ذاك أخصبُ بلادِ الله وأمرعُها[2]، فلمّا سخِط اللهُ عليهم جعلها مفاوزُ ورمالاً وغِياضاً، وذلك أنّهم نصبُوا الأوثانَ يعبدونَها، فممّا يُذكرُ من أسمائها: صمودُ، صُدا، دُهنا، وأخذوا مع عبادةِ الأوثانِ في ظلمِ النّاسِ بفضلِ قوّتهم فبعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ إليهم هوداً عليه السلام، وهو من أوسطهم حَسباً وأفضلهِم موضعاً، وقال وهبُ: كان هودُ رجُلاً تاجراً جميلَ المحيَّا أشبَه خلقِ الله بآدم، وهو هودُ بن عبد الله بنِ رَباحٍ بن حاورٍ بن عادٍ بن عوص بن ارم فدعاهُم إلى اللهِ تعالى وإلى عبادتِه وحدَه لا شريكَ له، وأن يكفّوا عن ظُلمِ الناسِ، وقَدْ يبيّنُ اللهُ في القرآنِ تذكيرَه إيّاهم ومُراجعتهم له بما فيه كفايةٌ، فلمّا أبطأوا عليه بالإيمانِ والإجابةِ وعتَوْا على اللهِ أمسكَ عنهمُ القطرَ حتّى أجهدهم الجَدْبُ، فبعثوا وَفْداً إلى الحرمِ يستسقونَ فيهم لقمان بنَ عادٍ ولقيمَ بنَ هزالٍ وقِيلَ ابنَ عثر ومرثد بنَ سعدٍ وكان مُسلماً يكتُم إيمانَه، وكانَ

---

(١) باروا: هلكوا.
(٢) أمرعها: أصعبها.

الناسُ إذ ذاك إذا نزلَ بهم بلاءٌ أو جُهدٌ فزعُوا إلى الدّعاء في الحرمِ، فسارَ الوَفْدُ حتّى نزلُوا على خالِهم معاويةَ بن بكرٍ، وأقاموا عنده يشربونَ الخمَر ويغنّيهم الجرادتان: وهما قينتان له، ثُمّ هيّأ معاوية ابنُ بكر شعراً ودسّه إلى الجرادتين لتغنّياه قومَهُ: [وافر].

ألا يا قيلُ ويحك قُمْ نَهَيْنِم[1] لعـلّ الله يُصبحنـا الغمـامـا
فيسقـي أرضَ عـادٍ إنّ عـاداً قـد امسُوا مـا يُبينـون الكـلامـا
وقـدْ كـانـتْ نسـاؤُهُـمُ بخيـرٍ فقَدْ أَمْسَتْ نساؤُهُمُ عَياما[2]
فـإنّ الـوحْـشَ يـأتيهـم جِهـاراً ولا يخشـى لعـاديٍّ سِهـامـا
وأنتُـمْ هـاهُنـا فيمـا اشْتَهيتُـم نهـارَكُـمُ وليلَكُـمُ التمـامـا

فلمّا غنّتهم الجُرادتان تلاومُوا في تمكّثهم، وخرجوا يستسقونَ، فنشأتْ ثلاثُ سحائبٍ بيضاءَ وسوداءَ وحمراءَ، ثُمّ نُودِيَ من السّحاب: يا قيلُ اختِرْ لنفسك ولقومك، فاختار السوداءَ لأنّها أكثر ماءٍ، فنُودي اخترتَ رَماداً رِمْدداً. لا يُبقِي من عادٍ أحداً إلاّ بنو اللَوْذِيّة: وبنو اللوذّية بنو لُقَيْم بن هُزالٍ، وكانوا نزلوا بمكّةَ مع أخوالِهم، وهم عادُ الأخرى في الخبرِ، ومثلُ هذا جائزٌ في زمنِ الأنبياء مع أنّه ليس في القرآنِ منه شيءٌ، فإن صحّ الخبرُ فمعنى النداءِ من السّحابِ ما رُؤى فيه من أثر المطرِ لا غير وساق اللهُ السحابةَ السوداء ﴿فلمّا رأوه عارضاً مُستقبل أوديتهم قالوا: هذا عارضٌ ممطرنا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. كقول الله تعالى لهمُ أو نبيهم ﴿بل هو ما استعجلتمُ به ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] ورجعَ الوَفْدُ إلى معاويةَ بنِ بكر فأتاهُم راكبٌ مسيرة ثالثة فأخبرهم بمُصاب عادٍ قالوا: وكان تخلّف عنهمُ لقمانُ بنُ عادٍ ومرثدُ بنُ سعدٍ، ثُمّ قدِما بعدَ الوفدِ فقيلَ لهما: أُعطيتما مُناكما فاختارا لأنفُسكما إلاّ أنّه لا سبيلَ إلى الخُلْد، فقال مرثدُ: أعطِني يا ربُّ بِراً وصِدْقاً فأعطاه، وقال لقمان: أعطني يا ربُّ عُمراً فقِيلَ له اختَرِ لنفسكِ أبعارَ ضَأنٍ عُفْرٍ في جبلٍ وَعْرٍ لا يغالبُه إلا القطرُ أو سبعةُ أنسرُ إذا مضى نسرٌ خلوتَ إلى نسرٍ فاختار النسور فجعلَ يأخذُ منه الفرخَ حتى إذا ماتَ أخَذَ آخرَ فلم يبقَ إلاّ السابعُ، فقال له ابنُ أخ له: يا عمُّ ما بقي من عُمرِك غيرُ هذا، فقال: يا ابنَ أخي هذا اللُبَدُ ـ ولُبَدُ بلسانِهم الدهرُ، وزعموا أنّ النسُور تعيشُ خمسَ مائةِ سنةٍ هكذا في الخبرِ وفي كتابِ المعمّرين من قصّة لُقمان و خبرُه شيءٌ كثيرٌ ومن شهرةِ أمرهِ في

---

(١) نهينم: ندعو بصوتٍ خفّي.
(٢) عَياما: جمع عيمى: وهي مَنْ كانت بها شهوة اللبن الشديدة.

العربِ كالإجماعِ على ذلك لكثرةِ ما يذكرونه في وصاياهم وخُطَبِهِم وأشعارِهم فإنْ كان الخبرُ حقًّا احتملَ أن يكونَ التأويلُ أنّه تمنّى ذلكَ فخطرَ بقلبِهِ خاطرٌ وقاله بذلك أو أُري في المنامِ أو رأى آيةً أو علامةً دلَّته على ما خَبّر به عنه فعملَ ذلك بأكثرِ الرأيِ فأصابَ فيه مُناه، وهذا كثيرٌ ممّا يقعُ بالاتّفاقِ والجدِّ وغيرُ بديعٍ أن يُعمَّر إنسانٌ عُمرَ مائةِ سنةٍ، ومَنْ حَكَم للنسرِ بِعُمرٍ مقصورٍ على مقدارٍ لا يزيدُ ولا ينقصُ وفيه يقولُ الشاعرُ وهو أعشى من بني قيسِ ابن ثعلبة: [طويل].

وأنـت الّـذي ألهيـتَ قيـلاً بكـأسِهِ ... ولقمـانَ إذْ خيّـرتَ لقمـانَ فـي العُمْـرِ
فَقُلْتَ مُنِيتَ الضأنَ يبحثُ في الشرى ... بـأرْعَـنَ ينفـي رأسَـهُ ليلـةَ القطـر
لنفسـك أَوْ تختـارَ سبعـةَ أَنْسُـرٍ ... إذا مـا خـلا نَسْـرٌ خلـوتَ إلـى نسـرِ
فقـالَ نسـورٌ حيـن خـالَ بـأنّـهُ ... خلودٌ وهل تَبْقَى النفوسُ على الدَهْر
فقـال لـه لُقمـان إذ خـلَ ريشُـهُ ... هلكـتُ وأهلكـتَ ابنَ عـادٍ ومـا تـدري
فـأصبـحَ مِثـلَ الفـرخِ أطـولُ ريشـهِ ... قِصـارُ القـدامـى بَعْـدَ مُطّـرِدٍ حَشْـرِ

وفيه يقول أيضاً: [منسرح].

ألـم تـروا إرمـاً وعـاداً ... أَوْدَى بهـا الليـلُ والنهـارُ
بـادوا كمـا بـاد أَوّلُـوهـم ... عفـا علـى إثْـرِهـم قـدارُ
لخلفِـه مـن أبـي ربـاحٍ ... يسمعُهـا الاهـةَ الكبـارُ
إنَ لُقَيْمـاً وإنّ قيـلاً ... وإنّ لُقْمـانَ حيـثُ سـاروا
لـم يـدّعُـوا بعدهـم عـريبـاً ... ففنِيَـتْ بعـدَهـم نـزارُ

وفي كتابِ أبي حُذيفة أنّ هَوداً عليه السلام عاشَ أربعَ مائةٍ وأربعين سنّةً؛ وزعم وهبٌ أنّ عاداً لما أُهلكَتْ لَحِقَ هو بمكّة حتّى ماتَ، وروى ابنُ إسحق عن عليّ عليه السلام: أنّ قبَر هودٍ بحضرموتَ تحتَ كثيبٍ أحمرَ عند رأسه شجرةٌ تقطرُ إمّا سِدْر[1] وإمّا سلَمٌ[2]، وسمعتُ غيرَ واحدٍ من السيّاحين يُخبرون بموضعِ قبرِه، وكانَ هلاكُ عادٍ وثمودٍ إذ ذاك بأرضِ حِجْرٍ وقُزحٍ وهي وادي القُرى، وبينَ هودٍ وثمودٍ مائةُ سنة.

---

(١) سِدْر: شجرة النبق.

(٢) سلَمُ: جش شجر من فصيلة القطانيات، ينمو في المناطق الحارّة، ثمره أصفر يحوي حبة خضراء يستعمل في الدبغ.

قصّةُ عاد الأُخرى :

ذكرُ ابنُ اسحقَ عن أثرِ عادِ الأولى وعادِ الأُخرى ولم يحْكِ كلامَهم، وإنّما ذكرَ حَرباً كانتْ بينهم ثمّ اصطلحوا قال: وكانَ من حديثِهم أنّ سالمَ بن هذيمة من بني هُذيمة بنِ لقيم سبَّ لقمانَ بنَ عادٍ احد بني عَمْرو بنَ لقيم، وهاجَ الشرُّ بينهم، ثُمّ حكّموا بينهما دَرماً الطسمّى فأصلحَ بينهم وقالَ الحسنُ: عادُ الأولى: قوم هودٍ، وعادُ الأُخرى قومُ لقُمانِ الجبّار؛ وحُكي عن عادِ الأُولى أنّهم لما هاجتَ الريحُ قامَ نفرٌ منهم فأدخلوا عيالهَم شِعْباً من شِعابِ الجبَل، ثُمّ اصطفُّوا على بابِ الشعبِ ليردّوا عنهم الريحَ فلمّا ألّحتْ عليهم حفروا الأرضَ بسيوفِهم، وغاصوا فيها إلى أنصافِهم، وكان للقوم قاماتٌ وأجسامٌ لقول الله تعالى ﴿ألم تَرَ كيفَ فعلَ ربّك بعادٍ إرَمَ ذاتِ العمادِ التي لم يُخلَق مثلها في البلاد﴾ [الفجر: ٨]. يقال أنّه كانَ يبلغُ طولُ أحدِهم اثنتي عشرةِ ذراعاً؛ وفي كتاب أبي حذيفةِ ستّين ذِراعاً واللهُ أعلمُ فجعلت الريحُ تقلعُهم وتجعفهم[1] لقولِ الله تعالى ﴿تَنْزِعُ الناسَ كأنّهم أعجازُ نخلٍ منقعرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

قصّة ثمود:

وهُمُ ثمودُ بنُ عابرِ بن ارم بن سامِ بن نوحٍ قالَ ابنُ إسحق: فلمّا هلكتْ عادُ عمرتْ ثمودُ بعدَها وكثروا وربَوا وانتشروا، ومنازلُهم بينَ المدينةِ والشام، ونحتوا البيوتَ في الصُخورِ لطولِ أعمارِهم، ثُمّ عتَوْا على اللهِ وعبدوا غيرَه، وتغالبوا وتظالموا فبعث اللهُ إليهم صالِحاً وهو من أوسطِهم نسباً وأفضلِهم موضعاً؛ وزعم وهبٌ أنّ صالحَ بنَ عُبيد بنِ عامرِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ وكانَ رجلاً أحمرَ إلى البياضِ، قال: فخرجُوا إلى عيدٍ لهم ومعهم صالحُ فقال له عظيمُ ثمودٍ جندعُ بنُ عَمْرو: إنْ أخرجتَ لنا من هذهِ الصخرةِ مخترجة جوفاءَ وبْراءَ[2] عُشَرَاءَ[3] والمخترجة ما شاكلت البُخْت[4] آمنّا بكَ واتّبعناك، فنظروا إلى الهضبةِ تمخضُ بالناقةِ تمخُضَ النَّتُوجِ بولدها، ثمّ انتقضت فانصدعَت عن ناقةٍ كما سألوا بينَ جنبيها ما لا يعلمه إلاّ الله فآمنَ به جندعٌ ومَنْ كان معه، قال فمكثتِ الناقةُ ترعى ما شاءَ اللهُ من الشجرِ

---

(١) تجعفهم: تقلعهم وتجرفهم وتذهب بهم.
(٢) وَبْراء: كثيرة الوبَرَ.
(٣) عُشَراء: العشراء من النوق: التي معنى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية أو هي كالنُفساء من النساء.
(٤) البُخْتُ: الإبل الخُراسانية «القاموس المحيط جـ/ ١».

ويُشْرَب اللبنَ ثُمّ يُنْتَج لها فيحتلبون ما شاءَ اللهُ من لبنٍ، وكان امرأتان من أشرافِ ثمودٍ وللأُخرى صدُوفُ بنتُ المحيَّا أَضرّ بهما شربُ الناقةِ الماءَ فاحتالتا في عقرِ الناقةِ فدَعتْ صدُوفُ مُصدع بنَ بهرجٍ لعقرِ الناقةِ، وعرّضت نفسَها عليه، ودعتْ عنيزةُ قُدارَ بنَ سالفٍ وكان لها بناتٌ فائقاتٌ في الحُسنِ والجمالِ فقالتْ أُزوّجكَ أيّ بناتي شِئْتَ إن أنتَ عقرتَ الناقةَ فانطلقَ قدارُ ومصدعُ واستغوتا تسعةَ نفرٍ كما قال الله تعالى ﴿**وكانَ في المدينةِ تسعةُ رَهْط يفسدون في الأرضِ ولا يصلحون**﴾ [النحل: ٤٨] قال فرصدوا الناقةَ حينَ صدرتْ إلى الماءِ وقد كمَن لها قدارُ بسهمٍ فانتظم عَضَلةَ ساقها، ثمّ كشفَ قدارُ عرقوبها[١] فخرّتْ ورغتْ رُغاءً واحدةً تحذّر سَقْبَها[٢]، ثمّ نحروها وعضبُوها[٣]، وانطلقَ سقْبها حتّى أتى جبلاً مُنيفاً لاذَ به، ففرِغَ مَنْ آمنَ من قومِ صالحٍ إليه، وقدْ كان حذّرهم عَقْرَ الناقةِ ووعدَهم العذابَ إنْ همُ مسّوها بسوءٍ فقال لهم: ادركوا السقبَ فإنْ أنتم أدركتُم السقبَ فلعلّ العذابَ يُؤخّرُ عنكمُ، فراموا كلَّ المرامِ وتشامخت بهم الصخرةُ ودعَتْ عليهم ثلاثَ دعواتٍ، فأُخبرَ صالحٌ بذلك فقَال: ابشروا بالعذابِ، قالوا: ومتى هو؟ قال: تمتّعوا في داركِم ثلاثةَ أيّامٍ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوبٍ، فأصبحوا غدَاةَ يومِ المُؤنِس وجوهُهم مصفرّةٌ، وأصبحوا يومَ العَرُوبة[٤] وجوهُهم محمَّرةٌ، وأصبحوا يوم شِيارٍ وجوهُهم مسودّةٌ ثم صحبهَم العذابُ غداةَ يومِ أولٍ، وهو صيحةٌ وريحٌ وهدّةٌ أهلكتْهم.

ولهُم في قصّة عادٍ وثمودٍ وطسمٍ وجديسٍ أشعارٌ كثيرةٌ لأنّ هؤلاء كانوا عَرَباً عادّيةً وقد ذُكرَتْ تلكَ الأشعارُ في قصصِهم فمنها قولُ بعضهم: [وافر].

وقالت أُمُّ غَنْمٍ يا قدارُ	عزيزُ ثمودَ شُدَّ ولا تَهابا
ولا تجبُنْ فإنّ الجُبْن عيبٌ	وكان أبوك يكره أن يُعابا
إن أنت عقرتها وأرِحْتَ منها	بلادَ ثمودَ أنكِحْكَ الدَّبابا
فأهوى سيفَه للنحر طعناً	وفرّ السَقْبُ يطّلع الشِعابا
وحنّت بعدَ ما خرّت صُوَيْتاً	تحذّر سقبُها كيلا يُصابا
فأتبعه غواةُ بني عديٍّ	ونادوا مِصْدعاً وأخاه ذابا

---

(١) عرقوبها: العرقوب: من الدّابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها «القاموس المحيط جـ/ ١».

(٢) السّقْبُ: ولد الناقة ساعة يولد.

(٣) عضبوها: قطّعوها.

(٤) يوم العَرُوبة: يوم الجمعة وهو إما تعريب أرُبا النبطية أو عروبت من السريانية.

فيـرميـه شقـيٌّ بنـي عُبَيْـد بسَهْـمٍ لـم يُـرِيّشْـهُ لُغـابـا[1]
ونـادى صـالـحٌ يـا ربِّ أنْـزِلْ بـآل ثمـودِ منـك غـداً عـذابـا
فكـانـت صَيْحـةً تـركَـتْ ثمـوداً ديـارهُـمُ لثـالثـةٍ خَـرابـا

وقال أُمّيةُ بنُ أبي الصلت: [خفيف].

كثمـودَ التـي تفتّكـتِ الـدِّيـ ـنَ عُتِيّـاً وأمُّ سَقْـب عَقِيـرا
نـاقـةٌ لـلإلـهِ تَسْـرَحُ فـي الأر ضِ وينتـابُ حـوْل مـاءِ مَـدِيـرا
فـأتـاهـا أُحَيْمِـرٌ كـأخـي السهـ ـمِ بَعضْـبٍ فقـال كـوسى عقيـرا
فـأَبَـتَّ العُـرقـوبَ والسـاقَ منهـا وَمَضَـى فـي صميمـه مكسـورا
فـرأى السقـبُ أُمَّـه فـارقَتْـهُ بعـدَ إلْـفٍ حنيّـةً وظُـؤورا
فـأتـى صخـرةً فقـامَ عليهـا صَعْقةً في السماءِ تعلو الصُخورا
فـرغـا رغـوةً فكـانـتْ عليهـم رغـوة السقـبِ دُمّـروا تـدميـرا
فـأُصيبـوا إلاّ الـذريعـةُ فـاتَـتْ مـن جـوارِيهـمُ وكـانـت جـرورا
سَنسفـةٌ أرسلَـتْ تُخبّـر عنهـم أهـلُ قُـرحٍ بـأن قـد امسـوا ثغـورا
فسقـوهـا بعـد الحـديثِ فمـاتـتْ وأنتهـى دبُّنـا وأوفـى حقيـرا

وفي كتابِ أبي حُذيفة أنّ صالحاً عاشَ ثلثمائة سنة إلاّ عشرين عاماً، وزعَمَ وهبٌ أنّ ثمودَ لمّا هلكتْ أحرم صالحُ بن موسى قومه، وأتوا مكّة، وأقاموا بها إلى أن ماتُوا، وأُصيبَ في كتابِ تأريخِ ملوكِ اليمنِ أنّ الله بعثَ هوداً إلى عادٍ وصالحاً إلى ثمودٍ في زمنِ جم شاذ الملك بأرضِ بابل واللهُ أعلمُ.

ذكر اختلاف الناس في هذه القصّة:

سألَ سائلٌ: كيف يجوزُ أنْ يصطلم أُمّةٌ من الأُمم في عَقرِ ناقةٍ أُبِيحَ عقرُ جنسِها؟ وأيُّ عدلٍ ورحمةٍ في الاقتصاصِ من ناسٍ لبهيمةٍ؟ أم كيفَ يجوزُ توّهم خروجِ ناقةٍ من صخرةٍ على الصفةِ التي يصفونها به؟ وأيُّ دابّةٍ تسدُّ ماءَ جبلين حتى يضيقا عنها أو تشرب ماءَ عينٍ وتُسقي أُمّةً؟ فأنكرَ ذلك كُلّه وأباه ثمّ أخذ في التأويلِ فزعمَ أنّه يحتملُ أن يكونَ خروجُ الناقةِ من الصخرةِ حُجّةً دامغةً وسُلطاناً قاهراً من بعضِ العُظماء أذعَن له القومُ، واستدلّوا بأنْ

(١) اللُغاب: السهم الفاسد الذي لم يحسن بريه ولم يلتئم ريشه لرداءته.

يكونَ شربُها ماءَ العينِ إبطالَ تلك الحجّةِ جميعَ مَنْ خالفهم، واعتلاؤُها عليهم بالوضوحِ والقوّةِ، وأنْ يكونَ عقرهم إيّاها معاندتُهم لتلك الحجّةِ وامتناعهم عن قبولِها؛ وكذلك قالُوا في عصى موسى والتقافِها عِصى السَحَرة؛ وأذكر أنّي سمعتُ بعضَهم وهو يسألُ عن ناقةِ صالحٍ كيفَ خرجتْ من هَضْبةٍ؟ فقَالَ يُشبه أن يكونَ خبّأها تحتَ الصخرةِ ثمّ أخرجها؛ وسمعتُ غيرهَ يزعمُ أنّ اسمَ الناقةِ كنايةٌ عن رجلٍ وامرأةٍ؛ وهذه رحمكَ اللهُ مذاهبُ المُلحدين المنكرين مُعجزاتَ الأنبياءِ ووجوبَ النبوّةِ ومجيئَهم بالآياتِ الخارجةِ عن الحسِّ وأبعادِه وفرقاناً بينهم وبينَ المتنبّئين المتقوّلين المخترعين المتشكّلين التي تُبْهَرُ عندَها العقولَ وتتحيرُ في كيفيّتِها النفوسُ، كذا حيرتها في ابداعِ أجسامِ هذا العالمِ بكلّيّتها وأجزائها لا مِن غيرِ سابقٍ؛ ولذلك قُلنا أن أصلَ التوحيدِ يُوجبُ إثباتَ النبوّةِ ولا يلزُمُ مسألة إيجابِ النبوّةِ مَنْ لم يُقرَّ بوجودِ الباريء سابقاً لخلقهِ، فإذا صحّ وجودُ هذا العالمِ مُحْدَثاً بالدّلائلِ البرهانيّةِ ولم نَدْرِ كيفَ جازَ وجودُها فكذلك ينبغي أن يردَّ إليه معجزاتِ الأنبياءِ لأنّها كلَّها منِه، وقد مضى لك هذا في غيرِ موضعٍ من الكتابِ فليكنْ ذلك من بالكِ وباللهِ التوفيق؛ ثُمّ إنّا نقولُ: لو كانَ الأمرُ كما وصفَ فأيّةُ فائدةٍ حينئذٍ في ذكرِ الناقةِ وعقرِها؟ وأيّ تعجيبٍ بما هو جارٍ في العاداتِ معروفٌ متعارفٌ عندَ الجميع؟ وأيُّ فرقٍ بين الصادقِ والكاذبِ والقادرِ والعاجزِ؟ ولعمْري ليس في القرآنِ خروجُ الناقةِ من الصخرةِ ولا أنّها تسقي أمّةً ولا أنّ الفجّ تصدُم جنبيها لانتفاخِ بطنِها، ونحنُ لا نجاوزُ في هذا وأشباهِهِ نصَّ الكتابِ وظاهرَ صحيحِ السُنّةِ من غيرِ إنكار شيء ممّا يقعُ تحتَ القُدرة، ويشبُه أن يكونَ صالحُ عليه السلام أشارَ إلى ناقةٍ من الإبلِ بأمرِ الله فجعلَها علامةً بينهم لطاعةِ المطيعِ ومعصيةِ العاصي وامتحنَهم بورْدِها وشربها، ولو أشار إلى بقرةٍ أو حِجارةٍ أو طيرٍ وهو مثلاً لكانَ كذلك كما امتحنَ آدمَ بالشجرةِ امتحننا بالكعبةِ وأنواعِ الفرائضِ، وقد كانتِ الملوكُ يفعلون مِثْلَ هذا في الزّمنِ الأوّلِ اختباراً لطاعةِ العوامِّ وتخويفاً للرعيّةِ، كما حُكي عن النعمانِ بنِ المنذر أنه كانَ أرسَل كبشاً في البيوتِ والأسواقِ وعلق مُدْيةً في عُنُقهِ وسمّاه كبشَ الملكِ يبلو بذلك طاعةَ النّاس هل يجترىءُ عليه أحدٌ بالعَيْث[1]، وإنّما كانتِ الناقةُ لصالحٍ ونُسبتْ إلى الله عزَّ وجلَّ لنهي الله عن عقرِها.

وأمّا قولُهم: كيفَ جازَ إهلاكُ قومٍ وإفناءُ أمّة بناقة؟ فإنّهم أُهلكُوا بكُفرِهم وتكذيبِهم

(١) العيث: الفساد.

وتظالمِهم فيما بينَهم وكانتِ الناقةُ حداً حاجِزاً عن هذه المعاصي، فلمّا أَشْكَوا حرمتَها انتُهِك كلُّ ما كان محجوزاً بها، وأمّا إنكارُهم أن يكونَ ناقةٌ تسقي أُمّةً فإنّ الأُمّةَ من بين الثلاثةِ إلى ما بلَغ؛ وإنكارُهم مصادمةَ حافتي الفجّ جانبَيْها فكمْ عهِدْنا من شعْب يضيقُ عن مسلكِ شاةٍ عن مسلكِ ناقةٍ، وأمّا تعجبُهم من هلاكهِم فهلاكُ الحيوانِ بانواعِ الآفاتِ والبلايا الطبيعيّةِ والسماويّةِ من طغيانِ ماءٍ أو نارٍ أو ريحٍ أو غيرِ ذلك مُعايَنٌ مشهورٌ ولا ينكرهُ أحدٌ ولا يُمكنه الإنكارُ وقَدْ يجوزُ بل يُمكِن أن يكونَ عذابُ عادٍ وثمودٍ وقومِ لوطٍ وسائرِ المغلَّبين من الأُممِ الحّ عليهم أيّاماً وشُهوراً وأعواماً، ودامَ أوقاتاً كثيرةً، وقَد يجوزُ أن يكونَ حَزْفاً واجتياحاً فإذا جازَ جميعُ ما ذكرنا فلا معنى لسرعةِ الردِّ والتكذيبِ والله المُستعانِ؛ هذا ما وجدَنا من القصصِ والأخبارِ بعَدَ نوحٍ إلى زمنِ إبراهيم عليهما السلام، وقد رُوينا في بعضِ التواريخِ أنّه كانَ بينَ نوحٍ وإبراهيم ألفا سنة ومائتا سنة وأربعون سنةً، ورُوينا في بعضهِا أنّه كان من الطوفانِ إلى مولدِ إبراهيم عليه السلام ألفُ سنة وتسعُ مائة سنة وسبعون سنة؛ ورُوينا أنّه كان بينهما عشرةُ قرونٍ، وعلماءُ المسلمين يرون أنّ المَلِك كانَ في زمنِ إبراهيم نمروذُ الجبّارُ صاحبُ الصَرْح ببابلٍ واللهُ أعلم.

قصة إبراهيم عليه السلام:

ورد في الأخبارِ أنّه ملكَ الأرضَ كلَّها أربعةُ نفرٍ: مؤمنان وكافران، وسيملكُ من هذهِ الأُمّةِ خامسٌ؛ فأوّلهم نمروذُ بنُ كنعانَ بنِ كوشِ بنِ حامِ بنِ نوحٍ، ويُقال نمروذُ بنُ كوشِ بنِ سيحاريب بنِ كنعانِ بن سامِ بن نوحٍ واللهُ اعلمُ؛ والثاني: ازْدهَاقُ ذو الحيّتين والأفواهِ الثلاثةِ والأعينِ الستِّ، والعربُ تسمّيه الضحّاكُ: هو نمروذ بعينهِ وإنّما سُمّي ضحّاكاً لأنّه ضحكَ كما سقطَ من بطنِ أمّه فطرحَتْه أُمُّه بقَفْرٍ وقُبض له نمِرةٌ تُرضعهُ، لمّا أُريد به، وقيل بَلْ جُزّ ثَدّيُ أمّه فاسترضعته بلبنِ نمرةٍ فسُمّي نمروذٌ لذلك، وقيل بل الثاني بخت نصّر؛ وأهلُ اليمن يزعمون: أنّ الثاني تُبَّعُ بنُ ملكيكرب، فأمّا المؤمنان: فأحدُهما سليمانُ بنُ داودٍ عليهما السلام؛ والفرسُ يزعمون: أنّه جم شاذ، والآخر ذو القرنَيْن وقد اختلفوا في ذي القرنين أَهُو الاسكندرُ الروميّ أم غيرهُ وفيهم يقول الشاعر: [كامل].

ملكوا المغاربَ والمشارقَ كلها وتوثّقوا لم يتركوا أمْراً سُدَى

واعلم أنّ لو تكلّفنا هذه الأخبارَ والأقاصيصَ كلَّها على وجهها وأتينا بها على كنهِها لاحتجنا إلى أن نسرُدَ الرواياتِ كلَّها: الحقَّ منها والباطلَ والمُحالُ والمجازُ، ثُمّ لم يحصلِ

الناظرُ فيها على غيرِ ما كان مُمكناً من غيرِ ذلك وإنّما المرادُ في ذكرِ ما يجوزُ ويمكنُ ويتوهّم ممّا اختلفَ فيه الناسُ وخالفَه الملحدون وخفي ما فيه عن طُلابِ الحقّ ومُلتمسي الهدايةِ فيما كان منها في كتابِ الله عزّ وجلّ ظاهراً جليًّا كفى به هادياً ومفيداً، وما كانَ في الصِحاحِ من الأخبارِ فمنزّلٌ منزلةَ الكتابِ في الإيمانِ والتصديقِ، وما كان غيرُ ذلك من آيةٍ مشكلةٍ أو خبرٍ مُشتبه فالغرضُ في كشفِه وحلّه مع أنّا لا نَدَعُ الإتيانَ بجملٍ منها لأنّ الكتابَ عليها ولها أسّسَ وبها رسمٌ والله الموفّق المُعين؛ ذكر أهلُ هذا العلم: أنّه إبراهيمُ بنُ تارَحٍ بن ناحورٍ بن ساروجٍ بنِ ارغوَ بن فالِجِ بن عابرِ بن شالحِ بن ارفخشذِ بن سام بن نوحٍ، وأنّه لمّا أظلَّ وقتُ ظهوره أخبرتِ المنجّمةُ الكُهّانَ نمروذَ بأنّه يولَدُ مولودٌ في هذه السنةِ يكونُ هلاكُ مُلكك على يديه، وهذا يُمكنُ لأنّه يُروى أنّ علم النجومِ كان حقًّا إلى أن نُسِخَ، وأيضاً فإنّ علمَ الغيبِ الذي تفرّد اللهُ به واستأثرَ به نفسَه دونَ خلقه لا يتناوله هذا البابُ، ويمكنُ أن يكونَ أدركوه في بعضِ كتبِ الله كما ذكر للنبيّ عليه السلام مشهوراً في الكتب قبله فأمر الملكُ بقتلِ كلِّ مولودٍ ذَكَرٍ مخافةَ أن يقعَ تصديقُ ما قد ذُكر، وحملتْ انيلةُ أُمُّ إبراهيم، ويُقالُ ابيونا فكتمتْ حملَها إلى أن دنا حملُها فوضعَتْه وأخفَتْه في سَرَبٍ[1] وجعلت تأتيه متخبئة تُرضعه وتتعهّده إلى أن فطمّته وبلغَ مبلغَ المُراهقِ خمسةَ عشر سنةً، واجتمعتْ لحيتُه وكان من حُسْن بيانِهِ وسُرعةِ شبابِهِ يستغاب مولده وقتَ ذبحِ الولدانِ، فنزل ومشى في النّاسِ، وطالَع أحوالَهم ومذاهبُهم وما توزّعتهم النِحَلُ به من عباداتِهم فمنهم مَنْ عكَفَ على حجرٍ، ومنهم مَنْ عكفَ على شجرٍ، فتفكّر في مستحق العبادةِ منه لقوله تعالى ﴿**ولقد آتينا إبراهيمُ رُشْده من قبلُ وكنّا به عالمين**﴾ [الأنبياء: ٥١] فدلّتْه الفكرةُ والاجتهادُ على صانعِهِ ومُدبّره فصرف الرغبَة إليه وأخلصَ العبادةَ له بقول الله تعالى ﴿**وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السمواتِ والأرضِ وليكونَ من المُوقنين**﴾ [الأنعام: ٧٥] ثُمّ احتالَ في تعريفِ القوم سُوءَ احتيالِهِم وقُبحِ اختيارِهِم وخطاءَ اعتقادِهِم بألطف الوجوهِ وأحسنِ الحيل بقول الله تعالى ﴿**فلمّا جنّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربّي**﴾ [الأنعام: ٧٦] مخادعاً مماكراً لهم أي إنْ كان هذا الصنمُ أو هذا الشخصُ لكم ربًّا فهذا الكوكبُ في عُلُوّ مكانِه وشعاعِ نورِهِ وحُسنِ منظرِهِ وبُعدِهِ من آفاتِ الأرضِ ربّي، وهو أَوْلى بالعبادةِ من غيرِهِ على هذه الشريطةِ، ولعُمري إنّ عابدي الأجرامِ العُلْويّة أعذَر من عابدي الأجرامِ السُفليّةِ في القياسِ، فوقع للقوم أنّه أحسنُ اختياراً منهم وأبعدُ معرفةً وعلماً يقول الله تعالى ﴿**فلما أفلَ قالَ لا أحبُّ الآفلين**﴾ [الأنعام:

---

(١) السَرَب: القناة يدخل فيها الماء.

٧٦] لأنّه علمَ أنّ الطلوعَ والأُفولَ عَرَضان حادثان ولا يستحقُّ العبادةَ الحادثُ العارضُ لأنّه العاجزُ المنقوصُ المقارنُ بما لا يبقى ويزول ﴿ثُمّ لمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ [الأنعام: ٧٧] فجعل إبراهيم يُريهم النقصَ في عقولهم والنقضَ في مذاهبِهم بما اجتنبهُ على جهةِ الخبرِ عن نفسِه مخادعاً مماكراً لما قرّر عندَهم الحُجّة البالغة جاهرَهم بالخلافِ ونبّه بالتوحيدِ، فقال ﴿إني وجَهتُ وجهي للذي فطرَ السمواتِ والأرضِ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [الأنعام: ٧٩] ولهذا لما كان دينُ إبراهيمَ معقولاً فِطْرياً لا يُحتاجُ في إدراكِه ومعرفتِه إلى سماعٍ وخبرٍ حدّ الله عليه أنبياءه ورُسلَه وأمرَهم باتّباعه، وما مِن أهلِ دين إلاّ وهم يقولون بدين إبراهيم عليه السلام ويتّبعونه في دعاءهم، قالوا: وإنّ أباه آزر كان ينحتُ الأصنامَ ويتّبعها ويعبدُها فجادلَه إبراهيمُ عليه السلام كما حكاه الله تعالى عنه في القرآن ﴿يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يَسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغني عنك شيئاً﴾ [مريم: ٤٢] الآية ثُمّ أظهرَ عيبَ آلهتهمِ والقَدْح فيهم والوضعَ من شأنِهم، وكان لهُم عيدٌ ومجمعٌ يخرجون فاحتال إبراهيمُ عليه السلام في التخلّف لتحلّة يمينه فلمّا راودوه للخروج معهم نظر نظرةً في النجوم يعني في علم النجوم، وكان القومُ يعلمون به وينزلُون عند دلائلِه فقال: إنّي سقيمٌ أي أراني سأسقمُ وكانوا يتطيّرونَ في كلِّ ذي سقمٍ وآفةٍ، فقال: إنّي مطعونٌ فتولّوا عنه مُدبرين، فراغ إلى آلهتِهم فقال: ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون يريد بكلامِهم أن يُظهرَ للسدنةِ والخدم عجزهم وضعفهم ﴿فجعلهم جُذاذاً ألا كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون﴾ وذلك حيلةٌ منهُ في تعريفهِم خطاياهم عليه وإقرارِهم بألسنتِهم ضلالةَ أرائهم فلمّا رجعُوا ﴿قالوا مَنْ فعلَ هذا بآلهتنا﴾ [الأنبياء: ٥٩] يا إبراهيم؟ قال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء: ٦٣] غضباً وآنفاً أنْ لا يُعبَدُ مَنْ هو دونَه ﴿فاسألوهم إنْ كانوا ينطقون﴾ [الأنبياء: ٦٣] هو فعله، ويُقالُ: أراد بكسرهم نفسَه لأنّه فعلَه وجرى بينه وبينَهم ما جرى إلى أنْ قالَ ﴿افٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إنْ كنتمُ فاعلين﴾ [الأنبياء: ٦٨] فأوقدوا ناراً عظيمةً وقذفُوا إبراهيمَ فيها فجعلَها اللهُ برداً وسَلاماً عليه، وأمرَه بالهجرةِ من أرضِ بابل إلى الشام فِراراً بدينِه، وكانَ مولدُه بقريةٍ من سَوادِ الكوفةِ يُقالُ لها كوثا ربّا، فخَرجَ إلى حرّانِ ومعهُ ابنُ أخيه لوطُ بنُ هاران بنِ آزرٍ وابنةُ أخيه سارةُ بنتُ هارانٍ، وكانتْ من أحسنِ نساءِ العالمين عقيماً لا تَلِدُ، وقيلَ أنّ سارة كانتْ ابنةَ عمّه نوهر بن ناحور، وزعَمَ وهبٌ أنّه آمنَ بإبراهيم يومَ أُلقي في النارٌ رهطٌ منهم هارانُ وشُعيبُ وبلعمُ، وهاجروا معهُ ثُمّ خرجُوا من حرّانَ إلى أرض فلسطينَ، ومرَّ بحدودِ مِصر وفرعونُها يومئذٍ صاروفُ بنُ صاروفٍ أخو الضحّاك، وقيلَ: أنّه كان غُلاماً لنمروذِ بن كنعانَ على مِصر، ويُقالُ: هو سِنانُ

بنُ عُلوانَ أخو الضحّاكِ فهمَّ بأن يغصبَ إبراهيمَ امرأته سارة، فتعوّذ منهُ وقال: إنّها أُختي أرادَ بِهِ أُخوّةُ الديانةِ والتشابُهِ، وقَدْ قِيلَ: أنّه من كلماته الثلاث اللواتي تمنعه الشفاعة يوم القيامةِ، وجاء في الحديثِ أنّ إبراهيم كذبَ ثلاثَ كذباتٍ ما منهنّ واحدةٌ إلاّ وهو تماحل[1] عن الإسلام قولُه لسارة إنها أختي، وقولُه: إنّي سقيمٌ، وقولُه: بل فعله كبيرُهم هذا، قالوا: فأطلق عنها بعدُ ما أظهرَه اللهُ من الآياتِ الموجبةِ له تخلية سبيلها فأعطاها نعماً ومالاً وجارية كانتْ عندَهم من سَبْي جُرْهُم[2]، وقال خذيها أجرك فسُمّيتْ هاجر، وفي الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال «إذ افتتحتُم مِصْرَ فاستوصوا بأهلها خيراً فإنّ لهم رَحماً وذمّةً» أراد بالرحم أمومة هاجرِ، وبالذمّةِ أمومةَ مارية، فعاد إبراهيمُ عليه السلام إلى أرضِ فلسطين فسكنها وكثرتْ ماشيتُه ونِعَمةُ وغلمانُه، وابتاع مزرعةَ حَبرُون[3]، وفيها قبرهُ وقبرُ إسحق ويعقوب وسارة ورفقا وليّا، وأمّا هو لأنسهِ بهِم لم يرغبْ في الولدِ فقالتْ سارةُ لإبراهيم: إنّي أراكَ لا يولد لكَ فخذْ هذه الجاريةَ تقعُ عليها لعلّنا نُصيبُ منها ولداً، فحملتْ بإسماعيل وعلقتْ به فلما وضعتْه شغِفَ إبراهيم به وبأمّه هاجَر، وغارتْ سارةُ غيرةً شديدةً وشقّ عليها مشقّة عظيمةً فحلفتْ ليقطعنّ منها ثلاثة أشرافِها، فأمَرها إبراهيمُ عليه السلام أن تخفضها وتثقُب أذنيْها في تحلّة قسَمها ففعلتْ وحملتْ سارةُ بإسحق بعدَ عشرِ سنينَ من مولد إسماعيل، وكان إبراهيمُ حمل إسماعيل وأمّه إلى موضعِ الكعبةِ وأنزلهما به وهو طفلٌ فراراً بهما من سارة بأمرِ الله تعالى، ولمّا ماتتْ سارةُ تزوّج إبراهيم امرأةً من الكنعانيّين يُقالُ لها قطوراً فولدتْ لهُ أربعةَ نفر، وتزوّج امرأةً أخرى فولدتْ له سبعةَ نفرٍ، وكان جملةُ ولده ثلاثة عشرَ رجُلاً، وعاشَ فيما رُوي مائةً وخمساً وسبعينَ سنةً، وزعمَ وهبٌ أنّه عاش مائتي سنةٍ ومات فدُفن في مزرعةِ حبرون.

ذكرُ اختلافِ الناسِ في قصة إبراهيم:

جاءَ في بعضِ الأخبارِ أنّ إبراهيمَ عليه السلام لمّا أخفَتْه أمّهُ في السرب أتاهُ جبريلُ فأمصّه السبّابةَ والإبهامَ فجعلَ يشربُ من إحداهما لبناً ومن الأخرى عَسلاً، ورُوي عن نوف

(١) تماحَلَ: تباعَد.

(٢) جُرْهُم: قبيلة عربية قديمة، قيل إنّها جاءت من اليمن، منها البائدة والعاربة، أما العاربة فكانت تقيم في مكة.

(٣) حبرون: مدينة في فلسطين فيها قبر إبراهيم الخليل وزوجته سارة وإسحق ويعقوب ورفقه، من أقدم مدن العالم.

البكالي أنّه قُبضت له ظبيةٌ ترضعه إذا ابطأتْ عليه أُمّهُ، وفسّر بعضُهم قولَه تعالى ﴿وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] أنّه رُفعَ فوقَ السمواتِ حتّى نَظر إلى ما فيها وإليها، وذكروا من صفةِ النّارِ وعظمِ بنيانها وجمعِ الحَطَب لها سنين ما الله به عليمٌ؛ قالوا وقَدْ كانتِ المرأة إذا حملتْ نذرتْ لئن وضعتْه ذكراً حملتْ مِقداراً من الحطبِ إلى ذلك الموضعِ، وأنّه لم يحملْ شيءٌ من الدوابّ ذلك الحطبَ إلاّ البَغْلَ، وأعقمَ اللهُ نسلَه وأحرثَه، وإنّ الخُطّافَ كانتْ تأتي بالماءِ فترشّه على النّار فجعلَها آيةَ ألُوفاً للمساكنِ، وإنّ الوَزَغةَ كانت تنفّخُ النارَ وتضرّمُها فأمرَ الله بقتلِها، وأنّهم أوقدُوا أيّاماً حتّى احترقَتْ طيرُ السماءِ ونفرتْ الوحوشُ والسباعُ وإنَّ ابليسَ جاءهم فعلّمهم عملَ المنجنيق فسوَّوْا ورَمَوا بإبراهيم عليه السلام في النارِ فقال الله عزّ وجلّ ﴿يا نار كوني برْداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩] فبرُدتْ النيرانُ كلُّها على وجهِ الأرضِ حتّى لم ينضجْ كرعاً، وقالَ بعضُهم: حتى بردت نارُ جهنّم، قالوا: ولو لم يتبع اللهُ قوله ﴿كوني برداً وسلاماً﴾ [الأنبياء: ٦٩] لتقطّعت أوصالُه من البردِ؛ فهذه أخبارٌ جاءتْ ليسَ في الكتابِ منها إلاّ قوله ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩] وإنّما جعلَها مُعجزةً لنّبيه وإبانةً لشرفِهِ واجهاضاً للكافرِ الذي يمكرُ به، وقد زعم بعضُ مَنْ لم يخلصْ في الإسلام نيّتَه انّهم لم يطرحُوا إبراهيمَ في النّارِ، وإنّما همُّوا به، واحتجَّ بأنّهُ ليسَ في الكتابِ ذلك، قالَ وإنّما معنى قوله للنارِ ﴿كوني برداً وسلاماً﴾ [الأنبياء: ٦٩] أنّهم كانُوا تأمروا في إحراقهِ بالنّارِ، ثُمّ بدا لهُم خلافه فكان خلافُ ما أرادوا بإبراهيمَ برداً وسلاماً من النّارِ والبلاءِ الذي همّوا؛ وزعم غيرُه من أشكالهِ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام سحرَهم وأُطلِيَ ببعضِ الأدويةِ التي يبطُل معها عملُ النّارِ، واحتالَ في الفوتِ بنفسِه وساقَ قصّةً لبعضِ الهندِ وشبّهه بها؛ وكونُها برداً وسلاماً عجزُهم عن حجّته وانكاسرُهم عن معارضته؛ كما قال في عصى موسى وناقةِ صالح وسائرِ معجزات الأنبياء عليه السلام، وقد مضى وجهُ الجوابِ لهذه الأشياءِ في غيرِ موضعٍ فلا فائدةَ في التكرارِ واللهُ المستعانُ.

وجملةُ القولِ: كيفيّةُ إبداعِ المعجزةِ غيرُ معقولةٍ فمَنْ أقرَّ بهذا لزمَه الإقرارُ بالمعجزاتِ قاسياً، ومَنْ أنكرَ المعجزَة فهو لحَدَث العالمِ مُنْكرٌ وإن أظهرَ خلافَه والسلام.

ويُقالُ أنّه أُوقِدَ له النارُ ببرقوه من أرضِ فارس، وأنّ أثرَ الرمّادِ باقٍ إلى اليومِ، ويُقالُ: بل كان ذلك بكوثي ربّاه[1]، وذكروا أنّ نمروذ هو الذي حاجّ إبراهيمَ في ربّهِ، وهو أوّلُ مَنْ

---

(١) كوثي ربّا: مدينة في العراق، تدعىٰ حالياً تل إبراهيم، ورد ذكرها في التوراة، كانت مركزاً للتعليم=

لبس التاج وبنى الصرح ببابل، يُقالُ: سبعة آلاف درجةٍ، ويُقالُ ثلاثة آلافٍ وشيء، وجعل يرمي في السماء فيرجع نبلُه إليه مختضباً وذلك بعد ما عمل النسورَ وطارتْ به في السماءِ فزلزل اللهُ بقواعده فهدمها من أصلها، قالوا: وعاشَ في ملكه مائتي سنةٍ وسبعين سنةً فأهلكه اللهُ ببعوضةٍ دخلتْ في خيشومه فجعلوا يضربون هامته بالجُرز[1] حتّى تناثر دماغهُ، وفي رواية الواقدي[2] أنّه لبث معموراً في ملكه سبعين سنةً، ويزعمُ بعضُ المتأوّلين أنّ بناء الصرح كان إرصاداً منه للكوكب وطلباً لمعرفة سير النجوم ومطالعها واللهُ أعلمُ.

قصّة لوط بن هاران بن آزر:

وهو ابنُ أخي إبراهيم عليه السلام وكان هاجرَ مع إبراهيم عليه السلام إلى الشام فلمّا نزل إبراهيمُ عليه السلام أرض فلسطين بعثه اللهُ إلى أرض سدُوم وكاروما وعمورا وصبوآيم: أربعُ قُرى من فلسطين على مسيرة يومٍ وليلةٍ، قالوا: وأجدبتِ الأرضُ واقحطت وكانتْ قُرى لوطٍ أخصبَ بلاد الله فانتابهمُ الغُرباءُ ليُصيبوا من ثمارهم وطعامهم، وسنّوا تلك السُنّةَ الخبيثة ردعاً للناس عن تناول شيء من ثمارهم وطعامهم، ثُمّ مرنوا على ذلك وأصرّوا، وخرجوا مع ما كانوا فيه من الكُفر بالله والظُلمِ لعبادهِ والاعتداء عليهم، فنهاهُم لوطٌ عليه السلام وعرض عليهم تزويج البنات والاكتفاء بهنّ عن اتيان الذكور لما فيه من نفورِ النّفسِ وانقطاع النسل فأبوْا عليه وكفروا به.

وفي رواية سعيد عن قتادة عن الحسن قال: عشر خصالٍ عملها قومُ لوطٍ بها أُهلكوا: كانوا يأتون الرجال، ويلعبون بالحمام، ويضربونَ بالدفوفِ، ويرمُون بالجلاهق[3]، ويخذفون[4] بالأصابع، ويلبسُون الحمرة، ويصفقونَ بأيديهم، ويصفرونَ بأفواههم، ويشربون الخمر، ويقصرون اللّحى، ويطوّلون الشواربَ، وروى غيرُه كانوا يضرطون في

الثاني في العهد السومري «منجد الأعلام/ ١٩١».

(١) الجُرز: عمود أو قضيب من المعدن.

(٢) محمد بن عمر، من أقدم المؤرخين في الإسلام، ولد بالمدينة وأقام ببغداد حيث تولى قضاءها، وفيها توفي من مؤلفاته «المغازي» و«فتح العجم». أشهر من روى عنه كاتبه ابن أسعد (ت ٨٢٢ م) «منجد الأعلام/ ٧٤٠».

(٣) الجلاهق: جسم صغير كروي من طين أو رصاص يرمى به وقيل هي القوس التي يرمى بها البندق «فارسية».

(٤) يخذفون: يُقال: خذف بالحصاة: رمى بها من بين سبابتيه أو بالمخذفة.

النادي، وينزو[1] بعضُهم في وجه بعضٍ، ويمضغون العِلْك، ومع ذلك يقطعونَ الطريقَ ويغصبونَ الناسَ ويستهزؤونَ بلوطٍ، ولمّا بعثَ اللهُ الملائكَة إلى إبراهيمَ يبشّرونه بإسحقَ أخبروا بأنّهم مأمورون بإهلاكِ قُرى لوطٍ وذلك قولهُ تعالى ﴿ولمّا جاءتْ رُسُلنا إبراهيم بالبُشرى قالوا إنّا مهْلكوا أهلِ هذه القرية﴾ [العنكبوت: ٣١]. إلى آخرِ الآياتِ كلِّها في شأنهم وقصصِهم، وكانت امرأةُ لوطٍ تدلُّ الناسَ على ضَيْفِهِ وتُخبرهم بمجيئهم، فلمّا جاءتِ الرُسُلُ لوطاً ذهبتِ العجوزُ تُخبرُهم وذلك قولُه تعالى ﴿ولمّا أن جاءت رسُلنا لوطاً سِيءَ بهِم، وضاقَ بهم ذرعاً﴾ [العنكبوت: ٣٢] إلى تمام القصّة ﴿وجاءه قومه يُهْرَعون إليه ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات﴾ [هود: ٧٨] إلى قوله ﴿فأتقوا اللهَ ولا تُخزونِ في ضيفي أليس منكم رجلٌ رشيد﴾ [هود: ٧٨] قال قتادةُ لا واللهِ لو كانَ فيهم واحدٌ رشيدٌ لما عُذّبوا فزلزلَ اللهُ بهم الأرضَ وجعل ﴿عاليها سافلها﴾ [الحجر: ٧٤] وأمطر عليهم ﴿حجارة من سجّيل منضودٍ مسوّمة عند ربّك﴾ [الحجر: ٧٤] وأمر اللهُ تعالى لوطاً فلحِق بإبراهيمَ مع ابنتَيْه رتبا ورعورا إلى أنْ قبضَه اللهُ تعالى وفيه يقولُ أُميّة بنُ أبي الصلت: [خفيف].

ثُمَّ لوطاً أخا سَدُومٍ أتاها	إذْ أتاها بِرُشْدِها وهُداها
راودوه عن ضَيْفه ثُمّ قالوا	قد نَهيْناك أن يُقيمَ قُراها
عرضَ الشّيخُ عند ذاك بناتٍ	كظباءٍ بأجرع[2] فرعاها
غضبَ القومُ عند ذاك وقالوا	أيُّها الشّيخ خطبةً نأباها
أجمعَ القومُ أمرَهم وعجوزٌ	خيّبَ اللهَ سعيها ولحاها
أرسلَ اللهُ عندَ ذاك عَذاباً	جعلَ الأرضَ سِفْلَها أعلاها
ورماها بحاصبٍ ثمّ طِينٍ	ذي جروفٍ مُسوّمٍ إذ رماها

ذكرُ اختلافِ الناس في قصة لوط:

رُوي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنّه قال: كان في كلِّ قريةٍ من قُرى لوطٍ مائةُ ألفِ رجُلٍ مُقاتلٍ، وأنّهم كانُوا إذا ارتكبُوا من إنسانٍ الفاحشةَ غرّموه أربعةَ دراهمَ، فسارَ المثلُ في حكمِ سدُومٍ[3]، فأبوا، وإنّ إبليسَ أتاهم في هَيْئَةِ غُلامٍ فدعاهُم إلى نفسِه فصارَ

---

(١) ينزو: يُقال: نزا الذكر على الأنثى: أي جامعها.

(٢) الأجرع: رملة مستوية لا تنبت شيئاً.

(٣) سدوم: مدينة قديمة في فلسطين على شاطىء البحر الميت، ذكر الكتاب المقدّس: أن الله أمطرها مع=

ذلك عادةً لهمُ في الغرباءِ، وزعم الكلبيّ أنّ جبريلَ أتاهمُ فأدخلَ جناحَيْه تحتَ الأرضِ فحملَ القريةَ وحلّقَ بها حتّى سمعَ أهْلُ السماءِ أصواتَ الكلابِ والديكةِ، ثمّ قلبها وأرسلَ اللهُ الحجارةَ على شُذّاذهم ومسافريهم؛ ورُوينا عن محمدِ بن كعبٍ[1] أنّ الذين فعلُوا منهم ذلك كانُوا سبعةَ نفرٍ رأسهُم يُقالُ له نمروذُ واللهُ أعلمُ.

قصّةُ إسماعيل عليه السلام:

قالُوا ولمّا اشتدّتْ غيرةُ سارة على إسماعيل وأُمّه أمَرَ اللهُ إبراهيم أن يسيرَ بهما إلى الحرمِ، وأنبأهُ أنّ عمارةَ البيتِ على يديه وأنّه ينبط[2] لإسماعيل سقايتُه فسارَ بهما حتّى أنزلهَما موضعَ الكعبةِ اليومَ ودعا لهما فقال ربِّ ﴿إني أسكنتُ من ذُرّيتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عند بيتكِ المُحرّم﴾ [إبراهيم: ٣٧] الآية ولا أشكّ أنّه كانَ معهَما من يخدمُهما ويرعاهما، وأقفلَ راجعاً إلى الشام، قالوا: وفحصَ إسماعيلُ برِجْله الأرض فنبعَ الماءُ من تحتِ عَقبه، وقيلَ: بل أتاهُ جبريلُ فركضَه ركضةً فارَ منه الماءُ، وجاء رَكْبٌ من جُرهم إلى اليمنِ فرأوا بلداً ذا ماءٍ وشجرٍ، فقالوا لهاجرَ لِمنْ هذا؟ قالتْ لي ولعقبي من بعدي، فنزلوا: حولَ البيتِ وهو يومئذٍ ربوةٌ حمراءُ، ولهاجر عريشٌ في موضعِ الحِجْرِ فنشأ إسماعيل وَسْطَ جُرهم، وتكلَّم بلسانِ العربيّةِ، وأعطُوه عنزاً من ثماني مائةٍ، وكان ذلك أصلُ مالهِ، فلمّا تزوّج منهم امرأةً، وكان إبراهيمُ عليه السلام يأتيه كلَّ سنةٍ معتمراً ومجدّداً بإسماعيل العَهْدَ، ووُلِد لإسماعيل اثنا عشرَ رجلاً: ثابتٌ وقيدارُ وذابلُ ومنشى ومسمعُ وماشُ وماءُ وآذرُ وصهباءُ ويطورُ ونبشُ وقيدما[3] وأُمُّهم ابنة مُضاضٍ بن عمرو الجرهميّ، وجدّهم من قحطانَ، وقحطانُ أبو اليمنِ كلِّها فمن ثابتٍ وقيدر نشرَ اللهُ العربَ، ولمّا ماتتْ هاجرُ دفنَها إسماعيلُ في الحجرِ، ثمّ لمّا ماتَ إسماعيلُ دفنَه بنوه مع أمّه في الحجِر، فقبورُهما فيه، وكانَ عمرُ إسماعيلَ مائةً وسبعاً وثلاثين سنةً وهذا مكتوبٌ في ترجمة التوراة.

= مدينة عامورة ناراً قصاصاً على خطايا أهلها. «منجد الأعلام/ ٣٥٢».

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٥.

(٢) ينبطُ: يقال: ينبطُ البئرَ: يستخرج ماءَها.

(٣) جاء في الكتاب المقدّس: صفحة (٢٩): أنّ أبناء إسماعيل هُمْ: (نبايوت، قيدار، أوبئيل، مبسام، مشماع، دومة، مسّا، حداز، تيما، يطور، نافيش، قدمة).

كما جاء في السيرة النبوية جـ ٥٦/١: أنّ أبناء إسماعيل هُمْ: (ثابت، قيذر، أذبُل، مشا، مِسْمع، ماش، دِمّا، أذر، يطور، نبش، طيما، قيذُما).

ذكرُ اختلافِ الناس في قصة إسماعيل:

جاء في بعضِ الأخبارِ أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا وضعَ هاجرَ وإسماعيلَ بموضعِ الكعبةِ وكرَّ راجعاً أقبلتْ عليه هاجرُ فقالتْ: إلى مَنْ تَكِلنا؟ قال: إلى اللهِ، قالتْ حسبُنا اللهُ، فرجعت وأقامتْ عندَ ولدِها حتّى نَفِدَ ماءُها وانقطَع دَرُّها فارتقتْ إلى الصَّفا حتّى تنظرُ هل ترى عيناً أو شخصاً فلمْ ترَ شيئاً، فدعَتْ ربَّها واستسقَتْه، ثُمّ نزلتْ حتّى أتَتْ المروةَ ففعلتْ مثلَ ذلك، ثمّ سمعَتْ أصواتَ السباعِ فخشيتْ على ولدِها فأسرعتْ تشتد نحو إسماعيلَ فوجدتْه يفحصُ الماءَ بيدِهِ عن عينٍ قد انفجرتْ من تحتِ خدِّه، وقيلَ: بل من تحتِ عقبه، وزعمُ بعضُهم: أنّ جبريل أتاه فركضَ برجلِهِ الأرضَ ركضةً وفيه تقول صفيّة بنتُ عبد المطّلب: [رجز].

نحـن حفَـرنـا لحجيـج زمـزَم سَقْيـاً نبـيَّ الله فـي المحـرَّم
رَكْضَـــةَ جِبْـــريـــلَ ولمّـــا يفطـــم

فجعلَته هاجرُ حِسْياً، ورُوي لو لم يُحِطْه لكانَ عيناً مَعِيناً وفيه يقول قومٌ: [رجز].

وجعلـتْ تبنـي لهـا ألصّفـائحـا لـو تـركَتْـه كـان مـاءً سـائحـا

وقد أنكر هذا قومٌ وزعموا أنّ إسماعيلَ حفرَها بمعوَلٍ ومعالجةٍ، قالوا: ويمكُن أنّه أسرَع الماءَ إلى إجابتِهِ لقربِ غزرِهِ لأنّ الوادي عميقه من كِبْسِ السيولِ، وهذا من أيسرِ الأُمورِ وأسهلها إن كانَ إسماعيلُ حفرَها أو حُفِرَتْ من أجلِه، أو كانتْ نبعتْ بنفسِها مُعْجزةً وكرامةً كما كانتْ، وليس شيءٌ منه في الكتابِ وإنّما الأخبارُ وردتْ كما وردتْ واللهُ أعلمُ.

قصّةُ إسحق عليه السلام:

قال الواقديُّ ولدتْ سارةُ إسحقَ بينَ العماليقِ بالشام، وهم الكنعانيّون، وكان بينه وبينَ إسماعيل ثلاثون سنةً، وفي كتاب أبي حُذيفة أنّ إسماعيلَ كان أكبرَ من إسحق بعشر سنين وتزوّجَ إسحقُ ربقا بنت بوهر(1) فولدتْ له عَيْصُو(2) ويعقوبَ توأمَيْن؛ ويزعمُ أهلُ الكتابِ أنّ عَيْصُو سُمّي به لأنّه عصى في بطنِ أُمّه وذلك أنّه خرجَ قبلَ يعقوبَ، وخرجَ

(1) جاء في الكتاب المقدّس صفحة (٢٩): أن زوجة إسحق رفقة بنت بتوئيل الآرامي.

(2) جاء في الكتاب المقدّس صفحة (٢٩): أنّ ولدّي إسحق هما: عيسو ويعقوب، كما جاء في السيرة النبوية جـ ١/ ٥٧: أن ولدي إسحق هما: عيصو ويعقوب.

يعقوبُ على إثرِهِ آخذاً بعقِبه فلذلك سُمّي يعقوب، وهذا ما لا أعرفُ له تأويلاً وأصلاً اللهُمّ إلاّ أن يكون مَثَلاً وتشبيهاً، وتزوّجَ عيصو بسمةَ بنتَ إسماعيل[1] وكان رجلاً أشقرَ فولدَتْ له الروم.

ذكرُ الذبيح :

قال قومٌ: هو إسماعيل واحتجّوا بأنّ الله لمّا فرغَ من قصّةِ الذبيح استقبلَ قصّةَ إسحق فقال: ﴿وبشّرناه بإسحقَ نبيّا من الصالحين﴾ [الصافات: ١١٢] وروى الفرزدقُ الشاعرُ قال: سمعتُ أبا هريرة على منبرِ رسول الله ﷺ يقول «الذبيحُ هو إسماعيلُ» وقال آخرون: بل هو إسحق، ويُروى عن العبّاسِ بن عبد المطلب وعبد الله بن مسعود، وأهلُ الكتاب لا يختلفون: أنّه إسحقُ، وزعم بعضهم أنّه قرّبَ اسحَق مرّةً ذبيحاً ومرّةً إسماعيل[2] واللهُ أعلمُ، واختلفُوا أين قرّبَ؟ فأكثرُ العلماءِ على أنه كان بمنا[3]، وأنّ إبراهيمَ أُرِيَ في المنام بِمكةَ، وهو وإسحقُ مقميان بها أنْ قَرِّبِ ابنك إلي هذا قُرباناً وذلك بعد ما بنى البيتُ؛ ورُوي عن عَطاءٍ أنّه قال كان ذلك بالبيتِ المقّدسِ واختلفُوا في الذبحِ الذي فُدِي به، فقالَ كثيرٌ من الناسِ: أنّه فُدِي بكبشٍ كان يرعى في الجنّةِ سبعينَ خريفاً، وكان الحسن يحلفُ بالله ما فُدي إلاّ بكبشٍ من الأرْوَى[4]، واختلفوا في معنى الذي أرِيَ في المنامِ ذلك لأجلِهِ فقالَ قومٌ: لمّا بُشّر إبراهيمُ بالولدِ على كبرِ سنّه نذرَ ليذبحنّه لله قُرباناً فلمّا بلغ الغلامُ السّعْيَ أراهُ اللهُ في نومِه أُوفِ بنذرِك، وقالَ آخرون: بل أُمرِ في المنامِ ابتلاءً من اللهِ واختباراً ليُعلمَ الخلقَ حُسْنَ طاعتِه لربّه وانقيادِهِ لأمرِهِ واستحقاقِهِ شَرَف المنزلةِ وعلوّ الرتبةِ، وليقتدوا بِهِ في طَلبِ الوسيلةِ وابتغاء القُرْبةِ والزُلفةِ واللهُ أعلمُ.

فأمّا القصّةُ فكيفَ كانَ ذلك؟ وكيف خاطَبه فواضَحه؟ وكيفَ نبت المُدْيةُ عنه يطول؟ وقدْ ذكرها أُميّةُ في شعرِهِ: [خفيف].

---

(١) جاء في الكتاب المقدس صفحة (٤١): أن عيسو اتّخذ زوجتين هما: يهوديت بنت بيري الحثي، وبسمة بنت إيلون الحثّي.

(٢) جاء في السيرة النبوية جـ ١/ ٥٦: أنّ الذبيح هو إسماعيل على الصحيح.

(٣) مِنى: بلدة قريبة من مكة وعرفات، فيها مرمى الجمار «الرجم»، وقربها غار حرّاء الذي كان النبي يحتنّث فيه قبل الوحي. «منجد الأعلام/ ٦٨٦».

(٤) الأرْوى: جمع إرويّة: وهو ضأن الجبل وتستعمل للمذكر وللمؤنث.

ولإبـراهيـم المُـوفـيِّ بـالنـذ رِ احتسـابـاً[1] وحـامِـلِ الاجـذْالِ

أبُنَــيَّ نـذرتُـك للّـ ـه سحيطاً[2] فاصبْر فداً لك حالي

فـأجـابَ الغـلامُ أنْ قـالَ فيـه كـلُّ شـيءٍ للهِ غيـرُ انتحـال

جعـلَ اللهُ جيـدَهُ مِـنْ نُحَـاسٍ إذْ رآهُ زَوْلاً مـن الأزوالِ

بينمـا يخلـعُ السـرابيـلَ عنـه فكّـهُ ربُّـه بكبـشٍ جُـلال

قـال خُـذه فـأرسِـلِ ابنـكَ عنـه إنّـي مـا قـدْ فعلتُمـا غيـرَ قـال

رُبّمـا تكـرهُ النفـوسُ مـن الأمـ ـرِ لـه فـرجَـةٌ كحـلِّ العِقـال

وعاشَ إسحقُ مائةَ وثمانين سنةً كما رُوي واللهُ أعلمُ وأحكمُ.

قصّةُ يعقوب:

قالَ أهلُ هذا العلمِ فأكثرُ ما يرونَه أهلُ الكتابِ الأوّلِ والعلمِ القديمِ إلاّ ما نطقَ به كتابنُا أو صحَّ الخبرُ فيه عن نبيّنا محمّدٍ ﷺ أنّ إبراهيم لم يُمتْ حتّى بعثَ اللهُ إسحقَ إلى أرضَ الشامِ ويعقوبَ إلى أرضِ كنعانَ وإسماعيلَ إلى جُرهم ولوطاً إلى سدُوم، وكما يزعمُ وهبٌ ينبغي أن يكونَ شُعيبٌ مبعوثاً أيضاً إلى مَدْيَنَ والله أعلمُ، قالوا وكانتْ لخالِ يعقوبَ ابنتان اسمُ الكبرى ليّا[3] واسم الصغْرى راحيل، ورعى لهمُ في صداقهِا سبعَ سنين، فلمّا كانت ليلةُ الزفافِ أُدخلَ عليه ليّا، فأصبحَ مغروراً مُدلساً[4] عليه، فخدَم خاله سبع سنين أخرَ حتى دفعَ إليه راحيل، وكان حينئذٍ يجوزُ الجمعُ بينَ الأختين، فولدتْ له راحيلُ يوسفَ وابن يامين، وولدتْ له ليا سائرَ الأسباطِ، والأسباطُ اثنا عشر رجُلاً[5]: روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا ويساخر ودان ونفتالي وجاد واشترقفا وزبالون ويوسف وابن يامين، وقد يُعبَّرُ عن هذه الأسماء بخلافِ ما ذكرنا وعاشَ يعقوب مائة وسبعين سنة.

---

(١) احتساباً: مصدر احتسب يقال: احتسب عند الله خيراً: قدّمه.

(٢) السحيط: المذبوح.

(٣) جاء في الكتاب المقدّس صفحة (٤٦) أن اسم ابنتي خال يعقوب (ليئة وراحيل).

(٤) مدلّس عليه: مُخفى الأمرُ عليه.

(٥) جاء في الكتاب المقدّس صفحة (٧٩) أن الأسباط اثنا عشرَ رجلاً وهم (رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، يسّاكر، دان، نفتالي، جاد، أشير، زبولون، يوسف، ابن يامين).

قصّةُ يوسفَ بن يعقوبَ:

اعلمْ أنّه لا يُوجَدُ في كتابٍ قصّةٌ أجمعُ وأتمُّ في موضعٍ واحدٍ من قصةِ يوسفَ، ويُذكرُ أنّها كذلكَ في التوراة وفي ذلك مقنعٌ وبلاغٌ غيرَ أنّا نسوقُ منها ما يُضاهي غرضَ كتابنا إن شاء الله؛ ورُوينا عن ابن مسعود أنّه قال: أُعطي يوسفُ وأُمّه شطَر الحسن وكانَ أحبُّ ولدِ يعقوبَ إليه فرأى الرُؤيا التي قصَّ اللهُ في القرآنِ وتأويلها: وقوعهُم له سُجداً بمصر فقالَ أبوه ﴿يا بُنَيَّ لا تقصُصْ رُؤيَاك على إخوتك﴾ [يوسف: ٥] الآية وغاظَ إخوةَ يوسفَ وَجْدُ يعقوبَ به من بينهم وشفقتُهُ عليه دونَهم، فاحتالُوا بالمكرِ به ﴿فقالُوا ليوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا﴾ [يوسف: ٨] الآية ﴿اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً يَخْلُ لكمُ وجهُ أبيكم﴾ [يوسف: ٩] الآية ﴿قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف﴾ [يوسف: ١٠] فقالَ هو روبيل أكبرهم، وقالَ ابنُ جريج[1]: هو شمعون وليسَ يضُرُّ الجهلُ بمن كان منهم بعدَ أن علمِنا أنّه أحدُهم وأقربُهم إلى الرّقة والرحمةِ ﴿وألقوه في غيابةِ الجبّ يلتقطُه بعضُ السيَّارة قالوا يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسفَ أرسِله معنا غداً يرتع ويلعب قال أني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب﴾ [يوسف: ١٣] وإنّما قالَ لأنّه كان رأى كأن ذئباً قد جاء فأخذَ يوسفَ فأرسلَه معهم بقولِ الله عزّ وجلّ ﴿فلما ذهبوا بهِ وأجمعوا أنْ يجعلُوه في غيابةِ الجُبّ وأوحينا إليهم لتنبّئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [يوسف: ١٥] هذا وحيُ الإلهام والرُؤيا لأنّه لم يكنْ حينئذٍ بلغَ مبلغَ الرجالِ فينزلُ عليه الوحي، ويجوز أن يكونَ كلمه الملائكةُ بذلك وليسَ كلُّ كلامِ الملائكةِ نبوّةً، فطرحُوه في بئرٍ، وجاءَت سيّارةٌ يُقالُ: صاحبُها مالكُ بن الذُعر، فأخرجُوا يوسف من الجُبِّ فجاء إخوتُه فباعوهُ منهم يُقالُ: بعشرين درِهماً، فلذلك لم يُوزنْ وحملوه إلى مصرَ فاشتراه اظيفرُ بنُ رُويحب العزيزُ، وكان على خزائنِ مِصر، وامرأتُه زَليخا، وهي التي راودته عن نفسِه، وقدّتْ قميصَه لما استلبث البابَ، وهذه القصّةُ لا تتمّ إلا بتفسيرِ السورةِ على الولاءِ قالَ اللهُ عزّ وجلّ ﴿ثُمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين﴾ [يوسف: ٣٥] وذلك لمّا أرجفَ الناسُ بأمر زَليخا وخبرِها ومراودتها يوسف عن نفسه، واحتالُوا في حبسهِ ليكون في ذلك عذرٌ للمرأةِ عندَ النّاس، فلبثَ في السجنِ بضعَ سنين إلى أن أري الملكُ الرؤيا التي هالته، وفسّرها يوسفُ فدعاه وقلّده أمورَه، ونصبه منصبَ اظيفر، وعمّ الجَدْبُ حتّى بلغَ أرضَ كنعان ﴿فجاء إخوةُ يوسفَ﴾ [يوسف: ٥٨]

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢٥.

ممتارين ﴿فدخلُوا عليه فعرفَهم وهمُ له منكرون﴾ [يوسف: ٥٨] فمارهم وردَّ إليهم أثمانَ ما جاؤا بِهِ وطالبَهم بأخيه ابنَ يامين، فذهبُوا ورجعُوا بأخيه فاحتالَ في حبسهِ عندَه زَماناً بأن دسّ الصُواع في رَحْلِه، ثمّ صرحَ لأخيه بالنسبِ، وكان ما قصّ الله عزّ وجلّ في القرآنِ إلى أنْ جمعَ بينَه وبينَ إخوتهِ وأبَويْه ﴿وخرّوا له سُجَّداً وقالَ يا أبتِ هذا تأويلُ رُؤياي من قبلِ قد جعلها ربّي حقاً﴾ [يوسف: ١٠٠] قالوا: ودخلَ يعقوبُ مصرَ وهمُ ثمانون إنساناً وخرجَ موسى ببني إسرائيلَ وهم ستُمائةِ ألفٍ ونيفٍ، وطُرحَ يوسفُ في الجبِّ وهو ابنُ سبعَ سنين، وحُبسَ وهو ابنُ خمسةَ عشر سنةٍ، وأقامَ في السجنِ بضعَ سنين، وكانت غيْبَتهُ عن أبيه أربعين سنة، وعاش يعقوبُ بعدَ ما دخلَ مصر ثماني عشرة سنةً ثم ماتَ هو وعيصُو في يومٍ واحدٍ، وسنٍّ واحدٍ فحملهما يوسفُ إلى حبرون فدفنهما بها، وعاشَ يوسفُ بعد موتِ يعقوبَ ثلاثا وعشرين سنةً، وفي التوراة أنّ يوسفَ ماتَ وهو ابنُ مائة وعشرون سنة، وكان تزوّج زَليخا فولدتْ له اثنين افرايم بن يوسفَ جدَّ يوشعِ بن نون، وكانَ وليّ عهد موسى من بعده ومنشا بنَ يوسف أبا موسى صاحبَ الخضرِ، كما يزعم أهلُ الكتابِ وكانَ بينَ دخولِ يعقوبَ مصرَ إلى وقتِ خروجِ موسى بهم أربعُ مائة سنة، ولمّا ماتَ يوسفُ جُعل في صندوقٍ من رُخام ودُفن في جوْفِ النيلِ حيث يتفرّقُ الماءُ رجاءَ أن تمُرَّ عليه فتُصيب الأرضَ بركةٌ منه ثمّ استخرجه موسى عليه السلام لما خرَجَ من مصر.

ذكرُ اختلافِهم في هذه القصّة:

وزعَم بعضُهم أنّ بني يعقوبَ لمّا قالُوا أكلَه الذئبُ كذّبهم في دعواهم، فذهبوا وأخذوا ذئباً وجاؤا به فقالَ له يعقوبُ بئس ما صنعتَ إذا أكلتَ ولدي فكلّمه الذئبُ وأنكرَ ذلك، وللقُصّاص في الذئبِ الآكل ليوسف عجائبٌ في اسمه ولونِه، وكذلك في كلبِ أصحاب الكهفِ وقيلَ في قوله تعالى ﴿ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه﴾ [يوسف: ٢٤] أنّه رأى يعقوب عاضاً على شفتهِ، وقيلَ: بل رأى جبريل يقول أتيتَ بعملٍ وأنتَ مكتوبٌ عندَ الله عزّ وجلّ من الأنبياءِ، وروى محمّد بن كعبِ القُرَظِيُّ قال: رأى كتاباً بالسريانيّة في صفحة الحائطِ: ولا تقربوا الزنا أنّه كان فاحشةً ومقتاً وساءَ سبيلاً، قال: بعضُهم: خرجتْ شهوتُه من أنامِله، وكلُّ واحدٍ من وَلَد وُلد لهُ عشرةُ أولادٍ إلاّ يوسفُ فإنّه ولدَ تسعةَ لانتقاضِ الشهوةِ، وقالوا في قوله عزّ وجلّ ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها﴾ [يوسف: ٢٦] أنّه كانَ صبيّا في المهدِ نطقَ ببراءةِ ساحتهِ وفي قوله عزّ وجلّ ﴿وقطّعْنَ أيديهنّ﴾ [يوسف: ٣١] حتّى أبى ولم يشعرن وفي قوله عزّ وجلّ ﴿قُضي الأمرُ الذي فيه تستفتيان﴾

[يوسف: ٤١] انه كانا تحالما عليه ولم يكونا رأياً شيئاً فوقعَ بهما التأويلُ وفي قوله عزَّ وجلَّ ﴿نفقِدُ صُواعَ الملك﴾ [يوسف: ٧٢] أنّه كان ينقرُه فيطِنُّ فيقولُ إنّ هذا الصواع يخبرُني أنّكم سرقتُم أخاً لكم من أبيكم فبِعتموه وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿لا تدخلُوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرّقة﴾ [يوسف: ٦٧] أنّه كانَ يخافُ عليه العينَ وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿إذهبوا بقميصي هذا فألقُوه على وجهِ أبي يأتِ بصيراً﴾ [يوسف: ٩٣] أنّه كان قميصُ الحياةِ أخرجه آدمُ من الجنّةِ وكساهُ اللهُ إبراهيمَ فورثه يعقوبَ، وعلّقَهُ على يوسفَ كالمعاذةِ وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿فلن أبرحَ حتى يأذنَ لي أبي أو يحكمَ اللهُ لي﴾ [يوسف: ٨٠] إنهُ كان يهوذا وكان إذا غضبَ قامتْ شعرةٌ بدنِهِ يقطرُ منها الدم، وإذا صاحَ لا تسمعُ صوتَه حاملٌ إلاّ وضعتْ، ولا يسكنُ غضبُه ما لم يمسّه أحدٌ من ولد يعقوبَ فغضب يهوذا وهمَّ بالصياحِ فأمرَ يوسفُ ابنه منشا أنْ يضعَ يدَه عليه ففعلَ وسكنَ غضبُه، فقالَ يهوذا إنّ بهذا الوادي مع أشياء يحكونُها، والأصحُّ ما نطقَ به الكتابُ من غيرِ ردٍّ لما خرجَ من العادةِ من مُعجزاتِ الأنبياء عليه السلام قالُوا: ولمّا ماتَ اظيفُر زوجَ زَليخا شابتْ زليخا وكفَّ بصرُها وَجْداً بيوسفَ ومحبّةً له فدعا يوسفُ لها رَدَّ اللهِ إليها شبابها وبصرَها ونكَحها فولدتْ له.

قصّةُ أيّوبَ عليه السلام:

زعمُ وهبٌ: إنّه هو أيوبُ بن موص بن رعويل وكان أبوه ممّن آمن بإبراهيمَ يومَ حُلّق في النّارِ، وكان أيّوبُ صِهر يعقوبَ وكان تحتَه ابنةٌ ليعقوبَ اسمها ليّا، وهي التي ضربَها بالضغث(١)، وأمُّ أيّوب ابنةُ لوطٍ، وكانَت له حوران(٢) والبثنية(٣) مدينتان ومالٌ عظيمٌ ونَعَمٌ وشاءٌ وثلاثةَ عشَر ولداً وألفُ غِلامٍ في زرعِهِ وضَرْعِه وخدمتِهِ، فابتلاه اللهُ بالبلاءِ، وضرّبه بالضُّرّ، وهلكتْ أموالُه وماشيتُه، وماتَ ولدُه، وكانتْ امرأتُه ليّا تسعى عليه وتكتسبُ قُوتَه فباعتْ خُصْلةً من شعرِها بطعامٍ وأتَتْه به فاتهمها أيّوبُ فحلفَ ليضربنّها مائة ضربٍ إن هو برأ من علّتِه وقِيلَ بل الشيطانُ أتاها فقالَ لها لو أنّ أيّوبَ شرب شُربة ماءٍ لا يذكُر اسم الله عليها لعُوفيَ، فأخبرت ايّوبَ ذلك فحلف إلى أن انقضتْ المدّةَ أتاه جبريل، فقال له ﴿اركضْ

---

(١) الضِغْث: قبضة حشيش يختلط فيها الرطب باليابس.

(٢) حوران: هضبة جنوبي دمشق، اطلق عليها الرومان اسم «اورانتيس» تربتها بركانية خصبة سكنها الغساسنة قبل الإسلام.

(٣) البثنّية: اسم اطلقه العرب على البلاد الخصبة المجاورة حوران والجولان ما وراء الأردن، كانت قاعدتها درعا.

برجلك﴾ [صَ: ٤٢] فركض فندا ماءٌ فاغتسلَ فيه وشربَ فبرأ وعوّضه اللهُ من ولده الثلاثة عشَر ستةً وعشرين ولداً، وذلك قولُه تعالى ﴿ووهبنا لهُ أهله ومثلَهم معهم رحمةً منّا﴾ [صَ: ٤٣] وأمرَه أن يضربَ امرأتَه بضِغثٍ فيه مائة عودٍ ليبرّ قسَمه، وأثنى عليه بحسنِ الصبرِ فلا يزالُ يُتلى ما قامت الدُّنيا، وروى جُويبير[1] عن الضحّاك أنّه أيّوبُ بن مُوص بن العِيْص فلم يزالُوا متمسكينَ بالحنيفيّةِ إلى أن اختلفُوا فبعثَ اللهُ إليهم عيسى عليه السلام.

ذكرُ اختلافهم في هذه القصّة:

زعمَ وهبٌ وما أراهُ كما زعَمَ أن ابليسَ كان يصعدُ حتّى يقفَ من السماءِ موقفاً فصَعَد وقَالَ: يا ربٌ إنّك قد أعطيتَ أيّوبَ ما أعطيتَ، ووسّعت عليه ولم تَبْتَلِه ببلاءٍ فيُنْظَر كيفَ صبرُه وتمسُّكه، قال: فسلّطَه عليه فجاءَ وهو في سجودِه فنفخَ في وجهِه فصار كذا وكذا، وتناطحتْ جَنَباتُ بيتِه فقتلتْ أولاده وموّتت وانتعشَ الدودُ في جسدِهِ فجعلَ يختلفُ فيه سبعَ سنين وسبعةَ أشهرٍ وسبعةَ أيّام وسبعَ ساعات، وتأذى أهلُ القريةِ فطرحُوه على كُناسةٍ ووارتَ امرأتُه عورتَه بالترابِ فصبَر في ذلك أحسنَ الصبرِ ولم يشْكُ بتّةً إلى أحدٍ إلاّ إليه بقولِ اللهِ عزّ وجلّ ﴿إنّا وجدناه صابراً نعمَ العبدُ إنّه أوّاب﴾ [صَ: ٤٤] وقال بعضهم: إنّ رجلا مظلوماً لهفَ إليه واستغاثَ به، وكان في الصلاةِ فلم يقطع صلاتَه حتى فاتَه ذلك وقُتلَ الرجلُ وغُصب، فلم يَرْضَ الله ذلكَ منه وابتلاه كفّارةً لما كان منُه، وقيلَ: في بليّةٍ يعقوبَ أنّه ذبحَ شاةً وشواها وأصابَ رائحتَها بعضَ الجيرانِ فلم يطعمه فعُوقب بغَيْبةِ يوسفَ، وزَعم بعضُهم: أنّ أيّوبَ لمّا منّ اللهُ عليه بالعافيةِ أحيي له ولدَه كلَّهم ومواشيهَ وغلمانَه، وقد رُوينا عن سعيدِ بن جبير أنّه قال: مَنْ زَعَم أنّ الله أحي له ولدَه كلَّهم ومواشيَه وغلمانَه فقد كذبَ، قالُوا: وأظلّ اللهُ عليه غَمامةً ونُودي أن ابسُطَ كُساكَ فأمطرَ اللهُ عليهم جَراداً من ذهبٍ من لدنِ العصرِ إلى أن توارتْ بالحجابِ، فجعلَ كلَّ ما سقطَ من الكساء ناحيةً يحثُوه ويضمُّه إليه فنُودي ما هذا الحِرْص؟ فقالَ لا غناء عن بركاتكِ ومَنْ يشبعُ من الخيرِ هكذا الروايةُ واللهُ أعلمُ.

---

(١) جوبير أميديه: مستشرق فرنسي تلميذ دي ساسي، رئيسي الجمعية الآسيوية، رفع مكانة الشرق في مؤلفاته (ت ١٨٤٧ م) «منجد الأعلام/ ٢٢٠».

قصّةُ شعيبٍ عليه السلام:

زعم وهبٌ أنّ شُعيباً وبُلعماً كانا من ولدِ رهطٍ واحدٍ آمنا بإبراهيم عليه السلام يومَ حُلقِ في النّارِ، وهاجرا معه إلى الشامِ فزوّجهما إبراهيم ببناتِ لوطٍ بعدَ هلاكِ قومِهِ، وكلٌّ نبيّ بعد إبراهيمَ وقِيلَ بنو إسرائيل فمن أولئك الرهطِ وحدهِ، وأخذ شعيبٌ ابنة لوطٍ ولم تكُن مَدْيَن[1] قبيلةُ شعيبٍ، ولمّا لحِقهم العذابُ ذهبَ شعيبٌ بن نويبٍ بن رعويل بن هراء بن عنقا بن مدين بن إبراهيم ومَنْ كان آمنَ مَعه بمكّة حتّى ماتُوا، وفي كتابِ محمّد بنِ إسحق أنّه هو شعيبُ بن نويبٍ بنِ رعويلٍ بنِ هراء بن عنقا بن مدين بن إبراهيم، وفي التوراة اسمُ شعيبٍ: ميكائيلُ وكانَ فيما بينَ يوسف وموسَى، وقالَ بعضُ النّاس: إنّه زوّجَ ابنتَه من موسى عليه السلام، ويُقالُ: كان أعرجُ أعما فلذلك قالَ له قومُه ﴿إنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾ [هود: ٩١] وكانَ أهلُ مَدْيَن في كُفرِهِم وتكذيبِهِم أهلَ بَخْسٍ ونَقْصٍ في مكاييلهم وموازينهم فنهاهُم شعيبٌ عن ذلك، وجادلَهم كما يُسمَعُ في القرآنِ، وشعيبٌ خطيبُ الأنبياءِ لحسنِ محاورته وتأنّي مخاطبتهِ، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: ما أهلكَ اللهُ قوماً على معصيةٍ حتّى كفروا بالله، ورُوينا عن محمّدٍ بن كعب أنّ قومَ شعيبٍ عُذّبوا في قطعِ الدراهمِ والدنانيرِ، وكانتْ مَدْيَنُ مَتْجَرَ الغرباءِ ومَضْرَبَ الأعرابِ زيوف[2]، ثم يشرونها بالبَخْسِ قالَ اللهُ عزّ وجلّ ﴿ولا تقعدُوا بكلِّ صراطٍ تُوعِدون وتصُدّون عن سبيلِ الله﴾ [الأعراف: ٨٦] قالَ الضحاكُ: كانوا يعشرونَ أموالَ النّاسِ وكان لهمُ كاهنان يزيّنانِ لهُم صنيعهم يُقالُ لأحدهما سُمَيْر وللآخرِ عُمران، وفيهم يقولُ قائلهمُ كما رُوي واللهُ أعلمُ: [بسيط].

يا قومِ إنّ شُعيباً مُرسلاً فدعوا ... عنكم سُميراً وعمران بن مدّاد
إنـي أرى غَنيمةً يا قومِ قد طلعَتْ ... تدعو بضربِ الأصمّ إبنة الوادي

ورُوينا عن عكرمة أنّه قال: بُعث شعيبُ إلى مَدْيَن مرّةً فأخذتْهم الصَيْحةُ، ومرّةً إلى أصحابِ الأيكةِ ولم يكونوا من قبيلةٍ فأخذَهم عذابُ يوم الظُّلّة، وعندَ أهلِ الرواية: أنّهم أهلُ مدينَ ألحّ عليهم الوهَجُ والحَمَى فالتجؤا إلى غَيضةٍ لهُم، ثُمّ رُفعتْ لهم سحابةٌ فظنّوا فيها ماءً وبَرْداً فتنادُوا الظلّة حتّى إذا تيامنُوا بطحَتْهُم.

---

(١) مدْينَ: تجاه تبوك بين المدينة والشام على ستة مراحل وقيل: مدين اسم القبيلة كما قال تعالى: «وإلى مدين أخاهم شعيباً» «معجم اللبلدان ٥/ ٩٢».

(٢) الزيوف: الشّرَف.

اختلافُ النّاسِ في هذه القصّةِ:

زعَم قومٌ أنّ أبا جادَ وهوّز وحُطّي. وكلِمن اسماءُ ملوكِ مَدْين، وهُم من ولدِ مُحصِن ابن جندل بن مدين بن إبراهيمَ، وفي هلاكهِم يقولُ الشاعر: [طويل].

ملوكُ بني حُطّى وسعفص في النّدَى   وهــوّز ســاداتُ الثّنيّــةِ والحَجْــرِ

ورُوي أن خالفه بنتَ كلمِن رثّته بعد موته: [رمل].

كلمُونَ هَدَّ رُكني هلْكُه وَسْط المحلّة   سيّدُ القوم أتاه الحتفُ ثاوٍ تحتَ ظُلّهِ

قصّةُ موسى والخضر:

زعَم وهبٌ: أنّ اسمَ الخضرِ يليا بن ملكان بن يالغ بن عاثر بن ارفخشد بن سامِ بن نوحٍ، وكان أبوه ملكاً، وقالَ قومٌ: الخضُر بنُ عاميل من ولدِ إبراهيم، وفي كتابِ أبي حذيفةِ: أنّ أرميا هو الخضُر صاحبُ موسى، وكانَ اللهُ أخّرَ نبوّتَه إلى أن بعثه نبيًّا زمنَ ناشيةَ قبلَ أن يغزو بُختُ نصّر بيتَ المقدسِ، وكثيرٌ من الناسِ يزعمون، أنّه كانَ مع ذي القُرنينِ وزيراً له وابنَ خالتهِ، ورُوي عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه: أنّ الخضُر هو اليسَعُ وإنّما سُميَ خُضراً لأنّه لمّا شربَ من عينِ الجنّةِ لم يدَعْ قدَمه بالأرضِ إلاّ اخضرَّ ما حوله؛ فهذا الاختلافُ في الخضرِ قالوا: وهو لم يمُتْ لأنّه أُعطى الخُلْدَ إلى النفخةِ الأولى موكّلٌ بالبحارِ ويُغيثُ المضطرّين، واختلفُوا في موسى الذي طلبَه فقِيلَ: هو موسى بنُ عمران، وقال أهلُ التوراة: أنّه موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب، وكان نبيًّا قبلَ موسى بن عمران، كان قد قصّ اللهُ خبرهما في القرآنِ المجيد عزّ مِنْ قائلٍ **﴿وإذ قالَ موسى لفتاهُ لا أبرحُ حتى أبلغَ مجمعَ البحرين أو أمضي حُقُباً﴾** [الكهف: ٦٠] إلى آخرِ القصّة وقد ذكرتُهما بمعانيها ودعاويها في المعاني.

قصّةُ ذي القرنين:

قالَ اللهُ تعالى **﴿ويسألونك عن ذي القرنين قلْ سأتلو عليكم منه ذكراً﴾** [الكهف: ٨٣] فأخبرَ اللهُ تعالى أنّهُ بلغَ مطلع الشّمسِ ومغربِها، وبنى السدَّ على ياجوج وماجوجٍ، واختلفَ النّاسُ في اسمه وبلدهِ وزمانهِ وسُنّتهِ ودينهِ ونبوّتهِ، قال الضحّاكُ: هو قيصرُ القياصرةِ وكانَ رجُلاً صالِحاً، وملك مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، وزعَم مُقاتل: أنّه كانَ نبيًّا يُوحَى إليه طافَ

في الأرضِ، وقال ابنُ إسحقَ: حدّثني مَنْ يسوقُ الأحاديثَ عن الأعاجمِ أنّ ذا القرنين كانَ رجُلاً من أهلِ مصرَ اسمهُ مرزبان ابن مدربة اليوناني من ولدِ يونان بن يافث بن نوحٍ، ورُوي عن خالدِ بن معدانِ الكلاعي عن النبي ﷺ أنّه قال «ذو القرنين ملكٌ مسَح الأرضَ من تحتِ بالأسبابِ» قالَ: وسِمَع عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه عن رجلاً ينادي يا ذا القرنين، فقال: اللّهُمّ غفراً أما رضيتُم أن تتسمّوا بالأنبياءِ حتّى تسمّيتمُ بالملائكةِ، وزعم وهبٌ: أنّ ذا القرنينِ ابنُ عجوزٍ من عجائزِ الروم، رُوينا عن الضحّاك: أنّه كانَ بعَدْ موتِ نمروذ بن كنعان؛ وفي بعض التواريخ: أنّه كان قبلَ مولدِ المسيحِ بثلاثمائة سنةٍ، وقال بعضُهم: بل كان في الفترةِ عندَ الفُرسِ وأصحابِ النجومِ أنّه الأسكندرُ الذي أزالَ ملكَ العجمِ، وقتل دارا بنَ دارا؛ وقال قومٌ: إنّما سُمّي ذا القرنين لأنّه أتى عليه قرنانٌ من الدّهر، وقيل: كانت له ذؤابتان، وقيلَ: كانتْ صفحتا رأسِهِ من نُحاسٍ؛ ورُوينا عن علي رضي الله عنه أنّه سُئِل عنه فقال: عبدٌ صالحٌ ناصِحُ اللهِ ودعا قومَه فضربُوه على قرنِه فماتَ فاحياه الله، ثم ضربوه على قرنِهِ الآخر فماتَ، وقَدْ قال النبيّ ﷺ لعلي عليه السلام «وإنّك لذو قرنَيْها» وقِيلَ: بل كانَ رأى في المنامِ كأنّه يتناولَ قرنَيْ الشمّس، وقيل: بل سُمّي به لبلوغه في طوافِهِ مشرقَ الشمسِ ومغرَبها، وأهلُ النجومِ يزعمون: أنّه عاشَ أربعاً وعشرين سنةً، وفي كتابِ أبي حذيفةِ روايةَ عن الحسنِ؛ أنّ ذا القرنين وجد في الكُتُب أنّ رجلاً من ولدِ سامِ بن نوح يشربُ من عين البحرِ، وهي من الجنّةِ فيُعطى الخُلدَ إلى يوم القيامة، فخرج في طلبِ تلك العينِ، والخضُر كان وزيرَه وابنُ خالتِه فهجَم على تلك العينِ فشربَ منها وتوضّأ، وأخبَر ذا القرنين بذلك، فقالَ: أنا طلبتُ وأنتَ أصَبْتَ، وقالَ: ذاك الذي كان حملُه على أن طافَ في الأرضِ، وهذا الخبرُ يتأوّله قومٌ على معنى وجودِ حقيقتهِ علم مطلوب خفيٌّ، ويروون عن ارسطاطاليس ما قد مضى ذكرهُ فيما قبلَ، وأهونُ الأشياءِ فمنعُ هؤلاء الجُهالِ بإنكارِ كلِّ ما ليسِ في الكتابِ والسُنّةِ الطاهرةِ، فإنّ مثلَ هذه ما أسرعَ بانالة القلوبِ وأرثِ الشُّبَه والله المستعانُ وعليه التُكلانُ.

قصّةُ مُوسى وهارون ابني عمران:

قال أهلُ هذا العلم: إنّه مُوسى بنُ عمران بن يصُهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحقَ بن إبراهيم، وأُمّهُ أباخه من ولدِ لاوي بن يعقوب، وفي التوراة أنّ اسمَ أمّه يوخابذ وأُختُ موسى مريمُ بنتِ عمران بن يصهر، وكانتْ تحتَ كالب بن يوفنا بن فارص بن يهوذا ابن يعقوبَ، وامرأةُ موسى صفراءُ بنتُ شُعيب، وكانَ فرعونُ مصرَ في زمانِه الوليدُ بنُ

مُصْعبَ أبو مرّة رجلٌ من العماليقِ، وكانَ ابنَ أُختِ فرعونَ يوسفُ، وقِيلَ: بل كانَ فرعونُ موسى فرعونَ يوسف، قال ابنُ إسحق: حدّثني من لم اتّهمْ: أنّه ملكَ أربعَ مائة سنة شابَّ السنّ أخضَر الشاربِ لم يُصدَّع ولم يُصِبْه هَمٌّ ولا ناواهُ عدوٌّ، وقرأتُ في تأريخِ اليمنِ: أنّه كانَ عامِلاً للضّحاكِ على مِصر، وسمِعتُ القُصّاصَ يزعمون أنّ فرعونَ كانَ من أهلِ بلخَ وهامان[1] من سرخس[2]، وأنّهما أوّلُ مَنْ حَمل بزرَ البطّيخِ إلى مصرَ فزرعا وتموّلا واستوليا على المقابرِ لا يَدعانِ ميّتاً يُقْبَر إلاّ بجُعلٍ[3]، ثُمّ مَلكَ فرعون، واستوزر هامان واللهُ أعلم، وقدْ قلتُ لك في غير موضعٍ من هذا الكتابِ أنّ ما مِن هذه الأقاصيصِ والأخبارِ فاستمِعْها واعرِضْ عنها ولا تشتغل بالاعتلالِ بها وطلبِ المخرج لمعانيها، لأنّها لا توجبُ عِلماً ولا عملاً وقد حَكى اللهُ عزَّ وجلَّ أنّه قال **﴿أليسَ لي ملكُ مصر، وهذه الأنهارُ تجري من تحتي﴾** [الزخرف: ٥١] وقال: **﴿ما علمتُ لكمْ من إلهٍ غيري﴾** [القصص: ٣٨] وقال **﴿أنا ربُّكم الأعلى﴾** [النازعات: ٢٤] وفيه يقولُ أمية: [خفيف].

ولفرعون إذ تُساقُ لهُ الما	ءُ فهلاّ للهِ كانَ شكورا
قال إنّي المُجيرُ على النا	سِ ولا ربَّ لي عليَّ مُجيرا
فمحاهُ اللهُ من درجاتٍ	ناميات ولم يكنْ مقهورا
سُلبَ الذّكرُ في الحياةِ جزاءً	وأراهُ العذابَ والتّغييرا
وتداعى عليهُم البحرُ حتّى	صار موجاً ورآه مستطيرا
فدعى اللهُ دعوةً لا تهنّا	بعد طغيانهِ فصارَ مشيرا

ذكرُ مولدِ موسى عليه السلام:

ذكروا أنّ بني إسرائيل لمّا كثرُوا وتناسلُوا بمصرَ وطالَ عليهمُ الأمَدُ بعدَ يوسفُ أحدثوا الأحداثَ العظيمةَ في الدّينِ، وآتوا القبطَ على أُمورهِم وطابقُوهم على آثارِهم إلاّ بقايا متمسّكين بدينِ إبراهيمَ، فسلّط اللهُ عليهم فرعونَ فاستعبدَهم واستذلّهم وسامهَم سُوءَ

---

(١) هامان: وزير فرعون، ورد ذكره في القرآن بمخاطبة فرعون له ليبني له صرحاً يصعد فيه إلى إله موسى.

(٢) سرخس: مدينة قديمة على الحدود الإيرانية الروسية بين مرو ومشهد، فيها ولد الفضل بن سهل وزير المأمون وإليها ينسب علماء كثيرون.

(٣) الجُعل: الرقيب.

العذابِ من نقلِ الطّينِ وتشييدِ الأبنيةِ وسلخِ الأساطينِ من الجبالِ ونقبِ البيوتِ في الصخورِ، فلمّا أرادَ اللهُ أن يستنقذهم كما ذُكر في القرآن ﴿ونريدُ أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهم الوارثين، ونمكّن لهم في الأرض﴾ [القصص: ٦] فكانَ منهم مُوسى وهارونَ ويوشَع والياسُ واليسعُ وداودُ وسليمانُ وزكَريّا ويحيى وعيسى وحزقيلُ وشمعونُ وشمويلُ واشعيا ويونُس، فهؤلاء أنبياءُ بني إسرائيلَ الذين جعلَهم اللهُ أئمّةً للخلقِ وورثةً للنبوّةِ، أُرِيَ فرعونُ في المنامِ أنّ اللهَ واهبٌ لعبدٍ من عبيدِك غُلاماً يسلبُك ملكَك، فأمَرَ حتى فرّق بين الرّجالِ والنساءِ، وأنْ يُذبحَ كلُّ مولودٍ ذَكرٍ، وصنَعَ اللهُ ليوخابذ فحملت بموسى ووضعَتْه، ولم يشعرْ به أحدٌ وأوحى اللهُ إليها وَحْيَ إلهامي ﴿أن أقذِفيه في التابوتِ فاقذفيه في اليَمِّ﴾ [طَه: ٣٩] ففعلَتْ والتقَطَهُ فرعونَ من بينِ الماءِ والشجرِ فسُميّ موسى بذلك لأنّ الماء بلغةِ القُبطِ مُو والشجرُ سا، وهمّ فرعونُ بقتلِهِ فقالتْ امرأتُه آسِيةُ بنتُ مُزاحم ﴿لا تقتلُوه عسى أن ينفَعنا أو نتّخذه ولداً﴾ [القصص: ٩] وطلبُوا له الرُضعاءَ فلم يقبلْ ثَدْيَ امرأةٍ حتّى قالتْ أختُه مريمُ ﴿هل أدلُّكم على أهلِ بيتٍ يكفلونه لكم﴾ [القصص: ١٢] فردّوُه إلى أمِّه تُرضِعُه بأَجْرٍ قالوا: فبينا مُوسى في حِجْر فرعونَ ألقى اللهُ عليه محبّةً منهُ إلى أن بلغَ وراهق، فبينما هو ذاتَ يومٍ يمشي في المدينةِ وذلك أنّ قصرَ فرعونَ كان خارجَ البلدِ ﴿فوجدَ فيها رجلين يقتتلان﴾ [القصص: ١٥] على الدينِ قبطيٌّ وإسرائيليٌّ ﴿فاستغاثَه الذي من شيعتِهِ على الذي من عدوّه فوكزَه موسى فقضى عليه﴾ [القصص: ١٥] فندِمَ مُوسى على صنيعه إذْ لم يتعمّدْ ذلك ولا أُمِرَ به ﴿فأصبح في المدينةِ خائفاً يترقّبُ فإذا الذي استنصَره بالأمسِ يستصرخه﴾ [القصص: ١٨] الآياتُ مفهومةٌ على وجهِها، وائتمر القومُ على قتلِهِ فجاء من أقصى المدينةِ رجلٌ يسمّى حزسل بن يوخاسل، وهو الذي قال اللهُ عزَّ وجلَّ في حاميمِ المؤمنِ ﴿وقالَ رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعون يكتمُ إيمانَه قالَ يا مُوسى إنّ الملاء يأتمرون بك ليقتلوك فأخرُج إنّي لكَ من الناصحينَ فخرجَ منها خائفاً يترقّب﴾ [القصص: ٢٠] إلى قوله ﴿ولما وردَ ماءَ مدينَ وجد عليه أُمّةً من النّاسِ يسقونَ، ووجدَ من دونهِم امرأتين تذودان﴾ [القصص: ٢٣] وهما ابنتا شعيبٍ اسمُ واحدةٍ صفراء والأُخرى ليّا، وكانتا إذا سقى القومُ ماشيتَهم نظرتا إلى ما بقي فالمجتا ماشيتهما[1] فمثّله القومُ ﴿فسقى لهُما ثمّ تولّى إلى الظلّ﴾ [القصص: ٢٤] وهو جائعٌ ﴿فجاءَته إحداهما تمشي على استحياءٍ قالتْ إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجرَ ما سقيتَ لنا، فلمّا جاءَهُ وقصَّ عليه القصَصَ

---

(١) ألمجتا ماشيتهما: سقتاها ما بقي من قليل الماء.

قال لا تخفْ نجوتَ من القوم الظالمين﴾ [القصص: ٢٥] فأنكحَه إحدى ابنتيه على أن يأجَره ثماني حججٍ أو عشراً، وقالَ قومٌ إنّ الذي زوّجهَ ابنةَ شعيبٍ خَتَنُهُ[1] يترون، وكانَ شعيبٌ هلكَ قبله بزمانٍ طويلٍ وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ **﴿فلمّا قضى مُوسى الأجَلَ وسارَ بأهلِهِ آنَس من جانبِ الطورِ ناراً قالَ لأهلِهِ امكثوا إني آنستُ ناراً﴾** [القصص: ٢٩] يُقالُ: إنّه كانتْ ليلةٌ عاتمةٌ ذاتُ ريحٍ وبردٍ، وكانَ قد تشمَّر عن الطريقِ لشدّة الظُّلمة فُرفعتْ لأهلِه نارٌ فقالَ لأهلِهِ امكثوا إنّي آنستُ ناراً **﴿لعلّي آتيكم منها بقَبَسٍ﴾** [طه: ١٠] أو أجدُ على النارِ هُدى وتوجّه إليها، وهو يراها قريبةً منه ثُمّ أتاها **﴿فنُودي من شاطىء الوادِ الأيمنِ في البُقعة المباركةِ من الشجرةِ أن يا مُوسى إنّي أنا الله ربُّ العالمين﴾** [القصص: ٣٠] وجَرى ثَمّ في الكلام ما قصّ اللهُ عزَّ وجلَّ في غير موضعٍ من القرآنِ وأعطاهُ من الآياتِ والمُعْجزاتِ العصا واليدِ، وأوحى إلى هارون بمصَر بالنبوّةِ والوزارةِ، وبعثهما إلى فرعون فانطلقا وبلّغا الرسالةَ فاستسخرهما واتّهمهما، وجَمع السَحَرة مضادّةً ولمّا جاء به كان من ذلك ما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ **﴿فإذا هي تَلْقَف ما يأفكون﴾** [الشعراء: ٤٥] وآمنتِ السحرةُ وسجدُوا لله لما رأوا من باهرِ الآياتِ، وعلموا حقَّها وصِدْقَها وأمرَ اللهُ موسى أن يخرجَ ببني إسرائيلَ من مِصَر فانّي مِهلكٌ عدوّهم، فسرى بهِم وأتبعَهم فرعونُ وجنودُه فأغرقهم اللهُ في البحرِ وأنجى مُوسى ومَن معهُ كما ذُكر في القرآن.

ذكرُ قارون:

قالُوا: إنّ قارونَ كان وَاطِىءَ فرعونَ على فعلِه وأعانَه على ظلمه وجمَع **﴿من الكنوز ما أنَّ مفاتحه لَتنوءُ بالعُصْبة أولي القوّة﴾** [القصص: ٧٦] ولمّا أهلَك اللهُ فرعونَ وقومَه حسدَ موسى وهارون على ما أتاهما فقالَ لك النبوَّة ولهرونَ الوزارةُ، ولا شيءَ لي واللهُ لا أَصْبِرَ على هذا فدعى موسى عليه فخسفَ الله به الأرضَ، وقالَ قومٌ بلْ كانَ سببُ هلاكِهِ كانَ دَعا امرأةً بغيّةً أن تدّعي على موسى الفاحشةُ فلما قامتْ حوّلَ اللهُ لسانَها فنطقتْ بالصوابِ واللهُ أعلم.

ذكُر التّيه:

ولمّا أهلكَ اللهُ قومَ فرعونَ أمرَ موسى بالمسيرِ إلى الشامِ وأنْ يُقاتلَ الجبّارين ويُجليهم

---

(١) خَتَنُهُ: اخوه.

عنها، فإنّ تلك الأرضَ المقدّسةَ ميراثُ أبيكما إبراهيم عليه السلام فأَبَوْا عليه وفشِلوا عن قتالِهم كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿يا قُوم ادخلوا الأرضَ المقدّسةَ التي كتبَ اللهُ لكم ولا ترتدوا على أدبارِكم، قالُوا يا مُوسى إنّا لَنْ ندخلَها أبداً ما دامُوا فيها فاذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا إنّا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤] فحرّم اللهُ عليهم دخولها وتاهُوا في التيهِ أربعينَ سنةً، ثُمّ ندِمُوا وأتَتْهم العزمةُ من اللهِ فلطفَ بهم، وأنزلَ عليهم المنّ والسلوى، فظلّل عليهم الغمامَ وفجّر لهمُ اثني عشَر عيناً إلى أنْ ماتَ في التّيه موسى وهارون والأُباةُ العُصاةُ على اللهِ، ثم افتتحها يوشعُ بن نون ودخلَها مع أبنائهم وكانَ في التّيه خَسْفُ قارون[1] وعِجْلُ السامريّ ونزولُ الألواح وشقُّ الجبلِ وشأنُ السبعينَ وإحراقُ ابني هارون ورفعُ الأسباطِ إلى ما وراءَ الصينِ، ومسألةُ الرُؤيةِ وقصّةُ البقرةِ وحديثُ بلعم كانَ قبلَ ذلك وكذلك النقباءُ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ وبعثْنا منهم اثني عشَر نقيباً﴾ [المائدة: ١٢] الآية ولمّا جاءَ موسى وبنو إسرائيلَ البحرَ أمرَه اللهُ أنْ يخرجَ من كلِّ سِبْطٍ نقيباً يأخذُ عليهم بالوفاءِ للهِ منه ومن قومِهِ أن لا يتجادلُوا ولا يتواكلُوا، وأن يُطيعُوا اللهَ ورسوله، قال الله عزَّ وجلَّ لموسى ﴿قُلْ لهُم إنّي معكمْ لئن أقمتُم الصلوة وآتيتمُ الزكوة﴾ [المائدة: ١٢] الآية فوفى بعضُهم ونقض بعضٌ بقولِ الله عزَّ وجلَّ ﴿فبما نَقْضِهم ميثاقَهم لعنّاهم وجعلْنا قلوبَهم قاسيةً﴾ [المائدة: ١٣] الآيةَ قال الله عزّ وجلّ ﴿واتْلُ عليهم نبأَ الذي آتيناه آياتِنا فانسلخَ منها فأتبعَه الشيطانُ فكانَ من الغاوين﴾ [الأعراف: ١٧٥] قالَ بعضُ المفسّرين: إنّه بلعُم بنُ باعوراء وكانَ مستجابُ الدعوةِ، وكانَ يعلُم اسَم الله الأعظَم، قال: وكان إذا سجدَ رُفِعتْ له الحُجُبُ حتّى يرى ما تحتَ الثرى والكرسيّ فلما قصَد موسى البلقاءَ[2] مدينة الجبّارين هابُوا حِدّتَه وشِدّتَه فسألُوا بُلعمَ أن يدعَو عليه فدعا عليه، فاختلفَ بنو إسرائيلَ وأبَوا أن يقاتلُوا وتاهوا في التيه، ودلَع لسانُ بلعم بن باعوراء وذهبَت الآياتُ التي كان اللهُ أعطاه، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ومِن قومِ موسى أمّةٌ يَهْدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف: ١٥٩] قالَ بعضُ أهلِ التفسير: إنّه لمّا اختلفَ بنو إسرائيلَ بعد مُوسى فزعتْ طوائفُ من الأسباطِ إلى اللهِ أن يفرقَ بينَهم وبينَ سائرِ بني إسرائيل، قالُوا: فرفَعهم اللهُ إلى أرضٍ من وراءِ الصينِ طاهرةً طيّبةً لا

---

(١) قارون: كان من اثرياء العبرانيين في أيّام موسى وكفّ يده عن الأخذ بالتعاليم، وناصب موسى العداء، فذهب الله بثروته أورد اسمه في القرآن وهو قورح المذكور في التوراة. «منجد الأعلام».

(٢) البلقاء: مدينة في المملكة الأردنية الهاشمية، قاعدتها السلط، يضرب المثل بجودة حنطتها «منجد الأعلام».

يتظالمُ أهلُها ولا يتعادى سباعُها، ورُوي أن النبيّ ﷺ رُفع ليلةَ المعراجِ إليهم فآمنوا به وأتبعوه، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وٱختارَ مُوسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ [الأعراف: ١٥٥] ذكرَ أهلُ التفسيرِ: أن القومَ لمّا أضلّهم السامريُّ بعبادةِ العجلِ سألُوا مُوسى أن يعتذر إلى ربِّهم فأمرَه أن يختارَ منهم سبعينَ رجلاً، ويأخذَ بهم إلى الجبلِ ليقبلَ توبتهم ويُثيبَهم عن حسنِ طاعتهم في قتلِ أنفسِهم ففعلوا، وأتُوا الجبلَ وكانَ اللهُ عزَّ وجلَّ يكلّم مُوسى عليه السلام، ومُوسى يبلّغهم، فقالُوا ﴿لن نؤمنَ لك حتّى نرى الله جهرةً فأخذتهم الصاعقة﴾ [البقرة: ٥٥] ثُمّ دَعا مُوسى فقال ﴿لو شئتُ أهلكتهم من قبلُ﴾ فأُحْيُوا ثُمّ قالُوا قَدْ علمِنا أنّه لا يُرى ولكن أسْمِعْنا كلامَه فسمِعوا صوتاً خرجتْ أرواحهُم، ثُمّ دَعا موسى ثانياً فردّها اللهُ إليهم، وجعلَ يكلّم مُوسى، ومُوسى يبلّغهم فلما رجعُوا إلى بني إسرائيلَ حرّفَ بعضُهم ما كان أُوصى به وأُمر بقولِ الله عزَّ وجلَّ ﴿وقد كانَ فريقٌ منهم يسمعونَ كلامَ اللهِ ثمّ يحرّفونه من بعدِ ما عقلوهُ، وهم يعلمون﴾ [البقرة: ٧٥] قال اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وإذْ قتلتُم نفساً فادّارأتم فيها واللهُ مُخرجُ ما كنتم تكتمون﴾ [البقرة: ٧٢] قالَ بعضُ أهلِ التفسير: إنّه كانَ مكتوباً عليهم في التوراة أيُّما قتيلٍ وُجد بينَ قريتَيْنِ وليسَ إلى أقربهِما، وأخذ أهلُ تلك القريةِ بذنبه فأن أنكرُوا استحلفُوا منهم خمسونَ رجلاً، وذَكّوا بقرةً ووضعُوا أيديَهم عليه يحلفونُ بالله ما قتلناه ولا عرفنا قاتله، فيبرأون من دمِه، حتّى قَتَلَ رجلٌ ابنَ عمٍّ له يُقالُ له عاميلُ مخافةَ أن يتزوّج ابنةَ عمّه فطرحَه في بعضِ الأودية، وأصبحَ القومُ والقتيلُ بين أظهرِهم ولا يدرون مَنْ قاتِلُه ففزعوا إلى مُوسى فأمرهُم بذبحِ بقرةٍ من البقرِ، فلم يزالُوا يراجعونُه ويشدّدون على أنفسِهم حتّى قصرُوا على الشيمةِ الموصوفةِ في القرآنِ فذبحوها وضربُوه ببعضها فعاشَ فأخبرَ بقاتِله فقال اللهُ تعالى ﴿وإذ نتَقْنا الجبلَ فوقهم كأنّه ظُلّةٌ وظنّوا أنّه واقع بهم﴾ [الأعراف: ١٧١] الآية قالَ أهلُ التفسيرِ: لمّا أتاهُم مُوسى بالتوراة وما فيها من الشدّةِ والتغليظِ مثلِ الرّجْمِ والقطعِ والقِصاصِ أبَى القومُ أن يقبلُوه فرفعَ اللهُ فوقَهم جبلاً، وقيلَ لهم: إن قبلتُم التوراة بما فيها فبِها وإلاّ رُضِختُم به، فسجدوا على أنصافِ وجوهِهم وقبلوهُ كرهاً منهم وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وٱتّخذ قومُ مُوسى من بعدِهِ من حُليّهم عِجْلاً جَسَداً له خوارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨] الآية قالَ بعضهُم أنّ السامريّ كان ابنُ عمِّ مُوسى واسمهُ مُوسى بن طفيرٍ، ويُقالُ: كان من أهلِ باجرما(١)، ولمّا ذهبَ مُوسى إلى الطورِ لميعادِ أخذ الألواحِ عدّ

---

(١) باجرما: أو باجرمق: اسم أطلق في العهد العباسي على أقليم يقع شرقي دجلة بين جبال حمرين ونهر الزاب الصغير كانت كركوك (كرخا وبيت سلوخ) المدينة الرئيسية فيه «منجد الأعلام».

السامريُّ عشرين يوماً وعشرينَ ليلةً ثمّ قال إنّ مُوسى قد نَسِيَ ربَّه، وهذا الميعادُ قد انقضى فصاغَ لهمُ عجلاً، وعكفُوا، عليه يعبدونه، فجعل اللهُ توبتَهم القَتْلَ فقتلُوا حتّى بلغَ القتلى سبعينَ ألفاً بقولِ الله عزّ وجلّ ﴿فَاْقتلوا أنفسَكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارِئِكم﴾ [البقرة: ٥٤] قالَ اللهُ عزّ وجلّ ﴿وكتبنَا له في الألواحِ من كلِّ شَيْءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] الآية، وزعَمَ وهبٌ: أنّ بني إسرائيلَ لمّا تاهوا في الأرضِ سألُوا مُوسى أن يأتيهم بكتابٍ يعرفونَ فيه ما يأتونَ وما يدرونَ فسألَ مُوسى ربَّه فأمرَه أن يخرُجَ إلى الطّورِ ويصومَ ثلاثينَ يوماً ليكلّمه ويُعطيه الألواح، فخرجَ مُوسى واستخلفَ هارونَ في قومِه وأوعدَهم أربعينَ ليلةً وصامَ ثلاثين يوماً، ثُمّ أكلَ من لِحاءِ الشجرِ، ويُقالُ تسوَّك وشوّص[1] فاهُ بالماءِ، فأمرَ اللهُ بإتمامه بعشرٍ ثمّ كلّمه وأعطاهُ الألواحَ وهاهُنا سألَ مُوسى الرُّؤية.

ذكرُ الهيكلِ الذي بنى موسى:

بلغَ أهلُ الكتابِ أنّ اللهَ تعالى أمرَ مُوسى عليه السلام أن يتّخذَ مسجداً لجماعتِهم وبيتَ قُدْسٍ لقُربانهم فبنى ووضعَ فيه الألواح، وكانوا يدرسون فيه ويُقرّبون القُربانَ وكانت نارٌ تنزلُ فتأكلُ قرابينَهم، والهيكلُ يسيرُ معهم في التيهِ حيثُ سارُوا فامتزجَ ابنان لهارون ليلةً من الليالي التي كان تنزلُ النارُ فيها لأكلِ القربانِ فأكلتهما النارُ وأحرقتْهما وماتَ هارونُ قبلَ مُوسى بثلاثِ سنين، وهو ابنُ مائةٍ وثماني وعشرين سنةً، واستخلفَ يوشعَ بنَ نونٍ، واختلفتِ التواريخُ في مَنْ كان مَلِكَ العجمِ زمنَ مُوسى عليه السلام، ففي بعضِها: أنّه انقضى أمرُ مُوسى ويوشعُ وكالُب بن يوفنا وتوساقين وحزقيلُ في زمن الضحّاكِ، وفي بعضِها أنّ أمَرَ مُوسى مع فرعون إنّما كانَ في أيّامِ منوجهر بعد الضحّاك بخمسِ مائة سنة، وقرأتُ في سِيَر العجمِ أنّ كيلهراسب الجبّارِ الذي بنى مدينةَ بلخ وزرنج[2] أخربَ بيتَ المقدسِ وشدَّد من كان بها من اليهودِ ببيت المقدسِ ما كان إلاّ بعدَ مُوسى ويوشع، وفي كتابِ معارفِ العُتبي[3] أنّ موسى عليه السلام بُعثَ على عهدِ بهمن بن اسفنديار فلمّا بلَغه أنّ في أرضِ أورشليم احدثوا ديناً بعثَ إليهم بختْ نصّر، وهو عندَهم بختْ نرسى فقتلهم وسباهُم واللهُ أعلمُ.

---

(١) شوّص: استاك بالسواك. والسواك: العود الذي تنظّف به الأسنان.

(٢) زربخ: مدينة هي قصبة سجستان، «معجم البلدان ٣/ ١٥٥».

(٣) أبو النصر محمد مؤرخ عاش وتوفي في خراسان له «سيرة اليميني» وهو تاريخ السلطان أبي منصور «منجد الأعلام».

ذكرُ معجزاتِ مُوسى عليه السلام وعجائب بني إسرائيل وما اتّفق منها وما اختلفَ :

أمّا الذي ينطقُ به الكتابُ فالعصَا واليَدُ والطوفانُ والجرادُ والقملُ والضفادعُ والدمُ وفلقُ البحرِ ومجاورةُ بني إسرائيلَ وانفجارُ الماءِ من الحجرِ في التيه وإظلالُ الغمام وإنزالُ المنّ والسلوى وحياةُ القتيلِ حينَ ضُربَ ببعضِ البقرةِ وشقُّ الجبلِ وخسفُ قارونَ وأخذُ الصاعقةِ السبعينَ وإحْياؤهم وأمرُ التيه والطمس[1] الذي أصابَ مالَ فرعونَ بدعوةِ موسى فهي باقيةٌ إلى اليوم تُرَى وتُشاهَدُ، قال محمّدُ بن كعب فصارَ الرجلُ مع أهلِه في فراشِهِ حجراً، وصارَتِ النخُلة بثمرِها حجراً، وضَرب موسى لهم طريقاً يبساً في البحرِ، وجاء في الأخبارِ أنَّ موسى عليه السلام لمّا أرادَ أن يخرجَ ببني إسرائيلَ من مصر استعار من أمراءِ آلِ فرعونَ الحُلّي سوى الحُلَلَ غنيمةً لهم نقلوها، فلمّا أخرجُوا ألقى اللهُ على أبكارِ القبطِ الموتَ فماتَ لكلِّ رجلٍ منهم بِكرٌ ولدِهِ، فاشتغلُوا بهم إلى أن تباعدَ بنو إسرائيلَ، وخَرَجَ فرعونُ في أثرِهم على ساقتِهِ مائةُ ألفٍ من الخيلِ الدُهْم سوى سائرِ الألوان والشِياتِ ومَنْ كان في المقدّمةِ والجنبين، ولمّا ضَرَب موسى لبني إسرائيل البحرَ بعصاه أبَوْا أنْ يدخلُوا فيه حتّى جعَلَ لهم طِيقاناً اثني عشَر لكلّ سِبْطٍ طاقٌ على حِدَةٍ ينظُر بعضُهم إلى بعضٍ، وإنَّ جبريلَ أتى على فرسٍ أُنثى فتقدّم بينَ يدي فرعونَ وهو على حصانٍ من الخيل فأقحَم جبريلُ فرسَه في البحرِ واشتمَّ برذون[2] فرعونِ رائحتَه فأتبَعه حتى إذا توسّطَ اللُجَّ غَرِقَ فلمّا ألجمَه الغرقُ رفعَ سبّابتَه بالشهادةِ وقالَ: آمنتُ بالذي ﴿لا إله إلاّ الذي آمنَتْ به بنو إسرائيل﴾ [يونس: ٩٠] فأخذَ جبريلُ من حاذَ البحر فأدخلَه فاهُ مع عجائب كثيرةٍ مشهورةٍ في العوامِّ لا يوصَفُ بمثلها نبيٌّ من الأنبياء ولا أُمةٌ من الأُممِ، وقد جاء في الحديثِ «حدّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ» وسبيلُ جميعِ ما ذكرنا سبيلُ مُعجزاتِ الأنبياءِ، والعلّةُ فيه واحدةٌ، والحجّةُ واحدةٌ إلاّ أنّ المُعوّلَ منها على ما صحَّ وسَلِمَ فأمّا من يرفعُ عن مساعدةِ العوامّ لفرطِ جهلِهِ في مذاهبِهم وجانبَ مواطأتهم فهو بينَ جاهرٍ بإنكارِ هذه المعجزاتِ رأساً وبيَنَ حاملٍ لها تأويلٍ منحولٍ مستنكرٍ، ولقدْ رأيتُ بعضَهم يزعمُ أنّ تلقّفَ عصى مُوسى عصيّهم غلبَهم بحُجّته حجّتهم، وكذا شعاعُ اليدِ أو انفجارُ الماءِ من الحجرِ وحياةُ السبعينَ بعد موتِهم، فكلُّ ذلك مَثَلٌ لإصابتِهم وجهَ العلمِ فيما طلبُوا بعدَ ما كانوا ماتُوا بالجهلِ، وسمعتُ مَنْ

---

(١) الطمْس: الهلاك.

(٢) البِرذَون: دابة الحمل الثقيلة.

يقولُ منهم: إنّ مُوسى عليه السلام أرسلَ على فرعونَ وَمنْ معه ذَنَباً من البحرِ فهلكُوا في مُناخهِم كما فعلتْ القرامطة بابنِ أبي الساج مع تخليطٍ كثيرٍ ووساوسٍ واللهُ أعلَم، وهذه القصصُ مفسّرةٌ مستوفاةٌ في كتابِ معاني القرآن بوجوهِها واعرابِها ومعانِيها واختلافِ النّاسِ فيها فلذلك يجوّزُ هذا هاهنا.

قصّةُ يوشع بن نون:

كانَ خليفةُ مُوسى ووليُّ عهدِهِ ونبّأه اللهُ بعدَه، ورُوي عن الحسن أنّه قال: إنّ النبّوة حُوِّلَتْ إليه في حياةِ مُوسى فلما رأى مُوسى مفارقةُ النبوّةِ تمنّى الموتَ حينئذٍ، وقيلَ: إنّ يوشعَ هو ذو الكِفْل ابنُ أختِ موسى وتلميذهُ الذي سارَ معه في طلبِ الخضرِ، وهو الذي افتتح بلقاءَ مدينة الجبّارين بعد مُوسى، وقَتلَ الجبابَرة فجنح عليه الليلُ وقد بقيتْ منهم بقيّةٌ فدعا ربَّه أن يحبسَ عليه الشمسَ حتّى يفرغَ منهم، قالَ وهبٌ: فمن ذلك اختلطَ حسابُ المنجّمين قال: وقتلَ بالقّ ملك بلقاءَ والسَمْيدَعُ بن هوبر ملكُ الكنعانيّين واحداً وثلاثين ملِكاً من ملُوك الشام، ولبثَ أربعين سنة ملكاً نبيًّا ثُمّ ماتَ واستخلفَ كالب بن يوفنا وفيه يقولُ بعضُهم: [طويل].

أَلَـمْ تَـرَ أنّ العلقمـيَّ بـنَ هَـوْبَـرٍ ... بِأَيْلَةَ أمسى لحمُه قد تمزّعا[1]

ولم تسمعْ في الأخبارِ شيئاً من نبوّتِهِ وكانَ خليفةُ يوشع بن نون وتحتَه مريمُ بنتُ عمران أُختُ موسى عليه السلام، وهو أحدُ الرجلَيْن اللذَيْن قال الله تعالى ﴿قالَ رجُلان من الذين يخافون أنعمَ اللهُ عليهما﴾ [المائدة: ٢٣] الآية فلمّا اُحتُضر استخلفَ ابناً له يوساقانين.

قصّةُ كالبِ بن يوفنا:

يُقال: إنّ كالب كانَ نظيرَ يوسفَ في الحُسْنِ والجمالِ، فكانت النساءُ يفتتنّ به فدَعا ربَّه أن يُغيّر خَلْقه، قالَ وهبٌ ضربَه الله بالجدَريّ وبثرتْ عيناه[2]، ومعطتْ لحيتهُ[3]، وخُرِم أنفُه وانثنى أسفلُ وجهِه الذقنُ والفمُ حتّى صار له خُرطومُ كخرطومِ السَبُع فقَذِرَه الناسُ ولم

(١) تمزّعا: تفرّق.

(٢) بثرت عيناه: يقال بثر وجهه: خرج به بَثْرٌ.

(٣) ومعطت لحيته: امتدت وطالت.

يقدْر أحدٌ النظرَ إليه، وقامَ بالعدلِ في بني إسرائيلَ أربعين سنةً وتُوُفّي.

قصّةُ حزقيل:

يُقالُ: حزقيلُ بنُ دبحنه أبوه وبور ابوه، وهو نبيّ القومِ الذي قالَ اللهُ تعالى **﴿ألم ترَ إلى الذين خرجُوا من ديارِهم وهم ألوفٌ حذرَ الموت﴾** [البقرة: ٢٤٣] الآية وقَالَ قومٌ: هربوا من قِتال عدوٍّ لهم، وقالَ السديّ[1] بل هربُوا من الطّاعونِ وكانوا بضعاً وثلاثين ألفاً، وقد اثبتُ في القصّةِ ما اختلفوا فيه في كتابِ المعاني على وجهها.

قصّةُ شمويل بن هلقانا:

وهو بالعربيّةِ اشمويل وهو نبيّ القومِ الذي قال الله عزّ وجلّ **﴿ألم ترَ إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم أبعثْ لنا ملكاً نقاتلُ في سبيلِ الله﴾** [البقرة: ٢٤٦] وكان لبني إسرائيلَ تابوتٌ توارثوه عن الأنبياءِ يتبرّكون به ويستنصرونَ على أعدائِهم، فغلبتِ العماليقُ وذهبتْ قوّتهُم وريحهم وسألُوا شمويلَ أن يبعثَ لهم مَلِكاً يقاتلُ بهم فجاءهم طالوتُ ملكاً، وكان من سبطِ ابن يامين فأَبَوْا أن يُذعنوا له إلاّ بآيةٍ فقالَ لهمُ نبيُّهم إنّ آيةَ مُلكِه أن ياتيكَم التابوتُ فأتاهُم بحملةِ الملائكةِ، وقاتَل به طالُوت عدوَّهم، فقتلَ داودُ جالوتَ رأسَ العمالقةِ وهزمُوهم، واستنقذوا مَنْ كان في أيديهم من الأسارَي.

قصّةُ الياس:

يُقالُ: هو الياسُ بنُ العادرِ وَلَد يوشع بن نون، وكانَ ابنُ اسحق يقول: هو الياسُ بن يسى من ولدِ هارون بن عمرانَ يُقالُ له: الياس والياسين واذرياسين، ويُقالُ: هو ذو الكِفْل بعينِهِ بعثَه اللهُ بعد حزقيلَ إلى مَلِكٍ ببَعْلَبَكَّ يُقالُ له: آحب، وله امرأةٌ يُقالُ لها ازبيل كان يستخلفها على ملكِه إذا غابَ قِتالاً للأنبياءِ عابدةً للأصنامِ ولهُم صَنَمٌ عظيمٌ اسمه بعَلْ، فكذّبوه وعصَوه ونفَوْه، فأمسكَ اللهُ عنَهم السماء حتّى اجهدَهم الجوعُ فطلبُوا الياسَ كلَّ مطلبٍ يعنتوه ويراجعوه فيدعو لهُم، وكانَ اليسَعُ بنُ اخطوب تلميذَ الياسِ فبعثه اللهُ إليهم إنْ اردتُم ان يكشفَ اللهُ عنكمُ الضُرَّ فدَعُوا عبادةَ الأصنامِ، قال: فآمنوا وصدّقوا فرفَع اللهُ عنهم البلاءَ وعاشُوا، ثمّ عادُوا إلى كفرِهم فدَعا الياسُ أن يُريحَه منهم.

---

(١) جاء في سير أعلام النبلاء: إسماعيل بن عبد الرحمن ابن أبي كريمة أبو محمد الحجازي الكوفي ٥/ ٢٦٤.

ذكرُ الاختلافِ في هذه القصّةِ:

زعمُوا أنّ الياسَ كان سيّاحاً يأكُل الحشيشَ الأخضرَ حتّى يُرى ذلك في امعائِه من وراءِ حجابِ أضلاعِهِ، ولمّا كفرُوا به أوْحَى اللهُ إليه قد جعلتُ رزقهم بيدكِ فحبَس عنُهم القطرَ ثلاثَ سنين حتّى أكلُوا الجِيَفَ والكلابَ الميّتةَ، فلمّا عادُوا إلى كفرِهم بعد إيمانِهم به سألَ ربَّه أن يرفعَه من بينهِم، قالوا: فجأته دابّةٌ لونُها لونُ النّارِ فوثبَ عليَها فانطلقَت به وناداهُ تلميذُه اليَسعُ بِمَ تأمرني، قالَ بطاعةِ اللهِ والعَهْدِ وكساهُ اللهُ الريشَ وقطعَ عنه لذّة المطعمِ والمشربِ وجعلهَ أرضيًا سماويًا ملكيًا إنسيًا، قال الحسن: هو موكّلٌ بالفيافي والخِضْرُ بالبحار يجتمعان بالمواسمِ في كلِّ عام.

ذكرُ اليسع بن اخطوب:

وكانَ تلميذُه فنبّأه اللهُ بعدهَ وقد يُقالُ: إنّ اليسَع هو ذو الكفِل، وقِيلَ: هو الخضرُ، وقيلَ هو ابنُ العَجوزِ واللهُ أعلمُ وفي كتابِ أبي حذِيفة أنّ ذا الكفِل هو اليسعُ بنُ اخطوب تلميذُ الياسِ، وليسَ هو اليسعُ الذي ذكرَه اللهُ في القرآنِ يرويه عن أبي سمعان فإن كانَ هذا حقاً فهما اليسعانِ واللهُ أعلمُ، وأمّا ذو الكفِل فمختلفٌ فيه اختلافاً كثيراً تجدُه في كتابِ المعاني إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

قصّةُ داود عليه السلام:

هو داودُ بنُ أيشا من ولدِ يهوذا بنِ يعقوبِ نبّأه اللهُ بعد شمويل بنِ هلقانا وملكِه بعدَ طالوتِ فاجتمع له المُلكُ والنبوّةُ إلى أن وقَع بالخطيئةِ، واختلفُوا في سببِ خطيئَتهِ فالمعروفُ عندَ اصحابِ الأخبارِ وأهلِ الكتابِ وروايةِ الأوزاعيّ عن يحيى بن أبي كثير عن النبيّ ﷺ أنّه قال «أشرف فرأى امرأةً فوقعت في قلبه فبعثَ زوجَها في مَنْ بعثَ في الحربِ حتى استشهد فلمّا انقضَتْ عِدّةُ المرأةِ تزوَّجها فولدت له» واسمُ المرأةِ بتشبع، واسمُ زوجها اوريا، واستعظمَ قومٌ هذا من فعلِ الأنبياءِ، ورَوَوْا روايةً أنّ داودَ كانَ يدارسُ على بني إسرائيلَ العلمَ ويدارسونه فقالَ بعضُهم: لا يأتي على بني آدم يومٌ لا يُصيبُ فيه خطيئةً فقالَ داودُ لاخلُونَّ اليومَ واجتهدنَّ في تنحيّ الخطيئَةِ عنّي، فأوحى اللهُ إليه يا داودُ خُذ حذرَك، وقَالَ بعضُ النّاس: بل كانتْ خطيئَتُه أن استمعَ إلى أحدِ الخصمَيْن وقضى له دونَ الاستماعِ من خصمِه، ونعوذُ باللهِ من طلبِ مخرجٍ لرسولٍ فيه تكذيبٌ للكتابِ ولو كانَ كذلك فما معنى قوله ﴿وهل أتاك نبأُ الخصمِ إذ تسوّروا المحراب﴾ [صٓ: ٢١] إلى آخر الآياتِ

الأربع، كلُّها تعريضٌ لداودَ عليه السلام في صنيعهِ، وذكرُ النعجةِ كنايةٌ عن الظعينةِ لا غيرَ فلمّا عرف خطيئَته ﴿خرّ راكعاً وأناب﴾ [صَ: ٢٤] بقولِ الله عزّ وجلّ ﴿فغفرنا لهُ ذلك﴾ [صَ: ٢٥] وقد احتجّتْ هذه الطبقةُ بقولهِ تعالى ﴿يا داودُ إنّا جعلناك خليفةً في الأرضِ فاحكمْ بينَ الناسِ بالحقّ﴾ [صَ: ٢٦] الآية فكانَ اللهُ عزّ وجلّ سخّر معه الجبالَ يُسَبِّحنَ بالعشي والإشراق، وسخّر له الطيرَ يجاوبُه ويُطيعُه، وألانَ له الحديدَ يعملُ السابغاتِ.

ذكرُ اختلافهِم في هذه القصّة:

وصفُوا من طولِ سجودهِ وشدّةِ جَزَعهِ وكثرةِ بكائهِ ما يضيقُ الصدرُ عن تصديقه، قالُوا: حتّى نبتَ العُشْبُ بين دموعه، ولصِقَتْ جِلْدةُ حزيمه[1] بمسجدهِ، وكان يجمعُ في كلّ اسبوعِ النّاسَ فينوحُ على خطيئتهِ، وزعَم وهبٌ أنّ الله عزّ وجلّ أنزلَ لهُ سلسلةً بحبالٍ للصخرةِ ينالُها المظلومُ ولا ينالُها الظالمُ إلى أنْ مكَر بها ماكرٌ وارتفعتْ وصارَ الحكمُ باليمينِ والشهودِ، ويقولُ قومٌ: أنّ معنى إلانةِ الحديدِ ما سهُل عليه من صنعةِ الدّروعِ لأنّ نفسَ الحديدِ تغيّر عن طبعهِ، قالُوا: ومعنى قولهِ ﴿يا جبالُ اوِّبي معه والطيرَ﴾ [سبأ: ١٠] أوّب عند النظر إليها والطيرُ على القلب.

قصّةُ لقمانِ الحكيم:

قالُوا: إنّه كانَ عبداً حَبَشيًّا عظيمَ الشفتينِ والمنخرين مُصْطكَّ الرُّكبتين، وزعمَ وهبٌ أنّ اللهَ خيَّره بينَ النبّوة والحكمةِ فاختارَ الحكمةَ، فلما وقعَ داودُ بالخطيئةِ جعلَ يقنطُ لقمانُ قالَ اللهُ تعالى ﴿ولقد آتينا لقُمانَ الحكمةَ وإذْ قالَ لقمانُ لابنهِ وهو يعِظُه يا بُنيَّ لا تُشركْ باللهِ إنّ الشِرْك لظُلْم عظيم﴾ [لقُمان: ١٣] وذكَر وهبٌ أنّه أصابَ للقمانِ عشرةُ آلاف كلمةٍ من الحكمةِ قد استعملتها في خُطبِهم ووصاياهم قالَ ولمْ يزلْ يعِظُ ابنهَ ماثان حتى قِناعِ قلبهِ فمات.

قصّةُ سُليمان بن داود عليه السلام:

قالُوا: واستخلَفه داودُ وهو ابنُ اثنتي عشرةَ سنةً، وجعلَه يستشيرهُ في أمرِه ويُدخلُه في حكمِه، فأوّلُ فتنةٍ أصابَته إنّ امرأةً كانتْ كُسيتْ جمالاً وكمالاً جاءَت إلى قاضٍ لداودٍ في

---

(١) الحزيم: مكان شدّ الحزم، وسط الصدر.

خصومةٍ لها فأعجبتْه فراودها على القُبح فقالتْ أنا أبعدُ من هذا فتواطأ القاضي وصاحبُ الشُرْطة وحاجبُ داودِ وصاحبُ السوقِ وشهدوا لداودِ أنّ لهذه المرأةِ كلباً تُرسلهُا على نفسِها، فأمرَ بها داودُ فرُجمتْ وبلغَ الخبرُ سليمانَ، وهو يومئذٍ غيرُ بالغٍ فخرَجَ مع غلمانٍ يلعبون، فجعلَ أحَدهم على القضاءِ والثاني على الشُرطةِ والثالثَ على السوقِ والرابعَ على الحَجَبةِ، وجعل واحداً منُهم بمنزلةِ المرأةِ ثُمّ قعدَ مَقْعَدَ داودِ، وجاءَ القوم وشهِدوا على الذي هو بمنزلةِ المرأةِ ففرّقَ بينهم سُليمان، ثُمّ سألَهم في خفاءٍ عن لونِ الكلبِ، فقالَ أحدُهم: أحمُر، والآخرُ: أغبسُ، واختلفُوا في صفتهِ وذُكورتهِ وأُنوثتهِ وصِغَرهِ وكبرهِ، فردَّ شهادتَهم فبلغَ الخبرُ داودَ فدَعا بالذين شهِدوا على المرأةِ وفرّق بينهَم وسألهمَ فاختلفُوا عليه فأمرَ بهم فقُتلوا بالمرأةِ، قالوا: وكانتْ امرأتان يغتسلانِ في نهرٍ ومع كلٍّ واحدةٍ منهما صبيٌّ فجاء الذئبُ فاختلسَ أحدَ الصبيَّيْن فتنازعتا الصبيَّ الباقي وادّعتاه فحكَم داودُ بالولدِ لاحداهما، قالَ: فمرّتْ المرأتان بسليمانَ وقصّتا عليه القصّةَ فقالَ سُليمان عليكم بالسكّين اقطعه بينكما نصفَيْن، فقالتْ أمُّ الصبيّ هو لها لا تقطعه، وقالتْ الأُخرَى اقطعْه بيننا فدفَع إلى مَنْ سلَّمتْ وكرِهت القطَع، قالُوا وجاءهُ رجلٌ فشكَا إليه جِيراناً له أخذوا إوَزّةً له فأكلوها، فخطبَ سليمانُ الناسَ وقالَ يعمدُ أحدُكم إلى إوَزّةِ جارهِ فيسرقُها ويأكُلها، ثُمّ يدخلُ المسجدَ وريشُها في قلنسوتهِ، فمدّ الرجلُ يدَه إلى قلنسوتهِ ينظرُ أبِهَا ريشٌ أم لا، فقالَ سليمانُ لصاحبِ الإوَزّة دونَك الرجل فخُذه، وقَدْ قالَ اللهُ عزّ وجلّ **﴿وداودَ وسليمانَ إذ يحكمانِ في الحَرْثِ﴾** [الأنبياء: ٧٨] الآيات قالوا: إنّ غنَم رجُلٍ نفشتْ ليلاً في كرمِ رجلٍ فأفسدتْه فقضى داودُ بالغنمِ لصاحبِ الكرمِ، فقالَ سليمانُ غيرَ هذا القضاءِ، قال: ارفقْ بالقومِ، قال: وكيف؟ يدفعُ صاحبُ الغنمِ غنمَه إلى صاحبِ الزرعِ لينتفعَ من ألبانهِا وأصوافهِا بقدرِ الحاجةِ في ماله، ثُمّ يردُّ رقابَها، قال الله عزّ وجلّ **﴿ففهّمناها سليمان﴾** [الأنبياء: ٧٩] وكان داودُ وضعَ أساسَ بيتِ المقدسِ فبناه سُليمانُ وأتمّه قالَ الله عزّ وجلّ **﴿وورِث سُليمانُ داودَ وقال يا أيّها الناسُ عُلّمنا منطقَ الطير وأُوتينا من كلِّ شيءٍ﴾** [النمل: ١٦] وقال **﴿ولسُليمان الريحُ غُدوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ وأرسَلْنا له عينَ القطْر ومن الجنِّ مَنْ يعملُ بين يديه بإذنِ ربّهِ ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذابِ السّعيرِ يعملونَ له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجِفَانٍ كالجوابِ وقدور راسياتٍ﴾** [سبأ: ١٣] وقال اللهُ تعالى **﴿حتّى إذا أتَوا على وادِ النمّلِ قالت نملةٌ يا أيُّها النملُ﴾** [النمل: ١٨] الآية هذا كلّه كمَا قالَ اللهُ عزّ وجلّ **﴿آمنّا به وصدّقناه﴾** وقال تعالى **﴿فسخّرنا لهُ الريحَ تجري بأمره رُخاءً حيثُ أصاب والشياطين كُلَّ بنّاءٍ وغوّاصٍ﴾** [صَ: ٣٧] وذكروا أنّه كان يأمرُ الريحَ فتحملهُ وعسكره وتسيرُ

بهم حيثُ شاء، فتغدو بهم مسيرةَ شهرٍ في غَداةٍ وتروحُ بهِم مسيرةَ شهرٍ في رواحٍ، ووُجد بناحيةِ دِجْلَةَ مكتوبٌ على بعضِ الأبنيةِ العاديّةِ القديمة: نحنُ نزلْناهُ وما بنيناه، وهكذا مبنياً وجدناه عَدُوَّناه من اصطخر[1] فقلبناه ونحن رايمون منه فاتون الشامَ إن شاءَ اللهُ، وقالُوا كان مُلكِ داودَ بالشام في أوّلِ ملكِ منوجهر بابل، وملكُ غمدان باليمنِ ولا يتيقّنُ ذلك ولا يمكنُ لطولِ العهدِ، وضَعْفَ الوهمُ به ولا يصفُ المسلمون وأهلُ الكتاب سليمانَ بشيء من المعجزةِ والملكِ في طاعةِ الجنّ والإنسِ والشياطينِ له ومعرفةِ منطقِ الطيرِ والبهائمِ وحمل الريحِ إيّاه واستخراجِ النورةِ والجصّ والجواهرِ المعدنيّةِ وبناءِ الحمّاماتِ وغيرِ ذلك، إلاّ والفُرسُ يصفونَ به جمَ شاذَ الملكَ فلا أدري أهو سليمانُ عندَهم أم لا فإنْ كان ما وصفوهُ به حقًّا لم يكنِ الرجلُ إلاّ نبيًّا لأنّ مثلَ المعجزاتِ لا يتأتّى لغيرِ الأنبياءِ قال الله تعالى ﴿**واتّبعوا ما تتلو الشياطينُ على مُلك سليمان وما كفر سليمان**﴾ [البقرة: ١٠٢] قال أهلُ التفسير: إنّ طائفةً من اليهودِ زعمُوا أنّ سليمانَ كان ساحراً آخذاً بالأبصارِ مموّهاً على النّاسِ، وأنّه ملكَ الجنَّ والإنسَ بسحرِهِ، ومنهم مَنْ أقرّ بالسحرِ وصحّحه وجعلَه عِلْماً حقيقيًّا فنفى اللهُ عنه دعواهم ﴿**وما كفر سليمانُ ولكنّ الشياطينُ كفروا يعلّمون الناسَ السِحْرَ**﴾ [البقرة: ١٠٢] قالُوا: وكانَ ظهورَ السحْر في أيّامِ ذهابِ ملكِ سليمانَ استخرجَتْه الشياطينُ وثبّته في النّاسِ، ونسبُوه إلى سُليمانَ الملكِ النبيّ، واختلفُوا في السببِ الذي عُوقب لأجلِهِ بذهابِ الملكِ، فزَعَم زاعمٌ: أنّه سَبَى جاريةً شَغِف بها فاستأذنته في أن تصوّر تمثال ابنها تتسلّى به وتستأنس فأذِن لها، قالوا فعبدَتْه أربعين يوماً، وزعمَ آخرُ أنّه سأله بعضُ نسائه أن تقرّب لأبيها قُرباناً فأذن لها في تقريبِ جرادةٍ، وقَالَ قومٌ: بل كانَ ذَنْبُه اشتغالُه بالصافناتِ الجيادِ حتّى توارت الشمسُ بالحجابِ، وقيلَ: بل بضربِهِ سوقَها وأعناقَها، قال اللهُ عزّ وجلّ ﴿**وحُشر لسليمان جنودُه من الجنّ والإنس والطير**﴾ [النمل: ١٧] وقد ذكرَ اللهُ تعالى قصّتَه مع بلقيس في هذه السورةِ وكيفَ كان مجيئُها وإسلامُها ومجيءُ عرشِها في ارتدادِ الطَرْفِ وهدايةِ الهُدْهُدِ إليها، وللعربِ أشعارٌ كثيرةٌ في تحقيقِ أمرِ سُليمان فمنه قولُ الأعشى بنِ قيس: [طويل].

فلو كان حيًّا خالداً ومعمراً ... لكان سُليمان البريء من الدهر

براه إلهي وأصطفاه عبادةً ... وملّكه ما بينَ سرفي[2] إلى مِصْر

---

(١) اصطخر: مدينة قديمة جنوب غرب إيران، بنيت من أنقاض برسيبوليس وأصبحت المركز الديني للساسانيين وعاصمتهم، فتحها العرب ٦٤٣ م «منجد الأعلام».

(٢) سرفي: موضع على ستة أميال من مكة «معجم البلدان ٣/ ٢٣٩».

وسخّر من جنّ الملائك شِيعَةً قِياماً لدَيْه يعملون بلا أجْرِ

قصّةُ بلقيس:

يقالُ: هي بلقيسُ بنتُ هدّاد بن شراحيل بن عمرو بن الحارثِ بن الرياش، كانتْ ملكةً باليمنِ وآباءُها كانوا ملوكاً قبلهَا، وكاتبُها سُليمان عليه السلام وراودها على الإسلام فأجابتْ وأقبلتْ، وتزوّج بها سُليمانُ، ويُقال: بل زوّجها رجلٌ من مقاولِ اليمنِ، وردّها إلى مُلكها، قالُوا: وكانتْ زبّاءَ[1] هلباءَ[2] فأمرَ سُليمان فبنوا لها صَرْحاً من قواريرَ لتخوضه، فكشفَتْ عن ساقَيْها وهي تظنّ أنّه ماءٌ حتّى رأى سليمانُ الشَّعْرَ عليها فأمرَ فاستخرجوا لها النورة[3] والزرنيخ.

ذكر اختلافِ النّاسِ في هذه القصّة وقصّة سليمان عليه السلام:

قالَ قومٌ تسبيحُ الجبالِ مع داودِ شيءٌ لا يعلمُه أحدٌ غيره، وكذلك الطيُر مع سليمانَ لم يكنْ يسمعُه معَه أحدٌ، قال: وإنّما هو كما رُوي أنّ الحَصَى سبّح في كفّ النبيّ ﷺ بقول الله عزّ وجلّ ﴿وإنْ من شيءٍ إلاّ يسبّحُ بحمدهِ ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤] فمن فقِهِ تسبيحَه فقد سبّح معه، قالُوا ومعنى قولِهِ ﴿وأسَلْنا له عينَ القِطْر﴾ [سبأ: ١٢] وهو ما اهتدى إلى استخراجِهِ من معدنِهِ كسائرِ الجواهر قالوا ومعنى قولِهِ ﴿وتفقّدَ الطيرَ فقال ماليَ لا أرى الهدهدَ﴾ [النمل: ٢٠] انه رجلٌ سريع، وهذا معروفٌ في الناسِ أنّهم يسمّون الخفيفَ السَّيْرَ الكثيرَ المشي بأسماء الطيورِ تشبيهاً بها في سُرْعةِ السَّيْر قالوا ومعنى قولِهِ ﴿حتّى إذا أتَوْا على وادِ النّملِ قالتْ نملة﴾ [النمل: ١٨] أنّهم قومٌ ضِعافٌ خافوا خبطةَ عسكرِ سُليمان بظلمهِم إيّاهم ﴿فتبسّم ضاحكاً من قولها﴾ [النمل: ١٩] من معرفتِهِ لغتِهِم دونَ أصحابِهِ قالوا ومعنى الشياطينَ والجنّ عُتاةُ النّاسِ وأشدّاءُهم وحُذّاقهُم وعُرفاءُهم بالأُمورِ الغامضةِ والصنائعِ البديهةِ، قالُوا وتسخيرُ الريح له غُدوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ مَثَلٌ لبُعْدِ هيبتِهِ في الأرضِ ونُصرةِ دولتِهِ، وكان يُهابُ يُطاعُ مسيرةَ شهرٍ في شهرٍ، قالوا وليسَ في القرآنِ أنّه ملكَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، واحتجّوا بقولِ النبيّ ﷺ «نُصِرتُ بالرُّعْبِ حتّى أنّ عَدُوي

---

(١) الزّباء: الكثيرة شعر الوجه والأذنين.

(٢) الهلباء: الكثيرة الشّعر.

(٣) النُّوّرة: حجر الكلس.

ليخافني على مسيرة شهر» وقالُوا: في ذكر موته ﴿**ما دلَهم على موته إلا دابّة الأرض تأكل مِنسأته**﴾ [سبأ: ١٤] أنّ هذا ممكنٌ فيما بيننا والمنساةُ السريرُ أو خشبةُ أعمدٍ إليها يرون الناسُ حيٌّ بَعْدُ، وأنكروا ما جاء في الخبرِ أنّ بلقيسَ كانتْ أُمُّها امرأةً من الجنِّ، قالوا اللهمّ إلاّ أن يريدَ صِنْفاً من النّاسِ، واعلَم أنّ لمحمّد بن زكريا كِتاباً زعم أنّه مخاريقُ الأنبياء لا يستجيزُ ذكر ما فيه ولا يرخصُ لذي دينٍ ولا مروّةِ الإصغاء إليه فإنّه المُفْسِدُ للقلبِ المُذْهِبُ بالدينِ الهادمُ للمروّةِ المورثُ البِغْضةِ للأنبياء صلواتُ الله عليهم اجمعينَ ولأتباعهِم، ونحنُ لا نحملُ على عقولِنا ما ليسَ في وُسْعِها لأنّها عندنَا مبدعةٌ مُتناهيةٌ.

قصّةُ يونس بن متَّى:

قالَ أهلُ العلمِ ثُمّ إنّ بُعثَ يونسُ بعدَ سُليمان إلى أهلِ نينوى وهي الموصل، فكذّبوه وأخرجُوه وعاودهمُ مِراراً فجعلوا ينفونَه ويطردونَه فوعدَهم العذاب، وأخذ عليهم الميثاقَ إنْ لم يأتِهِم كما وعدَهم أن يقتلوهُ، وخرجَ من بينِ ظهرانيهم فلمّا استيقنَ القومُ بالهلاكِ صَعِدوا إلى تلٍّ لهُم يُقال له تلّ التوبةِ، وتابُوا، وأخلصوا، وضجّوا إلى الله عزَّ وجلّ ﴿**فلولا كانتْ قريةٌ آمنَتْ فنفَعها إيمانُها إلاّ قومُ يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخِزْيِ في الحياةِ الدنيا ومتّعناهم إلى حين**﴾ [يونس: ٩٨] ثُمّ أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ يونسَ بالرجوعِ إلى قومِه فخشي من القومِ القتلَ ولم يعلم بتوبتهم وإنابتهم، وأنّهم آمنوا فذهبَ مغاضباً لقومِهِ فعُوقب بالحوتِ كما قصّ الله عزّ وجلّ ﴿**إذْ أبَقَ إلى الفلكِ المشحونِ فساهم فكانَ من المُدْحَضين فالتقمه الحوتُ وهو مُلِيم فلولا أنّه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يُبعَثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم**﴾ [الصافات: ١٤٥] يقولُ كالسقيم ﴿**وانبتنا عليه شجرةً من يقطين**﴾ [الصافات: ١٤٦] يقال البطّيخ ﴿**وأرسلناه إلى مائةِ ألف أو يزيدون**﴾ [الصافات: ١٤٧] قال الحسنُ: كان يونسُ نبيًّا غيرَ مُرْسَلٍ ثُمّ صارَ بعدَ أن نجاه اللهُ من الحوتِ نبيًّا مُرسلاً، فعاد إليهم، وأقامَ لهم السُنَنَ والشرائعَ، ثُمّ استخلفَ عليهم شعيا وخرجَ هو والمَلِك معه يسيحان في الجبالِ ويعبدان الله حتّى لحِقا باللهِ عزَّ وجلَّ.

ذكرُ اختلافِ النّاسِ في هذه القصّة:

رُوي في بعضِ الأحاديث أنّ النبيّ ﷺ قال «لا تُفضّلوني على أخي يونس بن متّى، ومَنْ قال أنا خيرٌ منهُ فقدْ كذب» ورأيتُ ناساً من الأمّة يُنكرون هذا واللهُ أعلم، وذكُروا من مساهمةِ يونسَ عليه السلام رُكّابَ السفينةِ أنّ الريحَ عصفتْ والسفينةُ قد تكفّأت، فقالَ يونسُ

اطرحوني في الماءِ فإنّي أنا المطلوبُ، فأبَوا عليه حتّى قارعَهم فقرعُوه وإنّ الحوتَ التقَمه فنادى في ظلماتِ جوفه ﴿أنْ لا إله إلاّ أنتَ سبحانك إنّي كنتُ من الظالمين﴾ [الأنبياء: ٨٧] فاستجابَ له ونجّاه من الغمِّ وألقاهُ الحوتُ على الشطِّ ونبتتْ له شجرةٌ يستظلّ بها، فلمّا يبستْ خلصَ حرُّ الشمسِ إلى جِلْدتِه وهي كالفرخِ الممعوط فبكى، قِيلَ: فأوحى اللهُ إليه تبكي على شجرةٍ أنبتَتْ في ساعةٍ وكيفَ دعوتَ بالهلاكِ على مائةِ ألفٍ أو زيادةٍ، وأمّا الزائغون عن القصدِ فمن مُنكرٍ بقاءَ ذي روحٍ في بطنِ حيوانٍ ويتأوّلُ ذلك حُجّةً لزمَتْه وحقًّا أسكته ونداؤه في الظلماتِ، قالوا: هي ظُلماتِ الجهلِ والحَيرةِ، وإلقاءُه بالعراءِ طرفٌ من العلمِ إليه، وانشاءه هذا كما قالُوا في تأويلِ العصا واليدِ لموسى والسفينةِ لنوحٍ وسائرِ المعجزاتِ واللهُ أعلم، وكيفَ يصحُّ لهم هذا التأويل وهم يقرأون ﴿وذا النونِ إذ ذهبَ مغاضباً فظنّ أن لنْ نقدرَ عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: ٨٧] ويقرأون ﴿فأصبر لحُكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوتِ إذ نادى وهو مكظوم﴾ [القلم: ٤٨] ويقرأون ﴿فالتقمه الحوتُ وهو مُليم﴾ [الصافات: ١٤٢] أوليَس الجنينُ في بطنِ أمّه مُتنفّسٌ حيٌّ، فهل يعجزُ من أبقى الأَجنّةَ في ظُلَم الأرحام أن يُبقي الأرواح في أجسامِ المحبوسين حيثُ لا يصلُ إليهم الهواءُ واللهُ المستعان.

قصّةُ شعيا بن آموص النبيّ وصديقه الملِك:

قالوا أقبلتْ بنو إسرائيلَ بعدَ يونسَ زمَاناً على الهُدى والاستقامةِ إلى أنْ ماتَ الملكُ صديقه، فاختلفُوا وعدَوْا على شعيا فقتلوه، وقالَ بعضُهم إنّه انفلقتْ له شجرةٌ فدخَلها والتأمتْ عليه، وإنّ الشيطانَ أخذَ بهُدبةِ ثوبِهِ فلما لحقّه الطَلَبُ فقالَ: ها هو في جوفِ هذه الشجرةِ دخَلها بسحره فقطعُوه بالمِنشارِ وسلّط اللهُ عليهمِ العدوَّ، وهو الذي ذكرهَ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآنِ ﴿فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثْنا علكيم عِباداً لنا أولي بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلالَ الدّيارِ وكان وعداً مفعولاً﴾ [الإسراء: ٥] وهي أولَى الفسادِ الذي قضاهُ اللهُ على بني إسرائيل في الكتابِ فقال ﴿لتُفسدنّ في الأرض مرّتين ولتَعْلُنّ عُلواً كبيراً﴾ [الإسراء: ٤] وقِيلَ في مَنْ سلّط اللهُ عليهم في أوّلِ الفسادِ غيرَ هذا واللهُ أعلمُ وهو مستطرٌ في كتاب المعاني بتمامه.

قصّة أرميا النبيّ:

قالَ وهبٌ: إنّه هو الذي قصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآنِ خبره فقال: ﴿أو كالّذي مرّ على قريةٍ وهي خاوية على عروشِها قال أنّى يُحي هذه اللهُ بعدَ موتها فأماته اللهُ مائةَ عام ثُمّ بعثه﴾

[البقرة: ٢٥٩] الآية ويُقالُ: بل كان عُزيراً، والقريةُ دير سابراباذ[1] واللهُ أعلمُ.

قصّةُ دانيال الأكبر:

قالَ أهلُ هذا العلم: إنّ دانيالَ الأكبر رأى في منامهِ أنّ خرابَ بيتِ المقدسِ يكونُ على يدي بغيَّةٍ من أرضِ بابل، فقامَ وتجهَّز بمالٍ، وأقبلَ حتّى وافى أرضَ بابلٍ فلم يزلْ يطلبُه حتّى وجدَه فأعطاهُ وكساهُ، وأخبرهَ أنّ الأمرَ صائرٌ إليه وعاهده على أن لا يهيّجه ولا ولده ولا قرابته إذا كان كذلك، وماتَ دانيالُ وغدا بنو إسرائيل على شعيا فقتلوهُ، ويُقالُ: بل قتلوا زكريا بن آزن، وكان الملك سنحاريب بأرضِ بابلٍ قد تفرّسَ في بختْ نصرّ الشهامة والكفايةَ فأدناهُ ورفعَ منزلتَه فبعثَه إلى بني إسرائيل، وفي كتاب سِيَرَ العجمِ أنّ الذي بعثَ بختْ نصّر إلى الشامِ بهمن بنُ اسفنديار فأتاهمُ وقتلَ مِنهم وسباهُم، وعادَ إلى أرضِ بابلٍ وفي السبي أرميا النبيّ وعُزير ودانيال الأصغر، وهو من ولدِ دانيالِ الأكبرِ وهو الذي وُجد في مدينةِ السوس[2] حين افتتحها أبو موسى الأشعريّ، فأمرَه عُمر أن يدفَنه حيثُ لا يُشعرُ به، وهلكَ الملكُ وأفضى الأمرُ كلُّه إلى بختْ نصّر، وملكَ ما شاء اللهُ، ثُمّ رأى رؤيا هائلةً فظيعةً ولم يجدْ عندَ أهلِ العلمِ منهم تأويلَها فدعا دانيالَ، وأخبرهَ بها، فتأوّلها له فحسُن موقُعه عندَه فاستخلصَه واستخصّه وشفّعه في سبي بني إسرائيل فردَّهم إلى الشامِ وفيهم عُزيرُ وارميا، ويزعُم وهبٌ في قصّةِ بختْ نصّر وابنهِ بلطاشِص اشياءَ في تحّولهِ في صُوَرِ جميعِ الحيوانِ وتصرّفِ الأحوالِ عقوبةَ سُوءَ صنيعهِ، وأنّه حُوِّل جميعُه أنسياً آخرَ ذلك كلّه وآمنَ باللهِ وماتَ.

قصّةُ عُزير بن سروحا:

قالُوا: وكان عُزير في سبِيّ بختْ نصّر فلمّا رجع إلى بيتِ المقدسِ قَعدَ تحتَ شجرةٍ وأمْلَى عليهم التوراة من ظهرِ قلبهِ، وكانُوا قد نسوُها وضيّعوها لأن أباه سروحا كان دفنَها أيّامَ بختْ نصّر ولم يعلَم بمكانها إلاّ عجوزٌ همّةٌ[3] فدلّتهمْ عليها فاستخرجُوها وعارضُوا بها ما أملي عليهم فوجدُوه ما غادَر حرفاً، فعندَ ذلك قالتْ طائفةٌ: إنّه ابنُ اللهِ ولم يَقُلْه كلُّهم، وروى

---

(١) دير سابر: قرية قرب بغداد بين المزرقة والصالحية «معجم البلدان ٢/ ٥٨٢».

(٢) السوس: بلدة بخوزستان. «معجم البلدان ٣/ ٣١٩».

(٣) عجوزٌ هِمّة: عجوزٌ فانية.

جويبر عن الضحّاك أنّه قالَ لمّا قالتِ النّصارى المسيحُ ابنُ الله قالتْ فرقةٌ من اليهودِ معاندةً لهم بل عُزير ابنُ الله، وزعم وهبٌ أنّ عُزيراً تكلَّم في القَدَر فزُجرَ فلم ينزجرْ فمحا الله اسمَه من ديوانِ الأنبياءِ ويُقال هو ﴿الذي مرّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها﴾ [البقرة: ٢٥٩] قال ﴿أنّى يحيي هذه اللهُ بعد موتها فأماتَه اللهُ مائة عام﴾ [البقرة ٢٥٩] الآية.

قصّةُ زكريا بن آزن ويحيى بن زكريا وعمران بن ماثان:

قالُوا: إنّ زكريا بن آزن من ولدِ داودَ، وكان رجُلاً نجّاراً وكانتْ تحته أشباعُ بنتُ عمران بن ماثان أختُ مريمَ بنتِ عمران أُمِّ عيسى، وكان يحيى وعيسى ابنَيْ خالةٍ، وكانَ زكرياء الرائسِ الذي يقرّبُ القربانَ ويكتبُ التوراة، وهو الذي كفَل مريمَ فلمّا ظهَر بها الحملُ زعمتْ يهودٌ أنّه ارتكبَ منها الفاحشة فهربَ منهم واتبعُوه فقطعُوه نصفَيْن يُقالُ بالمنشارِ.

قصّةُ يحيى:

قالُوا: ولمّا رأى زكرّياء ما أكرَم اللهُ به مريمَ منِ الفضيلةِ والكرامةِ تمنّى الولَد ودعا فعنَد ذلك ﴿دعا زكرياءُ ربّه قال ربِّ هبْ لي من لدُنك ذُرّيّةً طيّبةً إنّك سميعُ الدُّعاء﴾ [آل عمران: ٣٨] فبشّرَه اللهُ تعالى بالولدِ على كبرِ السنّ كما قالَ اللهُ ﴿فنادتْه الملائكةُ وهو قائمٌ يصلّي في المحرابِ أنّ الله يبشرُك بيحيى مصدّقاً بكلمةٍ من اللهِ وسيّداً وحَصوراً ونبيًّا من الصالحين﴾ [آل عمران: ٣٩] قال زكرياء ﴿أنّى يكونُ لي غلامٌ وقَدْ بلغتُ من الكبرِ عتيًّا، قال ربّ اجعلْ لي آيةً، قالَ آيتُك أنْ لا تكلّم النّاسَ ثلاثَ ليالٍ سويًّا﴾ [مريم: ١٠] يقولُ: لا تكلُّمهم ثلاثَ ليالٍ وأنتَ سَوِيٌّ من غيرِ عِلّةٍ، قال قَتادةُ: عُوقب بحبسِ لسانِهِ عن الكلامِ لطلبِهِ الآيةَ بعد مشافهةِ الملائكةِ، وقضى اللهُ عزَّ وجلَّ فواقعَ زكرياء اشباع بنتَ عمران فحملتْ يحيى كرامةً من اللهِ عزَّ وجلَّ ورحمةً وزكوةً وحصوراً[١] ونبيًّا كما وُصِفَ، قالُوا وهمَّ الملكُ أن يتزوّج ابنةَ امرأةٍ لهُ فنهاهُ يحيى عن ذلكِ فاحتقدتْ المرأةُ عليه فسَقَتِ الملكَ حتّى ثَملَ، ثمّ زيّنتْ ابنتَها وارسلْتها إليه ونَهَتْها أن تطاوعَه ما لم يأتِ برأسِ يحيى بن زكرياء ففعل، وسلّط عليهمْ بختْ نصَّر فقتّل على دم يحيى سبعينَ ألفاً، وخرّبَ بيتَ المقدسِ، وهي أُخرى الفسادَيْن، ويُقالُ: بل سلّطَ عليهم انطياخوس المجوسي وكان بختْ نصّر قَدْ

(١) حصور: الذي تعذّر عليه الوصول إلى مراده من الشيء كأنّ الأمر ضاق به.

هلِك قبلَ ذلك، ويُقال: بل جودرز بن اشكبان أحدُ ملوكِ الطوائفِ.

ذكرُ اختلافِهِم في هذهِ القصّة:

زعم قومٌ أنّ رأسَ يحيى جِيءَ به في طستٍ، ووُضِعَ بينَ يدي الملكِ، وهو يقولُ: لا يحلُّ لك وإنّ دمه صارَ يغلي في موضعِه غَلياناً كلمّا كُفر بالتّرابِ ظهَر عليه وغَلا إلى أن قُتل على دمِه سبعون ألفاً فسكَنَ، وأنّه التقتْ أُمُّ يحيى وأمُّ عيسى وهما حاملان فقالتْ أُم يحيى: إنّي أجدُ ما في بطني يسجدُ لما في بطنِكِ، وقَدْ قَالَ بعضُهم: إنّ يحيى كان أكبر من عيسى بثلاثِ سنين وأنّ زكريّاء ماتَ موتاً ولم يُقْتَل.

ذكرُ مريمَ بنتِ عمرانَ أمِّ عيسى:

قد ذكَرَ الله عزَّ وجلَّ قصّتها في سورةِ آلِ عمرانِ **﴿إذْ قالتَ امرأتُ عِمْرانَ ربِّ إنّي نذرتُ لكَ ما في بطني محرّراً فتقبّل منّي﴾** [آل عمران: ٣٥] الآية ذكروا أنّ اسمها حنَّة بنت فاقوز من راهباتِ بني إسرائيل، وأُختها أشباعُ بنتُ فاقوز كانتْ تحتَ زكرياء عليه السلام، وزوج حنّة عمران بن ماثان بن باسهم بن يعافيت من ولدِ داودَ النبيّ عليه السلام وكانتْ حنَّةُ قد قعدتْ عنَد المحيضِ فبينا هي في ظلّ شجرةٍ إذْ نظرتْ إلى طيرٍ يزقُّ فَرخاً لهُ فتحرّكتْ نفسُها للولدِ فدعَتْ ربّها أن يهبَ لها ولداً، ثُمّ جامعت زوجَها فحملتْ بمريمَ، وهلكَ عُمران فلمّا أُجيبتْ بالحملِ جعلته نذَراً للهِ عزّ وجلّ، كما قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ **﴿ربِّ إنّي نذرتُ لك ما في بطني محرّراً فتقبّل منّي﴾** [آل عمران: ٣٥] الآية **﴿فلمّا وضعتْها قَالتْ ربِّ إني وضعتُها أُنثى واللهُ أعلمُ بما وضعَتْ﴾** [آل عمران: ٣٦] وكانَ لا يحرّر إلاّ الغلمان لأنّه لا يصلحُ لخدمةِ المذبحِ والمسجدِ الجواري لما يصيبهنّ من الحيضِ، ثُمّ لفّتها في خرقةٍ وأتَتْ بها المسجدَ، وفيه الأحبارُ والرهبانُ يكتبون ما درسَ من التوراةِ فتشاجرُوا في قبولِها وأقرعُوا عليها فقرعَهم زكرياء فقبلها واسترضَعها إلى أن فُطمْت، ثُمّ استحصنَها إلى أنْ عقلتْ، ثمّ بنا لها صومعةً في المسجدِ، ونقلَها إليها فكانتْ تتعبدُّ فيها مع العابداتِ، وكانَ زكرياء وكَّل بها وبخدمتِها رجُلاً يُقالُ له يوسفُ النّجار وكان ابنُ خالها **﴿فكُلّما دخَلَ عليها زكريّاء المحرابَ وجدَ عندها رزقاً﴾** [آل عمران: ٣٧] يُقالُ فاكهة الشتاء في الصيفِ وفاكهةَ الصّيفِ في الشتاءِ **﴿قال يا مريمُ أنّى لك هذا قالتْ هو مِنْ عندَ اللهِ إن الله يرزقُ من يشاء بغير حساب﴾** [آل عمران ٣٧] و**﴿هنالك دعا زكرياء ربّه قال ربِّ هَبْ لي من لدُنك ذرّيّةً طيّبةً إنّك سميعُ الدعاء﴾** [آل عمران: ٣٨] فوهب اللهُ له يحيى عليه السلام.

ذكرُ مولدِ عيسى عليه السلام:

يقولُ اللهُ عزّ وجلّ ﴿واذكُرْ في الكتابِ مريمَ إذ انتبذت من أهلِها مكاناً شرقيًّا﴾ [مريم: ١٦] إلى قولِهِ ﴿ذلك عيسى ابنُ مريم قول الحقّ الذي فيه يمترون﴾ [مريم: ٣٤] فقصَّ اللهُ من خبرِهِ ما لا يحتاجُ معَهُ إلى قولِ غيرِهِ وكانتِ الملائكةُ يكلّمها شِفاهاً وتبشرها بالولد ﴿إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه اسمهُ المسيحُ عيسى ابنُ مريم قالت ربِّ أنّى يكونُ لي ولدٌ ولم يمسسني بشرٌ قالَ كذلك الله يخلقُ ما يشاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧] قالُوا وكانتْ مريمُ إذا حاضتْ خرجتْ من المحرابِ فإذا طُهرتْ عادتْ، فبينما هي ذاتَ يومٍ قد ضربتْ على نفسِها بالحجابِ تغتسلُ من المحيضِ في مشرقةٍ من الشّمسِ إذْ أتاها روحُ الله جبرئيلُ فتمثّل لها في صورةِ بشرٍ سَويِّ الخلقِ فخافتْه مريمُ فقالْت ﴿إنّي أعوذُ بالرحمن منكَ إن كنتَ تقيًّا قال إنّما أنا رسولُ ربّك لأهَبَ لكِ غِلاماً زكيًّا﴾ [مريم: ١٨ و١٩] فنفخَ في جنبِ دِرْعها فحملتْ بعيسى، ولمّا ظَهَر بها الحملُ اتّهموا زكريّاء فقتلوهُ في قولِ بعضهم، وقالَ قومٌ: بل اتّهموا يوسفَ النجّارَ وكانَ قَدْ خطبَها وفي الإنجيل أنّه كانَ تزوّجهُا فلمّا أثقلتْ مريمُ هَربَ بها خَوفاً من هرادِس[1] الملكِ، وموضعُ الولادِة بيتُ اللحم معروفٌ مشهورٌ، وقد شاهدناه وشاهدَه كلُّ من وطيء تلكَ البلاد، قال الزُهريّ: وكان ثَمَّ جِذْعُ نخلةٍ فأورقَها اللهُ عزَّ وجلَّ، وأثمرَها لمريمَ، وإنّما هربَ بها وبعيسى بعدَ ما ولدتْ وتكلَّم عيسى بقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومعين﴾ [المؤمنون: ٥٠] قِيلَ: هي مصرُ وقِيل: هي دمشقُ واللهُ أعلمُ، ولمّا ضربَها الطَلْقُ خَشِيتْ لائمةَ القومِ ﴿قالت يا ليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسْياً منسياً فناداها من تحتها﴾ [مريم: ٢٤] يُقالُ: جبريلُ: وقِيلَ: عيسىَ ﴿أنْ لا تحزني قَدْ جعلَ ربّك تحتِك سريًّا﴾ [مريم: ٢٤] إلى آخرِ الآياتِ وقصّتُها مشهورةٌ بظهورِها عن التفسير، وقَدْ قَالَ بعضُ النّاسِ في قولِهِ تعالى ﴿إنّي عبدُ الله آتاني الكتابَ وجعلني نبيًّا﴾ [مريم: ٣٠] أي قضى أنْ يوتيني الكتابَ وأن يجعلني نبيًّا الآية، لأنّه لو كانَ نبيًّا في الوقتِ لزمه دعاء النّاسِ ولزمهِم إتباعهُ.

ذكرُ اختلاف النّاسِ في هذه القصّةِ:

اليهودُ تزعمُ أنَّ عيسى لم يُحْيَ بَعْدُ وأنه جاء، وأنّ الّذي يذكرهُ ابنُ بغيّة لغيرِ رشدهِ وأنّ يوسفَ النّجارَ فجرَ بها، ورُوينا عن الحسنِ أنّه قال: بلغني أنّها حملتْ بهِ سبعَ ساعاتٍ

---

(١) هرادِس: ورد في الكتاب المقدّس «انجيل متى صفحة ٤». أنّه هو هيرودُس الملك.

ووضعتْه في يومِها، وعن مُجاهدٍ قال حملَتْه نصفَ يومٍ ووضعتْه، وقالَ آخرون: بل حملتْه ووضعته كسائرِ النّاسِ، ولقدْ سَمِعْتُ بعضَ علماءِ الخُرّميّة يزعمُ: أنّ مريمَ جُومعتْ وانضافَ إلى ذلك الجماعِ روحٌ من عندِ اللهِ لا أنّه كانَ نفخَ من غيرِ وطيء، والثنويّة والمنانيّة، كلُّهم يؤمنون بعيسى، ويزعمون أنّه من روحُ اللهِ على معنى أنّه بعضٌ من اللهِ، والنورُ عندَهم حيٌّ حسّاسٌ عالمٌ، وبعضُ النصارى يزعم: أنّ الذي تراءى لمريمَ فنفخ فيها هو اللهُ تعالى عن ذلك، وبعضُهم يزعم: أنّ عيسى هو اللهُ نزلَ من السماءِ، ودخَل في جوفِ مريمَ، ثمّ اتّحدَ بجسد عِيسى، فلمّا قُتل صعِدَ إلى السماءِ وقدْ شبَّه اللهُ تعالى خَلْقَ عيسى عندَ مجادلةِ مَنْ جَادلَ رسولَه، وأنكرَ أن يولدَ مولودٌ من غيرِ ذَكَرٍ وأنثى بخلقِ آدمَ فقال ﴿إِنّ مَثَلَ عيسى عندَ الله كمثلِ آدمِ خلقَه من ترابٍ، ثُمّ قالَ له كنْ فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩] فأوضحَ الحّجةَ وقطعَ الشُّبهةَ، وقدْ ذكَر أُميّةُ هذه القصّة في شعرِهِ: [طويل].

وفـي دينكـم مـن ربِّ مَـرْيَـمَ آيـةٌ ... مُنَبِّئَـةٌ والعَبْـدُ عيسـى بـنُ مَـرْيَـم
أَنـابَـتْ لـوجـهِ اللهِ ثُـمَّ تبتّلَـتْ ... فسبَّـحَ عنهـا لـومـةُ المُتلـومِّ
فـلا هـي همَّـتْ بـالنكَـاحِ ولا دنَـتْ ... إلـى بَشَـرٍ منهـا بفـرج ولا فـمِ
ولطَتْ حجابَ البيتِ من دونِ أهلها ... تُغيِّبُ عنهُـمُ فـي صحـاري دِمْـدِمِ[1]
يَحـارُ بهـا السـاري إذا جـنَّ ليلُـه ... وليـس وإن كـانَ النهـارُ بمُغلَـمِ
تـدلّـى عليهـا بعـدَمـا نـامَ أهلُهـا ... رسـولٌ فلـم يحصَـر ولـم يتـرمـرم[2]
فقـالَ ألا لا تجـزَعـي وتُكـذّبـي ... مـلائكـةً مـن ربِّ عـادٍ وجُـرْهُـم
أنيبـي وأعطـي مـا سُئلـتِ فـإنّنـي ... رسـولٌ مـن الـرحمٰـن يـأتيـكِ بِـأبْنِـمِ
فقـالـتْ لـه أنّـى يكـونُ ولـم أكُـنْ ... بغيًّـا ولا حُبْلَـى ولا ذات قيِّـم
أأحـرجُ بـالـرحمـنِ إن كنـتَ مُسْلمـاً ... كـلامـي فَـأقْعُـدْ مـا بـدا لـك أو قُـمِ
فسَّبـح ثُـمّ اغتّـرهـا فـالتقـتْ بـه ... غُـلامـاً سَـوِيَّ الخَلْـق ليـس بتَـوْأَمِ
بنفخته في الصّدرِ من جَيْب دِرْعها ... وما يَصْرُمِ الرحمنُ مِلْ أَمْرٍ بِصَرْمِ
فلمّـا أتَمَّتْـهُ وجـاءتْ لـوَضْعـهِ ... فـآوَى لهـمُ مـن لـومِهِـم والتّنـدُّمِ
وقـالَ لهـا مَـنْ حـولَهـا جئـتُ منكـراً ... فحُـقَّ بـأن يُلحـى عليـه وتُـرجَـمـى
فـأدركَهـا مـن ربِّهـا ثَـمَّ رحمـةٌ ... بصِـدْق حـديـثٍ مـن نبـيّ مُكلّـم

---

(١) الدِمْدِم: يبيس الكلأ.

(٢) يترمْرَم: يحرّك فاه للكلام ولم يتكلم.

فقـــالَ لهَــا إنّــي مــن اللهِ آيــةٌ ... وعلّمنــــي واللهُ خيــــرُ مُعلِّــــمِ
وأُرسلتُ لم أُرسَلْ غويًّا ولم أكنْ ... شقيًّا ولـم أُبعَـثْ بفُحْـشٍ ومَـأْثَـمِ

قصّةُ عيسى ابن مريم عليه السلام:

رُوينا عن الحسنِ أنّه قالَ نزلَ الوحي على عيسى وهو ابنُ ثلاث عشرَة سنةً، ورُفع وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنة، وكان في نبوّتهِ عشرين سنةً، ويُقالُ: هو آخرُ أنبياءِ بني إسرائيلَ ورُوينا عن الضحّاكِ أنّ عيسى بُعثَ إلى نصيبين[1] وملِكها جبّارٌ عنيدٌ يُقالُ له داود بن بوزا، وكانوا أصحابَ أصنامٍ وتماثيلَ وزمنَ طبٍّ وأطبّاءَ ومعالجةٍ فجاءهم عيسى من جنسِ صناعتهِم بما أعجزَهم وذلك من تمامِ القدرةِ وكمالِ القوّةِ أنْ يعترضَ على المرءِ فيما هو لسبيلِهِ ليكونَ أنفى للشبهةِ وأبعدَ من التهمةِ، وكما جاء موسى عليه السلام في زمنِ السحرِ بما أبطلَ سحرَهم وجاء محمّدٌ ﷺ والزمنُ للخطباءِ والبلغاءِ والشعراءِ بما أفحمهم قالوا فأمنَ بعيسى الحواريُّون وهم أصفياءُه وذلك بعدَ ما أحيا لهم الموتى، وأبرأَ الأكمَه والأبرصَ، ونبّأهم بما يأكلون في بيوتهِم وما يدّخرون للغَدِ، وخلقَ لهم من الطّينِ كهيئَة الطيرِ، ثُمّ سألوهُ المائدةَ قال قومٌ: فنزل عليهم وأكلُوا منها، ثُمّ كفروا بها فمُسِخوا خنازيرَ، وكان الحسنُ يقولُ سألوا المائدَة فلمّا قِيلَ **﴿فمن يكفُر بعدُ منكم فإنّي أُعذّبُه عذاباً لا أُعذّبه أحداً من العالمين﴾** [المائدة: ١١٥] استعفوا فلم ينزلْ ومَنْ نازعتْه نفسهُ في الإشرافِ على اختلافِ النّاسِ في هذه الأشياءِ وخوضهِم فيها فلينظر كتابَ المعاني فإنّي قد جمعتُ فيه ما وجدتُ إلاّ ما شذّ، قالوا ولمّا بلغَ جالينوسَ الطبيبُ خبرُ عيسى وما يفعلُ من العجائبِ قصده لينظرَ ما عنده فماتَ قبلَ أن يصلَ إليه، ويُقالُ: أنّه آمن به قَالُوا: ولمّا رأوا الآياتِ والعجائبَ من عيسى عليه السلام رمَتْه اليهودُ بالسِحْرِ ونسبوه إلى غيرِ رُشدِهِ، وخرجُوا في طلبِهِ فوجدوه قد اكتمنَ في غارٍ، ومعه أُمّهُ وجماعةٌ من الحواريّين، فاستخرجوه، وجعلوا يلطمونَ وجهه، وينتفون شعرَهَ، ويقولون إنّك إن كنتَ نبيًّا فادْعُ ربَّك يمنعُك، ثُمَّ جعلُوا على رأسِهِ إكليلاً من الشّوكِ، وفي قولِ اليهودِ والنصارى: قتلوه وصلبُوه، ثُمّ إنّ النصّارى يقولون بعد ذلك رفع اللهُ روحَه إلى السماءِ، ومنهم مَنْ يقولُ: صلبوا الهيكلَ وعرجَ الروحُ وهو الله عزّ وجلّ، وقالَ لي قبطيٌّ مِنهم أنّه قُتِل وصُلب ودُفن، وأقامَ في القبرِ ثلاثاً ثُمّ نجاه

---

(١) نصيبين: مدينة فيما بين النهرين (تركيا حالياً) كانت مهد الآداب السريانية حتى سقوطها في أيدي الساسانيين. ازدهرت فيها مدرسة نسطورية، لمع منها نرساي وبرصوما «منجد الأعلام/ ٧١٠».

أبوه ورفعَه إلى السماءِ، وفي قولِ المسلمين: أنّه لم يُقْتَل ولم يُصْلَب وإنّما قتلُوا رجلاً وصلبُوه، وأشاعوا في الناسِ إنّه عيسى فانتشر بِهِ الخبرُ، قال اللهُ تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبُوه ولكن شُبّه لهم﴾ [النساء: ١٥٧] واختلفُوا في قولِهِ تعالى ﴿إنّي متوفّيك ورافِعُك إليّ﴾ [آل عمران: ٥٥] فقالَ كثيرٌ من أهلِ التفسيرِ يقولونُ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ كأنّه قالَ: إنّي رافعُك إليّ ومتوفّيك بعدَ إنزالك من السماءِ، وقَالَ قومٌ بل هو على وجهِه وسياقِهِ توفّاه ثُمّ رفعه، ومعنى هذا القولِ أنّه رفعَ روحه لا جسده، قال أهلُ الأخبارِ: رُفع عيسى ونزل خفّين[1] فَعِدرعَة وحذاقة للطير.

ذكرُ اختلافِ النّاسِ في هذه القصّة: وذكر الاختلافِ في مدّةِ هذه الفترة بين عيسى ومحمّد عليهما السلام:

قالَ ابنُ إسحق كانت الفترةُ ستَّ مائة سنةً، وفي حسابِ المنجمّين: خمس مائة سنة إلاّ شيئاً، ورُوي عن أبي جُريج أنّه قال: اربع مائة سنة واللهُ أعلمُ، قال أهلُ الأخبارِ: إنّه كان في الفترةِ خالدُ بنُ سنان العبسيّ نبيًا وحنظلةُ بن أفيون الصادقِ نبيًا، وما أراهُ يصحُ، وبعضُهم يقولُ: كان جرجيس نبيًا وشمسُون نبيًا، وفي كتابِ بعضِ الحواريّين أنّه كان بعدَ المسيحِ بانطاكية أنبياء، منهم برنيا ولوقيُوس ومَائِيل واغابوس، ومن عُلماء أهل الإسلام مَنْ يقولُ: أنّ قوله ﴿إذْ أرسلنا إليهمُ أثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالثٍ﴾ [يٓس: ١٤] أنهم كانوا أنبياء نومان وبالوص وشمعون، وكانَ في الفترةِ أصحابُ الكهفِ وسبا وضروان وجريج الناسك، وقصّةُ المُقعَدِ والمجذومِ والأعمى وحبيبِ النّجار وفطروس الكافرِ أخو بُحيرا المؤمنِ، وكان عيسى عليه السلام فرّق طائفةً من الحواريّين في البلدان والنواحي يدعون النّاسَ، ويعلّمونهم الدّين ما حفظَ من أسمائهم شمعون الصفا، وهو رأسُهم، ويُقالُ له: صخرة الإيمان، ويحيى ونومان ولوقا ومديوس وفطرس ويحنس واندرانس وفلبس وجرجيس ويعقوبس وميثا ويعقوب وبالوص، ورُفع عيسى عليه السلام قبْلَ رجوعهِم إليه، وكما يدُلّ التأريخُ عليه كان الملكُ في زمنِ عيسى عليه السلام من الأشغانيّين[2].

---

(١) جاء في معجم البلدان ٢/ ٤٣٤: خفينين: وهي وادٍ بين ينبع والمدينة وقِيلَ: قرية.

(٢) الأشغانيين: هم أحد طبقات الملوك الذين حكموا مملكة إيران أو بلاد فارس قبل الإسلام - صبح الأعشىٰ جـ ٤/ ٤١٢.

قصّةُ أصحابِ الكهفِ:

قال قومٌ: هم فتيةٌ من الرّومِ، ودخلُوا الكهفَ قبلَ المسيحِ فِراراً بدينِهِم، وبعثَهم اللهُ تعالى في الفترةِ بعْدَ المسيحِ، وكانَ من يومِ دخولِهِم الكهفَ إلى يومِ خروجِهم وبعثِهم ثلاثُ مائة وستّين سنةً، وذلك عندَ اختلافِهِم واحدثَ بولس[1] فيهم ما أحدثَ، قالُوا: ولمّا ملكَ دقيانوس[2] دعَا إلى المجوسيّةِ ومَنْ أبى عليه قتلَه ففرَّ هؤلاء الفتيةُ حتّى دخلُوا الكهفَ، وتبعَهم دقيانوسَ فكان الكهفُ لا منفذَ له فسدَّ عليهم البابَ، وكتبُوا كِتاباً فيه أسماؤهم وأسماءُ أبائهم يومَ دخولِهِم الكهفِ، وألصقُوه ببابه، قالُوا وهلكَ دقيانوسَ وتغيّرت الأحوالُ، وقامَ ملكٌ مُسلمٌ اسمُه بيدوسيس واختلفَ قومُه في بعثِ الأرواحِ والأجسادِ فبعثَ اللهُ الفتيةَ آيةً لهُم، واختلفُوا في آسمائِهم، فقَالَ بعضُهم مكلمسينا ويمليخا ومطرسوس وكسوفطوس ويبرونس ودينموس وبطونس وقالوس، وبعضُهم يقول: محثلمينا وطافيون و عصوفر وتراقوس ومرحيلوس وطيلوس ويمليخا وسيا، وهذه القصّةُ في القرآنِ واختلافِها في المعاني بما فيه كفايةٌ.

قصّةُ فطروس الكافر:

قال اللهُ عزَّ وجلَّ **﴿واْضرِبْ لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدِهما جنّتين من أعنابٍ، وحففناهما بنخلٍ، وجعلنا بينهما زرعاً﴾** [الكهف: ٣٢] إلى قوله **﴿لم أُشْرِك بربّي أحداً﴾** [الكهف: ٤٢] قالَ هُما هذانِ الأخَوانِ وَرِثا من أبيهما مالاً، أمّا المؤمنُ فأنفقَ نصيبَه في سبيلِ اللهِ، وأمّا الكافرُ فاتخذَ أثاثاً وضَياعاً، ثمّ جاء المؤمنُ تعرّضَ لأخيه فأخَذَ الكافرُ بيدِهِ يطوفُ به في جنّته، ويقولُ **﴿أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفراً﴾** [الكهف: ٣٤] كما ذكرَ اللهُ في القرآنِ **﴿وأحيط بثمره فأصبحَ يقلّبُ كفّيه على ما أنفق فيها وهي خاويةٌ على عروشها﴾** [الكهف: ٤٢] وبحيرا هو الذي يقولُ يومَ القيامةِ **﴿إنّي كان لي قرين يقولُ أئنّك لمن المصدّقين﴾** [الصافات: ٥٢] الآياتُ في سورة الصافّات.

---

(١) القديس بولس، اسمه الأول شاول، اضطهد المسيحيين بعنف، اهتدىٰ على طريق دمشق نحو ٣٣، وتعمّد على يد حننيا ثم اختلى في شمال جزيرة العرب، باشر بعدها تبشير الأمم الوثنية فكان رسولها الممتاز، يطلق عليه لقب «رسول الأمم» «منجد الأعلام/ ١٥٢».

(٢) امبراطور روماني عُرف باضطهاده للنّاس «عاش في بداية القرن الرابع الميلادي» «منجد الأعم/ ٤٩».

ذكْر اختلافهِم في قصّةِ أصحابِ الكهفِ:

قَالَ قومٌ من المعتزلةِ: يدُلّ أنّه كانَ في زمنِ أصحابِ الكهفِ نبيٌّ من الأنبياءِ، أو كانُوا هم أنبياءَ، أو فِيهم نبيّ لأنّ مثلَ هذه المعجزاتِ لا تجري إلاّ على أيدي الأنبياءِ، أو في زمنهم، وروى ابنُ جريج عن شُعيب الجَبَإيّ أنّ اسمَ الجبلِ الذي فيه الكهفُ ناجلوس، واسمُ الكهفِ حيزومُ، واسمُ الرّجلِ الذي له الكهفُ دلسُ واسمُ المدينةِ افسوسُ، ويُقالُ هي طرسوس[1]، واسمُ الكلبِ حمّران واللهُ أعلمُ.

ذكرُ حبيبِ النجّار:

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿واضربْ لهمْ مثلاً أصحابَ القرية إذ جاءَها المرسلون﴾ [يّس: ١٣] إلى قوله ﴿إنْ كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا همْ خامدون﴾ [يّس: ٢٩] قال قومٌ: إنّ القريةَ انطاكيةُ وأنّ المرسلينَ رُسُلُ عيسى شمعون وبالوص وثالثهمُ شمعان الصفا فأدَّوْهم الرسالةَ فكذّبوهم فجاءَ حبيبُ النجّارِ من أقصى المدينةِ، ونهاهُم عن أذَاهم، وأظهرَ إيمانَه، ويقولُ: إنّه كان نحّاتاً للأصنامِ فهداهُ الله، قالَ ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: فطرحوهُم ووطئُوهم بأقدامِهم حتّى خرجَ قُصْبُهُ[2] من دُبره فوجبَتْ له الجنّةُ، وقال قَتادةُ: خرقُوا ترقُوته، وسلكوا فيها سلسلةً وعلّقُوه من سُورِ المدينةِ فأهلكَهم اللهُ بالصيحةِ والهدّةِ والرجفةِ.

ذكرُ اختلافِ النّاسِ في هذه القصّة:

سمعتُ بعضَ المفسّرين يزعُم: أنّ سُوقَ انطاكيةُ كان المتّصِلُ منها مِقدارَ ما بينَ بلخٍ إلى الري[3]، وهذا قريبٌ من أربعِ مائة فرسخٍ إن كانَ صادقاً في روايتِهِ، وفي قولِهِ: قالوا وأتاهُم جبرئيل عليه السلام وصاحَ بِهِم صيحةً واحدةً فهمدوا فيها وصارُوا رميماً، ومَنْ دَخَل انطاكية رأى قبراً في وسطِ سوقِها منحرفاً عن قُبلةِ المسلمين يزعمون أنّه قبرُ حبيبِ النجّار.

---

(١) طرسوس: مدينة في جنوبي تركيا الآسيوية (فيليقيا)، فيها ولد القدّيس بولس رسول الأمم. فتحها المأمون ٧٨٨ وفيها دفن «منجد الأعلام/ ٤٣٥».

(٢) القُصْبُ: المعي، وهو مصران البطن.

(٣) الرّي: مدينة قديمة في شمال إيران (جنوب شرقي طهران) فتحها العرب في زمن عمر على يد عُروة ابن زيد الخيل، (٢١ هـ) فيها ولد هارون الرّشيد «منجد الأعلام/ ٣١٥».

قصّةُ أصحاب ضروان:

وهي جنّةٌ كانتْ بصنعاءَ في الفترةِ قال اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿إنّا بلوناهم كما بلونا أصحابَ الجنّة إذْ أقْسموا ليصرمنَّها مُصبحين ولا يستثنون﴾ [القلم: ١٧] إلى قوله ﴿كذلك العذاب﴾ [القلم: ٣٣] قالُوا أنّهم كانُوا قوماً مستمسكينَ بشرائعِ الانجيلِ فإذا كانَ أيّامَ صرامِهِم نادَوْا في الفقراءِ والمساكينِ، فكانَ لهُم ما أسقط الطيرُ واخطأ المِنْجلُ، وغيرَ بذلك زمانٌ حتّى هلكَ الآباءُ والأولادُ والأنبياءُ فبخُلوا بذلك، وقطعُوا بذلك العادةَ فأهلكَ اللهُ جنّتهَم وأعقبهَم الندامةَ والحسرةَ كما ذكروا.

قصّةُ سبأ:

وكانَ هلاكُها في الفترةِ باليمنِ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿لقدْ كانَ لسباءٍ في مسكنهم آيةٌ﴾ [سبأ: ١٥] إلى آخرِ الآياتِ الستِّ، وسبأ: اسمٌ للقبيلةِ، وهو أبوهم واسمُه عبدُ شمسٍ بن يعربُ بن يشجُبَ بن قحطان، وسُمّي سبأ لأنّهُ أوّلُ من سبي في العربِ، وكانَ له جنّتان عن يمينِ مساكنهِم وشمالها، ملتفّتان بأنواعِ الشّجرِ، وهي أطيبُ أرضِ اللهِ وازكاها، وكانَ شربهُم من أعلى الوادي من عينٍ تخرجُ من ثقبٍ في أسفلِ الجبلِ، والكُهّانُ قدْ أخبروهم بهلاكِ واديهم من قِبَل عينهِم، فبنُوا عليه بُنياناً بالحجارةِ والرصاصِ حتّى لا يخرجُ الماءُ إلاّ بقَدَرٍ، فلم يزالوا كذلك حتّى كفروا بربّهم وبَطِروا نعمتَه، فأرسلَ عليهم سَيْلُ العَرِمِ فأهلك مساكنَهم ومزارعهَم، وكانَ رئيسُهم عبدُ الله بن عامر الأزديّ رأى في المنامِ كأنَّ الرَدْم قد انبثقَ فسالَ الوادي فأصبحَ وجَمعَ بنيه العشرةُ فأخبرهم بالقصّة، ثمّ باعَ ضياعَه وأموالَه، وتّحولَ إلى بلدِ عُمان فلم يلبثِ القومُ بعدَه إلاّ يسيراً حتّى هلكُوا وفيهم يقولُ الأعشى: [متقارب].

وفـي ذاك للمُـؤتَسِـي إسْـوَةٌ ... ومـأْرِبُ قَفّـى عليـه العـرِم
رُكـامٌ بَنَتْـهُ لـهُ حمْيـرٌ ... إذا جـاء فـوَّارةٌ لـم يَـرِمْ
فـأروى الـزروعَ وأعنـى بهـا ... علـى سَبْعـةٍ مـاءُه إذْ قُسِـمْ
فصـاروا أيـادِ فمـا يقـدرو ... نَ منـه علـى شـربِ طِفْـلٍ فُطِـمْ

ذكرُ اختلافِهم في هذه القصّة:

قيل: إنّ الشمسَ لا تقعُ عليهم لالتفافِ الشجَرِ واكتسائِها، وكانتِ الأَمَةُ تخرجُ من

بيتِها وتضعُ مِكتلها[1] على رأسِها وتمشي ولا تجتني بيدِها ولا ترفعُ من الأرضِ وتنصرفُ وقد امتلأ المِكتلُ، وزَعَم وهْبُ: أنّ الله بعثَ إليهم اثني عشرَ نبياً فكذّبوهُم وردّوهُم فأرسلَ اللهُ على بيتِهم جُرذاً له أنيابٌ ومخالبٌ من حديدٍ، فلمّا بصُر به عبدُ الله بنُ عامر أتى بهرّةٍ فألقاها إليه فأقبلَتْ الهرّةُ منهزمةً فعلِم أنّه أمرٌ من أمرِ اللهِ تعالى، قالَ: وأتى الجُرذُ على البَثْقِ فأهلكهم.

قصّةُ حنظلةِ الصادقِ عليه السلام:

قالَ قومٌ: إنّه كانَ في الفترةِ وهو من أهل بِهراءَ اليمن بعثه اللهُ إلى مدينةٍ يُقالُ لها: حاخور، فقتلُوه فسلّط اللهُ عليهم مِلِكاً من مُلوك بابلَ فقتلَهم بقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿فلما أحسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترِفْتُم فيه﴾ [الأنبياء: ١٣] الآية، وزعَمَ وهبُ أنّ القومَ لمّا هربُوا من السيفِ تلقَّتْهم الملائكة شاهرِينَ سيوفهم فقالوا: ﴿لا تركضوا﴾ [الأنبياء: ١٣] الآية، وزَعمَ آخرون: أنَّ حنظلةَ بُعِثَ إلى قبائلَ مِن ولدِ قحطانَ بعد عادٍ وثمودٍ كانوا نُزُلاً على بئرٍ يُقالُ لها الرسُّ فقتلوهُ وطرحُوه في رَكِيَّتهم فسلّطَ اللهُ عليهم العدوَّ فأهلكَهم واللهُ أعلمُ.

قصّةُ جرجيس:

يُذكُر من أمرِهِ العجائبُ، زعمَ وهبٌ: أنّه رجُلٌ من فلسطينَ وكانَ أدركَ بعضَ الحوارِيّين فبعثَه اللهُ إلى ملكِ الموصلِ، قَالَ فقتلوهُ فأحياهَ اللهُ، ثم قطعوهُ فأحياهُ اللهُ، ثمّ طبخُوه فأحياه الله، حتّى عدّ ضروباً من العذابِ واللهُ أعلم.

قصّةُ خالدِ بن سنان العبسيّ:

ذكرُوا أنّه ظهرتْ نارٌ بينَ مكّةٍ والمدينةِ قبلَ مولدِ النبيّ ﷺ بقليلٍ، وتَغِيبُ بالنهارِ، وتطلعُ بالليل حتّى هابَها الناسُ فألقَتْ عُصِيّها الرُعاةُ، وعبدتها طوائفٌ من العربِ، وسمّوها بداءَ فجاءَ خالدُ بن سنان، وجَعَلَ يضربُها بعصاه ويقولُ ابدُ بدا ابد بدا، حتّى طفِيَتْ، ثُمَّ صاحَ صيحةً، وقالَ لاخوته وعشيرتِهِ: إنّي ميّتٌ إلى تِسْعٍ فإذا دفنتموني فاكتمُوا ثلاثاً فإنّه ستجيءُ عانةٌ يقدمُها عنزٌ أقمر[2] يطوفُ حولَ قبري فإذا رأيتمُ ذلك فانبشُوا عنّي تجدوني حيّا

(١) المِكْتَلُ: زِنبيل من خوص يحمل فيه التمر وغيره.
(٢) الأقمر: الأبيض.

أُخبرُكم بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ، فكان ذلكَ ولم يدعْ بنو أبيه ينبشوا عنه قالوا يكون سُبّةً تعيّرنُا بها العربُ إلى يوم القيامةِ، وروى الضحّاكُ عن ابنِ عبّاسٍ أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لو نبشُوه لأخبرَهم بشأني وشأنِ هذه الأُمّةِ» ولمّا هاجر النبيّ ﷺ أَتَتْهُ ابنةُ خالدِ بن سنان فسمعتْه يقرأُ ﴿قل هو اللهُ أحدُ اللهُ الصمدُ لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكنْ له كُفُواً أحدٌ﴾ [الاخلاص: ٤] فقالتْ كانَ أبي يقرأُ هذا وأخبرتِ النبيَّ ﷺ بأَمْر أبيها فقال «ذاك نبيٌّ أضاعه قومُه» واسمُها محيا بنتُ خالد.

قصّة جُريج الناسكِ:

وكان في الفترةِ زعموا أنّه كانَ زاهداً مترهِّباً وله أمٌ ليستْ دونَهُ في الصلاح الرهبانيّة، وأنّها أَتَتْهُ ذاتَ ليلةٍ فنادَتْه وهو في الصلاةِ فأَبطأ عليها في الجوابِ فقالت: أقامكَ الله مُقامَ المُومِسَات وانصرفتْ، فزعموا أنّ امرأةً بغيَّةً في ليلةٍ شاتيةٍ مَطِيرةٍ استغاثَتْ به فآواها إلى دَيْرِه فجعلتْ تتعرّضُ له، وتدعُوه إلى نفسِها إلى أن غلبتْه الشهوةُ والنَفْسُ فوضعَ اصبعَه في النّار حتّى شغلتْه عمّا همّتْ به نَفْسُه، ولمّا أصبحَ تعلّقتِ المرأةُ وادّعَتْ أنّه أحبَلها تلكَ الليلةَ، وجاءَ القومُ فوضُعوا حبَلاً في عُنقه وجرّوه إلى السُّلطانِ فأمرَ بصلبِهِ فصُلبَ والنّاسُ يلعنونه ويكفّرونُه ويفسّقونه، وجاءتْه أمُّه فقالت: هذا واللهُ بدعائي ثُمّ دعتْ بالمرأةِ ووضعتْ يدَها على بطنِها فقالتْ: مَنْ أبوك، فقال، مِن بطنِ أُمّه: أبي فلانٌ الراعي، فأنزلوا جريجاً وبرّءُوه وأكرمُوه واغزروا إليه، وعرفوا براءَة ساحتِهِ فكانَ بعد ذلك لا يصلّي إلاّ بإذنِ أمّه وإذا دَعَتْه وهو في الصلاةِ قطعَها.

صفةُ المُقْعد والمجذومِ والأعمى:

زعمَ وهبٌ: أنّ اللهَ تعالى بعثَ إلى هؤلاءِ الثلاثة مِلِكاً فابرأهمُ وعافاهُم ومسحهُم وأعطاهُم مُنَاهمُ من الأموالِ والمواشي، حتّى كثرُوا وأثمرُوا، ثُمّ بعثَ إليهم ذلك الملكَ في صورةِ مسكينٍ سائلٍ لهمُ يسألهمُ ويذكرُهم أيّامَ الله والحالَ التي كانتْ قبل، فأنكرَ اثنان منُهم مسكنتَهما وعلّتَهما وفقرَهما، وأقرَّ الثالثُ، وقالَ: بلى كنتُ مُقعداً فشفاني اللهُ وعائلاً فأغناني اللهُ فهاك شطرَ مالي شكراً للهِ، قال فباركَ اللهُ فيما رزقَه وخسفَ بأموالِ الأعمى والمجذومِ وأعادهما إلى حالِهما الأُولى، قال: وفيهم نزلَتْ ﴿ومنهم مَنْ عاهَد اللهَ لئن آتانا من فضله لنَصَّدّقنَّ ولَنكونَنَّ من الصالحين﴾ [التوبة: ٧٥].

قصّةُ شمسُون:

زَعمَ بعضُهم: أنّ هذا كان نبيًا وكانَت معجزتُه في شَعْرِهِ وكان لا يُطاقُ ولا يقاوَم لفضلِ قوّتِهِ وبطشِهِ وشدّةِ سطوتِهِ، فلمّا أعيى القومَ الذين بُعث إليهم أَمْره دسّوُا لامرأتِهِ في جَزِّ شَعْرِهِ فجزَّتْهُ، وبقي كالمقصوصِ من الطيرِ، ثُمّ أخذوه وقطعُوا يديه ورِجْليه، ويُقالُ: كان لهمُ عيدٌ عظيمٌ عندَ صنمٍ لهمُ في بناءٍ مُشْرِف عالٍ فقال لهم شمسُون: لو أخذتموني إلى صنمكم هذا لأمسُّه، وأَسْتَلِمُه، فحملُوه إليه، ووضعوه بينَ أيديه فضربَ بقطعتهِ الصنمَ فانهدّ البناءُ على القومِ حتّى ما أَفلتَ إلاّ مَنْ شذَّ وردَّ اللهُ عليه يديه ورجليهِ، وقال: وفيه نزلتْ ﴿قد مكرَ الذين من قبلهمِ فأتى الله بنيانهم من القواعدِ فخرّ عليهم السَقْفُ من فوقهم﴾ [النحل: ٢٦] فهذا جميعُ ما وجدناه ورُويناه في كتابِ اللهِ وكتبِ أصحابِ أخبارِ الأنبياء وذكرِ الرُسُلِ مُذ قامتِ الدّنيا إلى مبعثِ نبيّنا محمّد ﷺ وقد أوجزناها واختصرناها ونسألُ اللهَ التوفيقَ والتسديدَ إنّه على ما يشاءُ قديرٌ.

الفصل الحادي عشر

في ذكرِ ملوكِ العربِ والعجمِ وما كان من مشهورِ أمرهمِ وأيّامهمِ إلى مبعثِ نبيّنا ﷺ

زعمت الأعاجمُ في كتبها والله أعلَم بحقّها وباطلِها أنّ أوّلَ مَنْ مَلك من بني آدمَ اسمهُ كيومرّث، وأنّه كان عرياناً يسيحُ في الأرضِ، وكان ملكهُ ثلاثين سنةً وقد قالَ المسعوديُّ[1] في قصيدته المحبَّرة بالفارسيَّة: [هزج].

نخستيـن كيـومـرث امـذ بشـاهـي كرفتش بكيتي درون بيش كاهي
جوسي سالي بكيتي باذشا بوذ كي فرمانش بهر جايي روا بوذ

وإنّما ذكرتُ هذه الأبياتِ لأنّي رأيتُ الفُرْسَ يعظّمونَ هذه الأبياتِ والقصيدةَ، ويصوّرونها ويرونها كتاريخٍ لهم، ومنهم مَنْ يزعمُ أن كيومرثَ كان قبلَ آدمَ، قالوا: ثُمّ ملَكَ هوشنك پيش داذ ومعناه: أوّل حاكمٍ حكمَ بين الناسِ، وأوّلُ من دَعا الناسَ إلى عبادةِ اللهِ، وأوّلُ مَنْ كتبَ بالعِبْريّةِ والفارسيّة واليونانيّةِ، وزعمَ بعضُهم: أنّ هذا بمنزلةِ إدريس النبيّ ﷺ، أو هو إدريسُ، وهو هوشنك بن فراوك بن سيامك بن ميشى بن كيومّرث، وعند بعضهِم أنّ ميشى هو آدمُ نبتَ من دمِ كيومرث مع اختلافٍ كثيرٍ وتخليطٍ ظاهرٍ واللهُ أعلمُ، قالوا وكان ملكه أربعين سنةً، وهو الذي قدّر المياهَ، وحضَّ الناسَ على الزراعةِ، وأمرَ بالطحينِ، وعرّفهم منافعَ الطعامِ والشرابِ، قالوا ثُمّ بقيتِ الأرضُ بعدَ وفاتهِ ثلثمائة سنة بغيرِ ملكٍ حتّى ملكَ طهمورث بنُ بوسكهيار بن اسكمد بن نكمد بن هوشنك، وهو الذي أمرَ الناسَ باقتناءِ الأنعامِ والانتفاعِ بسِلائها وأصوافها وأوبارها، وفي أيّامهِ ظهرَ رجُلٌ بأرضِ

(١) أبو عبد الله محمد بن المسند بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودي النبجديهي المروزي الصوفي إمام محدّث فقيه لغوي ولد (٥٢٢) ومات (٥٨٤) «سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٧٣».

الهندِ ودَعا الناسَ إلى ملّةِ الصابئين اسمهُ بوذاسف، فتفرّق النّاسُ واختلَفَت أديانُهم، ووقعتِ المحاربةُ بينَه وبينَ الشياطينَ فنفاهُم وطردَهم، وزعَم بعضُهم: أنّه اتّخذَ إبليسَ مركباً وأسرجَه وألجمه وركِبه يجولُ به الآفاقَ حيثُ شاءَ، وزعَم بعضُ المتأوّلين أنّ معنى ركوبِهِ ابليسَ وإلجامِهِ قهرهُ إيّاه وعصيانُه عليه بطاعةِ اللهِ، وكانَ ملكه ثلاثين سنةً، ويُقالُ ألفاً وثلاثين سنةً، ثُمّ ملكَ جمُ شاذ ومعنى شيذ: الشعاعُ والضياءُ وهو جم شاذ بن خرمه بن ويونكهيار بن هوشنك فيش داذ، ويصفون هذا الإنسانَ بمعجزاتٍ وعجائبَ فمنها: أنّهم يزعمُون أنّه ملكَ الأقاليمَ السبعةَ، وملكَ الجنَّ والإنسَ، وأنّه أمرَ الشياطينَ فاتّخذوا له عَجلةً فركبها، وجعل يسيرُ في الهواءِ حيثُ يشاءُ، وأنّه أوّلُ يومٍ ركبَها كانَ أوّلُ يومٍ من فروردين ماه، فاطّلع بنورهِ وبهائِهِ فسمّى ذلك اليوم النيروزُ، وأنه استأثَر علَم النجومِ والطبِّ، واتّخذَ القوارير والآجُرّ والنُّورة والحمّامَ ويزيدون وصفَه على ما وُصُف به سُليمان ابنُ داود النبيّ، ويزعمون انّه كانَ مُجابَ الدعوةِ، وسأل ربَّه أن يرفعَ عن أهلِ مملكتِهِ الموتَ والسُقمَ فكثرَ الخلقُ حتى ضاقتْ بهم الأرضُ فسأل ربَّه أن يوسّعَها لهمُ فأمرَه اللهُ أن يأتي جبلَ ألْبُرْزَ، وهو جبلُ قافٍ محيطٌ بالأرضِ فيأمره أن يتّسع ثلثمائة ألف فرسخٍ في دَوْر الأرضِ ففعلَ، قالُوا ثُمّ طغى وكفرَ عندَ ما رأى من صُنْعِ اللهِ له فسقطَ إلى الأرضِ، وذهبَ بهاؤه وشُعاعهُ، وهربَ يجولُ في الأرضِ مائةَ سنة، ثُمّ ظفر به الضحّاكُ فنشرَه بالمنشارِ، وأعلَم أنّ من آمن بمعجزاتِ الأنبياءِ يلزمُه الإيمانُ بمثلِ هذه الأشياءِ إذا صحّتْ من جهةِ النقلِ والروايةِ، فإن كانَ ما ذكُروا من هذا حقًّا فالرجُل نبيٌّ لا شكَّ، وإنّ كان غيرَ ذلك فَوضْعٌ وتزويرٌ، والله أعلم، ثُمّ ملك بيورسب وهو الضحّاك يُقالُ له اژدهاق ذو الحيّتين والأفواه الثلاثة والأعيُنِ الستّ الداهي الساحرُ الخبيثُ المتمرّد، ومعنى بيورسب: أنّه كانَ له اثنا عشرَ ألف مركبٍ، ورفعتِ الفُرسُ نسبه إلى نوحٍ بأربعةِ آباءٍ فقالُوا بيورسب بن اروند بن طوح بن دابه بن نوح النبيّ واللهُ أعلمُ، ويصفون من أمرهِ ما لم يُوصَفْ به نبيٌّ، ولا يجوزُ القُدرةُ عليه لبَشَرٍ فمن ذلك: أنّهم قالُوا: ملَكَ الأقاليم السبعةَ، وكَانَ عمِلَ في محلّتهِ، وهو نازلٌ فيها ـ سبعَ مشاراتٍ لكلِّ اقليمٍ مشارةٌ، وهي منفخةٌ من ذهبٍ، فكلّما أرادَ أن يُرسلَ سَحره على اقليمٍ موتاً أو رَزيةً أو مجاعةً نفَخَ في تلك المشارةِ فأصابَ ذلك الأقليمَ من معرّتهِ بقدرِ نفخه، وكانَ إذا رأى في تلك الإقليمِ جاريةً حسنةً أو دابّةً فارهةً[1] نفَخَ في

---

(١) دابة فارهة: نشيطة وخفيفةٌ.

المشَارةِ[1] فاجترّها إليه بسحرِه، وإنّ إبليسَ أتاهُ في صورةِ غُلامٍ فقبّلَ منكبَيْه فنبتتْ منها حيّتان طعامُها أدمغة النّاسِ، فجعلَ يقتلُ كلَّ يومٍ غُلامين لذلك حتّى اشتدّ ذلك على النّاسِ وملُّوا الحياةَ، وكان ملكُه ألفَ سنةٍ إلاّ يوماً ونصفَ يومٍ، ثُمّ رأى في المنام كأنّ ملكاً نزلَ من السماءِ فضربَه بمقمعٍ من حديدٍ فوثبَ من نومهِ مَرُوعاً ملعوناً مَصُوعاً مطعوناً، وقصّ رؤياهُ على المنجمّينِ والهرابذةِ، قالوا: يُولَدُ مولودٌ حتّى يكونَ انقضاءُ ملكِكَ على يديه فأمَر بقتلِ كلِّ مولودٍ ذَكَرٍ، قال: وأُتِي بأُمّ افريذون الملكِ، وهي حاملٌ بهِ وبجاريةٍ، فأمرَ القابلةَ أن يُدخَل المُوسَى قُبُلَها فتقطعُ الولدَ في بطنها، قالوا: فدفَع الغلامُ الجاريةَ نحو الموسى بإلهامِ اللهِ إيّاهُ فقطعتها، وأخرجتها، وخلّي سبيلُ أُمّ افريذون فوضعتْ به وأَخْفَتْه عن النّاسِ، وكان افريذون يشبُّ شباباً حسناً، وهذا نظيرُ قولِ أهلِ الكتابِ في يعقوب وعِيصُو، والقصّةُ شبيهةٌ بقصّةِ مولدِ إبراهيم عليه السلام حتّى لقدْ قَالَ كثيرٌ من المجوسِ: أنّ افريذون هو إبراهيمُ واللهُ أعلمُ، قالُوا: واجحفَ قتلُ الولدان بالرعيّة وانتقصتْ، فخَرَج رجُلٌ باصفهان يُقالُ له كاوِي وعقدَ لِواءً مِن مَسْكِ جَدْيٍ، ويُقالُ: من جلدِ أسدٍ، ودعا النّاسَ إلى محاربةِ الضحّاكِ فهابهم وهربَ مِنهمُ، ثمّ أخذوا افريذون فملّكوه وأقعدوه على السريرِ، وخرجَ افريذون في طلبِ الضحّاكِ فظفَر به وشدّهُ وعقلَه في جبالِ دوماند[2]، وكان ذلك اليومُ يومَ المهرجانِ فعظّمته الفُرسُ، واتّخذتْه عيداً، وكان لبيورسب طبّاخٌ يُقالُ له ازمايل، وكان إذا دُفعَ إليه الغلمان للذبحِ استبقى أحدَهما ونفاهُ إلى الصحاري، يُقالُ: فمنهم الأكرادُ، قالوا: وتيمّنتْ الفرسُ بذلك اللواءِ فصيّرتْه بالذهبِ والديباجِ، ولم يزلْ محفوظاً عندَهم إلى أن أقامَ الإسلام، واعلَم أنّ كثيراً من هذهِ القصّةِ شبيهٌ بأمرِ الأنبياءِ عليهم السلام، وكثيرِ تُرّهاتٍ ووساس، فأمّا الحيّتان اللتان نبتا من منكبَيْه فهُما سِلعتان خرجتا عليه ويُشْبِهُ أن يكونَ أمران يُطليهما بدماغِ النّاسِ، وإنّما تملّكهُ الأقاليمَ السبعَة وسحرُه فيها فكأنّه كان دعوىً منه وتمويهاً على النّاسِ بأنّه يجترّ إليه ما شاءَ ويُرسلُ على الأقاليمِ السبعةِ ما شاءَ يخوّفهم بذلك، ويُعظّمُ أمرَهُ وبسطته وقدرته كما كان يقولُ فرعون: ﴿أنا ربُّكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] وكانَ يعلمُ أنّه كاذبٌ في دعواه، وقد أخبرناك في غيرِ موضعٍ أنّ مثلَ هذه الآياتِ لا يخلو من

---

(١) المشارة: الكَرْدة. «القاموس المحيط/ جـ ٢».

(٢) دَماوَند: أعلى قمة في جبال ألبرز (إيران) نحو ٦,٣٠٠ م، هناك سبعون فوهة بركانية وينابيع مياه كبريتية ومعادن الفحم الحجري، أول من تسلّقها من الأوروبيين أوليفيه (١٧٩٨ م) «منجد الأعلام/ ٢٨٧».

وجوهٍ ثلاثةٍ إمّا أن يكونَ مُعجزةً لنبيّ أو في زَمَنِ نبيّ فقد جُرَّ إلى سُليمان عرشُ بلقيسَ كما قِيلَ، أو يكونُ وضعاً وتمويهاً وتصرّفاً وتمثّلاً، غيرَ أنّ المَؤُونةَ في السماعِ خفيفةٌ، وفي معرفةِ قِصَصِ الأوائلِ وأخبارِ القدماءِ عِبَرٌ في هذهِ العجائبِ مُناقضةُ على من يُنكرُ من المجوسِ معجزاتِ الأنبياءِ عـم وهو يَرُوجُ على أصحابِهِ امثالَها.

[قصة ملك أفريذون]:

ثم ملك افريذون وهو التاسع من ولد حام بن نوح قالُوا أيضاً: وهو مَلكَ الأقاليمَ السبعةَ، وأمرَ النّاسَ بعبادةِ اللهِ بعد ما كان أضلّهم بيورسب، وردَّ المظالم إلى أهلِها، وقامَ بالحقّ والعدلِ، وفي زمانهِ تكلّمت الفلاسفةُ ووضعوا الكُتُبَ، وقرأتُ في بعضِ سِيرَ العجمِ أن إبراهيم عـم وُلِدَ سنةَ ثلاثين من مُلكِ افريذون، بعد ما قَالَ بعضُهم: إنّه هو إبراهيمُ بعينهِ، وقَالَ آخرون: إنّه انقضى أمرَ إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ ويوسفَ وموسىٰ ويوشعَ وكاليبَ وحزقيلَ في مُلك الضحّاكِ، وأنّه بقي إلى أنْ أغرقَ اللهُ فرعون، وكانَ عاملاً له على مِصَر وإلى أن خرج فرع بنهبْ ملكٍ من ملوكِ العمالقةِ من ناحيةِ اليمن، ثُمّ خَرج عليه كاوي وافريذون واللهُ أعلمُ، قالوا: وكانَ لافريذون ثلاثةُ بنين سلم وطوج وايرج فقسّم الأرضَ بينهم أثلاثاً، فصارَ التُركُ والصينُ لطوج، وصارَ الرومُ والمغربُ لسلم، وصارَ العراقُ وفارسُ لايرج، ثُمّ طلبَ لثلاثِ إخواتٍ متّفقاتٍ في الحسنِ والجمالِ ليزوّجهنّ ببنيه الثلاثةِ فوجدهنّ عندَ فرعِ بنهب فزوّجهنّ إيّاهمُ، قالُوا: وحسدَ سلمُ وطوجُ ايرجَ، وكمان بغرهُم فقتلاهُ فدَعا افريذون ربّه أن لا يُميتُه حتّى يرى من نسلِ ايرج مَنْ يطلبُ بثأره، قال: وقعَ غُلامُ من نسلِ ايرج إلى أرضِ خراسان فكثُر بها، وتناسلَ، وملَكَ وتكاثفَ جمعهُ، ثُمّ خَرجَ من عقبهِ رجلٌ اسمهُ منوجهر فجاءَ طالباً بثأرِ أبيه، وقَاتلَ سلماً وطوجاً بأرضِ بابلٍ، وقتلَهما ودعاهُ افريذون ووضعَ تاجَ الملكِ على رأسِهِ، وخرَّ لهُ ساجداً إذا استجابَ اللهُ فيه دُعاءَه، وماتَ من ساعتِهِ، قالُوا: وكانَ ملكُ افريذون خمسَ مائة سنةً، وفيه يقولُ بعضُ الشعراء: [رمل].

وقسمنـــا مُلكِنـــا فـــي دهـــرنـــا	قسمْةَ اللّحم على ظهرِ الوَضَمْ[1]
فجعلْنـــا الشـــام والـــرّوم إلـــى	مغـرب الشمس لغطـريـف سلمْ
ولطـــوجَ جعلنـــا ٱلتُـــرْكَ لـــه	وبـــلاد الصيـــن يحييهـــا بـــرغـــمْ

(١) الوَضَم: خشبة الجزّار التي يُقطع عليها اللحم.

ولإيـــــرَجَ جعلنـــــا عبـــــرةً   فـــارس الملـــك وفُـــزنـــا بـــالنعـــمْ

[قصّة ملك منوجهر بن منشخور]:

ثُمَّ ملك منوجهر بن منشخور العاشر من ولد ايرج وهو صاحب زمن موسى عليه السلام، زَعمَ قومٌ أنّه في زمانهِ بُعِثَ موسى عليه السلام إلى أرضِ مِصرَ، قالتِ الفُرسُ: وكانَ ملكُه مائةَ وعشرين سنةً، وخَرجَ عليه افراسيابُ التركي، وكانَ من نسلِ طوج يطلبُ قَتَلةَ أبيه، وحاصَره سِنِين، ثُمّ تراضَوْا على أن يُعطيه افراسيابُ قدْر رَمْيَةٍ من مملكتِهِ، فأمروا رجلاً يُقالُ له آرِش أن يرمي وكان أيِّداً ثَقِفاً[1] فاتّكأ على قوسِه فاغرقَ فيها، ثُمّ أرسلَ سهمَه من طبرستان فوقَع بأعلى طخارستان، ومات آرشُ مكانَه ثُمّ اختلفُوا فزعمُوا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرسلَ ريحاً فاختطفتِ النشّابةَ حتّى وقعت حيثُ وقعتْ، وزعم بعضٌ: أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ بعثَ ملكاً فاحتملَها ووضَعها بحيثُ وضَع، فإن لم يكُنْ ثَمَّ نبوّة فالمعنى واللهُ أعلَم أنّهما تراميَا والخطَرُ لمن فضلَ وغلبَ من طبرستان إلى طخارستان، هذا إذا صحَّ الخبر واللهُ أعلمُ وأحكمُ.

[قصة ملك أفراسياب التركي]:

ثمّ ملك افراسياب التُركي فعاثَ، وأفسدَ، وخرّبَ الديارَ، وعوّر الأنهارَ، وقالَ قومٌ: ملكَ الساعونَ في هلاكِ البريّةِ سعياً أن ينشا له خَلْقٌ جديدٌ فَقدْ طالَ مكثُهم، قالُوا: وحبس المطرُ عن النّاسِ والحيوانِ، ثُمّ ملَكَ رجلٌ لم يكنْ من أهلِ بيتِ الملكِ يُقالُ له زوُ بن طهماسب فطردَ افراسياب، وألحقَه ببلادهِ، ثُمّ ملك كيقباذ من ولدِ افريذون مائةَ سنةٍ، ثُمّ ملَكَ كيكاوس ابنُ كايونه بنِ كيقباذ، وهو الذي سارَ إلى حِمْيَر لقتالِهم فأسروُه وحطّوُه في جُبٍّ، وأطبقُوا عليه حجراً فيه ثُقبةٌ يُطرَح له كلَّ يومٍ شيءٌ من الطّعامِ، وكانت سُعْدَى بنتُ ملك حِمْيَر تلاطفُه وتُطعمُه إلى أنْ خرجَ رُسْتَمُ من سِجِستان لنصرتهِ، فاستنقذَه ويذكرون في صفتِهِ من العجائبِ.

قصّةُ رستم كيف استنقذ كيكاوس من وَثَاق حمير:

زعموا أنّ كيكاوسَ كان مظفّراً مصنوعاً له في كلِّ حالٍ، فخَطَر منه الإطّلاعُ إلى السماءِ ثقةً منُه بما كانَ اللهُ أتاهُ من العزِّ والظفرِ خطرة ضلالٍ فبنى الصَرْحَ الذي ببابَل،

(١) ثقفاً: حاذقاً.

وصعِده فغضبَ اللهُ عليه وتخلّى فاتّضعتْ رفعتُه، وافتقرتْ مقدرتُه، وبعثَ اللهُ ملكاً فضربَ بناءَه بسَوْطٍ من نارٍ فقطَعه وهدَّه، واستعصَتْ عليه الملوكُ، فخرَجَ إلى ملكِ اليمنِ، وقاتلَه، وكانتِ الدائرة عليه فأخذوه وأسروه واستوثقوا منه كما ذكرنا؛ وفي هذه القصّةِ مشابهةٌ من قصّةِ نمروذ كما يُروَى، قالُوا: فخرجَ رستمُ من سِجِستان في جمع عظيمٍ، وسأل العنقاءَ أن تخرجَ معَهُ، فقالت: هذه ريشةٌ من جَناحي فإن احتجْتَ إليّ فدخِّنْها حتّى آتيك في يومِكِ، ومرَّ رستمُ حتّى وردَ اليمنَ وقاتلَهم قِتالاً شديداً، قالوا: وكانَ ملكُ حميرَ ساحراً فاحتملَ مدينتَه بسحرِهِ وعلّقَها بينَ السماءِ والأرضِ، فدخّنَ رستمُ ريشَ العنقاءِ فإذا هو بها فحملتْ رستمُ على ظهرها، وأخذتْ فرسَه بمخالبها، وطارتْ في جوِّ السماءِ حتّى إذا حاذتِ المدينةَ انقضّتْ، ولها دَوِيٌّ فنزلتْ بهِم فقتَلَ منهم رستمُ مقتلةً عظيمةً، وأخرجَ كيكاوس من الجُبِّ، وأخرجَ سُعْدى معهُ وردَّهما إلى أرض بابل، ثُمّ ذكرُوا حالاً وقعتْ بين سعدى وبين سيَاوُشَ بنِ كيكاوس مِثْلَ قصّةِ يوسفُ وزَليخا التي راودتْه عن نفسهِ سواءٌ؛ قالوا: وإنّ سُعْدى شغُفت به واحتالتْ في استمالتهِ، وإنْ لم يُجِبْها إلى ما سألته فسعَتْ به إلى أبيه حتّى حبسَه، وهَمَّ بقتلهِ وبلغَ الخبرُ رستمَ فعلِمَ أنّهُ من كيدِ سُعدى ومُكْرِها، فجاءَ واستخرجَها من بيتِها، وقطَع رأسَها ثُمّ إنّ سياوُش قُتِلَ بأرضِ التركِ، وكانَ ملكُ كيكاوس مائةَ وخمسين سنةً، وكلُّ ما ذكرنا في هذه القصّةِ ممكنٌ غيرُ ممتنع إلاّ قصّةُ عنقاءَ، وقد حُكى أنّ في جهةِ الجنوبِ طيراً يحملُ دابّةً مثلَ الفيلِ أو أعظمَ منها، ويُذكر في بابِ القضاءِ والقدرِ خبرٌ أنَّ جاريةً حملتْها عنقاءُ في عهد سُليمان عليه السلام، واللهُ أعلم، ثُمّ ملَكَ بعدَ كيكاوس كيخسرَو بنُ سياوش بنُ كيكاوس ستّين سنة، ثُمّ ملَكَ كَيْلُهراسب الجبّارُ مائةَ وعشرين سنة، وهو الذي أخربَ بيتَ المَقْدس، وشرَّدَ مَنْ كان بها من اليهودِ، وهو الذي بنى مدينةَ بلخ الحسناءَ، ثُمّ ملَكَ بعدهَ ابنهُ كشتاسب بنُ كيلهراسب، وفي زمانهِ ظهرَ زردشت نبيُّ المجوسِ، ودعا الناسَ إلى المجوسيّةِ فأجابَه ودان له، ثُمّ وضَع بيتَ النيرانِ ووكّلَ بها الهرابذَة، وقَتل مَنْ خالفَه، وهو الذي سمّى بهران جدُّ بهرام جوبينة بالرَيِّ إلى شرفِ المرتبةِ، ثُمّ ملكَ بهمن بنُ اسفنديار بن كشتاسب مائةَ واثنتي عشرةَ سنةً، ثم مَلكَت هماي بنتُ بهمن، ثُمّ ملَكَ دارا بنُ بهمن وهو دارا الأكبرُ.

قصّةُ هماي ودارا:

زعمُوا أنَّ هماي كانتْ حاملاً من أبيها بهمن عندَ هلاكهِ، وأنّها لمّا وضعتْ حملتْه في مَهْده[1]، واسترضعتْه في قومٍ واعطَتْهم مالاً جليلاً، وأخرجتْهم من دارِ ملكِها فخرجَ القومُ

---

(١) المَهْدُ: الموضع يهيّأ ويوطّأ للصبّي.

بابنها وركبُوا السفينة حتّى إذا بلغُوا المذارَ عصفتْ بهم الريحُ فغرقتِ السفينةُ ومَنْ فيها، وطفا المهدُ فوقَ الماءِ حتّى وقعَ إلى قَصَّارٍ على شاطىء دِجلة يغسلُ الثيابَ، فأخذَ المهدَ فإذا فيه صبيٌّ وبجنبهِ سَفَطٌ فيه من الجواهرِ النفيسةِ والياقوتِ الأحمرِ ما لا يقدَّرُ قدرُه، فحملَه الرجلُ إلى منزلِه وجعلتْ إمرأتُه تُرضعُه إلى أنْ ترعرعَ ونشأ مع صبيانِهم، ثُمّ سلّمُوه إلى الأدبِ فتأدّبَ وكانَ ذكيًا نقيًا فنازعتْه نفسُه إلى أدبِ الفرسانِ، وتحرّكَ إلى ذلك عِرْقُه فلمّا رأى القصّارُ ذلك صرفهُ إليهم فنفذَ في ذلك أيّاماً وحذَقَ وفاقَ استاذيه، ثُمّ لمّا بلغَ نَظَر في نفسهِ وفي ولدِ القصّار فلم يَرَ فِيهم أحداً يُشبّهه ويشاكلُه، فساءَه ذلك، ونفرتْ نفسُه مِنهم، وقال للقصّار: لستُ أُشبّهكم ولا تُشبهونني فاصدقني عن نفسي وعن نفسِك، وكان يُنسَبُ إليه فأخبرَه بخبرهِ كيفَ كانَ فهيّأ الغلامُ وأخذ سِلاحَه، وركَب فرسَه، وقصدَ بابَ الملكةِ هُماي، وهي متصيّفةٌ بماسبذان قد هيّئَتْ ميداناً للفُرسانِ يلعبُون فيه بالصوالجةِ ويرمُون بالنشّابةِ، وهي مُشرفةٌ عليهم فوقَ مظلّةٍ فمَنْ أصابَ وأجادَ أجزلتْ له الجاهَ والتكرمَة، فدخلَ الغلامُ الميدانَ فقالُوا له مَنْ أنتَ؟ فقال: لا عليكمُ أن تسألوني عن نسبي حتّى يتبيّنَ لكُم أثري، وذلك أنّه استحيا أن يعتزيَ إلى القصّارِ فالتقفَ من أيديهم الكرةَ فبلغَ به الشأوَ في ركضهِ أخذه، ثُمّ أخَذَ القوسَ والنشّابةَ ونضلَهم، ثمّ أخذَ الرمحَ فثقفهم، ثُمّ راكضهم فسبقهم، وهماي في المنظرةِ مشرفةٌ عليهم معجبةٌ به مع صباحةِ وجههِ وحداثةِ سنِّهِ وكثرةِ شبههِ بها، فقَالَ: إنْ رأَت الملكةُ أن تعفيني من هذه الخَصْلةِ فإنّي والناسُ كلُّهم عبيدُها، ثُمّ درَّ ثدياها وتحرّكتْ نفسُها فنهضتْ من مجلسِها وقالتْ للحاجب: إيذنْ له فَدخَل، وقَالتْ اصدقني عن نفسِك فَقْد أنكرتُ نفسي فيك، فاخبَرها بما أخبرهَ به القصّارُ فوثبتْ إليه وعانقتْه وقالتْ: ابني واللهِ ودعَتِ النّاس، وأخبرتْهم القصّة، ووضعتِ التاجَ علبى رأسهِ، وقَالتَ: هذا مِلكُكم، وكانَ ملكُها ثلاثين سنة، ودارا كان شجاعاً حازماً فضبطَ المملكة، وغزا الرومَ فقَتلَ مقاتلَها وسبى ذراريها، وأتى بملكِها أسيراً حتّى ماتَ في حبسهِ حتفِ أنفهِ، ووظّفَ عليهم الفديةَ، وكان ملكُه اثنتي عشَر سنةً، ثُمّ ملكَ ابنه دارا بنُ دارا الأصغرِ الذي بنى مدينة دارا[1] بأرضِ نصيبين، وبنى دارا بجرد بأرضِ فارس، وهو الذي قتلَه الاسكندرُ.

---

(١) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين «معجم البلدان ٢/ ٤٧٧».

وهذه قصّة دارا والاسكندر:

قالُوا: إنّ دارا الأكبرَ قَتلَ ملكَ الرومِ، وأخَذَ منهم الفدية فلمّا ماتَ وصارَ الأمرُ إلى ابنِهِ دارا الأصغرِ كتبَ إلى فيلقوس أبي الاسكندرِ، وكانَ ملكَ بلادِ اليونانيّين، فبعثَ إليه بالجزيةِ، وكانتْ أرضُ الرومِ حينئذٍ طوائفَ لم يكنْ لهمُ ملكٌ يجمعهم، فلمّا ماتَ فيلقوس، وصَارَ الأمْر إلى الإسكندرِ جمَعَ مُلكَ الرومِ إلى نفسهِ، ولم يحملْ إلى دارا الخراجَ الذي كان يؤدّيه أبوه، فكتبَ إليه دارا يُؤنّبُهُ بسوءِ صنيعهِ، ويُعيّرُه بحداثةِ سِنّه، وبعثَ إليه بصولجان وكُرةٍ وقفيز سِمْسمٍ يُريدُ به أنّكَ صبيٌّ تلعبُ، وأنّ عسكري في عددِ السمسمِ كثرةً، فنظرَ إليه الإسكندرُ واعتذَر إليه، وحلفَ أنّه لم يأمُر به ولم يأتِ لقتله، وإنّما كانَ يطلبُ الفديةَ، كما كانَ آباؤُهم يُؤدّونها إليه فزوّجه دارا ابنته روشنك، وقالَ: إنّها ملكةٌ وأنتَ مَلِكٌ كفؤٌ لها، وسألَه أن يقيدَ مَنْ قاتلَه، وأنْ لا يهدم بيوت النيرانِ، ولا يهيّجَ الهرابذة، قالُوا: فملكَ الاسكندر أربعةَ عشرَ سنةً، وهدَم بيوتَ النيرانِ، وقتلَ الهرابذةَ، وأحرقَ كتابَ دينهمِ الذي جاءهم به زردشتْ، وقيلَ: إنّه كانَ مكتوباً في اثني عشرَ ألفِ جلدٍ من جلودِ البقرِ فيه مذكورٌ كلُّ ما كان وما هو كائنٌ إلى قيامِ الساعةِ حتّى مُلكِ العربِ ومُدّةِ أيّامهم، قالُوا: وهمَّ الاسكندرُ بقتلِ ملوكِ المشرقِ لما رأى من هيئاتهم وعددهم فكتبَ إلى مُعلّمه أرسطاطاليس، وكانَ خلّفَه لكبرِ سنّه إبقاءً أو شفقةً عليه يستشيرهُ ويوامرهُ فيهم فكتبَ إليه أنّ الأحرارَ وذوي الاحسابِ أنْصَحُ للملوكِ وأوفى عهداً من سلفهم وعبيدِهم، وممارسةُ الرُؤساءِ أيْسَرُ من ممارسةِ الأخِسّاءِ ولكنْ فرّقهم وعُصّبْ بينهم، واجعلْهم طوائفَ، قَالَ فصيّر ما بينَ فرغانة[1] وقشمير[2] إلى أرض الشام سبعين ملكاً لا يكونُ لأحدِهم على الآخرِ طاعةٌ، ثُمّ رفعَ البلادَ، وفتَح الهندَ، وغلبَ على الصينِ، وكثيرٌ من الناس يرَوْن هذا ذا القرنينِ وكان قِيلَ له: إنّ موتَك يكونُ بأرضٍ بابلَ على أرضٍ من حديدٍ تحتَ سماءٍ من ذهبٍ، فلما استوسقتْ له الأُمورُ وألقتْ إليها بأزِمّتها أرادَ أن يقطعَ البرّيّةَ إلى الاسكندريّةِ وتطيّر من دخولِ بابل فِراراً من القَدر فانتهى إلى ناحيةِ السوادِ، وغلبه النومُ فطرحَتْ تحتَه الأمَةُ دِرْعاً فاضطجعَ عليها، وأظلّ عليها بمحفّةٍ من ذهبٍ فلما انتبه نظَرَ إلى حالتِهِ فاستيقَن بالموتِ، فأوصَى أنْ تجعل جُثّتُه في تابوتٍ من زُجاجٍ، ويحمُل إلى الاسكندريّةِ، وكتبَ إلى

---

(١) فَرغانةَ: وادٍ على نهر سردريا في جمهوريات ازبكستان وتادجيكستان وقرغيز، يشتهر بزراعة القطن والكروم، فيه مدينة فتحها العرب بقيادة قتيبة بن مسلم (٧١٢) «منجد الأعلام/ ٥٢٤».

(٢) قشمير: مدينة متوسطة لبلاد الهند. «معجم البلدان ٤/ ٤٠٠».

والدتِه كِتاباً بالوصاةِ والتعزيةِ، وجعلَه دَرْجَ كتابٍ.

مضمون ما في الدَرْجِ:

إذا أتاكِ كتابي هذا فاصنعي طَعاماً وادعي الناسَ إليه، ولا تأذني لأحدٍ في تناولِ شيءٍ من طعامِك إلا مَنْ لم يُصَبْ بِأَبٍ ولا أُمٍّ ولا أخٍ ولا أُختٍ ولا ابنٍ ولا ابنةٍ ولا قريبٍ ولا حبيبٍ، ثُمّ فكّي الكتابَ المُدْرَجَ فيه، واعملي عليه، واتّعظي بالله والسلام.

ففعلتِ الوالدةُ كما أمرَ فلم يمسَّ أحدٌ من النّاسِ شَيْئاً من الطّعامِ، ثُمّ فكّتِ الكتابَ، وقرأتْه ولم تدمعْ عينُها، ولا تغيّرتْ حالتُها لبليغِ عظَتِهِ وحُسنِ وصيّتِهِ، قالُوا: ولمّا وُضِعَ الاسكندرُ في تابوتِهِ قامتِ الحكماءُ الذين كانوا يصاحبونَه ويسايرونَه فتكلّم كلُّ واحدٍ بكلامٍ وخبرٍ بليغٍ، وبقي ملوكُ الطّوائفِ على ما صيّرهم عليه مائتي سنةٍ وستًا وستّين سنةً، ويُقالُ: أربعُ مائة سنةٍ، وكانوا يعظّمونَ اشكَ بنَ دارا، ويسمّونه الملكَ، وكانَ في يدهِ من الموصلِ[1] إلى الريّ وإصبهان[2].

ذكرُ ملوكِ الطوائفِ:

يُقالُ: الاشغانيّون: ملَكَ اشك الاشغاني عشرَ سنين، ثُمّ ملَكَ شابور الاشغاني ستّين سنة، وفي زمانِهِ ظهرَ عيسى عليه السلام بأرضِ فلسطينَ، وغزا ططوسَ بن اسفيانوس مَلِكُ الروميّةِ بيتَ المَقْدسِ بعد ارتفاعِ عيسى فقتَلَ المقاتلة، وسبى الذرّيّة، وهدمَ البناءَ حتّى لم يدعْ حَجراً على حجرٍ، فلم يزلْ كذلك إلى أن أقامَ الإسلامُ ووَلِي عُمَرُ بن الخطّاب رضي الله عنه بقولِ الله تعالى **﴿ومَنْ أظلمُ ممن منعَ مساجدَ الله أن يُذكرَ فيها اسمُه وسعى في خرابها﴾** [البقرة: ١١٤] الآية، ثُمّ ملَكَ جوذرزين عشرَ سنين، ثمّ ملَكَ بيزن احدى وعشرين سنة، ثم ملَكَ جوذر تسعَ عشر سنة، ثم ملَكَ نرسي الاشغاني أربعين سنةً، ثم ملَكَ هرمزُ سبعَ عشرةَ سنة، ثم ملَكَ اردوانُ اثنتي عشرةَ سنةً، ثم ملَكَ كسرى الاشغاني أربعاً وأربعين سنة، ثم ملَكَ بلاسُ أربعاً وعشرين سنة، ثم ملَكَ اردوان الأصغرُ ثلاث عشرةَ سنةً، تمّ ملوك الطوائفِ، وصارَ الأمرُ إلى بني ساسان، وأوّلُ مَنْ ملَكَ من بني ساسان أزدشير بن بابك بن ساسان الجامعُ، وهو من ولدِ دارا فتكونُ مُدّتهُم في هذا الحسابِ مئتين وسبعين سنةً.

---

(١) الموصل: مدينة في العراق، قاعدة محافظة نينوى ومركز قضاء الموصل «منجد الأعلام/ ٦٩٥».

(٢) أصفهان أو إصبهان: مدينة في إيران بين شيراز وطهران، فيها مسجد معروف «منجد الأعلام/ ٥٠».

[ملك أزدشير الجامع]:

ثم ملك أزدشير الجامعُ ويقال له شاهنشاه قالوا: وكان ازدشير رجلاً بيّن الفضلِ في بُعدِ رأيه وذكاءِ لُبّه مع صرامتِهِ وبأسِه ونجدتِهِ، ولمّا أفضى الأمرُ إليه أمرَ أهلَ الفقهِ بجمعِ ما قدروا عليه من كتبِ دينهم التي احترقتْ، وتأليفُها وتقييدُها فإنه لا يجمعُ القلوبَ المتعاديةَ والأهواءَ المتنافرةَ إلاّ الدينُ فجمعوا ما أصابُوا منها، وهو الذي في أيديهم اليومَ، قَالُوا: ثمّ عَمَدَ إلى كتبِ الطبِّ والنجومِ فجدّدها وأعادَها، وبثّ كُتُبه في مَنْ قربَ منهُ، ونأَى عن الملوكِ يأمرُهم بإقامةِ الدينِ والسُنّةِ، ويحذّرهمُ معصيته ومخالفتَه فصفتْ له المملكةُ أربعَ عشرَ سنة وستّة أشهر.

[ملكُ شابور بن اردشير]:

ثم ملك شابور بن اردشير فغزا الرومَ وسبى منهم سَبْياً كثيراً، وأنزلهم في مدينةِ سابور بفارسٍ ومدينتيْ جُندَيْسابور[1]، وتشتر بالأهواز فمن ثَمَّ كَثُر علمُ الطبِّ والأطبّاءِ في هذه المُدُنِ، وفي زمانِ شابور بعثَ اللهُ على سبا سيلَ العَرِمِ فتفرّقُوا في البلادِ بقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿فمزّقناهُم كلَّ ممزّقٍ﴾ [سبأ: ١٩] وفي زمانِهِ ظهرَ ماني الزنديقِ، وذلك أنّ أوّلَ ما ظهر في الأرضِ من أمرِ الزندقةِ ألاّ أنّ الأسامي يُختلفُ عليها إلى أن سُمّي اليومُ علمَ الباطنِ والباطنيّةِ، وفي زمانِهِ قَتلتْ الزبّاءُ جذيمةَ الأبرصَ، وهو الذي حاصرَ الضَّيْزَن، ملكَ الحضرِ، فأشرفتْ عليه النضيرةُ بنتُ الضيزن وهويَتْه، فكتبَ في سهمٍ يدلُّ على عورةِ الحصنِ فأتتْها من مدخلِ الماءِ ورمتْ بالسهمِ إليه، فقطعَ الماءَ عنهم حتّى أجهدهَم العطشُ، ثُمّ استندبَهم على حكمِهِ وقتَلَ النضيرةُ لغدرِها بأبيها، وهذا يُسمّى سابورُ الجنودِ لكثرةِ جنودِهِ ودوامِ مسيرِهِ، وقِيلَ: إنّه أمرَ بذوابتِها فشدّتْ في ذنبِ مُهْرٍ غيرِ مروضٍ وضُرِبَ وجهَه، وفيها يقولُ عديّ بن زيد: [منسرح].

والحضــرُ صُبّــتْ عليــه داهيــةٌ ... شــديــدةٌ أيــدٌ منــاكبُهــا
ربيبــةٌ لــم تــرقّ والــدَهــا ... لحبّهــا إذا ضــاع راقبُهــا
وكان حظّ العروسِ إذ جشر الصّـ ... ـبح[2] دمـاءً تُجـري سبـائبهـا

(١) جنديسابور: مدينة إيرانية في خوزستان، أسسها سابور الأول وأسكن فيها الشعوب اليونانية التي أسرها. اشتهرت بمدرستها الطبيّة ولغتها الآرامية «منجد الأعلام/ ٢١٨».
(٢) جشر الصّبح: انفلق وطلع.

قالوا وكانَ ملكُه ثلاثين سنةً.

[ملك هرمز البطل]:

ثُمّ ملك بعده هرمز البَطل ويقال له هُرمز الجَرِيءُ، وأتاهُ ماني يدعوهُ إلى الزندقةِ فَقال: إلاَمَ تدعوني؟ فقالَ: إلى خرابِ الدّنيا وتركِ العمارةِ فيها للآخرةِ، فقَالَ لأُخَرّبَنّ بدنَك، فأمرَ به فقُتِلَ وحُشي جلدُه تبناً وصُلبَ ببابِ جندي سابور، فهو إلى اليوم يسمّى بابُ ماني، ويُقالُ: إنّه سُلِبَ ببابِ نيسابور بخُراسان، وكانَ ملكهُ سنةً وعشرة أشهرٍ، ويُقالُ: إنّ ابنَه بهُرام بن هرمز قَتلَ ماني، وكانَ ملكُه ثلاثَ سنين وثلاثة أشهرٍ وثلاثة أيّامٍ، ثُمّ ملَكَ ابنُه بهرامِ بن هرمز، وهو الذي يُقالُ له بهُرام الصَلِف، وكانَ فظّاً غَليظاً هانَ عليه الناسُ، واستخفّ بهِم حتّى فزعُوا إلى موبذ موبذان، فقَالَ إذا اصبحتُم فالزمُوا بيوتَكم ومنازلَكم، ولا يخرجْ إليه أحدٌ ولو رآهُ قائماً على بابِهِ، وأمرَ غُلمانَه وحاشيتَه، أن لا يقومُ على رأسِهِ ولا يجيبَه إذا دعاهُ ولا يطيعُه فيما أمرَ، ففعلوا ذلكَ وأصبحَ بهرامُ من غدِهِ على سَجيّتِه، وجاءَ حتّى قَعَدَ على سريرِهِ فلم يَرَ أحداً من غُلمانه ومرازبتِهِ[1]، ونَظَر إلى مجلسِ الوزراءِ والكُتّابِ فلم يَرَ فيه أحداً، ثُمّ نادى بالحاجبِ فلم يُجِبْه، ودعا بالغلمانِ فلم يُجيبوه فهاله ذلك، وارتاع[2] له، ولم يَدْرِ ما السببُ؟ فبينما هو متفكرٌ في نصيبِهِ متعّجبٌ من أمرِهِ إذْ دخَل عليه موبذانُ موبذ ففرِحَ به لمّا رآهُ وأفرجَ عنه روعَه، وسألَهُ عن الحالِ، فقَالَ تعلمُ أنّك ملكٌ ما اطاعُوك ولا يُطيعُك الجماعةُ بغيرِ رِفْقٍ ففطِنَ لهمُ بهُرام، وراجَع نفَسه، وهجرَ الفظاظةَ، ولزِمَ الرِفْقَ، ثُمّ ملَكَ بهرامِ بن بهرام بن بهرام أربعةَ أشهرٍ، ثمّ ملَكَ نرسي بن بهرام تسعَ سنين، ثم ملكَ هرمز بن نرسي سبعَ سنين وخمسةَ أشهرٍ، ثمّ ملك ابنُه شابور ذو الاكتاف.

[وهذه قصّةُ شابور ذي الأكتافِ:]

قالُوا: وهلكَ هرمزُ ولا ولدَ لهُ فوجدوا ببعضِ نسائهِ حَبَلاً فسألُوها عن حالِها فقالتْ: إنّي أرى من نضارةِ لوني وحركةِ الجَنينِ في الشِقّ الأيمنِ ما أرجُو أن يكونَ تحقيقاً لما قالَ المنجّمُون فأقعدُوا التاجَ على بطنِ المرأةِ، ثمّ لمّا وضعتْه سمّوه شاهَ شابور، وجعَلَ الوزراءُ يدبّرون أمره، والأعداءُ يزحفونَ إليه من كلّ جانبٍ، قالُوا: فلما أينعَ الغُلامُ وترعرعَ سمعَ

(١) مرازبته: مرازب جمع مزرباب: وهو الرئيس عند الفرءس «فارسيّة».
(٢) ارتاع له: فزِعَ له.

ضجيجَ النّاسِ وأصواتَهم وصُراخَهم فقال: ما هذا، فقِيلَ: ازدحمَ النّاسُ على الجسرِ، فَقالَ: هلاّ جعلتُم جسرَينْ أحدُهما للذاهبين، والآخرُ للجائين، فلا يزحمُ بعضُهم بعضاً فاعجبَ مَنْ حضَرهُ من مقالتِهِ، وحُسنِ فطنتِهِ في صباه وصغرِ سنّه، قَالُوا: فلم تغربِ الشمسُ من يومهِم حتّى عقدُوا جسراً آخرَ، ثمّ لمّا بلغَ خمسَ عشرةَ سنةً، وأطاقَ ركوبَ الخيلِ وحملِ السلاحِ خرَجَ لمحربةِ الأعرابِ التي زحفتْ من كاظمةِ البحرينِ، وتطرّقوا نواحِيه يُغيرون عليها ويُفسدونَ فيها، وجَعل يقتلهُم وينزعُ أكتافَهم ويتبعهُم في بواديهم وديارِهم حتّى أفنى إياداً خاصّةً إلاّ مَنْ بالروم.

ورُوي أن معاوية لمّا كتب إلى تميم يُغْريهم بعليّ عليه السلام ويأمرُهم بالوثوبِ عليه خَطَب عليٌّ، ثمّ قالَ في كلامه: [خفيف].

إنّ حيّا يرى ٱلصّلاحَ فسادا ... ويرى الغيَّ للشقاءِ رَشادا

لقريبٌ من ٱلهلاكِ كما أَهْلـ ... ـكَ شابُور بٱلسَّوار إيَادَا

قالُوا: ولم يكفَّ شابورُ عن قتلِهم حتّى جلستْ عجُوزُ على طريقهِ، وصاحتْ به، وكانتْ سيرةُ الملوكِ مَنْ صاحَ بهم وقفُوا عليه، فقالت: إنْ كنتَ تطلبُ ثأراً فقدْ أدركته وإن كنتَ تقتلُ سرَفاً فإنَّ لهذا قصاصٌ فكفَّ حينئذٍ عن القتلِ، ولقد سمعتُ غيرَ واحدٍ من أهلِ العلمِ يقولُ: عنَتِ العجوزُ بقولِها أمرَ النبيّ ﷺ وإدراكه من الفُرس ثأرَ العربِ، قالُوا: ثمّ دخَلَ شابورٌ الرومَ متنكّراً متجسّساً أخبارَهم، ويطلُع على عورةِ بلادهِم، ووافقتْه وليمةٌ لقيصرٍ فدخَل عليها على هَيْأة السُؤّالِ ليشاهدَ أحوالَهم وأخلاقَهم، فبينما هو واقفٌ عليهم إذْ أُتي بإناءٍ فيه تمثالُ شابور منقّشٌ، فقَالَ رجلٌ من حكمائِهم إنّ هذا التمثالَ يُشبه صورةَ هذا السائلِ، فقبضُوا عليهِ وألحَوا وخوّفوهُ بالقتلِ حتى أقرَّ فجعلُوه في جلدِ بقرةٍ، وكتبُوا إلى عظماءِ فارسٍ: إنّا قد ظفرنَا بملكِكم فإمّا أن نقتلَه وإمّا أن تفتدوه، فأرسلُوا إليهم بأموالهِم وخزائنِهم، وما ملكتْه أيديهم، فأخذوا المالَ ولم يخلّوا عنهُ ثمّ سارَ قيصر إلى بلادِهم فقَتلَ المُقاتِلة، وأخربَ المُدُن، وعقرَ النخلَ وشابورٌ معه في تابوتٍ يسيُر حيثُ سارَ حتّى انتهى إلى جنديسابور، فنزلَ بساحتِهم، وقد تحصّن أهلُه فحاصَرهم شهوراً قالُوا: وأتتْ ليلةُ عيدِهم فغفلوا عن شابور ونامتْ عنه الرقباءُ ونظرَ شابُور إلى قوم أسارَي وزِقاقٍ من زيتٍ فقالَ لبعضهِم أفرغُوا عليّ من هذا الزيتِ، فأفرغوا عليه فلانتْ الجلدةُ عليه، وانسلخْت عنْهُ، وقامَ يَدِبّ على الأربعِ كالدوابِّ حتى اقتحَم سورَ المدينةِ، ونادَى أنا شابور الملكُ فاجتمعوا عليه، وتباشرُوا به، خرجَ من ليلتهِ، والقومُ في شغلٍ من عيدِهم فقتَلهم أبرحَ قتلٍ،

واستباح أموالهم، وأسِرَ قيصرُ ملكهم، قالَ: إنّي مستجيبكَ كما استجبيتني وآخذه بردُ ما أخذ من الأموالِ وإصلاحِ ما خرّبَ من المُدْنِ من سُرّة بلادهِ، وأنْ يغرسَ مكانَ كلِّ نخلةٍ عقَرها زيتونةً، ولم يكنْ بالعراقِ حينئذٍ شجرُ الزيتونِ، فحملَوا الطينَ من أرضِ الروم في السُفنِ والعَجَلاتِ حتّى عمرُوا ما خربَ بأيديهم، ثم رتقهَ وقطعَ عقبَه وخلّى سبيلَه، وفيه يقولُ الشاعر: [وافر].

هُـمْ ملكـوا جميـعَ ٱلنّـاسِ طُـراً ... وهُـمْ رتقـوا هِـرَقْـلاً بـالسَـوَادِ
وهـم قتلُـوا أبـا قـابـوسَ غَضْبـاً ... وهـم كشفـوا البسيطـة عـن إيـادِ

وكانَ ملكُه اثنين وسبعين سنةً، ومَلَك الحيرةَ في أيّامهِ امرؤ القيس الأوّلُ، ثم ملكَ اردشير بن هرمز أخو شابور ذي الأكتافِ احدى عشرةَ سنةً.

وهذه قصّةُ يزدجردِ الأثيم:

ثمّ ملكَ يزدجردُ الأثيمُ، ويُقالُ لهِ الخشِنُ، وهو يزدجرد بن بهرام بن شابور ذي الأكتافِ، وكانَ فظاً غليظاً مَهيباً للنّاسِ سفّاكاً للدّماءِ ركوباً للمآثمِ، فشكوا إلى الله عزَّ وجلَّ، ودَعَوا اللهَ عليه فجاءَ فرسٌ لم يُرَ مثله في حسنهِ وكمالِ تقطيعهِ حتّى وقفَ ببابهِ، فلمّا خرَجَ رمَحَهُ رمْحَةً فقَضى عليه، وملأ فروجَه جرياً فلم يُدرَك فقالتِ الفُرسُ: هذا مَلَكٌ جاءَ فأراحَنا منهُ، وكانَ له ابنٌ اسمهُ بهرام تربّى في حجرِ آل المنذرِ بأرضِ العرب.

وهذه قصّةُ بهرامِ جور:

ثم ملَكَ ابنهُ بهرامِ جُور فأحسنَ السيرةَ، وأحيا النّاسَ، قالُوا: وقصدَهُ خاقان ملكُ الخزرِ[1] من نحو بابِ الأبوابِ في مائةِ ألفٍ فَخَرج بهرامُ يُشبهُ المتصيد في رابطتهِ وبلغَ الخبرُ خاقانَ بأنّ بهرام قد هَربَ وخلّى مملكتَه لما سمِعَ من كثرةِ جيوشك فاغفَلَ الحَذَرُ وتركَ الحزمَ، فانقضّ عليه بهرام من جبالِ اذربيجان فقتلَهم أبرحَ قتلٍ، وجاءَ برأسِ خاقان، وهو الذي يقولُ فيه الشاعر: [طويل].

أقـولُ لـه لمّـا فضَضْـت جمـوعَـه ... كأنّك لم تسمَعْ بصَوْلات بهرامِ

---

(١) الخَزَر: شعب قطن شمالي بحر قزوين ثم قسماً من أرمينيا، تنصرّ في منتصف القرن التاسع، ثم اعتنق الإسلام ابتداءً من القرن العاشر «منجد الأعلام/ ٢٦٩».

فإنّيَ حامي ملك فارسَ كلّها وما خيرُ مُلك لا يكون له حامي

قالُوا: وأمَر بإحصاءِ ما أصابَ من الغنائمِ، فإذا هي مثلُ خراجِ مملكتِهِ لثلاثِ سِنين، فوضعَ الخراجَ على الرعيّةِ بمقدارِ ذلك، وأمرهَم بالتفرّغِ للتلذُّذ والتنعُّم، قالوا: وخرَجَ بهرام يوماً متصيّداً وقد أردفَ جاريةً مُغنّية فعرضَ له وحشٌ فقالَ للجاريةِ أين تريدين أن أضَعَ نُشّابتي؟ قالت: أريد أن تُشبّهَ ذُكرانَها بإناثها وإناثَها بذكرانِها فرمى ذكراً من الظباءِ بنشّابة ذاتِ شعبتين، فاقتلَع قرنيه، ورمى الانثى بنشّابتين اثبتهما في موضعِ القرنين، ثمّ قالتْ: وأُريدُ أن تَصِلَ ظِلفَ ظبي بأذنِه فرمى ظبياً بجلاهقٍ أَهْوَى برجله ليحكَّ أُذنَه رماهُ فوصَلَ ظلفهَ بأُذنِهِ، ثُمّ ضَربَ بالجاريةِ الأرضَ، وقَالَ لشدَّ ما اشتططتِ عليّ، وأردتِ إظهارَ عجزي، وقتلَها، وهذا واللهُ غيرُ ممكنٍ إلاّ بالاتّفاقِ، قالُوا وكانَ بهرامُ يعرفُ اللغاتِ فيتكلّمُ إذا غضبَ بالعربيّةِ، وفي القتالِ بالتركيّةِ وفي مجلسِ العامّةِ بالدريّةِ، ومع النِّساءِ بالهرَويّة، وكانَ نقشُ خاتمِهِ بالأفعالِ تعظمُ الأخطارُ، وكانَ صاحبُ لهو وغناءٍ وصيدٍ، وكان لا يقاتلُ إلاّ مَنْ يقاتلُه، ولا يتعرّضُ لمنْ لا يتعرّضُ له، وبنى له النعمانُ بنُ المنذرِ الخوَرْنق[1] والسدير[2]، وفي أيّامِهِ ساحَ النعمانُ بنُ المنذرِ ملكُ الحيرةِ فملّكَ بهرامُ الحيرةَ المنذرَ بن النعمان، وفي أيّامِهِ تحرّكتْ أمرُ قريشٍ لما أرادَ اللهُ تعالى بهم، وتزوّجَ كلابُ بن مُرّة فاطمةَ بنتِ سعدٍ من الأزدِ فولدتْ له قصيَّ ابنَ كلابٍ وزهرةَ بن كلاب، وكانَ مُلكهُ ثلاثاً وعشرين سنةً، ثمّ ملّك اللهُ يزدجردَ بنَ بهرام ثماني عشرةَ سنةً وأربعة أشهرٍ وثمانيةَ عشرَ يوماً، فلمّا ماتَ تنازعَ الملْكَ ابناه فيروزُ بنُ يزدجرد وهرمزُ بنُ يزدجرد بنُ بهرام جُورَ، قالُوا: وأسنت الناسُ في أيّامه سبعَ سنين حتّى فنى أكثرُ الحيوانِ، ثُمّ اغاثَهم اللهُ بغَيْثة فزكتْ الأرض، ونمى الزرعُ، وأخرجتْ كلُّ حبّةٍ سبعَ مائةِ حبّةٍ وسمِعتُ بعضَ المفسّرينَ يقولُ في قولِهِ تعالى ﴿كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابلٍ في كلّ سنُبلةٍ مائةَ حبّة﴾ [البقرة: ٢٦١] لم يكنْ هذا إلاّ في زمنِ فيروز، واللهُ أعلمُ، قالُوا: وكتبَ فيروزُ في ذلك القحطِ إلى العُمّالِ والوُلاةِ والوكلاءِ والبنادرةِ بقسمةِ ما في الخزائنِ على النّاس وحسنِ التدبيرِ لهمُ في المعاشِ، فلم يهلكْ في تلك السنين إلاّ رجلٌ باردشيرخرة، ثُمّ قصدَ فيروزُ الهياطلةَ: وهم قومٌ كانوا بناحيةِ بلخَ وطخارستان، وملكُهم اشنوَار، فلما بلغَ توجُّهِ فيروزُ إليهم اشتدَّ خوفُهم، فاحتالُوا وذلك أنّ

---

(١) الخورنق: موضع في العراق قرب النجف، سكنه بنو إياد، عمّر فيه النعمان اللخميّ قصراً وسعه العباسيون وخرب في القرن الرابع عشر، أشاد بذكره شعراء الجاهلية. «منجد الأعلام/ ٢٧٥».

(٢) السدير: نهر بناحية الحيرة العراق، بنيت عليه بعض القصور «منجد الأعلام/ ٣٥٢».

رجلاً منهمُ باعَ نفسَه من الملكِ على أن يكفيَه مَؤُونةَ أهلِهِ وعيالِهِ بعدَه، وكان قد بلغَ من السنِّ غايةً لا يُنتفعُ معها بعيشٍ، فقطعُوا يديه ورجليه، وألقُوه على ظهرِ طريقِ فيروز، فلما انتهتِ الخيلُ إليه سألوهُ فزَعمَ أنْ اشنوارَ غضِبَ عليه في تعصُّبه لفيروز ففعلَ به ما ترَوْن فهل لكم أن أخذتكُم على طريقٍ تطلعون منه على اشنوار وجنودهِ مغافصةً[1]، قالُوا: بلى، فحملُوه معَهم، وأخذَ بهِم على طريقٍ مُعْطِشٍ مُهلكٍ فساروا حتّى انفذوا ماءَ يسقيهم، وتاهُوا في مُتوجَّههم، ثمّ صدّقهم الرجلُ عن نفسِهِ وحيلتِهِ عليهم فأخذَ كلُّ قومٍ وجهةً يرجون النجاةَ إلاّ فيروز في شرذمةٍ قليلةٍ تخلّصوا بُحشاشةِ أنفسِهم فأسرَهم اشنوار، واستَباح عسكرَهم، ثُمّ عاهدُوا فيروزَ أن لا يتعرّضَ لهمُ وخلّى سبيلَه، وكانَ ملكهُ تسعاً وعشرين سنةً، ثم تنازعَ الملكَ بعدَه ابناه قُباذ وبِلاش فهرَبَ قباذُ إلى التركِ يطلبُ المددَ فملكَ بلاشُ أربعَ سنين وماتَ، ثُمّ عادَ قباذُ وملك، وفي أيّامِهِ ظهرتِ المزدكيّة[2].

وهذه قصّة قباذ ومزدك:

قالُوا: إنّ قباذَ بنَ فيروز كانَ رجلاً مُدارياً مُتّئِداً يكرهُ الدماءَ والمعاقبةَ، وكثرتِ الأهواءُ في زمانِهِ وانتحلَ كلُّ فريقٍ ملّةً ومذهباً، ووثبَ مزدكُ، وهو رجُلٌ من أهلِ فسادٍ فعمِل على النّاسِ، وقَال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ الأرزاق في الأرضِ ليقسمها العبادُ بينهم بالسويّةِ حتّى لا يكونُ لأحدٍ منهم فضلٌ على الآخرِ، ولكنّ الناسَ تظالمُوا وتغالبُوا، واستأثر كلُّ واحدٍ بما أحبّ، والواجبُ أن يؤخذَ فضلَ ما في أيدي الأغنياءِ ويُردُّ في الفقراءِ حتّى يستوُوا في الدرجةِ، فشايعه على ذلك الغوغاءُ، وافترضُوا قولَه، وجعلُوا يدخلُون على الرجلِ فيغلبُون على أهلِهِ ومالِهِ ونسائِهِ وعبيدِهِ، واشتدّتْ شوكتُهم وعظمتْ نكبتُهم، وعجِزَ السلطانُ عن مقاومتِهِم، ولم يكُن عندَهم لِمَنْ أبى عليهم إلاّ القتلُ، ثُمّ وثبوا على قباذ فخلعُوه وحبسُوه، وملّكوا أخاه جاماسب، وفسدتْ معائشُ النّاسِ، واختلطُت أنسابُهم فكانَ المولُود لا يعرفُ أباه، والضعيفُ لا يمتنعُ منه القويُّ، ثُمّ خرجَ زرمهر بن سوخرا في من تبِعَه من الغُواةِ والمطوّعةِ، وقتلُوا من المزدكيّةِ ناساً كثيراً، وردّ الملكَ إلى قباذ فتبرّاً منهُم، ويُقالُ: إنّه كانَ بايَعَهم، وفي أيّامِهِ وُلِدِ عبدُ المطّلب وحُملِ إلى مكّةَ وكان جاءَه الحارثُ بن عمروٍ

---

(١) مفاقعة: مفاجأة.

(٢) المزدكية: مذهبٌ صاحبه فردك، يقول أصحابه: أنّ النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ويقولون أنّ الأصول والأركان ثلاثة: الماء والأرض والنّار. «الملل والنحل/ ٢٢٦».

المعصوبُ بن حُجْر آكلُ المرارِ، ودخلَ في دينِ المزدكيّةِ فملّكه على العربِ كلّها، فلمّا صارَ الأمرُ إلى انوشروان ردَّ الملكَ إلى المنذرِ بن امرىء القيسِ، وكانَ مُلكُ قباذ اثنتين وأربعين سنةً، وفي أيّامه غَلبتِ الرومُ والحبشةُ على اليمنِ، ثمّ ملكَ كسرى انوشروان بن قباذ، وكانَ ملكُه سبعاً وأربعين سنةً وسبعةَ أشهرٍ فقتلَ ثمانين ألفاً من المزدكيّةِ في يومٍ واحدٍ، وجمعَ النّاسَ على الدينِ، وأتمَّ ببابِ الأبوابِ السورَ، وغزا الرومَ ففتح انطاكية، وبنى بالمدائنِ مدينةً على صورةِ انطاكية، وسمّاها الروميّة، وصاهَر خاقان ملك التركِ حتّى عاونه على الهياطلة[1] فأدرك مِنهُم وتْر فيروز، وانبسطَ مُلكهُ حتّى بلَغ قشميرَ وسرَنْدِيب[2]، وهو الذي بعثَ وهرُزَ إلى اليمنِ فنفى عنه الحبشةَ وعلى رأس أربعين من ملكِه وُلِد النبيّ ﷺ في قول بعضهمِ، وكان حسنُ السيرةِ مباركَ الولايةِ رحيماً بالرعيّةِ متميّزاً للخيمِ، ثُمّ ملكَ ابنُه هرمزُ بن كسرى فجارَ وعسفَ فزحِفتْ إليه الجيوشُ من النواحي الأربعِ الرومِ والتركِ والخزرِ واليمنِ، فوجّه بهرامُ شوبينةَ أصفهبذ الريّ لالتقاءِ فقتلَهم وسباهُم، ثُمّ خلَع بهرامُ يدَه عن الطاعةِ وتغلّبَ على خُراسان وما يليها، وكتبَ القُوّاد والمرازبةُ يُغريهم به فوثبُوا عليه، وسملُوا عينيه، وحبسُوه، وملّكوا ابنَه ابرويز بنَ هرمز، وملكَ هرمزُ احدى عشرة سنةً وسبعةَ أشهُرٍ، ثُمّ ملَكَ ابرويز، وجاءَ بهرامُ شوبينة فقاتلَه على شطّ النهروانِ وهزمه، وكانَ ابرويزُ يومئذٍ على فرسِهِ شبديز فَلَح به، فقَالَ للنعمان بنِ المنذرِ، وهو يمشي بينَ يديهِ اعطِني اليحمومَ: وهو فرسٌ معروفٌ مشهورٌ له، وفيه يقولُ الأعشى: [طويل].

ويــأمــرُ لليحمــومِ كــلَّ عشيّــة بقيــتٌ وتعليــقٍ وقــد كــان يسبــقُ

فلم يُعطِه اليحمومَ، ونزلَ حسّانُ بنُ حنظلةَ الطائيّ عن فرسِهِ الضبيبِ، وقَالَ: اركَب أيُّها الملكُ فإنّ حياتَك للنّاسِ خيرٌ من حياتي، فركّبه ابرويز، ومرَّ إلى ملكِ الرومِ موريقيس فاستنجدهُ فزوّجه ابنتَهُ مريمَ، وأمدّه بمالٍ ورجالٍ فقاتلَ بهرامَ وهزمَه إلى التركِ، واستولى على الملكِ فلم يزلْ يدُسُّ على بهرام حتّى قُتِلَ بدارِ الغربةِ، وكان مُلكُ ابرويزَ ثمانياً وثلاثين سنةً، وفي أيّامهِ بعثَ اللهُ نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وعلى آلهِ وأصحابهِ وسلّم بالرسالة،

---

(١) جيل من النّاس سمّاهم الصينيون (يتها) وسمّاهم الرومان (الهون البيض) وسمّاهم الفرس (هيتال) اجتازوا جيحون سنة (٤٢٥ م) وعاشوا في البلاد «الشاهنامة ٢/ ٩٢».

(٢) سرنديب: جزيرة تقع جنوب شرقي الهند، من دول الكومنولث، تعرف باسم جمهورية سري لنكا، عاصمتها كولومبو تشتهر بانتاج الأرز والشاي، «منجد الأعلام/ ٣٧٧».

وبعثَ النبيُّ ﷺ إليه بعبدِ الله بنِ حُذافة السهميّ[1] يدعُوه إلى الإسلامِ فمزّقَ كتابَه، واستخفّ به، وكتبَ إلى باذان ملكِ اليمن أنّ عبداً من عبيدي قد كتبَ يدعوني إلى دينهِ فابعثْ إليه رجلين جَلْدين يأتيان بهِ مربوطاً، وإنْ أبى عليهما فليضربا عُنقه، ولهذهِ القصّةِ موضعٌ غيرُ هذا، فلمّا بلغَ النبيَّ ﷺ تمزيقَه كتابَه قَالَ: مزّق كتابي مزّق اللهُ عليه ملكَه، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿آلم غُلبت الرومُ في أدنى الأرضِ وهُمْ من بعد غلبهم سيغلبون في بِضْع سنين﴾ [الروم: ٤] رُوى أنّ عاملاً لابرويز يُقالُ له: شهرابراز الفارسيّ غلبَهم وسباهم، وذلك أنّ الرومَ وثبتْ على ملكِهم موريقيس فقتلُوه فبعثَ ابرويز شهرابراز فنكا فيهم نكايةً عظيمةً قَبلَ الهجرةِ بسنةٍ، ثمّ ادبرتِ الرومُ على ابرويز فقتله ابنه وفي ابرويز يقولُ خالدُ الفياض:

[بسيط].

والكهـلُ كُسـرى شهنشـاه يقنّصـه ... سهمٌ بريشِ جناحِ الموتِ مقطوبُ

إن كـانَ لـذّتـه شبـديـز مـركبُـه ... وغُنْـج شيـريـنَ والـديبـاجَ والطيـبُ

بـالنـارِ آلـى يمينـاً شـدَّ مـا غلظـتْ ... أن مَـن بـدا بنعـى شبـديـز مصلـوبُ

حتّـى إذا أصبـحَ ٱلشبـديـزُ منجـدلاً ... وكـانَ مـا مثلـهُ فـي النـاسِ مـركـوبُ

نـاحـت عليـهِ مـن الأوتـارِ أربعـةٌ ... بـالفـارسيّـةِ نَـوْحـاً بـه تطـريـبُ

فـراطـن[2] الهِـربـذُ الأوتـارَ فـالتهبت ... من سِحْرٍ راحته اليُسْرى شآبيبُ[3]

فقـالَ مـات فقـالُـوا أنـتَ فُهْـتَ بـه ... فـأصبـحَ الحِنْـثُ عنه وَهْـوَ محـدوبُ

لـولا الهـرابـذ والأوتـارُ تنـدُبـه ... لـم تستطِـعْ نَعْـي شبـديـز ٱلمـرازيـب

أخنى[4] الزمانُ عليهِمْ فَاْجْرَهَدَّ[5] بِهم ... فمـا يُـرى منهُـمُ إلاّ المـلاعيـبُ

وابرويزُ الذي أمرَ فصوَّر هو ودابّتُه شبديز وسُرّيّتُه شيرين بقرميسين ليبقى له أثرٌ، ثمّ ملَكَ ابنُه شيروية بنُ ابرويز وأمُّه ابنةُ ملكِ الرومِ مريمُ بنتُ موريقيس، فوقعَ الطاعونُ في النّاسِ وفنى تسعةُ أعشارِ النّاسِ، وهلَكَ شيروية فيه، وكَان ملكهُ ثمانيةَ أشهرٍ، وهو الذي

(١) جاء في سير أعلام النبلاء ٢/ ١١: عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي أو حذافة السهمي الصحابي.

(٢) راطن: تكلّم بالأعجمية.

(٣) شآبيب: جمع شؤبوب: وهو شدة حرِّ الشمس.

(٤) أخنى الزمان عليهم: أتى عليهم وطالَ.

(٥) اجرهَدّ: أسرع.

سعى في قتلِ أبيه ليأخذَ ملكَه وفيه يقولُ الشاعر وهو عديُّ بن زيد: [وافر].

وكِســـرى إذ تقسَّمـــه بنــــوهُ بـأسيـافٍ كمـا اقْتُسِـم اللحـامُ
تمخّضـتِ المَنُـونُ لــه بيــومٍ أتــى ولكــلّ حـاملــةٍ تِمـامُ

وكانَ باذانُ بعَثَ برجلين إلى المدينةِ كما أمره ابرويز ليأتياهُ بالنبيّ ﷺ فبينما هُما عندَ النبيّ ﷺ إذْ قَالَ لهُما إنَّ ربّي أخبرني أنّه قَتلَ كسرى ابنُه هذه الليلةَ لكذا ساعاتٍ مضَيْن منها، فانصرفَ الرجُلان، ونظَرا فإذا هُو كما قالَ النبيُّ ﷺ، ثُمّ وثبَ شهرابراز الفارسيُّ الذي كانَ بناحيةِ الرومِ فملكَ عشرين يوماً ثمّ اغتالتهُ بُوران دُخت بنت ابرويز فقتلَتْه، ومَلكتْ بوران دختْ سنةً ونصفَ سنةٍ، فأحسنتِ السيرةَ، وعدلتْ في الرعيّةِ ولم تُجْبِ الخراجَ وفرّقتِ الأموالَ في الأساورةِ والقُوّادِ وفيها يقولُ الشاعرُ: [منسرح].

دهقــانــةٌ يسجــدُ الملــوكَ لهـــا يُخَبي إليهـا الخـراجُ فـي الجـرُب

ولمّا بلَغ النبيُّ ﷺ خبَرها قَالَ لا يفلحُ قومٌ يليهم امرأةٌ وفي أيّامِها كانتْ وقعةُ ذي قار، فقَالَ النبيُّ ﷺ اليومَ انتصفَ العربُ من العجمِ وبي نُصِروا، ثُمّ ملكتْ بعدَها آزَرُوميذ دُخْت بنت ابرويز أربعةَ أشهرٍ فسُمّت فماتتْ، ثمّ ملكْت بعدَها آزَرُميذ دُخْت بنت ابروزي أربعةَ أشهرٍ فسُمّت فماتتْ، ثمّ ملكَ رجُلٌ يُقالُ له فرّخ شهرا، وقُتِلَ ثمّ طلبُوا يزدجرد بن شهريار ابن ابرويز، وهو غُلامٌ فملّكوهُ فَمكثَ فيهم عِشرين سنةً، والملكُ منتشرٌ والأمرُ مختلّ مضطربٌ، إلى أن قتلَه مَاهُويَةُ دِهْقانُ[1] مَرْوَ[2] بقريةِ زرق[3] سنةَ إحدى وعشرين من وفاةِ النبيّ ﷺ في خلافةِ عُثمان بنِ عفّان رضي الله عنه، وكانَ عبدُ الله بنُ عامرٍ بن كريز بالطبسين، وانقضى أمرُ ملوكِ الفُرسِ وأظهرَ اللهُ دينَه، وانجزَ وعدَه، وفيه يقول ابنُ الجهم: [سريع].

والفُـرْسُ والـرومُ لهـا أيّـامُ يمنعُ من تقحيمها الإسلامُ

ويقولُ المسعوديُّ في آخرِ قصيدتهِ بالفارسيّة:

سپــرى شـــذ نشــان خســروانــا جو كام خويش راندند در جهانا

---

(١) دِهقان مرو: رئيس أقليم مرو.

(٢) مرو: مدينة في الاتحاد السوفياتي (تركمانيستان) هي اليوم ماري «منجد الأعلام/ ٦٥٦».

(٣) زرق: قرية من قرى مرو قتل بها يزدجرد آخر ملوك الفرس «معجم البلدان ٣/ ١٥٤».

قصّةُ ملوكِ العربِ:

ولهمُ ثلاثُ ديارِ العراقُ والشامُ واليمنُ، ويُقالُ أنّ مَنْ مَلكَ اليمنَ بعدَ نزولِ قحطان ابنِ عابرِ بنِ شالخِ بن ارفخشذ بنِ سام بن نوحٍ أتاها يعرُبُ بنُ قحطان، وهو أوّلُ من نطقَ بالعربيّةِ وأوّلُ من حيّاهُ ابنُه بأَبَيْتَ اللّعْنَ وانعمْ صَباحاً ولا يُدْرَى مَنْ كان بعدَه حتّى ملَكَ حميرُ بنُ سبأ بنِ يشجب بن يعرُب، ولم يزلْ المُلكُ في ولدِهِ إلى أن مضتْ قرونٌ وحِقَبٌ، وصارَ إلى الحارثِ الرائشِ بعدَ خمسةِ أباءٍ فمنِهمُ فرعُ ينهُبِ بنِ ايمن بن ذي ترجم بن وائلِ ابنِ الغوثِ بنِ قطن بن عريب بن زهير بن الهميسع بن حمير، وهو الذي أخرجَ العماليقَ من اليمنِ في زمنِ الضحّاكِ، وصاهرَ افريذون كما ذكرنا آنفاً، وفيهم يقولُ الشاعر: [طويل].

رأَيْتُ ملوكَ الناسِ في كلِّ بَلْدة فلم أرَ في الأملاكِ أمثالَ حِمْيَرَ

ومنهم: شمرُ ذو الجناحِ وفي أيّامِهِ ظهرَ موسى عليه السلام بالشامِ وهو زمنُ منوجهر ببابل، ومنهمُ غمدانُ مبان، وهو الذي بَنَى غُمدانَ، ومِنْهم شمرُ مهعيص، ومنُهم ذو تقرع، ومنهم ذو مرابخ فأمّا ملوك اليمن فالذي يصحُّ ذكرهُ بعدُ الحارثُ الرائشُ، ويُقالُ: إنّه أولُ من غزا من ملوكِ اليمنِ، وأصابَ الغنائم فسُمّى الرائشُ لأنّه راشَ النّاسَ وكساهُم، وفي عصرهِ ماتَ لقمانُ صاحبُ النسورِ، ويُروى أنّ لهُ شِعْراً يذكُر نبيّنا محمّداً ﷺ وملوكاً يكونون قبلَه ويقولُ: [وافر].

ويملكُ بعدَهم رجُلٌ عظيمٌ نبيٌّ لا يرخّصُ في الحرامِ
يُسمّى أحمداً ياليتَ أنّي أعمّرُ بعدَ مَبْعثهِ بعِامِ

قالُوا: وكانَ ملكهُ مائةَ وخمساً وعشرين سنةً، ثمّ ملَكَ بعدَه أبرهةُ ذو المنارِ وسُمّي به لأنّه غزا بلاد النسناسِ وجاءَ بهم وجوههم في صدورهم فذُعرَ النّاسُ لذلك، وكانَ مُلكهُ خمساً وعشرين سنةً، ثُمّ ملَكَ هداذُ بنُ شراحيلِ بن عمرو بنُ الحارثِ الرائشِ أبو بلقيس، ولم يلبثْ إلاّ يسيراً حتّى هلكَ؛ ثُمّ ملكتْ بلقيسُ أربعين سنةً وكان من قصتها وقصّة سُليمانِ ما ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ثُمّ ملَكَ ناشرُ النّعمِ لإنعامِهِ على النّاسِ، وذكروا أنّه بلغَ في غزاتِهِ إلى وادي الرّمْل الحماري فأمرَ بصنمٍ من نُحاسٍ فصُنِعَ، ثُمّ كتبَ عليه: ليسَ ورائي ملذهبٌ، وكانَ مُلكهُ خمساً وثمانين سنةً، ثمّ ملَك شمُر بن افريقيس بنِ ذي المنار بن الرائش، وهو الذي يُدْعى بشمر بنِ رعش لرعشةٍ أصابَتْه، وهو الذي غزا الصينَ وافتتحَ عامّةَ فارسَ

وسجِستان وخُراسان، وخرّبَ سمرقند[1] فسُمّيَتْ شمركند، وكان ملكُه مائةً وسبعاً وثلاثين سنةً وفيه يقول ابنُ الجهم: [رجز].

وظهـرَتْ بـالْيَمَـن ٱلتّبـابعَـهْ   شَمِـرُ يُـرْعِـشْ وملـوكٌ خـالعَـهْ

ثمّ ملَكَ بعدَه ابنُه الأقرنُ بنُ شمر، وغزا الرومَ قبلَ ظهورِ عيسى عليه السلام، وكانَ أهلُها عبدةَ الأصنامِ والأوثانِ فماتَ بناحيةٍ منها، يُقالُ لها وادي الياقوتِ وكانَ ملكُه ثلاثاً وخمسين سنةً، ثُمّ ملَكَ بعدَه تُبّعُ بنُ الأقرنِ، وهو تُبّعُ الأكبرُ، وكانَ أقامَ سنواتٍ لا يغزو فسمَّته حِمْيَرُ موثبان، وموثبان بلغتهم: القاعدُ، فغضبَ لذلك، وأخذَ في الغزوِ حتّى بلغَ الصينَ، وخلّف رابطةً بتُبّت[2] فأعقابهُم اليومَ بها وهو القائلُ فيما يُروَى: [كامل].

قطـعَ البقـاءَ بقلـبِ الشمـسِ   وطلوعِها من حيثُ لا يُمْسِي
وطلـوعُهـا بيضـاء إذْ طلعَـتْ   وغـروبُهـا صفـراءُ كـالـوَرْس[3]
تجـري علـى كبدِ السمـاءِ كمـا   يجـري حِمـامُ المـوت بـالنَّفْس
اليـومَ ينظـرُ مـا يجـيءُ بـه   ومضـى لفضـلِ قضـائـه أمْـسِ

وكانَ ملكُه مائةً وثلاثا وستين سنةً، ثم ملَكَ بعده مَلكَيْكرِب[4] ابنُ تُبّع خمساً وثلاثين سنة، ثُمّ ملَكَ ابنهُ تبّعُ الأوسط، وهو أسعدُ أبو كرب، وكان يغزو بالنجومِ ويسيرُ بها حتّى بلغَ الهندَ والرومَ وإيّاه عَنَى الطائيُّ بقوله: [بسيط].

وبَـرْزةُ الـوجـهِ قـد أعْيَـتْ رياضتَهـا   كـرّى وصـدَّت صـدوداً عـن أبـي كـربِ

قالُوا: وطالَت مُدّته، واشتدّتْ وَطْأتُهُ، وملَّته حِمْيرُ لكثرةِ غزاتِه، وهو الذي قال فيما يُروى: [متقارب].

شَهِـدتُ علـى أحمـد أنّـه   رسـولٌ مـن الله بـارِي النَّسَـمْ

---

(١) سمرقند: مدينة سوڤياتية في وسط آسيا (أوزبكستان) حرّبها جنكيزخان، ثم استولى عليه تيمورلنك وجعلها عاصمته وفيها قبره، مركز صناعي «منجد الأعلام/ ٣٦٥».

(٢) التُبّت: دولة في آسيا الوسطى، تحيط بها الجبال الشامخة، وهي منبع انهر أسيا الجنوبية والشرقية، وهي دولة دينية رئيسها دالاي لاماد عاصمتها لاسا، «منجد الأعلام/ ١٨٢».

(٣) الوَرْس: نبات كالسمسم أصفر يصبغ به وتتخذ منه الصخرة أي الزعفران.

(٤) مكليكرب: ورد في السيرة النبوية جـ ١/ ١٨ اسمه: كُلْكي كَرِب بن تبعّ الأول، وورد في ابن هشام كلي كرب.

فلـو مـدَّ عمـري إلـى عمـره   لكنـت وزيـراً لـه وابْـنَ عَـمْ

وهو الذي قَتلَ يهودَ يثربٍ، وأرادَ أن يخرّبَها فأُخبرَ أنّها مُهاجَرُ نبيٍّ فآمنَ به، وتركهَا كما يزعمُون، وكانَ مُلكُه ثلاثمائة وعشرين سنة، ثم ملَكَ ابنهُ حسّانُ بعدَ ما وثبَتْ حميرٌ على أبيه فقتلوهُ، ثمّ لقبُ حسّانُ هذا ذو جَيْشان، وهو الذي أبادَ جَدِيسَ وقد مرّت قصّتُهم، وأخذَ حسّانُ يتجنّى على قتلِهِ فقتلَهم واحداً واحداً حتّى بايعُوا أخاه عمرو بن تُبّع على أن يقتُلَ حسّاناً فقتلَه فلمّا قتلَه مُنِعَ النومَ فسألَ الغلمانَ عن ذلك، فقالُوا: إنّك قتلَت أخاك ظُلماً، ولن يُؤاتيك النومُ حتّى تقتلَ مَنْ أشارَ عليك بقتلِهِ فقتلَهم كلَّهم إلاّ ذا رُعين فإنّه نهاهُ عن ذلك، وكان قال حين سهِر: [وافر].

ألا مَـنْ يشتـري سهـراً بنـومٍ   سعيـدٌ مَـنْ يبيـتُ قـريـرَ عيـن

فـإنْ تَـكُ حِمْيَـرٌ غـدرَتْ وخـانَـتْ   فمعـذِرةُ الإلـهِ لـذي رُعَيْـن

لنـا مِعْـراجُ مُلـكٍ حيـثُ كنّـا   تنـاولـهَ المقـاوِل بـاليـديـن

مَلَكْنـا بعـد تُبّعنـا زمـانـاً   وعبّـدنـا ملـوك المشـرقيـن

زَبَرنا[1] في ظَفارٍ[2] زُبورَ مَجْدٍ   ليقـرأه جميـعُ الخـافقَيْـن

ونحـنُ الـواقفـون بكـلّ هَـوْن   إذا قـال المقـاولُ أيـنِ أيـنِ

قالوا: وكان هذا في زمنِ ملوكِ الطوائفِ بعدَ الاسكندرِ، وفي ملكِهِ تزوّجَ عمرو بن حُجرِ الكنديّ جدّ امرىءِ القيسِ الشاعرِ ابنةَ حسّانِ بنِ تبّع أخي عمرو بن تبع، فولدتْ له الحارثَ بن عمرو، وفي أيّامِهِ أحسّ عمرو بن عامر بسَيْلِ العَرِم فخرجَ من سبأ بمنْ تبعَه، وهو أبو ملوكِ الحيرةِ والشامِ وعُمان، وكانَ ملكهُ ثلاثا وستّين سنة، ثمّ ملَكَ بعدَه عبدُ كلالِ ابن مثوِّب أربعاً وسبعين سنة، وآمنَ بعيسى عليه السلام ثُمَّ ملَكَ بعدَه تُبّعُ الأصغرُ، وهو تُبّعُ بنُ حسّان ثمانياً وسبعين سنةً وهو الذي قتلَ يهودَ يثربٍ في أصحِّ الرواياتِ؛ وقصّةُ ذلك قال محمّدُ بن إسحق: كانَ الأوسُ والخزرجُ مستضعفين متهضّمينَ في أيدي اليهودِ، ومَلِكهم القيطون لا يزفُّ عروسٌ إلاّ اقتضّها[3]، فلمّا تزوّج مالكُ بنُ عجلان الخزرجي أُخته،

---

(١) زبرنا: بنينا بناءً متيناً.

(٢) ظفار: مقاطعة في الجزيرة العربية الجنوبية، قاعدتها ظفار المؤلفة من ثلاثة قرىً: سلالة، حفّة، الحصن، وظَفار: أيضاً مدينة قديمة في اليمن عاصمة الأمبراطورية الحميرية «منجد الأعلام/ ٤٤٢».

(٣) اقتضّها: أتمّ مُرادَه منها.

وأدخَلها على القيطون تشبّه مالكُ بن عجلان بالنساءِ وتستّر بثيابهُنّ، ودَخَل معهُنّ واختبا في ناحيةٍ من دارهِ فلمّا همَّ القيطونُ بأختهِ قام إليه مالكُ بن عجلان فقتلَه، ثُمّ خَرجَ إلى تُبّعٍ فاستصرخَه فجاءَ حتّى قتلَ من رؤساءِ اليهودِ وأعلامهم ثلاثمائة وخمسين رجُلاً غَيلَةً بذي حُرُضٍ؛ موضعُ بالمدينة فقالتْ امرأةٌ من يهودٍ ترثيهم: [وافر].

بـأَهْلـي لَمّـةٌ لـم تغـنِ شيئـاً ... بـذي حُـرُضٍ تُصفقّهـا الـريـاحُ
شبـابٌ مـن قُـريظـة[1] اتلفَتْهـا ... سيـوفُ الخَـزرجيّـة والـرمـاحُ
ولـو أربـوا بـأمـرهـمُ لحـالَـتْ ... هُنـالِـكَ دُونهُـمْ خَـوْذٌ[2] رَدَاحُ[3]

ويُقالُ: إنّ هذا كانَ ملك الشام الحارثِ الأعرجِ واللهُ أعلمُ، قَالَ: وهمَّ تُبّعٌ بأخرابِ المدينةِ فقالتْ له يهودٌ: إنّ هذا غيرُ ممكنٍ ولا أنتَ واصلٌ إليه، قالَ: ولِمَ؟ قالُوا: لأنّها مهاجَرُ نبيّ يخرجُ من مكّةَ فقبِل تُبّعُ اليهودية ودانَ بها، وأخذَ حبْرَيْن من أحبارهِم معَهُ إلى اليمنِ ومرَّ بالبيتِ وكساهُ البرودَ[4]، وهو أوّلُ من كساهُ وفيه يقول اليَمانُونَ: [خفيف].

وكسَـونـا البيـتَ الـذي كـرّم اللّـ ... ـــهُ مُـلاَءً معضّـداً وبُـروداَ

فلمّا قدمُوا اليمنَ اختلفُوا عليه لمتابعتهِ اليهودَ، وكانَتْ لهم نارٌ تخرجُ من جبلٍ يتحاكمُون إليها يزعمُون أنّها تصيبُ الظالَم ولا تمسُّ المظلومَ، واللهُ أعلَم، ويُشبهُ أنّهم كانُوا يقولُون هذا القولُ على جهةِ التخويفِ، فتحاكمُوا إليها فخرجْت فأحرقتْ عبدَة الأوثانِ، وتركتْ الحَبْرَين ومَنْ معهما فتهوّدَ خلقٌ كثيرٌ من اليمنِ وعلى اليهوديّةِ احرق النّاسُ بقولِ اللهِ عزّ وجلّ ﴿**قُتِل أصحابُ الأخدودِ النارِ ذاتِ الوَقود إذْ هم عليها قُعودُ**﴾ [البروج: ٦] ثُمّ ملك مرثدُ بن عبد كلال إحدى وأربعين سنةً، وتفرقَ ملكُ حميرٍ فلم يُعد ملكهُم اليمنُ وذلك في زمنِ اردشير الجامعِ، فملك ذو فايش وذو مجنٌ وذو نواس وذو الكُلاع وذو رُعَيْن وذو عُكيلان، ثُمّ ملكَ وليعةُ بنُ مرثد سبعاً وثلاثين سنةً، وفي زمانهِ أرسلَ الله على سباء سيلَ العرمِ فبادوا، ثمّ مَلكَ أبرهةُ بن الصبّاح ثلاثاً وسبعين سنة، ثمّ ملكَ حيّانُ بن عمرو سبعاً

(١) قُريظة: قبيلة من قبائل اليهود في يثرب، نكثوا عهدهم مع النبي وتحالفوا مع القرشيين في غزوة الأحزاب، فحاصرهم في معاقلهم واعمل فيهم السيّف، صادر املاكهم ووزّعها. «منجد الأعلام/ ٥٥٠».

(٢) خَوْذ: ما يجعله المحارب على رأسه ليقيها.

(٣) رَدَاح: الكتيبة الثقيلة الجرّارة.

(٤) البُرود: الأثواب المخططة.

وخمسين سنة، ثمّ ملَكَ ذو شناتر، ولم يكُن من أهلِ بيتِ الملوكِ ولكنّه من أبناءِ المقاولِ[1]، وكانَ لا يسمعُ بغلامٍ نشأ من أبناءِ المقاولِ إلاّ بعثَ إليه فأفسده حتّى قتلَه ذو نواس، وقصّةُ ذلك أنّه بلغَه من ذي نواسٍ ظرافةٌ وملاحةٌ فبعثَ إليه فأُحضرَ وكانَ له ذُؤابتان تنوسان على عاتقِهِ، وهو على دين اليهودِ، وهو صاحب الأخدودِ، وكانَ قد خبّأ سِكّيناً صغيرةً تحتَ ثيابِهِ فلمّا راودَه، على الفاحشةِ وخلاَ به وثَب عليه ذو نواسٍ، وبعجَ بطنَه وقتلَهَ، فحمِدت حُمير مذهبَه، وملّكُوه على أنفسِهِم.

قصّةُ أصحابِ الأُخدود:

روى محمدُ بنُ إسحق عن وهبٍ قال كان رجلُ من بقايا أهلِ دينِ عيسى يُقالُ له فيمونُ خَرجَ من الشامِ مع سيّارةٍ من العربِ فأخذُوه وباعُوه من أهلِ نجران[2] وكان أهلُ نجرانِ يعبدوَن نخلةً لهُم فقَالَ لهُمْ؛ فيمونُ: إنّ هذه النخلةَ لا تضرُّ ولا تنفعُ فلِمَ تعبدون؟ ولَوْ دعوتُ ربّي الذي أعبدهُ لأهلكَها، قالُوا: فافعل، فدَعا فيمونُ ربّهَ فجاءتْ ريحٌ فجعفَتْها عن أصلِها فأتبعه أهلُ نجرانَ وآمنوا بعيسى، وبلغَ الخبرُ ذا نواسٍ فسَار إليهم بجنودهِ فحاصرَهم زماناً، ثمّ آمنهم فأعطاهُم عهداً لا يغدرُ بهم إن هُمْ نزلُوا فلمّا نزلُوا خدّ بهم الأُخدودَ، وأوقدَ فيه النارَ، ثم جعَلَ يُجاءُ بفوجٍ بعدَ فوجٍ ويخيَّرون بينَ اليهوديّةِ والنار فمَنْ أبى عليه قذفَه في النّارِ، قالُوا حتّى أُتِيَ بامرأةٍ مَعها صبيٌّ لها تُرضعُه فلما نظرتْ إلى النارِ ذُعرَتْ لذلك، وكادتْ تُعرضُ عن دينِها فقال لها الصبيُّ مَهْ يا أُمّاهُ امضي على دينِك فإنّهُ لا نارٌ بعدَها فُرمي بالمرأةِ وابنِها في النارِ، قَالَ بعضُهم: فجعل اللهُ النارَ عليهما برَداً وسَلاماً فكفَّ ذو نواسٍ عن ذلك، ومضَى رجُلُ من أهلِ اليمنِ يُقالُ له ذو ثعلبانِ إلى ملكِ الحبشة ومعهُ صُحُفٌ مُحرَّقةٌ من الإنجيل يستصرخُه فبعثَ بجيشٍ إلى اليمنِ، وانهزمَ ذو نواسٍ من بينِ أيديهم فخاضَ في البحرِ بفرسِهِ حتّى غرق وفيه يقولُ عمرو بن معدي كرب: [وافر].

أَتُــوعــدُنــي كــأنَّــك ذو رُعَيْــن ... بــأَنعــم عِيشــة أو ذو نــواس
وكــايّــن كــانَ قبلــك مــن نعيــم ... ومُلــك ثــابــتٌ فــي النــاس راســي

---

(١) أبناء المقاول: أبناء دون الملك الأعلى الذي يقول ما شاء فينفّذ.

(٢) نجران: مدينة في شمالي اليمن على حدود عسير، دخلتها المسيحية عن طريق تجارها، كانت مسرحاً لاضطهادات عنيفة، انجبت اساقفة عديدين في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين «منجد الأعلام/ ٧٠٦».

قـديـمٌ عهـدهُ مـن عهـدِ عـادٍ   عظيـمٌ قـاهـرُ الجَبَـروتِ قـاسـي
فـأَمسـى أهلُـه بـادوا وأمسـى   يحـوّلُ فـي أنـاسٍ مـن أنـاسِ

وانقضى ملكُ اليمنِ، وغلبتِ الحبشةُ عليها وكانَ بينَ ملكِ الحارثِ الرائشِ إلى هلاكِ ذي نواس ألفُ سنة وستّمائة سنةٍ وستّون سنةٍ، وقدْ قِيلَ في قصّةِ الأخدودِ غيرُ هذا، وقدْ ذكرناهُ في كتابِ المعاني، ثمّ ملكتِ الحبشةُ وذلك في زمنِ قباذُ وأنوشروان قالُوا: ولمّا قُتل ذو نواسٍ أهلَ نجرانَ وأحرقَهم، وذهبَ صريخُهم إلى النجاشي ملكِ الحبشةِ يستنجُده قالَ: عندي رجالُ وليس عندي سُفنٌ، فكتَب إلى قيصرِ ملكِ الرومِ، وبعثَ إليه بالأوراقِ المحرَّقةِ من الأنجيلِ يُغْريه بذلكِ، ويُحْفِظه ويسألُه أن يُعينَه بالمعابرِ ليطلبَ بثأرِ دينهِم، فبعثَ إليه بسُفنٍ كثيرةٍ فحملَ النجاشي فيها جيشاً كثيراً إلى اليمنِ فلمّا سمعَ ذو نواس صَنَع مفاتيحَ كثيرةً وتلقَّاهم بها، وقَالَ: هذه مفاتيحُ كنوزِ اليمنِ خذوُها واستبقُوا الرجالَ والذرّية، فقبلُوا منه، ثمّ فرّقهم في المخاليفِ[1] والقُرى وأعطاهُم تلكَ المفاتيحَ وكتَب إلى كلِّ مِقْوَلٍ في مِخْلافٍ إذا كانَ يُوم كذا وكذا فاذبَحِ كلَّ ثورٍ أسودَ عندَكَ ففطِنُوا لذلك وقتلُوا أولئك الحبشة في يومٍ واحدٍ ولم يُنْجَ منهُم إلاّ الشريدُ، وبلغَ النجاشي الخبرُ فبعثَ بسبعين ألفِ مقاتلٍ وأمرَهم أن لا يدعوا رجلاً إلاّ قتلوهُ ولا بِناءً إلاّ هدمُوه فعلمَ ذو نواسٍ أنّه لا طاقةَ لهم بهِم فاستعرضَ البحرَ واقتحمَ اللُّجّة وكانَ آخرُ العهد به، وجاءت الحبشةُ فاستولوا على اليمنِ ورئيسُهم ابرهةُ الأشرمِ فخرّبوا المُدن، وقتلوا الرجالَ، وسبوا النساء والوِلْدان، ولم يبعثوا إلى النجاشي بشيءٍ من ذلك فبعثَ النجاشي[2] أرياط في جيشٍ كثيفٍ للقاءِ أبرهةَ فاتّعد للقتالِ يوماً، وتواقفا فغدرَ بارياطَ ابرهَةُ وقتلَه، ورُفع النجاشي الخبرُ فزعجَ نفَسه، وحلفَ بالمسيحِ أن لا يكونَ له ناهيةٌ حتى يُريقَ دمَ أبرهة، ويجزَّ ناصيتَه ويطأَ تُربتَه، ففزَع لذلك أبرهةُ وارتاعَ، وبعثَ إليه بالهدايا والأموالِ، وكتبَ إليه يستعيُنه ويستعطفه ويعتذرُ إليه من صنيعهِ بارياطَ، وبعثَ إليه بقارورةٍ من دمهِ وجرابٍ من تربةِ أرضه وجَزّةٍ من ناصيته، وقَالَ: يطأ الملكُ الترابَ ويُريقُ الدمَ ويجزُّ الشعرَ فيبّر قُسمَه بذلك، فرضى عنُه النجاشي وأعفاهُ، واستجمعَ لأبرهَة مُلكُ اليمنِ فبنى كنيسةً لم يَرَ الناسُ مثلَها في شرفِها وحُسنِها ونقشِها بالذهبِ والفضّةِ والزُّجاجِ والفسيفاء والألوان والأصباغِ وصنوفِ الجواهرِ، وسمَّاها القُلّيسُ

---

(١) المخاليف: جمع مخْلاف: وهي الكورة في البلاد ومنها «مخاليف اليمن».

(٢) النجاشي: قيس بن عمر الحارثي: شاعر يمني عاش في نجران ومكة، ناصر علياً في صفين (ت ٦٦٠) «منجد الأعلام».

وأمرَ النّاسَ أن يجعلُوا حجّهم إليها، ويتركوا حجّ مكّةَ، فجاء رجُلُ من النُّساكِ وقعَد في كنيسةٍ فغضب لذلك أبرهةُ، وهمَّ بغزو قريشٍ، وأوقدَ ناراً لطعامهم فلمّا ارتحلُوا عصفتِ الريحُ، وأشعلتِ النارَ وأحرقتِ القُليسَ فعندَ ذلك خرجَ الأشرمُ بالفيلِ إلى مكّة يهدمُ البيتَ.

قصّةُ أصحابُ الفيل:

وسارَ بخيلهِ ورَجْلهِ يقدّمهم الفيلُ لا يطأُ بلداً إلاّ استباحَهم وقتلهم فلقِيَه نُفيلُ بن حبيب الخثعميّ، وقاتلَه فهزمَه ابرهةُ وأسره، وكادَ يقتلُه فقالَ: أنا رجلٌ دليلٌ خِرّيت للفلواتِ فاستَبْقِني يكنْ خيراً لك، فتركَه يدلُّه وسارَ وبلغَ الخبرُ قريشاً، فتحصّنتْ في الشِعابِ ورؤوسِ الجبالِ، ولم يتخلّفْ بمكّة غيرُ عبدِ المطّلبِ جدِّ النبيّ ﷺ لأبيه وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم جدِّ النبي ﷺ لأُمّه، وجاء أبرهةُ حتّى نزلَ عرفاتَ، وأرسلَ إلى أموالِ قريشٍ فجمعَها وساقَها، وأخذَ لعبدِ المطّلب مائتي ناقةٍ فجاءَ عبدُ المطّلب يطلبُ إبله، واستأذنَ على أبرهة فأذِنَ له فلمّا دخلَ عليه رحّبَ به وعظّمه، وقَالَ ما حاجتُك؟ قالَ: إبلي، قال له أبرهة: قد كنتُ فيكَ راغباً فزهدتُ، تسألني إبلَك وتتركُ بيتكَ الذي هو دينُك، فقَالَ عبدُ المطلب: أنا ربُّ هذه الإبلِ وللبيتِ ربٌّ إن شاء منعَه فلما أصبحُوا جهّزوا الجيشَ، ووجّهوا الفيلَ نحو الكعبةِ فلمّا بلغَ الحرمَ بركَ وانصرفَ راجعاً نحو اليمنِ **﴿وأرسل اللهُ عليهم طيراً أبابيلَ ترميهم بحجارةٍ من سجّيل﴾** [الفيل: ٤] كما ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآنِ، فأهلكهمَ ووقعتِ الأكِلةُ في جسدِ أبرهةَ فحُمِلَ إلى اليمنِ فهلكَ بها؛ وفي هذه القصّةِ اختلافٌ كثيرٌ في كيفيّة مجيء الطيرِ وعددِ الفيلةِ ووجودِ المعجزةِ في غيرِ زمانِ نبيٍّ مبعوثٍ فذكرناها في كتابِ المعاني ولا معنى لإنكارِ مَنْ ينكرُ هذه القصّةَ، ويزعم أنّ القومَ كانَ أحرقَهم ثمارَ اليمنِ، وأوبأهم ماءُها وهواءُها فحُصبُوا أو جُدروا فهلكُوا ذلك أشيع فيهم وأفشى فيهم من أن يأتيَ عليه الكتمانُ، ولهمُ فيه من الأشعارِ ما لا يعترضُ شكٌّ في صِدْقه، فمنهُ قولُ عبد الله بن الزِبَعْرَي: [كامل].

فنكّبوا عن بطن مكّة أنّها ... كانت قديماً لا يُرام حريمُها
سايل أمير الجيش عنها ما رأى ... ولسَوْف يُنبي الجاهلين حليمُها
ستّون ألفاً لم يَؤُوبوا أرضَهـ ... ـمُ ولم يعِش بعد الإيَاب سقيمُها

ومنه قولُ الآخرِ: [خفيف].

كاده الأشرمُ الذي جاء بالفيـ ... ـل فولّى وجيشه مهزومُ

فاستهلّت عليهم الطيرُ بالجنـ ـدلِ حتّى كأنّه مرجومُ

وفي عامِ الفيلِ وُلد رسولُ الله ﷺ والمَلِكُ انوشروان وعلى الحيرةِ النعمانُ بنُ المنذر، ثمّ لمّا هلكَ ابرهةُ ملكُ ابنُه يكسومُ بن ابرهة اغتصبَ ريحانةَ بنتَ ذي جَدَن امرأة ذي يزنٍ أبي مُرّة الفيّاض، فاستنكَحها، وكانتْ ولدتْ لذي يزن سَيْفَ بن ذي يزن، ثمّ ولدتْ لابرهَة وكانَ خرج ذو يزن إلى كِسرى انوشروان يستنجدُه، ويستعينُه على السودانِ، وامتدَحه بالحميريّةِ فاعجَب كِسرى بقصيدتِه لمّا تُرجِمتْ له فواصلَه وحباهُ، وقَالَ: سأنظرُ في أمركِ وكان مُقيماً ببابِهِ على شبهِ العبدةِ حتّى هلَكَ وشبّ ابنُ ذي يزن، ونشأ وهو يظنُّ أنّه ابنُ ابرهة فقالَ له مسروق[1]: لعنَكَ اللهُ ولعنَ أباك فرجعَ سيفُ إلى أمّهَ وقَالَ: مَنْ أبي؟ قالتْ أبرهةُ، قَالَ: لا واللهِ لو كانَ أبي ابرهة ما سبّني ولا سبّه مسروقٌ فصدقتْه أمّهُ الحديثَ وإنّ أباه ذهبَ إلى كسرى فما غيرهُ، فتهيّأ الغلامُ وخرجَ إلى قيصرِ فشكا إليه فلم يُشْكِه، فجاءَ حتّى أتى النعمانَ بنَ المنذر ملكَ الحيرةِ واستشارَه في قصدِ كسرى فقالَ له النعمانُ إنّ لي عليه في كلِّ عامٍ وفادةٌ فأقِم حتّى يكونُ ذلك ففعلَ، ثمّ قدِم معه إلى كِسرى فاعترضَه سيفُ بن ذي يزن، وهو يسيرُ فصاحَ إنّ لي عندَك أيّها الملكُ ميراثاً فقَالَ: أنا ابن الشيخ الذي أتاك يستنجدك فأوعدتّه فعرفَ كِسرى ذلك، وسارَ حتّى دخلَ القصرَ، وجَلَس في الإيوانِ تحتَ التاجِ، وكَانَ تاجُه مثلَ العقنقلِ[2] العظيمِ معلّقاً بسلاسلٍ من ذهبٍ فلا يراهُ أحدٌ إلاّ بركَ هيبةً له، واستأذَن النعمانُ بنُ المنذر لسيفِ بن ذي يزن فأذِن له فلمّا رأى كسرى خرّ ساجداً له من هيبته، ثمّ قَالَ: غلبتْنا على بلادِنا الأغْرِبةُ فجئتُك لتنصرني، ويكونُ ملكُ بلادي لك، فقالَ: بَعُدت بلادُك مع قلّةِ خيرِها وما كنتُ لأُورّط جيشاً من فارسٍ، ثُمّ رقَّ له كِسرى لما ذكَر حالَ أبيه ومقامِه ببابِهِ إلى أن ماتَ وأمرَ له بعشرِ آلافِ درهمٍ، وخِلَعٍ فاخرةٍ ودوابٍّ، وقَالَ: الْحقْ بلادَك فإنّك لا تزالُ أكثرَ قومِك مالاً، فخرَجَ سيفُ من عندهِ وجعَل ينثرُ تلكَ الوَرِقَ ويُنهُبها النّاسُ فدعاه كِسرى، فقالَ: تنثرُ حبائي وتُنهبُ عطيّتي، فقَالَ: لمْ آتِك أيُّها الملكُ للمالِ وإنّما آتيك للرجالِ وما تُرابُ بلدي إلاّ من هذا يرغّبه في بلادهِ فاستصوبَ كِسرى ذلك من فعله وجمَع المرازبةُ والموابذة[3]، واستشارُهم في أمرهِ فقالُوا: أيُّها الملك إنّ في سجونِك رجِالاً قد حسبتهم للقتلِ، وهُمْ أهلُ بأسٍ وشدّةٍ وحدّةٍ فنرى أن تبعثَهم معهُ فإن أصابُوا كان

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٣.

(٢) العقنقل: الوادي العظيم المتسع، والكثيب المتراكم، وقانصة الضبّ «القاموس المحيط جـ/ ٤».

(٣) الموابذة: جمع موبذ: وهو الفقيه عند الفُرْس.

لك وإن هلكوا فذاك ما أردتَّ، فأمرَ بمنِ في السجونِ فأُحضروا فوجدوهم ثماني مائة رجلٍ، وكان فيهم إسْوارٌ[1] يُقالُ له وهرز يُعَدُّ بعشرةِ آلاف إسوارٍ في مكيدتِهِ وبأسِهِ فاستعمَله عليهَم، وحملهم في السُفنِ حتّى خرجوا بساحلِ حضرموت، وخرجَ سيفُ بن ذي يزنٍ فأخذَ على طريقِ البرِّ، وجمعَ من قومَه مَنْ أطاعَه إلى وهرز، وهَلكَ يكسومُ وملكَ أخوه مسروقٌ ابنُ ابرهة فَسارَ إليهم في مائةِ ألفٍ من الحبشةِ وحميرٍ والأعاريبِ، وأرسلَ إلى وهرز: لقدْ غدرَت بنفسِك حينَ طمعتَ في ناحيتِنا مع هذه الفئَةِ القليلةِ وإنْ شئتَ أذِنتُ لك فرجعتَ إلى بلادكِ، وإن شئتَ أخّرتُك حتّى تنظرَ في أمرِك، فقالَ وهرز: بل نضربُ بيننا أجَلاً لا يتعرّضُ بعضُنا لبعضٍ حتّى ينقضي الأجلُ ففعلوا، قَالُوا: وركب ابنُ لوهرز يسيرُ على فرسٍ له تحيتَ عسكرهم، فجَمح به فرسُه فأسقطه، وثارتِ الحبشةُ إليه فقتلتهْ، فأرسلَ إليهم وهرز: أنْ قَدْ نقضتُم العهدَ، وأخفرتُم الذمة، ثم أمرَ بابنِه فطُرِح في صعيدٍ ينظرُ هو وأصحابُه إليه ليدبّرهم، ولم يُظهرْ جزَعاً ولا أسفاً فلما انقضى الأجلُ خرج وهُرز إلى السُفْنِ التي جاء فيها فأحرقَها ودَعا بكلِّ نادٍ كان مع القومِ وجمعَهم، وقالَ: كلوا ثمّ أمرَ بما فضلَ فألقي في البحرِ وعمِدَ إلى فراشِهم ورحالِهم كلِّها فأحرقها، ثمّ قامَ فيهم خطيباً فقال: أمّا ما أحرقتُ من سفنِكم إلاّ وأردتُ أن أُعلِمكم أن لا سبيلَ إلى بلادِكم فإن أطاقَ أحدُكم أن يركبَ البحرَ بلا مركبٍ فليعبُر، وأمّا ما ألقيتُ من زادكم فإنّي كرهتُ أن يطمَع أحدُكم أن يكونَ معه زادٌ يعيشُ به يوماً واحداً فيفرَّ طمعاً في الحياة بذلك الزادِ، وأمّا ما أحرقتُ من ثيابِكم ومفارشِكم وأثقالِكم فإنّهُ كان يُغيظني إن كانتِ الدائرةُ عليكُم أن يلبسَها الحبشةُ ويفترشَها بعدَكم، وإن ظفرتُم لم تعدموا أمثالها، وإن هلكتم فما حاجةُ الأمواتِ إلى الأموالِ والمطارحِ والمفارشِ؟ ثمّ قال: إصدقوني يا قومُ عن نفسِكم فإن كنتُم تحدّثون أنفسَكم بالفرارِ فأخبروني حتّى اتّكي على سيفي ولا احتملُ عارَ الدّهرِ، فقَالُوا جميعاً: نحن لك تَبَعٌ وأنفسَنا لك النّداءُ، ثُمّ هيّأ عسكرةَ وعبّاهُم، وقَالَ: أَوْتِروا قِسِيَّكم ولم يكن رُؤي النُشّابُ قبلَ ذلك باليمن، وأقبَلَ مسروقٌ على فيلٍ له وعلى رأسِهِ تاجٌ وبينَ عينيه ياقوتُةٌ حمراءُ، وكانَ وهرز شيخاً معمّراً دُهْرياً قدْ كلَّ بصرهُ من الهَرَم وسقطَ حاجباه على عينيه، وفيه من بقيّةِ القوّةِ ما لا يُوترُ قوسَه غيره، فعصّب حاجبيه بعصابةٍ وأوترَ قوسَه، وقال: أينَ ملكُهم؟ قالُوا: على فيلٍ، قَالَ: إنّه على مركبِ مُلْكٍ قالوا قد نزلَ من الفيلِ وركبَ فرساً قالَ: نزلَ عن بعضِ المُلْكِ قالَوا: نزل عن الفرسِ وركبَ بغلاً، فقال بالفارسيّة: أين كوذَكِ خرست يعني ابن

---

(١) الإسْوار: الرامي بالسهام، وعند الفُرْس: القائد.

الحمار ذهبَ مُلكه، ثمّ قالَ لغُلامِهِ: أَخرِج من الجعبةِ نشّابةً، وإنّ من رسمهم أن يكتبوا على نشّابةٍ اسمَ صاحبِها وعلى أُخرى اسمَ أبيه وعلى الثالثةِ اسمَ الملكِ وعلى الرابعةِ اسمَ المرأةِ يتفألون بها ويتطيّرون، فأخرجَ الغُلامُ نشّابةً فقال ما الذي هو مكتوب؟ فقالَ: اسمُ امرأتِك، فقال: رُدَّها واخرجِ أُخرى، فردّها وأخرجَ أخرى فقال: ما عليها؟ فقال: اسمُ امرأتِك قال أنتَ المرأةُ وعليكَ طائرُ السُوءِ خرجتَ من بلادِكَ ولا همّةَ لك غير النساء رُدَّها وأخرج غيرَها، فردّها وخرجت نشّابةُ المرأةِ فتفألَ بها وهو ربّما كانوا يتطيّرون، وقالَ: زنان زنان نَضْرب نضرب، ثمّ قالَ: إذا رميتُ فإن أصبتُ ملكَهم فارمُوا حينئذٍ بالفترّجان، والفترّجان: أن يرمي الرجلُ خمس نشّاباتٍ، وإن أخطأتُ فلا يرمينَّ أحدُكم حتّى آمرهُ فتمعّطَ في قوسِهِ حتّى ملأها نزعاً، ثمّ سرّجها فأقبلتِ النشّابةُ كأنّها رَشاء[1] فصكّت الياقوتةُ بينَ عينَيْ مسروقٍ فطارتْ فُضاضاً[2]، وفلقتْ جبهَته، وتغلغلتْ في رأسِهِ حتّى خرجتْ من قفاهُ ولانتْ الحبشةُ، وانتقضتْ صفوفُهم، ثمّ رمُوهم فترّجاناتٍ فهزمُوهم، وقتلُوهم حتّى كانَ الإسوارُ يسوقُ المائةَ والمائتين والثلاثَ مائة من الأساري بينَ يديه، وذكَر أنّ رجُلاً ركضَ على جملٍ له ثلاثةَ أيامٍ والتفت إلى حقيبتِهِ فإذا فيها نشّابةٌ، فقال أبعدَ ثلاثٍ لا أُمَّ لك فظنّ أنّها أتَتْهُ من مسيرةِ ثلاثةِ أيّامٍ، وصفَتْ لوهزر اليمنُ ستَّ سنين وكانَ فتحها سنةَ إحدى وأربعين من مُلكِ انوشروان، ورسولُ اللهِ ﷺ ابنُ سنة أو سنتين أو فوقَ ذلك، ويُقالُ: بل كان ذلك في زمنِ هرمز بن انوشروان واللهُ أعلم، يقولُ أُميّة بن أبي الصلت: [بسيط].

ليطلبِ الوِتْرِ أمثالُ ٱبنِ ذي يَزَنٍ	إذْ رامَ في الحَرْب للأعداءِ أحوالا
فأَمَّ قيصرَ لمّا حانَ رِحْلته	فلم يجِدْ عنده بعضَ الذي سألا
حتّى أتى ببني الأحرارِ يقدُمهم	إيهِ لعمري لقد أسرعتَ قلقالا
للهِ دَرُّهُمُ من عُصْبةٍ خرجُوا	ما إنْ أرَى لهُمُ في الناس أمثالا
بيضٌ مرازبةٌ غُلْبٌ أساورَةٌ	تربّتْ في ٱلغارات اشبالا
يرمُون عن شُدفٍ[3] كأنّها غُبط[4]	بزَمْخرٍ[5] يُعجل ٱلمَرمِيَّ إعجالا

---

(١) الرشاءَ: ولد الظبية السريع الجري.

(٢) طارت فُضاضاً: أي متفرقة.

(٣) شُدُف: جمع أشدف وهو البعير المعترض في سيره نشاطاً.

(٤) الغُبط: جمع الغبيط: وهو الرجل يُشدّ عليه الهودج.

(٥) الزمخر: الشجر الكثيف الملتف.

أرسلتَ أُسْداً على سُودِ الكلاب فقدْ	أضحى شريدُهُمُ في الأرضِ فُلّالا
وَٱشْرَبْ هنيئاً فقد شالتْ نعامتُهم	وأسبِلِ اليومَ من بُردَيْك أسبالا
تلكَ المكارمُ لا قعبانِ من لَبَن	شيبا بماءٍ فعاد بعدُ أبوالا

قالُوا: وأقامَ سيفُ ذي يزن ملكاً من قِبلَ كِسرى ووهرُز له كالمَغْنِيّ والناصرِ إلى أن قُتل، وكانَ سببُ قَتلِهِ أنّه اتّخذَ خَوَلاً لنفسهِ منِ الحبشةِ فخلُوا به يوماً في مُتصيَّده، فقتلُوه، ثمّ لمّا ماتَ وهرُز ملكَ ابنه البنجان بنَ وهرُز، ثمّ مات وبعثَ كِسرى باذان فلم يزلْ عليها إلى أنْ بعثَ اللهُ نبيّنا محمّد ﷺ فاتّبعَه وآمنَ به.

وأمّا ملوك الحيرة والشام فمن سبأ بقول الله عزّ وجلّ ﴿ومزّقناهم كلّ ممزّق﴾ [سبأ: ١٩] زعموا أنّه لمّا احسّ عمرو بن عامر بسيلِ العرمِ قالَ: إنّي قد علمتُ أنّكم ستمزّقونَ كلَّ ممزّقٍ فمَنْ كانَ منكُم ذا همٌّ بعيدٍ وحملٍ شديدٍ ومُرَادٍ جديدٍ فليلحقْ بكاشٍ أو كروذ فكانت وادعةُ بن عمرو، ومَنْ كان بدن[1] وأمر ذعرٍ فليلحق بأرضِ شيثٍ فكانت عوف بن عمرو، ومَنْ كانَ منكم يريدُ عيشاً أنيساً وخرماً آمناً فليلحقْ بالأزدِ يعني مكّة فكانت خزاعة، ومَنْ كان منكُم يريُد الراسياتِ في الوحلِ المطْعماتِ في المحلِ فليلحقْ بيثربِ ذاتِ النخلِ فكانتْ الأوسُ والخزرجُ، ومَنْ كانَ منكم يريدُ خمراً وخميراً وذهباً وحريراً ومُلكاً وتأميراً فليلحقْ بكوفةُ وبُصْرى وكانت غسّان بنو جفنة ملوك العراقِ والشامِ، وأوّلُ مَنْ ملكَ الحيرةَ مالكُ بن فهم بن غنم بن دَوْس الأزديّ، وكان ممّن خرجَ من سبأ مع مزيقيا عمرو بن عامر في زمنِ اردشير الجامعِ أو بعدَه بقليلٍ، وفي كتبِ أهلِ الإسلام: أنّ ذلكَ كانَ في الفترةِ واللهُ أعلمُ، وكانَ ملكُه عشرين سنة ثمّ ملكَ بعدَه ابنهُ جذيُمة بن مالكِ الأبرشِ ويُقالُ له: الوَضّاحُ لبرصٍ كانَ به، وكانَ ولاّه اردشيرُ وكانَ مُلكُه ستّين سنةً.

وهذه قصّةُ جذيمة الأبرش:

زعمُوا أنّ منزلَ جذيمةِ الأبرشِ كان الأنبارَ والحيرَة، وكانَ لا ينادمُ أحداً ذهاباً بنفسهِ أنْ يكونَ له نظيرٌ، وينادمُ الفرقدَيْن، فإذا شرب قدحاً صبَّ لهذا قدحاً ولهذا قدحاً، وكانَ له أُختٌ مكينةٌ عنْده يُقالُ لها رقاشُ أمّ عمروٍ، وكان أخصُّ خدمهِ وأقربُهم من لخمٍ يُقالُ له: عديّ بن نصرِ بنِ الساطرون صاحب الحضرِ بأرضِ الجزيرةِ ملكِ السُّريانيّين فعشقتْه رقاشُ

(١) كذا غير واضحة في الأصل.

أختُ الجذيمة، وحمَلت منه فلمّا خافتِ الفضيحةَ قالت لعديّ: اخطُبني من الملكِ إذا سكِرَ ففعلَ ذلك فزوّجة ودَخَل بها فلمّا صحَا جذيمةُ ندِم، فأمرَ بعدّي فضُرب عُنُقُه وظهرَ الحمل برقاشٍ، فقالَ لها جذيمة: اصدقيني رقاشُ لا تكذبيني بحُرٌ حملتِ أم بهجينٍ أم لدُونٍ فأنتِ أهلُ لدونٍ، فقَالتْ: حملتُ ممّن زوّجتّني به فلمْ يلبثْ أن ولدتْ عمروَ بن عديّ فبناهُ جذيمةُ وعطفَ عليه، فلمّا نشأ استهوَتْه الجِنُّ فتَاهَ في الأرضِ فجعلَ جذيمةُ لمن أتى به حكمةَ، فخرَجَ في طلبِهِ رجُلان يُقالُ: لأحدِهما مالكٌ والآخرُ عَقِيل، ولم يزالا يطلبانَه حتّى أتَيا به فقالَ لهما جذيمةُ: احتكما فقَالا نُنادمُك ما عِشْتَ فنادماه أربعين سنةً، وفيه يقولُ مُتَمِم بن نُويرة[1]: [طويل].

وكنّـا كنَـدْمـانَـيْ جَـذيـمـة حِقْبـةً ... من الدّهرِ حتّى قِيلَ لن يتصدّعا

وقال الآخرُ: [طويل].

ألـم تعلمـي أن قـد تفـرّق قبلنُـا ... نـديمـا صفـاءٍ مـالـكٌ وعَقِيـلُ

وكان لعمرٍو طوقٌ من ذهبٍ صِيغَ له في صِباه، فلمّا ردّوهُ همّتْ أُمّه أن تردَّ عليه الطوقَ، فقالَ جذيمة: شبَّ عمرٌو عن الطوقِ فذهبَ كلامُه مثلاً، وكانتْ بأرضِ الجزيرةِ ملكةٌ يُقالُ لها الزبّاءُ من قِبَل صاحبِ الرومِ، فخطبها جذيمة ونهاهُ غُلامٌ له عن نكاحِها يُقالُ له قَصِيرٌ فعصاهُ ونكحَها، وقَالَ: لا ينكحُ الملكُ إلاّ الملكةَ فذهبتْ مثلاً، فلمّا دَخَل بها غدرتْ به فقتلتْه فقَالَ غُلامه: لا يُطاعُ لقصير أمرٌ فذهبتْ مثلاً، ثمّ ملَكَ بعدهَ عمرو بن عديّ ابنُ أُخت جذيمة، واحتالَ قصيرٌ في الطلبِ بثأرِ جذيمة، فأمر عمرٌو حتّى جزعَه وصلَمه، ثمّ خَرجَ هارباً إلى الزبّاءِ يشكو عمراً وأنّه اتّهمه في قتلِ خاله فضمّته الزّباءُ إليها وولّته أعمالَها، ثُمّ سألها أن تبعثَه إلى هَجَرٍ[2] ليأتيها من بضاعِتها وتجارتِها فأرسلْته بمالٍ بعد ما وثقتْ بناحيتِهِ وأمِنَتْ غائلتَه فجاءَ قصيرٌ على الإبلِ فافتكَّ بها، فاقعدَ رجالاً شاكّين في السلاحِ في الصناديقَ، وحملَ الصناديقَ على ظهرِ الإبلِ، وأقبلَ قصيرُ بالعيرِ فأشرفتِ الزّباءُ من فوقِ قصرِها، ويُقالُ كانتْ كاهنةً فقالت: [رجز].

مـا للجمـالِ مشيُهـا وَئِيـدا ... أجَنـدلاً يحمِلْـنَ أم حـديـدا
أم صَـرَفـانـاً بـارداً شـديـدا ... أم الـرجـال جُثَمـاً قُعـودا

---

(١) هو شقيق مالك بن نويرة الدي قتله خالد بن الوليد «أسد الغابة جـ/ ٤».

(٢) هَجَر: بلغة حمير والعرب العاربة (القرية) منها هجر البحرين وهجر نجران وجازان وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرية «معجم البلدان ٥/ ٤٥٢».

فلمّا دخلتِ الإبلُ القصرَ خرجَ الرجالُ بأيديهم السيوفُ فرهبتِ الزّباءُ إلى نَفَقٍ لها تحتَ الأرضِ، كانتْ أعدتْه للحوادثِ فوجدتْ عمرَو بن عديّ قد كمن على فُوّهةِ السرَبِ فأيقنتْ بالهلاكِ فمصّتْ خاتَمها وكان مسمُوماً، وقالَتْ منيّتي بيدي فذهبتْ مثلاً، وفيه يقولُ الدُرَيديُّ: [رجز].

فـاْستنـزلَ الـزّبّـاءَ قَسْراً وَهْـيَ مـن عُقـاب لُـوحِ الجـوّ أعلـى مُنتمَـي

فلمْ يزلِ الملكُ في بني عمرو بن عديّ حتّى كانَ زمنَ قباذ بن فيروز بن يزدجرد الأثيمِ، فجاءَ الحارثِ بن عمرو بن حُجر الكنديّ آكلُ المُرارِ، ودخَلَ في دينِ المزدكيّةِ فولاّه قُباذُ الحيرةَ فجاء حتّى قَتلَ المنذرُ بنَ ماء السماء، وبعثَ ابنةَ حُجر بن الحارث أبا امرىء القيسِ الشاعرِ على بني أسدٍ، فلمّا ملكَ أنوشروان ردَّ ملكَ العربِ إلى المنذرِ بن امرىء القيسِ بن عمرو بن عديّ، ثمّ ملكَ امرؤ القيس بن عمرو بن عديّ، ثمَّ ملَكَ ابنُه النعمان بن امرىء القيس، وهذا هو النعمان الأكبرُ الذي بنى الخَوْرنقَ والسَديرَ في عهد بهُرام جُورَ، وكانَ خاصّتُه فساحَ في الأرضِ، ذكروا أنّه أشرفَ من الخورنق في زمنِ الربيعِ فنظرَ نحو المشرقِ حتّى رجعَ نظرُه حسيراً عن أقاصي بلوغ خيلِهِ ونعمِه، فقَالَ: لمن هذا؟ فقالُوا: لك أبيتَ اللعنَ، ثمّ نظرَ نحو المغربِ إلى بياضِ أنهارٍ جاريةٍ وجنانٍ زاكيةٍ، فقال: لمن هذا؟ فقالوا: لك أبيتَ اللعنَ فقالَ: فهل أوتي أحدٌ مثل هذا؟ فقام رجُلٌ من الرابضةِ، والرابضةُ؛ بقيةٌ من أهلِ العلمِ لا تخلو الأرضُ منهم فقالَ: أبيتَ اللعَن إنّما أعجبتَ بفانٍ لا يبقى وزائلٍ لا يدومُ، قَالَ: فكيف المخرجُ فقالَ العملُ بطاعة الربِّ والتخلي عن الدّنيا قال: فإذا فعلتُ ذاك فمَهْ؟ قال: ملك دائمٌ لا يزولُ ومُقامٌ ليس بعدَه شخوصٌ وحياةٌ لا تموتُ، قَال: فإذا كانَ وقْت السحرِ فاقرَعْ عليَّ بابي فأتاه الرجلُ للوقتِ، فإذا هو قدْ صبّ على نفسِه استياحاً فساحَ معه حتّى لحقا باللهِ ويذكرهُ عديُّ بن زيدٍ في قصيدةٍ طويلةٍ: [خفيف].

وتــأمّــلْ ربَّ الخــوَرْنَــقِ إذْ أشــ ـــرفَ يــومــاً وللهُــدى تفكيــرُ
ســرَّه مــا رأى وكثــرةُ مــا يمــ ـلـك والبحـر مُعْـرِضـاً والسَّـدِيـرُ
فــاْرَعَــوى قلبُــه فقــال ومــا غِبْطـة حـيٍّ إلـى الممـاتِ يصيـرُ
وأخــو الحضــر إذْ بنــاه وإذ دِجْــ ـلـة تُجْبَـى إليـه والخـابـور[1]

---

(١) الخابور: أحد روافد دجلة ينبع في أرمينيا الجنوبية ويصبُّ في دجلة في العراق «منجد الأعلام/ ٢٦٤».

شـــادَهُ مـــرمـــراً[1] وجلّلـــهُ كِلْـ ـــســاً فلِلطَّيْــر فــي ذُراه وُكـــور
لـــم تَهَبْــه رَيْــبُ المَنــونِ فبــادَ المُلْــك عنــه فبــابُــهُ مهجــورُ
أينَ كِسرى كسرى الملوك أنُوشر وان أم أيـــنَ قبلَـــه شـــابـــور
وبنـوا الأصفـرِ الكـرام مُلـوكُ الـ ـــروم لـم يَبْـقَ منهُـمُ مـذكـور
أيُّهـا الشـامـتُ المعيّـر بـالـدَّهـ ــر أأنــت المُبـرَّأ المـوفـور
أم لـدَيْـك العهـدُ الـوثيـقُ مِـنَ الأ يّـام بـل أنـتَ جـاهـلٌ مغـرور
أم رأيـتَ المنـونَ أبقَيـنَ أمْ مَـنْ ذا عليـه مـن ان يُضـامَ خفيـر
ثـم بَعْـدَ الفـلاحِ والخَيْـرِ والإ مَّـــةِ وارتْهُـــمُ هُنــاك القبـــور
ثـــمّ صـــاروا كـــأنّهـــم وَرَقٌ جَـ ـفَّ وألوَتْ بها الصّبا والدَّبُور[2]

ثمّ ملَكَ المنذر بن النعمان وأُمّه يُقالُ لها ماءُ السماءِ لحسنِها وجمالِها، ويقالُ لمزيقيا أيضاً ماءُ السماءِ لأنّه إذا كانَ قحطَ اجتنى فأقامَ مالَهُ مقامَ القَطْر، ويُقالُ: هذا أبو عامرٍ ولاّه أنوشروان بَعَد ما كان أبُوه قُباذ الملكُ ولّى الحارثَ بن عمرو بن حُجْرِ المعصوب.

وهذه قصّةُ الملك المعصوبِ في زمنِ قباذ:

ذكروا أنّه لمّا ولاّهُ قباذُ العربَ كلَّها استعملَ ابنةَ حُجر بن الحارثِ أبا امرىءِ القيس الشاعرِ على بني أسدٍ فكانَ يأخذُ من كلِّ واحدٍ منِهمُ في كلِّ عام جَزَّةً من صُوفٍ وجِراب[3] أقِطٍ[4] ونَحْياً[5] من سَمْنٍ فلمّا ضعُف أمرُ قباذ وخلَعتْه المزذكيّةُ منعُوه إتاوتَهم فقتلَ أربعين من سَرَواتِهم بالعِصِيّ فسُمّوا عبيدُ العصا، ثمّ وثبُوا عليه فقتلُوه، وكانَ قد طردَ ابنَه امرىءَ القيس لقولِه الشِعر، فلمّا قُتل أبوه مرَّ إلى قيصرٍ يستنصرُه على بني أسدٍ فهوِيَتْه ابنةُ قيصرٍ، وكانَ رجلاً طُوالاً جميلاً ويُقالُ: إنّه خالفَ إليها فصرفَه قيصرٌ ووعدَه أن يتبعهَ الجيوشُ فلمّا كان بأَنْقِرةٍ؛ مَنْزِلٌ بالشامِ بعثَ إليه بثيابٍ مسمومةٍ فلما لبَسها تساقطَ لحمَه فأيقنَ بالهلاكِ، وقَالَ ربَّ قصيدةٍ مثعنجره وخطبةٍ مسحنفرة تبقي غدا بانقره ثمّ أنشأ يقول: [طويل].

(١) مرمراً: رُخاماً.
(٢) الدّبُور: الريح الغربية.
(٣) جراب: وعاء من جلد.
(٤) الأقطِ: الجبْن والواحدة منه «الاقطة».
(٥) النّحْي: زقّ السمن.

أجـارتنـا إنـا غـريبـان هـاهُنـا وكـلُّ غـريـب للغـريـب نسيـب
أجـارتنـا إنَّـا مقيمـان هـاهُنـا وإنّـي مقيـمٌ مـا أقـام عسيـبُ

وأنشد قصيدتّه السينيّة التي يقول فيها: [طويل].

فلـو أنّهـا نَفْس تمـوت سَـوِيَّـةً ولكنّهـا نَفْـسٌ تسـاقَـطُ أَنْفُسـاً

وماتَ وكانَ امرؤ القيسِ عند خروجِهِ إلى قيصرٍ، أودَع السَّمَوْءَلَ[1] ابن عَادياءَ اليهوديّ شِكَّةَ مائةِ رجلٍ، فلمّا ماتَ امرؤ القيسِ جاء الحارثُ بن جَبَلَةٍ الغسّاني ملكِ الشام يطلبُها منُه فأبى السموءَلُ أن يُعطَيه شيئاً دونَ أمرِ وليّه، وتحصّنَ منه، فأخذوا ابناً لهُ فقتلوهُ، وهو ينظرُ إليه من القصرِ ولم يَغْدِر بمالِ امرىء القيسِ فذكرهَ الأعشى في قصيدته: [بسيط].

كُـنْ كـالسَّمـوءَلِ إذْ سـارَ الهُمـامُ لـه بجحفـلٍ كسـوادِ الليـلِ جـرّار
فقـالَ غَـدْرٌ وثُكـلٌ أنـت بينهمـا فـاخْتِـرْ فمـا منُهمـا حـظٌ بمختـارِ
فشـكّ غيـرُ قليـلٍ ثـمّ قـالَ لـه اذبـحْ هـديَّـك إنّـي مـانـعٌ جـاري

ثمّ ملَكَ عمرو بنُ المنذرِ وأمُّه هِنْدُ بنتُ الحارثِ بنُ عمرو الكنديّ ويُقالُ له عمرو بن هندٍ يضرّط الحجارة لشدّة وَطْأتِه وإلحاحِهِ في المضايقةِ ويُقالُ له أيضاً المحرّقُ لأنّه أحرقَ قوماً.

وهذه قصّةُ عمرو بن هند:

ذكرُوا أنّ ناساً من بني دلم أصابُوا ابناً لعمرو خَطاءًفآلى ليُحرقنّ مِنهم مائةًفأحرقَ مِنهمْ ثمانيةًوتسعين رجُلاً، ولم يُصِبْ مِنِهمْ غيرُهم ثمّ أكملهمَ بامرأةٍ نهشليّةٍ ورجلٍ من البراجمِ، ولذلك قِيلَ: في المثلِ انّ الشقيّ وافدُ البراجمِ، وقد ذكره الدريديّ في قصيدتهِ يَصِفُ ملُوكاً فقَالَ فلانٌ ثمّ فلانٌ ثمّ ابنُ هند باشرتْ نيرانُه يـومَ أوارةَ تميمـاً بالصـلا، وعمرو هذا قتلَ طَرفةَ[2]

(١) شاعر جاهلي يهودي (صموئيل): صاحب الحصن المعروف بالابلق، يضرب به المثل في الوفاء لأنّه فضل قتل ابنه على التفريط بامانة أودعت عنده، (ت ٥٦٠ م) ـ «منجد الأعلام/ ٣٦٦».

(٢) طرفة بن العبد، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات، ابن أخت المتلمس، بددّ ثروته، وهام متشرداً إلى أن اتصل بعمرو بن هند ملك الحيرة فمدحه ثم غضب عليه الملك وأمر بقتله «ت ٥٦٤ م» «منجد الأعلام/ ٤٣٦».

وأفلتَ المتلمّس[1] فقال: [كامل].

أودَى الذي علَق الصحيفةَ منهما ونجا حذَارَ حياتهِ المتلمسُ

ثمّ مَلكَ بعدهَ النعمانُ بنُ المنذر بن امرىء القيس أبو قابوس صاحبُ النابغةِ[2] وهو الذي قتلَ عبيدُ بن الأبرصِ[3] الشاعرُ، وعديّ بنُ زيد العباديّ فقتلَه كسرى ابرويزُ.

وهذه قصّةُ النعمانِ بن المنذر أبي قابوس:

ذكُروا أنّه كانَ له يومانَ يومُ بُؤْسٍ لا يرى فيه أحداً إلاّ قتَلهَ، ويومُ نُعْمَى لا يرى فيه أحداً إلاّ وصلَه، فأتاهُ عبيدُ بن الأبرصِ في بُؤْسِهِ، وهو لا يعلمُ به وقدْ امتدَحه بقصيدةٍ فلمّا أُخبَر بسوءِ اختيارهِ في لقائهِ ذلك اليومِ أُرتجَ عليه الكلامُ ثمّ لمّا قُدّم للقتلِ قيلَ: أَنْشِدْ قصيدتَك قال: حالَ الجريض[4] دونَ القريضِ فذهبت مثلاً فضُربتْ عنقُه، وأمّا عديٌّ بن زيد وكان ترجمانُ كِسرى أبرويز وكاتبُه بالعربيّةِ وهو الذي سعى في أمرِ النُّعمان، ووصفَ لأبرويزَ منهُ جلادةً وغَنَاءً حتّى ولاّهُ العربُ فكره النعمانُ أن يكونَ لأحدٍ عليه مِنّةٌ له أو صنيعةٌ عندَه فحبسَه، وجَعلَ يقولُ الشعرَ في حبسهِ ويَعظه ويستعطفهُ، وكان أحدُ الحكماءِ من قُرّاء الكتبِ فلم ينفعْه شيءٌ من ذلك وقتَلهَ أُخْرِيًا، فاحتالَ ابنُه زيدٌ بنُ عديّ بن زيد حتّى توصّلَ إلى ابرويز أخذَ مُقامَ أبيه في الترجمةِ والكتابةِ، وكان ابرويزُ شغِفاً بالنساءِ، وقرأتُ في تأريخِ اليمنِ أنّه كانت عنده يومَ قُتِلَ اثنتي عشرَ ألفِ امرأةً وجاريةً فذكرَ زيدٌ بن عديّ نساءَ آلِ المنذرِ بالجمالِ والكمالِ، فكتب إليه البرُيز بأن يبعثَ إليه من جواري العربِ، ويُقالُ: بل خطَب إليه بعضَ نسائهِ فلما قرأ النعمانُ الكتابُ قَالَ: وما يصنعُ الملكُ بعُربان البوادي بادية العراقيبِ[5] أينَ هو

---

(1) شاعر جاهلي من أهل البحرين، وهو جرير ابن عبد المسيح الضبعي خال طرفة بن العبد البكري، له «ديوان» روي عن الأصمعي «ت حوالي ٥٦٩ م» «منجد الأعلام/ ٦٣٣».

(2) النابغة الذبياني: من فحول شعراء الجاهلية. كان نصرانياً من المذهب المونوفيزي على الأرجح، أقام في بلاط ملوك الحيرة ولا سيما النعمان أبو قابوس ثم لجأ إلى ملوك غسّان ومدحهم أيضاً ثم عاد إلى ملوك الحيرة ثانية واعتذر منهم من أشهر شعره «الاعتذارات» «ت نحو ٦٠٤ م» «منجد الأعلام/ ٧٠٢».

(3) شاعر جاهلي مدح الأمراء، قتله المنذر بن ماء السماء، «ت ٥٥٤ م» «منجد الأعلام/ ٤٥٥».

(4) الجريض: الرّيق بنُصّ به.

(5) العراقيب: قرية ضخمة قرب حِمى ضرية للضباب «معجم البلدان ٤/ ١٠٧».

عن مَها السوادِ إنّ للملك فيهنّ لمندوحةً[1] وأجابَ عن الكتابِ فحرّف زيدٌ بن عديٍّ الكلامَ عن وجهِهِ، والعربُ يسمّون النساء المهَا والبقرَ والظّباءَ والنِعاجَ، وقالَ: يقولُ النعمانُ: إنَّ في بقرِ السوادِ لمندوحةً فغضبَ ابرويز وبعثَ في طلبِ النعمانِ، فهربَ النعمانُ فاستودَعَ شِكّتَهَ وعيالةَ هاني بنِ مسعودٍ، وبعث أبرويزُ جيشاً يحملُ تلكَ الشكّةَ فأبى هاني أن يسلّمَها إليهم، وقاتلَهم وهزمهم، وهذه الوقعةُ تُسمّى يومَ ذي قارٍ[2]، ثمّ رجَع النعمانُ إلى أبرويزَ فلَقِيه زيدُ بن عديّ فقَالَ له: أنتَ فعلتَ هذا يا زُيَيْدُ والله لئِنْ بقيتُ لأسقينّك بكأسِ أبيك، فقَالَ: انجُ نعيمُ ولقد وضعتُ لك آخيةً لا يقطعُها المُهرُ الآرِنُ[3]، ثُمّ أمرَ ابرويزُ بالنعمانِ فطُرِحَ تحتَ أرجلِ الفيلةِ بعدَ ما حُبسَ زَماناً، وفيه يقولُ الشاعرُ:

بيـــنَ فيـــولِ الهنـــدِ تخبّطتـــه   مختبطـــاً تُـــدمـــى نـــواحيـــهِ

وفيه يقولُ الأعشى: [طويل].

هو المُدخلُ النعمانَ بيتاً سماؤه   نحور فيولٍ بعد بيتٍ مُسَرْدَقِ[4]

وقد ذُكرت هذه القصّة في موضعٍ آخر، ثمّ خَرجَ المُلكُ عن آلِ المنذرِ وولّى ابرويُز اياسَ بن قبيصة الطائي وشهرام الفارسي وماتَ إياسٌ بعينِ التمرِ، وفيه يقولُ زيدُ الخيل[5]: [طويل].

فـإن يَـكُ ربُّ القـومِ خلّـى مكـانَـه   فكـــلُّ نعيـــمٍ لا محـــالـــةَ زائـــلُ

ثُمّ ولّى المنذُر بنُ النعمان بن المنذر فأجلاهُم العلاءُ بن الحضرميّ عن البحرين في عهدِ رسولِ الله ﷺ واستمرَّ بهِم الانتقاضُ للإسلام إلى أن فَتَح السوادَ سعدُ بن أبي وقّاصٍ زمنَ عمر بن الخطّابِ رضي الله عنهما، وجفنةُ: هو عمرو بن عامرٍ مزيقياء، وولدُ جفنة، آلُ العنقاءِ، وآلُ مُحرّق فهم: آلُ غسّان بالعراقِ والشامِ، فأوّلهُم الحارثُ بن عمرو الغسّاني،

---

(١) المَنْدوحة: السّعة والفسحة.

(٢) ذوقار: ماء لبكر بن وائل، قريب من الكوفة بينها وبين واسط، تواقع قربه عرب وائل مع الفرس، وكان النصر فيه للعرب، أوائل القرن السابع الميلادي. «منجد الأعلام/ ٢٩٩».

(٣) المهُر الآرِنُ: النشيط.

(٤) بيت مُسَردق: أي نصبت عليه السُرادق: والسُرادق: الفسطاط الذي يُمدّ فوق صحن البيت.

(٥) شاعر جاهلي من أبطال الجاهلية سمّي زيد الخيل لكثرة خيله، وفد على النبي في وفد طيء وأسلم فسمّاه النبي زيد الخير، مات بالحمى (٩ هـ) «منجد الأعلام/ ٣٤١».

ويُقالُ له: الحارثُ الأكبرُ، ثمّ ملَكَ الحارثُ بنُ أبي شمر: وهو الحارثُ الأعرجُ وأُمّهُ ماريّةُ ذاتُ القُرطين، وسارَ إليه المنذرُ بنُ ماءِ السماءِ في مائةِ ألفٍ فوجه إليهم لبيدُ بن ربيعة[1] الشاعرِ، وهو غُلامٌ فأظهرَ أنّه بعثَه للصُلْحِ فأحاطُوا بهم، وهم غارون غافلون، فأصابُوا منِهم وهزمُوهم، وأسروا منِهم خلقاً كثيراً، فأتُوا بهِم فسألَه النابغةُ الذبيانّي أنْ يُطلقَ عنَهم ففَعل وأتاهُ يمدحُ علِقمَة بن عبدة[2] في اطلاقِهِ عن الأساري: [طويل].

إلى الحارثِ الوّهابِ أعملتُ ناقتي لكلكلِهـا والقُصـريـيـن[3] وَجيـبُ
وفـي كـلِّ حـيّ قـد خبطْتَ بنعمـةٍ وحُـقّ لشـاسٍ مـن نـداك ذَنـوبُ

فقالَ الحارثُ: نعم واذنبه، ثمّ ملَكَ الحارثُ الأصغرُ بنُ الحارثِ الأعرجِ بنِ الحارث الأكبرِ، وفيهم يقولُ النابغة الذُبيانيّ: [سريع].

هـذا غُـلامٌ حسـنُ وجهـه مستقبـلُ الخيـرِ سـريـعُ التمِـامْ
للحـارثِ الأكبـرِ والحـارثِ الأَ عـرجِ والأصغـرِ خيـرُ الأنـامْ

وكانَ آخرُ ملوكهِم جَبَلةَ بنَ الأيهمِ[4] أسلمَ في عهدِ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ودخَلَ الرومُ وانقضى ملكُهم، وأوّلُ من دخَل الشامَ سَلِيح[5] وهم من غسّانَ، ويُقالُ: من قُضاعة[6] فدانتْ بالنّصرانيّةِ، وملّك عليها ملكُ الرومِ رجُلاً يُقالُ له: النعمانُ بنُ عمرو بن مالك، ثمّ ملك بعدَه ابنُه مالكُ بن النعمان ثمّ ابنُه عمرو بن مالك، ولمّا خرجَ عمرو بن عامر مزيقياء من اليمنِ تفرّقَ ولدهَ في البلادِ، فصارَ إلى جفنةِ ملوكُ الشام.

---

(١) شاعر مخضرم من أصحاب المعلقات، انتقل إلى الكوفة بعد إسلامه، وهو من بني عامر «ت ٦٦١ هـ» «منجد الأعلام».

(٢) شاعر جاهلي من بني تميم، مدح الأمراء في الجاهلية، اتصل بالمناذرة في الحيرة، وامتدحهم «ت ٥٩٨ م» «منجد الأعلام».

(٣) القَصَريين: ضلعان يليان الطفطفة أو يليان الترقوتين. «القاموس المحيط جـ/ ٢».

(٤) يعتبره المؤرخون آخر ملوك الغساسنة، شارك الروم في معركتي دومة الجندل واليرموك، ويقال أنه أسلم في أيام عمر بن الخطاب ثم ارتد وقصد القسطنطينية وفيها توفي «٢٠ هـ» «منجد الأعلام/ ٢٠٨».

(٥) سليح: قبيلة عربية نصرانية أصلها من جنوبي جزيرة العرب، من أوليات القبائل التي امتلكت بلاد الشام منها اتخذت الزّباء ملكة تدمر جيشها. «منجد الأعلام/ ٣٦٣».

(٦) قُضاعة: قبيلة عربية جنوبية، من قبائل حمير بن سبأ، قطنت شمالي الحجاز بين العراق وسورية ومصر. «منجد الأعلام/ ٥٥٣».

هذا ما حُفِظ من تواريخ ملوكِ هذه الأقاليمِ ولا بُدّ أن للهندِ والرومِ انتساقاً وتأريخاً وكذلك الصينُ لكنْ لم نَرَ العلماءِ تكلّفوا ذلك، ولا ذكروُه في كتبهِم فقَدْ تصعبُ جميعُ أيّام مَلِكٍ وبلدٍ واحدٍ وشخصٍ واحدٍ، ويفوتُ الضَبْطَ وقوعُ الاختلافِ فيها فيما يُحفظُ ويُحكى فكيفَ أيّامُ ملوكِ الأرضِ ومَنْ يُحصيها إلاّ اللهُ عزَّ وجلَّ؟ ولَعمري إنّ فيما ذكرنا موعظةً وعبِرةً وتأديباً وتنبيهاً، ويزعمُ قومٌ من المنّجمين: أنّ الملكَ ثابتٌ في بيتِ رجلٍ واحدٍ بإقليم الصينِ مُذ كذا وكذا ألفِ ألفِ سنةٍ فمن يتحقّقُ ذلك مع ما يُرى من سرعةِ الانتقالِ في إقليمنا وتشوُّش أحوالِ مالكيها، واللهُ أعلمُ، وقَدْ ذُكرِ شيءٌ من تواريخِ ملوكِ الرومِ واليونانيّينِ مجرّداً من الأخبارِ والقصص، وما أرى فيه كثيرَ فائدةٍ، وقد حُفظ من أيّامِ دارا الأكبر، وهو أوّلُ من وظّفَ من ملوكِ فارسَ القديمةِ على الرومِ، وأخذَها من فليقوس أبي الأسكندرِ، وكانَ يلي اليونانيّين، وملَك الاسكندرُ بعدَ أبيه الرومَ، وخرجَ فاستولى على الأرضِ، وقَتلَ دارا الأصغر، وغصَب بينَ ملوكِ المشرقِ، ثمّ ملكَ بعدَه خليفتُه بطليموسُ الأديبُ، وبطليموس بلغة يونان: المَلك، ثم ملكَ بعدهَ بطليموسُ لغوس محبُّ الأخِ، وهو الذي غزا بني إسرائيلَ بأرضِ فلسطينَ فسباهم، ثمّ اطلقَ عنهم، وردَّهم إلى بيتِ المقدسِ، ثم ملكَ بعدهَ بطليموسُ الصانعُ، ثمّ بطليموسُ محبُّ الأبِ، ثمّ بطليموسُ الظاهرُ، وهو صاحبُ علم النجومِ، ثمّ بطليموسُ المخلّصُ، ثم، ثم، ثم عشرةُ أنفسٍ كلُّهم ملوكٌ، وكلُّهمُ بطليموسُ، وتسعةُ رجالٍ، وعاشرُهم امرأةٌ فهؤلاء الكُفّارُ كانُوا ملوكَ اليونانيّين.

وأمّا ملوك الروم:

قالَ العربُ: تسمّيهم القياصرةُ والهراقلُ، فأوّلُ من تحرّكَ منهم بعدَ الاسكندرِ في زمانِ الأشغانيّين قسطنطينُ المظفّر وكانَ همَّ بغزو فارسَ كما فعلَ الاسكندرُ، فجُمعَ ثلاثون وأربعُ مائة ألفِ من مقاتلٍ من جنودِ ملوكِ الطوائفِ، وغزوا الروم فاثخنوا فيهم ووظفُوا عليهم الفِدْيةَ فذاك حملهَم إلى بناءِ قسطنطينيّة، وإنّما نُسِبَ إلى قسطنطين لأنّه بناها، وكان ملكَ قبلَه وبعدَ الاسكندر عِدَّةُ ملوكٍ فلم يتعرضْ لفارسَ منهم غيرُ أسيانس الذي غزا بني إسرائيلَ بعد أرميا النبي فقتلَهم وسباهَم، ومنهم افطنجس وكان أنجسَ منه وانحسَ: وهو الذي بنى انطاكيّة، ويُقالُ: إنَّ أوّلَ من ملَكَ الرومَ بعدَ الاسكندرِ بلافسُ ثم سليفيسُ ثم افطنجس، ثم ظهرَ عيسى عليه السلام بأرضِ الشامِ والمَلِكُ هرادس، ولا أدري مَنْ كان يملكُ الرومَ يومئذٍ، ثم مَلكَ طباريسُ بعَد ما رُفع عيسى عليه السلام، ونصب الأوثانَ ودَعا

الخلقَ إلى عبادتِها، وكان ينزلُ الروميّة، ثمّ ملَكَ بعدَه فليوذيسُ فقتَلَ النصارى، وقَتلَ شَمعون الصفا صخرةَ الإيمانِ، والنصارى يرَوْنه نبيًّا، ثم ملَكَ ططوسُ بن اسفيانِس فغزا بني إسرائيلَ وقتلَهم وسباهم، وخربَ بيتَ المَقْدِسِ حتّى لم يبقَ حجرٌ على حجرٍ، ولم يزلْ خَراباً إلى أن قامَ الإسلامُ وهو إحدى المرّتين اللتين وعدَ اللهُ خرابه فقال ﴿لتُفسدُنّ في الأرضِ مرتّين ولتَعْلُنّ عُلواً كبيراً﴾ [الإسراء: ٤] ومن ثَمَّ في قولِ بعضِ أهلِ العلمِ وقعتْ قُريظةُ والنضيرُ إلى أرضِ الحجازِ فتولّوا يثرب، وتنصّرتِ الرومُ بأسرِها، وأراهُ في زمنِ ططوس أو بعدَه، ثم تركتِ النصرانيّة في زمنِ قسطنطين، وعبدتِ الأوثانَ، ثُم عادتْ إلى النصرانيّةِ بعدَه، وقدْ اختلفتْ بهم الأحوالُ في الديّنِ بعد عيسى عليه السلام إلى أن قامَ الإسلامُ غيرَ مرّة، وكان ملكهم في عهدِ النبيّ ﷺ هرقل، وكان ملكهُ شهرابراز عاملَ ابرويز، ثُمّ مَنْ كان منهم في الإسلامِ إلى يومِنا هذا فمحفوظةٌ أسماءهم وآثارهم في كتبِ الأخبارِ والفتوحِ، واللهُ الملكُ الدائمُ والسُلطانُ لا يُسْلَب.

الفصل الثاني عشر

في ذكرِ أديانِ أهلِ الأرضِ ونِحَلِهم ومذاهبِهِم وآرائهم منْ أهلِ الكتابِ وغيرِهم

اعلمْ أنّ اختلافَ النّاس في مذاهبِهم واعتقاداتِهم كفاءُ اختلافهم في أخلاقِهم وهممِهم وإراداتهم وألوانهم وألسنتهم، فكما لا تجدُ اثنين على صورةٍ واحدةٍ وصيغةٍ واحدةٍ وهمّةٍ واحدةٍ إلاّ في الشاذّ النادرِ فكذلك في وجودِ اثنين على رأيٍ واحدٍ وخاطرٍ واحدٍ، وإنْ كانَ الدّينُ الواحدُ يجمعُ عالماً من الخلقِ فإنَّ الآراءَ تتوزّعُهم، والهممُ تتشعّبُ بهم اللّهمّ إلاّ الطوائفَ المُقلِّدة فإن إجماعَهم على ما يزعمون دعوىً لا حقيقةَ له عنْدَ التفتيشِ، فَلْيُذكرُ الآنَ ما بلغنَا من دياناتِ أهلِ الأرضِ على سبيلِ الإيجازِ والاختصارِ، ونقولُ وبالله التوفيق: أنْ لا يخلو الإنسانُ العاقلُ من اعتقادِ حقّ، أو باطلٍ، أو الوقوفِ موقفَ الشكِّ، ولا يجوزُ أن لا يُوجدَ لمميّز احدى الحالاتِ التي ذكرنا إلاّ أن يكونَ ناقصَ العقلِ عن الاعتقادِ والشكّ فلا يجوزُ أن يُعَدَّ من جملةِ المخاطَبينَ، ولا يجوزُ بقاءُ الشكّ لأنّ الشكَّ من الجهلِ بالشيء وتكافؤ العللِ فيه بتحقيقِ شيءٍ أو إبطاله، كما لا يجوزُ قيامُ الأدلّةِ على وجودِ شيء وعدمهِ في حالةٍ واحدةٍ ووقتٍ واحدٍ وبورودِ العلمّ بالشيء وزوالِ الجهلِ عنه، فيحصلُ المشكوكُ فيه إمّا معلوماً أو مجهولاً وقد بطُلَت منزلةُ الشكِّ والسلامِ فالنّاسُ إذاً لا يخلون من اعتقادِ ديانةٍ ما أو تعطيلٍ في الجملةِ.

ذكرُ المعطّلة:

ولهم أسماءٌ أُخرى يُقالُ لهم: الملاحدةُ والدهريّةُ والزنادقةُ والمُهملةُ: وهم أقلُّ النّاسِ عدداً وأَفْيَلُهم رأياً وأشرُهم حالاً وأوضعهُم منزلةً، يقولون بِقَدَم أعيانِ العالمِ والأجسامِ، وتولّدِ النباتِ والحيوانِ من الطّبائعِ باختلافِ الأَزْمِنةِ ورجوعها إلى أصولها ولا صانعَ لها ولا خالقَ ولا مدبّر ولا مُحي ولا مُميتَ ولا معاقبَ ولا مثيبَ ولا حافظَ ولا

حسيبَ، فلا يرَون السَعْي إلاّ فيما يعودُ بصلاحِ أجسامهم وقوةِ نفوسهمِ في إعطائها مُناها من المُلاذّ والشهواتِ والملاهي من غيرِ مراقبةِ أحدٍ، ولا إيثارِ تجمّلٍ، ولا الكفّ عن تعاطي محظورٍ تاقَتِ النفسُ إليه، ولا مشكور صانع فيما صنعَ إليه، وَلِمَ يفتعلُ على غيرهِ أو يكفُّ مساءَته، أو يُغيثُ ملهوفاً، أو ينصرُ مظلوماً، أو يُراعي حقاً، أو يُؤَدّي فرضاً، أو يُنجزُ وعداً، أو يفي بعهدٍ، أو يرحمُ ذا ضَفَفٍ[1]، أو يستعملُ الإنسانية، أو يتكلّفُ التجمّلَ في شيءٍ سراً وعلانيّةً، مَنْ لا يرى لنفسِه صانعاً ولأفعاله مُراقباً، ولا له على إحسانهِ وإساءَته مُثيباً، ولا معاقباً ولا بعدَ الموتِ والبِلَى نشوراً وحياةً، وما الذي يمنع مَنْ هذا نحلتُه وعقيدتُه من ركوبِ الفواحشِ وإتيانِ المآثمِ وانتهاكِ المحارمِ والإسرافِ في المظالمِ والتهوُّرِ في الفسادِ والخوضِ في الباطلِ وقلّةِ المُبالاةِ بموجبِ العقلِ والإعراضِ عن اللوازمِ والاستحقاقِ بملتزمي الشرائع؛ ومَنْ لا يَعُدُّ على حُرمهِ، ولم يغتظْ ممّن يترخّصُ في مثلِ عملهِ، ولم يحقد على من يمسّه من نفسهِ أو مالِه أو أهلهِ وهو اسوَتُه في نحلتِهِ وعقيدتِهِ، وما معنى استعمالُ العقلِ وتجرّعُ مرارةِ النفسِ من غيرِ باطلٍ ولا عائدٍ، وهلْ يجوزُ توهّمُ بقاءِ الخلقِ وقوامِ العيشِ مع هذه العقيدةِ؟ وكفاك بها سُبّةً وفضيحةً، ومتى كان لهذهِ الفرقةِ في الأرضِ مجمعٌ ومشهدٌ؟ وهل شاعَ لهم دينٌ أو مذهبٌ؟ وأهلُ الأرضِ مع اختلافهِم في الأديان والمللِ مُجمِعون على تنقّضِ هذا الرأي والإزدراء به والغضِّ منه ومحقِ رايتهِ واتلافِ مستحلّيه، وقد مضَى من الحججِ عليهم في الفصلِ الثاني من الكتابِ ما يوقعُ اليقينَ، ويُدحضُ الشكّ، ويكشفُ عنه عوارَه ولله الحمدُ والمنّةُ على ذلك، فإن احتَمى أحدُهم عندَ ذكرِ هذه الفضائحِ، واستنكفَ من التصاقها به فالتجأ عندَ ذكرِ هذه الفضائحِ، واستنكفَ من التصاقها به فالتجأ إلى أنّ العقلَ كافٍ في تحسينِ الحَسَنِ وتقبيحِ القبيحِ قِيلَ: أنتَ تملكُ أو هو يملكك، فإنْ زعمَ أنّ عقلَه مالكُه فقدْ أقرّ بأمرٍ ناهٍ له، وضُويقَ في المعارضةِ والسؤالِ فإنّه لا بُدَّ أن يُشيرَ إليه بالرُبُوبيّةِ، أو تنقّض قوله، وإنْ زعمَ أنّه مالكُ عقله قِيلَ: فاصرِفْه إلى استحسانِ القبيحِ واستقباحِ الحَسَنِ إذا كنتَ مالكاً له، فإن زَعم هذا غيرُ جائزٍ لأنّه لم يصلحْ للضدّ كالآلةِ المُهيّأة لإصلاحِ شيءٍ لا تصلحُ لفسادِهِ قِيلَ: أهو جَعلَ نفسَه كذلك، أم جُعل، فإنْ زعَمَ أنّه جَعَل نفسَه كذلك فَقدْ وصفَه بالقُدرةِ والعلمِ والإرادةِ والاختيارِ، وعادَ إلى تصحيحِ قولِهِ: إنّ العقلَ هو الباريء، وإن زَعَمَ أنّه جُعل كذلك فقدْ أقرّ بصانعٍ له، وبطُلَ

---

[1] [illegible] : قلة المال وكثرة العيال، ويعني الحاجة والضعف.

قوله، وإن أنكرَ العقلَ خرجَ من جُملةِ أهل الخطابِ والتمييزِ، ووجبَ تقويمُه فيما يُقوَّمُ به البهائمُ الصامتةُ، وإن أنكرَ النظرَ دَخلَ في مذهبِ السُوفسطائية، وكيفَ ما دارَ اتّجهتْ عليه حُجّةُ اللهِ الدامغةُ، واضطرَّتْهُ إلى الإقرارِ بِهِ بقولِ الله عزَّ وجلَّ ﴿فللّهِ الحّجةُ البالغةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] ويقول ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن يُتركَ سُدىً﴾ [القيامة: ٣٦] وقالَ تعالى ﴿أم خُلقوا من غيرِ شيء أم هم الخالقون﴾ [الطور: ٣٥] وقالَ تعالى: ﴿مَنْ يعملْ سُوأ يُجْزَ به﴾ [النساء: ١٢٣] وقال ﴿جزاءً وفاقاً﴾ [النبأ: ٢٦] وأصلُ التعطيلِ إنكارُ الخالقِ والرسولِ والثوابِ والعقابِ اعتقاداً لا إقراراً منهم اختاروا في دفعِ عاديةِ النّاسِ عنهم، فاثبتوا الثوابَ والعقابَ التناسخَ في السعادةِ والشقاوةِ اللتَيْن عندَهم الجنّةُ والنارُ في هذا العالم إذ لا دارَ عندَهم غيرُها ولا هي فانيةٌ ولا مُنْقضيةٌ ويدلُّك على موضعِ تمويههم في هذا الناموسِ أنّهم إذا لم يكنْ لهمُ خالقٌ قديمٌ ولا صانعٌ مدبرٌ حكيمٌ فَمْن الذي ينسخُ نفوسهَم وأرواحهم ويسعدُ المُحسنَ، ويَشْقى المُسيءَ منهم وقط ما انتشروا في أُمّةٍ من الأُممِ ولا أقرّوا في وقتٍ من الأوقاتِ انتشارَهم في هذه الأُمّةِ لاعطائهم الإقرارِ بالديانةِ ظاهراً وحقنِ الشريعةِ دمَ مَنْ أجابَ إليها، وهُمْ هؤلاء الباطنيّة الباطليّة الذين تخلّعوا عن الأديانِ وأمرجُوا نفوسَهم في ميادينِ الشهواتِ فمطَوْا عندَّ الظَلَمة بترخيصهم لهُمْ في ارتكابِ ما يَهوُون وتهوينهم عليهم عواقبَ ما يحذرونَ حتّى ترى المظالم قد فشَتْ، والقلوبَ قد قسَتْ، والمنكراتِ ظهرتْ، والفواحشُ كثُرتْ، وارتفعتِ الأمانةُ، وغلبَتِ الخيانةُ وعطلتِ المُروءَةُ، واسُتخفَ بالربّانيّين، واهْتضِم المستضعَفون، وأُميتَ العدلُ، وأُحيي الجورُ، فظَهَر ما لم يذكر في عهدِ ملكٍ من الملوكِ في قديمِ الدّهرِ وحديثِهِ، ولا في زمنِ نبيّ من الأنبياءِ عليهم السلام، ولولا فضلُ اللهِ عزَّ وجلَّ على هذهِ الفُرقةِ المسترذلةِ المحقورةِ ببقايا من العوامِّ متمسكين بأديانهم لاصطلمَهم أشكالَهم وأشباهَهم، واجتاحَهم أولياءَهم وأصحابَهم الذين وقفُوا على غَورِ كلامهم، وأحاطُوا بحقيقةِ مذهبِهم، ولا بدّ أنّه تاركٌ بهم ما يقدرونه في غيرِهم لوعدِ الله تبارك وتعالى ﴿وكذلك نولّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ [الأنعام: ١٢٩] وأنا واصفٌ بعضَ مذاهبِهم وواكلٌ بعدَه ذا العقلِ والمروءَةِ ومَنْ هو راجعٌ إلى نفسٍ وحسَبٍ إلى إختيارهِ كما قال الله تباركَ وتعالى ﴿وقلْ الحقّ من ربكم فمَنْ شاءَ فليؤمنْ ومَنْ شاءَ فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩] اعلموا رحمكم اللهُ أنّهم قومٌ يبيحونَ ما حظرتْه الأديانُ، ويتأوّلون ما جاءَتْ به الشرائعُ من الأحكامِ إلى الرُخَصِ والتجوّزِ فيما يتمنّون ويشتهون، ويستحلّون، المحارمَ كلّها من الزّنا واللواطةِ والغَصْبِ والسِرْقةِ والقتلِ والجُرْحِ والكذبِ والغِيبةِ والنميمةِ والبُهتان

والوقيعةِ وشهادةِ الزورِ وقولِ الإفْك ورمي المُحْصَنِ والسعايةِ[1] والغِمْرِ[2] والسخرِّيةِ والطّنزِ[3] والاستهزاءِ والبَطَرِ والكِبْرِ والخُيَلاءِ والظُّلْمِ والعُقوقِ والميلِ والغدرِ والخلافِ و نقضِ العهدِ وإخلافِ الوعدِ وأشباه ذلك من الرذائلِ المحظورةِ في العقلِ والمحارمِ المزجورِ عنها في الشرعِ، لا يعرفونَ معرفةَ الحقِّ ولا محافظةَ على ذِمامٍ ولا تنظُّفاً من نجاسةٍ ولا حياءً من خساسةٍ، المَلوكُ عندَهم أربابٌ، والعتاةُ شياطينُ، والضَعْفَى والمبتلون أهلُ النّار، وأصحابُهم عندَهم الجنُّ، وسائر النّاسِ البهائم لا يرحمونَ مسترحماً، ولا يُغيثون مستغيثاً، ولا ينهَون عن الاطّلاعِ على حُرَمِ النّاسِ، ولا يأنفونَ من اطّلاعِ النّاسِ على حُرَمِهم، ولا يمتنعون من مواقعةِ مَنْ أمكنهم من الذكورِ والإناثِ، ولا يتحاشون من مواقعةِ مَنْ واقعهم أو واقَع حُرَمهم، ولا يَعيبونَ القيادَةَ والدياثةَ والاكتفاءَ والمبادلةَ، ولا يَرَون النهيَ عن كلِّ ما اشتاقتْ إليه النفسُ؛ جمعُوا رُخصَ النِحَلِ كلِّها وزادُوا عليها الدياثةَ والكشخ، فأخذوا من المجوسِ بقولهم في نُكاحِ البناتِ والأُمّهاتِ، ومِن الخرَّميّةِ في التراضي بالأمّهاتِ والأزواجِ، ومن الهندِ بإباحةِ الزنا والسِفاحِ، ومن الخنّاقين بقتلِ مَنْ خالفَهم، فلا حيّاهم اللهُ من قومٍ، ولا حيّا مذهبهم من مذهبٍ، وقد يُنكرُون ما ذكرنا إذا بدهُوا به جهَاراً، ولكن إذا اجتررتهم في الكلامِ إلى الأوّلِ: الذي هو العقلُ والثاني: الذي هو النفسُ الأَساسَيْن والأصلَيْن اللذين هما الأركانُ صَحّ لك كلُّه، وإنْ كانُوا له منكرين في الظاهرِ، ولم يمتنعوا عنه وليسَ لهُمْ خالقٌ مثيبٌ معاقبٌ لو تسكتُ عنهم وبلَوْتهم لَيُظْهِر لكَ الامتحانُ جميعَ ذلك إمّا قولاً وإمّا فعلاً وإمّا إجازةً لأنّ كلَّ ذي دينٍ عندَهم معذورٌ واللهُ أعلمُ.

ذكرُ أديان البراهمة:

اعلمْ أنّ لكلِّ قومٍ ديناً وأدباً وشريعةً، ففي الدّين بقاؤهم وصلاحُهم وفي الأدبِ زيُّهم وشرفُهم، وفي الشريعةِ رسومُهم ومعاملاتُهم، وقد ذكَر قومٌ: أنّ في الهندِ تسع مائةِ ملّةٍ مختلفةٍ، وأنّ الذي عُرِفَ منها تسعةٌ وتسعون ضرباً يجمعُ ذلك اثنان وأربعون مذهباً مدارُها على أربعةِ أوجُهٍ، ثمّ يرجعُ إلى اسمَيْن: البراهمةِ والسُمنيّةِ، فالسمنيّةُ هي التي معطّلةٌ.

---

(١) السعاية: النميمة والوشاية.

(٢) الغِمْرُ: الحقدُ.

(٣) الطّنْزُ: السخرية.

والبراهمةُ[1] ثلاثةُ أصنافٍ: صنفٌ منهم يقولُون بالتوحيدِ والثوابِ والعقاب، ويبطلُون الرسالة؛ وصنفٌ يقولُون بالثوابِ والعقابِ على التناسخِ ويبطلُون التوحيدَ والرسالةَ؛ هذا جملةُ دينِهم، فأمّا آدابُهم وأخلاقُهم ففيهم الحسابُ والنجومُ والطبُّ واللهو والمعازف والرقصُ والخِفّةُ والشجاعةُ والشعبذةُ وعملُ النيرنجاتِ وعلم الحروبِ، ويدَّعونَ صفاء الفكرِ ونفاذَ الوهمِ والأخذَ بالعيونِ وإظهارُ التخييلات والرقا والإتيانَ بالمطرِ والبَرْدِ وحبْسه وتحويلَه من مكانٍ إلى مكانٍ، ويدّعُون حفظَ الصحّةِ ومنعَ الشيبِ والزيادةَ في القوةِ والذهنِ ورجوعَ الموتى إليهم؛ وأمّا شرائعهم فمختلفةٌ لاتّساعِ بلادِهم وتفاوتِ أقطارهم، واختلافُ الدّين يُوجبُ اختلافَ الشرائعِ فالّذي بلغنا أنّ إيمانهم في حديدةٍ يحمونها حتّى إذا بلغتْ غايتَها في الحَمْي والحُمرةِ أمروا المُنكرَ أنْ يلْحسَها، قالُوا: فإن كانَ كاذباً مُبْطلاً احترقَ لسانُه، وإنْ كانَ صادقاً مُحقًّا لم يضُرُّه، ومنهم فرقةٌ يغلُونَ الزيتَ في بُرْمةٍ من حديدٍ، ويقذفُون فيها حديدةً، ويأمرُون المنكرَ أن يُدخلَ يدَه فيستخرجَ الحديدة، قالوا: وإنْ كان كاذباً احترقتْ يدُه، وإنّ كانَ صادقاً لم يضُرُّه؛ وعقوبةُ السّارقِ والقاطعِ وسابي ذراريهم إذا ظفُروا بهِم أن يُحرَقُوا بالنّارِ، ومنِهمْ مَنْ يَصْلبهُم وصلبُهم أن يُحدّ رأسُ الخشبةِ ثمّ يَسلكه في مقعدِ المصلوبِ، والمسلمون عندَهم نجسٌ لا يمسّونهم ولا يمسّونُ ما يمسّونه، ولحمُ البقرِ عندَهم حرامٌ؛ وحُرمةُ البقرِ عندَهم كحرُمة أمّهاتهم؛ وجزاءُ من ذَبحَ بقرةَ القتلُ لا يُعْفَى عنْهُ؛ والزّنا حلالٌ عندَهم للعُزّابِ لئلا ينتقصَ النسلُ، ويتعاقبُ المُحْصَنُ منهم إذا زَنا، ومَنْ ارتدّ منِهم إذا سبّاه المسلمونُ لم يقتلُوه حتّى يزكّوه ويطهُروه أن تحلَق كلُّ شعرةٍ عليه من رأسِهِ وجلدِهِ، ثمّ يُجَمعَ أبوالُ البقرِ وأخثاءُها وسمنُها ولبنُها فيُسقَى منها أيّاماً، ثمّ يُذهبُ به إلى البقرةِ فيسجدَ لها؛ ولا ينكحون في الأقاربِ بتّةً، وعقوبةُ اللِواطةِ عندَهم القتلُ، وشُربُ الخمرِ عندَ البراهمةِ حرامٌ وكذلك ذبيحةُ أهلِ ملّتهم، ولكلِّ قوم منهم ملّةٌ وشريعةٌ يتعاملون عليها ويتعايشون بها.

[مللُ وأهواء البراهمة]

ذكر مللهم وأهوائهم:

زعَمتْ الموحّدةُ من البراهمةِ: أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ بعثَ إليهم ملكاً من الملائكةِ بالرسالةِ في صورةِ بشرٍ اسمُه ناشِدٌ لهُ أربعُ أيدٍ في إحدى يديهِ سيفٌ، وفي الأخرى شِكّةُ الدِرْعِ، وفي

(١) انظر الملل والنّحل جـ/ ٢ صفحة ٢٥٨ أصناف البراهمة.

الثالثةِ سلاحٌ يُقالُ له شكرتُه على هيأةِ حلقةٍ، وفي الرابعةِ وَهَقٌ[1] وهو راكبٌ على العنقاءِ[2] وله اثنا عشرَ رأساً: رأسُ إنسانٍ، ورأسُ فرسٍ، ورأسُ أسدٍ، ورأسُ ثورٍ، ورأسُ نسرٍ ورأسُ فيلٍ، ورأسُ خنزيرٍ بالسناءِ والرفعةِ، وألبسَها الضياءَ والبهاءَ والنوّر، وجعلَها سبباً لمنافعِ الدّنيا؛ ونهانا عن القتلِ وشُربِ الخمرِ، وأباحَ لنا الزّنا، وأمرَ بعبادة البقرِ وأن نتّخذَ صَنماً على مثالِه نعبدُه، وأمرَنا أن لا نجوزَ نهرَ كنك[3] فإنّه لا دينَ لِمَنْ جاوزَه من البراهمةِ، وإنّ الدينَ حسبٌ لمَنْ قبلَه ولذرّيتِهِ من بعدِهِ، ولا يجوزُ لمَنْ لم يكنْ منُهم الدخولُ في دينِهِ، واسمُ هذهِ الفُرقةِ الناشديّةُ.

ومنهم البابهوذيّةُ زعمُوا أنّ رسولَهم ملكٌ يُقالُ له بهابوذُ أتاهُم في صورةِ بشرٍ، وهو راكبٌ على ثورٍ، وعلى رأسهِ إكليلٌ من عِظام الموتى متقلّدٌ بقلادةٍ من أقحافِ الرؤُوسِ، وفي إحدى يديه قحفٌ، وفي الأخرى مُزَراقٌ[4] ذو ثلاثِ شُعَبٍ، مستظلٌ بِظلالٍ من ذنبِ الطاؤوس، فأمرَهم بعبادةِ الله عزَّ وجلَّ، وأن يتّخذوا على مثالِه صَنماً يعبدُونه فيكونَ وسيلتُهم إليه، وأنت لا يعافُوا شيئاً من الأشياءِ، فإنّ الأشياءَ كلَّها من صُنْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ومِنهُم الكابالية: يزعمُون أنّ رسولَهم ملَكٌ يُقالُ له شيبٌ أتاهُم في صورةٍ بشرٍ على رأسهِ قلنسوةٌ من لبُدٍ مخبطٍ عليها صفائحَ من أقحافِ رؤوس النّاس، فأمَرهم أن يتّخذوا صَنماً على مثالِ ذَكر الإنسانِ، ويعظّموه، ويعبدوه، فإنّ الذكرَ سببُ النسلِ في العالم.

ومنِهم الدامانيّةُ والدوانيّة: هؤلاء الذين يُقرّون مع التوحيدِ بالرسالةِ.

فأمّا الذين يُثبتونَ الخالقَ وينفونَ الرُسُلُ فأصنافٌ منهم الرشتيّة: وهُمْ أصحابُ الفِكرِ الذين يُعطّلونُ حواسَّهم بطولِ فكرهِم، ويزعمُون أنّهم إذا أخذوا أنفسَهم بشدّةِ التبرُّؤ والتخلّي تجلّت لهُم الملائكةُ، ويلطّفونهم، واستفادُوا منهم، وهؤلاء لا يأكلونَ الألبانَ واللُحمانَ وما مسَّته النارُ غيرَ النباتِ والثمارِ مغمّضة عيونُهم عامةَ دهرِهم ملحة أفكارِهم يزعمون أنّهم يدركُون بها ما يريدونَ من مطرٍ ورياحٍ وقتلٍ ونزولِ طيرٍ وإجابةِ دعوةٍ.

---

(١) الوَهَقُ: حبلٌ في طرفه انشوطة يُطرح في عنق الدابة حتى تؤخذ.

(٢) العنقاءُ: طائر خيالي مجهول الجسم لم يوجد.

(٣) نهر كينك: من الأنهار المشهورة ببلاد الهند، يخرج من بلاد فوق قشمير ويجري إلى الجنوب حتى يصبّ في البحر الهندي. «معجم البلدان/ جـ ٤/ ٥٥٠».

(٤) المِزْرَاقُ: الرمح القصير.

ومنهم المصفدةُ: قومٌ يصفدون[1] أوساطهم إلى ظهورهم بالحديدِ، قالُوا: لئّلا ينشقّ بطونُهم من غلبةِ الفكرةِ وكثرةِ العلم.

ومنها المهاكِلِيّةُ: لهم صَنمٌ يُقالُ له مهاكال على ظهرهِ جلدُ فيلٍ يقطرُ منه الدمُ، وأذناه مثقوبتان، وعلى رأسِهِ إكليلٌ من عظِامِ القُحفِ يحّجون إليه، ويقصدونه لطلبِ حوائجهم، ويزعمون أنّه يقضيها لهم.

ومنهم التهكنيّةُ قومٌ لهم صَنمٌ على صورةِ امرأةٍ يُقالُ: إنّ لها ألفُ يدٍ في كلِّ يدٍ ضربٌ من السلاحِ ولهُمْ عندَه عيدٌ إذا دخلت الشمسُ الميزانَ فيقربونَ قرابينَ من الجواميسِ والإبلِ والغنمِ، ويقربون عبيدَهم وإماءَهم، ويقاتلُون النّاسَ قِرباناً له حتّى أن الضَعْفَى يتوارون في تلك الأيامِ مخافةَ أن يكونَ الصنَم يأمرُ ويأذنُ بقتلهم.

ومنهم الجهلكيّةُ: يعبدون الماءَ ويزعمُون أنّ معه ملكاً وأنّه أصلُ كلِّ نشوّ ونماءٍ وحياةٍ وعَمارةٍ وطهارةٍ.

ومنهم الاكنهوطريّةُ: يعبدون النّار وهي أعظمُ العناصرِ ولا يحرقونُ موتاهم لئّلا ينجسَ النارُ.

ومنهمُ قومٌ يعبدون الشمسَ، وقومٌ يعبدُون الفهدَ، وقومٌ يعبدون ملوكَهم، ولكلِّ واحدٍ منهم مذهبٌ ورأيٌ ودعوى ولا فائدةَ في ذكرِها من التعّجبِ والاعتبار فيما حكينا من فضائحِهِم وجهلِهم وسخافةِ رأيهم وكفرِهم كفايةً.

ذكْر تحريقِ أبدانِهم وإلقائها في النّارِ:

يزعمُون أنَّ في ذلك نجاةً لها وخلاصاً إلى حيوة الأبدِ في الجنّةِ، ومنهم مَنْ يُحفَر له أُخدودَ ويُجمَعُ فيه الألوانُ والأدهانُ والطيبُ، ويُوقَدُ عليه ثُمّ يجيءُ وحولَه المعازفُ بالصنوجِ والطبولِ، ويقولُون: طوبى لهذهِ النفسِ التي تعلو إلى الجنّةِ مع الدُخانِ، وهو يقولُ في نفسه: ليكنْ هذا القربانُ مقبولاً، ثمّ يسجدُ نحوَ المشرقِ والمغربِ والشمالِ والجنوبِ، ويرمي بنفسهِ في النّارِ فيحترقُ ويصيرُ إلى جهنمْ، ومنهم مَنْ يُجمعُ له أخثاء البقرِ فيقفُ في وسطِه إلى أنصافِ ساقَيْه، وتشعلُ فيه النارُ، ولم يزلْ واقفاً حتّى تأتي النّارُ إليه

---

(١) يصفدون: يقيّدون.

ويحترقُ فيها؛ ومِنهُمْ مَنْ يوضعُ على رأسِهِ أكليلٌ من المُقْلِ[١] ويُوقَدُ حتّى يسيلَ دماغهُ وحدقتاه؛ ومِنْهمُ مَنْ يُحمى له الصخورُ فلا يزالُ يضعُ على جوفِهِ صخرةً بعدَ صخرةٍ حتّى تخرجُ أمعاؤه؛ ومنهم مَنْ أخذَ مُديةً ويقطعُ من فخذِهِ وساقِهِ خُصْلةً خصلةً ويُلقيها في النارِ، وعلماؤهم وقُوفاً حوله يمدحونه ويزكّونه حتّى يموت؛ ومنهم مَنْ يُحفرُ له حُفْرةٌ بجنبِ نهرٍ ويوقدُ فيها ولا يزالُ يَثِبُ في النّارِ من الماءِ ومن النّارِ إلى الماءِ إلى أن تزهَقَ نفسهُ فإن ماتَ فيما بينهما جزعَ أهلُه وحزنُوا، وقالوا حُرّم عليه الجنّةُ، وإن ماتَ في الماء أو في النّارِ شهِدوا له بالجنّة، ومنهم قومٌ يُرهقون أنفسَهم بالجوع فيُمسكون عن الطّعام حتّى تبطلُ حواسُّ أحدهِم فيصيرَ مثلَ الحشفةِ[٢] والشن[٣] البالي، ثُمّ يجمد؛ ومنهم مَنْ يهيمُ في الأرضِ حتّى يموت، ولهُمْ جبلٌ شامخٌ في أصلهِ صَنمٌ قد أشارَ بإحدى يديه إلى ربّه فقرَّ بينَ يديه، ووضعَ يدَه الأخرى على نحرِه، وإلى جانبِهِ رجلٌ قاعدٌ على كرسيٍّ حولَه أصحابُه يقرؤُون في كتابِ طوبى لمن سلكَ هذا السبيلَ الذي أشارَ إليه هذا الصنمُ فإنّه يُؤدّي إلى الجنّةِ، وقدْ ضمنَ الصنمُ ذلك فيركبونُ رَدْعهم[٤] حتّى يموتوا؛ ولهُمْ جَبلٌ آخرُ تحتَه شجرةٌ من حديدٍ لها أغصانٌ كالسفافيد وعندّها رجلٌ بيدهِ كتابٌ يقرأُ فيه طَوبى لمَنْ ارتقى هذا الجبلَ وحاذى هذه الشجرةَ، ثُمّ بعجَ بطنَه، وأخرجَ أمعاءَه، فأمسكها بأسنانِه، ثُمّ خرَّ على هذهِ الشجرةِ ليبقى خالداً ومُخلّداً في الجنّةِ تختطفُه الحُورُ العينُ قبلَ وصولِه إلى الشجرةِ، فيتسارعُ إليه قومٌ فيُخرقون أمعاءَهم، ويُكبّون على الشجرةِ؛ ومنهم قُومٌ يجيئون إلى نهرِ كنك في يومِ عيدٍ لهُمْ، ويجيء السدنة[٥] فيقطعونَهم بنصفينِ، ويطرحونهم في النهر، ويزعمونَ أنّه يخرجُ إلى الجنّةِ؛ ومنهم مَنْ يرمي نفسَه بالحجارةِ؛ ومِنهُمْ مَنْ يقعدُ عَرياناً حتّى يأتي طيرٌ فيقطعُ لحمَه ويأكلُه، وكلُّ مَنْ لا يؤمنُ بالرسالةِ والآخرةِ فإنّه يؤمنُ بالثوابِ والعقابِ في الانتقالِ والتناسخِ، واعتلَّ عبدةُ الأصنامِ بأنَّ الباريء جلَّ جلالُه في النهايةِ القُصْوى في كلِّ ما يُدركُ ويُعلمُ ويُحسُّ ويُوصفُ، ولا بُدَّ لكلِّ متقرّبٍ إلى مَنْ يُعظمهُ ويعبدهُ إذا كان غائباً عن حواسّه من واسطةٍ ووسيلةٍ فجعلنا هذه المتوسّطاتِ من الأجرام العُلْويّةِ والسُفْليّةِ إلى عبادتِهِ وقربةً لديه، وهكذا قالتِ العربُ ﴿ما نعبدُهم إلاّ ليقرّبونا إلى اللهِ زُلْفَى﴾

---

(١) المُقْل: شجر الدّوم.
(٢) الحشَفَة: الخميرة اليابسة.
(٣) الشنّ: القِرْبة.
(٤) يركبون رَدْعَهم: أي يُردعون فلا يرتدعوا.
(٥) السدنة: الحجّاب.

[الزمر: ٣] فسبحانَ مَنْ غرضُ كلِّ عابدٍ عبادتُه والوصولُ إليه، وإن كانَ قد ضلَّ وأخطأَ الطريقَ؛ وقرأتُ في كتابِ المسالكِ: وإن كانَ قد ضلَّ وأخطأَ الطريقَ؛ وقرأتُ في كتابِ المسالكِ: أنّ السُمنيّةَ فرقتان: فرقةٌ يَزعمُ أنّ البدَّ كان نبياً مُرسَلاً، وفرقةٌ: تزعمُ أنّ البدَّ هو الباريءُ تراءيا للنّاسِ في تلك الصورةِ ونعوذُ باللهِ.

[ذكرُ أهلِ الصين]:

ويزعمون أنَّ أهلَ الصّينَ عامَّتهم الثنويّةُ والسمنّيةُ، ولهمُ فرخارات فيها أصنامٌ لهم يعبدونها هذا دينُهم، ولهم آدابٌ وأخلاقٌ وحِذقٌ بلطيفِ التركيباتِ وعجيبِ الصنائعِ ولا يُوجَدُ في غيرِهم، ومِنْ حُسنِ أدبِهِم أن لا يقعدُ الصبيُّ بينَ يدي الأبِ، ولا يأكلُ معهَ، ولا يمشي بين يديه، ويسجدُ له، وكذلك يسجدُ صغارُهم لكبارِهم تعظيماً لهُمْ.

وأمّا شرائعهُم فإنهم يسجدونَ للشمّسِ والقمرِ والكواكبِ والماءِ والنّارِ وكلِّ ما استحسنوا من شيءٍ خرّوا له سُجّداً، وكلُّ مولودٍ يولَد كتبُوا في الوقتِ مولدَه، ونظرُوا إلى طالعِهِ، وحكمُوا له بما دلّ عليه، فليس في مملكةِ الصين ذكراً إلاّ وعددُهم محصورٌ في ديوانِ الملكِ لأنّه يأخذُ منهم الجزيةَ ولا يموتُ منهم ميّتٌ إلاّ وأخّر فيه إلى العامِّ والشهرِ الذي وُلد فيه، ويُطرحُ عليه دواءٌ لئلاّ يفسُد، ومَنْ سرَقَ على زيادةِ ثلثمائة فلسٍ وقيمتُها عشرةُ دارهمِ قُتِل، ومَنْ استحقَّ من السُّلطانِ أدباً أو قتلاً أو عقوبةً لم يُفعَلْ به شيءٌ حتّى يُعطى كِتاباً بخطّه ويقرأه بلسانِهِ بحضرةِ المشايخِ والصلحاءِ، أنّي قد أذنبتُ كيتَ وكيتَ، واستحققتُ الضربَ أو العقوبةَ أو القتلَ، ثُمّ أُمضى عليه ما استحقّه، ويزعمون أنّ الشاهدَ واليمينَ باطلٌ لأنّ الرجلَ إذا أُعطى شيئاً شهدَ بالزُورِ، ومذهبهُم في هذا إذا كانَ لرجلٍ على رجلٍ دَيْن أعطى كلُّ واحدٍ منهم صاحبَه كتاباً فيه علامُته، فيكتبُ فيه صاحبُ الدَيْن إنّ لي على فُلانٍ كذا، ويكتُب المطلوبَ لفلانٍ عليَّ إلاّ كذا، فإذا تداعيا وأنكر أحدُهما طولبا بالخطين فيصحُّ الحقُّ، ومَنْ وُلدِ بأرضٍ وانتقلَ عنها وماتَ في غيرها نُقِلَ إلى أرضِ مولده، ودُفنَ فيها، ومَنْ استنكحَ من الغرباءِ بامرأةٍ منهم وولدَ جاريةً، ثمّ أرادوا الخروجَ منهم دفعُوا الولدَ إليه، وحبسُوا الوالدةَ، وقالُوا: لك ما زرعتَ ولنا الأصلُ، ويُبيحون الزّنا للسفلةِ والضَعْفَى، ومَنْ زَنا من أهلِ اليسارِ والشرفِ قتلُوه، وعامّةُ عقوبتِهم في الذنوبِ القتلُ، وأكثرُ زروعِهم الأغذاء، قالُوا: وإذا قلّتِ الأمطارُ وغلتِ الأسعارُ جَمَعَ الملكَ السمنيّة وسدنةَ الأصنامِ، ويهدّدهمُ بالقتلِ إن لم يأتوا بالمطرِ فلا يزالُون محبوسين معتقلين حتّى يأتي

المطرُ، قالُوا: وللملكِ كُوسات في قصرِه، فإذا غربتِ الشّمسُ قرعُوها قرعةً واحدةً فلا يبقى في المدينةِ أحدٌ إلاّ سمعها ففزعوا إلى بيوتهِم ومنازِلهم فاغلقُوا عليهم أبوابهم، وتحكّكت بالسككِ والأزّقةِ الجيوش والعسس إلى أن يُسفرَ الصُّبحَ، فمَنْ وجدُوه خارجَ دارِه ضربُوا عنقَه، وكتُبوا على ظهرِهِ بدمِهِ هذا جزاءُ من تعدّى أمرِ الملك.

ذكر ما حُكي من شرائعِ الترك وهم في شمالِ الصّينِ ومغاربها:

يزعمون أنَّ في بعضهِم كِتاباً لهُمْ، وفي بعضهم كتاب التّبتّيةِ لأنّهم يجاورونهم، وفي بعضهِم كتابُ السُّغديَّة، قالُوا: وفي التغزغز نصارى وسمنيّة، وليسَ من عادتهِم قتلُ الأساري ولا التجهيزُ على الجرحَى، ومَنْ ظفروا به في الحربِ فإن كانَ جريحاً داووُه وحملوُه إلى منزلِه وأهلِه، قالُوا: وخرخيز يُحرقون موتاهم ويقولُون: إنّ النّارَ تُطهرُّ جُثّته ودنيّته، ويعبدوُن الأوثانَ، ومنهم مَنْ يعبدُ الشمسَ، ومنهم مَنْ يعبدُ السماء، ومنهم مَنْ يدفنُ على الميتِ عبيدَه وخدَمه أحياءً في التلِّ حتّى يموتوا، ويعقرونَ الدوابَّ عليه، والتلُّ بلغتهم: القبرُ، قالوا: وفيهم قومٌ يزعمون أنّهم يأتونَ بالثلجِ والريحِ والبردِ، وأكثرُ حكمهم على كتفِ الشاةِ واللهُ أعلمُ.

ذكرُ شرائع الحرّانيّين:

ذكرُ أحمدُ بن الطيّبَ أنّهم يقولُون أنّ الباريء علّةُ العالمِ لا يلحقُه وصفُ شيءٍ من المعلوماتِ كُلّف أهلُ التمييزِ الإقرارَ بربوبيّته، وبعث الرُسُلَ تثبيتاً لحجّتهِ، ووعَد مَنْ أطَاعَ نعيماً لا يزولُ، وأوعدَ من عصا العذابِ بقدرِ استحقاقِهِ، قال: وقصدوا في أمرهِم أن يبحثوا عن الحكمةِ، وأن يدفعوا ما ناقضَ الفطرةَ وأن يلزمُوا الفضائل، ويجتنبوا الرذائلَ وصلواتُهم ثلاثٌ: أولاها عندَ طلوعِ الشّمس، والثانيةُ عندَ زوالِها والثالثةُ: عندَ غروبِها، ونصبوا قِبْلةً بأن يجعلُوا القطبَ الشماليّ في نُقْرة القفا، قالوا: ويصلّون كلَّ يومٍ للكوكبِ الذي هو ربُّه فيُصلّون للزحلِ يومَ السّبتِ، وللشمسِ يومَ الأحدِ، وللقمرِ يومَ الاثنين، وللمريخ يوم الثلاثاء، ولعطاردِ يومَ الأربعاءِ، وللمشتري يومَ الخميسِ، وللزُهرةِ يومَ الجُمعةِ، قالوا: ولا صلاةَ عندَهم إلاّ على الظهورِ ولهُمْ صيامٌ وأعيادٌ وقربانٌ يتقرّبون فيها فيأكلونَ اللحمَ، ويُحرقون العظامَ وشحمَ الكُلَى، ويغتسلون من الجنابةِ ومسِّ الميّت والطامثِ، ويعتزلون الطوامث، ولا يأكلونَ ما لم يُذْبَحْ، وينهون عن لحمِ الخنزيرِ والسّمكِ والباقِلّي والثوم،

ويعظّمون أمرَ الجملِ حتّى يقولُون من مشى تحتَ خِطام[1] ناقةٍ لم يُقْضَ حاجته في ذلك اليومِ، ويتجنّبون كلَّ مَنْ به مَرضٌ مثل الجُذامِ والبرصِ، ولا يتزوّجون بغيرِ وليّ وشهودٍ، ولا يتزوّجون بالقريبِ، ولا يجيزون الطلاقَ بغيرِ حجّة بيّنةٍ عن فاحشةٍ ظاهرةٍ، ولا يُراجَع المطلّقة أبداً، ولا يطأونَ إلاّ طلباً للولدِ والذَكَرِ والأُنثى في الفرضِ عندَهم سَواءٌ، والثوابُ والعقابُ يلحقان الأنفسَ، وليسَ يُؤخّرُ ذلك عندَهم إلى وقتٍ معلومٍ بل يقولون أنّها تصيرُ إلى ما يجبُ عليها، ولها من الجزاءِ عندَ تركِ الأنفسِ استعمالَ البدنِ قال ويقولون: إنّ النبيّ هو البريءُ من المذموماتِ في النّفسِ ومن الآفاتِ في الجسمِ، الكاملُ في كلِّ محمودٍ، المستجابُ الدعوةِ في إنزالِ الغَيْثِ ودفعِ الآفاتِ، وإنّ مذهبَه مذهبٌ يصلحُ به العالَمُ، وتكثر به العمارةُ، ولن تُحصُوا أسماء الرسلِ الذين دعَوْا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ كثرةً، قال: وقولهم في العلومِ قولَ ارسطاطاليس في كتبهِ وكتبِ إمامِهم لا يخالفوا بها وهذا مذهبُ الفلاسفةِ اليونانيّين في القديم.

ذكر أديانِ الثنوية:

وهم أصنافٌ فمنهم المنانّيةُ والدياصنيّةُ والماهانيّةُ والسمنيّةُ والمرقونيّةُ والكبانئونَ والصابئونَ وكثيرٌ من البراهمةِ والمجوسِ وكلُّ مَنْ قال باثنين أو بأكثرَ أو بشيء قديمٍ مع الباريء فإنّ هذا الاسمَ يتناولُه ويلحقُه، وكذلك القائلون بالجُثّةِ والجوهرِ والفضاءِ، يزعَمُ بعضُهم أنّ الأصلَ هو النورُ والظلمةُ، ثمّ يختلفون فيقولُ قائلٌ انّهما جميعاً حيّان مميّزان، ويقولُ آخرُ بلْ النورُ حيّ عالمٌ، والظلمةُ جاهلةٌ مُعميّة، وهذا رأي الصابئين ويقولُ مرقيون[2] ثلاثةُ أشياءٍ قديمةٌ نورٌ وظلمةٌ وثالثٌ معدّلٌ بينهما يُخلقُ من هذا ومن هذا ليس من جنسهِما ولولاهُ لم يَكُ من طبعهِما إلاّ التنافرِ، ويقولُ المنانيّةُ: النورُ خالقُ الخيرَ، والظلمةُ خالقُ الشرَّ، وأصحابُ الطبائعِ قالوا: بأربع طبائعٍ، وكثيرٌ من الفلاسفة بخامسٍ معها خلافِها، ومنهم مَنْ يقولُ بِقدَم الباريء والطينةِ والعدمِ والصورةِ والزمانِ والمكانِ والعرَض، والمعطّلةُ منهم قالُوا بعدم العالم في أجسامهِ وأعراضهِ، وشكَّ قومٌ فلم يُدْرَ كيفَ يقولون؛ وكلُّ هذه المذاهبِ مخالفةٌ لمذهبِ أهلِ التوحيدِ يكفيك ما مرَّ من النقضِ عليهم في الفصلِ

---

(١) خِطام الناقة: حبل يوضع في عنق الناقة لتقاد به.

(٢) اميرقيون: كاتب مسيحي ولد في سينوبه (بلاد منبطس) نشر كتاب المتناقضات أظهر الفرق به بين العهدين القديم والجديد، واحدث بدعة كانت أولى الكنائس المنفصلة «ت حوالي ١٥٥ هـ» «منجد الأعلام».

الثاني واللهُ الموفّقُ والمعينُ.

ذكرُ عبدةِ الأوثانِ:

جاءَ في رواياتِ أهلِ الاسلامِ: أنّ أوّلَ ما عبُدتِ الأوثانُ في زمنِ نوحِ النبيّ عليه السلام كما حكى اللهُ تعالى عنهم **﴿وقالوا لا تَذَرُونّ آلِهتكم ولا تذرُونّ وَداً ولاَ سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾** [نوح: ٢٣]. رُوينا عن محمدِ بن كعبِ القرظيّ[1] أنّه قالَ: هؤلاء رجالٌ صالحون من أولادِ آدمَ عليه السلام، وكانَ إذا ماتَ أحدُهم جزِعَ عليه إخوتُه، وعظُمَ به وجدُهم فجاءهم الشيطانُ وقالَ: ألا أُصوّرُ لكم صُوَرُ اخوتِكم فتتسلّونَ بالنظرِ إليها، وتستأنسونَ بها، ففعلَ إلى أنْ مضتْ قرونٌ فجاءَ وقالَ لأعقابِهم: إنّ آباءكم كانُوا يعبدونَها من دونِ اللهِ، فنصبُوها آلهةً ثمّ لمّا أغرقَ اللهُ الأرضَ زمنَ نوحٍ استخرجهم فنصبتْها قُريشٌ يعبدونها كذا الروايةُ واللهُ أعلم، ثُمّ تتابَع الناسُ على عبادةِ الأوثانِ فمنهم مَنْ يجعلها وسيلةً وذريعةً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ومنهم مَنْ استحسنَ ذلك لمشاكلةِ أفضلِ الصُوَرِ، ومنهم مَنْ يعبدُها تقليداً، حتّى عبدَ قومٌ النارَ وقومٌ الشمسَ وقومٌ الماءَ وقومٌ الشجرَ وقومٌ النسرَ وقومٌ الفهدَ وقومٌ البشرَ وقومٌ الملائكةَ وقومٌ النجومَ وقومٌ الحجرَ، وفي الجملةِ كلُّهم يعبدون مع اللهِ غيرَه إلاّ المسلمين وصنفاً من اليهود.

ذكرُ مذاهبِ المجوسِ وشرائعِهم:

اعلمْ أنّهم أصنافٌ فمنهم: اللغيريّة والبهافريذية والخرّميّة، ولا قومُ أكثرُ هوساً وتخليطاً منهم، فمنهم مَنْ يقولُ بالاثنين: كالمنانيةِ، وبالثلاثةِ: كالمرقونيّة، ومنِهم مَنْ يعبدُ النارَ والشمسَ والقمرَ والنجومَ، ويزعمُ أنَّ الإلهَ القديمَ لم يزلْ، وأنّه خَلَق اهرمِنَ، وهو بمنزلةِ إبليسَ عندَهم فعاداهُ وناصبَه، ويزعَمُ آخرون أنّ الباريء يفكرُ فكرةَ ردّيةً فحدَثَ منها هذا الشرّيرُ الخبيثُ المضادُّ له بغيرِ إرادتهِ، ومنهم الزردشتيّةُ يُقرّون بنبوّةِ زردشت وثلاثةِ أنبياءَ يكونُ بعدَه، ويقرؤون كتابَه الأبسطا، ويعظّمَون النّارَ قُربةً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لأنّها أعظمُ الاسطقساتِ، ثمّ يزعمُ بعضُهم أنَّ النّارَ من نورِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويزعمُ آخرون: أنّها بعضٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، ويحرّمون المَيْتةَ وكلُّ ما خرجَ من باطنِ الإنسانِ من أيّ منفذٍ كانَ، ولذلك يُزمزمون عندَ طعامِهم، ويصلّون ثلاثَ صلواتٍ يدورون فيها مع الشّمسِ كيفَ دارتْ:

---

(١) ذكره ابن خلكان في الوفيات جـ ٥/٢١٨.

إحداها عندَ طلوعِ الشّمسِ، والثانيةُ نصفُ النّهارِ كلٌّ واحدٍ لطولها وعرضها، ويعظّمون مَنْ يعلمها، ويزعمون أنّهم كلّما أرادُوا طَرباً ازدادَ إبليسُ حَرباً وحُزْناً، ويحرّمون الأكلَ والشربَ في أواني الخشبِ والخزفِ لأنّهما يقبلان النجاساتِ، وإذا غسلوا أيديهم على إثْرِ الطعّامِ لم يُدخلُوا الماءَ أفواهَهم لأنّه من الاستخفافِ به، ويغسلونَ الشفاه، ويستحلّون نكاحَ الأخواتِ والبناتِ ويحتجّون على مَنْ خالفَهم بفعلِ آدَم عليه السلام ذلك، ويأكلونَ من الحيوانِ ما يأكلُه المسلمون، وما كانَ من خلقِ ابليسَ فلا يأكلونَه، ويعظّمونَ النيروزَ[1] والمهرجانَ وأيّامَ الفروردجانِ، ويزعمونَ أنَّ أرواحَ موتاهُم ترجعُ إلى منازلِهم، وينظّفون البيوتَ، ويبسطونَ الفُرش، ويصنعونَ الأطعمةَ تلك الأيّامِ، ويقولَون إنما يُصيبُ الموتى منِها روائحُها بقواها ونورِها، وإذا احتُضِر أحدُهم قرّبوا منهُ كلباً، ويزعَمون أنَّ الشيطانَ يحضرهُ عندَ مفارقةِ الروحِ فيلتبسُ بجسدهِ كظُلِّ الشّجرةِ إذا وقَع على الحائطِ، فإذا التفتَ إليه الكلبُ فزعَ منهُ ففارقه، ولا يجوزُ عندَهم أنْ يقرّبوا الميّت من الماءِ والنارِ، ومَنْ مسّهُ وجبَ عليه الغُسْلُ لأنّه نجسٌ بانتقالِ روحِهِ، والطهارةُ واجبةٌ عليهم في اليومِ والليلةِ مرّةً واحدةً، وهي غسلُ اليدين وغسلُ الوجهِ بما يُستخرجُ من الأشجارِ أو من البقرِ، ثمّ يغسلونَ بعدَه بالماءِ الطّاهرِ، ولا غُسلَ عليهم للجنابةِ والاختتانِ، والزكوةُ واجبةٌ عليهم من جميعِ أموالِهم أنْ يخرجُوا الثُلْثَ منها للفقراءِ والمضطرّين من أهلِ ملّتهِم ومن غيرِهم، وفي اصلاح القناطرِ وكنسِ الأنهارِ وعمارةِ الأرضِ، وينكحون من النساءِ ما شاؤوا وكيفَ شاؤوا ولا يقع الطلاقُ إلاّ بأحدِ ثلاثةِ الأشياء: الزنا والسِحر وتركِ الدِين، والسُكرُ والزنا والسرقةُ عليهم حرامٌ، وعقوبةُ الزاني أن يُضربَ ثلاثَ مائةِ خشبةٍ، أو يؤخذَ منه ثلاثمائة إستارٍ[2] فضّةٍ، ومَنْ سرقَ وشهدَ عليه ثلاثةُ عدولٍ وأقرّ خُرمَ أنفهِ وأُذنه، ويسمّون ذلك درويشَ ويغرمُ مثلَ قيمةِ ما سرقَ، فإنْ عادَ وسرقَ ثانياً، اكتفى عليه بشاهدَيْن عَدْلين وقامتِ العلامةُ مقامَ شاهدٍ وخُرِمَ في أنفِه وأُذنِه في موضعٍ آخرِ وغُرّم مثلَ قيمةِ ما سرَق، فإن عادَ وسرَق ثالثاً اكتفى منه بشاهدٍ وخرِمَ في أنفِه وأذنٍ من موضعٍ آخر، وغُرم قيمةَ ما سرق، فإن عاد وسرقَ رابعاً لم يُستشهدْ عليه بعدَ ذلك وغُرّم كلَّ ما ادَّعى عليه الخصمُ، ومَنْ قطعَ الطريقَ أُخذَ منه قيمةَ ما أخذَ أربعَ مراتٍ وقُتلَ، ومَنْ خرجَ عن الوُلاةِ فعقوبتُه أوّلَ مرّةٍ قطعُ اليدين من المِعصمِ، وفي

---

(١) النيروز: أحد أعياد الفرس ومعناه يوم جديد وعرّبته العرب فقلبوا الواو فقالوا نيروز. صبح الأعشى جـ ١/ ٤٩١.

(٢) الإستار: في الوزن أربعة مثاقيل ونصف.

الثانيةِ قطعها من الذراعِ، وفي الثالثةِ من الكتفِ، وفي الرابعةِ ضربُ العنقِ، فإنْ كانَ في خروجه على السُلطانِ لم يجنِ شيئاً بيدِهِ ولكنّه قالَ قولاً مواجهةً فُقِئت عيناهُ فإن كانَ سعى سعياً قُطعتْ رجلاه، وأحكامُهم في المواريثِ عجيبةٌ، فلو أنّ رجُلاً ماتَ وخلّفَ امرأةً وابنين وابنةً فإن المرأةَ إنْ شاءتْ أخذتْ مَهرَها ويجبُ على وَرَثةِ زَوْجها إمساكُها والانفاقُ عليها ما عاشتْ، وإنْ لم يكنْ لها منهُ ولدٌ فإن المالَ والمرأتان موقوفان أن تتزوّج المرأةُ فإذا تزوّجتِ المرأةُ رُفعتِ النفقةُ عنها، وإنْ ماتَ رجلٌ وخلّفَ أباً وأخاً دُفعَ المالُ إلى الأبِ على أن يتزوّج امرأةً ويُولدُ لها ولدٌ باسم هذا المتوفّي ليكونَ المالُ له، وكذلك الأخُ لا يَرِثُ شيئاً إلاّ على هذهِ الشريعةِ، وكذلك إنْ كانَ للمتوفّي أُختان دفعَ المالُ إلى الكُبرى على أن تتزوّجَ رجلاً وتَلِدَ غلاماً تسميّه باسم هذا المتوفّي، ويُدفع المالُ إليه، فإنْ كانتْ الكبيرةُ متزوّجةً دفعَ المالُ إلى الصغيرةِ على هذه الشريطةِ، وإنْ كانتا متزوّجتَيْن دُفعَ المالُ إلى مَنْ يضمُن إيلاد ولدٍ باسمِ المتوفّي ويدفعُ المالُ إليها، ويكونُ المالُ له، وجملةُ هذا البابِ أنّه إذا كان للمتوفّي ولدٌ كان المالُ كلُّه له، وإنْ لم يكنْ لهُ ولدُ فلمَنْ يقبلُ هذا الشرطَ.

ذكرُ مذاهبِ الخرّميّةِ:

همْ فِرَقٌ وأصنافٌ غيرَ أنّهم يجمعونَ القولَ بالرجعةِ، ويقولَون بتغييرِ الاسمِ وتبديلِ الجسمِ، ويزعمون أنّ الرسلَ كلَّهم على اختلافِ شرائِعهم وأديانِهم يحصلونَ على روحٍ واحدٍ، وأنَّ الوحي لا ينقطعُ أبداً، وكلُّ ذي دين مُصيبٌ عندَهم إذا كان راجِي ثوابٍ وخاشيَ عقابٍ، ولا يرون تهجينَه والتخطّيء إليه بالمكروهِ ما لم يَرُمْ كيدَ ملّتِهم وخسفَ مذهبِهم، ويتجنّبون الدّماء جدًّا إلاّ عندَ عقدِ رايةِ الخلافِ، ويعظمون أمرَ أبي مسلم[1]، ويلعنون أبا جعفر على قتلِهِ، ويكثرون الصلاةَ على مهدي بن فيروز لأنّه من ولدِ فاطمةَ بنتِ أبي مُسلم، ولهُم أئمّةٌ يرجعون إليهم في الأحكامِ ورسلٌ يدورون بينهَم ويسمّونهم فريشتكانَ، ولا يتبرّكون بشيء مثلَ تبرّكهِم بالخمورِ والأشربةِ، وأصلُ دينِهم القولُ بالنورِ والظلمةِ، ومَنْ شاهدنا منهم في ديارِهم ماسبذان ومهرجان قَذَق فإنّا وجدناهُم في غايةِ التحرّي للنظافةِ والطّهارةِ والتقرّبِ إلى النّاسِ بالملاطفةِ بتقديمِ الصنيعةِ، ووجدنا مِنْهم مَنْ يقولُ بإباحةِ النساءِ على الرضا منهنّ وإباحةِ كلِّ ما يستلذّ النفسُ وينزعُ إليه الطبعُ ما لم يُعدْ على أحدٍ

---

(١) هو أبو مسلم الخُراساني: قائد كبير، أحد أقطاب الحركة الدينية السياسية التي أدّت إلى انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، قتله الخليفة العباسي «المنصور» سنة (١٣٧ هـ) «منجد الأعلام».

بالضررِ.

ذكرُ شرائعِ أهلِ الجاهليّةِ:

كانَ فيهم مِن كلِّ ملّةٍ ودينٍ، وكانتِ الزندقةُ والتعطيلُ في قريشٍ، والمزدكيّةُ والمجوسيّةُ في تميمٍ واليهوديّة والنصرانيّةُ في غسّانٍ، والشِرْكُ وعبادةُ الأوثانِ في سائرِهم، واتّخذ بنو حنيفة[1] إلهاً من حيسٍ، وعبدُوه دهراً، ثم أصابتْهم مجاعةٌ فأكلُوه فقالَ بعضُهم: [كامل].

أكلــــتْ حنيفـــــةُ ربَّهــــا   زمــنَ التقحُّـم والمجـاعَـةْ
لــم يحــذروا مــن ربّهــم   سُــوءَ العــواقــبِ والتبــاعــه

وقال آخرُ: [خفيف].

أكلتْ ربَّها حنيفةُ من جُو   عٍ قـديـمٍ بهـا ومِـنْ إعْـواز

وكانَ في مشركيهم بقيّةٌ من دينِ إسماعيل عليه السلام كالنكاحِ والختانِ والمناسكِ وتعظيمِ الأشهرِ الحُرُمِ وغيرِ ذلك، وأحدثوا أمرَ الحُمْس من قريشٍ فكانَ لا يخرجُون من الحَرَمِ، ولا يقفونَ مع النّاسِ بعرفاتٍ، ويقولُون نحنُ آلُ اللهِ لا نخرجُ من حرمِهِ، وكانَ الرجلُ من الغرباءِ إذا قَدِم مكّةَ لا يطوفُ في الثوبِ الذي قارفَ فيه الذّنْبَ، فإنْ أصابَ من ثيابِ الحُمْسِ طافَ فيه، وإنْ لم يُصِبْ طافَ الرجلُ بالنهارِ عُرياناً والمرأةُ بالليل عُريانةً، وكانتِ الحُمْسُ لا يَسْلِئُون السمن[2]، ولا يأقطونَ الأقِط[3]، ولا يأكلونَ اللحمَ أيّامَ الموسمِ، وكانوا لا يدخلونَ البيوتَ من أبوابها، ويقولُون لا ينبغي أن يحول بيننا وبينَ السماءِ شيءٌ، وكانوا يحرّمونَ من النساءِ ما حرّمه الله عزَّ وجلَّ في القرآنِ إلاّ امرأة الأبِ فانزلَ اللهُ سبحانَه **﴿ولا تنكحوا ما نكحَ أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾** [النساء: ٢٢] وكانوا يبحرونَ البحيرة[4]، ويسيّبونَ السائبة، ويَصِلون الوصيلةَ، ويحمونَ الحامي، ويستقسمون بالازلام، ويقرّبونَ القربانَ وغيرَ ذلك ممّا هو مذكورٌ في أخبارِهم وأشعارِهم،

---

(١) رَهْطُ مسيلمة الكذاب الذي تنبأ في زمن النبي «ﷺ» وهم بنو حنيفة بن لحيم بن صعب بن علي بن بكر ابن وائل. صبح الأعشى ١/ ٣٩٢.

(٢) يسلئون السمن: يصفونه.

(٣) الأقطِ: الجُبن.

(٤) البحيرة: الناقة التي شُقّت أذنها.

فأبطَل اللهُ عزَّ وجلَّ بأحكامِ الإسلامِ أكثرِها، وكانوا يقولُون إنَّ روحَ الميّتِ تخرجُ من قبرِهِ وتصيرُ هامةً فتقولُ اسقوني اسقوني ومن ثَمَّ قالَ ذو الأصْبعَ: [بسيط].

يـا عَمْـرُو إن لـم تـدَعْ سبّي ومَنْقصتـي أُضْـرِبْـكَ حتّـى تقـولُ الهـامـةُ اسقـونـي

ومنهم مَنْ كانَ يؤمنُ بالبعثِ والنشورِ بعدَ الموتِ، ويزعُم أنّ مَنْ عُقرتْ مطيّتُه عندَ قبرِهِ حُشرَ عليها وفيه يقولُ حُرَيْثةُ: [كامل].

وأحملْ أباك على بعيرٍ صالحٍ ويقـى البقيّـةَ إنـه هـو أقـربُ

ذكرُ شرائعِ اليهودِ:

همْ أصنافٌ فمنهم: العانانيّةُ والاشمعيشيّةُ والجالوتيّةُ والفيُوميّةُ والسامريّةُ والعُكبَرية والاصبهانيّةُ والعِراقيّةُ والمغاربةُ والشرستانيّةُ والفلسطينيّةُ والمالكيّةُ والربّانيّةُ، فأمّا عانان فإنّه يقولُ بالتوحيدِ والعَدْلِ ونفي التشبيه؛ واشمعثُ يقولُ بخلافِهِ، وجمهورُ اليهودِ على هاذَيْن الرجلينِ، وأمّا سائرُ المخالفين فإنّه يقعُ الخلافُ بينهم في الشيء بعد الشيء؛ وزادَ رأسُ جالوت في التشبه على اشمعثَ حتّى يزعمُ أنّ معبودَه شيخٌ اشمطُ، واحتجَّ أنّه وجدَ في سِفر دانيالَ: رأيتُ قديمَ الأباءِ قاعداً على كرسيٍّ أبيضَ الرأسِ واللحيةِ حولَه الأملاكُ فهم يسمّونَ الجالوتيّة، وأمّا الفيُوميّةُ فصاحبُهم أبو سعيد الفيوميّ يفسّرونَ التوراة على الحروفِ المقطّعةِ كما يفعله الباطنيّةُ في الإسلامِ، وأمّا السامريّةُ فإنّهم ينكرونَ كثيراً من شرائِعهم ولا يُقرّون بنبوّةِ مَنْ كانَ بعدَ يوشعَ بنِ نونٍ مثلَ داودٍ وسليمانَ وزكريا ويحيى وغيرهم يزعمونُ أنّهم ليسَ لهُمْ في التوراة اسمٌ؛ وأمّا العُكبريّةُ فأصحابُ أبي موسى البغداديّ العُكْبري يخالفونَهم في أشياء من السبتِ وتفسيرِ التوراة؛ وأمّا الاصبهانيّةُ فأصحابُ أبي عيسى الأصبهانيّ وادّعى النبوّةَ وأنّه عرجَ إلى السماءِ فمسَح الربُّ رأسَه، وأنّه رأى محمّداً في السماءِ فآمنَ به؛ ويهودُ أصبهانَ يزعمونُ أنّ الدجّالَ منهم يكونُ ومن ناحيتِهم يخرجُ، وأمّا العراقيّةُ مخالفون الخُراسانيّة في أوقاتِ أعيادِهم ومُددِ أيّامِهم؛ وأمّا المغاربةُ فإنّهم يرونَ السَفَر في السبتِ وطبخَ القدورِ فيه؛ وأمّا الشرستانيّةُ فإنّهم أصحابُ شرستان[1] زعَمَ أنّه ذهبَ من التوراةِ ثمانون بسوقةً، ومعنى بسوقة آيةٌ، ويدَّعى أنّ للتوراة تأويلاً باطناً مخالفاً لظاهرِها؛ وأمّا يهودُ فلسطينَ فإنّهم يزعَمون أنّ عُزيراً ابنُ الله على جهةِ التكرمةِ والرحمةِ كما

---

(١) شرستان: وردت في معجم البلدان جـ ١/ ٣٦٦ باسم (باب شورستان: وهي محلّة بمرو).

يُقالُ إبراهيمُ خليلُ الله؛ وكثيرٌ من اليهودِ يُنكرون هذا القولَ؛ والواجبُ أن تعلمَ مذاهبَهم ليتبيّن وجهُ الحقِّ فلا يُنسبُ إلى كلِّ فرقةٍ إلاّ ما يَنْحَلُونه؛ وأمّا المالكيّةُ فإنّهم يقولُون: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يُحيي يومَ القيامةِ من الموتى إلاّ مَنْ قدْ احتجَ عليه الرُسُلُ والكُتُب، ومالكُ هذا تلميذُ عانان؛ وأمّا الربّانيّةُ فإنّهم يزعمونَ أنّ حائضاً لو مسَّتْ ثوباً من الثيابِ المنضودةِ وجبَ الغُسلُ على جميعِ الأثوابِ، والعراقيّةُ يأخذرن رؤوسَ الشهورِ بالأهِلّةِ، والآخرونَ يأخذون بالعددِ والحساب.

ذكرُ أحكامِهم:

واجبٌ عليهم الإيمانُ باللهِ وحدَه وبموسى رسولِهِ وبالتوراة وما فيها والعشرِ الآياتِ لا بُدَّ لهم من درسِها وتعلمها؛ وأمّا وضؤُهم وإغتسالهُم فمثلُ طهارة المسلمين سَواءٌ غيرَ أنّه ليسَ فيه مسحُ الرأسِ، ويبدؤُون بالرِّجْل اليُسْرى، واختلفُوا في شيءٍ منه، قال عانانُ: يستنجى قبلَ الوضوء لأنّ الإنسانَ لا يطهرُ ما لم يُمِط الأذى عنهُ، وقالَ اشمعث: يستنجي بعدَ الوضوءِ لأنّه يجوزُ أن يغسلَ وجهَه بعد الاستنجاءِ، ولا يتوضّؤون بماءٍ قد تغيّر لونُه أو طعمُه أو ريحُه، ولا يُجيزون الطهارةَ من غديرٍ ما لم يكنْ عشرةُ أذرُعٍ في عشرٍ، والنومُ قاعداً لا ينقضُ الوضوءَ ما لم يضَعْ جنبَه، ومَنْ أحدثَ في صلاتِه من قيءٍ أو رُعافٍ أو ريحٍ انصرفَ وتوضّأ وبنى على صلاته، ولا يجوزُ للرجلِ الصلاةُ في أقلِّ من ثلاثةِ أثوابٍ قميصٍ وسراويلٍ ومُلاءَةٍ يتردّى بها، فإنْ لم يجدْ المُلاءَة صلّى جالساً وإنْ لم يجْد القميصَ والسراويلَ صلّى بقلبِهِ، ولا يجوزُ الصلاةُ للمرأةِ في أقلِّ من أربعةِ ثيابٍ والصلاةُ فرضٌ عليهم في اليومِ والليلةِ ثلاثَ صلواتٍ إحداهنّ عندَ الصبحِ، والثانيةُ بعدَ الزّوالِ إلى غروب الشّمسِ، والثالثةُ وقتِ العتمةِ إلى أن يمضي من الليلِ ثُلُثُه يسجدون في دبُر كلِّ صلاةٍ سجدةً طويلةً، ويزيدون يومَ السبتِ وأيّامَ الأعيادِ خمس صلواتٍ سِوَى ما كانُوا يصلّونها، فلهم خمسةُ أعيادٍ: عيدُ الفطرِ وهو يومَ الخامسَ عشرَ من نيسان، وهو سبعةُ أيّامٍ يأكلون فيها الفطير، وينظّفون بيوتهم من خبزِ الخميرِ لأنّها الأيّامُ التي خلّص الله فيها بني إسرائيلَ من يدِ فرعون، وأغرقَه في اليمِّ، فخرجُوا من البحرِ، وجعلُوا يأكلونَ اللحَم والعجينَ الفطيرَ؛ وعيدُ الأسابيعِ بعدَ عيدِ الفطرِ سبعةُ أسابيعٍ، وهو الذي كلّم اللهُ فيه بني إسرائيلَ من طُورِ سيناء، وعيدُ رأسِ الشهْرِ: وهو أوّلُ يومٍ من تشرينَ يزعمون أنّه يومُ فُدِيَ فيه إسحقُ عليه السلام من الذّبحِ، ويسمّونه عيدُ راش هشنا أي عيدُ رأسَ الشهرِ؛ وعيدُ صوما ربَّا معناهُ الصومُ العظيمُ، ويزعمون أنّ الله عزَّ وجلَّ يغفُر لهم في ذلك اليومَ جميعَ ذنوبهم وخطاياهم إلاّ ثلاثاً الزنا لمُحْصَنةٍ وظلمِ الرجلِ أخاهُ

وجَحْدِه ربوبيّةِ الله، وعيدُ مظلّي يستظلّون سبعةَ أيّام بقُضبانِ الآسِ والخِلافِ[1]، ويزعمُ بعضُهم أنّ بني إسرائيلَ انتهَوْا في هذهِ الأيّامِ إلى مفازةٍ فاستظلّوا بالشجرِ، وكانَ واجباً عليهم الحجُّ في كلِّ سنةٍ ثلاثَ مرّاتٍ حينَ كانَ الهيكلُ عامراً والمذبحُ قائماً؛ وأمّا الصومُ فيجب عليهم صومَ أربعةِ أيّامٍ يومَ السابعَ عشرَ من تموزَ وحدَه من غروبِ الشمسِ إلى غروبِ الشمسِ، ويزعمون أنّ هذا اليومَ الذي كسرَ فيه بُختُ نصّر سُورَ أوريشلم يعني بيتَ المقدسِ، ودخلَها، والثاني يومُ العاشرِ من آبٍ، والثالثُ يومُ العاشرِ من كانون الأوّلِ، والرابعُ يومُ الثالثَ عشرُ من آذار؛ وأمرُهم في الحيضِ والحائضِ شديدٌ يجبُ عليهم أن يعتزلوها، وثيابُها وأوانيها وما مسَّته الحائضُ من شيء فقد نجسَ ووجبَ أنْ يُغسلَ، وإن مسَّتْ لحمَ القربانِ وجبَ أن يُحرقَ ذلك اللحمُ بالنارِ ومَنْ مسَّ الحائضَ أو خبزتْ أو طبختْ أو غسلتْ فكلُّه نجسٌ حرامٌ على الطّاهرينَ، وحلٌّ للحُيَّضِ، ومَنْ غَسَل ميّتاً وجَبَ عليه أن يغتسلَ سبعةَ أيّامٍ لا يصلّي فيها ويغسلونَ الموتى، ولا يصلّون عليهم، وأمّا الزكاة فالواجبُ عليهم أن يخرجَ العُشْرَ من أموالِهم كائناً ما كانَ من السّوائمِ والناضّ[2] ولا يجبُ العُشرُ في شيءٍ من أموالِهم دونَ مائةٍ عددياً كانَ أو وزنياً لأنّ ما لا يخرجُ منه عُشرُ العُشرِ لا يجبُ فيه العُشرُ، وكلُّ ما أُخرجَ منه مرّةً واحدةً فليسَ فيه إعادةُ العُشر.

وأمّا نكاحهُم فلا يصحُّ إلاّ بوليّ وخُطبَةٍ وثلاثةِ شهودٍ ومهرِ مائتَيْ درهم للبكرِ ومائةٍ للثيّب[3]، فإنْ كان أقلَّ من ذلك لم يَجُزْ، ويُحضَرُ عندَ عقدِ النكاحِ كاسٌ من خمرٍ ودستجةٌ[4] من ريحان فيأخذُ الإمامُ الكاسَ فيبرّكُ عليها ويخطبُ خُطبةَ النكاحِ، ثمّ يدفعُه إلى الخَتنِ ويقولُ قَدْ تزوّجت فلانةٌ بهذه الفضّةِ أو بهذا الذهبِ، وهو خاتمٌ في يده وبهذه الكاسِ من الخمرِ وبمهرِ كذا درهم، ويشربُ منها جُرعةً، ثمّ ينزلون إلى منزلِ الجاريةِ ويأمرونها أن تأخذَ الخاتمَ والريحانَ والكأس من يدِ الختنِ، فإذا أخذتْ وشربتْ منها جُرعةً يُعقدُ النكاحُ، ويضمن أولياءُ المرأة البكارة[5]، فإذا زُفّتْ وكّلَ أبو المرأةِ رجُلاً وامرأةً ببابِ البيتِ الذي يقتضُّها فيه الزوجُ، وفرشوا لها ثياباً بيضاً فإذا الزوجُ نظرَ إلى الثيابِ وشهِدَ بما

---

(١) الخِلافَ: صنفٌ من الصفصاف.
(٢) الناضّ: الدّرهم والدّينار.
(٣) الثيّب: المرأة التي فارقت زوجها بموتٍ أو طلاقٍ.
(٤) دستجة: حزمة (فارسية).
(٥) البكارة: كون المرأة عذراء.

رايا اقتضّها فإنْ لم يجدْها بكراً رُجْمت، ولا يجوزُ لهم التمتّعُ بالإماءِ إلاّ أنّ يعتقوهنّ وينكحوهنّ، ومَنْ واقَع امرأته فقدْ عتقتْ عليه وأيّ عبدٍ عملَ لمولاه سنينَ معلومةً فقدْ عتقَ، ومَنْ احتاجَ من اليهودِ جاز له بيعُ أولادهِ إذا كانوا صِغاراً غيرَ مدركين، كذا هم في شريعةِ بني إسرائيل.

وأمّا طِلاقهُم وخلعُهم فإنهم لا يجوزُ لهم ذلك إلاّ أن يقفوا منهم على زِنا أو سِحْرٍ أو رفض دينٍ، ومَنْ أرادَ أن يطلّقَ امرأته فإنْ كانتْ بِكراً أتى بخمسةٍ وعشرين درهماً، وإنْ كانْت ثيّباً أتى باثني عشَر درهماً ونصفَ، وأحضر الإمامَ والشهودَ وكِتابَ الطلاقِ، وقَالَ لها: إنت طالقٌ منّي مائة مرّة ومختلعةٌ منّي وفي سَعَةٍ أنْ تتزوّجي مَنْ شِئْتِ، ولا يقعُ الطلاقُ على الحاملِ بتّةً، وللرجلِ أن يراجعَ امرأته ما لم تتزوّج انقضتْ عدّتُها أم لم تنقضِ، فإذا تزوّجتْ حُرّمتْ على الزوج الأوّلِ أبداً.

وحكمُهم في البيوعِ أنّه ما لم ينقلِ المشتري ما اشتراهُ إلى حيثُ شاء، وسلّمُه إليه البائعُ فإنّهما بالخيارِ والحدودِ عندَهم على خمسةِ أوجُه: الحِرْقِ والقتلِ والرجمِ والتعزيرِ والتغريمِ أمّا الحرقُ: فعلى مَنْ زنى بأمّ امرأتهِ أو بربيبتهِ، أو بامرأةِ ابنهِ، والقتلُ: على مَنْ قَتلَ؛ والرجمُ: على المُحْصنِ إذا زَنا أو لاط، وعلى المرأةِ إذا مكنتْ البهيمةُ من نفسها؛ والتعزيرُ: على من قذفَ؛ والتغريمُ: على مَنْ سرقَ، والبينّةُ: على المُدّعي، واليمينُ: على مَنْ أنكرَ.

وهذه سبعةٌ وثلاثون عملاً مَنْ أتى بواحدٍ منها في السبتِ أو في ليلةِ السّبتِ استحقَّ القتلَ: تكريبُ الأرضِ زرعُ الأرضِ حصدُ الزرعِ سياقةُ الماءِ إلى الزرعِ ضربُ المِمْخَضةِ حلبةُ اللبنِ كسرُ الحطبِ إيقادُ النّارِ عجنُ العجينِ خَبزُ الخُبزِ خياطةُ الثوبِ نسجُ السُّلكِ كتابةُ حرفَيْنِ أخذُ الصّيدِ ذبحُ الحيوانِ الخروجُ من القريةِ التحويلُ من موضعٍ إلى موضعِ الشرى والبيعِ الدقُّ والطحنُ والاحتطابُ قطعُ الجُبنِ دقُّ اللحم إصلاحُ النَّعلِ إذا انقطعتْ خَلْطُ عَلَفِ الدابّةِ، ولا يجوزُ للكاتبِ أن يخرج يومَ السبتِ منْ منزلهِ ومعهُ قلمُه، ولا الخيّاطُ أن يخرجَ ومعهُ إبرتُه، ومَنْ أتى بشيء استحقَّ به القتلَ فلم يسلّم نفسَه فهو معلونٌ.

ذكرُ شرائعِ النّصارى:

وفيهم اختلافٌ وفِرَقٌ فمنهم الملكانيّةُ والنسطوريّةُ واليعقوبيّةُ والبرذعانيةُ والمرقونيّةُ والفوليّةُ وهُم الرهاويّون الذين بنواحي حرّان وأصنافٌ حادثةٌ غيرها، ولا يخالفون في أشياء

كثيرةً، ومنهم مَنْ يذهبُ مذهبَ الحرّانيّةِ بعينِهِ، ومنهم مَنْ يقولُ بالنّورِ والظلمةِ والثنويّةِ يقولون أجمعَهم بنبّوةِ المسيحِ، ومنهم مَنْ يعتقدُ مذهبَ ارسطاطاليس، ويجرّ كتابهم إلى تصويبِ ذلك؛ فأمّا الملكانيّةُ واليعقوبيّةُ والنسطوريّةُ فمتّفقونَ على أنَّ معبودَهم ثلاثةُ أقانيم[1]، وهذه هي الأقانيمُ الثلاثةُ: شيءٌ واحدٌ وهو جوهرٌ قديمٌ ومعناه أبٌ وابنٌ وروحُ القدسِ، إلهٌ واحدٌ، وأنّ الابنَ نزلَ من السماءِ فتدرّعَ جسداً من مريمَ، وظهرَ للناسِ يُحيي ويُبْرِىءُ ويُنبِي، ثُمّ قُتِلَ وصُلِبَ وجُرح، فخرجَ من القبرِ لثلاثٍ، وظهرَ لقومٍ من أصحابهِ، وعرفُوه حقَّ معرفتهِ، ثُمّ صعدَ إلى السّماءِ فجلسَ عن يمينِ اللهِ هذا الذي يجمعُهم اعتقادُه غيرَ أنّهم يختلفُون في العبارةِ والعِلَلِ، فمنهم مَنْ زَعَم أنّ القديمَ جوهرٌ واحدٌ، وثلاثةُ أقانيمَ كلٌّ واحدٌ، منها جوهرٌ خاصٌّ وَأحدُ هذه الأقانيمِ أبٌ واحدٌ غيرُ مولودٍ، والآخرُ ابنٌ مولودٌ وغيرُ والدٍ، والثالثُ روحُ فائضةٌ منثنيةٌ بينَ الأبِ والابنِ، وزعَم أنَّ الابنَ لم يزلْ مولوداً ابنَ الابنِ الابنِ، والأبَ لم يزلْ والداً لا على جهةِ النكاحِ والتناسلِ لكن على جهةِ تولّد ضياءِ الشّمسِ من ذاتِ الشّمسِ، وتولّد حرِّ النّارِ من ذاتِ النّارِ، ومنِهم مَنْ يزعُم أنّ معنى قولِهم إنَّ الإله ثلاثةُ أقانيمِ إنّها ذاتٌ لها حياةٌ ونطقٌ، فالحياةُ هي روحُ القُدسِ، والنطقُ هو العلمُ، والحكمةُ والكلمةُ النطقُ، والعلمُ والحكمةُ والكلمةُ عبارةٌ عن الابنِ كما يُقال: الشمسُ وضياءُها وحرُّها فهو عبارةٌ عن ثلاثةِ أشياءِ ترجعُ إلى أصلٍ واحدٍ، ومنِهم مَنْ زعَم أنّه لا يصحُ له تثبيتُ الإله فاعلاً حكيماً إلاّ أن يثبتّه حياً ناطقاً، ومعنى الناطقِ العالمُ المميّزُ لا الذي يخرجُ الصوتَ بالحروفِ المركّبةِ، ومعنى الحيّ عندَهم مَنْ له حياةٌ بها يكونُ حياً، ومعنى العالمِ مَنْ له علمٌ به يكونُ عالماً، قالُوا فذاتُه وعلمُه وحياتُه ثلاثةُ أشياءٍ، والأصلُ واحدٌ، فالذاتُ هي العلّة للاثنين اللذَيْن العلمُ والحياةُ، والاثنان هما المعلولان للعلّةِ، ومنِهم مَنْ يتجنّبُ اللفظَ بالعلّةِ والمعلول في صفةِ القديمِ فيقولُ أبٌ ابنٌ ووالدٌ وروحٌ وحياةٌ وعلمٌ وحكمةٌ ونطقٌ، قالوا: والابنُ اتُّحد إنساناً مخلوقاً فصارَ هو وما اتّحد به مسيحاً واحداً، وأنّ المسيحَ هو إلهُ العبادِ وربُّهم، ثمّ اختلفُوا في صفةِ الاتّحادِ، فزعَم بعضُهم أنّه وقعَ بينَ جوهرٍ لاهوتّي وجوهرٍ ناسوتي اتّحادٌ فصارَ مسيحاً واحداً، ولم يُخرِج الاتحادُ كلَّ واحدٍ منهما عن جوهريّتِهِ وعنصرِهِ، وأنّ المسيحَ إلهٌ معبودٌ، وأنّه ابنُ مريمَ الذي حملتْه وولدتْه، وأنّه قُتِلَ وصُلِب، وزعَم قومٌ أنّ المسيحَ بعدَ الاتّحادِ جوهران أحدُهما: لاهوتّي، والآخرُ: ناسوتيّ، وأنّ القتلَ والصّلبَ وقعا به من جهةِ ناسوتهِ لا من جهةِ لاهوتِهِ، وأنّ مريمَ حملتْ بالمسيحِ

---

(١) الأقانيم: جمع أقنوم: الأصل (سريانية).

وولدته من جهة ناسوتهِ لا من جهةِ لاهوتهِ، وهذا قولُ النسطوريةِ، ثُمّ يقولُون إنّ المسيحَ بكمالهِ إلهٌ معبودٌ وأنّه ابنُ الله مع اختلافٍ كثيرٍ، ويزعُمُ بعضُهم أنّ الاتّحادَ وقعَ بينَ جوهرين لاهوتي وناسوتي، وجوهرُ اللاهوتي بسيطٌ غيرُ منقسمٍ ولا يتجزّء، ومنهم مَنْ يقولُ أنّ الاتّحادَ على جهةِ حلولِ الابنِ في الجسدِ ومخالطتهِ إيّاه، ومنهم مَنْ يقولُ الاتّحادُ على جهةِ الظهورِ كظهورِ كتابةِ الخاتمِ والنقشِ إذا وقعَ على الطّينِ والشمعِ وكظهورِ صورةِ الإنسانِ في المرآةِ، واعلمْ انّه لا مذهبَ اكثرَ اختلافاً في العبارةِ من النّصارى حتّى لا يكادُ يُوجَدُ منهم اثنان على قولٍ واحدٍ ويذكرهُ اللاحقيّ[1] في قصيدةٍ لهُ: [هزج].

وبالابن الأب ما دنت ... وروح منه قدسيّ

ثلاثٌ من أقانيم ... بمعنى واحدٍ اتيّ

ولاهُوتيّةٍ حأست ... بإنسانٍ ولاديّ

وليسَ هذا موضعُ الردِّ عليهم ولكن مَنْ نظرَ إلى قولهم في القديمِ وما يصفونَه بهِ من الأعراضِ الطاريةِ عليه عَلِمَ فسادَ مذهبهم واستحالةَ القديمِ أن يكونَ بشيء من تلك الصفاتِ، فالملكانيّةُ تُنسبُ إلى ملكِ الرومِ، ويقولون: اللهُ اسمٌ لثلاثةِ معانٍ: الأبِ والابنِ والجوهرِ: وهو روحُ القدسِ، والنسطوريّةُ تُنسب إلى نسطورَ رجلٍ منهم يزعمون أنّ اللهُ اسمٌ لثلاثةِ معانٍ فهو واحدٌ ثلاثةٍ وثلاثةٌ واحدٍ، واليعقوبيّةُ قالوا: هو واحدٌ قديمٌ، وإنّه كانَ لا جسمَ ولا إنسانَ ثمّ تجسّم وتأنّس، والفوليّةُ قالوا: الله واحدٌ، وعلمُه قديمٌ معهُ، والمسيحُ ابنهُ على جهةِ الرّحمةِ كما يُقالُ إبراهيمُ خليلُ الله، والمرقونيّةُ يزعمون أنّ المسيحَ يطوفُ عليهم كلَّ يومٍ طوفةً؛ والبرذعانيّة يزعمون أنّ المسيحَ هو الذي يحشُر الموتى من قبورهِم ويحاسبُهم مع ترّهاتٍ كثيرةٍ وأقاويلَ مردودةٍ لعنَهم اللهُ وقبّحَ مذهبَهم.

ذكرُ أحكامِهم:

لا بدَّ من تنصيرِ أولادهم وذلك أنّهم يعمدونَ إلى مَنْ يريدون تنصيرَه فيغمسونَه في ماءٍ قد أُغلي بالرياحين وألوانِ الطيبِ في إجّانةٍ[2] جديدةٍ، ويقرؤون عليه شيئاً من كتابهِم،

---

(١) إمام ثقة حافظ، «علي بن عثمان بن عبد الحميد بن لاحق اللاحقي البصري من علماء الحديث بالبصرة، حدَّث عن حماد بن سلمة وابن أبي الفرات مات بالبصرة سنة ٢٢٨ هـ» سير النبلاء ٥٦٨/١٠.

(٢) إجّانة: إناءٌ تغسلُ فيه الثياب.

ويزعمونَ أنّه ينزلُ عليه روحُ القدسِ، ويسمّون هذا العملَ المعموديّة، وطهارتُهم غسلُ اليدينِ والوجهِ وليسَ الختانُ عليهم بفرضٍ، وصلاتُهم سبعٌ، وقبلتُهم المشرقُ، وحجُّهم إلى البيتِ المقدّسِ، وزكاتُهم العُشرُ من جميعِ أموالِهم، وصيامهُم خمسون يوماً، ويكونُ اليومُ الثاني والأربعون منه عيد السعانين، ويزعمون أنّ هو اليوم الذي نزلَ فيه عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام من الجبل، ودخلَ بيتَ المقدسِ، وبعدَه بأربعةِ أيّامِ عيدُ الفِصْحِ؛ وهو اليومُ الذي خرجَ فيه موسى عليه السلام ببني إسرائيلَ من مصر، وبعدَه بثلاثةِ أيّامِ عيدُ القيامةِ وهو اليومُ الذي يزعمون أنّ عيسى عـم خرجَ من قبرهِ بعدَ ما قُتِلَ ودُفن، وبعدَه بثمانيةِ أيّامِ عيدُ الجديدِ ويزعمون أنّه اليومُ الذي ظهرَ فيه عيسى لتلامذتهِ بعدَ ما خرجَ من القبرِ، وبعدَه بثمانيةٍ وثلاثين يوماً عيدُ السُلّاقِ ويزعمون أنّه اليومُ الذي صعدَ فيه عيسى إلى السماءِ ولهم أعيادٌ سِوَى ما ذكْرنا: عيدُ الصليب، وهو اليومُ الذي وجدوا فيه خشبةَ الصّليبِ وإنّما علمُوا ذلك أنّه وضعَ عل ميتٍ فُحيّيَ بزعمِهم، وعيدُ الدِنّحِ وعيدُ الميلادِ، ولهم قرّاؤون وكهنةٌ منهم شمّاسٌ وفوقه القُسُّ وفوقَ القُسِّ الأسقُفُ وفوقَ الاسقفِ المطرانُ وفوقَ المطرانِ البطريقُ؛ والسُكْر حرامٌ عليهم، ولا يحلُّ لهم اللحمُ والجماعُ في الصومِ، وكلُّ ما بِيع في الأسواقِ ولم يعِفْه أنفسهم فمباحٌ لهم، ولا يصحّ نكاحُهم إلاّ بحضورِ شمّاسٍ والعدولِ والمهرِ، ويحرمون على النّساء ما حرّم المسلمون، ولا يحلُّ لهم الجمعُ بينَ امرأتين ولا التسرّي بالجواري[1] إلاّ أن يعتقوهنّ ويتزوّجوهنّ، وأيُّ عبدٍ من عبيدِهم خدمَهم سبَع سنين فقدْ عُتِقَ ولايحلُّ للرجلِ طلاقٌ إلاّ أن يأتي بالفاحشةِ فقد طلّقتْ، ولا يحلُّ له أنْ يتزوج بها أبداً، وحدودُهم: الرَجْمُ للمُحصَنِ والمحصنةِ فإنْ كانا غيرَ محصنين وعلقتِ المرأةُ من الرّجلِ زوّجتْ به، ويُقتل قاتلُ العمدِ، والواجبُ على قاتلِ الخَطاءِ أن يهربَ، وليسَ للمَوتُورِ أن يطلبةَ لما أُمرُوا به من استعمالِ العفوِ، وكثيرُ من أحكامهم أحكامُ التوراةِ وقد لعَن منهم اللوطي والشاهدُ بالزُورِ والمقامرُ والزاني والسِكّيرُ هذه أحكامهُم واللهُ أعلمُ.

(١) التسرّي بالجواري: اتخذهن سرّيةً.

فهرس المحتويات